نيكوس كازنتزاكس

تقرير إلى غريكو

(سيرة ذاتية فكرية)

@ketab_n
Follow Me
18.5.2015

ترجمة: ممدوح عدوان

المركز الثقافي العربي

نيكوس كازانتزاكيس

تقرير إلى غريكو

(سيرة ذاتية فكرية)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الكتاب

تقرير إلى غريكو

تأليف

نيكوس كازانتزاكيس

ترجمة

ممدوح عدوان

الطبعة

الأولى، 2002

عدد الصفحات : 448

القياس : 17 × 24

جميع الحقوق محفوظة

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 ـ 352826

فاكس: 343701 ـ 1 961+

Twitter: @ketab_n

كتابة «تقرير إلى غريكو»

كان نيكوس كازانتزاكيس يطلب من ربه أن يمد في عمره عشر سنوات أخرى يكمل بها عمله ـ يقول فيها ما كان عليه أن يقول و«يفرغ نفسه». وكان يريد أن يأتيه الموت فلا يأخذ منه إلا كيساً من العظام. عشر سنوات تكفي. أو هذا ما كان يظنه.

إلا أن كازانتزاكيس لم يكن من النوع الذي يمكن أن «يفرغ». من دون إحساس بالشيخوخة أو التعب، في الرابعة والسبعين من عمره، كان يعد نفسه متجدد الشباب حتى بعد مغامرته الأخيرة، والحقنة المفجعة.

وتبادر إلى ذهنه المتخصصان العظيمان في «فريبرج»: اختصاصي الدم هيلمير والجراح كراوس.

طوال الشهر الأخير كان البروفسور هيلمير يهتف بعد كل زيارة: «أقول لكم إن هذا الرجل معافى. ودمه أصبح سليماً مثل دمي».

وكنت أعنف نيكوس دائماً: «لم تركض هكذا؟»، خشية أن ينزلق على الأرضية الحجرية ويكسر عظماً من عظامه. وكان يجيب: «لا تقلقي يا لينوتسكا. إن لدي أجنحة». وكان في وسع المرء أن يحس بالثقة التي لديه في تكوينه وفي روحه، تلك الثقة التي كانت ترفض أن تمرغ.

كان، أحياناً، يتنهد: «آه. لو أنني، أستطيع أن أملي عليك فقط». ثم يحاول أن يكتب وهو يمسك بالقلم بيده اليسرى.

ـ لم العجلة؟ من يطاردك؟ لقد فات الأسوأ. وخلال أيام قليلة ستكون قادراً على الكتابة بما يرضي قلبك.

وكان يلفت رأسه ويحدق إلي طويلاً من دون أن يتكلم. وبعد ذلك يتنهد ويقول: «لدي الكثير جداً مما يجب أن أقول. تعذبني مرة أخرى ثلاثة موضوعات، ثلاث روايات جديدة. ولكن علي أن أنهي غريكو أولاً».

Twitter: @ketab_n

ـ سننهيه. لا تقلق.

ـ إنني أخطط لتغييره. أتناولينني ورقة وقلماً؟ دعينا نرى إن كنت أستطيع التدبر.

إلا أن عملنا المشترك لم يكن يستغرق أكثر من خمس دقائق.

«مستحيل! لا أعرف كيف أملي، لا أستطيع أن أفكر إلا والقلم في يدي». الأسلاف، الأبوان، سنوات الطفولة. أثينا، كريت، الرحلات. . سيكيانوس، فيينا، برلين، بريفيلاكيس، موسكو. .

أتذكر الآن لحظة دقيقة أخرى من حياتنا، في مستشفى أخرى. وهذه المرة في باريس. كان نيكوس مريضاً ودرجة حرارته 104، والأطباء مضطربون. لقد فقد الجميع أملهم. نيكوس، وحده، ظل متماسكاً.

«أتعطينني قلماً يا لينوتسكا؟»

وبصوت متهدج، وهو غائب في رؤياه، أملى علي، الكلمات التي ينطق بها القديس الفرنسيسكاني: «قلت لشجرة اللوز: حدثيني عن الله يا أخت، فأزهرت شجرة اللوز».

وقبل أن نرحل إلى الصين ترك «تقرير إلى غريكو» بين يدي رسام شاب هو «قابِلَتُه» ـ كما كان يسميه ـ لأنه كان يأتي من الفجر، ويصعد إلى مكتبة نيكوس مشوشاً بمشكلات عظيمة ـ عن الله والناس والفن ـ ويبدأ أسئلته اللامتناهية عن «متى»، و«فيما إذا»، و«كيف»، بينما نيكوس «مستسلم»، وهو يضحك معجباً بحرارة الشاب وحبه الجارف لفنه. كان يلقي بأفكاره ويريح نفسه. قال له نيكوس: «قد يحترق البيت. ولذا سأترك المخطوطة معك. فلو أنها احترقت وهي في هذه المرحلة فإنني لن أستطيع إعادة كتابتها أبداً. إن خجلي كبير لأنني لم أنهها».

ولكن كيف كان من الممكن أن ينهيها؟ وما الذي تركه غير منجز في تلك الأشهر القليلة السابقة للرحلة؟

لقد بدأ «التقرير» في خريف 1956 إبان عودتنا من فيينا. وحين كان يحتاج لتغيير الجو، كان يتناول «الأوديسة» لهوميروس، التي كان يعمل بها بالتعاون مع البروفسور كاكريديس.

«علينا أن ننهيها في الوقت المناسب، بحيث لا أنزل إلى هيدس[1] برجل عرجاء». هذه العبارة التي اعتاد ترديدها بشيء من السخرية، وشيء من الخوف. وخلال تلك الأشهر ذاتها واظبت مقاطع من ترجمته الإنجليزية للأوديسة على الوصول في فترات متعددة، مصحوبة بصفحات كاملة من الكلمات العصية على الترجمة. كم من الوقت، وكم من الجهد استهلكت الأوديسة من جديد. هذا بغض النظر عن الطبعات المتعددة لأعماله الأخرى اليونانية. كانت

(1) هيدس: مثوى الأموات في الميثولوجيا اليونانية.

Twitter: @ketab_n

هناك نصوص يجب أن تصحح أو يضاف لها، و«روسيا»، المخطوط الذي ضاع، وبيير سيبربو في الإذاعة الفرنسية الذي أنهكه بأحاديثه، والفيلم، ورحلة إلى الهند بدعوة من نهرو. تهيأنا لها ولكننا لم نقم بها، لأننا خفنا من اللقاحات التي تتطلبها.

لا. إنه لم يبتغ إنهاء «التقرير إلى غريكو» في الوقت المحدد. إذ لم يكن قادراً على كتابة مسودة ثانية، كما كانت عادته. كان يبتغي أن يعيد كتابة الفصل الأول بكامله وأحد المقاطع الختامية «حين أثمرت بذرة الأوديسة في داخلي»، الذي أرسله قبل وفاته لكي ينشر في دورية «نياأستيا Neaestia». بالإضافة إلى ذلك كان يبتغي إنهاء قراءة مخطوطته وإجراء تنقيحات أو إضافات بالقلم هنا وهناك.

أستعيد وأنا وحدي الآن فجر الخريف الذي كان يهبط بغاية الهدوء واللطف كطفل صغير مع الفصل الأول.

«اقرئي يا لينوتسكا. اقرئي ودعيني أسمع».

«أجمع أدواتي: النظر والشم واللمس والذوق والسمع والعقل. خيم الظلام وانتهى عمل النهار. أعود كخلد إلى بيتي، الأرض، ليس لأني تعبت وعجزت عن العمل. أنا لم أتعب. لكن الشمس قد غربت..».

لم أستطع المتابعة. برز نتوء في حلقي. كانت هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها نيكوس عن الموت.

ـ لم تكتب وكأنك تستعد للموت؟

هكذا صرخت بيأس حقيقي، وقلت لنفسي: «لم قَبلَ الموت اليوم؟».

ـ لا تقلقي يا زوجتي فأنا لن أموت. أجاب دون أي تردد: «ألم اقل إنني سأعيش عشر سنين أخرى؟». أصبح صوته الآن أكثر خفوتاً. ثم مد يده ليلمس ركبتي: «هيا بنا الآن. اقرئي. دعينا نرى ماذا كتبت».

لقد أنكر الأمر أمامي. ولكن ربما كان يعرف به في أعماقه. ففي تلك الليلة ذاتها وضع الفصل في مغلف وأرسله إلى صديقه بانتديليس بريفيلاكيس: «هيلين لم تستطع أن تقرأه. فقد أخذت تبكي. إلا أن من الخير لها ـ ولي أيضا ـ أن تتعود..».

ويبدو أن شيطانه الداخلي قد حثه على ترك (فاوست: الجزء الثالث) الذي كان يرغب في كتابته، وأن يطلق بدلاً منه سيرته الذاتية.

«التقرير» مزيج من الواقع والخيال. كمية كبيرة من الحقيقة والحد الأدنى من التخيل. لقد تم تغيير عدة تواريخ فيه. ولكن حين يتحدث عن الآخرين فإنها الحقيقة دون تغيير: ما رآه تماماً وما سمعه؛ وحين يتحدث عن مغامراته الشخصية فإن هناك بعض التعديلات. إلا أن هناك شيئاً واحداً مؤكداً وهو أنه لو استطاع إعادة كتابة هذا «التقرير» لغيرّه. أما كيف؟ فهذا ما

Twitter: @ketab_n

لا نعرفه. كان سيُغنيه. ذلك أنه كان يتذكر أحداثاً جديدة قد نسيها. كما أنه، أيضا، كان سيسكبه، كما أعتقد، في قالب الحقيقة. فقد كانت حياته الفعلية مليئة بالمادة: الألم والفرح والعذاب.. وبكلمة واحدة كانت حياته مليئة بالعزة. لم كان سيغير حياته؟ ليس بسبب اللحظات الصعبة من الضعف والانطلاق والألم. بل على العكس من ذلك أن هذه اللحظات الصعبة ذاتها هي التي كانت تتحول لدى كازانتزاكيس إلى درجات جديدة تساعده على الصعود أعلى فأعلى ـ الصعود حتى الوصول إلى القمة، التي وعد نفسه بالتسلق إليها قبل هجر أدوات العمل بسبب هبوط الليل. لقد توسل إلى مكافح آخر قائلاً: «لا تحكموا عليّ بأعمالي ولا تحكموا عليّ من وجهة نظر الإنسان. بل احكموا عليّ من وجهة نظر اللّه ـ ومن الهدف المختصر وراء أعمالي».

هكذا كان يجب أن نحكم على كازانتزاكيس. ليس بما فعله، وما إذا كان ما فعله ذا قيمة سامية أم لا. بل علينا أن نحكم عليه بما أراد أن يقوم به، وما إذا كان لما أراد أن يقوم به قيمة سامية له ولنا أيضاً.

بالنسبة لي أعتقد أنه كانت له هذه القيمة. وفي السنوات الثلاث والثلاثين التي قضيتها إلى جانبه لا أذكر أنني خجلت من تصرف واحد قام به. كان نقياً ودون مكر، وبريئاً وعذباً، بلا حدود، مع الآخرين، وقاسياً مع نفسه فقط. وحين ينسحب إلى عزلته، فإنه كان يفعل ذلك لإحساسه أن الأعمال المطلوبة منه قاسية وأن ساعاته محدودة.

لقد اعتاد أن يقول لي، وعيناه الفاحمتان المدورتان غارقتان في الظلمة ومليئتان بالدموع: «أحس كأنني سأفعل ما يتحدث عنه برغسون ـ الذهاب إلى ناصية الشارع ومد يدي للتسول من العابرين: زكاة يا إخوان، ربع ساعة من كل منكم. آه على بعض الوقت. ما يكفي فقط لإنهاء عملي، وبعدها فليأت كيرون[2]».

وجاء كيرون ـ عليه اللعنة! ـ وحصد نيكوس في زهرة شبابه. نعم أيها القارئ العزيز. لا تضحك. فقد كان ذلك هو الوقت المناسب للازدهار والإثمار بالنسبة لكل ما بدأه ذلك الرجل الذي أحببته والذي أحبك، صديقك نيكوس كازانتزاكيس.

جنيف، 15 حزيران 1961

هيلين. ن. كازانتزاكيس

---

(2) شيرون أو كيرون أو خيرون هو إله الموتى. أو ناقل أرواح الموتى إلى هيدز (أو هيدس).

Twitter: @ketab_n

تقديم

«تقريري إلى غريكو» ليس سيرة ذاتية. فحياتي الشخصية لها بعض القيمة، وبشكل نسبي تماماً، بالنسبة لي وليس بالنسبة لأي شخص آخر. والقيمة الوحيدة التي أعرفها فيها كانت في الجهود من أجل الصعود من درجة إلى أخرى للوصول إلى أعلى نقطة يمكن أن توصلها إليها قوتها وعنادها؛ القمة التي سميتها تسمية اعتباطية بـ «الإطلالة الكريتية».

ولذلك فإنك، أيها القارئ، ستجد في هذه الصفحات الأثر الأحمر الذي خلفته قطرات من دمي، الأثر الذي يشير إلى رحلتي بين الناس والعواطف والأفكار. كل إنسان، يستحق أن يدعى بابن الإنسان، عليه أن يحمل صليبه ويصعد جلجلته. كثيرون، والحقيقة معظمهم، يصلون إلى الدرجة الأولى أو الثانية، ثم ينهارون لاهثين في منتصف الرحلة، ولا يصلون إلى ذروة الجلجلة؛ بمعنى آخر ذروة واجبهم. أن يُصلبوا، وأن يبعثوا، وأن يخلصوا أرواحهم. تضعف قلوبهم لخوفهم من الصلب، وهم لا يدرون أن الصليب هو الطريق الوحيد للبعث، ولا طريق غيره.

كانت هناك أربع درجات حاسمة في صعودي. وتحمل كل منها اسما مقدساً: المسيح، بوذا، لينين، أوليس. ورحلتي الدامية بين كل من هذه الأرواح العظيمة والأرواح الأخرى هي ما سوف أحاول جاهداً أن أبين معالمه في هذه «اليوميات»، بعد أن أوشكت الشمس على المغيب ـ إنها رحلة إنسان يحمل قلبه في فمه وهو يصعد جبل مصيره الوعر والقاسي. فروحي كلها صرخة. وأعمالي كلها تعقيب على هذه الصرخة.

طوال حياتي كانت هناك كلمة تعذبني وتجددني، وهي كلمة «الصعود». وسأقدم هذا الصعود. وأنا أمزج هنا الواقع بالخيال، مع آثار الخطى الحمراء التي خلفتها ورائي وأنا أصعد. وإنني حريص على الانتهاء بسرعة قبل أن أعتمر «خوذتي السوداء»، وأعود إلى التراب. لأن هذا الأثر الدامي هو العلامة الوحيدة التي ستبقى من عبوري إلى الأرض.

فكل ما كتبته أو فعلته كان مكتوباً أو محققاً على الماء، وقد تلاشى.

Twitter: @ketab_n

إنني أوقظ ذاكرتي لأتذكر. أحشد حياتي من الهواء. وأضع نفسي كجندي أمام جنراله. لكي أكتب «تقرير إلى غريكو». ذلك أن غريكو معجون من التربة الكريتية ذاتها التي عجنت، أنا، منها[1]. وهو قادر على فهمي أكثر من مكافحي الماضي والحاضر كلهم. ألم يخلف الآثار الحمراء نفسها على الصخور؟

* * *

ثلاثة أنواع من الأرواح، ثلاث صلوات:

1 ـ أنا قوس بين يديك يا إلهي فشدني لئلا أتفسخ.

2 ـ لا تشدني كثيراً يا إلهي لئلا أتحطم.

3 ـ شدني كثيراً يا إلهي فمن سيهتم لتحطمي!؟

(1) سيتضح أن كازانتزاكيس يكتب مذكراته، على شكل تقرير عن حياته يقدمه إلى جده غريكو، الرسام المشهور ذو الأصول اليونانية.

Twitter: @ketab_n

تمهيد

أجمع أدواتي: النظر والشم واللمس والذوق والسمع والعقل. خيم الظلام وقد انتهى عمل النهار. أعود، كالخلد، إلى بيتي، الأرض. ليس لأنني تعبت وعجزت عن العمل، فأنا لم أتعب، ، لكن الشمس قد غربت.

لقد غربت الشمس. وأصبحت التلال معتمة. ولا تزال حواف جبال عقلي تحتفظ بالقليل من الضوء على قممها. لكن الليل المقدس يهبط.

إنه ينهض من الأرض وينزل من السماء. وقد أقسم الضوء أن لا يستسلم. غير أنه يدرك أن لا خلاص. لن يستسلم. لكنه سيخمد. ألقي نظرة أخيرة حولي. لمن سأقول وداعاً، ولأي الأشياء؟ للجبال أم للبحر أم للعريشة المحملة بالعناقيد على شرفتي؟ للفضيلة أم للخطيئة، أم للماء العذب؟.. عبثاً، عبثاً. فكلها ستنزل معي إلى القبر.

لمن أبث أفراحي وأحزاني ـ أشواق الشباب السرية والوهمية؟ الصدام العنيف مع اللّه والناس؟ وأخيراً الكبرياء الوحشية في الشيخوخة، التي تحترق وترفض، حتى الموت، أن تتحول إلى رماد؟ ولمن أحكي عن المرات العديدة التي فيها انزلقت وسقطت وأنا أتسلق أربعات[1] في صعودي الوعر الشاق إلى الله، المرات التي نهضت فيها مضرجا بالدم لأعود مرة أخرى إلى الصعود؟ أين أستطيع أن أجد روحاً عنيدة بآلاف الجراح مثل روحي، لكي تستمع لاعترافي؟ بهدوء وإشفاق أعتصر كمشة من التراب الكريتي في راحتي. كنت أحتفظ بهذه التربة معي دائماً، خلال تجوالي. فأنا أضغطها في كفي في لحظات الألم الكبير فأستمد منها القوة، القوة العظيمة، كأنني أستمدها من الضغط على يد صديق حبيب وغال. أما الآن وقد غربت الشمس وأنجز العمل، فما الذي أستطيع أن أفعله بالقوة؟

لم أعد بحاجة إليها. إنني أمسك بهذه التربة الكريتية وأعتصرها بفرح جليل وبرقة وامتنان وكأنني أعتصر في كفي نهد امرأة أحببتها لأودعها.

---

(1) يقصد كل أربع درجات في قفزة واحدة.

Twitter: @ketab_n

هذه التربة هي التي ما كنته دائما وأبداً. وهذه التربة هي ما سأكونه دائماً وأبداً.آه يا طين كريت القاسي!! لقد انزلقتْ كومضة فريدة تلك اللحظة التي اعتصرت بها وتشكلت في هيئة إنسان مكافح.

أي كفاح كان في هذه القبضة من الطين؟ وأي ألم؟ وأية مطاردة لهذا الوحش آكل البشر غير المرئي؟ وأية قوى قدسية وشيطانية معاً؟ لقد جبلت بالدم والعرق والدموع، أصبحت وحلاً، أصبحت إنساناً وابتدأت صعودها. لتصل إلى ماذا؟ لقد تسلقت لاهثة نحو عظمة اللّه القاتمة ومدت ذراعيها وتلمست. تلمست بجهد جهيد علها تجد وجهه.

وحينما يدرك الإنسان هذا في سنواته الأخيرة، وبيأس، أن هذه العظمة القاتمة ليس لها وجه، أي كفاح جديد بكل صفاقة ورعب، يعاني ليشق طريقه إلى تلك القمة الشائكة ويعطيها وجهاً! هو وجهه!

ولكن الآن وقد أنجز عمل النهار فإنني أجمع أدواتي. فلتأت كمشات أخرى من التراب ولتتابع الكفاح. فنحن، الفانين، جماعة عمل الخالدين، دمنا مرجان أحمر. ونحن نبني جزيرة فوق الهاوية.

لقد تحقق الله. وأنا أيضا قد أسهمت بحصاتي الحمراء الصغيرة، قطرة الدم، لكي أجعله صلباً، ولكي لا يتلاشى ـ لعله يمنحني الصلابة فلا أتلاشى.لقد أديت واجبي.

وداعاً!

أمد يدي وأمسك مزلاج الأرض لأفتح الباب وأمضي. غير أنني أتردد لحظة صغيرة على العتبة النيرة: عيناي وأذناي وأحشائي تجد أنه من الصعب، وأنه لمن أقسى الأشياء، أن تسلخ نفسها عن حجارة العالم وعشبه. يستطيع المرء أن يقول لنفسه إنه مكتف وإنه ينعم بالهدوء والسلام. ويستطيع القول إنه لم يعد يحتاج لشيء، وإنه قد أدى واجبه وإنه مستعد للرحيل. لكن القلب يقاوم. يتمسك بالعشب والحجارة ويتوسل: «ابق قليلاً!».

وأجاهد لتعزية قلبي وجعله ينسجم مع إعلان الموافقة بحريّة. يجب أن نغادر الأرض ليس كعبيد ممزقين ومجلودين، بل كملوك ينهضون عن المائدة وهم ليسوا في حاجة إلى شيء، بعد أن أكلوا وشربوا حتى الامتلاء.ولكن القلب لا يزال يخفق داخل الصدر ويقاوم صارخا: «ابق قليلاً!».

أبقى. وألقي نظرة على الضوء. هو الآخر يقاوم ويصارع كقلب الإنسان. الغيوم قد غطت السماء. ورذاذ دافئ يتساقط على شفتي. ورائحة الأرض تعبق. ويصدر عن التراب صوت حلو مُغوٍ: «تعال.. تعال.. تعال..».

الرذاذ يغزر. ويتنهد طائر الليل الأول، ويتساقط ألمه مع الهواء المبلل، بحلاوة رائعة عن الخضرة الملفعة بالليل.سلام وحلاوة هائلة.لا أحد في البيت. وفي الخارج كانت

Twitter: @ketab_n

المروج الظمأى تتشرب أول زخات الخريف بامتنان وسعادة صامتة، لقد رفعت الأرض نفسها كالرضيع نحو السماء لترضع.

أغمض عيني وأنام ممسكاً بكمشة التراب الكريتي، كالعادة، في كفي. لقد نمت وحلمت حلماً. كان يبدو وكأن النهار قد بزغ. وكان نجم الصباح يتأرجح فوقي. وأنا، الواثق من أنه كان على وشك السقوط على رأسي، ارتجفت وركضت. ركضت وحيداً عبر الجبال الموحشة المجدبة. ومن أقصى الشرق ظهرت الشمس. لم تكن الشمس بل كانت صحناً برونزياً مقمراً مليئاً بالفحم المشتعل. بدأ الهواء يضطرب. وبين الحين والحين كان حجل يندفع من الريف الصخري يضرب بجناحيه ويقوقي ساخراً مني بقهقهة. وطار غراب، من انحدار في الجبل، في اللحظة التي رآني فيها. لاشك أنه كان ينتظر ظهوري. طار ورائي يتابعني وهو يتفجر بالضحك. انحنيت غاضباً والتقطت حجراً لأرميه به. لكن الغراب حوّل جسده وصار رجلاً عجوزاً صغير الجسم ينظر إليّ باسماً.

ملجوماً بالرعب بدأت أركض من جديد. كانت الجبال تتزوبع، وأنا أتزوبع معها في دوائر تضيق باستمرار. غلبني الدوار. كانت الجبال تتواثب حولي. وبغتة أحسست أنها ليست جبالاً، بل بقايا مستحاثات لدماغ حيوان مما قبل الطوفان. وفوقي، على يميني، كان هناك صليب مطوق بالصخور الهائلة، وثعبان برونزي هائل مصلوب عليه. وعبرت ذهني ومضة نيّرة أضاءت الجبال من حولي فرأيت. لقد دخلت الوادي المتعرج الرهيب الذي عبره العبرانيون بقيادة يهوه منذ آلاف السنين عند هربهم من أرض فرعون السعيدة. هذا الوادي قد أسس الحدادة النارية التي تطرّق بها بنو إسرائيل عبر الجوع والعطش والكفر.

تملكني الخوف. خوف ممزوج بفرح عظيم. انحنيت على صخرة لكي أهدئ جيشان أفكاري. وأغمضت عيني. وبغتة تلاشى كل شيء من حولي. وامتد أمامي خط ساحلي يوناني: بحر نيلي الزرقة معتم وصخور حمراء. بين الصخور ممر منخفض يؤدي إلى كهف مظلم. وامتدت يد من الهواء أوقدت مشعلاً في يدي. فهمت الأمر. انحنيت وانزلقت في الكهف. تجولت وتجولت في مياه سوداء متجمدة. نوازل زرقاء مدلاة فوق رأسي وصواعد صخرية هائلة تبرز من الأرض متلاحقة ومتضاحكة تحت ضوء المشعل. هذا الكهف كان مجرى نهر كبير غير مجراه عبر العصور فهجره وتركه فارغاً.

هسهس الثعبان البرونزي غاضباً. فتحت عيني، فرأيت الجبال والوادي والمنحدرات الصخرية من جديد. توقف الدوار. ثبت كل شيء، وامتلأ بالضوء. فهمت: بالطريقة ذاتها استطاع يهوه أن يشق طريقه بين الصخور الهائلة المحيطة بي. لقد دخلت المجرى الرهيب وكنت أتبع ـ أخطو ـ على آثاره.

صرخت في حلمي: «هذا هو الطريق. هذا طريق الإنسان. وهو الطريق الوحيد!». وما إن خرجت هذه الكلمات الجريئة من فمي حتى لفّتني زوبعة ورفعتني أجنحة. وبغتة وجدت

Twitter: @ketab_n

نفسي على قمة سيناء. كانت رائحة الكبريت تملأ الهواء. وكانت شفتاي تؤلمانني، وكأن شرارات لا حصر لها تخترقهما. فتحت جفني. لم يسبق لعيني ولم يسبق لأحشائي أن استمتعت بمنظر لا إنساني بهذه الحدة، ومتوافق مع قلبي بهذا المقدار. بلا ماء، ولا أشجار، ولا كائن بشري، ولا أمل. هنا تستطيع نفس الإنسان الفخور أو اليائس أن تجد السعادة المطلقة.

نظرت إلى الصخرة التي أقف عليها. كان هناك تجويفان عميقان محفوران في الغرانيت. لا بد أنهما آثار قدمي النبي ذي البوق الذي كان ينتظر ظهور الأسد الجائع. ألم يأمر (أي الله) النبي أن ينتظر على قمة جبل سيناء؟ لقد انتظر.

وانتظرت أنا أيضاً. انحنيت فوق حافة الجرف، وأصغيت بانتباه. وبغتة سمعت الرعد الهادر لخطوات بعيدة. بعيدة جداً. شخص ما كان يقترب. واهتزت الجبال وابتدأ منخراي يرتعشان. صار للهواء من حولي رائحة كرائحة الفحل الذي يقود القطيع. «إنه قادم، إنه قادم». تمتمت بهذه الكلمات وأنا أستعد. كنت أهيئ نفسي للقتال. أه، كم تقت للّحظة التي سأجابه بها هذا الوحش الضاري القادم من الغابة الكبرى. أجابهه وجهاً لوجه دون أن يتدخل العالم المرئي الصفيق ويضللني! متى سأجابه ذلك (الأب) اللامرئي النهم الطيب القلب الذي يلتهم أبناءه، والذي تقطر شفتاه ولحيته وأظافره دماً؟

سأتحدث إليه بجرأة، سأحكي له عن معاناة الإنسان ومعاناة الطير والشجر والصخر. كنا جميعا مصممين، برغبة، على الموت. وأمسكت بيدي استرحاماً وقّعت عليه الأشجار والطيور والوحوش والبشر: «يا أبانا، لا نريدك أن تأكلنا!». سأعطيه هذا الاسترحام ولن أخاف.

تحدثت وتوسلت بهذه الطريقة وأنا أستعد وأرتعد.

وفيما أنا منتظر كان يبدو أن الحجارة تتحرك. وسمعت أنفاساً عظيمة.

همست: «انظروا إليه! لقد أتى».

التفت مرتعشاً لكنه لم يكن يهوه. لم يكن يهوه. بل كنتَ أنت أيها الجد القادم من تربة كريت الحبيبة. كنت تقف أمامي نبيلاً صارماً بلحيتك الصغيرة البيضاء كالثلج، وبشفتيك الجافتين المضمومتين ونظرتك المنتشية المليئة باللهب والأجنحة وجذور الزعتر متشابكة مع شعرك.

نظرت إلي. وحين نظرت إلي أحسست أن هذا العالم كان غيمة ملفعة بالريح والصواعق. وأن روح الإنسان غيمة ملفعة بالريح والصواعق و أن الخلاص غير موجود. رفعت عيني لأنظر إليك. وكنت على وشك أن أسألك يا جدي، إن كان صحيحاً أن الخلاص غير موجود؟ لكن لساني التصق بحلقي. كنت على وشك الاقتراب منك. ولكن ركبتي ارتختا تحتي.

Twitter: @ketab_n

عندما مددت يدك وكأنني أغرق؛ وكأنك تريد أن تنقذني.
تمسكت بها ملهوفاً. كانت مزينة برسوم متعددة الألوان. يبدو أنك لا تزال ترسم.
كانت الكف تحترق. اكتسبت قوة وزخماً من لمستي لها وصرت قادراً على الكلام.
ـ مرني أيها الجد الحبيب.
وأنت تبتسم وضعت كفك على رأسي. لم تكن كفاً بل ناراً ملونة، واخترق اللهيب دماغي حتى الجذور.
ـ توصل إلى ما تستطيعه يا بني.
كان صوتك حزيناً وقاتماً وكأنه خارج من حنجرة الأرض العميقة.
وصل الصوت إلى أعماق عقلي لكن قلبي لم يهتز. وصرخت بصوت أعلى:
ـ أعطني أمراً أكثر صعوبة، أكثر كريتية.
ولم أكد أنهي كلامي حتى شقّ الهواء لهب مهسهس. وتلاشى السلف العصي ذو الجذور الزعترية المتشابكة عن ناظري. وتبقّت صرخة على قمة جبل سيناء. صرخة علوية مترعة بالأمر. وارتعش الهواء: «توصل إلى ما لا تستطيع».

* * *

استيقظت مرعوباً، كان النهار قد طلع. نهضت واتجهت إلى الأبواب الفرنسية وخرجت إلى الشرفة ذات العريشة المثقلة بالعناقيد. كان المطر قد توقف الآن. وكانت الحجارة تتلامع وتتضاحك والأوراق على الأشجار مثقلة بالدموع. «توصل إلى ما لا تستطيعه».
كان صوتك. ولم يكن في وسع أحد في العالم غيرك أن ينطق بهذا الأمر الرجولي. ألست القائد اليائس، الذي لا يستسلم، لعرقي المكافح؟ ألسنا الجرحى والمتضورين والحمقى والعنيدين الذين خلفنا الضيق والثقة وراءنا من أجل أن نهاجم الحدود، تحت إمرتك، لسحقهم؟
الله هو الوجه الأكثر ألقاً لليأس، والوجه الأكثر ألقاً للأمل. وأنت يا جدي تدفعني إلى ما وراء الأمل واليأس وإلى ما وراء حدود الشيخوخة.
فإلى أين؟ إنني أحدق فيما حولي وأحدق في داخلي. لقد جنت الفضيلة. وكذلك جنت الهندسة والمادة. ويجب أن يعود العقل المانح للقوانين من جديد لتأسيس نظام جديد ووضع قوانين جديدة. يجب أن يتحول العالم إلى هارموني أغنى.
هذا ما تريده. وهذا هو ما تدفعني إليه، وما كنت تدفعني إليه دائماً. وكنت أسمع أمرك ليل نهار. لقد كافحت بأقصى ما أستطيع للوصول إلى ما لم أستطعه. وجعلت هذا واجبي. وصار الأمر متوقفاً عليك لكي تخبرني ما إذا كنت قد نجحت أو فشلت. وها أنذا اقف منتصباً أمامك وأنتظر!

* * *

Twitter: @ketab_n

يا سيدي الجنرال. إن المعركة تقترب من نهايتها. وها أنا أعد تقريري. وفيه أين كافحت وكيف. لقد سقطت جريحاً، ووقعت في الحب، ولم أهرب. ورغم أن أسناني كانت تصطك من الخوف، فإنني عصبت جبيني بمنديل أحمر واندفعت مهاجماً.

وقبل أن أنتزع الريش الثمين من روحي الغرابية، ريشة بعد أخرى إلى أن تبقى كتلة صغيرة من الطين مضمخة بالدم والعرق والدموع، سأحكي لك كفاحي ـ لأخفف عن نفسي. سألقي بالفضيلة والخجل والحقيقة ـ لأخفف عن نفسي. إن روحي تشبه خلقك «توليدو ـ طليطلة ـ في العاصفة» الملفعة بالصواعق الصفراء والغيوم السوداء الكثيفة والمكافحة بيأس في معركة لا تراجع فيها ضد كل من الضوء والظلمة. سترى روحي، وستزنها بين حاجبيك الرمحيين وستحكم. أتذكر القول الكريتي الحزين: «عد إلى حيث فشلت، وغادر من حيث نجحت». فإن فشلت سأعاود الهجوم حتى لو لم تبق إلا ساعة واحدة من العمر. وإن كنت قد نجحت فسأفتح الأرض لكي آتي وأضطجع إلى جانبك. فأصغ، إذن، لتقريري، يا سيدي الجنرال.

أصغ إلى حياتي، فإن كنت قد كافحت معك، وإن كنت قد سقطت جريحاً، ولم أسمح لأحد أن يعرف بآلامي ومعاناتي وإن كنت لم أدر ظهري للعدو: فامنحني بركتك!

Twitter: @ketab_n

51

الأسلاف

أتطلع إلى نفسي وأرتعد. فمن جهة والدي كان أسلافي، على الماء، قراصنة متعطشين للدماء، أو عصابات على اليابسة، لا يخافون اللّه ولا الإنسان. ومن جهة أمي كانوا فلاحين طيبين وقذرين ينحنون بثقة على الأرض طوال النهار: يبذرون وينتظرون واثقين المطر والشمس، ويحصدون. وفي المساء يجلسون على المقاعد الصخرية أمام بيوتهم يعقدون أذرعهم ويضعون أملهم في الله.

النار والتراب. كيف أوفق بين هذين السلفين المتناقضين في داخلي؟ أحسست أن هذا واجبي: أن أصالح بين المتعاديين، أن أسحب ظلمة السلف من جنبي وأحولها، بأقصى ما يمكنني، إلى ضوء.

أليس أسلوب اللّه هكذا؟ أوليس واجبنا أن نطبق هذا الأسلوب مقتفين آثاره. حياتنا ومضة سريعة لكنها كافية.

الكون كله يتبع هذا الأسلوب وهو لا يدري. وكل كائن حي مشغل، يقوم فيه الإله سراً بعمله وتحويله للطين. لهذا تزهر الأشجار وتثمر. ولهذا تتكاثر الحيوانات. ولهذا تجاوز القرد قدره ووقف منتصباً على قدميه. والآن، وللمرة الأولى منذ أن خلق العالم، تمكن الإنسان من دخول المشغل الإلهي والعمل إلى جانبه (إلى جانب اللّه). وكلما استطاع أن يحول اللحم إلى حب وبسالة وحرية أصبح بحق ابناً للّه. إنه واجب عات لا يشبع. ولقد كافحت عبر حياتي ولا أزال أكافح. إلا أن ذرة من الظلمة تظل موجودة في قلبي. وباستمرار يتجدد الصراع. إن الأسلاف العجائز الأبويين مغروسون في أعماقي. ويظلون في تموجهم. ومن الصعب علي أن أتميز وجوههم في الظلمة الحالكة. وكلما توغلت أكثر في بحثي عن أول سلف رهيب في أعماقي وأنا أتغلغل في ركام روحي ـ الفرد، القومية، والأجناس البشرية ـ قهرني رعب مقدس. في البدء تبدو الوجوه كوجه أخ أو وجه أب، ثم، ما إن أتعمق نحو الجذور حتى يبرز بين جنبي سَلَفٌ كثيف الشعر كبير الفكين يجوع ويظمأ ويخور

Twitter: @ketab_n

وعيناه مليئتان بالدم. هذا السلف هو الوحش الضخم الأشعث الذي أعطي لي لكي أحوله إلى إنسان ـ ولأرفعه إلى ما يسمو على الإنسان إن استطعت في الوقت المخصص لي. فأي صعود مخيف من قرد إلى إنسان! ومن إنسان إلى إله!

ذات ليلة كنت أتمشى مع صديق على جبل عال مغطى بالثلوج. تهنا وخيم علينا الظلام. لم تكن هناك غيمة واحدة في السماء. وكان القمر أخرس مكتملاً ومعلقاً فوقنا. تلامع الثلج أزرق شاحباً طوال الطريق من قمة الجبل، حيث وجدنا أنفسنا، إلى السهول تحتنا. كان الصمت متحجراً ومقلقاً ـ وغير محتمل. لا شك أن الليالي المغسولة بالقمر كانت مشابهة لهذه الليلة منذ آلاف الدهور. وذلك قبل أن يكون هذا الصمت غير محتمل. فأخذ الخالق الطين وصنع منه إنساناً.

كنت أتقدم صديقي بخطوات قليلة، وكان عقلي يلفه دوار غريب. تعثرت كسكران. وبدا لي، وأنا أمشي، كأني أمشي على القمر أو أنني، قبل مجيء الإنسان، موجود على أرض مغرقة في القدم وغير مأهولة، ولكنها مألوفة جداً. وبغتة، عند أحد المنعطفات لمحت أضواء خافتة نشع بشحوب من بعيد قرب قاع المسيل. لابد أنها قرية صغيرة لا يزال أهلها مستيقظين. عندها حدث لي شيء غريب لا أزال أرتعد حين أتذكره.

توقفت وأشرت بقبضتي المشدودة إلى القرية وصرخت غاضباً: «سأذبحكم جميعاً!».

صوت أجش ليس صوتي! بدأ جسدي كله يرتعش خوفاً حالما سمعت هذا الصوت. وركض صديقي إليّ وشدّ على ذراعي بقلق. سألني: «ما بك؟ ومن ستذبح؟». تراخت ركبتاي وأحسست بتعب لا يوصف. ولكنني استعدت وعيي حين رأيت صديقي أمامي. «ليس أنا. لم يكن أنا. كان شخصاً آخر». قلت له هامساً.

كان فعلاً شخصاً آخر. ولكن من؟ لم يسبق لأعضائي الحيوية أن تفتحت بهذا العمق وهذا الكشف. فمنذ تلك الليلة صرت متأكداً مما تكهنت به منذ سنوات: في أعماقنا طبقة فوق طبقة من الظلمة: أصوات خشنة ووحوش جائعة كثيفة الشعر. ألا يموت أي شيء إذن؟ ألا يستطيع شيء أن يموت في هذا العالم؟ الجوع والعطش والبلاء البدائي وكل الليالي والأقمار، ما قبل مجيء الإنسان، ستستمر في الحياة والجوع في أعماقنا، ستظمأ معنا ما دمنا نحن نعيش. لقد لجمني الرعب وأنا أسمع الحَمَل المخيف الذي أحمله في أعماقي، وقد ابتدأ يجأر. ألن أتخلص أبداً؟ ألن تنظف أعماقي أبداً؟

بين حين وآخر، وبشكل متقطع، كان هناك صوت حلو يصدر من أعماق القلب: «لا تخف. سأسن القوانين وأرسي النظام. أنا الله. فليكن لديك إيمان». ولكن بغتة تصدر دمدمة من بين جنبيّ، ويصمت الصوت العذب: «كفاك تباهياً، سأقوض قوانينك. وأدمر نظامك وأفنيك. أنا الهيولى!».

يقولون إن الشمس تتوقف، أحياناً، في مجراها لكي تستمع لغناء فتاة شابة. لو أن هذا

Twitter: @ketab_n

صحيح! لو أن الضرورة، تسحرها مغنية من هذه الأرض، وتجبرها على تغيير مجراها! لو أننا، نحن بالبكاء والضحك والغناء، نستطيع خلق قانون قادر على إقامة النظام فوق الفوضى! لو أن الصوت العذب في أعماقنا يستطيع أن يطغى على الهدير والدمدمة.

حين أكون سكراناً أو غاضباً، أو حين ألمس المرأة التي أحب، أو حين يخيفني الظلم وأرفع يدي احتجاجاً أمام الشيطان على الأرض؛ أسمع هذه العفاريت تجأر في أعماقي وتغير على باب المصيدة لكي تحطمه وتخرج مرة أخرى إلى النور وتتسلح مرة أخرى. أنا آخر الأحفاد وأحبهم في النهاية. وغيري ليس لهم أمل أو ملاذ. وكل ما يتبقى لهم للانتقام أو الاستمتاع أو المعاناة لا يستطيعون فعله إلا من خلالي. فإن فنيت فنوا معي. وحين أنقلب في القبر فإن جيشاً من الوحوش ذوات الشعر الكثيف والبشر المحزونين سينقلبون معي. ربما كان هذا ما يجعلهم يعذبونني بهذا الشكل وهذا سر عجلتهم. وربما كان هذا سبب كون شبابي قلقاً ورافضاً وتعيساً.

لقد قَتلوا وقُتلوا دون احترام للروح، سيان أرواحهم أم أرواح الآخرين. كانوا يحبون الحياة ويحتقرون الموت بالازدراء المتطرف ذاته. يأكلون كالغيلان ويشربون كالثيران. وما كانوا يمرّغون أنفسهم مع النساء حين يكون الأمر متعلقاً بالذهاب إلى الحرب. كانت جذوعهم عارية صيفاً ومتلفعة بجلود الأغنام شتاء. وفي الصيف والشتاء كانت روائحهم تفوح كحيوانات تنزو.

أحس أن جدي الأكبر ما زال يعيش في دمي. وأعتقد أنه الوحيد بينهم الذي يعيش بحيوية أعنف في شراييني. كان رأسه حليقاً فوق الجبهة وله جديلة طويلة من الخلف. وكان رفيقاً للقراصنة الجزائريين. ومعهم طاف البحار القصية.

لقد بنوا مخابئهم في جزر غرابوسا Grabousa المهجورة في الطرف الغربي من كريت. ومن هناك كانوا يحزمون أشرعتهم السوداء ويصادمون السفن العابرة. بعضها كان يبحر إلى مكة بحمولة من الحجاج المسلمين، وبعضها إلى الديار المقدسة بحمولة من المسيحيين الذين كانوا سيصبحون حجاجاً، وكان القراصنة يزعقون وهم يلقون كلاباتهم ويقفزون على السفينة وبلطاتهم في أيديهم. ودون أي احترام للمسيح أو محمد كانوا يذبحون الشيوخ ويأخذون الشبان كأرقاء وينقلبون على النساء ثم يعودون للاختباء في غرابوسا وشواربهم مبللة بالدماء وأنفاس النساء. وكانوا، في أحيان أخرى، ينقضون على الزوارق الغنية المحملة بالتوابل التي كانت تظهر من الشرق. ولا يزال العجائز يتذكرون ما يُقال من إن جزيرة كريت بأسرها كانت تفوح منها روائح القرفة وجوز الطيب لأن سلفي، الرجل ذا الجديلة قد نهب سفينة محملة بالتوابل. ولما لم يجد وسيلة لتوزيعها فقد أرسلها إلى كافة قُرى كريت كهدايا لأبنائه وبناته بالمعمودية.

وكم أثارني أن أسمع من عجوز كريتي تجاوز المئة عن هذا الحادث منذ سنوات قليلة.

Twitter: @ketab_n

ذلك أنني، دون أن أعرف السبب، كنت دائماً أحب أن أحتفظ بأنبوب من القرفة وبعض بذور الطيب معي في رحلاتي، وأمامي على طاولة الكتابة. وبالاستماع إلى الأصوات الخبيئة في أعماقي كلما نجحت في متابعى الدم بدلاً من العقل (الذي سرعان ما يلهث ويتوقف) كنت أصل بيقين صوفي إلى أقصى بداياتي السلفية، ومع الزمن تعزز هذا اليقين الغامض بإشارات ملموسة من الحياة اليومية، وعلى الرغم من أنني ظننت في البداية أن هذه العلامات عرضية، ولم ألق لها اهتماماً، إلا أنني أخيراً، بالائتلاف مع صوت العالم المرئي ومزجه مع أصواتي الداخلية الخفية استطعت أن أخترق الظلمة البدائية الكامنة تحت عقلي وأن أرفع باب المصيدة وأن أرى.

ومنذ اللحظة التي رأيت فيها بدأت روحي تتماسك وتزداد صلابة، ولم تعد تخفق وتضطرب كالمياه. لقد بدأ وجه يسمك ويتكاثف حول القلب المضيء، وهو وجهُ روحي، وبدلاً من التقدم يساراً ثم يميناً في الدروب دائمة التغيير لكي أكتشف أي وحش انحدرت منه، فقد تقدمت بثقة وكأنني أعرف وجهي الحقيقي وواجبي الوحيد: وهو أن أعمل على هذا الوجه بأكثر ما أستطيع من صبر وحب ومهارة. أن أعمل عليه؟ ما معنى هذا؟ يعني أن أحوله إلى لهب، وإن كان لدي الوقت، قبل مجيء الموت، أن أحول هذا اللهب إلى ضوء. بحيث أن شيرون لن يجد شيئاً فيّ لأخذه. وكان طموحي الأعظم هو ألا أترك للموت شيئاً يأخذه، لا شيء إلا القليل من العظام.

وما ساعدني على الوصول إلى هذه الثقة أكثر من أي شيء آخر هو التراب الذي ولد عليه أسلافي وكبروا. لقد انحدر أهل والدي من قرية تدعى «بارباري»، على بعد ساعتين من ميقالوكاسترو. وحينما استعاد الامبراطور الروماني تيسوفوروسر فوكاس «كريت» من العرب في القرن العاشر وزع العرب الذين سلموا من الذبح في عدة قرى. وقد سميت هذه القرى «بارباري». وفي قرية كهذه مد آبائي جذورهم. إن فيهم جميعاً آثاراً عربية. فهم فخورون عنيدون ومشدودو الشفاه، معتدلون في طعامهم ومعادون للجميع. كانوا يخزنون حبهم أو غضبهم سنوات عديدة في صدورهم دون أن ينبسوا بكلمة، ثم بغتة يفرشخ الشيطان فيهم فينفجرون في سعار. والفائدة القصوى بالنسبة لهم ليست الحياة بل العاطفة. وهم ليسوا طيبين ولا مجاملين. حضورهم جائر دون عناء، ليس بسبب الآخرين بل بسببهم. هناك شيطان داخليٌّ يخنقهم. وحينما يوشكون على الاختناق يتحولون إلى قراصنة أو يطعنون أذرعهم وهم في انشداه سكران لكي يسفحوا دماً ويجدوا متنفساً. وإلا فإنهم يقتلون المرأة التي يحبون خشية أن يصبحوا عبيدًا لها. أو يفعلون مثلي، أنا حفيدهم الخالي من النقي، يجهدون لتحويل الثقل القاتم إلى روح. وماذا يعني ذلك: تحويل أسلافي الهمج إلى روح؟ هذا يعني أن أطمسهم بإخضاعهم لامتحان علوي. ولا تزال أصوات أخرى تشير سراً إلى الطريق المؤدي إلى أسلافي.

Twitter: @ketab_n

قلبي يخفق فرحاً حينما أصادف نخلة، تظن كأنها تعود إلى مسقط رأسها، إلى القرية البدوية المليئة بالغبار، والمجدبة التي زينتها الثمينة هي النخلة.

حينما دخلت مرة إلى الصحراء العربية على ظهر جمل وتصفحت بنظري أمواج الرمال اللامحدودة واليائسة أمامي ـ صفراء وزهرية، وفي المساء تصبح بنفسجية دون أثر لإنسان ـ انتقلت بثمل غريب بعيداً جداً. وزعق قلبي كأنثى الصقر العائدة إلى العش الذي هجرته منذ سنوات، آلاف السنوات وقبل ذلك.

ثم حدث هذا: كنت أعيش مرة وحيداً في كوخ مهجور قرب قرية يونانية «أرعى الرياح» كما اعتاد أحد النساك البيزنطيين أن يسميها. كنت، بمعنى آخر، أكتب الشعر: وكان هذا الكوخ الصغير مدفوناً بين أشجار الزيتون والصنوبر. وكان بحر إيجه الأزرق المترامي الأطراف يبدو لي بين الأغصان أمامي. لم يكن أحد يمر بي إلا فلوروس. وهو راع بسيط مغطى بالشحوم وله لحية شقراء. كان يأتي بأغنامه كل صباح ويجلب لي زجاجة من الحليب وثماني بيضات مسلوقة وبعض الخبز. ثم يغادرني. وكان دائماً حين يراني منكباً على أوراقي وأنا أكتب، يهز برأسه ويدعو «فليحفظنا القديسون. ما الذي تريده من كتابة هذه الرسائل كلها يا سيدي؟ ألا تتعب؟»، ثم يتبعها بضحكة مجلجلة. وذات يوم مر بي بسرعة كبيرة. كان مشغولاً ومقطباً إلى درجة أنه لم يلق تحية الصباح. «ماذا جرى يا فلوروس؟»، ندهته. فلوح بقبضته الضخمة وقال: «اللعنة يا سيدي. دعني وشأني. لم يغمض لي جفن ليلة أمس. ولكن ألم تسمع ذلك الراعي في الجبل هناك؟ فليأخذه الشيطان! لقد نسي أن يناغم أجراس قطيعه! كيف أستطيع النوم؟ أنا ذاهب».

ـ إلى أين يا فلوروس؟

ـ لتنغيمها طبعاً بحيث أستطيع أن أرتاح.

وكما قلت. ذات يوم عند الغداء ذهبت إلى الخزانة لجلب المملحة من أجل البيض فسقط قليل من الملح على الأرض القذرة. توقف قلبي. طأطأت بسرعة وبدأت أجمع الملح حبة حبة. وبغتة أدركت ما أفعله فخفت. فيم هذا الكدر كله من أجل قليل من الملح سقط على الأرض؟ وأية قيمة له؟ لا شيء.

وبعد ذلك استخلصت من الرمال علامة أخرى سوف تمكنني من الوصول إلى أسلافي إذا تبعتهم. وكانت ناراً وماء. إن اهتمامي يقفز دائماً حين أستطلع ناراً تحترق دون جدوى. ذلك أنني لا أريد أن أراها تتلاشى. وأنا أسرع دائما لإغلاق صنبور حين أرى ماءه يجري ولا جرة تملأ منه أو شخصاً يشرب أو حديقة تسقى.

ولقد جربت هذه الأشياء الغريبة كلها دون أن أجمعها بوضوح في ذهني لكي أكتشف وحدتها السرية. إن قلبي لا يستطيع أن يحتمل رؤية الماء والنار والملح وهي تبدد. وأنا أبتهج

Twitter: @ketab_n

كلما رأيت شجرة نخيل. وحين دخلت الصحراء لم أكن أريد أن أغادرها. لكن ذهني لم يتقدم أكثر. لقد دام ذلك سنوات كثيرة. وفي المشغل المعتم في داخلي ظل الاهتمام يشتغل سراً. وهذه الأحداث الغامضة كلها قد اتصل واحدها بالآخر في أعماقي. وحينما أتى واحدها ليقف إلى جانب الآخر بدأت بالتدريج تأخذ معنى.

وذات يوم، بغتة، وبينما كنت أسير متمهلاً دون عمل في مدينة واسعة ودون تفكير بهذا المعنى على الإطلاق اكتشفته. فالملح والنار والماء ثلاث ملكيات ثمينة من ملكيات الصحراء. لاشك أن سلفاً ما في داخلي ـ بدوياً ـ قد قفز على قدميه، واندفع إلى الإنقاذ حين رأى الملح أو النار أو الماء وهي تتبدد.

يومها كان هناك مطر خفيف في تلك المدينة الواسعة. وأتذكر أنني رأيت فتاة صغيرة التجأت تحت ظلة باب دار. كانت تبيع باقات صغيرة من البنفسج المبلل. توقفت ونظرت إليها. ولكن فكري ـ الذي كان الآن بعيداً ومرتاحاً وسعيداً جداً ـ كان يتشرد في الصحراء.

ربما كان هذا كله خيالاً وافتراضات ذاتية، أو توقاً رومانسياً للبعيد والغريب. والحوادث الغريبة التي ذكرتها يمكن أن لا تكون غريبة أبداً. وربما لم يكن لها المعنى الذي أعطيتها إياه. نعم. هذا ممكن. ومع ذلك فإن تأثير هذه الخدعة المنظمة والمرتبة، أو هذا الوهم (فيما إذا كان وهماً): هذا التيار المزدوج من الدم، اليوناني من جهة أمي والعربي من جهة أبي، كان يجري في عروقي. كان إيجابياً ومثمراً وقد منحني القوة والغبطة والغنى.

وجهودي لصنع فرضية من هذين الدافعين المتنافرين هي التي منحت حياتي هدفها ووحدتها. وفي اللحظة التي أصبح فيها هذا الحدس الغامض مؤكداً فإن العالم المرئي من حولي تساوى في انتظام. وحياتي الداخلية والخارجية، بعد إيجاد الجذر السلفي المزدوج، تلاءمت كل منهما مع الأخرى. وهكذا، بعد سنوات كثيرة استطعت أن أحول الكراهية الغامضة التي كنت أحس بها نحو أبي، وبعد موته، إلى حب.

Twitter: @ketab_n

2

الأب

لم يكن أبي يتحدث إلا نادراً ولم يكن يضحك ولم يشترك أبداً في شجار. كان، ببساطة، يصر على أسنانه، أو يشد قبضته في أوقات محددة. وإذا صدف أن كان يمسك بِلَوزة قاسية فركها بين أصابعه وطحنها. وحين رأى مرة آغا يضع سرج التحميل على ظهر مسيحي ويحمله مثل حمار، غلبه الغضب تماماً حتى أنه هجم على التركي. كان يريد أن يوجه إليه إهانة لكن شفتيه كانتا مزمومتين بحدة. ولما عجز عن النطق بأية كلمة بشرية بدأ يصهل كالجواد. كنت لا أزال طفلاً. وقفت ورحت أراقب وأنا أرتعد خوفاً. وذات يوم بينما كان يمر عند الظهيرة في زقاق ضيق عائداً إلى بيته سمع امرأة تصرخ وأبواباً تصفق. كان هناك تركي سكران قد امتشق يطقانه[1] وراح يطارد المسيحيين. واندفع نحو أبي في اللحظة التي رآه فيها. كان الحر لاهباً. وكان أبي متعباً من العمل. لم يكن راغباً في التشاجر. وخطر له بغتة أن يتحول إلى زقاق آخر وأن يهرب ـ لم يكن أحد يراه. لكن هذا سيكون مخجلاً. فك المئزر الذي كان يرتديه ولفه على قبضته. وفي اللحظة التي بدأ فيها التركي الجبار يرفع يطقانه فوق رأسه، وجه إليه أبي ضربة عنيفة في بطنه وألقى به إلى الأرض. ثم انحنى وخلص اليطقان من قبضة التركي وسار إلى البيت. جلبت له أمي قميصاً نظيفاً لكي يرتديه. فقد كان مبللاً بالعرق وأنا (الذي كنت في الثالثة تقريباً) كنت أجلس على الأريكة وأحدق إليه. كان صدره مغطى بالشعر والبخار يتصاعد منه. وما إن غير قميصه واستبرد حتى ألقى باليطقان على أريكة بجانبي ثم التفت إلى زوجته وقال: «حين يكبر ابنك ويذهب إلى المدرسة أعطه هذا مبراة لأقلامه».

لا أستطيع أن أتذكر أنني سمعت منه كلمة ألطف، باستثناء مرة واحدة حين كان في ناكسوس أيام الثورة. كنت أداوم في المدرسة الفرنسية التي يديرها الكهان الكاثوليك. وكنت قد حزت جوائز عديدة في الامتحانات: كتب كبيرة بربطات مذهبة. وبما أنني لم أستطع

---

(1) اليطقان: سيف تركي صغير ومحدب.

Twitter: @ketab_n

حملها بنفسي فقد حمل والدي نصفها. ولم يتكلم طوال الطريق إلى البيت. فقد كان يحاول إخفاء الغبطة التي أحس بها لأنه لم يخجل بابنه. ولم يفتح فمه حتى دخلنا الدار. قال بشيء شبيه باللطف، ودون أن ينظر إلي: «إنك لم تخز كريت».

ولكنه غضب من نفسه فوراً. فقد كان إظهاره للعواطف خيانة للنفس. وظل مقطباً بقية المساء وهو يتحاشى عيني.

كان كالحاً لا يحتمل. وحين كان الأقارب والجيران الذين يصدف أن يزوروا البيت يبدأون بالضحك وتبادل الأحاديث الصغيرة، ويفتح الباب بغتة ويدخل؛ كانت الأحاديث والضحكات تتوقف دائماً ويخيم ظل ثقيل على الغرفة. كان يلقي التحية بفتور ويجلس في مكانه المعتاد في زاوية الأريكة قرب النافذة المطلة على ساحة الدار ثم يغمض عينيه ويفتح كيس تبغه ويدرج لفافة دون أن ينبس بكلمة. ويتنحنح الزوار نحنحات جافة ويتبادلون نظرات سرية قلقة. وبعد فترة من الهدوء ينهضون ويتجهون إلى باب الدار على رؤوس أصابعهم.

وكان يكره القسس. كلما صادف أحدهم في الشارع كان يصلب نفسه، ليتطهر من هذه المصادفة التعيسة. وإذا ما حياه القس الخائف بعبارة «نهاراً طيباً يا كابتن ميخائيل»، كان يجيب: «امنحني لعنتك». ولم يؤد في حياته صلاة القربان المقدس، لكي يتجنب رؤية القسس. ولكنه في كل أحد حين تنتهي الصلاة ويغادر الجميع كان يدخل إلى الكنيسة ويشعل شمعة أمام أيقونة القديس ميناس متقنة الصنع. كان يتعبد للقديس ميناس أكثر من أي مسيح أو مريم عذراء لأن القديس ميناس هو كابتن ميغالوكاسترو.

كان صدره منقبضاً، وقلبه ثقيلاً. لماذا؟ صحته جيدة وأموره تسير على ما يرام. وليس لديه ما يشكو منه مما يتعلق بزوجته وأطفاله. وكان الناس يحترمونه. وبعضهم، الأدنون، ينهضون وينحنون له حين يمر بهم. يضعون أكفهم على صدورهم ويخاطبونه بالكابتن ميخائيل، وفي عيد الفصح كان المطران يدعوه إلى قصر الأسقف بعد «القيامة» مع أعيان المدينة ويقدم له القهوة وكعكة الفصح مع بيضة حمراء. وفي عيد القديس ميناس في الحادي عشر من نوفمبر (تشرين الثاني) كان يقف أمام بيته ويتلو صلاة حينما يمر به الموكب.

ولكن قلبه لم يكن يبتهج. ذات يوم تجرأ الكابتن إلياس، من «ميسارا» أن يسأله: «لم لا تظهر أبداً بسمة على شفتيك يا كابتن ميخائيل؟» فأجاب والدي: «لم الغراب أسود ياكابتن إلياس؟»، وهو يبصق عقب التبغ الذي كان يمضغه. وسمعته في يوم آخر يقول لقندلفت القديس ميناس: «عليك أن تنظر إلى أبي. ليس إلي بل إلى أبي. لقد كان غولاً حقيقياً. ما أنا بالنسبة له؟ قنديل بحرا!» فعلى الرغم من تقدمه في السن واقترابه من العمى، فإن جدي قد عاد إلى السلاح وشارك في ثورة 1878. وذهب إلى الجبال لكي يقاتل، لكن الأتراك حاصروه وأمسكوا به بإلقاء الأنشوطات عليه ثم ذبحوه خارج دير سافاتيانا. واحتفظ الكهان بجمجمته

Twitter: @ketab_n

في الحرم. وذات يوم تطلعت من النافذة الصغيرة ورأيتها لامعة مزيتة بالزيت المقدس من المصباح ومشقوقة شقوقاً عميقة بضربات سيف.

سألت أمي: كيف كان جدي؟

ـ مثل أبيك. وأشد كلاحة.

ـ وما كانت صنعته؟

ـ القتال.

ـ وماذا كان يفعل أيام السلم؟

ـ كان يدخن الشبق[2] ويحدق إلى الجبال.

ولأنني كنت تقياً في شبابي سألت سؤالاً آخر: «أكان يذهب إلى الكنيسة؟».

ـ لا. لكنه كان في مطلع كل شهر يجلب معه إلى البيت قساً ويجعله يصلي أن تثور كريت مرة أخرى. كان جدك يغتاظ طبعاً حين لا يجد ما يفعله. مرة حين كان يتسلح من جديد سألته: «ألا تخاف أن تموت يا أبي؟ إلا أنه لم يجب، ولم يلتفت إلي».

وعندما كبرت كنت أود أن أسأل أمي: «هل سبق له أن أحب امرأة؟» لكنني خجلت من طرح السؤال. ولم أجد أبداً جواباً عليه إلا أنه لا بد قد أحب نساء كثيرات. لأنه حين قتل وفتحت العائلة خزنته، وجدت وسادة محشوة بضفائر سوداء ورمادية.

---

(2) الشبق: بيبة للتدخين طولها أربعة أقدام.

Twitter: @ketab_n

3

الأم

كانت أمي قديسة. كيف استطاعت أن تحس إلى جانبها شهيق الأسد وتنهداته خمسين عاماً، دون أن يتحطم قلبها؟ كان لها صبر الأرض واحتمالها وعذوبتها. كان أجدادي من جهة أمي فلاحين ـ ينحنون على التراب. يلتصقون بالتراب وأيديهم وأقدامهم وعقولهم مليئة بالتراب. كانوا يحبون الأرض ويضعون كل آمالهم فيها. وخلال أجيال صاروا هم والأرض واحداً. وفي أيام الجفاف كانوا يسودّون مرضاً من العطش مثلها. وحين تحتدم أولى أمطار الخريف كانت عظامهم تطقطق وتنتفخ كالقصب. وحين كانوا يحرثون أخاديد عميقة في رحمها، بمشاركة من صدورهم وأفخاذهم، يستعيدون ذكرى الليلة الأولى التي ناموا فيها مع زوجاتهم.

مرتين في العام، في عيد الفصح وفي عيد الميلاد، كان جدي ينطلق من قريته البعيدة ويأتي إلى ميغالو كاسترو لكي يرى ابنته وأحفاده. وبحسابات دقيقة كان دائماً يأتي ويقرع الباب في الساعة التي يكون فيها متأكداً أن صهره ـ الوحش البري ـ ليس في البيت. كان عجوزاً قوياً مفعماً بالحيوية بشعر أبيض مشعث وعينين زرقاوين ضاحكتين وكفين ضخمتين ثقيلتين مغطاتين بالندوب. وكان جلدي يقشعرّ حين يقوم بالتربيت عليّ. كان يلبس دائماً حذاء أسود وسروال الأحد Foufoula، الذي كان نيلي اللون، ومنديلاً أبيض ذا بقع زرقاء. وكان يحمل في يده دائماً الهدية ذاتها؛ حلوفاً محمّرا في التنور وملفوفاً بأوراق الليمون. وحين كان يكشف عنه ضاحكاً كان البيت كله يعبق بالرائحة. وهكذا توحد جدي نهائياً بالخنزير المحمر وأوراق الليمون بحيث أني منذ ذلك الحين لم أستطع أن أشم خنزيراً محمراً أو أدخل إلى حديقة ليمون دون أن يبرز في ذهني مرحاً وخالداً والحلوف المحمر في يديه. وأنا سعيد لأنه سيعيش في أعماقي طالما أنا حي، على الرغم من أن أحداً غيري في العالم لم يعد يتذكره. سنموت معاً. كان هذا الجد أول من جعلني أتمنى أن لا أموت ـ لكي لا يموت الميت الذي أحمله في أعماقي. ومنذ ذلك الحين غرق أعزاء راحلون كثيرون، ولكن ليس في

Twitter: @ketab_n

القبر، بل في ذاكرتي. وأنا الآن أعرف أنهم سيعيشون طالما أنا حي.

وكلما تذكرته يتدعم قلبي بإدراك أنه يستطيع أن يقهر الموت. إذ أنني لم ألتق في حياتي كلها بإنسان له هذا الوجه المحاط بهذا الألق الهادئ الودود وكأنه يشع من مصباح. لقد صرخت حين رأيته يدخل البيت أول مرة. فبسرواله العريض vrakes وحزامه الأحمر ووجهه القمري المضيء وطباعه المرحة بدا لي مثل جني الماء، أو كروح أرضية ظهرت للتوّ في البساتين، ولا تزال روائح العشب الندي عالقة بها. كان يخرج كيس التبغ الجلدي من تحت قميصه ويدرج لفافة، ويتناول الصوان والزناد ويشعل لفافته ثم يدخنها وهو يحدق راضياً بابنته وأحفاده والبيت. وقليلاً ما كان يفتح فمه ويتحدث عن فرسه التي ولدت مهراً وعن المطر والبرد والأرانب الولود التي تدمر له حديقة الخضروات. وكنت، وأنا جالس على ركبتيه، أمد ذراعي وأطوق عنقه وأنا أصغي. فكان عالم مجهول يتفتح في ذهني ـ حقول وأمطار وأرانب. وأنا نفسي كنت أتحول إلى أرنب أتسلل إلى دار جدي وألتهم ملفوفاته.

كانت أمي تسأل عن هذا الشخص أو ذاك من القرية ـ كيف كانت أحوالهم؟ أما زالوا أحياء ـ وكان جدي يجيب أحياناً أنهم لا يزالون أحياء، وأن لديهم أطفالاً، وأن أحوالهم تتحسن، وأحياناً أنهم ماتوا ـ «واحد آخر مات. العمر لك!» كان يتحدث عن الموت كما يتحدث عن الولادة ـ بهدوء الصوت ذاته تماما كما يتحدث عن الخضروات والأرانب. كان يقول: «لقد رحل يا ابنتي. دفناه. وأعطيناه برتقالة يضعها في يده من أجل شيرون وبعض الرسائل أيضا لأقربائنا في هيدس. شيء حسب المألوف الحمد للّه». ثم كان يمج لفافته ويخرج بعض الدخان من منخريه ويبتسم. كانت زوجته بين الراحلين. لقد ماتت قبل سنوات عديدة. وكلما جاء جدي إلى البيت يتذكرها وعيناه مليئتان بالدموع. كان يحبها أكثر من حقوله وأكثر من فرسه. وكان يحترمها أيضاً. رغم أنه كان فقيراً حين تزوج فقد تماسك. واعتاد أن يقول: «الفقر والعري لا شيء حين تكون لك زوجة طيبة». في تلك الأيام كانت العادة العريقة في القرى الكريتية تقضي أن تحضر الزوجة ماء ساخناً للزوج حين يعود من الحقول وأن تقوم هي بغسل رجليه.

وذات مساء عاد جدي من العمل منهكاً. فجلس في باحة الدار وجاءت زوجته بسطل الماء الساخن وركعت أمامه ومدت يديها لتغسل قدميه المغبرتين. نظر إليها بمحبة ورأى كفيها المتآكلتين بالعمل المنزلي وشعرها الذي بدأ يشيب. لقد أصبحت الآن عجوزاً مسكينة. هكذا فكر بينه وبين نفسه. فرفع قدمه ورفس سطل الماء وقلبه وقال: «ابتداء من اليوم يا زوجتي لن تغسلي قدمي. أنت لست عبدتي على أية حال. أنت زوجتي وأنت سيدة».

وذات يوم سمعته يقول: «لم تخيبني في شيء أبداً. إلا مرة واحدة. فلتحل على روحها رحمة اللّه».

Twitter: @ketab_n

وتنهد وغرق في الصمت. ولكن بعد لحظة قال: «كانت تقف طبعاً كل مساء بباب الدار تنتظر عودتي من الحقول. وكانت تركض لأخذ الأدوات عن كتفي ثم ندخل البيت معاً. ولكنها ذات مساء نسيت. لم تركض إلي فحطمت فؤادي».

صلب نفسه وهمس: «اللّه كبير. إنني أضع آمالي فيه، سو ف يسامحها». والتمعت عيناه من جديد ثم نظر إلى أمي وابتسم.

وفي مناسبة أخرى سألته: «ألا تكره أن تقتل الخنازير الصغيرة يا جدي؟ ألا تحس بالأسف حين تأكلها؟»

وأجابني وهو ينفجر بالضحك: «صحيح يا ولدي. اللّه يعلم أن هذا صحيح. لكنها لذيذة تلك الأنذال الصغيرة»

وكلما تذكرت هذا الفلاح العجوز ذا الوجنتين الموردتين يتزايد إيماني بالإنسان وبعمله في التراب. كان واحداً من الأعمدة التي يقف العالم على أكتافها فتمنعه من السقوط.

كان أبي هو الوحيد الذي لا يريده. وكان ينزعج حين يدخل (الجد) بيته ويتحدث إلى ابنه، وكأنه كان يخشى أن دمي سيتلوث. وحين كانت توضع المائدة في عيد الميلاد و عيد الفصح لم يكن يمد يده إلى الحلوف المقمر. وكان يترك المائدة اشمئزازاً من رائحته بأسرع ما يستطيع. ثم يبدأ بالتدخين لكي يطرد رائحة النتن. ولم يكن يقول شيئاً. إلا مرة واحدة حين غادرنا جدي. قطب حاجبيه وتمتم باحتقار: «أف. يا للعيون الزرقاء».

وعلمت، في ما بعد، أن والدي كان يحتقر العيون الزرقاء أكثر من أي شيء آخر في العالم. وقد اعتاد أن يقول: «للشيطان عينان زرقاوان وشعر أحمر». أي سلام كنا نحس به وأبي ليس في البيت! وكم كان الوقت يمر بسرعة وسعادة في الحديقة الصغيرة في باحة دارنا المسوّرة، العريشة على الجدار، والأكاسيا الفواحة الطويلة في الزاوية، وأصص الحبق، والقطيفة، والياسمين العربي حول الأطراف. كانت أمي تجلس أمام النافذة ترفو الجوارب، أو تنظف الخضروات، أو تمشط شعر أختي الصغيرة أو تساعدها على أن تخطو خطواتها الأولى. وفيما كنت أصغي إلى العابرين خارج الباب المغلق وأستنشق عبير الياسمين والتربة الرطبة، كانت عظام رأسي تطقطق وتنفتح لتحتوي العالم الذي يدخل جسدي.

كانت الساعات التي أقضيها مع أمي مليئة بالغموض. لقد تعودنا أن نجلس متواجهين ـ هي على الكرسي قرب النافذة وأنا على مقعدي. وكنت أحس بصدري ممتلئاً حتى الكفاية وسط هذا الصمت، وكأن الهواء بيننا قد تحول إلى حليب. . وأنا كنت أرضع.

كانت الأكاسيا تمتد فوق رؤوسنا، وحين تزهر كانت الدار تمتلئ بالأريج. كم كنت أحب براعمها الصفراء ذات الروائح العذبة!

Twitter: @ketab_n

كانت أمي تضعها في صناديقنا وفي ملابسنا الداخلية وقمصاننا. فصارت طفولتي كلها تعبق بالأكاسيا. وكنا نتحدث. كانت بيننا أحاديث هادئة عديدة. أمي تحكي لي أحياناً عن أبيها، وعن القرية التي ولدت فيها. وأنا أحياناً أحكي لها عن حياة القديسين الذين قرأت عنهم وكنت أزين بخيالي حياتهم. لم تكن محن الشهداء تكفيني. فكنت أضيف لهم محناً جديدة من عندي حتى تنتحب أمي. ثم أشفق عليها وأجلس على ركبتيها وأبدأ بالمسح على شعرها ومواساتها: «لقد ذهبوا إلى الجنة يا أمي. لا تحزني. إنهم يتمشون الآن تحت أشجار مزهرة ويتحدثون مع الملائكة وقد نسوا عذاباتهم كلها. وهم يلبسون كل أحد ملابس ذهبية وقبعات حمراء مزينة بالريش ثم يذهبون لزيارة الله». وتعودت أمي أن تمسح دموعها ثم تنظر إليّ مبتسمة، وكأنها ستسأل: أهذا صحيح فعلاً؟ وقد اعتاد الكناري في قفصه أن يسمعنا، وأن يمد رقبته ليزقزق بنشوة ثملة. وكأنه قد نزل من الجنة مغادراً القديسين لحظات قليلة وجاء إلى الأرض ليبهج قلوب البشر.

امتزجت أمي في ذاكرتي بالأكاسيا وبالكناري بشكل خالد ولا يقبل الانفصام. وأنا لا أستطيع أن أشم رائحة الأكاسيا أو أسمع صوت الكناري دون أن أحس أمي تنهض من قبرها ـ في أعماقي ـ وتتحد بالأريج والزقزقة.

لم أر أمي تضحك أبداً. كانت تبتسم ببساطة وتنظر إلى أي شخص بعينين عميقتين ممتلئتين بالصبر واللطف. تروح وتجيء في البيت كشبح لطيف تؤدي لنا حاجاتنا دون ضجة أو جهد وكأنما يداها تمتلكان قوة سحرية خيّرة وتمارسان تحكماً خيّراً بحاجاتنا اليومية. وبينما كنت أجلس بصمت أرقبها كان يخطر لي أنها ربما كانت «نيريد»(1) المذكورة في قصص الجنيات، وكان خيالي يعمل حسب عقلية الطفولة: لقد رآها أبي ترقص على ضوء القمر ذات ليلة بينما كان يعبر النهر. فهجم وأمسك بمنديلها. وهذا ما كان حين جلبها إلى البيت وتزوجها. وأمي الآن تروح وتجيء في البيت طوال النهار تبحث عن منديلها لتضعه على شعرها وتتحول من جديد إلى نيريد وترحل. وتعودت أن أراقبها وهي تروح وتجيء وتفتح الخزن والصناديق وتكشف عن الجرار وتنحني لتنظر تحت الأسرة. وكنت أرتعد لفكرة أنها قد تجد صدفة منديلها السحري وتختفي. وقد لازمني هذا الخوف سنوات عديدة وكان يجرح روحي الوليدة بعمق. وظل هذا معي حتى هذا اليوم. ولا يزال أشد غموضاً. إنني أراقب الناس أو الأفكار التي أحبها بألم لأنني أعرف أنهم يبحثون عن مناديلهم لكي يرحلوا.

ولا أذكر إلا مناسبة واحدة التمعت فيها عينا أمي بضوء غريب وضحكت واستمتعت كما في أيام خطبتها أو كما في أيام حريتها وعزوبيتها. كان ذلك في أول أيار وكنا قد ذهبنا إلى

---

(1) نوع من الحوريات.

فود هيل phodhele، وهي قرية مليئة بالمياه وبيارات البرتقال، لكي يكفل أبي طفلاً في معموديته. حينما انهمر المطر عنيفاً ومفاجئاً، تحولت السماء إلى ماء ينسكب على الأرض التي كانت تنفتح ضاحكة وتتلقى المياه الذكورية في أعماق صدرها.

كان أعيان القرية قد اجتمعوا مع زوجاتهم وبناتهم في غرفة كبيرة في بيت الطفل المعمد. المطر والبرق يتسربان من النوافذ وعبر شقوق الباب. وكان الهواء مشبعاً بروائح البرتقال والتراب. وكانت الهدايا والخمر والراكي والميتريد(2) تدخل وتخرج. وبدأ الظلام يحل فأشعلت الأضواء وتزايد مرح الرجال، وتخلصت النساء من نظراتهن المنخفضة التي تعودن عليها. وبدأن يقوقين كالحجال. كان اللّه لا يزال يزأر خارج المنزل. وتعالى الرعد وتحولت أزقة القرية الضيقة إلى أنهار. كانت الحجارة تنهار فيها، وهي تضحك بوحشية. لقد تحول الغيث إلى سيل جارف يعانق الأرض ويسقيها ويخصبها. التفت أبي إلى أمي. كانت المرة الأولى في حياتي التي أراه فيها ينظر إليها بود. والمرة الأولى التي أسمع فيها العذوبة في صوته. وقال لها: «غني يا مارغي». كان يمنحها الإذن بالغناء أمام جميع الرجال. غضبت رغم أنني لا أعرف السبب. نهضت مهتاجاً لأركض نحو أمي، وكأنني أريد أن أحميها. لكن أبي لمس كتفي بإصبعه وأجلسني. كانت أمي تبدو وكأنها تتلاشى. توهج وجهها وكأن المطر كله والبرق كله يعانقانها. رمت برأسها إلى الوراء. أتذكر أن شعرها الطويل الأسود قد تحلل بغتة وترامى على كتفيها ووصل إلى ردفيها. وبدأت.

أي صوت كان ذلك! عميقاً وعذباً ومشبعاً بالعاطفة. وبدأت، وهي تحول عينيها نصف المغمضتين نحو أبي، تغني مانتيناذا mantinadha، التي لن أنساها ما حييت. لم أفهم في ذلك الحين لماذا غنتها أو لمن. ولكنني فيما بعد، حين كبرت فهمت. كان صوتها العذب مشبعاً بالعاطفة وهي تنظر إلى أبي وتغني:

(يدهشني أن الشوارع لا تزهر حين تسير عليها، وأنك لا تتحول إلى نسر بجناحين من ذهب).

حولت نظري لأتجنب رؤية أبي، ولأتجنب رؤية أمي. ذهبت إلى النافذة وضغطت جبيني على الزجاج أراقب المطر وهو ينهمر وينهش التراب.

استمر الطوفان طوال اليوم. هبط الليل علينا وصار العالم في الخارج مظلماً وامتزجت السماء بالأرض. وتحولتا إلى وحل. أشعلت مصابيح أخرى وتحرك الجميع نحو الجدران وأزيحت الطاولات والمقاعد لإفساح المجال. كان الشباب والكبار يتهيأون للرقص. وجلس عازف الربابة على مقعد وسط الغرفة وأمسك بقوسه وكأنه سيف. ثم همهم بمقطع من تحت

(2) مقبلات يونانية.

Twitter: @ketab_n

شاربيه ويبدأ يعزف. راحت الأقدام توقّع والأجساد تصفق بأجنحتها. وراح الرجال والنساء يتبادلون النظرات ويقفزون على أقدامهم. وكان أول من تقدم امرأة شاحبة ممشوقة في الأربعين من عمرها. شفتاها برتقاليتان لأنها فركتهما بأوراق الجوز. وكان شعرها الأسود مزيّتاً بزيت الغار ومصقولاً ولامعاً. لقد خفت حين التفت ورأيتها، ذلك لأن عينيها كانت محاطتين بدائرتين زرقاوين قاتمتين. ولأن بؤبؤيهما الحالكين يلتمعان بعمق. لا، ما كانا يلتمعان بل كانا يحترقان. خيل إليّ للحظة أنها كانت تنظر إلي؛ فتمسكت بثوب أمي، وأنا أحس أن هذه المرأة تريد أن تقبض على ذراعي وتأخذني معها.

«برافو ياسور ميلينا». هتف عجوز قوي ذو لحية صغيرة. وأزاح منديله الأسود وهو يقفز أمامها. وقدم أحد طرفيه للمرأة وأبقى الآخر في يده. ثم سلم الاثنان نفسيهما للرقص ورأساهما شامخان وجسداهما منتصبان وممشوقان كشمعتين.

كانت المرأة تلبس في قدميها قبقاباً خشبياً. وراحت تضربه على الأرض بقوة فيهتز البيت كله معها. وانحل خمارها الأبيض فكشف عن القطع الذهبية (فلورين) التي تزين عنقها. وتوسع منخراها وراحا يستنشقان الهواء وكانت أنفاس الذكور من حولها عبقة. لوت ركبتيها وراحت تدور فأوشكت على السقوط على الرجل الذي أمامها. ولكنها بغتة وبهزة من ردفيها تلاشت من أمامه. وراح هاوي الرقص العجوز يصهل كالحصان. أمسك بها من وسطها وشدها بقوة لكنها أفلتت منه. كانا يلعبان ويطارد كل منهما الآخر. غاب الرعد والمطر. وغرق العالم. ولم يبق فوق الهوة إلا هذه المرأة، سورميلينا، التي كانت ترقص. ولما لم يعد عازف الربابة قادراً على البقاء فوق مقعده قفز على قدميه. وتوحش القوس. ولم يعد تحت السيطرة. بل راح يتابع قدمي سورميلينا وهو يتنهد ويجأر ككائن بشري. وتوحش وجه العجوز. ورمق المرأة وهو محمر. وارتعشت شفتاه وشعرت أنه على وشك أن ينقض عليها ويمزقها إرباً. ولا شك أن عازف الربابة قد تملكه الشعور ذاته فتوقف قوسه بشكل مفاجئ. وتوقف الرقص. وقف الراقصان دون حراك. قدم في الهواء والعرق يتصبب منهما. وركض الرجال إلى الراقص العجوز وانتحوا به جانباً. وراحوا يدلكونه بالراكي[3]. وأحاطت النسوة بسورميلينا ليمنعن الرجال من رؤيتها. وشققت طريقي بينهن. لم أكن رجلاً بعد. ولذا لم يمنعنني. فتحن صدارها، ورششن ماء الورد البرتقالي على رقبتها وتحت إبطيها وصدغيها. وكانت المرأة تغمض عينيها وهي تبتسم.

في تلك اللحظة اتحدت في داخلي الرقصة وسورميلينا والخوف ـ الرقص والمرأة والموت ـ وصارت شيئاً واحداً. بعد أربعين سنة نهضت امرأة هندية للرقص في شرفة فندق أوريانت العالية في تيفليس. كانت النجوم تلتمع فوقها. وكان السقف معتماً. وكان يقف

(3) مشروب يوناني شعبي شبيه بالعرق.

Twitter: @ketab_n

حولها قرابة اثني عشر رجلاً وأنت لا ترى إلا الأضواء الحمراء من لفافاتهم. وراحت المرأة ترقص ببطء وهي مدججة بالأساور والجواهر والأقراط والخلاخيل الذهبية. وكان يهيمن عليها خوف غامض، وكأنها ترقص على حافة هاوية. كانت تقترب وتبتعد بينما هي ترتعد من رأسها حتى قدميها خشية السقوط. وكانت أحياناً تجعل جسدها ثابتاً بينما ذراعاها يدور كل منهما حول الآخر كحيتين تتزاوجان بشهوانية في الهواء. خمدت الأضواء الحمراء الصغيرة ولم يبق شيء في الليل الفسيح إلا المرأة الراقصة والنجوم من فوقها. وبثبات راحت النجوم ترقص أيضاً. حبسنا أنفاسنا جميعاً. بغتة تملكني الرعب. أكانت هذه المرأة ترقص على حافة الهاوية؟ لا. بل إن أرواحنا نفسها كانت تداعب الموت وتلاعبه.

Twitter: @ketab_n

4

الابـن

كل ما ترسب في عقل طفولتي تجذر فيه بعمق كبير. وكنت قد تلقيته بقدسية، إلى درجة أنني، وأنا في هذا العمر المتقدم لا أتعب، أبداً، من تذكره وإعادة إحيائه. بدقة متناهية أتذكر لقائي الأول بالبحر والنار والمرأة وبروائح العالم.

إن أقدم ذكرى من حياتي هي هذه: كنت غير قادر على الوقوف بعد، وقد حبوت على أربع نحو العتبة خائفاً وتواقاً. ومددت رأسي الواهية في هواء الدار الطلق. حتى الآن لم أكن قد نظرت عبر زجاج النافذة. ولم أكن قد رأيت شيئاً. أما الآن فإنني لم أتطلع فقط. رأيت العالم للمرة الأولى. ويا له من منظر مدهش! كانت حديقة الدار تبدو بلا حدود. وكان هناك طنينٌ من آلاف النحلات غير المرئية، وشذا مسكر، وشمس دافئة بكثافة العسل. وكان الهواء يلسع وكأنه مسلح بسيوف. وكانت هناك حشرات ملائكية متحفزة بجوانح ملونة ثابتة تتقدم نحوي مباشرة. زعقت خائفاً وعيناي مليئتان بالدموع ثم تلاشى العالم.

وأذكر في يوم آخر، أن رجلاً بلحية شائكة أخذني بين ذراعيه وأنزلني إلى الميناء. وحين اقتربنا سمعت وحشاً برياً يتنهد ويزأر وكأنه جريح أو كأنه يتوعد. ولخوفي انتصبت قافزاً بين ذراعي الرجل ورحت أرتعش كالعصفور. كنت أرغب في الابتعاد. وبغتة ـ الرائحة اللاذعة لحبات الخروب والقار والكباد المتعفن. وتفتحت أعضائي، التي تصر، لاستقبالها. وظللت أقفز وأتأرجح بين الذراعين المكسوتين بالشعر اللتين كانتا تمسكان بي، إلى أن، في عطفة شارع ـ نيلي قاتم، وهائج، وكل الروائح والصرخات (أي وحش كان هذا! أية عذوبة! وأية نهدة لا حدود لها!) ـ انصب البحر كله في داخلي مزبداً. وتداعى صدغاي الواهنان، وامتلأ رأسي بالضحك والملح والخوف.

بعد هذا أذكر امرأة، اسمها أنيكا. جارة لنا متزوجة حديثاً. وهي أم منذ زمن قريب. ممتلئة وجميلة ذات شعر طويل أشقر وعينين واسعتين.

في ذلك المساء كنت ألعب في الدار. ولا بد أنني كنت في حوالي الثالثة من العمر. كانت الحديقة الصغيرة تفوح بروائح صيف. وانحنت عليّ المرأة ووضعتني في حضنها.

Twitter: @ketab_n

وأغمضت عيني لأسقط على صدرها البارز وأتشمم جسدها: الأريج الحار الكثيف والرائحة اللاذعة للحليب والعرق. كان البخار يتصاعد من الجسد حديث الزواج. وكنت أستنشق العبير بنشوة متهيجة، وأنا أتدلى عن صدرها النافر. وأحسست بالدوار وغبت عن وعيي. ووضعتني الجارة المذعورة أرضاً، وهي محمرة رعباً. وتركتني بين أصيصين من الحبق. ولم تحملني بعد ذلك اليوم في حضنها أبداً. بل صارت تكتفي بالنظر إلي بمودة فائقة من خلال عينيها الواسعتين وهي تبتسم.

وفي إحدى ليالي الصيف كنت، مرة أخرى، جالساً في دارنا على كرسيّ الصغير. وأتذكر أنني رفعت عيني وأبصرت النجوم لأول مرة. صرخت، وأنا أقفز على قدمي، خائفاً: «شرر، شرر». وبدت لي السماء حريقاً هائلاً. وبدا لي أن النار قد وصلت إلى جسدي الصغير.

كانت هذه اتصالاتي الأولى بالأرض والبحر والمرأة والسماء المليئة بالنجوم. وحتى الآن، وفي أعمق لحظات حياتي، فإنني أواجه هذه العناصر الرهيبة تماماً بالحماس ذاته الذي واجهتها به في طفولتي. وعندها فقط، عندما نجحت في إعادة مواجهتها بالدهشة ذاتها، والخوف ذاته والغبطة ذاتها التي منحتني إياها حين كنت طفلاً. أستطيع أن أشعر ـ وحتى اليوم ـ أنني أواجه هذه العناصر الأربعة المخيفة بعمق، وبالعمق الذي يستطيع جسدي وروحي أن يوصلاني إليه. وطالما أن هذه قد كانت القوى الأولى التي أحسست، بوعي، أنها تواكب روحي، فإن هذه العناصر الأربعة قد اتحدت في أعماقي اتحاداً لا انفصام له، وصارت واحداً. وهي تشبه وجهاً مفرداً يظل يغير أقنعته. وحين أنظر إلى السماء المليئة بالنجوم فإنني، أحياناً، أتخيل أنها حديقة مزهرة، وأحياناً أنها بحر قاتم خطير، وأحياناً أنها وجه صامت تنسكب عليه الدموع. إن كل عاطفة من عواطفي، وأكثر من ذلك، إن كل فكرة من أفكاري، وحتى أكثرها تجريداً، إنما تتشكل من هذه المقومات الأربعة الأولية. وفي أعماقي حتى أكثر المشكلات ميتافيزيقية تتخذ هيئة فيزيقية (مادية) حارة لها رائحة البحر والتراب والعرق الإنساني. والكلمة، لكي تمسني، يجب أن تصبح لحماً حاراً. وعندها فقط أفهم ـ عندما أستطيع أن أشمها وأراها وألمسها.

وإضافة إلى هذه اللقاءات الأربعة الأولى كانت روحي متأثرة، أيضاً، وبعمق بحادث عرضي. عرضي؟ هذه هي الضبابيات الجبانة الخدرة التي يصف بها العقلُ الرعديد، الذي يرتعد خشية التفوه بأية ترهات أو يجرح كرامته، كلَّ ما يعجز عن شرحه. لابد أنني كنت في الرابعة من عمري. وفي رأس السنة أعطاني والدي كنارياً وكرة دوارة كهدية، «يد طيبة»، كما نقول في كريت. وقد اعتدت، بعد إغلاق الأبواب والنوافذ، أن أفتح القفص وأطلق الكناري. وهذا ما نمى لديه عادة الوقوف على قبة الكرة والغناء ساعات متوالية بينما أنا أحبس أنفاسي وأصغي.

Twitter: @ketab_n

أعتقد أن هذا الحادث المغرق في بساطته قد أثر في حياتي أكثر من كل الكتب والناس الذين عرفتهم فيما بعد. فبتجوالي الدائم في الأرض سنوات عديدة محيياً ومفارقاً كل شيء شعرت أن رأسي كان هو الكرة وأن الكناري كان يقف في عليائه على قبة عقلي ويغني.

* * *

إنني أتذكر سنوات طفولتي بالتفصيل. ليس لأن للذكريات الأولى هذا السحر العظيم، بل، لأن حدثاً يبدو غير هام، في تلك الفترة وكما في الأحلام، يكشف عن وجه الروح الحقيقي غير المصبوغ، أكثر مما يستطيع أن يفعله التحليل النفسي في ما بعد. وبما أن وسائل التعبير في الطفولة أو في الأحلام بسيطة، فإن أعقد ما في الغنى الداخلي يتخلص من الشوائب كلها بحيث لا يبقى إلا الجوهر.

عقل الطفل هش ولحمه غض. ولذلك فإن الشمس والقمر والمطر والريح والصمت كلها تهبط عليه. إنه لين العريكة، وهي تدعكه. الطفل يتجرع العالم بشراهة، ويتلقاه بمنخريه ويتمثله، ويحوله إلى طفل.

أتذكر أنني كنت أجلس غالباً على درجات العتبة في بيتنا. الشمس تتوهج والهواء يشتعل والعناقيد تُهرس في بيت كبير في الجوار، والعالم يعبق بالضباب. وتعودت أن أمسك راحتي وأنتظر، وأنا مغمض عيني بسرور. كأن اللّه يأتي دائماً ـ طالما بقيت طفلاً ولم يخذلني أبداً ـ كان يأتي دائماً، طفلاً مثلي تماماً يودع ألعابه في كفي: الشمس والقمر والريح. وكان يقول: «إنها هدايا. العب بها. عندي الكثير غيرها». وكنت أفتح عيني. ويغيب اللّه ولكن ألعابه تظل في كفي.

ورغم أنني لم أكن أعرف ذلك (لم أكن أعرفه لأنني كنت أمارسه) فإنني كنت أمتلك قدرة اللّه الكلية: كنت أخلق العالم كما كنت أريده. كنت عجينة لينة. وهكذا كان العالم. وأذكر أنني كنت أحب الكرز أكثر من أية فاكهة أخرى في صغري. وتعودت أن أملأ جعبتي قرب النبع وأن ألقيها فيها ـ حمراء أو سوداء وقاسية عند المضغ ـ وأنحني فوقها وأندهش: كيف كانت تنتفخ بمجرد أن تدخل الماء. ولكن حين استرددتها لاحظت بخيبة كبيرة أنها تقلصت. ولذلك فإنني أغمضت عيني، لتجنب رؤيتها وهي تتقلص، وأنا ألقيها ـ وظللت أتصورها هائلة الحجم ـ في فمي.

هذا التفصيل العادي يبين، في كليته، الطريقة التي أواجه بها الواقع حتى الآن في شيخوختي. إنني أعيد خلقه ـ أبهى وأفضل وأكثر ملاءمة لغايتي. إن العقل يصرخ ويشرح ويبرهن ويحتج، ولكن في أعماقي يبرز صوت ويصرخ به: «إهدأ أيها العقل! ودعنا نسمع القلب». أي قلب؟ إنه الجنون جوهر الحياة. ويبدأ القلب بالشدو.

كان واحد من المتصوفين الأرثوذكس المفضلين لدي يقول دائما: «طالما أننا لا نستطيع

Twitter: @ketab_n

أن نغير الواقع، فلنغير العيون التي ترى الواقع». وكنت أفعل ذلك في طفولتي، وأفعل ذلك الآن أيضاً في أكثر لحظات حياتي إبداعاً وخلقاً.

في الحقيقة إن عقل الطفل وعينيه وأذنيه معجزات. وأية معجزات!! وبأي نهم تلتهم هذا العالم وتملأ نفسها. إن العالم عصفور بريش أحمر وأخضر وأصفر. فكيف يقوم الطفل باصطياد هذا العصفور وكيف يحاول الإمساك به؟

والحقيقة أنه ما من شيء يشابه عيني اللّه إلا عينا الطفل. إنهما تريان العالم لأول مرة وتخلقانه. وقبل ذلك يكون العالم هيولي. إن المخلوقات كلها، الحيوانات والأشجار والبشر والحجارة، كل شيء: الأشكال والألوان والأصوات والروائح والومضات البراقة ـ تتدفق أمام عينيه غامضة (لا، ليس أمام عينيه بل فيهما) وهو لا يستطيع تثبيتها ولا يستطيع أن ينظمها. إن عالم الطفل ليس مصنوعاً من الطين، لكي يبقى، بل من الغيوم. نسمة باردة تهب عبر صدغيه وينكشف العالم ثم يرق ويتلاشى. لا بد أن الهيولى قد مرت أمام عيني اللّه بالطريقة ذاتها قبل الخلق.

حين كنت طفلاً توحدت بالسماء والحشرات والبحر والريح ـ بكل ما كنت أراه وألمسه. في ذلك الحين كان للريح صدر، وكان لها كفان. وكانت تداعبني. كانت، أحياناً، تغضب وتعاندني ولا تسمح لي بالمسير، واذكر أنها كانت تلقيني أرضاً. وكانت تنتزع الأوراق عن الدالية. وتعبث بشعري الذي سرحته أمي بعناية، وتنتزع الوشاح عن رأس جارنا ديمترو، وترفع تنورة زوجته بينيلوب.

ولم نفترق، بعد، أنا والعالم. إلا أنني بدأت أسحب نفسي، شيئاً فشيئاً من عناقه. وقفت أنا في جانب، وهو في جانب. وبدأت المعركة.

وبينما كان الطفل جالساً على عتبة المنزل يتلقى طوفان العالم الكثيف والعكر، بغتة ذات يوم، صار يرى وقويت حواسه الخمس. وكل منها حفرت طريقها وأخذت نصيبها من مملكة العالم. وأذكر أن أول حاسة قويت في داخلي وتماسكت هي حاسة الشم. وهي الأولى التي بدأت بإقامة النظام على الهيولى المشوشة.

كان لكل شخص، بالنسبة لي، أريجه الخاص. وذلك منذ أن كان عمري سنتين أو ثلاث سنوات. وقبل أن أرفع عيني لرؤيته كنت أعرفه بالرائحة التي تصدر عنه. كانت لأمي رائحة خاصة، ولأبي رائحة غيرها. وكان لكل عم أو خال رائحته الخاصة. وكذلك لكل امرأة في الجوار. وحينما كان يأخذني بين ذراعيه أو ذراعيها، كنت دائما، وبسبب الرائحة، إما أن أحبه أو أبدأ برفسه ورفضه. ولقد تلاشت هذه القدرة مع الزمن. واختلطت الروائح المختلفة. وغرق الجميع في نتن العرق والتبغ والبنزين.

Twitter: @ketab_n

لطيفة تعيش في الشارع المقابل لنا. وحين كانت الزوجة تزور بيتنا كانت الرائحة التي تصدر عنها تصيبني بالقرف. وكنت أكسر عوداً من الحبق وأشمه، أو أضع في كل من منخري زهرة من الأكاسيا. لكن كان لهذه السيدة، فطوم، طفلة في الرابعة من عمرها (لابد أنني كنت في الثالثة) كانت تفوح منها رائحة غريبة ليست بالتركية ولا باليونانية، كنت أراها رائحة طيبة. كانت أمينة بيضاء وريانة، براحتين وقدمين مدهونة بالكينا، وشعر مجدول بجدائل صغيرة جداً وبكل جديلة تعلقت صدفة أو حصاة زرقاء صغيرة لاتقاء العين الشريرة. كانت رائحتها مثل جوزة الطيب.

كنت أعرف الساعات التي تغيب فيها أمها عن البيت. وتعودت أن أذهب إلى باب دارنا في هذه الأوقات وأراقب أمينة وهي جالسة على عتبة بيتها وهي تمضغ اللبان. كنت أشير لها أنني قادم. لكن لبابها ثلاث درجات. ولذلك كان يبدو عالياً جداً بالنسبة لي. كيف يمكنني التغلب عليها؟ كنت أعرق وأجهد نفسي. وبعد جهد أصعد الدرجة الأولى. وبعد ذلك يبدأ كفاح آخر لتسلق الثانية. وأتوقف قليلاً لألتقط أنفاسي. ثم أرفع عيني لأتطلع إليها، وهي تجلس على العتبة لا مبالية على الإطلاق. وبدل أن تمد يدها لمساعدتي كانت تكتفي بالنظر إلي والانتظار دون أن تتزحزح.وكان يبدو أنها تقول: إن استطعت قهر العقبات فسيكون كل شيء على ما يرام. ستصل إلي وسنلعب معاً. وإن لم تستطع فعد! لكنني استطعت قهر العقبات أخيراً. وبعد كفاح عظيم وصلت إلى العتبة حيث كانت تجلس. عندئذ نهضت وأمسكت بيدي وأدخلتني. كانت أمها غائبة طوال ذلك الصباح تعمل في تنظيف البيوت. ودون أن نضيع لحظة خلعنا أحذيتنا واستلقينا على ظهرينا ولاصقنا أقدامنا العارية. لم نكن ننبس بكلمة.

كنت أغمض عيني وأحس بدفء أمينة يمر من قدمها إلى قدمي ثم يصعد شيئاً فشيئاً إلى ركبتي وبطني وصدري إلى أن يملأني كلياً. وكانت الغبطة التي أحس بها عميقة حتى خيل إلي أنني سوف يغمى علي. ولم يحدث في حياتي كلها أن أعطتني امرأة أخرى غبطة أكبر ومتعة أشمل. ولم يحدث أن شعرت بلغز حرارة جسد الأنثى بهذا العمق. وحتى الآن، وبعد سبعين عاماً، فإنني أغمض عيني وأحس بدفء أمينة يصعد من قدمي ثم ينتشر عبر جسدي كله وروحي كلها.

وبالتدريج تخليت عن خوفي من المشي والتسلق وصرت أدخل البيوت القريبة لألعب مع أطفال الجيران. وصار العالم يتوسع.

وحين صرت في الخامسة اتخذت من إحدى النساء معلمة لتعلمني كيف أرسم حرف (أ) وكولوريا[1] على اللوح. وكان المفروض أن هذا سيمرن يدي بحيث أستطيع كتابة الأبجدية

(1) كرات عجينية مرشوشة بالسمسم. وهي أكلة يونانية تباع في الشوارع.

حين أكبر. كانت ذات طابع فلاحي بسيط، قصيرة وبدينة ومحدبة قليلاً وعلى الجانب الأيمن من ذقنها ثؤلول. كان اسمها مدام أريتي. وراحت ترشد يدي (ورائحتها قهوة) وتشرح لي كيف يجب أن أمسك بالحكك وأسيطر على أصابعي.

ولم تكن تعني لي شيئاً في البدء. ولم أكن أحب نفَسها ولا حدبتها. ولكن بعد ذلك، ورغم أنني لا أعرف كيف، بدأت تتحول شيئاً فشيئاً أمام عيني. اختفى الثؤلول، واستقام ظهرها، وامتشق جسدها المكتنز وصار جميلاً. وأخيراً، وبعد أسابيع قليلة، تحولت إلى ملاك أهيف يرتدي ثوباً أبيض كالثلج ويمسك ببوق نحاسي هائل. لابد أنني رأيت هذا الملاك على أيقونة ما في كنيسة القديس ميناس. ومرة أخرى حققت عينا الطفولة معجزتهما: الملاك والمدام المعلمة صارتا واحداً.

مرت السنوات وارتحلت خارجاً ثم عدت مرة أخرى إلى كريت. فقمت بزيارة إلى بيت معلمتي. كانت سيدة ضئيلة عجوزاً تجلس على درجات الباب لتتشمس. وعرفتها من الثؤلول في ذقنها. وحين اقتربت وعرفتها بنفسي بكت فرحاً. كنت قد جلبت لها بعض الهدايا: قهوة وسكر وعلبة من Loukousns. ترددت قليلاً خجلاً من أن أسألها. لكن صورة الملاك مع البوق كانت قد أصبحت عميقة في النفس بحيث أنني لم أستطع أن أضبط نفسي: - مدام أريتي. هل سبق لك أن ارتديت ثوباً أبيض وأمسكت ببوق نحاسي كبير بين يديك؟

وشهقت السيدة العجوز المسكينة: «فليحفظنا القديسون». ثم رسمت الصليب على نفسها وقالت: أنا بثوب أبيض ومع بوق؟ لا سمح الله. أنا مغنية!

وبدأت عيناها تدفقان.

لقد أعيد عجن كافة الأشياء سحرياً في عقلي الطفولي الفج. ولقد استحضرت الماضي إلى ما وراء العقل واقتربت من حافة الجنون. إلا أن هذا الجنون هو ذرة الملح التي تحفظ الوعي من التعفن. كنت أعيش وأتكلم وأتحرك في حكاية للجنيات كنت أخلقها بنفسي في كل لحظة شاقاً الطريق فيها لكي أفسح لنفسي ممراً. لم أر شيئاً واحداً مرتين أبداً لأنني كنت أمنحه وجهاً جديداً في كل مرة وأجعله غير معروف. وهكذا فإن عذرية العالم كانت تجدد نفسها في كل لحظة.

كان لبعض الفاكهة، بشكل خاص، نوع من السحر الغامض بالنسبة لي كالكرز والتين بشكل خاص. ليس التين نفسه كفاكهة بهذه البساطة بل الأوراق ونكهتها. ولقد تعودت أن أغمض عيني وأتنشقها حتى يشحب لوني من الحبور الجسدي المفعم. لا، ليس الحبور، بل الإثارة والخوف والرعشة وكأنني كنت أدخل غابة خطرة معتمة.

أخذتني أمي معها ذات يوم وسافرنا إلى شاطئ مهجور خارج ميغالو كاسترو حيث كانت النساء يذهبن للسباحة، وكان ذهني مليئاً بالبحر الواسع المضطرم. كانت الأجساد تبرز من

Twitter: @ketab_n

هذا النيلي الناري شاحبة وضعيفة وغريبة، مثلما كانت تبدو لي، وكأنها مريضة. كن يطلقن صيحات حادة ويتقاذفن بحفنات من الماء. ولم أكن، أستطيع أن أرى منهن إلا حتى الخصر. أما ما تحت الخصر فكان في البحر. وقررت أنهن لابد أن يكن تحت الخصر أسماكاً. لابد أنهن حوريات البحر التي كان الناس يتحدثون عنها.

وأتذكر الحكاية الخرافية التي حكتها لي جدتي عن حورية البحر التي كانت أخت الاسكندر الكبير. كانت، وهي تجوب البحار بحثاً عن أخيها، تسأل كل السفن التي تمر بها: «هل الملك الاسكندر حي؟» وينحني الربان على حافة المركب ويصرخ: «إنه حي يا سيدتي. حي ونراه». ويا لسوء الحظ إن أجابها بأن الملك ميت. لأنها عندئذ ستضرب البحر بذنبها وتثير عاصفة وتمزق السفن.

نهضت إحدى هذه الحوريات اللواتي يسبحن أمامي من البحر وأشارت. هتفت لي بشيء ما، إلا أن ضجة البحر كانت عالية فلم أفهمها. كنت قد دخلت لتوي عالم الجنيات. وخطر لي أنها تسأل عن أخيها، فصرخت خائفاً: «إنه حي. حي ونراه». فتمايلت الحورية بغتة وهي تضحك. ولخجلي هربت غاضباً. ورحت أتمتم: «عليهن اللعنة. إنهن نساء. ولسن حوريات». ثم جلست على صخرة صغيرة وإحساس بالخزي يغمرني وأنا أدير ظهري للبحر.

وإنني لأحمد اللّه أن هذه الرؤيا الطفولية العذبة لا تزال حية في داخلي بكل امتلائها باللون والصوت. وهذا ما يبقي عقلي بعيداً عن الضياع ويحفظه من الذبول والجفاف. إنها القطرة المقدسة من الماء الخالد التي تمنعني من الموت. وحين تكون لدي الرغبة في الحديث عن البحر والمرأة أو اللّه في كتاباتي فإنني أغوص في صدري محملقاً ثم أصغي بعناية لما يقوله الطفل في داخلي. إنه يملي علي. وإذا حدث أن اقتربت من هذه القوى العظيمة، البحر والمرأة والله، واستطعت أن أتعامل معها بالكلمات وأن أصفها فإنني مدين بذلك للطفل الذي لا يزال يعيش في داخلي. إنني أعود من جديد طفلاً لكي أمكن نفسي من رؤية العالم للمرة الأولى دائماً وبعينين عذراوين.

إن كلاً من أبَوَي يتجول في دمي. الأول قاس وصلب ومناكد. والآخر ودود ولطيف وقدسي. لقد حملتهما طوال عمري ولم يمت أي منهما. وطالما أنا حي سيظلان يعيشان في داخلي. وسيظلان يتصارعان بهذا التضاد من أجل السيطرة على أفكاري وأعمالي. ولقد انصرف جهدي طوال عمري لمصالحتهما. لعل الأول يعطيني قوته والثاني لطفه، لكي أحول النزاع القائم بينهما، والذي يتفجر دون توقف في داخلي، إلى توافق وانسجام في قلب ابنهما.

وهذه واقعة أخرى لا تصدق. إن حضور والدي متجسد بوضوح في ساعدي. فساعدي الأيمن قوي جداً وخال من الحساسية ورجولي بشكل مطلق. أما ساعدي الأيسر فيتمتع بحساسية مفرطة ومرضية. وكلما تذكرت صدر امرأة أحببتها أحسست بالألم وبوخز بسيط في

Twitter: @ketab_n

راحة يدي اليسرى. حتى إنها تصبح على وشك التحول إلى زرقاء وسوداء من الألم، وعلى وشك أن يظهر فيها جرح حقيقي. وكلما كنت وحيداً أراقب عصفوراً يحلق في الجو أحس بحرارة بطنه في راحتي اليسرى. ففي يدي فقط، وفي يدي وحدها، هجر كل من والديَّ الآخر واستقل كل منهما بملكيته: أبي في يدي اليمنى وأمي في يدي اليسرى.

ويجب أن أضيف هنا حادثاً كان له أثر عميق في حياتي. وهو أول جرح نفسي تلقيته. وعلى الرغم من أنني قد شخت الآن إلا أن هذا الجرح لم يشف بعد.

ربما كنت في الرابعة من عمري. أخذني أحد أعمامي بين ذراعيه. وكان من الواضح أننا سنذهب لزيارة جار قرب مقبرة القديس ماتيو الواقعة داخل أسوار المدينة.

الربيع: كان البابونج يغطي القبور. وكانت شجيرة زهرة في الزاوية مليئة بأزهار نيسانية. لا بد أن الوقت كان ظهراً. الشمس قد سخّنت الأرض، والعشب فواح. وكان باب الكنيسة مفتوحاً والكاهن قد وضع بخوراً في المبخرة وارتدى بطرشيله[2]. اجتاز العتبة واتجه نحو القبور.

وسألت عمي وأنا أستنشق، بعمق، أريج البخور والتراب: «لم يلوح بالمبخرة؟».

كان أريجاً حاراً وبدا لي أنه مقزز إلى حد ما. وذكرني برائحة الحمّام التركي الذي زرته مع أمي يوم السبت الماضي.

«لماذا يلوح بالمبخرة؟» سألت مرة أخرى عمي الذي كان لا يزال يتقدم بين القبور بصمت.

ـ اهدأ. ستعرف بعد قليل. اتبعني.

وحين درنا وراء الكنيسة سمعنا حديثاً. كانت هناك خمس أو ست نسوة متشحات بالسواد وهن واقفات حول قبر. رفع رجلان بلاطة الضريح ثم نزل أحدهما في القبر وبدأ يحفر. اقتربنا ووقفنا إلى جانب الحفرة.

سألت: ماذا يفعلون؟

ـ ينبشون العظام.

ـ أية عظام؟

ـ سترى بعد قليل.

كان الكاهن واقفاً على رأس الضريح وهو يلوح بالمبخرة ويتمتم بالصلوات هامساً. انحنيت على التربة المحفورة مجدداً. عفن ونتن. وضغطت منخريّ. ورغم أنني قرفت حتى القيء فإني لم أبتعد. انتظرت. عظام؟ أية عظام؟ رحت أسأل نفسي وأنتظر.

---

(2) نسيجة طويلة يجعلها الكاهن في عنقه وعلى صدره عند القداس.

Twitter: @ketab_n

وبغتة استقام الرجل الذي كان يحفر منحنياً. وظهر جذعه خارج الحفرة. كان يمسك بين يديه جمجمة. مسح عنها الأقذار وهو يمد إصبعه ليدفع الوحل من حفرتي العينين. ثم وضعها على حافة القبر وانحنى من جديد وتابع حفره.

سألت عمي وأنا أرتعد خوفاً: ما هذا؟

ـ ألا ترى؟ إنها رأس إنسان ميت. جمجمة.

ـ جمجمة من؟

ـ ألا تتذكرها؟ جمجمة جارتنا أنيكا.

ـ أنيكا؟

وانفجرت في البكاء. وبدأت أولول: «أنيكا! أنيكا!». وألقيت بنفسي على الأرض وجمعت ما استطعت أن أجده من الحجارة وبدأت أقذف بها حفار القبور.

وفيما أنا أبكي وأندب رحت أصرخ! كم كانت جميلة وكم كانت رائحتها جميلة! فقد اعتادت أن تأتي إلى بيتنا وتضعني على ركبتيها وتسرح خصلات شعري بالمشط الذي تنتزعه من شعرها. واعتادت أن تدغدغني تحت ذراعي وأنا أقهقه وأزقزق كالعصفور.

أخذني عمي بين ذراعيه وأبعدني قليلاً ثم راح يكلمني غاضباً: «لماذا تبكي؟ ماذا كنت تتوقع؟ لقد ماتت. ونحن جميعاً سنموت».

لكنني كنت أفكر بشعرها الأشقر وعينيها الواسعتين وشفتيها الحمراوين اللتين اعتادتا أن تقبلاني. والآن. .

وزعقت: «وشعرها، وشفتاها وعيناها؟»

ـ ذهبت. ذهبت. أكلتها الأرض.

ـ لماذا؟ لماذا؟ أنا لا أريد أن يموت الناس.

هز عمي كتفيه وقال: «حينما تكبر ستعرف لماذا».

ولم أعرف أبدا. لقد كبرت وصرت عجوزاً ولم أعرف أبداً.

Twitter: @ketab_n

5

المدرسة الابتدائية

بعيني السحرية أبدا، وبذهني المليء بطنين النحل والعسل، وبقبعة خشبية حمراء على رأسي، وحذاء موشى بكرتين حمراوين في قدمي، انطلقت ذات صباح نصف مسرور ونصف منزعج. كان أبي يمسك بيدي. وقد أعطتني أمي قطفة من الحبق (كان من المفروض أن أستمد الشجاعة من تشممها)، وعلقت حول رقبتي صليب معموديتي الذهبي. وقد تمتمت وهي تنظر إلي بخفر: «عليك بركات اللّه، وبركاتي أيضاً».

كنت مثل أضحية صغيرة مثقلة بالزينات. وكنت أحس في أعماقي بالفخر والخوف معاً. ولكن كفي كانت مثبتة بعمق داخل قبضة والدي، وأنا أثقل نفسي بشجاعة الرجال. وظللنا نسير ونسير في الأزقة الضيقة حتى وصلنا إلى كنيسة القديس ميناس. ثم انعطفنا ودخلنا بناءً قديماً ذا باحة واسعة. كانت هناك أربع غرف كبيرة في الزوايا. وفي الوسط شجرة الدلب المغطاة بالغبار. وقفت متردداً وقد فقدت شجاعتي وبدأت كفي ترتعش داخل الباحة الدافئة الكبيرة.

انحنى والدي ليلمس شعري ويربت عليه. ارتعشت، لأنها، على ما أذكر، كانت المرة الأولى التي يربت فيها علي. رفعت عيني ونظرت إليه خائفاً. وحين رأى خوفي سحب يده وقال: «سوف تتعلم القراءة والكتابة هنا. وبهذا ستصبح رجلاً».

وظهر المعلم في الباب. كان يمسك بعصا طويلة وقد بدا لي متوحشاً، متوحشاً بأنياب كبيرة. واسترقت النظر إلى قمة رأسه لأرى ما إذا كانت له قرون. لكنني لم أستطع أن أرى. فقد كان يضع على رأسه قبعة.

قال والدي: «هذا ابني». وحولني إلى المعلم، وهو يفلت كفي من كفه.

ـ عظامه لنا واللحم لك. لا تشفق عليه. اجلده واصنع منه رجلاً.

فأجاب المعلم وهو يشير إلى عصاه: لا تقلق يا كابتن ميخائيل. هذه هي الأداة التي تصنع الرجال.

Twitter: @ketab_n

تظل من أيام الدراسة الابتدائية هذه كومة من الرؤوس ثابتة في ذاكرتي. كومة من الرؤوس الملتصقة أحدها بالآخر كالجماجم. ولا بد أن معظمها قد تحول الآن إلى جماجم. إلا أن ما يبقى فيَّ متجاوزاً هذه الرؤوس وخالداً هو المعلمون الأربعة.

باتيروبولوس في الصف الأول: عجوز صغير وقصير جداً، ذو عينين حادتين وشاربين متدليين، والعصا في يده دائماً. كان يبحث عنا دائماً ويجمعنا ثم يرتبنا في رتل كما لو كنا بطاً. وكأنه سيأخذنا إلى السوق لبيعنا. وكان كل أب يقول له وهو يقدم له ابنه ـ العنزة البرية: «العظام لي واللحم لك يا معلم. فاجلده. اجلده إلى أن يصبح رجلاً». وكان يجلدنا بلا شفقة.

وكنا جميعاً، معلماً وتلاميذ، ننتظر اليوم الذي ستحولنا فيه هذه الضربات العديدة إلى رجال. وبعد أن كبرت وراحت النظريات الخيرة تضلل عقلي بدأت أصنف هذا الأسلوب على أنه همجي. ولكن بعد أن عرفت الطبيعة البشرية بشكل أفضل رحت أبارك، وما زلت، عصا باتيروبولوس المقدسة. فهي التي علمتنا أن المعاناة هي المرشد الأعظم في ذلك الصعود الذي يقود من الحيوان إلى الإنسان.

وكان تيتايروس ـ «أية جبنة» ـ يتحكم بالصف الثاني. كان ذلك المسكين يتحكم ولكنه لا يحكم. كان شاحباً يضع نظارتين ويرتدي قبة منشاة وقميصاً وحذاء جلدياً مفتوحاً ومحدباً عند الكعب. وله أنف ضخم مشعر وأصابع نحيلة مصفرة من التبغ. ولم يكن اسمه الحقيقي «أية جبنة». بل كان باباداكيس. إلا أن والده، الذي كان قسّاً لقرية نائية، جاء ذات يوم إلى المدينة وجلب له قرصاً كبيراً من الجبن كهدية «أية جبنة هذه يا أبي؟» صاح الابن (مستخدماً صيغة تايروس بدلاً من تايري ليتباهى بمعرفته الكاتاريفوسا[1]. وصدف أن كانت في البيت إحدى الجارات. سمعت الحديث ونشرت الكلمة فتم شيّ المعلم المسكين على الفحم وإعطاؤه هذا اللقب. ولم يكن «أية جبنة» يجلد بل كان يتودد. لقد اعتاد أن يقرأ علينا «روبنسن كروزو»، وهو يشرح لنا كل كلمة. ثم كان ينظر إلينا بعطف وألم وكأنه يتوسل إلينا أن نفهم. بينما كنا ندل بأصابعنا ونحدق منتشين إلى الصور المطبوعة بشكل سيئ للغابات المدارية، والأشجار ذات الأوراق الكبيرة والسميكة، وروبنسون بقبعته القشية ذات الإطار الواسع وامتداد المحيط الخاوي من كافة الجهات. وكان «أية جبنة» المسكين يخرج كيس تبغه ويدرج لفافة ليدخنها أثناء الفرصة وهو ينظر إلينا متوسلاً وينتظر.

وذات يوم بينما كنا في درس (التاريخ المقدس) وصلنا إلى إيساو Esau الذي باع حق ميلاده ليعقوب Jacob لقاء حساء العدس. وحين ذهبت إلى البيت للغداء سألت والدي عما يعنيه «حق ميلاده». فأجابني وهو يهرش رأسه ويسعل: «اذهب واسأل الخال نيكولاكي».

---

(1) اللغة اليونانية الأصلية، وهي لغة متحذلقة ومتقعرة.

Twitter: @ketab_n

كان هذا الخال قد أنهى دراسته الابتدائية، الأمر الذي جعله العنصر الأكثر ثقافة في الأسرة. كان أخاً لأمي. نوع من (توم ثومب) قصير وصغير وأصلع ذو عينين مذعورتين واسعتين ويدين كبيرتين مغطاتين بالشعر. لقد تزوج من فوق مستواه. وزوجته العدائية ذات الأنف الحاقد لم تكن تحس نحوه إلا بالاحتقار. وإضافة إلى ذلك كانت غيورة. ولذلك فإنها كانت في كل ليلة تقوم بربط قدمه إلى عمود السرير بحبل لكي تمنعه من النهوض ليلاً والذهاب لزيارة الخادمة الممتلئة ذات الصدر الكبير التي كانت تنام في الطابق السفلي. وفي الصباح كانت تطلق سراحه. وقد تحمل خالي المسكين هذا الاستشهاد خمس سنوات. ثم شاء الله أن تموت ذات الأنف الحاقد (من أجل هذا نصف الله بالخير المطلق) فتزوج خالي هذه المرة فتاة ريفية قوية وطيبة القلب وبذيئة اللسان لم تكن تقيده. واعتاد أن يأتي إلى بيتنا متباهياً لزيارة والدتي.

وكانت تسأله: كيف تسير أمورك الآن مع زوجتك الجديدة يا نيكولاكي؟

ـ لا حاجة لأن تسأليني عن مقدار سعادتي يا مارغي، إنها لا تقيدني.

ولخوفه من والدي لم يكن يرفع عينيه للنظر إلى وجهه. بل كان يحدق دائماً إلى باب الدار، وهو يفرك كفيه المكسوتين بالشعر. وفي ذلك اليوم، ما إن سمع أن الكابتن ميخائيل يطلبه حتى نهض عن المائدة وفمه مليء بالطعام وتوجه إلى بيتنا.

ما الذي يمكن أن يريده مني الغول؟ سأل نفسه مغتاظاً، وهو يبتلع آخر لقمة. كيف تتحمله أختي المسكينة؟ وحين تذكر زوجته الأولى ابتسم بارتياح وتمتم: «أما أنا فقد نجوت على الأقل. الحمد لله».

وما أن رآه والدي حتى ناداه: تعال. أنت قد ذهبت إلى المدرسة. فاشرح هذه.

وشكل الاثنان مجلساً وهما منكبان على الكتاب. وبعد تأمل طويل قال والدي: «حق الميلاد يعني بذلة الصيد». وهز خالي رأسه معترضاً وقال: «أظن أنه يعني المسكيت»[2]. ولكن صوته كان يرتجف. وزأر والدي: «بذلة صيد»، وهو يعقد حاجبيه، بينما كان خالي يرتجف.

وفي اليوم التالي سألنا المعلم: «ماذا يعني حق الميلاد؟»، فقفزت صائحاً: بذلة صيد.

ـ يا للسخافة. أي أحمق جاهل قال لك ذلك؟

ـ والدي.

وجبن المعلم. وبما أنه كغيره يخاف من والدي فكيف يمكن له أن يحلم بمخالفته؟ ابتلع ريقه بصعوبة وقال: «نعم بالتأكيد. ولكن هذا نادر جداً. إنها يمكن أن تعني بذلة صيد. ولكن هنا..»

---

(2) بندقية قديمة.

Twitter: @ketab_n

كان التاريخ المقدس موضوعي المفضل. فقد كان حكاية خرافية غريبة ومعقدة فيها ثعابين تتكلم وفيضانات وأقواس قزح وسرقات وجرائم قتل. الأخ يقتل أخاه والأب يريد ذبح ابنه الوحيد. والله يتدخل مرة كل دقيقتين ويقوم بدوره في القتل، والناس يعبرون البحر دون أن تبتل أقدامهم.

لم نكن نفهم. وكنا نسأل المعلم وهو يسعل ويرفع عصاه غاضباً صارخاً: أوقفوا هذه الوقاحة! كم مرة قلت لكم أن لا تتكلموا. وكنا نجيب بصوت كالأنين: «لكننا لا نفهم يا سيدي». ويجيب: هذه أفعال الله. وليس من المفترض بكم أن تفهموها. فهذه خطيئة.

خطيئة! كنا نسمع هذه الكلمة المخيفة وننكمش مرعوبين. لم تكن كلمة بل ثعباناً. الثعبان نفسه الذي أغوى حواء. كان يأتي من منصة المعلم وهو يفتح فمه لالتهامنا. وكنا ننكمش في مقاعدنا ولا ننبس.

والكلمة الأخرى التي أرعبتني حين سمعتها لأول مرة هي كلمة «إبراهام». كان حرفا الألف يرتعشان في داخلي ويبدو أنهما آتيان من مكان بعيد، من بئر عميقة مظلمة مخيفة. وكنت أهمس لنفسي: «إبراهام. إبراهام» بسرية تامة وأنا أسمع الخطوات واللهاث ورائي. كان هناك شخص ما يتبعني بقدمين جبارتين حافيتين. وحين عرفت أنه أخذ ابنه ذات يوم لذبحه جمدني الرعب. لا شك أنه هو الذي يذبح الأطفال. وصرت أختبئ وراء مقعدي لكي لا يكتشفني ويأخذني. وحين قال لنا المعلم إن من يتبع وصايا الله يذهب إلى بطن إبراهام أقسمت بيني وبين نفسي أن أخالف الوصايا كلها لكي أنقذ نفسي من ذلك البطن.

ولقد أحسست بالإثارة ذاتها حين سمعت للمرة الأولى، في موضوع التاريخ المقدس ذاته، بكلمة هاباكوك Habakkuk. فقد بدت لي هي الأخرى غامضة. فالهاباكوك هو البعبع الذي يتسلل إلى الدار كلما هبط الظلام (كنت أعرف المكان الذي يجثم فيه: وراء البئر). وذات مرة حين تجرأت على المغامرة بالخروج وحيداً إلى الدار ليلاً قفز من وراء البئر ومد يده وصرخ بي: «هاباكوك!». وبمعنى آخر: قف. سآكلك!

كان صوت بعض الكلمات يثيرني بشكل رهيب، وعلى الغالب كنت أحس بالخوف وليس بالغبطة. وبشكل خاص الكلمات العبرية. فقد علمت من جدتي أن اليهود في (الجمعة الحزينة) كانوا يأخذون الأطفال المسيحيين ثم يلقونهم في قناة مفروشة بالمسامير ويشربون دماءهم. وكثيراً ما كانت تبدو لي كلمة عبرية ما من (العهد القديم) ـ وخاصة كلمة يهوه ـ كقناة مفروشة بالمسامير، وكأن شخصاً ما يريد أن يلقيني فيها.

وفي الصف الثالث كان هناك بريانذر كراساكيس. أي عراب عديم الرحمة أعطى اسم طاغية كورنت المتوحش لهذا القزم المريض بياقته المرتفعة لكي تخفي الغدة في رقبته وساقيه الجنذبيتين الهزيلتين ومحرمته الصغيرة دائماً في فمه لكي يتمكن من البصاق والبصاق

Twitter: @ketab_n

والبصاق. . وكأنه يلفظ آخر أنفاسه؟ كان هذا الرجل مهووساً بالنظافة. ولذا كان يتفقد كل يوم أكفنا وآذاننا وأنوفنا وأسناننا وأظافرنا. ولم يكن يضرب أو يتوسل بل كان يهز رأسه الضخمة التي كانت مغطاة بالبثور ويصرخ بنا: وحوش! خنازير! إن لم تغتسلوا كل يوم بالصابون فلن تصيروا بشراً أبداً. أتعرفون ماذا يعني أن يصير المرء إنساناً؟ يعني أن يغتسل بالصابون. العقل ليس كافياً. أيها الشياطين المساكين. لابد من الصابون أيضاً. كيف ستظهرون أمام اللّه بأيد كهذه؟ هيا اذهبوا إلى الباحة واغتسلوا!

وفي النهاية كان يجعلنا نصاب بالخجل ساعات عديدة ـ أي الحروف الصوتية طويل وأيها قصير وهل نستخدم عليها علامة حادة أم منحنية[3] بينما نحن ننصت إلى الأصوات في الشارع ـ باعة الخضار، والصبيان الذين يبيعون الكولوري، ونهيق الحمير وضحكات النساء، وننتظر أن يقرع الجرس لكي نفر. وكنا نراقب المعلم وهو يتعرق في مقعده بينما يكرر نقاط القواعد مرة بعد أخرى بغاية تثبيتها في أذهاننا. لكن أفكارنا كانت هناك خارجاً في الشمس وفي حرب الحجارة. فقد كنا نعبد هذه اللعبة. وكثيراً ما أتينا إلى المدرسة برؤوس مفجوجة.

وذات يوم ربيعي مقدس فتحت النوافذ. كانت شجرة المندرين مزهرة في الجانب الآخر من الشارع ودخلت رائحتها الصف. وتحول كل عقل من عقولنا إلى شجرة مندرين مزهرة. ولم نعد نقوى على احتمال سماع أي شيء آخر حول الحركات والعلامات الحادة والمنحنية. وفي اللحظة ذاتها جاء عصفور وحط على شجرة الدلب في باحة المدرسة وبدأ يزقزق. عند هذا الحد كان تلميذ شاحب أحمر الرأس، وصل هذا العام من قريته واسمه نيكولويس، قد فقد القدرة على السيطرة على نفسه، فرفع إصبعه وقال: «إهدأ يا أستاذ. إهدأ قليلاً. دعنا نسمع العصفور».

يا لبيرياندر كراساكيس المسكين! لقد قمنا بدفنه ذات يوم. كان قد أرخى رأسه بهدوء على مقعده وارتجف قليلاً مثل سمكة ثم أسلم الروح. مصعوقين خوفاً من رؤية الموت أمامنا مباشرة اندفعنا إلى الباحة نزعق. وفي اليوم الثاني جئنا بملابس الأحد وقد غسلنا أيدينا بعناية (لكي لا ننكر عليه شيئاً في هذه المسألة). وأخذناه إلى المقبرة القديمة قرب البحر. كان الطقس ربيعاً. وكانت السماء تضحك ورائحة البابونج تنبعث من الأرض. وضع التابوت مكشوفاً. وكان وجه الميت مليئاً بالبثور المتقيحة التي بدأت تتحول إلى خضراء وصفراء. وحين راح تلامذته ينحنون عليه واحداً بعد الآخر لأخذ قبلة الوداع لم تعد للربيع رائحة البابونج بل رائحة اللحم المتعفن.

وفي الصف الرابع كان هناك مدير المدرسة الذي كان يحكم ويتحكم معاً. كان قصيراً

(3) العلامات التي توضع على الأحرف الصوتية لتؤثر في طريقة نطقها ومدها. وهي معروفة في اللغة الفرنسية مثلاً.

Twitter: @ketab_n

وبديناً مثل جرة المؤونة. وله لحية صغيرة مدببة وعينان رماديتان غاضبتان دائماً وساقان مقوستان. وكنا نتهامس فيما بيننا بحيث لا يسمعنا: «يا ألله، انظر إلى ساقيه. انظر كيف تلتف كل منهما حول الأخرى. واسمعه وهو يسعل. إنه ليس كريتياً». قد جاء إلينا من أثينا. وهذا يعني بيداغوجيا[4] جديدة (كلمة جديدة في اليونانية تعني أيضا امرأة شابة). غير أننا حين تقابلنا معه لأول مرة كان وحيداً. ولم تكن بيداغوجيا هناك. لابد أنها ظلت في البيت. كان يمسك بسوط مجدول من جلد البقر. رتبنا على رتل وبدأ يحاضر فينا. قال لنا إن علينا أن نرى ونلمس كل ما نتعلمه أو أن نرسمه على ورق مغطى بالنقاط. وإن علينا أن نمعن النظر. فهو لن يتوقف من أجل أي هراء ولا حتى من أجل الضحك أو الصراخ أثناء الفرصة. كان علينا أن نبقي أذرعنا مكتفة. وكلما رأينا قساً في الشارع علينا أن نقبل يده «أمعنوا النظر أيها الشياطين وإلا، أترون هذا؟»، وأشار إلى سوطه: «أنا لا أحكي فقط. سترون أنني أعني الفعل!» وقد رأينا هذا فعلاً. فحين كانت تدب الفوضى بيننا، أو حين كان يحس أنه في مزاج سيئ، كان يفك أزرار ملابسنا وينزل سراويلنا القصيرة ثم يسوط جلدنا العاري بسوطه. وحين كان يتكاسل عن فك أزرارنا كان يسوطنا على آذاننا حتى يتدفق الدم.

مرة قويت قلبي ورفعت إصبعي وسألته: «أستاذ! ما هي البيداغوجيا الجديدة؟ ولماذا لا تأتي إلى المدرسة؟». فوثب عن كرسيه وتناول السوط من علاّقته على الجدار وصاح: «تعال هنا أيها المشاغب الوقح. فك سروالك». كان أكسل من أن يفعل ذلك بنفسه. «هنا! هنا! هنا!» وهو ينزل بضرباته. وحين تصبب منه العرق توقف: «هنا البيداغوجيا. مرة ثانية اخرس».

غير أنه كان بدوره، شيطاناً صغيراً ماكراً زوج البيداغوجيا الجديدة هذا. ذات يوم قال لنا: غداً سأحدثكم عن كريستوف كولومبس وكيف اكتشف أمريكا. ولكن لكي تفهموا أفضل أريد من كل منكم أن يكون ممسكاً ببيضة في يده ومن ليس لديه بيضة في البيت فليجلب بعض الزبدة.

كانت لديه ابنة في سن الزواج اسمها تيربسيكور: قصيرة ومبتهجة. وعلى الرغم من وجود العديد من الخاطبين إلا أنه لم يكن يريدها أن تتزوج: «لن أسمح لشيء بغيض كهذا أن يحدث في بيتي». كما اعتاد أن يقول. وحين جاءت القطط في كانون الثاني وبدأت تموء على القرميد جلب سلماً وصعد إلى السطح وهو يطاردها متمتماً: «اللعنة على الطبيعة. ليس لديها أخلاق».

يوم (الجمعة الحزينة) أخذنا إلى الكنيسة لكي نقدم احترامنا للمصلوب. وبعد ذلك عاد بنا إلى المدرسة لكي نشرح ما رأيناه وما يعنيه الصلب. انهددنا في مقاعدنا متعبين ومشمئزين

(4) علم أصول التدريس.

Twitter: @ketab_n

لأننا لم نكن قد أكلنا شيئاً ذلك اليوم إلا الليمون الحامض. ولم نكن قد شربنا شيئاً إلا الخل لكي نتحسس معاناة المسيح. بينما بدأ زوج البيداغوجيا بصوت عميق ووقور يشرح كيف نزل الله على الأرض وكيف أنه صار المسيح وعانى ثم صلب لكي يخلصنا من الخطيئة. ولم نفهم بوضوح ما كانت تعنيه تلك الخطيئة غير أننا فهمنا بوضوح أنه كان لديه اثنا عشر تلميذاً أحدهم (يهوذا) قد خانه.

«ويهوذا كان مثل. مثل من؟».

ترك المعلم منصته وبدأ يتقدم ببطء مهدداً من مقعد إلى مقعد، وهو ينظر إلينا الواحد بعد الآخر. «يهوذا. كان مثل. مثل. .» كانت سبابته ممدودة وهو ينقلها من تلميذ إلى آخر لكي يرى أياً منا كان يشبه يهوذا. وجمدنا جميعاً ونحن نرتجف خشية أن تستقر علينا الإصبع الرهيبة.

وبغتة أطلق المعلم صرخة وتوقفت إصبعه على صبي شاحب ملابسه رديئة وله شعر جميل أشقر مائل للاحمر. كان هذا نيكوليوس الصبي نفسه الذي هتف في العام الماضي، في الصف الثالث: «اهدأ يا أستاذ ودعنا نسمع العصفور».

«ها هو ذا. مثل نيكوليوس». صرخ المعلم «مطابق تماماً. الشحوب نفسه والملابس ذاتها. ويهوذا أيضا كان له شعر أحمر. أحمر غامق كلهيب الجحيم».

وحين سمع نيكوليوس المسكين ذلك انفجر بالبكاء. والبقية، وقد زال عنها الخطر، توجهت إليه بنظرات حاقدة ضارية. وبدأت الكلمة تنتقل سراً من مقعد إلى مقعد بحيث أنه ما إن انتهى الدوام حتى كنا قد قررنا أن نضربه ضرباً مبرحاً لأنه خان المسيح.

وبعد أن اقتنع باتباعه البيداغوجيا الحديثة وبتقديم شبيه ليهوذا صرف المعلم الصف. وطوقنا نيكوليوس حالما وصلنا إلى الشارع وبدأنا نبصق عليه ونضربه. وركض وهو يبكي، لكننا طاردناه بالحجارة ساخرين «يهوذا يهوذا». إلى أن دخل إلى بيته.

ولم يظهر نيكوليوس مرة أخرى في الصف ولم يأت إلى المدرسة مطلقاً. وبعد ثلاثين عاماً كنت عائداً إلى كريت بعد إقامتي في أوروبا قرع بابي. كان سبت النور. وكان والدي قد طلب لنا جميعاً أحذية جديدة من أجل الفصح. ووقف بالعتبة رجل شاحب ضعيف بشعر أحمر ولحية حمراء. كان يقدم لنا الأحذية التي لفت بعناية بقماش ملون. كان يقف بخجل على الباب وهو ينظر إلي ويهز رأسه: «ألم تعرفني؟ ألا تتذكرني؟». عرفته حين قال ذلك. فصرخت وأنا أحتضنه بين ذراعي: «نيكوليوس». فأجاب وهو يبتسم بمرارة: «يهوذا!».

إني كثيراً ما أتذكر جيراننا من الرجال والنساء. ودائما أتذكرهم برعب. فقد كان معظمهم أنصاف مجانين وذوي نزوات غريبة. إن عقولهم تنهار، ربما لأنهم ينعزلون طوال العام داخل الجدران الأربعة لبيوتهم، وهم يغلون في طاقاتهم، وربما لخوفهم من الأتراك

Twitter: @ketab_n

وحرصهم على حياتهم. فقد سمعوا العجائز وهم يحكون الحكايات عن المجازر والحروب وعن تعذيب المسيحيين حتى يقف شعر رؤوسهم. فإذا جاء أحد ووقف أمام أبواب بيوتهم فإنهم يقفزون واقفين وقد صعقهم الخوف. فكيف ينامون ليلاً؟ تظل عيونهم مفتوحة وآذانهم متربصة. إنهم ينتظرون ساعة الشر التي لا بد أن تأتي.

برعب، فعلاً، أتذكر رجال جيراني ونساءهم. مدام فكتوريا، تحت بيتنا مباشرة، تحيّيك أحيانا بعذوبة مع وابل من الأحاديث اللطيفة من المستحيل إيقافه. وأحياناً تصفق الباب في وجهك وتلعنك من ورائه.

بمواجهتها كانت هناك مدام بنلوب، بدينة مترهلة متقدمة في السن، دائماً تمضغ القرنفل لتحسن من رائحة أنفاسها. كانت تضحك دائماً كأن هناك من يدغدغها. وكان زوجها، السيد ديميتروس، من النوع الصموت والمصاب بوسواس من المرض. يحمل مظلته معه دائماً ويذهب إلى الجبال. وبعد شهرين أو ثلاثة أشهر يعود بثياب ممزقة وهو يكاد يموت جوعاً، وبنطاله معلق ومتدل حوله. وحين كانت مدام بنلوب تراه يظهر من بعيد وهو يمسك بمظلته المفتوحة فوقه كانت تنفجر بالضحك: «ها قد عاد ليملأ سراويله». هكذا تصرخ منادية الجيران الذين يسندون خواصرهم من الضحك.

وعلى مبعدة في أسفل الشارع كان يعيش السيد مانوسوس وهو تاجر مرموق ممسوس قليلاً وكلما ترك منزله صباحا كان يرسم بقطعة من الحكك صليباً على مدخل منزله. وعند عودته ظهراً لكي يأكل كان يجلد أخته ـ بانتظام ودائماً في الساعة ذاتها تماماً ـ وحين كنا نسمع صرخاتها كنا نعرف أنه قد حان وقت الغداء. ولذا كنا نتوجه إلى المائدة. ولم يكن السيد مانوسوس يفتح شفتيه ليلقي تحية الصباح بل كان يكتفي بالنظر إليك بمزيج من الوحشية والخوف.

وكان السيد أندرياس (الطليعي) يقطن بيتاً فوق بيتنا بقليل في رأس الشارع. كان غنياً مليئاً بالبثور وكان له أنف ضخم، بمنخرين واسعين، يجعله يبدو شبيهاً بالعجل. وكلما أغلق بابه كان يقف ويتحسسه ساعة من الزمان ليتأكد من أنه لم يتركه مفتوحاً، وهو يردد طوال الوقت التعاويذ لكي يطرد عنه اللصوص والنار والمرض. وأخيراً كان يرسم الصليب ثلاث مرات ثم يتابع طريقه وهو يتلفت وراءه. وقد لاحظ أطفال الجوار أنه كان يدوس دائماً على الحجارة ذاتها فاعتادوا أن يكوموا الوحل أو روث الخيول على الحجارة لاستفزازه. إلا أنه كان يزيح الأوساخ بعصاه جانباً ثم يخطو كما اعتاد.

وكان لدينا جار آخر هو الدكتور بيركليس الرائع، مفخرة الشارع. كان طبيباً جديداً قد عاد مؤخراً من دراسته في باريس. أشقر وأنيق يحمل نظارتين من الذهب ويرتدي قبعة رسمية. وهو بالتأكيد أول طبيب يقطن في ميغالوكاسترو. وكان يزور المرضى بالخفين لأن قدميه (كما قال) كانتا متورمتين. وكان هذان الخفان مطرزين بيدي أخته العانس التي

Twitter: @ketab_n

استهلكت مهرها لكي تنفق على تعليمه. كان طبيب عائلتنا. ولقد اعتدت أن أنحني على الخفين وأبدي إعجابي بالتطريز الذي كان عبارة عن ورود حريرية محاطة بأوراق خضراء. وذات مرة كنت مصاباً بالحمى وجاء ليراني، فقلت له متوسلاً إنه إن كان يريدني أن أشفى فليمنحني الخفين. فقام بجدية تامة ـ لم يكن يتنازل بالضحك أبداً ـ بوضعهما على قدمي ليرى إن كانا ملائمين. إلا أنهما كانا كبيرين جداً. ولكي أعزي نفسي حككت أنفي بالزهرات المطرزة لأرى إن كانت لها رائحة: كانت لها رائحة. ولكنها لم تكن رائحة زهور.

لا أستطيع تذكر جيراني دون أن أنفجر بالضحك الممزوج بالدموع. في ذلك الحين لم يكن الناس بالدزينات على نمط واحد. كان كل منهم علَماً مستقلاً. كان يضحك ويتحدث بشكل مختلف عن جيرانه. وكان يغلق على نفسه باب بيته ليحتفظ برغباته السرية مخبوءة بدافع الخجل أو الخوف. وكانت هذه الرغبات تتوالد في داخله حتى تخنقه. غير أنه لم يكن يفوه بشيء. وكانت حياته تأخذ طابع الجدية المأساوية. وإضافة إلى ذلك كان هناك الفقر. وكأن ذلك لم يكن كافياً. فقد كانت هناك الكبرياء التي تطالب بأن لا يكتشف أحد هذا الفقر. كان الناس يعيشون على الخبز والزيتون وجذوع الخردل لتجنب الخروج بملابسهم المرقعة. وقد سمعت أحد الجيران يقول ذات مرة: الفقير هو ذلك الذي يخاف من الفقر. وأنا لا أخاف منه.

Twitter: @ketab_n

6

موت جدي

كنت لا أزال في المدرسة الابتدائية حين جاء راع يعدو من القرية ليأخذني إلى جدي الذي كان من الواضح أنه يلفظ أنفاسه الأخيرة. لقد طالب بي لكي يمنحني بركاته. كان ذلك في آب على ما أذكر، والحر كان شديداً. ركبت على حمار بينما كان الراعي يسير ورائي وهو يمسك بعصا مشعبة وقد ثبت مسماراً في طرفها. وكان يهمز الحيوان بين حين وآخر فيفجر منه الدم. ويرفس الحمار المتألم ثم يبدأ الركض. ورحت ألتفت إلى السائق وأرجوه: «التكن لديك الشفقة. ألا تعطف على هذا الحيوان؟ إنك تؤذيه». فأجابني: «البشر وحدهم يحسون بالألم. الحمير حمير». إلا أنني نسيت آلام الحمار حالما وصلنا إلى الكروم وغابات الزيتون. كانت النساء مازلن يقطفن العنب وينشرن العناقيد على أماكن جافة مغطاة بالقماش لتتحول إلى زبيب. وكان العالم يعج بالروائح، والجنادب تصم الآذان. وقد رأتنا إحدى القاطفات وضحكت فسألت سائق الحمار: لماذا تضحك هذه المرأة يا كيرياكوس؟ (كنت قد عرفت اسمه الآن).

ـ هناك ما يدغدغها ولذلك فهي تضحك. ثم بصق.

ـ دغدغة؟ من الذي يدغدغها ياكيرياكوس؟

ـ الشياطين.

ولم أفهم غير أنني خفت. أغمضت عيني لكي أتحاشى رؤية الشياطين. ولكمت الحمار بقبضتي لكي أجعله يبتعد بنا بسرعة.

عمالقة مكسوون بالشعر كانوا يسحقون عناقيد العنب بأقدامهم في إحدى القرى التي مررنا بها. كانوا عراة حتى الخصر وهم يرقصون لعصر الخمر ويحكون النكات التي كانت تجعلهم يتلوون من الضحك. كانت رائحة التخمر تفوح من الأرض. وكانت النسوة يخرجن الأرغفة الطرية من التنانير. والكلاب تنبح، والنحل والدبابير تطن، والشمس الغارقة تنحدر بوجه ضارب إلى الحمرة وكأنها تدوس العناقيد مع الآخرين وهي ثملة تماماً. أنا الآخر بدأت

Twitter: @ketab_n

أضحك. وبصفرة أخذت العصا المشعبة من الراعي وبدأت أهمز الحمار غارزاً المسمار عميقاً في ردفه.

حين وصلنا إلى بيت جدي كنت قد دخت من التعب والشمس والجنادب. وحين دخلنا ورأيته مستلقياً وسط الدار ومحاطاً بأبنائه وأحفاده أحسست بالراحة. فالظلام كان قد حل. والحرارة كانت قد خفت. وجدي كان يستلقي بعينين مغمضتين غير مدرك لوجودي. وبهذا تجنبت الكف الضخمة التي كانت تجعل جلدي يحمر كلما لامستني.

قلت للمرأة التي أخذتني بين ذراعيها وأنزلتني عن الحمار: «إني تعب». فأجابت: «عليك أن تصبر. فجدك قد يسلم الروح في أية لحظة. الأفضل أن تبقى إلى جانبه لعلك تكون أول من ينال بركاته».

لقد بدت لي هذه البركات التي قطعت هذه المسافة الطويلة لنيلها كمنحة إعجازية و لعبة غالية الثمن. شعرة الغول المذكور في قصص الجنيات ـ هذه هي البركات! إنك تحتفظ بهذه الشعرة كتعويذة ثم تحرقها في أوقات الحاجة الماسة فيأتي الغول لإنقاذك. وهكذا بدأت أنتظر أن يفتح جدي عينيه ويمنحني شعرة الغول.

وفي اللحظة ذاتها أطلق صرخة وراح يتقلب كالكرة على جلد الخروف الممدود تحته. قالت عجوز: «لقد رأى ملاكه. إنه سيسلم الروح في أية لحظة». ثم صلبت وتناولت قطعة من الشمع راحت تدفئها بأنفاسها وتعجنها بين أصابعها وحولتها إلى صليب لتختم به شفتي الميت.

نهض أحد أبنائه. كانت له لحية سوداء شائكة. دخل المنزل وأخرج منه رمانة وضعها في كف والده ليأخذها معه إلى (هيدس).

اقتربنا منه جميعاً ورحنا نحدق إليه. وابتدأت إحدى النساء تغني الترنيمة الجنائزية. إلا أن الابن ذا اللحية الشائكة وضع يده على فمها.

ـ اهدئي!

في هذه اللحظة فتح جدي عينيه وأشار بهما. اقترب الجميع منه. وكان أبناؤه في الدائرة الأولى والأقرب منه، ثم أحفاده الذكور بعدهم، ووراء الجميع بناته وكناته. ومد المحتضر يديه ووضعت إحدى العجائز وسادة خلف رقبته. وهنا سمعنا صوته. قال: وداعا أيها الفتيان. لقد أكلت نصيبي من الخبز. وأنا راحل الآن. لقد ملأت داري بالأولاد والأحفاد. وعبأت جراري بالزيت والعسل وبراميلي بالخمر ـ ليس لدي ما أشكو منه. وداعاً!

حرك يديه مودعاً. ثم استدار ببطء ونظر إلى كل منا واحداً بعد الآخر. نسيت كل ما له صلة بالبركات. كنت أختبئ وراء اثنين أو ثلاثة من أبناء عمومتي فلم يرني. لم يتكلم أحد. وفتح العجوز شفتيه مرة أخرى: اسمعوا يا فتيان. و انتبهوا لتعليماتي الأخيرة. اعتنوا

Twitter: @ketab_n

بالحيوانات، الثيران والأغنام والحمير. لا تخدعوا أنفسكم. إن لها أرواحاً مثلنا تماماً. إنها بشر. لكنها تلبس جلود الحيوانات. ولا تعرف كيف تتكلم. إن لها أرواحاً مثلنا تماماً. إنها بشر بطريقة معكوسة. فامنحوها كفايتها من الطعام. واعتنوا بأشجار الزيتون والكرمة. واحرصوا على تسميدها وسقايتها وتشذيبها إن كنتم تريدون لها أن تحمل ثماراً. إنها بشر أيضا بطريقة معكوسة. لكنها معكوسة منذ زمن بعيد. ولم تعد تتذكر. لكن الإنسان يتذكر. ولهذا أنتم بشر. هل تسمعون؟ أم أنني أتحدث إلى قطيع من الصم البكم؟

ـ إننا نسمع. نسمع.

أجابت أصوات متعددة. فمد العجوز كفه الضخمة وطلب ابنه الأكبر: «أنت. يا كوستانديس». وتقدم كوستانديس العملاق ذو الشعر الأجعد واللحية المبيضة والعينين البقريتين، ولمس يد والده.

ـ ها أنا ذا يا سيدي. قل لي ما تشاء.

ـ لدي قمح منتقى في الجرة الصغيرة. إنني أحتفظ به منذ زمن طويل من أجل التقدمة في ذكراي[1]. اسلقوه في اليوم التاسع. واحرصوا على وضع كمية كبيرة من اللوز (لدينا منه ما يكفي والحمد لله) ولا تقتروا بالسكر كما تفعلون عادة. أتسمع؟ أنت بخيل. وأنا لا أثق فيك.

«إنني أحترم رغباتك». قال الابن الأكبر، وهو يهز رأسه: نعم. إنني أحترم رغباتك. ولكن دع الآخرين يشاركون في النفقات. الكل يعملون. وعلى كل منهم أن يشارك في النفقات. إننا نتعامل مع (تقدمة الذكرى) وهذا يعني المال. ليست مزحة. ثم هناك الشموع والقس الذي يجب أن يدفع له ثم حفار القبور، لا تنس ذلك. ثم فطائر الجنازة والمازة والخمر وأدام الذكرى. وهذا غير القهوة التي ستشربها النسوة، هذا يعني المال. قلت لك إنها ليست مزحة. نحن جميعا سنشارك في النفقات. والتفت إلى أخوته على جانبيه: هل تسمعون؟ كلنا. لكل نصيبه. فليكن هذا واضحاً. وغمغم الأخوة من بين أسنانهم. ثم رفع أحدهم صوته: حسن يا كوستانديس حسن لن نتشاجر من أجل ذلك.

كنت قد انزلقت إلى الدائرة الأولى. وكما كنت قد أشرت منذ قليل، كان الموت دائماً لغزاً غريباً يغويني. اقتربت لكي ألقي نظرة عن قرب على والد أمي وهو يموت. ووقعت عينه علي.

«إيه. أهلاً. أهلاً بصديقي الصغير من كاسترو. انحن لكي أمنحك بركاتي».

وأمسكت السيدة العجوز التي كانت تعجن الشمع بيدي وخفضتها. وأحسست بكف

(1) إنفاق خاص عن روح الميت أو في ذكراه.

Twitter: @ketab_n

جدي الضخمة والثقيلة تحيط بفروة رأسي كلها: «بوركت يا حفيدي من كاسترو. وإن شاء اللّه ستصبح رجلاً ذات يوم». حرك شفتيه ليقول شيئاً آخر؛ إلا أنه كان قد أنهك فأغمض عينيه. وسألهم بصوت واهن: من أية جهة تغرب الشمس؟ أديروني نحوها.

وأمسك به اثنان من أبنائه وأداراه نحو الغرب. فهمس: وداعاً. أنا ذاهب. وأطلق تنهيدة عميقة، ثم توترت ساقاه. وسقط رأسه عن الوسادة فاصطدم بحجارة الدار. وسألت واحداً من أبناء عمومتي: هل مات؟ فأجاب: أف. هذه نهايته. فلنذهب للطعام.

Twitter: @ketab_n

7

كريت تواجه تركيا

إلا أن ما أثر في حياتي إلى أبعد الحدود ـ وأكثر بكثير من المدارس والمعلمين وأكثر من المتع والمخاوف الأولى التي انتابتني من رؤيتي للعالم، والذي هزني بطريقة فريدة، هو الصراع بين كريت وتركيا.

فلولا هذا الصراع لاتخذت حياتي مجرى مختلفاً ولاتخذ اللّه وجهاً مختلفاً. فمنذ يوم ميلادي كنت أستنشق هذه المعركة المرئية أو المتخفية حتى في الهواء الذي أتنفسه. كنت أرى المسيحيين والأتراك ينظر كل منهم إلى الآخر شذراً بنظراته القاسية ثم يفتل شاربيه بغضب. وكنت أرى المسيحيين يدعمون أبوابهم بالمتاريس واللعنات بينما تعبر الشوارع قوات الاحتلال المسلحة بالمسكيت. وكنت أسمع العجائز وهم يحكون عن الحروب والمذابح والأعمال البطولية، وعن الحرية وعن اليونان. وكنت أعيش ذلك كله بعمق وبصمت، وأنا أنتظر أن أكبر وأفهم ما يعنيه ذلك كله بحيث إنني، أنا أيضا، أستطيع أن أشمر عن ذراعيّ وأذهب إلى الحرب.

ومع الأيام صرت أرى بوضوح. كان المتخاصمان هما كريت وتركيا. وكانت كريت تقاتل لكي تنال حريتها. والآخرون يربضون على صدرها ويمنعونها. وبعد ذلك صار لكل ما حولي وجهه: وجه كريت أو وجه تركيا. في خيالي ـ ليس في خيالي فقط، بل وفي لحمي أيضا ـ صار كل شيء رمزاً يذكرني بالقتال. وذات صيف جُلبت أيقونة ارتقاء[1] السيدة العذراء إلى الكنيسة في الخامس عشر من آب ووضعت على منصة الركوع. وكانت أم المسيح ممددة بذراعين متصالبتين. وكان ملاك قد تقدم إلى يمينها، بينما الشيطان إلى يسارها، والاثنان يطمحان إلى نيل روحها. وقد استل الملاك سيفه وقطع كفي الشيطان من الرسغ. وكانتا ممدودتين في الهواء وهما تنزفان. وحين حدقت إلى الأيقونة امتلأ قلبي بالسعادة. إن العذراء

(1) رفع السيدة العذراء إلى السماء بعد موتها. مناسبة يحتفل بها في 15 آب من كل عام.

Twitter: @ketab_n

هي كريت، كما قلت لنفسي، والشيطان الأسود هو تركيا. والملاك الأبيض كالثلج هو الملك اليوناني. ذات يوم سوف يقوم الملك اليوناني بقطع كفي تركيا. متى؟ حالما أصبح كبيراً. هكذا فكرت مع نفسي، وامتلأ قلبي الطفل من جديد.

ابتدأ قلبي الطفولي الناعم هذا يمتلئ بالمحبة والكراهية. وأنا الآخر بدأت أشد قبضتي متحمساً للدخول في الصراع. وكنت أعرف تماماً أين هو واجبي، ومع مَنْ من الطرفين المتصارعين. وكنت أتعجل أن أكبر لكي أسير في الطريق التي سار بها جدي وأبي وأحارب.

كانت هذه هي البذرة. ومنها راحت شجرة حياتي كلها تنمو وتبرعم وتزهر وتثمر. وما أثار نفسي في البدء لم يكن الخوف أو الألم، ولا المتعة أو الألعاب، بل كان التوق إلى الحرية. كان علي أن أنال الحرية. ولكن الحرية ممن؟ ومم؟ وبالتدريج، ومع مرور الأيام، تسلقت قمة الحرية الصعبة الشاقة. الحصول على الحرية، أولاً، من الأتراك. هذه هي الخطوة الأولى. وبعد ذلك بدأ هذا الصراع الجديد: الحصول على الحرية من الأتراك الداخليين. من الجهل والحقد والحسد، من الخوف والكسل، ومن الأفكار الخادعة المضللة، وأخيراً من الأصنام، كلها، حتى أكثرها محبة واحتراماً.

ومع الأيام، وبعد أن كبرت وتوسعت مداركي توسع الصراع أيضاً. فاض عن حدود كريت واليونان وتفجر في الأزمنة والأمكنة كلها. غزا تاريخ البشر. والصراع الآن لم يعد دائرًا بين كريت وتركيا، بل بين الخير والشر، وبين الضوء والظلمة، بين اللّه والشيطان. لقد كانت دائماً المعركة ذاتها. المعركة الأبدية. فوراء الخير والضوء، ووراء اللّه كانت تقف كريت؛ بينما وراء الشر ووراء الظلمة والشيطان تقف تركيا. وبهذا فإن ولادتي ككريتي في لحظة حاسمة، حين كانت كريت تقاتل من أجل حريتها، جعلتني أدرك منذ طفولتي المبكرة أن هذا العالم يحتوي على خير أعز على النفس من الحياة وأحلى من السعادة ـ هو الحرية. كان لوالدي صديق، كابتن أشيب معروف باسم بوليماتيلياس ـ «عدة مناديل» ـ لأنه كان دائماً يحمل العديد منها. واحد يغطي شعره، وآخر تحت إبطه الأيسر، واثنان متدليان من حزامه، وواحد يمسك به في كفه يمسح به جبينه الذي كان يتعرق دائماً. كان يتردد دائماً لزيارة متجر والدي. وكان والدي يطلب له فنجان قهوة ونرجيلة. وبعد أن يتحلق الفتيان حوله كان يفتح كيس تبغه ويحشو منخريه بالتبغ ثم يعطس ويبدأ الكلام.

كنت أنتحي جانباً وأنصت. الحروب، الهجمات، المذابح. وكانت ميغالو كاسترو تتلاشى وتتسامى أمامي جبال كريت. الهواء مليء بالصرخات: صرخات المسيحيين وصرخات الأتراك. وتلتمع أمام عيني المسدسات ذوات القبضان الفضية. كريت وتركيا تتقاتلان. تصرخ الأولى: «الحرية!»، فتجيبها الأخرى: «الموت!». ويمتلئ ذهني بالدم.

وذات يوم حول عينيه نحوي وبدأ يزينني بنظرته. ثم قال: «الغربان لا تفقس حماماً. أتفهم، أيها القضاء الصغير؟».

Twitter: @ketab_n

احمر وجهي وأجبت: كلا يا كابتن.

ـ والدك قبضاي. وإن شئت أم أبيت فستكون قبضاي.

شئت أم أبيت! بدأت هذه الكلمات تطرق في رأسي كالمطارق. كانت كريت تتحدث من فم الكابتن العجوز. ولم أفهم كلماته في حينها. ولم أدرك إلا بعد مرور زمن طويل أنني أحمل قوة علوية في أعماقي. قوة ليست قوتي. وإن هذه القوة تتحكم بي. وعلى الرغم من أنني كنت على وشك الاستسلام مرات عديدة؛ إلا أن هذه القوة كانت تمنعني. وأية قوة؟ إنها كريت!!

والحقيقة أنني كنت أتغلب على الخوف منذ الطفولة، انطلاقا من احترام النفس: وفكرة أنني كريتي. ولأنني، أيضاً، كنت أخاف من أبي. في البدء لم أكن أجرؤ على الخروج إلى الدار ليلاً. كان هناك شيطان صغير ذو عين براقة يتلصص علي في كل زاوية، ووراء كل أصيص، وعند حافة البئر. لكن والدي اعتاد أن يوبخني ويدفعني إلى الدار ويوصد الباب خلفي.

الخوف الوحيد الذي لم أستطع التغلب عليه في تلك المرحلة كان الخوف من الهزات الأرضية. فكثيراً ما كانت ميغالو كاسترو تهتز من جذورها. وكانت القعقعة تسمع من أعماق العالم وقشرة الأرض تتشقق ويفقد الناس الذين فوقها عقولهم. وكلما هدأت الريح بشكل مفاجئ وسكنت الأوراق على الأشجار وخيم على كل شيء صمت رهيب، يقف له الشعر، كان سكان ميغالو كاسترو يندفعون من بيوتهم وحوانيتهم، ويلقون النظرة الأولى على السماء ثم ينظرون إلى الأرض. ولم يكونوا ينطقون بأية كلمة لئلا يسمع الشر ويأتي. إلا أنهم، بينهم وبين أنفسهم، كانوا يهجسون بأن هزة أرضية ستحدث، ويرسمون علامة الصليب.

وذات يوم حاول معلمنا، باتيروبولوس العجوز، أن يهدئنا. وشرح لنا قائلاً: «لا ينجم شيء عن الهزة الأرضية. لا تخافوا منها. إنها مجرد ثور تحت الأرض. إنه يخور وينطح الأرض بقرنيه فتهتز. كان الكريتيون القدامى يسمونه مينوتور Minotaur. ليس هناك ما يدعو للخوف إطلاقاً». إلا أننا بعد أن تلقينا هذا العزاء من معلمنا اكتشفنا أن خوفنا قد تزايد كثيراً. لقد أصبحت الهزة الأرضية كائناً حياً، وحشاً ذا قرنين، يخور ويهتز تحت أقدامنا. وكان يأكل البشر.

وسأل ستراتيس الصغير البدين ابن القندلفت: «ولماذا لا يقتله القديس ميناس؟»، ولكن المعلم غضب وصاح: «كفاك هراء»، وغادر مقعده ليشد أذن ستراتيس ويسكته.

وذات يوم كنت مندفعاً بأقصى سرعتي في الحي التركي، لأن الرائحة التي تفوح من الأتراك كانت تثير قرفي. بدأت الأرض تهتز واصطفقت النوافذ والأبواب. وسمعت قعقعة عظيمة كأنما هي صادرة عن بيوت تتهدم. وقفت وقد جمدني الرعب وسط الزقاق الضيق وعيناي مسمرتان إلى الأرض.

Twitter: @ketab_n

كنت أنتظر أن تتشقق وأن يظهر الثور منها ويأكلني. حينما، بغتة، انفتح باب ذو سرداب ليكشف عن حديقة، واندفعت منه ثلاث فتيات تركيات حافيات مشعثات الشعور وحاسرات. وتفرقن في اتجاهات متعددة وهن يرتعدن من الخوف ويطلقن زعقات حادة كأصوات السنونو. وتضمخ الزقاق كله برائحة المسك. كن قد وقفن يصرخن ويزقزقن كالعصافير. ومنذ تلك اللحظة صار للهزة الأرضية وجه مختلف بالنسبة لي دام معي طوال حياتي. ولم يعد وجهاً قاسياً لثور. اتحدت الهزات الأرضية والتركيات الصغيرات. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها قوة قاتمة تظهر للضوء وتصبح وضاءة.

مرات عديدة خلال حياتي، أحياناً باختياري وأحيانا مجبراً، كنت أضع قناعًا ملائماً على مخاوفي بالطريقة ذاتها ـ على الحب والفضيلة والمرض ـ وبهذا جعلت الحياة محتملة.

Twitter: @ketab_n

8

أساطير القديسين

كانت الحرية أول رغباتي الكبيرة. أما الثانية، والتي تظل خبيئة في أعماقي حتى اليوم وتعذبني، فكانت الرغبة في الطهارة. البطل مع القديس. هذا هو النموذج الأمثل للإنسان. وحتى في طفولتي كنت أثبت هذا النموذج فوقي في السماء الزرقاء.

في تلك الأيام كان لكل شخص في ميغالو كاسترو جذور عميقة في كل من الأرض والسماء. ولهذا، منذ أن تعلمت قراءة المقاطع وتركيب الكلمات، كان أول شيء طلبت من أمي أن تشتريه لي هو أسطورة «الرسالة الإنجيلية المقدسة». «ظهور اللّه معجزة مدهشة! حجر سقط من السماء..». انكسر هذا الحجر ووجد مكتوباً في داخله: «ويل لمن يستخدم الزيت ويشرب الخمر أيام الأربعاء والجمعة». كنت أمسك بالرسالة الإنجيلية مشرعة فوق رأسي كالعلم، وأقرع أبواب الجيران كل أربعاء وجمعة ـ باب مدام بنلوب ومدام فكتوريا والعجوز كاترينا ديليفا سيلينا. و كنت أجول في البيت متقداً بالحماس. ثم أشق طريقي مباشرة إلى المطبخ وأتشمم ما يطبخونه. ويا لسوء اليوم الذي أشم فيه رائحة لحم أو سمك. كنت أهز الرسالة مهدداً وأصرخ: «الويل لكم! الويل لكم!»، بينما الجيران المذعورون يربتون على كتفي ويحاولون تهدئتي. وذات يوم عندما سألت والدتي، وعلمت أنني كنت أرضع أيام الأربعاء والجمعة حين كنت رضيعاً، وهذا يعني أنني كنت أشرب الحليب في تلك الأيام المقدسة، عندها انفجرت بالبكاء متألماً.

بعت ألعابي كلها لأصدقائي. واشتريت حياة القديسين في طبعة شعبية، نسخاً بحجم الكراس. وكنت في كل مساء أجلس على كرسيّ الصغيرة بين الحبق والقطيفة في دارنا، وأنا أقرأ بصوت مرتفع عن العذابات المختلفة التي قاساها القديسون لكي ينقذوا أرواحهم. وكانت الجارات يتجمعن حولي ومعهن خياطتهن أو أعمالهن الأخرى ـ بعضهن يرفين الجوارب، وبعضهن يطحنّ القهوة، أو ينظفن سويقات الخردل. كن يصغين. وشيئاً فشيئاً يبدأ دارنا يرن بالعويل لعذابات القديسين وآلامهم. وحين يسمع الكناري المعلق تحت الأكاسيا القراءة

Twitter: @ketab_n

والعويل، كان يلقي برأسه إلى الوراء ثملاً ويبدأ بالشدو. وكانت الحديقة الصغيرة بطيبها وعرائشها فوقنا ـ بعزلتها وحرارتها وشذاها ـ تبدو كشاهدة قبر محاطة بنساء يندبن، كضريح المسيح المحاط بالزهور. وكان العابرون يتلكأون ويقولون لأنفسهم إن شخصاً ما قد مات هنا. وكانوا يذهبون إلى والدي يحملون له هذه الأنباء السيئة. لكنه كان يهز رأسه ويقول لهم: «لا شيء. ليس هناك إلا ابني يحاول أن يعظ الجارات».

كانت البحار تنكشف في خيالي الطفولي، والقوارب تندفع خلسة، والأديرة تتلامع بين الصخور الشاهقة والأسود تنقل الماء إلى النساك. وكان عقلي يطفح بأشجار النخيل والإبل، وبغايا يقتحمن طريقهن إلى الكنيسة، ومركبات نارية ترقى إلى السماء، وصحاري تتلفع بطرقعات قباقيب النساء وضحكاتهن، وشيطان يأتي بهيئة سانتاكلوز[1] ومعه هبات الطعام والذهب والنساء للنساك. لكن أعينهم متعلقة بالله، والشيطان يتلاشى.

كن صلباً، كن صبوراً، احتقر السعادة، لا تخش الموت. تطلع عبر هذا العالم إلى الخير الأسمى. هكذا كان الصوت الذي لا يقمع ينطلق من تلك الطبقات الشعبية ويلعن قلبي الطفل. ومعها يبرز ظمأ عنيف للسفر المفاجئ والرحلات البعيدة والتيه المعبأ بالشهادة.

كنت أقرأ أساطير القديسين وأستمع إلى حكايات الجنيات، وأسترق السمع إلى الأحاديث. وكان هذا كله يتحول في أعماقي ـ أو يتشوه ـ إلى كذبات مدوخة. وكنت أجمع زملاء المدرسة وأطفال الجيران وأمرر هذه الكذبات على أنها مغامراتي الشخصية. وكنت أقول لهم إنني عائد لتوي من الصحراء. وإن لدي أسداً هناك حمّلت على ظهره جرتين. وذهبت معه إلى النبع لجلب الماء، أو أنني منذ أيام رأيت عند باب دارنا ملاكاً انتزع ريشة من ريشاته وأعطاني إياها. وأحياناً تكون الريشة معي لأريها لهم (كنا قد ذبحنا ديكاً في بيتنا منذ أيام واحتفظت بريشته البيضاء الطويلة). وكنت أضيف أنني أخطط لتحويل الريشة إلى قلم للكتابة.

ـ تكتب؟ ما الذي ستكتبه؟

ـ حياة القديسين. وحياة جدي.

ـ وهل كان جدك قديساً؟ ألم تقل لنا إنه كان يحارب الأتراك؟

ـ أليس هذا الشيء نفسه؟ أجيب وأنا أبري طرف الريشة بسكيني الصغيرة لتحويلها إلى قلم.

وذات يوم قرأنا في المدرسة في الكتاب التمهيدي أن طفلاً سقط في بئر فوجد نفسه في مدينة خرافية ذات كنائس لامعة وحدائق غناء وحوانيت مليئة بالكعك والحلويات وبنادق

---

(1) بابا نويل.

Twitter: @ketab_n

الألعاب. والتهب عقلي. ركضت إلى المنزل وألقيت بحقيبتي في الدار، وألقيت بنفسي على حافة البئر لكي أسقط فيها وأصل إلى المدينة الخرافية. وكانت أمي جالسة قرب النافذة المطلة على الدار تسرح شعر أختي الصغيرة. وحين رأتني أطلقت صرخة وركضت وأمسكت بي من مريلتي بينما كنت أضرب قدمي بالأرض محاولاً إلقاء نفسي على رأسي في البئر.

وفي كل أحد، حين كنت أذهب إلى الكنيسة، كنت أرى أيقونة (معلقة في مكان منخفض من حامل الأيقونات) يبدو فيها المسيح وهو يصعد من القبر يرفرف في الهواء وبيده راية بيضاء. وفي الأسفل كان حراسه واقعين على أقفيتهم وهم يحدقون إليه برعب. لقد سمعت الكثير من القصص عن الانتفاضات الكريتية وعن الحروب. كما سمعت أن جدي (لأبي) كان قائداً عسكرياً عظيماً. وفيما كنت أحدق إلى الأيقونة كنت أقنع نفسي بالتدريج أن المسيح لم يكن إلا جدي. ولذا جمعت زملائي حول الأيقونة وقلت لهم: «انظروا إلى جدي. إنه يرفع الراية ذاهباً إلى الحرب. أترون هناك في الأسفل؟ إنهم الأتراك ممددون على الأرض».

وما كنت أقوله لم يكن صحيحاً ولا كذباً. إنه شيء قد تجاوز المنطق والأخلاق ليحلق في جو ألطف وأكثر حرية. ولو أن أحداً اتهمني بأنني ألفق حكايات كاذبة لبكيت خجلاً. لم تعد الريشة في يدي ريشة ديك بل هي الريشة التي أعطانيها الملاك. لم أكن أكذب. كان لدي إيمان لا يتزعزع بأن المسيح ذا الراية هو جدي، وأن الحراس الذين يصعقهم الرعب تحته هم الأتراك. بعد ذلك بزمن طويل بدأت أكتب قصائد وروايات وبدأت أفهم بأن هذه الاستفاضة السرية هي ما يسمى بـ «الإبداع».

وذات يوم كنت أقرأ قصة القديس يوحنا الكوخ saint john of the hut قفزت على قدمي وقد قررت: «سأذهب إلى جبل أثوس لأصبح قديساً». ودون أن ألتفت لألقي نظرة على أمي (القديس يوحنا لم يلتفت ليلقي نظرة على أمه) تجاوزت العتبة وانطلقت إلى الشارع. اتبعت أكثر الأزقة بعداً ورحت أركض طوال الطريق لئلا يراني أحد أخوالي ويعيدني إلى البيت. وصلت إلى الميناء حيث اقتربت من أحد الزوارق، الزورق الذي كان على وشك رفع مرساته. كان هناك بحار قمّرته الشمس منحن على المربط الحديدي وهو يحاول أن يفك الكابل. اتجهت إليه وأنا أرتعش من الانفعال:

- أتستطيع أن تأخذني معك يا كابتن؟

- إلى أين تريد الذهاب؟

- إلى جبل أثوس؟

- إلى أين؟ إلى جبل أثوس؟ وما الذي ستفعله هناك؟

- سأصبح قديساً.

Twitter: @ketab_n

وانفجر البحار ضاحكاً. ثم صفق بيديه وكأنه يطرد دجاجة وهو يصرخ: «إلى البيت! إلى البيت!».

ركضت عائداً إلى البيت مخزياً. وتجمعت تحت الأريكة دون أن أنبس بكلمة لأحد. اليوم أعترف بالأمر للمرة الأولى: لقد أجهضت محاولتي الأولى لأن أصبح قديساً.

دام حزني أعواماً عديدة وربما إلى اليوم. إنني من مواليد يوم الجمعة الثامن عشر من شباط. وهو يوم الأرواح، يوم مقدس فعلاً. أمسكت بي القابلة العجوز بين يديها وقربتني من الصنوبر ونظرت إلي بحرص شديد. كان يبدو أنها ترى نوعاً من العلامات السرية فيَّ. ثم رفعتني عالياً وقالت: علموا على كلامي. هذا الطفل سيصبح ذات يوم مطراناً.

وحين علمتُ، مع الأيام، بنبوءة القابلة آمنت بها. وهي التي أججت رغباتي السرية ووجهتها. ورحت أحس بمسؤولية كبيرة. فلم أعد أقوم بأي عمل ما كان المطران يقوم به. وبعد ذلك بزمن طويل، حين رأيت ما يفعله المطارنة فعلاً، غيرت رأيي. ومنذ ذلك الحين، ولكي أستحق القداسة التي كنت أبحث عنها، لم أعد أقوم بأي عمل يقوم به المطارنة.

Twitter: @ketab_n

9

التوق إلى الطيران

كانت الأيام، في ذلك الحين، بطيئة ورتيبة. لم يكن الناس يقرأون الصحف. ولم يكن الراديو والتلفون والسينما قد ولدوا بعد. وكانت الحياة تكر بهدوء ـ جادة وقليلة الكلام. كان كل إنسان عالَماً مغلقاً. وكان كل بيت مغلقاً ومرتجاً معاً. والطيبون داخل البيوت كانوا يشيخون يوماً بعد يوم. وكانوا يحتفلون ويسكرون همساً لئلا يسمعهم أحد. ويتشاجرون سراً أو يمرضون ويموتون صامتين. عندها يفتح الباب وتظهر البقايا وتكشف الجدران الأربعة مؤقتاً عن أسرارها. لكن الباب يوصد فورا من جديد. وتعود الحياة مرة أخرى إلى حركتها الثقيلة دون صوت.

في العطل السنوية ـ عيد ميلاد المسيح وموته وقيامته ـ كان الناس جميعاً يرتدون ملابسهم ويتزينون بمجوهراتهم ويغادرون منازلهم ويتدفقون في الأزقة. ثم يتوجهون نحو الكاتدرائية التي كانت تنتظرهم بأبواب مفتوحة. وكانت شمعداناتها وثرياتها مضاءة. وكان فارس البيت وسيده، القديس ميناس، واقفاً على العتبة لاستقبال أصدقائه الأعزاء، سكان ميغالو كاسترو. وتنفتح القلوب، وتنسى التعاسات والأسماء ويصبح الجميع كلاً واحداً. لا يعودون، بهذا، عبيداً. والنزاعات والأتراك لا يعود لهم وجود. وحتى الموت لا يعود له وجود. وكان كل واحد، في الكنيسة، بقيادة الفارس الكابتن ميناس، يحس بانفصاله عن الحشد الفاني.

كانت الحياة في تلك السنوات عميقة وساكنة. والضحكات أقل ما تكون في تلك الأيام في ميغالو كاسترو. والدموع وافرة. كما كانت غصات القلوب المكتومة أكثر وفرة. كان الأهالي القساة جديين مهتمين دائما بشؤونهم الخاصة، حشد من الغوغاء المطواعين: كلما مر بهم غني وقفوا له احتراماً، إلا أنهم جميعاً كانوا متحدين بعاطفة مشتركة واحدة تجعلهم ينسون اهتماماتهم وخصوصياتهم، وتجعلهم يتقاربون بروح أخوية. ولم يكونوا يكشفون عن هذه العاطفة لأنهم كانوا يخافون الأتراك.

Twitter: @ketab_n

ولكن! ذات يوم بدأت المياه الراكدة تتحرك. فقد شوهدت سفينة تجارية مدججة بالأعلام وهي تدخل المرفأ ذات صباح. ووقف أهالي كاسترو الذين كانوا قريبين من الشط فاغري الأفواه. ما هذا القارب ذو الألوان والزينات المتعددة الذي انسل بين البرجين الفينيسيين[1] في مدخل المرفأ؟ وكان القارب يقترب. ليحفظنا القديسون. قال الأول إنه رف من الطيور. وقال آخر إنه مجموعة من المتنكرين. وقال ثالث إنها حديقة عائمة. وقال أحدهم إنه السندباد البحري قد ظهر من البحار الحارة البعيدة. وفي هذه الأثناء انطلق صوت هائل متوحش من مقهى الميناء: «مرحبا بالبلدين[2]!». وتنفس المتفرجون جميعاً الصعداء: لقد فهموا أخيراً. واقتربت السفينة أكثر فأكثر. وظهرت حمولتها للعيان: نساء بملابس مبهرجة وقد اعتمرن القبعات المريشة وتوشحن البلدين، وخدودهن ممسوحة بمكياج أحمر اللون. وعند رؤيتهن رسم الكريتيون العجائز علامة الصليب وتمتموا: «قف ورائي يا شيطان!» وهم يبصقون. ما الذي تفعله المومسات هنا؟ هذه ميغالو كاسترو الشهيرة. وهي لن تسكت على إهانات كهذه.

وبعد ساعة وضعت ملصقات قرمزية على كافة جدران المدينة. وعلمت المدينة أن هؤلاء ليسوا إلا فرقة من الممثلين والممثلات. يبدو أنهم جاؤوا لتسلية الكريتيين.

وحتى اليوم لم أستطع أن أفهم كيف تمت المعجزة. غير أن أبي أخذني بيدي، وهو يقول: «دعنا نذهب إلى المسرح ونرى ما هذا الأمر!». كان الظلام قد حل. أمسكني من يدي، وذهبنا باتجاه المرفأ نحو حي فقير لم أكن أعرفه من قبل. كانت هناك حظائر كبيرة وقليل من البيوت. وكانت إحدى الحظائر متلألئة الأضواء وصوت كلارينيت وطبلة ينطلق من داخلها. وكان شراع سفينة معلقاً على مدخلها، بحيث تحتاج إلى رفعه لكي تدخل. ووجدنا بدخولنا، مقاعد وكراسي، وعليها جلس رجال ونساء يحدقون إلى ستارة أمامهم وهم ينتظرون أن تفتح. كانت هناك نسمة لطيفة تهب من جهة البحر. وكان الهواء منعشاً والرجال والنساء يتحدثون ويضحكون ويطقطقون الفول السوداني أو بذور اليقطين.

«أين هو المسرح؟» سأل والدي (فهو أيضا كان يذهب إلى مهرجان كهذا للمرة الأولى في حياته). وأشير له نحو الستارة. كان مكتوباً على القماش بحروف كبيرة: «اللصوص لشيلر؛ تمثيلية مسلية جداً»، وتحتها مباشرة: «لا أهمية لما تراه. لا تنزعج. . فهو خيالي».

وسألت والدي: ما معنى خيالي؟

فأجاب: هواء ساخن.

---

(1) نسبة إلى فينيس (البندقية).

(2) وشاح نسوي طويل الأطراف.

Twitter: @ketab_n

كانت لوالدي مشكلاته الخاصة. فقد التفت ليسأل جاره عمن يكون هؤلاء اللصوص. ولكن بعد فوات الأوان. سمعت ثلاث دقات وفتحت الستارة. وحدقت مدهوشاً جاحظ العينين. وانفتحت أمامي جنة. ملائكة، ذكور وإناث يأتون ويذهبون وهم يرتدون الملابس الزاهية مع الريش والذهب وخدودهم ملونة بالأبيض والبرتقالي. كانوا يرفعون أصواتهم ويصرخون بشكل مفاجئ. كان يبدو أنهما أخوان وبدآ يتجادلان ويتبادلان الإهانات ويلاحق كل منهما الآخر بغية قتله. أرهف والدي أذنيه وراح يستمع مغمغماً بانزعاج. ثم راح يتململ على كرسيه، وكأنه جالس على الحجر. وأخرج منديله ومسح العرق الذي كان قد بدأ يتصبب على حاجبيه. غير أنه حين عرف في النهاية أن سويقتي الفاصولياء المتشابكتين أخوان متخاصمان قفز على قدميه هائجاً. وصرخ بصوت مرتفع: «أي تهريج هذا؟ فلنذهب إلى بيوتنا». ثم قبض على يدي وخرجنا قالبين بضعة كراسٍ في عجلتنا. ثم هزني واضعاً يده على كتفي وقال: «إياك أن تخطو داخل مسرح بعد الآنَ أيها الشقي. أتسمع؟ لأنك إن فعلت فسوف أسلخ جلدك». كان هذا أول لقاء لي بالمسرح.

* * *

هبت نسمة دافئة فأنبَت ذهني الزرع، وامتلأ منخراي بشقائق النعمان. جاء (ت) الربيع[3] مع خطيبها القديس جورج ممتطياً جواده المطهم الأبيض. ثم رحلت وجاء الصيف. فاضطجعت العذراء المقدسة على الأرض الخصبة لكي ترتاح هي الأخرى بعد أن حبلت بابن كهذا[4]. ووصل القديس ديمتريس ممتطياً جواداً أسمر محمراً وسط الأمطار، وهو يسحب وراءه الخريف المكلل بالللبلاب وأوراق الدوالي الذابلة. وكبس علينا الشتاء. كنا في البيت (حين يغيب والدي) أنا وأختي وأمي نشعل «الكانون» ونجلس حوله لنشوي الكستناء أو الحمص على الجمر. كنا ننتظر أن يولد المسيح لعل جدي ذا الوجنتين المتوردتين يأتي ومعه الحلوف المحمر الملفوف بأوراق الليمون. هكذا كنا نتخيل الشتاء: مثل جدي له حذاء ثقيل وشاربان أبيضان، ويحمل حلوفاً محمراً بين يديه.

ومرت الأيام وكبرت. وصغرت في الدار أصص الحبق والقطيفة. وصرت أصعد درجات أمينة بخطوة واحدة الآن دون حاجة إليها لأن تمد يدها. كبرت وكبرت في داخلي رغباتي القديمة في الوقت الذي راحت تنمو فيه رغبات أخرى جديدة إلى جانبها. أما أساطير القديسين فقد كانت مغيقة لأنها كانت تكبحني. وليست المسألة أنني لم أعد أؤمن بها. كنت أؤمن بها: إلا أن القدّيسين صاروا الآن أكثر إذعاناً. إنهم يحنون رؤوسهم دائماً أمام الله ويقولون نعم. لقد استيقظ في أعماقي الدم الكريتي مبكراً، وقبل أن تتوضح تلك الفكرة في

(3) يعامل الكاتب الربيع على أنه مؤنث.
(4) يقصد المسيح.

Twitter: @ketab_n

رأسي. فقد كان لدي حدس بأن الرجل الحقيقي هو ذلك الذي يقاوم ويكافح ولا يخاف عندما يقتضي الأمر أن يقول «لا» حتى لله.

ولم أستطع أن أعبّر عن أي من هذه الهواجس الجديدة بكلمات. ولكن في تلك المرحلة من حياتي لم تكن بي حاجة إلى الكلمات. كنت أفهم دون لبس ودون حاجة للعقول أو الكلمات. كان يخيم علي الأسى حين أرى القديسين جالسين بأذرع ممدودة أمام الفردوس يدعون ويتوسلون وينتظرون أن يفتح الباب. كانوا يذكرونني بالمجذومين المنبوذين الذين كنت أراهم كلما ذهبت إلى كرمنا. كانوا يجلسون إزاء باب المدينة بأنوفهم المتآكلة وأصابعهم الضائعة وشفاههم المتيبسة وهم يمدون أذرعهم المبتورة للعابرين طالبين الصدقات. لم أكن أحسّ بأي أسف تجاههم، بل كانوا يثيرون قرفي. وكنت دائماً أحول وجهي عنهم، وأسرع في تجاوزهم قدر ما أستطيع. هذه هي الحالة التي بدأ القديسون ينحدرون إليها في عقلي الطفولي. ألم تكن هناك طريقة أخرى لدخول الفردوس؟ وبعد أن هجرت الجنيات وأميرات الحكايات ودخلت صحراء طيبة مع القديسين المتسولين كان علي الآن أن أهرب منهم أيضاً.

كانت أمي تعدّ الحلويات في كل عطلة هامة. أحيانا كورابيدس kourabiedhes وأحيانا لوكومس loukoums وفي عيد الفصح فطيرة خاصة. ولقد تعودت أن أرتدي أفضل بذلاتي وأذهب لتوزيع تلك الحلويات على أخوالي وخالاتي كطريقة للتعبير عن تحياتنا. وهم، بدورهم، كانوا يرحبون بي بحرارة ويقدمون لي قطعاً فضية مفترضين أنني سأشتري سكاكر. إلا أنني في اليوم التالي كنت أسرع إلى مكتبة السيد لوكاس وأشتري مخطوطات عن الأراضي البعيدة والمستكشفين العظماء. لقد نزلت في قلبي بذرة روبنسن كروزو بشكل واضح. وها هي تثمر الآن.

لم أكن أفهم إلا جزءاً يسيراً من «خرافات القديسين». لكن جوهرها ترسب في أعماق روحي. ابتدأ عقلي يتفتح الآن ويمتلئ بأبراج العصور الوسطى والمناطق الغريبة والجزر الغامضة التي تفوح منها روائح القرفة والقرنفل. وكان متوحشون بريش أحمر يتخطون عتبة نفسي ويشعلون النار ليشووا عليها بشراً. وللجزر المحيطة بهم روائح أطفال حديثي الولادة. هؤلاء القديسون الجدد لم يكونوا يتسولون الصدقات لأنهم كانوا يأخذون كل ما يرغبون فيه بالسيف. وفكرت لنفسي: آه لو أن شخصاً واحداً فقط يستطيع دخول الجنة بهذه الطريقة، على ظهر جواده مثل هؤلاء الفرسان! البطل ممتزج بالقديس: ذاك هو الإنسان الكامل.

بدأ بيت أهلي يضيق، وبدأت ميغالو كاسترو تضيق. وصارت الأرض الآن تبدو كغابة استوائية مليئة بالعصافير الملونة والوحوش والفاكهة الناضجة الحلوة كالشهد. وكنت أريد (هكذا خيل لي) أن أجتاز هذه الغابة الاستوائية كلها لكي أقدم الحماية لآنسة شاحبة واقعة في مأزق. وذات يوم بينما كنت أمر قرب مقهى رأيتها. كان اسمها جنيفييف.

لقد اندمج القديسون في خيالي الآن بالفرسان الأقوياء الذين انطلقوا لتخليص العالم أو

Twitter: @ketab_n

المذبح المقدس أو فتاة ما. كما امتزجوا بالمستكشفين العظماء، وسفن كولومبوس التي انطلقت من ميناء إسباني صغير ـ تملأ الريح ذاتها أشرعتها ـ مثل السفن التي، حتى هذه اللحظة، تنطلق في أعماقي نحو الصحراء محملة بالقديسين.

حين قرأت سرفانتس، وحتى بعد ذلك، كان بطله دون كيشوت يبدو لي قديساً عظيماً وشهيداً انطلق محاطاً بالضحكات والسخرية ليكتشف، وراء حياتنا اليومية المتواضعة، الجوهر الذي يختفي خلف المظاهر. أي جوهر؟ لم أكن أعرف في ذلك الحين لكنني عرفت فيما بعد. هناك جوهر واحد فقط وهو نفسه دائماً. فطالما أن الإنسان لم يجد وسيلة أخرى ليسمو بنفسه، لم يجد إلا إخضاع المادة وإخضاع الذات لغاية تتجاوز الفرد حتى لو كانت هذه الغاية وهمية. حين يؤمن القلب ويحب لا يظل هناك شيء وهمي. لا يبقى إلا الشجاعة والثقة والعمل المثمر.

مرت سنوات، وحاولت أن أنظم فوضى خيالي. إلا أن هذا الجوهر، الجوهر ذاته الذي كان يقدم لي نفسه بشكل غامض حين كنت طفلاً، كان يفاجئني دائماً على أنه قلب الحقيقة. إن من واجبنا أن نحدد لأنفسنا هدفاً أبعد من اهتماماتنا الفردية، وأبعد من عاداتنا المريحة والمقبولة، وأسمى من نفوسنا، ومن الضحك الساخر والجوع وحتى الموت، وأن نجدّ ليلاً ونهاراً لتحقيق هذا الهدف. لا، ليس لتحقيقه. إن النفس التي تحترم ذاتها حالما تصل إلى غايتها، تضع هذا الهدف أبعد مرة أخرى. ليس تحقيقه بل عدم التوقف في الصعود. بهذه الطريقة فقط تنجز الحياة نبلها ووحدانيتها. هذا هو اللهب الذي قضيت فيه طفولتي. وأدركت أن التقلبات العديدة للقديسين والأبطال هي أبسط طريق للإنسان وأكثرها واقعية. لكن هذا اللهب انضم للهب آخر أعظم منه. وهو ما كان يحرق ميغالو كاسترو وكريت في تلك المرحلة من عبوديتهما.

في تلك الأزمنة البطولية القديمة لم تكن ميغالو كاسترو مجموعة صغيرة من البيوت والحوانيت والأزقة متجمعة بمحاذاة شاطئ كريتي وبمواجهة بحر لا يهدأ غضبه. ولم يكن سكانها مجموعة من البشر الفوضويين دون قيادة (أو بقيادات متعددة) رجالاً ونساء وأطفالاً يصرفون جهودهم كلها في الاهتمامات اليومية: الطعام والأطفال والنساء. كان هناك نظام صارم وغير مكتوب يحكمهم. ما من أحد يرفع يده متمرداً على القانون القاسي فوقهم. فهناك شخص ما فوق رأسه يصدر أوامره. لقد كانت المدينة بأكملها موقعاً عسكرياً. وكل قاطن فيها كان هو نفسه موقعاً عسكرياً محاصراً إلى الأبد. والكابتن بالنسبة له كان قديساً. القديس ميناس، حامي ميغالو كاسترو. ممتطياً جواداً أصهب ومشرعاً رمحاً أحمر نحو السماء. كان القديس يظل دون حراك في كنيسته الصغيرة طوال النهار وهو يزين بالنذر الفضية ـ بالأيدي والأقدام والعيون والقلوب ـ التي كان أهالي ميغالو كاسترو يقدمونها له لعل بركته تشفيهم. كان يظل دون حراك متظاهراً أنه ليس أكثر من صورة مرسومة على قطعة من الخشب. ولكن

Twitter: @ketab_n

ما إن يحل الليل ويتجمع المسيحيون في بيوتهم، وتبدأ الأضواء بالانطفاء واحداً بعد الآخر حتى يدفع عنه الرسوم ونذور الفضة بحركة من يده. ثم يهمز جواده وينطلق في جولة عبر الأحياء اليونانية. ينطلق في دورية حراسة. كان يغلق أي باب نسيه المسيحيون مفتوحاً. وكان يصفر لبوم الليل لكي تعود إلى بيوتها. وكان يقف قرب باب الدار، ويصغي بعناية ورضى كلما سمع غناء. وكان يهمس لنفسه لابد أن هناك عرساً. فلتحل البركة على الزوجين السعيدين ولينجبا أطفالاً يُعلون من شأن المسيحية. وبعد ذلك يقوم بجولة على الاستحكامات التي تحيط بميغالو كاسترو. وعند صياح الديك، وقبل بزوغ الفجر، كان يهمز جواده ويدخل الكنيسة بقفزة واحدة. ثم يتسلق الأيقونة. ومرة أخرى يعود إلى مظهر اللامبالي. إلا أن جواده يكون قد عرق وغطت فمه وجانبيه طبقة من الزبد. وحين كان السيد هارا لامبيس، يأتي قبل الجميع صباحاً ليزيل الغبار عن الشمعدانات ويلمعها كان يرى جواد القديس ميناس مبللاً بالعرق. ولم يكن هذا ليفاجئه لأنه كان يعرف (كما يعرف الجميع) أن القديس قد طاف الشوارع طوال الليل. وكلما شحذ الأتراك خناجرهم وتهيأوا للانقضاض على المسيحيين كان القديس ميناس يقفز من أيقونته من جديد ليحمي سكان ميغالو كاسترو. ولم يكن الأتراك يرونه لكنهم كانوا يسمعون جواده وهو يصهل. ويميزون الصوت، ويرون الشرر الذي تطلقه حوافر الجواد وهي تضرب الحصى فيتقوقعون في بيوتهم وقد جمدهم الرعب.

غير أنهم، منذ سنوات قليلة، رأوه بأمهات عيونهم. كانوا يهيئون مذبحة أخرى إلا أن القديس ميناس انطلق نحو الحي التركي على جواده. وبينما كان ينعطف عند زاوية أحد الشوارع لحظه الحاج مصطفى الذي كان نصف مجنون. فانطلق هارباً وهو يصرخ: «الله،الله، لقد نزل علينا القديس ميناس». وفتح الأتراك أبوابهم قليلاً وتلصصوا منها. وبينما كانوا يتطلعون إلى القديس ميناس بدرعه الذهبي، ولحيته الصهباء المجعدة ورمحه الأحمر ارتخت مفاصلهم تحتهم وأعادوا خناجرهم إلى أغمادها. لم يكن القديس ميناس، بالنسبة للكاستروويين[5]، مقدساً فقط. بل كان قائدهم. وكانوا ينادونه «كابتن ميناس»، ويجلبون أسلحتهم إليه سراً لكي يباركها. حتى والدي كان يشعل له الشموع. والله وحده يعلم ما الذي كان يقوله له، وأي لوم كان يلقيه عليه لتأخره إلى هذا المدى في تحرير كريت.

كان كابتن المسيحية. وكان حسن بك، العدو اللدود للمسيحيين والمتعطش لدمائهم، جاره. وكان حرمه متاخماً للكنيسة. وذات يوم سمع قرعاً على الجدار فوق سريره تماماً. وفهم. كان هذا القديس ميناس يهدده لأنه في اليوم ذاته ضرب أحد المسيحيين ضرباً مبرحاً. ولقد غضب الكابتن ميناس لهذا الحادث وهو الآن يدق جداره. ورفع حسن بك قبضته وراح يدق الجدار من جهته ويصرخ: «هيه. أنت هناك يا جار. معك حق. نعم. وحق إيماني معك

---

(5) نسبة إلى ميغالو كاسترو.

Twitter: @ketab_n

حق. ولكن توقف عن قرع جداري وسأجلب لك جلدي ماعز مليئين بالزيت لمصابيحك وعشرين أقة من الشمع كل سنة لمراضاتك. نحن جيران. ولا داعي للمشاجرة». ومنذ ذلك الحين كان حسن بك (الكلب!) يرسل خادمه كل سنة في عيد القديس ميناس، في 11 تشرين الثاني لينزل جلدي ماعز مليئين بالزيت وعشرين أقة من الشمع في باحة الكنيسة. ولم يعد القديس ميناس يدق جداره مرة أخرى.

هناك نوع من اللهب في كريت ـ ولنسمه «الروح» ـ شيء ما أقوى بكثير من الحياة أو الموت. هناك كبرياء وعناد وبسالة. ومعها جميعاً شيء ما يجعلك تفرح لكونك إنساناً وفي الوقت ذاته يجعلك ترتعش.

حينما كنت طفلاً كان الهواء الكريتي مشبعاً بزفير الأتراك، رائحة وحش بري. كان هناك يطقان تركي مشرع فوق رأسي. وبعد سنوات عديدة رأيت «توليدو في العاصفة»، فعرفت أي نوع من الهواء كنت أستنشق حينما كنت طفلاً، وأية ملائكة تحوم حول كريت كالشهب.

كان آب أحب الشهور إلى نفسي في طفولتي وما زال أحبها إلي حتى الآن. فهو الذي يجلب لنا العنب والتين والقاوون والبطيخ الأحمر. وقد أطلقت عليه اسماً مسيحياً هو القديس أوغست. هاهو ذا حاميّ ـ كما كنت أقول لنفسي ـ وله سوف أقدم صلواتي. وحينما أرغب في أي شيء سأطلبه من القديس أوغست. وهو، بدوره، سوف يطلب من الله. والله سوف يعطيني ما أريد. ومرة أخذت بعض الألوان المائية ورسمته. وتبين أنه قريب الشبه جداً من جدي الفلاح ـ الخدان المتوردان نفسهما والبسمة العريضة ذاتها ـ لكنه كان حافياً في معصرة الخمر يدوس العنب. شمر عن ساقيه حتى الركبتين أو قريباً من الفخذين وقد رسمتهما حمراوين من عصير العنب. وتوجت رأسه بتاج من أوراق الدوالي. وظل ينقص الصورة شيء ما. ما هو؟ نظرت إليه بإمعان ثم وضعت قرنين على رأسه بين أوراق الدوالي، لأن المنديل الذي يضعه جدي على رأسه كانت له عقدتان شبيهتان بالقرون، واحدة إلى اليمين والأخرى إلى اليسار.

في اللحظة التي رسمت فيها أوغست وثبَّتُّ ملامحه في داخلي تثبتت ثقتي به. ورحت أنتظر كل سنة أن يأتي ويقطف كروم كريت ثم يعصر القطاف ويكمل معجزته باستخلاص الخمر من العناقيد. لأنني أذكر كم كان هذا اللغز يعذبني. كيف يصبح العنب خمراً؟ القديس أوغست وحده، لديه القدرة على صنع معجزة كهذه. آه لو أنني أستطيع الالتقاء به صدفة ذات يوم في كرمنا الواقع خارج ميغالو كاسترو وأطلب منه أن يخبرني بالسر. فأنا لم أستطع أن أفهم هذه المعجزة. الثمر غير الناضج يتحول إلى عنب والعنب إلى خمر والناس يشربون الخمر ويسكرون. لماذا؟ لماذا يسكرون؟ هذه الأمور كانت تبدو لي ألغازاً مخيفة. وذات مرة حين سألت والدي عنها قطب حاجبيه وأجابني: «انتبه لشؤونك!».

وفي آب أيضاً كانت العناقيد تُسطح على أرض مغطاة بالقماش لكي تجف تحت الشمس

Twitter: @ketab_n

وتتحول إلى زبيب. وفي إحدى السنوات ذهبنا إلى كرمنا وجلسنا في كوخنا الريفي الصغير. كان الهواء لطيفاً وكانت الأرض لاهبة والجنادب تحترق هي الأخرى. كان يبدو أنها جالسة على فحم مشتعل.

كان ذلك في الخامس عشر من آب، عيد ارتقاء السيدة العذراء. وكان العمال في عطلة. وجلس والدي عند جذع شجرة زيتون يدخن. وجلس جيراننا إلى جانبه يدخنون. وكانوا قد سطحوا عنبهم أيضاً. كان القلق بادياً عليهم. وكل منهم قد سمر عينيه على غيمة صغيرة سوداء مشؤومة ظهرت صامتة في الأفق وبدأت تتقدم. كنت جالساً قرب والدّي مثل الآخرين. وكنت أراقب الغيمة أيضاً، وأحسست أنني أحبها. كانت رقيقة، ملونة بهذا اللون الرصاصي الخفيف، وهي تكبر باستمرار وتغير وجهها وجسدها. مرة تشبه جلد ماعز مليء، ومرة تشبه عقاباً أسود الريش، ومرة تشبه الفيل الذي رأيته في الصورة. وكانت تهز جذعها جيئة وذهابا وهي تحاول أن تجد الأرض تحتها وتلامسها. وهبت نسمة دافئة. وارتعشت أوراق شجرة الزيتون. فقفز واحد من الجيران واقفاً ومد ذراعيه نحو الغيمة المتقدمة: «ليأخذها الشيطان. قولوا عني إنني كذاب إن لم تجلب لنا زخة مطر».

فأجابه عجوز ورع: «الأفضل لك أنت أكل كلماتك. العذراء لن تسمح بذلك. هذا عيدها». ونخر والدي دون أن ينبس بكلمة. لقد كان مؤمناً بالعذراء. إلا أنه كانت لديه شكوك حول قدرتها على التحكم في الغيوم.

وبينما هم يتحدثون صارت السماء كالحة تماماً. وبدأت القطرات الكبيرة الأولى الحارة بالتساقط. واقتربت الغيوم من الأرض. وبدأت ومضات البرق الصفراء تشق السماء بصمت. وصرخ الجيران: أيتها العذراء المقدسة. ساعدينا.

قفزوا جميعاً وتفرقوا في كل اتجاه. كل نحو كرمه حيث مؤونة العام كلها من الزبيب مسطوحة. وصار الجو أشد قتامة وهم يركضون. وتهدلت خصلات سوداء من الغيوم واندفعت الريح مجنونة. وفاضت السواقي وبدأت المياه تجري في الدروب كالأنهار. وانطلقت أصوات نادبة من كل كرم. بعضها كان يلعن. وبعضها يسترحم العذراء أن تأخذها بهم الرأفة وأن تتدخل. وأخيراً، ومن كل كرم، ومن وراء أشجار الزيتون، انطلق البكاء.

انسللت من كوخنا ورحت أركض تحت المطر وقد تملكتني غبطة كالسكر. كانت المرة الأولى التي اكتشفت بها الاكتشاف الرهيب بأنه ما إن تحدث المصائب الكبرى حتى تتملكني غبطة غامضة لا إنسانية. حين رأيت النار أول مرة، وذلك عندما احترق بيت عمتي كاليوب، قفزت ورقصت أمام اللهيب حتى أمسك بي أحدهم من نقرتي ودفعني بعيداً. وحين مات معلمنا كراساكيس كان علي أن أمنع نفسي قسراً من الضحك. كان الأمر كما لو أن معلمي وبيت عمتي كانا ثقيلين وقد أزيحا عن كاهلي وتحررت منهما. فالنار والطوفان والموت كلها

Twitter: @ketab_n

كانت بالنسبة لي أرواحاً صديقة ودودة. وأحسست أنني روح من العائلة ذاتها. كنا شياطين متوحدين نجاهد لتخليص الأرض من بيوتها وسكانها.

وصلت إلى الطريق. لكنها كانت سيلاً جارفاً لم أستطع عبوره. فوقفت جانباً ورحت أتفرج بينما العناقيد نصف الجافة ـ جهد العام كله ـ تعوم على السيل الذي يجرفها بسرعة نحو البحر. وتصاعد البكاء. وغاصت عدة نساء حتى الركب في الماء وهن يجاهدن لإنقاذ بعض الزبيب. وأخريات، تساقطت المناديل عن رؤوسهن، كن واقفات على جانب الطريق يشددن شعورهن.

كنت مبللاً حتى العظم، وأنا أجاهد لإخفاء غبطتي. ركضت عائدًا نحو البيت شغوفاً برؤية رد فعل والدي. هل سيبكي؟ هل سيلعن؟ أم سيصرخ؟ وحين عبرت المنطقة الجافة رأيت أن عنبنا كله قد راح.

وجدته واقفاً بلا حراك على العتبة وهو يعض شفته. وكانت أمي واقفة وراءه وهي تبكي.

وصرخت: أبي. لقد راح عنبنا.

فأجاب: نحن لم نرح. اخرس.

لم أنس هذه اللحظة طوال حياتي. واعتقد أنها نفعتني كدرس عظيم. في أزمات حياتي كنت دائماً أتذكر أبي وهو واقف بهدوء، دون حراك على العتبة، دون أن يلعن أو يتوسل أو يبكي. بلا حراك كان واقفاً يرقب الخراب. ووحده بين الجيران كلهم ظل محافظاً على كرامته البشرية.

Twitter: @ketab_n

10

مجزرة

نقول في كريت: مرحباً بالمصيبة حين تأتي وحدها. ذلك أنها نادراً ما تجيء وحدها. ففي اليوم التالي كانت السماء صافية تماماً. بالأمس كانت غاضبة وقد أهلكت معظم الناس. أما اليوم فهي تضحك. وطاف المالكون بكرومهم. العنب كله قد تلف. وهنا وهناك لا تزال تظهر كمشات منه غارقة في الطين. وعند الظهر تماماً عاد والدي مسرعاً من كاسترو. لقد جاءه أحد أصدقائه في الصباح الباكر وهمس شيئاً ما في أذنه ثم رحل.

وانتقل الكلام بأن المسيحيين قد قتلوا أحد الآغوات البارزين في إحدى القرى. كان الأتراك ثائرين، والمسيحيون يسلحون أنفسهم. كنا على أبواب ثورة أخرى. وراح الأتراك يتسابقون إلى ميغالو كاسترو بحثاً عن الأمان وراء الجدران الفينيسية.

كنت أمشي في كرمنا مع أمي وأختي نجمع آخر العناقيد التي كانت لا تزال على الدوالي. وكان الحر في عزه. والهواء يلفح. وبغتة سمعنا صرخات وأصوات نباح من الطريق. كان هناك حشد هائل يعبر. الحمير محملة بقصع العجين والأباريق والنساء التركيات. ووراءها كان الرجال المعممون يخبّون مسرعين في الأوحال. بعضهم حفاة. وبعضهم بأحذية دون نعال. وهم يخورون دون كلام في سيرهم الحثيث نحو كاسترو.

وغمغمت أمي: «الكلاب التركية!» وحملتنا تحت إبطيها وأدخلتنا. وتشبثت بركبتها وسألتها: لم يركضون يا أمي؟ ماذا يريدون؟ ولم ترتجفين؟

فربتت على شعري: يا إلهي. فلتشمل ابني بنظرتك. ما أرهب أن يولد المرء كريتياً.

فتحنا النافذة قليلاً ورحنا نتطلع. كان الحشد يسرع من بعيد. ثم اختفى وراء أشجار الزيتون. وعاد الطريق إلى هدوئه.

«فلنذهب». قال والدي. «بسرعة. علينا أن نصل قبل المغيب».

أمسكت أمي بأيدينا. وأخرج والدي مسدسه من تحت الوسادة. تفحصه. كان محشواً. أدخله في جيبه ثم سار وراءنا.

Twitter: @ketab_n

كانت الشمس على وشك أن تغرب حين مررنا من البوابة الحصينة. ولكن في الأزقة كان يبدو كأن الظلام قد حل. الناس يركضون مسرعين والأبواب توصد والأمهات يظهرن لينادين أطفالهن من الشوارع. ورأتنا جارتنا فطوم ولم تلق علينا تحية المساء.

جلس والدي في مكانه المعهود على الأريكة في الزاوية قرب النافذة المطلة على الدار. ووقفت أمي أمامه تنتظر. كانت تعلم أنه سيصدر الأوامر. أخرج كيس تبغه ودرج لفافته ببطء وتكاسل. ثم، ودون أن يرفع عينيه، قال: لا يخرجن أحد من البيت.

والتفت إلي عابساً: أأنت خائف؟

فأجبته: لا.

ـ وماذا لو حطم الأتراك الباب؟ ماذا لو اقتحموا البيت وذبحوك؟

ارتعشت، واستطعت أن أحس بالشفرة على حلقي. كنت أريد أن أصرخ: نعم أنا خائف. لكن عيني والدي كانتا مثبتتين علي فخجلت. وبغتة انتفخ صدري. وأحسست أن قلبي يمتلئ ببسالة الرجال. فقلت: حتى لو ذبحوني لن أخاف.

«عظيم». قال والدي وأشعل لفافته.

في الصيف الماضي حين ذهبت إلى قريتنا لرؤية جدي وهو يموت، نمت مع أحد أخوالي في حقل بطيخ. وبغتة قبل أن أغفو بقليل سمعت صوت «كررر. كررر. كررر» من حولي، صوت تكسر أشياء غريبة. التصقت بخالي خائفاً وسألته: «ما الذي يصدر هذا الصوت المتكسر؟ أنا خائف». فأدار خالي ظهره لي حانقاً لأنني أيقظته وقال: «نم يا ابن المدينة! أهي المرة الأولى التي تسمع فيها صوتاً كهذا؟ إنه البطيخ وهو يكبر». وبشكل مشابه لهذا اليوم حين تركزت عينا والدي علي أحسست بقلبي يكبر ويطقطق.

لميغالو كاسترو أربع بوابات حصينة. كان الأتراك يغلقونها كل يوم عند الغروب ويفتحونها مع الشروق. وما من أحد كان يستطيع الدخول أو الخروج من المدينة طوال الليل. وبهذا وقع المسيحيون الذين فيها في المصيدة. كان في وسع الأتراك أن يقوموا بمجزرة خلال الليل، طالما أن البوابات مغلقة ومرتّجة. ذلك أنهم الأكثرية في المدينة. ولديهم أيضا الحامية التركية.

كانت هذه تجربتي مع أول مجزرة. فبعد أيام قليلة، وللمرة الأولى، رأى عقلي الطفولي وجه الحياة الحقيقي وراء القناع الجميل للبحر وللحقول الخضراء والدوالي المثقلة بالعناقيد، وخبز القمح وابتسامة الأم. وجه الحياة الحقيقي: الجمجمة.

وفي هذا الوقت أيضاً سقطت سراً بذرة في أحشائي. بذرة قدر لها فيما بعد أن تزهر وتثمر. عيني الثالثة. العين الداخلية. عين صافية مفتوحة ليلاً نهاراً. لا تعرف خوفاً أو أملاً.

جلست وأمي وأختي متلاصقين ومتمترسين داخل بيتنا. وكنا نسمع الأتراك الهائجين في

Twitter: @ketab_n

الشارع يشتمون ويهددون ويحطمون الأبواب ويذبحون المسيحيين. سمعنا نباح الكلاب وصرخات الجرحى وحشرجات الموت وهديراً في السماء كما لو أن الهزة الأرضية تتقدم. وقف والدي وراء الباب ينتظر والمسكيت معه محشو. وأذكر أنه كان يمسك بيده حجراً مستطيلاً كان يسميه «المسن» أو المشحذ. كان يشحذ عليه سكيناً طويلة ذات قبضة سوداء، و رحنا ننتظر. قال لنا: «إذا حطم الأتراك الباب ودخلوا فإن في نيتي أن أذبحكم بنفسي قبل أن تقعوا في أيديهم». أمي وأختي وأنا، جميعنا، وافقنا. ونحن الآن ننتظر.

أعتقد أنني كنت سأرى روحي وهي تنضج خلال تلك الساعات لو أن اللامرئي صار مرئياً. وأدركت أنني في غضون ساعات قليلة بدأت أتحول مباغتة من طفل إلى رجل.

وهكذا مر الليل. وجاء الصباح. وهدأ الهدير وانسحب الموت مبتعداً.

فتحنا بابنا بهدوء ومددنا رؤوسنا خارجاً. عدد من نساء البيوت المجاورة فتحن نوافذهن بهدوء وتلصصن. كن يتفحصن الشارع. وفي تلك اللحظة مر بائع الكولوري التركي، ذلك الذي له صوت صغير وحاد ولا شعر في وجهه. كان ينادي بنغمه الرتيب على كعكاته المرشوشة بالسمسم والقرفة التي يحملها على صينية تنكية واسعة فوق رأسه. أية فرحة تلك!! بدا كأن كل شيء يولد من جديد: وبدا، أننا نرى، للمرة الأولى، السماء والغيوم والصينية التنكية المحملة بالكولوري الشهية. اشترت لي أمي واحدة ومضغتها بمتعة لا توصف. وسألت أمي: هل ذهبت المجزرة؟

وأخافها سؤالي فقالت: «اهدأ. اهدأ يا بني. لا تذكر اسمها. فقد تسمعك وترجع». إنني أكتب الآن كلمة «مجزرة»، ويقف لها شعر رأسي. لأنني حين كنت طفلاً لم تكن هذه الكلمة عبارة عن عدد من الأحرف الأبجدية المتجاورة. بل كانت هديراً هائلاً، وأقداماً ما ترفس أبواباً، ووجوهاً كالحة تحمل السكاكين بين أسنانها، ونساء يرتجفن في كل مكان من الجوار، ورجالاً يحشون الأسلحة وهم راكعون وراء الأبواب. بالنسبة لنا نحن الذين كنا أطفالاً في كريت في ذلك الحين هناك كلمات أخرى عديدة تمتزج أيضا بالدم والدموع، كلمات صلب عليها شعب بأكمله: الحرية، القديس ميناس، المسيح، الثورة.

مصير الإنسان الذي يكتب مصير قسري وتعيس. وذلك عائد لطبيعة عمله التي تجبره على استخدام الكلمات. وهذا يعني أن يحول جيشانه الداخلي إلى سكون. فكل كلمة صدَفة صلبة تحتوي على قوة انفجارية عظيمة. ولكي تكتشف معناها يجب أن تدعها تنفجر في داخلك كقنبلة، لكي تحرر الروح التي تحتجزها.

مرة كان هناك حاخام يدلي بوصيته ويودع زوجته وأطفاله بالدموع كلما ذهب إلى الكنيس ليصلي. لأنه لم يكن يعرف ما إذا كان سيخرج من الصلاة حياً. وقد اعتاد أن يقول: «حين ألفظ كلمة ما، ولتكن يا رب، فإن هذه الكلمة تمزق قلبي. يجمدني الرعب. فلا

Twitter: @ketab_n

أعرف ما إذا كنت سأستطيع القفز إلى الكلمة التالية: ارحمني».

آه من يستطيع قراءة قصيدة بهذه الطريقة، أو قراءة كلمة «مذبحة»، أو حرف من اسم المرأة التي يحب، أو هذا (التقرير) الذي كتبه إنسان كافح طويلاً في حياته ولم يستطع أن ينجز إلا القليل.

* * *

في الصباح الباكر من اليوم التالي أخذني والدي من يدي. قال: «تعال». وخافت أمي: «إلى أين تأخذ الصبي؟ لم يغادر مسيحيٌّ بيته بعد».

وكرر والدي أمره: «تعال». وفتح الباب وخرج.

وسألته: «إلى أين نذهب؟»، وكانت يدي ترتجف في راحته الضخمة.

تطلعت إلى الشارع طولاً وعرضاً. كان خالياً إلا من امرأتين قرب الزاوية تغسلان على (الفيجة). كان الماء قد صار أحمر.

ـ هل أنت خائف؟

ـ نعم.

ـ ليس هذا هاماً. ستتعود.

درنا عند المنعطف وتوجهنا نحو بوابة الميناء. ومررنا ببيت كان الدخان لا يزال يتصاعد منه وبيوت أخرى كانت أبوابها محطمة والدماء لا تزال على العتبات. وحين وصلنا إلى الساحة الرئيسية ذات النبع المنحوت في هيئة أسد وشجرة الدلب الضخمة على حافته. وقف والدي وقال: «انظر». وأشار بيده.

نظرت إلى شجرة الدلب وأطلقت صرخة. كان هناك ثلاثة رجال مشنوقين ما زالوا معلقين عليها يتأرجحون واحداً قرب الآخر. كانوا حفاة لا لباس عليهم إلا مناماتهم وألسنة خضراء قاتمة تتدلى من أفواههم. ولعجزي عن تحمل المنظر حولت رأسي وتشبثت بركبة والدي. إلا أنه أمسك رأسي بيده وحوله نحو شجرة الدلب.

«انظر». قال آمراً من جديد.

وامتلأت عيناي بالمشنوقين.

ـ طالما أنت حي ـ أتسمع؟ ـ لا تجعل هؤلاء المشنوقين يغيبون عن نظرك.

ـ من قتلهم؟

ـ الحرية، فليباركها الله.

لم أفهم. وبعينين جاحظتين حملقت وحملقت إلى الأجساد الثلاثة التي كانت تتأرجح ببطء بين الأوراق الصفراء على شجرة الدلب.

Twitter: @ketab_n

ألقى والدي نظرة حوله وأنصت. كانت الشوارع خالية. فالتفت إلي:

ـ أتستطيع أن تلمسهم؟

ـ لا. صحت خائفاً.

ـ تستطيع! تعال!

اقتربنا. ورسم والدي شارة الصليب بسرعة أكثر من مرة. ثم قال لي آمراً: «المس أقدامهم». ولمست برؤوس أصابعي جلودهم الباردة القاسية. كان ندى الليل لا يزال عالقاً عليها. وجاءني أمر والدي من جديد: «قبلهم. قدم لهم احترامك». وحين رأى محاولتي للإفلات والهرب حملني تحت ذراعيه ورفعني ثم أحنى رأسي وقسرني على الالتصاق بالقدم الصلبة.

أنزلني فلم تقوَ ركبتاي على حملي. انحنى ونظر إلي قائلاً: «كان هذا لمساعدتك على التعود».

ثم أخذني، من جديد، بيدي وعدنا إلى البيت. كانت أمي واقفة وراء الباب تنتظر بقلق.

«أين ذهبتما بحق الله؟»، سألت وهي تمسك بي بشغف وتقبلني.

فأجاب والدي: «ذهبنا لنقدم فروض الاحترام». وألقى علي نظرة واثقة.

* * *

ظلت البوابات الحصينة مغلقة ثلاثة أيام. ثم فتحت في اليوم الرابع.

غير أن الأتراك كانوا يجوبون الشوارع ويملأون المقاهي ويتجمعون في المساجد. لم يكن الهياج قد هدأ بعد في أعماقهم. وكانت عيونهم لا تزال مليئة بالقتل. كانت كريت مهيأة لأن تشتعل. ولم يكن يلزم إلا شرارة واحدة. وركب جميع المسيحيين الذين لديهم أطفال في السفن التجارية والقوارب للرحيل إلى اليونان الحرة. وكل من ليس لديهم أطفال هجروا ميغالو كاسترو واتجهوا إلى الجبال.

كنا بين من ذهبوا إلى المرفأ من أجل الرحيل. والدي يتقدمنا. ووراءه أمي وأختي، وأنا في المؤخرة.

لقد قال لي والدي ـ ولم أكن قد أكملت الثامنة بعد. «يجب أن نحمي النساء. سأسير أنا في المقدمة وأنت تظل في الخلف. وانتبه جيداً!».

مررنا بالجوار الذي كان محترقاً. بعض الضحايا لم تكن قد أزيحت بعد. والجثث بدأت تتعفن. وانحنى والدي على أحد الأبواب والتقط حجراً مضمخة بالدم. قال لي: «احتفظ بها».

فهمت أخيراً لم كان والدي يتصرف بهذه الطريقة الضارية. لم يكن يطبق أساليب البيداغوجيا الحديثة؛ بل كان يتبع الأسلوب القديم الشرس الذي كان وحده قادراً على الحفاظ

Twitter: @ketab_n

على الجنس. هكذا يدرب الذئب دغفله[1] المفضل، الابن الأول، يعلمه الصيد والقتل، ويعلمه بالحيلة أو البسالة كيف ينجو من الأفخاخ. ولبيداغوجيا والدي الضارية أدين باحتمالي وعنادي اللذين لازماني في الأوقات العصيبة. ولهذه الضراوة أدين بكافة الأفكار العصية التي تتحكم بي الآن في نهاية حياتي، والتي لم تكن ترضى بقبول الرعاية من اللّه أو من الشيطان.

«دعنا نصعد إلى غرفتك لنقرر أمرنا». قال لي والدي قبل أن نغادر البيت.

وقف في وسط الغرفة وأشار إلى خارطة اليونان الكبيرة التي كانت معلقة على الجدار.

ـ لا أريد أياً من بيرايوس piraeus أو أثينا. هناك سيحتشد الجميع. ثم سيبدأون بالتسول وطلب المعونة. ليس هذا العمل المقرف من شأني. اختر جزيرة ما!

ـ أية جزيرة أشاء؟

ـ نعم. أية جزيرة تشاء.

صعدت على كرسي وألقيت نظرة على كل الجزر الإيجية[2]: كانت نقاطاً خضراء في البحر الأزرق. ثم بدأت بسانتوريني. ورحت أنقل إصبعي إلى مليوس وسيفنوس وميكونوس وباروس. وتوقفت عند ناكسوس.

قلت: «ناكسوس!». أحببت شكلها واسمها. كيف كان لي أن أتنبأ في تلك اللحظة بالأثر الحاسم الذي سيكون لهذا الاختيار العرضي المصيري على حياتي بأكملها.

«ناكسوس»، كررت قولي وأنا أنظر إلى أبي.

فأجاب: جميل. فلنذهب إلى ناكسوس.

---

(1) الدغفل: ابن الذئب.

(2) نسبة إلى بحر إيجة.

Twitter: @ketab_n

11

ناكسوس

كان لهذه الجزيرة حلاوة وهدوء عظيمان. أينما توجهت تشاهد أكوام البطيخ والخوخ والتين يحيط بها البحر الساكن. رحت أتطلع إلى الأهالي. كانت وجوههم ودودة. لم يتعودوا على الخوف من الأتراك أو الهزات الأرضية. ولم تكن عيونهم تشتعل. لقد أطفأت الحرية التوق إلى الحرية. وتمددت الحياة كالماء الهادئ المسترخي الذي، رغم أنه يضطرب أحياناً، إلا أنه لم يتسبب أبداً في إثارة إعصار. وحينما كنت أتجول في ناكسوس كانت الطمأنينة هبتها الأولى التي وعيتها. الطمأنينة، وبعد أيام، السأم. تعارفنا مع شخص اسمه السيد لازاروس، وهو ناكسوسي ثري يملك بستانا رائعاً في أنغاريس، على بعد ساعة عن البلدة الرئيسية. دعانا فمكثنا أسبوعين هناك. أية وفرة، أية أشجار مثقلة بالفاكهة وأية غبطة. لقد تحولت كريت إلى خرافة، إلى غيمة متوعدة موغلة في البعد دون إنذار بخطر ولا سفك لدم ولا كفاح لحرية. هذا كله ذاب وتلاشى في الرفاه الناكسوسي الوسنان.

وجدت كومة من الكتب في إحدى خزائن قصر العزبة. كانت مصفرة لقدمها. فأخذتها وصرت أجلس كل يوم تحت شجرة زيتون وأقلبها بشراهة. وكنت أحدق بشغف إلى الرسومات الباهتة القديمة للمحاربين والسيدات والوحوش وغابات الموز. وفي كتاب آخر بحار متجمدة، وسفن محاصرة بالجليد، ودياسم[1] تتدحرج على الثلج ككرات من القطن. وفي غيره مدن بعيدة ذات مداخن عالية وعمال ونيران متأججة.

توسع عقلي وتوسع العالم معه. وامتلأ خيالي بأشجار عملاقة وحيوانات غريبة وبشر سود وصفر. وكثير من الأشعار التي كنت أقرأها كانت تهيج قلبي. وفي أحد هذه الكتب المصفرة صادفت هذه الكلمات: «سعيد هو الإنسان الذي يرى أكثر البحار وأكثر القارات». وفي آخر: «عجل ليوم أفضل من ثور لسنة». ولم أفهم هذه العبارة جيداً. لكنني عرفت شيئاً

(1) صغار الدببة.

Twitter: @ketab_n

واحداً، هو أنني لا أريد أن أكون ثوراً. أغلقت الكتاب وعببت الهواء العذب وتركزت عيناي على الأشجار المثقلة بالمشمش والخوخ. كنت حشرة بأجنحة لم تنمُ بعد. تتخبط على الأرض بأقدامها الصغيرة في محاولة منها للطيران رغم أن قلبها يخفق. هل ستنجح أم تفشل؟ يفضل الصبر فترة قصيرة أخرى.

كنت صبوراً. ودون أدنى شك كنت، سراً، أنتظر في أعماقي اليوم الذي سوف تكبر فيه أجنحتي. وعندها سأرحل.

لكن بنت أخ السيد لازاروس، غلامية[2] في الثانية عشرة من العمر اسمها ستيلا، كانت قد علقت أرجوحة على شجرة الزيتون المجاورة لشجرتي. كانت تتأرجح في الهواء وتغني. وكانت الحركة ترفع ثوبها فتتلامع ركبتاها البيضاوان كالثلج والمدورتان بشكل مذهل تحت الشمس.

لم أستطع البقاء لسماع أغنيتها أو للنظر إلى ركبتيها. وذات يوم ألقيت بكتبي غاضباً إلى الأرض. ولم تفعل أكثر من النظر إلي ثم الانفجار بالضحك وهي تمضغ لبانها. وكثيراً ما كانت تثيرني بأغنياتها الساخرة. لقد نسيتها كلها إلا واحدة:

أخفض هاتين العينين السوداوين اللتين تنظران إلي.

أخفضهما، يا جوهرتي، إنهما تجلدانني.

«ستيلا!»، صرخت غاضباً وأنا أقفز على قدمي «إما أن تنصرفي من هنا أو أنصرف». فقلبت أرجوحتها. «فلننصرف معاً!»، قالت ولم تعد تضحك. ثم خفضت صوتها وقالت: فلننصرف معاً، يا صديقي المسكين، لأنك ستسجن نهار الاثنين في المدرسة الكاثوليكية. لقد سمعت أباك يتحدث مع عمي.

في برج ناكسوس الرئيسي، الذي كان يقيم فيها لقرون خلت الفاتحون الفرنكيون Frankish، كانت المدرسة الفرنسية الشهيرة التي كان يديرها قسس كاثوليكيون. لقد صعدت إليها ذات يوم مع والدي.

فنظر إليها بإمعان لبعض الوقت ثم هز رأسه: «هنا يستطيع الولد أن يتلقى علوماً. لكن المعلمين قسس كاثوليكيون. ليأخذهم الشيطان! ربما تحولت إلى كاثوليكي!».

وعلى الرغمْ من أنه لم يعد إلى ذكر المدرسة بعد ذلك فقد كنت أعرف أن الفكرة كانت تنخر في رأسه. وأنه لا يعرف كيف يتخذ قراره. وبعد العشاء في اليوم ذاته الذي نبهتني فيه ستيلا، أخذني والدي معه في نزهة في البستان. كان القمر قد بزغ، وكل شيء كان هادئاً وعطراً.

---

(2) فتاة تشبه الصبيان وتلعب ألعابهم.

Twitter: @ketab_n

مر وقت دون أن يتكلم. وأخيراً حين حان وقت عودتنا إلى البيت توقف وقال: «ستطول الثورة في كريت. سأعود إلى هناك. لا أستطيع أن أترك رفاقي المسيحيين يقاتلون هناك بينما أنا أتنزه في البساتين. إنني أرى جدك في نومي كل يوم، وهو يوبخني. يجب علي أن أذهب. ولكن في الوقت نفسه يجب أن لا تضيع وقتك. أريدك أن تصبح رجلاً». عاد إلى صمته من جديد ومشى بضع خطوات ثم توقف مرة ثانية وسألني: «هل فهمت؟ رجل. هذا يعني أن تكون مفيداً لوطنك. من المؤسف أنك ولدت للدراسة وليس للسلاح. ولكن لسوء الحظ ليس في اليد حيلة. هذا طريقك فاسلكه. أتفهم؟ ثقف نفسك لكي تساعد كريت في الحصول على حريتها. فليكن هذا هدفك. وإلا فلتذهب الثقافة إلى الشيطان. أنا لا أريدك أن تصبح معلماً أو راهباً أو سليمان الحكيم. فليكن هذا واضحاً. لقد أخذت قراري والآن عليك أن تتخذ قرارك. إن لم تستطع مساعدة كريت بالسلاح أو بالحروف فالأفضل أن تضطجع وتموت.

قلت: أنا خائف من الآباء الكاثوليكيين.

ـ وأنا أيضاً. الرجل الحقيقي يخاف. لكنه يتغلب على خوفه. إنني أثق بك.

فكر قليلاً ثم أصلح قوله: «لا. أ نا أثق بك. إنني أثق بالدم الذي يجري في عروقك ـ دم كريت. كن جاهزاً الآن، وارسم شارة الصليب على نفسك، وضم قبضتيك. ونهار الاثنين، إن شاء الله، سوف نذهب لتسجيلك عند الكاثوليكيين».

كانت تمطر يوم بدأت، ووالدي، نصعد نحو البرج ـ هطلت زخة خريفية خفيفة أعتمت الشارع. كان البحر يتنهد وراءنا. ولا تزال نسمة لطيفة تُسقط الأوراق عن الأشجار: كانت تسقط واحدة بعد الأخرى صفراء ورمادية تزين المرتفع المبتل. وكانت الغيوم تتسابق فوق رؤوسنا تطاردها ريح قوية لابد أنها كانت تهب في الأعالي. رفعت رأسي وحدقت نحوها بنهم وهي تركض وتتلاصق وتتفرق وبعضها يرخي حواشيه مجاهداً أن يلمس الأرض. منذ طفولتي وأنا أحب أن أستلقي على ظهري في دارنا لمراقبة الغيوم. وكلما مر عصفور طائر أو غراب أو سنونوة أو حمامة، أتوحد معه حتى أني أحس حرارة صدره في راحتي المفتوحة. «مارغي. أظن أن ابنك سيصبح حالماً أو ذا رؤيا». قالت جارتنا مدام بنلوب ذات يوم لأمي، «إنه ينظر إلى الغيوم دائماً».

وأجابتها أمي: اطمئني يا بنلوب. ستأتيه الحياة وتجعله يخفض نظره.

لكن الأيام لم تأت بعد، وفي ذلك اليوم كنت لا أزال معجباً بالغيوم وأنا أصعد نحو البرج. وبغتة تعثرت وانزلقت. وأمسك والدي بكتفي وكأنه يريد أن يثبتني: «انس الغيوم وأبق عينيك على الحجارة تحتك إن كنت لا تريد أن تسقط وتقتل نفسك». وظهرت فتاة شابة ذات نظرات ذابلة من الباب ذي القنطرة المفضي إلى البيت الكبير نصف المتهدم. نظرت هي

Twitter: @ketab_n

الأخرى إلى السماء. كانت شديدة الشحوب والنحول ولها وجه يتميز بنبل عظيم. وكانت ملفعة بإزار رثّ وهي ترتعش. علمت في ما بعد أنها تنحدر من إحدى العائلات الكاثوليكية المعروفة ذات العز الغابر، وكل أفرادها إما دوق أو دوقة، فتحت ناكسوس منذ قرون وبنت هذا البرج لإقامتها. بنته على أعلى موقع في المدينة بحيث أن أفرادها يستطيعون أن يطلوا ويراقبوا عامة الأرثوذكس وهم يشتغلون لمصلحتهم في الميناء أو في السهول. إلا أن هذه الأسرة قد فقدت أمجادها وأصبحت فقيرة جداً. وتحولت قصورها إلى دمار حتى صارت حفيدات أحفادها جائعات وشاحبات. ولم تكن هذه الفتيات قادرات على العثور على أزواج لأن الرجال الذين من طبقتهن قد فقدوا نفوذهم. وهم إما أنهم فقدوا الرغبة في الزواج أو أصبحوا عاجزين عن إعالة زوجة وأطفال. أما الزواج من العامة الأرثوذكسية المتواضعة، من جهة أخرى، فهو أمر لم تكن تلك السيدات النبيلات تتنازلن لفعله. إن لديهن كبرياءهن الشامخة أبداً. ذلك أن الكبرياء هي كل ما بقي لهن. نظرت الفتاة إلى السماء قليلاً ثم هزت رأسها وعادت إلى الداخل. إنني أتذكر كل شيء. كل شيء تماماً مما حدث وأنا أصعد إلى البرج في ذلك اليوم لدخول المدرسة الكاثوليكية. ولا أزال قادراً على رؤية القطة الجالسة على العتبة تحت المطر. كانت بيضاء ببقع برتقالية. وفتاة صغيرة حافية تحمل مجمرة مليئة بالفحم المشتعل وهي تركض ووجهها أحمر مشرق من الوهج.

«ها قد وصلنا»، قال والدي. ورفع يده وقرع الباب الضخم. كانت هذه أول قفزة، وأكثرها أهمية، في حياتي الثقافية. وانفتح مدخل سحري داخل عقلي وقادني إلى عالم مدهش. حتى الآن كانت كريت واليونان هما الحلبة المحدودة التي تحتجز روحي المكافحة في داخلها. أما الآن فقد اتسع العالم. وتعددت تقسيمات البشر. طقطق صدري اليافع مجاهداً لاحتوائها كلها. قبل تلك اللحظة كنت قد تكهنت، لكنني لم أكن أعرف بهذا الشكل الملموس، أن العالم واسع جداً، وأن المعاناة والتعب هما الملازمان ورفيقا السلاح، ليس فقط للكريتيين، بل لكل إنسان. وفوق كل شيء، الآن فقط بدأت أحدس بالسر العظيم: إنه عن طريق الشعر يمكن تحويل هذه المعاناة كلها وهذا الجهد كله إلى حلم. ولا أهمية لكمية الاستياء الزائلة الموجودة، فإن الشعر يستطيع أن يخلدها بتحويلها إلى أغنية. عاطفتان أو ثلاث عواطف، فقط، كانت تتحكم فيّ حتى ذلك الحين: الخوف، الكفاح، التغلب على الخوف، والتوق إلى الحرية. أما الآن فقد أضيفت في داخلي رغبتان جديدتان هما الجمال والتعطش للعلم. صرت أريد أن أقرأ وأن أتعلم. أن أرى أراضي بعيدة. وأن تكون لي تجارب شخصية من المعاناة والغبطة.

كان العالم أكبر من اليونان، وآلام العالم أكبر من آلامنا. والتوجه إلى الحرية لم يكن امتيازاً مقصوراً على الكريتيين. بل هو النضال الأبدي للبشر. ولم تتلاش كريت من ذهني رغم ذلك. بل إن العالم كله قد انتشر في أعماقي ليصبح كريتاً واحدة جبارة يضطهدها أنواع

Twitter: @ketab_n

الأتراك كافة. لكنها دائماً تقفز واقفة على قدميها وتبحث عن الحرية. وبهذه الطريقة، بتحويل العالم كله إلى كريت، استطعت منذ السنوات الأولى لنضجي أن أحس بعذابات البشر كلهم وآلامهم.

في هذه المدرسة الفرنسية طلاب جمعوا من كافة أنحاء اليونان. وبما أنني كنت كريتياً، وكريت كانت في ذلك الحين تقاتل الأتراك، اعتبرت أن من واجبي ألا أشوّه سمعة بلدي. كانت لدي مسؤولية أن أكون الأول في صفي. وهذه القناعة، التي أعتقد أنها لم تنبع من الكبرياء الفردية بل من الإحساس بالالتزام الوطني، زادت من قواي. وفي وقت بسيط استطعت أن أبز زملائي كلهم ـ لا. ليس أنا، بل كريت. وهكذا مرت الأيام بنشوة لم تكن معروفة لدي من قبل. رغبة ثملة في أن أتعلم وأتقدم وأن أطارد الطائر الأزرق الذي (اكتشفت فيما بعد) يدعى الروح.

هكذا اكتسب عقلي الجرأة. حتى أنني اتخذت ذات يوم قراراً طائشاً بأن أكتب مقابل كل كلمة فرنسية مرادفتها اليونانية. أخذ مني هذا العمل شهوراً وقد احتجت إلى معونة قواميس عديدة أخرى. وانتهيت أخيراً. وتمت ترجمة القاموس الفرنسي كله، أخذته فخوراً لأريه للأب لوران، مدير المدرسة. كان قساً كاثوليكياً متعلماً قليل الكلام ذا عينين رماديتين وابتسامة صفراء ولحية كبيرة نصفها أبيض ونصفها أشقر. أخذ مني القاموس وقلب أوراقه ثم نظر إلي بإعجاب ووضع يده على رأسي، كأنه يريد أن يباركني.

وقال: «ما فعلته، أيها الكريتي الصغير، يدل على أنك ستصبح ذات يوم إ نسانا هاماً. إنك محظوظ لأنك اكتشفت طريقك في هذه السن المبكرة: العلم والبحث. هذا هو طريقك. بارك الله فيك».

ركضت، وأنا مترع بالفخر، إلى مساعد المدير الأب ليليفر، وهو راهب حسن التغذية محب للنكتة ذو عينين مرحتين، تعود أن يضحك وأن يحكي النكات الريفية. ويلعب معنا. وفي كل عطلة أسبوعية كان يأخذنا في نزهة إلى أحد بساتين المدرسة في الريف. وهناك، بتحررنا من الأب لوران، كنا نتصارع ونضحك ونأكل الفاكهة ونتدحرج على العشب ونريح أنفسنا من عناء الأسبوع.

لذلك ركضت أبحث عن الأب ليليفر لأريه إنجازي. ووجدته في الباحة يسقي صفاً من أزهار الليلك. أخذ القاموس وقلب صفحاته ببطء شديد جداً وتصفحها. وكلما أمعن النظر التهبت قسماته أكثر. وبغتة رفع القاموس وقذف به في وجهي. وصرخ: عيب عليك. هل أنت ولد؟ أم عجوز خرف أشيب اللحية؟ ما عمل العجائز هذا الذي ضيعت وقتك من أجله؟ بدل أن تضحك وتلعب وتتلصص على الفتيات العابرات تجلس كالأبله وتترجم قواميس!! هيا انصرف من هنا، واغرب عن وجهي. خذها عني. إنك إن اتبعت هذا الطريق فلن ترتقي إلى أي شيء ـ أبداً! وستنتهي إلى معلم صغير كادح بائس بنظارتين. إن كنت كريتياً فعلاً أحرق

Twitter: @ketab_n

هذا القاموس اللعين واجلب لي الرماد وعندها سأمنحك بركتي. فكر في الأمر وتصرف. هيا من هنا!!

ابتعدت مبلبلاً. من منهما كان على حق؟ وماذا علي أن أفعل، وأي الطريقين هو الصحيح؟ عذبني هذا السؤال لسنوات. وحين اكتشفت، أخيراً، أي الطريقين هو الصحيح كان شعري قد شاب. ومثل حمار بوريدان، كانت روحي تتأرجح مترددة بين الأب لوران والأب ليليفر. كنت أنظر إلى القاموس والكلمات اللاتينية المكتوبة بخط صغير جداً على الهامش بالحبر الأحمر وحين أتذكر نصيحة الأب ليليفر كان قلبي يتمزق. لا. لم تكن لدي الشجاعة لإحراقه وجلب الرماد له. بعد سنوات عديدة، حين بدأت أفهم أخيراً، ألقيت به إلى النار. غير أنني لم أجمع الرماد لأن الأب ليليفر كان قد مات منذ زمن طويل.

بعد أن وضعني والدي في المدرسة، مباشرة، ورآني وقد استقر مقامي ركب قارباً ورحل سراً إلى كريت لكي يقاتل. وذات يوم أرسل لي ملحوظة موجزة على ورقة ملوثة بالبارود: إنني أؤدي واجبي بقتال الأتراك. وأنت تقاتل أيضاً. قف بصمود. ولا تدع هؤلاء الكاثوليكيين يسربون أفكاراً في رأسك. إنهم كلاب، مثل الأتراك تماماً. أنت من كريت. لا تنس ذلك. وعقلك ليس ملكك. بل هو لكريت. فاجعله متيقظاً قدر ما تستطيع؛ بحيث إنك، ذات يوم، تستطيع أن تستخدمه لتحرير كريت. وطالما أنك لا تستطيع أن تعين بالسلاح فلم لا تعين بعقلك؟ فهو، أيضا، سلاح[3]، هل تفهم ما أطلبه منك؟ أجب بالإيجاب. وهذا كل شيء لليوم وللغد وإلى الأبد. لا تخجلني!

أحسست بكريت كلها على كتفي. فإن فشلت في تعلم دروسي جيداً، أو في فهم مسألة في الحساب، أو في أن أكون الأول في الامتحانات، فإن كريت ستخزى. لقد فقدت عبث الطفولة وعذوبتها وطيشها. وحين كنت أرى زملائي يضحكون ويلعبون كنت أعجب بهم. لابد أنني كنت أود لو أضحك وألعب أيضاً. لكن كريت كانت تحارب وكانت في خطر. والأخطر من هذا كله أن المعلمين والطلاب لم يعودوا ينادونني باسمي. بل كانوا يدعونني بـ «الكريتي». وكان هذا تذكيراً دائماً وأكثر إلحاحاً بالتزامي.

لم يكن هناك خوف من تحولي إلى كاثوليكي. ليس لأنني كنت أعي أي الأديان هو الأصح. بل بسبب عامل آخر. ورغم أنه يبدو أن لا أهمية له فقد كان مؤثراً في روحي الشابة بعمق أكبر من أي مبدأ لاهوتي. كان لدينا كل صباح قداس إلزامي في المصلّى الكاثوليكي. وهو عبارة عن غرفة صغيرة عارية الجدران وسط بناء المدرسة، شديدة الحر صيفاً، شديدة البرد شتاء. وفيها تمثالان ملونان من الجص أحدهما للمسيح والآخر للعذراء. وكانت كميات كبيرة من أزهار الليلك توضع على المذبح في المياه ذاتها فتصبح قذرة إلى درجة أنني حين

(3) في الأصل موسكيت.

Twitter: @ketab_n

أدخل المصلّى كل صباح كانت رائحتها تكاد تجعلني أتقيأ. وأذكر أنه قد أغمي علي في إحدى المرات. وهكذا فان هذه الزهور الليلكية المتعفنة والكنيسة الكاثوليكية قد اتحدت في أعماقي اتحاداً لا ينفصم. ومنذ ذلك الحين فإن فكرة التحول إلى كاثوليكي كانت تصيبني بالقرف.

غير أن اللحظة جاءت (وحتى اليوم أتذكرها بخجل) حين كنت على وشك أن أخون معتقدي. لماذا؟ أي شيطان دفعني؟ كم في هذا الشيطان الداخلي من الدهاء بحيث أنه يكمن منتظراً وراء فضائلنا، لابساً لبوس الفضيلة هو نفسه؟ وهو واثق أن ساعته ستجيء، عاجلاً أم أجلاً، ودون شك.

وبالفعل فإن ساعته قد جاءت يوم وصل الكاردينال الذي يفتش على المدارس الكاثوليكية في المشرق ذات صباح قادماً من روما. كان يرتدي بذلة حريرية سوداء ذات بطانة قرمزية وقلنسوة قرمزية ولها حواف عريضة، وجوارب قرمزية شفافة وفي إصبعه خاتم كبير وعليه حجر قرمزي. كان الجو من حوله مشعاً ومليئاً بالعبير. وفي اللحظة التي ظهر فيها ووقف أمامنا، كنا على ثقة تامة من أنه وردة هائلة غريبة خرجت لتوها من الفردوس. ورفع يده النقية البيضاء البضة، اليد التي تحمل الخاتم الذهبي، وباركنا. وأحسسنا جميعاً بقوة غامضة تتغلغل فينا من قمة الرأس حتى الكعب. كأننا احتسينا خمرة معتقة وصارت عقولنا ملونة بالقرمزي الغامق.

لابد أن الأب لوران قد أخبره عني. لأنه فيما هو يغادرنا أشار لي أن أتبعه. ذهبنا إلى غرفته وجلس على كرسي صغير..

«هل تحب أن تأتي معي؟»، سألني بصوت بدا لي حلواً كالعسل.

ـ إلى أين؟ سألته مندهشاً: أنا كريتي. ضحك الكاردينال، وفتح صندوقاً أخرج منه حبة سكاكر وضعها في فمي. كان فمه صغيراً ومدوراً ومحلوقاً بعناية وله شفتان سميكتان براقتان حمراوان. وكلما حرك يده فاحت في الجو رائحة الخزامى. قال: أعرف.أعرف. أعرف عنك كل شيء. أنت كريتي. وهذا يعني أنك ماعز بري. ولكن اصبر واستمع إلي. سنذهب إلى روما، المدينة المقدسة. وستدخل مدرسة كبيرة لتتابع تعليمك بحيث تصبح عظيماً وهاماً. ومن يدري؟ ـ ربما لبست ذات يوم قلنسوة الكاردينال ذاتها التي ألبسها أنا. ولا تنس أن واحداً من جزيرتكم، كريتياً، قد أصبح ذات يوم بابا ـ قائد المسيحية. أي أنه كان أكبر من امبراطور! عندها سيكون في وسعك أن تعمل وأن تحرر كريت. هل تسمع ما أقول؟

تمتمت: «نعم. نعم». كنت أرفع رأسي وأصغي بشغف.

ـ في هذه اللحظة، يا بني، حياتك على مفترق طرق. إن قلت «نعم» نجوت. وإن قلت «لا» ضعت. ما الذي ستصير إليه إن بقيت هنا؟ ماذا يعمل أبوك؟

Twitter: @ketab_n

ـ إنه تاجر.

ـ طيب. ستصبح تاجراً أنت الآخر. وفي الحد الأقصى ستكون محامياً أو طبيباً. أي لا شيء. اليونان مقاطعة صغيرة. اخرج من المقاطعات يا بني. لقد حكوا لي الكثير عنك. وأكره أن أراك تضيع.

كان قلبي يخفق بصوت مرتفع. مرة أخرى ينفتح أمامي طريقان. فأيهما أختار؟ ولمن ألجأ طلباً للمساعدة «سيدفعني الأب لوران في طريق. وسيدفعني الأب ليليفر في الآخر. أيهما الصحيح؟ وماذا لو أنني سألت والدي؟».

حين تذكرت والدي ارتعبت. كان قد عاد لتوه من كريت ملوثاً بالبارود وفي ذراعه جرح بليغ. لقد سكتت البنادق الآن. بعد هذه القرون العديدة، وهذه الدماء الغزيرة، وضعت الحرية قدمها المضرجة في الأرض الكريتية. سيصل الأمير جورج اليوناني ويقدم خاتم الخطبة عربوناً للوقت الذي ستتوحد فيه كريت واليونان إلى الأبد.

لقد جاء والدي لرؤيتي فور عودته من كريت. ولم أعرفه في البدء. كانت بشرته أشد سواداً من قبل. وكانت ابتسامة (أراها لأول مرة) تشع على شفتيه: «كيف تسير الأمور؟ هل حولوك؟». سألني وهو يضحك. صار لوني أحمر قانياً. فوضع كفه الضخمة على رأسي: «أنا أمزح فقط. إنني أثق بك».

حين تذكرت والدي الآن في حضرة الكاردينال لابد أن لوني قد شحب؛ لأن الأسقف وضع يده الممتلئة بلطف على شعري وسألني: «بم تفكر؟» فتمتمت: ماذا سيقول والدي؟

ـ ليس من الضروري أن يعرف. لا أحد يجب أن يعرف. سنرحل سراً خلال الليل.

«من ينكر أباه وأمه لا يستطيع أن يتبعني.» هذه كلمات المسيح. ظللت صامتاً. كان وجه المسيح يذهلني بشكل لا يوصف منذ طفولتي. كنت أتبعه في الأيقونات حيث ولد. ثم بلغ عامه الثاني عشر. وحين وقف في القارب. ورفع يده ليهدئ البحر. ثم حين جُلِد وصُلِب. وحين هتف على الصليب «إلهي. إلهي، لم تخليت عني؟» وبعد ذلك حين قام ذات صباح من قبره وصعد إلى السماء وهو يمسك الراية البيضاء بيده. برؤيته كنت أجلد أيضاً وأصلب وأبعث. وحين كنت أقرأ الإنجيل كانت الحياة تدب في الحكايات القديمة: كانت روح الإنسان تبدو همجية: وحش وسنان يشخر في نومه. وبغتة تنفتح السماء وينزل المسيح. يقبل هذا الوحش فيتنفس الوحش بعذوبة ويستيقظ ويصبح ما كانه دائماً: أميرة سامية جميلة.

«طيب». قلت للكاردينال وأنا أقبل يده: «سأهجر أبي وأمي».

ـ في هذه اللحظة، يا بني، رأيت الروح القدس ينزل على رأسك. لقد نجوت. قال ذلك ومد الخاتم الكريم الذي كان يلبسه لكي أقبّله.

كان علينا أن نرحل بعد ثلاثة أيام. وكنت أريد أن أرى والديَّ لأودعهما ضمنياً دون أن

Twitter: @ketab_n

أبوح لهما بالسر. لكن الكاردينال رفض. وقال: «الإنسان الحقيقي هو الذي يغادر أحباءه دون وداع». ولرغبتي في أن أكون إنساناً حقيقياً جعلت قلبي يقسو وظللت صامتاً. ألم أقرأ في الأساطير مرارًا أن الزاهدين كانوا يفعلون ذلك حين يرحلون إلى الصحراء؟ لم يكونوا ينظرون إلى الوراء لرؤية أمهاتهم أو يلوحون تلويحة وداع. وأنا سأفعل مثلهم.

أعطيت العديد من الكتب الثقيلة المغلفة بالذهب. قرأت عن روما الخالدة وعن الأب المقدس، البابا. سكرت وأنا أتفرج على الصور: القديس بطرس والفاتيكان والرسوم والتماثيل.

كان كل شيء يسير على ما يرام. و كنت، في خيالي، قد رحلت وعبرت البحر ووصلت إلى المدينة المقدسة وأنهيت دراستي. كنت أرتدي قلنسوة قرمزية كبيرة ذات إطار حريري. وحين نظرت إلى الإصبع الوسطى في كفي اليمنى رأيت الخاتم الكريم الغامض يلمع في الظلام. عند هذا الحد تحرك القدر فجأة ومد يده فسد طريقي. همس أحدهم في أذن والدي: «الكاثوليك يأخذون ابنك». حدث هذا ليلاً. وقفز الكريتي الضاري من سريره. وأيقظ عدداً من البحارة والصيادين الذين كان يعرفهم. أشعلوا المشاعل وأخذوا معهم صفيحة من الكازولين بالإضافة إلى المخول والمعاول واستلموا الطريق صعوداً إلى البرج. وهناك راحوا يدقون باب المدرسة وهم يصرخون بأنهم سيحرقون المكان. ذعر الرهبان. وأخرج الأب لوران رأسه من النافذة، و هو يضع قلنسوة النوم، وصرخ وهدد بنصف فرنسية ونصف يونانية.

وصرخ والدي وهو يلوح بالمشعل: ابني. ابني. أيتها الكلاب البابوية. وإلا فالنار والفأس!

أيقظوني. ولبست بأسرع ما استطعت. ثم أنزلوني من النافذة في سلة فسقطت بين ذراعي والدي. أمسكني من ياقتي ودقني بالأرض ثلاث مرات ثم التفت إلى مرافقيه: أطفئوا المشاعل. ولنذهب.

مرت ثلاثة أيام قبل أن يكلمني والدي. لكنه اهتم بأن أستحم وأرتدي ملابس نظيفة. وأن يزيت شعري بزيت من قنديل العذراء. وجلب القس ليرش عليّ الماء المقدس ويقرأ علي تعويذة ليخلصني من الدنس الكاثوليكي.

وبعدها التفت إلي وغمغم بين أسنانه: «يهوذا!» ثم بصق ثلاث مرات في الهواء.

لكن الله تلطف فجاءت الأخبار الطيبة بعد أسابيع قليلة: الأمير جورج الهيليني في طريقه إلى كريت لاستلامها. قفز والدي ثم استلقى على الأرض ثلاث مرات لكي يلمس التراب. ورسم الصليب على نفسه وتوجه من فوره إلى الحلاق. لم يسبق له أن وضع آلة حلاقة على خده بل كان قد ترك لحيته تطول وتنزل على صدره، لأنه كان في حِداد، حداد

Twitter: @ketab_n

على كريت، المستعبدة. وكان هذا سبباً في أنه لم يكن يضحك، وأنه كان يغضب كلما رأى مسيحياً يضحك. لقد انحدر الضحك في ذهنه إلى حيث أصبح تصرفاً غير وطني. أما الآن، ولله الحمد، فقد تحررت كريت. ولذلك توجه إلى الحلاق مباشرة. وحين عاد إلى البيت كان وجهه الحليق متجدد الشباب مضيئاً. وامتلأ البيت برائحة العطر الذي سكبه الحلاق على شعره. التفت إلى أمي وأشار إلي وهو يضحك: كريت قد تحررت وسننسى الماضي. فدعينا نسامح يهوذا!

بعد أيام رحلنا إلى كريت. أية رحلة نشوى بالنصر! وكيف اخترقت الشمس في ذلك اليوم الخريفي أعماق قلوبنا. ولكن. آه. كم طال الوقت والسفينة تعبر بحر إيجة. .وجاء الفجر ليجد والدي منحنياً على مقدم السفينة وهو ينظر إلى الجنوب. ولو أن عيون الناس تستطيع أن تزيح الجبال لرأينا كريت مثل حراقة[4] تنحدر علينا.

---

(4) سفينة حربية شراعية.

Twitter: @ketab_n

12

الحرية

لا تزال عيناي، حتى بعد مرور سنوات كثيرة، تفيضان بالدموع حين أتذكر ذلك اليوم. اليوم الذي خطا فيه الأمير جورج الهليني، أي الحرية، على أرض كريت. إن نضال الجنس البشري، فعلاً، سر مقدس متواصل. إذ ما هذه القشرة الأرضية ـ الزائفة القلقة المتصدعة ـ التي يدب فوقها البشر، أولئك المشاغبون المتلفعون بالوحل والدم المتخثر، بحثاً عن حريتهم؟ وكم هو مؤثر أن ترى اليونانيين في الطليعة ـ اليونانيين! ـ يتسلقون ذلك المرتقى اللا متناهي ويشقون الطريق إما بالكلامس[1] والرمح، أو بسترات الأفزون والموسكيت ـ 21، أو بسراويلهم الكريتية.

أتذكر الكابتن الكريتي، ذلك الراعي الذي يعبق بروث الماعز والفحول. كان قد عاد لتوه من الحرب حيث قاتل كالأسود. وصدف أن كنت في حظيرته، عصر أحد الأيام، حين تلقى ثناء مطبوعاً على رق بحروف كبيرة حمراء وسوداء، من «الأخوة الكريتية» في أثينا. كانت تهنئة على أعماله الباسلة تصفه بالبطل.

فسأل المراسلَ محتداً: «ما هذه الورقة؟ هل تطاول ماعزي على حقل أحدهم من جديد؟ هل علي أن أدفع تعويضاً عن الأضرار؟».

وفتح المراسل الثناء بفرح وقرأه بصوت مرتفع.

ـ قله بلغة عادية لكي أفهم. ماذا يعني؟

ـ «يعني أنك بطل. إن وطنك يرسل لك هذا الثناء وتستطيع أن تحفظه لأولادك».

ومد الكابتن يده الضخمة: «هاته». وأمسك بالرق ومزقه إرباً ثم ألقاه في النار تحت وعاء الحليب: «رح قل لهم إنني لم أحارب لكي أتلقى قطعة من الورق. لقد قاتلت لكي أصنع تاريخاً».

---

(1) معطف قصير يطرح على الكتف. كان يرتديه جنود الإغريق وفرسانهم.

Twitter: @ketab_n

صنع التاريخ! لقد أحس الراعي الجاهل بدقة بما كان يريد أن يقوله. لكنه لم يعرف كيف يقوله. أو ربما أنه قاله بأفضل طريقة ممكنة.

حزن المراسل لرؤية الرق الممزق في النار. ونهض الكابتن. ملأ وعاء صغيراً بالحليب، وقسم نصف قرص من الجبن وجلب رغيفين من الشعير ثم التفت إلى الآخر وقال: «تعال يا أخي لا تغضب. كل واشرب وليأخذ الشيطان الثناءات. قل لهم ـ أتسمع؟ ـ قل لهم إنني لا أريد أي جزاء. لقد حاربت لأنني كنت أريد ذلك. قل لهم ذلك. إفعل ما أقوله لك: كل!».

كان في حياتي يومان ساميان. أولهما يوم وطئ الأمير جورج أرض كريت. والثاني في موسكو بعد ذلك بسنوات عديدة. الاحتفال بالذكرى العاشرة للثورة الروسية. في هذين اليومين أحسست أن أجزاء البشر ـ الأجساد والعقول والأرواح ـ قابلة للدمار، وأن الإنسانية يمكن أن تعود من جديد، بعد تجوال دموي رهيب، إلى وحدتها البدائية المقدسة. في حالة كهذه لا يكون هناك أشياء مثل «أنا» و«أنت» و«هو». كل شيء متحد، وهذا الاتحاد نشوة صوفية عميقة يفقد الموت فيها منجله ولا يعود موجوداً. نحن نموت، فرادى، واحداً بعد الآخر لكننا، مجتمعين، خالدون. كالأبناء المسرفين، بعد الكثير من الجوع والظمأ والعصيان، نضم أذرعنا ونعانق أبوينا: الأرض والسماء.

بدموع فائضة حفرت طريقها بين لحاهم الحربية، قذف القباطنة الكريتيون بمناديلهم في الهواء، ورفعت الأمهات أبناءهن عالياً لكي يتمكنوا من رؤية العملاق الأشقر، هذا الأمير الأسطوري الذي سمع آلام كريت منذ قرون، فامتطى جواده الأبيض مثل القديس جورج، وانطلق ليحرر الجزيرة. كانت العيون الكريتية بيضاء زجاجية بعد ترقبها قروناً على البحر. هذا هو! لا. لم يظهر بعد. لكنه قد يظهر في أية لحظة. أحيانا يكون ما يرونه غيمة ربيعية أو شراعاً أبيض خدعهم. وأحياناً في منتصف الليل يكون حلماً. لكن الغيمة تتبعثر والشراع يغيب. ويتبخر الحلم. ومرة أخرى يثبت الكريتيون عيونهم شمالاً على اليونان، على موسكو، على الإله القاسي بطيء الحركة.

والآن، انظروا. زلزلت كريت بأكملها. وانفتحت قبورها، واندفع الصوت من قمة بسيلورتي: «إنه آت، لقد وصل، تطلعوا إليه». وتدحرج العجائز بجراحهم العميقة ومسدساتهم الفضية من الجبال. وجاء الشبان بخناجرهم ذات القبضات السوداء ورباباتهم الرنانة، وقرعت الأجراس من الأبراج المرتعشة. وزينت المدينة في كل مكان بسعف النخيل وأغصان الريحان. ووقف القديس جورج بشعره الجميل على محفة مكللة والبحر الكريتي كله يتلألأ وراء كتفيه.

رقص الكريتيون وغنوا في الحانات: شربوا وعزفوا على الربابات. لكنهم لم يرتاحوا. ولعجزهم عن التواؤم أكثر من ذلك داخل أجسادهم أمسكوا بالسكاكين وراحوا يطعنون أنفسهم في الأذرع والأفخاذ لكي يتدفق الدم ويرتاحوا. وفي الكنيسة وقف المطران بيدين مرفوعتين تحت القبة وحدّق إلى البانتوكريتر pantocrator. كان يريد أن يعظ لكن حنجرته

Twitter: @ketab_n

تحشرجت. فتح شفتيه وصاح: «المسيح قام يا أبنائي». ولم يستطع أن يقول شيئاً آخر. «حقاً قام!». وتردد الصوت من كل صدر. واهتزت الشمعدانات العظيمة في الكاتدرائية كأنما بتأثير هزة أرضية.

كنت صغيرا وساذجاً في ذلك الحين: ولم تتلاش النشوة المقدسة في داخلي حتى مرور وقت طويل ـ وربما لم تتناقص إلى اليوم. فحتى الآن، في أعمق لحظات سعادتي ـ حين أرى البحر أو السماء المليئة بالنجوم أو شجرة لوز مزهرة، أو حين أستعيد تجربتي الأولى مع الحب، فإن التاسع من كانون أول 1898، اليوم الذي وطئ فيه أمير اليونان، الذي وضعت كريت ثقتها به، التراب الكريتي، يسطع في أعماقي دون توقف، وتتزين أعماق القلب بالغار والرياحين مثل كريت كلها في ذلك اليوم.

أخذني والدي من يدي بعد الظهر بقليل، بينما كانت ميغالو كاسترو لا تزال تزأر مغتبطة. ونحن ندوس الرياحين والغار اجتزنا الشارع الرئيسي بطوله ثم مررنا بالبوابة الحصينة وانطلقنا إلى الحقول. كان الفصل شتاء، لكن النهار كان لطيفاً ودافئاً. وكانت شجرة لوز وراء السياج قد تفتحت عن أولى زهورها. وبدأت الحقول تخضر، مخدوعة بحلاوة الطقس، بينما من بعيد على يسارنا كانت جبال سيلينا تتلامع بذرى مغطاة بالثلج. وعلى الرغم من أن الدوالي كانت لا تزال أغصاناً مشذبة فإن زهرة اللوز، المتفتحة ببهاء في الطليعة، كانت قد بدأت تعلن قدوم الربيع، وأن الأغصان المشذبة سوف تتفتح مرة ثانية لتحرر العناقيد البيضاء والسوداء من داخلها.

مر بنا رجل ضخم محملاً بأغصان الغار. وحين رأى والدي توقف وهتف: «المسيح قام يا كابتن ميخائيل!».

فأجاب والدي وهو يضع يده على قلبه: كريت قامت!

وتابعنا طريقنا. كان والدي على عجل. وكان علي أن أركض للحاق به.

سألته وأنا ألتقط أنفاسي: إلى أين تذهب يا أبي؟!

ـ لنرى جدك. امش.

وصلنا إلى المقبرة. دفع والدي البوابة وفتحها. فوق البوابة رسمت جمجمة فوق عظمين متقاطعين يشكلان حرف X الحرف الأول من الكلمة اليونانية ـ المسيح ـ الذي قام من الموت. تقدمنا يميناً تحت أشجار السرو، ونحن ندوس القبور الواطئة ذات الصلبان المكسورة والتي لا صلبان عليها. كنت خائفاً من الموتى، فتمسكت بسترة والدي ولحقت به.

وقف والدي قرب أحد القبور الواطئة ـ كومة صغيرة من التراب عليها صليب خشبي. كان الاسم ممحواً بفعل الزمن. أراح منديله ونزل به إلى الأرض. نبش التراب بأظافره وفتح كوة صغيرة على هيئة بوق إلى أعمق ما استطاع وصرخ ثلاث مرات: أبي. لقد جاء.. أبي. لقد جاء!..أبي. لقد جاء.

Twitter: @ketab_n

وارتفع صوته أكثر فأكثر حتى تحول إلى خوار. ثم تناول زجاجة خمر صغيرة من جيبه وسكبها قطرة بعد قطرة في الفتحة وهو ينتظر كل قطرة أن تنزل وأن تشربها الأرض. ثم قفز واقفاً ورسم شارة الصليب على نفسه ونظر إلي. كانت عيناه تلتمعان. سألني: «هل سمعت؟». كان صوته أجشّ من الانفعال: هل سمعت؟

ظللت صامتاً إذ إنني لم أسمع شيئاً.

وقال والدي غاضبا: ألم تسمع؟ لقد طقطقت عظامه.

* * *

كلما تذكرت ذلك اليوم أشكر اللّه على أنه سمح بولادتي. وأشكره على أنه سمح بولادتي كريتياً، وفي وقت استطعت فيه أن أرى، بعيني، الحرية وهي تسير فوق الغار وتصعد من بوابة الميناء إلى مذابح القديس ميناس. كم هو مخجل أن عيني الإنسان من طين فلا تستطيعان اكتناه اللامرئي. في ذلك اليوم كنت سأرى القديس ميناس وهو يقفز من أيقونته ويقف بباب الكنيسة ثم يمتطي جواده، والدموع تنهمر على خديه اللذين لوحتهما الشمس ولحيته البيضاء وهو ينتظر أمير اليونان.

بعد أن تم كبح جماح الغبطة، وبعد أن جاءت ريح جنوبية قوية بعد أيام قلائل وكنست، كما أذكر، أوراق الغار من الشوارع، وبعد أن هطل المطر المنعش وغسل الخمر المهدور عن الأرصفة، عادت الحياة إلى تعقلها من جديد. وانكمشت عقولنا عائدة داخل حدودها: أزال الحلاقون اللحى عن أراضي حوانيتهم. وصارت وجوه المسيحيين الحليقة ملساء ولامعة. وبين الحين والحين ظلت بعض الصرخات المتأخرة تصعد بخشونة من الحانات. أما أنا فكنت أجوب الأزقة مبللاً بالمطر. وكلما رأيت الشوارع أمامي خالية صرخت وزعقت لكي أرتاح. وكانت آلاف من الأجيال في داخلي تصرخ وتزعق لترتاح.

لم يسبق لي أن أحسست بهذا العمق أن أسلافنا الراحلين لم يموتوا، وأنهم في اللحظات الحاسمة يصرخون ويقفزون على أقدامهم ويستولون على عيوننا وأيدينا وعقولنا. وخلال تلك الأيام كان كل أجدادي الذين قتلهم الأتراك، وكل جداتي اللواتي عذبهن الأتراك بتمزيق صدورهن، يصرخون مغتبطين، فأصرخ معهم كلما خلا الشارع وحيث لا يراني أحد. كنت سعيداً لأنه كان لدي حدس، لم أكن أستطيع التعبير عنه بوضوح كما أنا الآن، بأني، أنا أيضا، سوف أعيش وسوف أستطيع أن أفكر وأن أرى حتى بعد أن أموت. كل ما كان مطلوباً هو الوجود المستمر لقلوب تتذكرني.

* * *

من خلال ذلك المدخل، تلك البوابة المزينة بالغار وبعظام الأسلاف، دخلت سنوات نضجي. ولم أعد طفلاً.

Twitter: @ketab_n

13

متاعب النضوج

قضيت سنوات نضجي تكتنفني المتاعب المألوفة للشباب. استيقظ في داخلي وحشان هائلان: ذلك النمر الذي اسمه اللحم، وذلك النسر النهم الذي يلتهم أحشاء الإنسان وكلما أكل ازداد جوعه: العقل.

حين كنت لا أزال صغيراً جداً، لم أتجاوز الثالثة أو الرابعة من العمر، كان يهيمن عليّ فضول عنيف لحل لغز الولادة. سألت أمي وخالاتي: «كيف يولد الأطفال؟ وكيف يدخلون البيوت بغتة؟ من أين يأتون؟». وخمنت أنه لابد من وجود بلد أخضر، ربما الفردوس، حيث ينتشر الأطفال مثل الخشخاش[1]. وبين حين وآخر يدخل أب إلى الفردوس ويلتقط واحداً ويجلبه إلى البيت. قلبت هذه الفكرة في رأسي مراراً وتكراراً دون أن أثق بها كثيراً. أما أمي وخالاتي فإما أنهن لم يعرفن كيف يجبنني، وإما أنهن يحكين لي خرافات. لكنني كنت أفهم أكثر مما ظنن، وأكثر مما ظننت أنا نفسي. ولم أصدق حكاياتهن.

وذات يوم، في تلك الفترة ذاتها، ماتت جارتنا مدام كاتينا، رغم أنها كانت لا تزال شابة. وحين رأيتها تخرج من بيتها ممددة على ظهرها، ووراءها مجموعة كبيرة من الناس تحولوا بسرعة إلى زقاق واختفوا، تملكني الرعب. «لماذا يأخذونها؟»، سألت: «إلى أين يجلبونها؟» وقيل لي: «لقد ماتت». ماتت؟ ما معنى هذا؟ لكن أحداً لم يقدم لي تفسيراً. جثمت في الزاوية وراء الأريكة، وغطيت وجهي بوسادة ثم رحت أبكي، لا حزناً أو خوفاً، بل لأنني لم أفهم. وحين مات معلمنا كراساكيس بعد سنوات لم يكن الموت يدهشني في ذلك الحين. أحسست أنني فهمت ما هو. ولم أسأل.

هذان الأمران: الولادة والموت، كانا أول الألغاز التي أقلقت روحي. وظللت أضرب بقبضتي الصغيرة على هذين البابين المغلقين لأفتحهما. ورأيت أنني لا أستطيع أن أتوقع العون

---

(1) نبات مخدر يصنع منه الأفيون، أو يزرع للزينة.

Twitter: @ketab_n

من أحد. كلهم إما أن يظلوا صامتين، وإما أن يضحكوا مني. كل ما كان عليّ أتعلّمه يجب أن أتعلمه بنفسي.

بالتدريج بدأ اللحم يستيقظ أيضاً. ومملكتي، التي كانت مؤلفة من الغيوم والهواجس، بدأت تتصلب. كنت ألتقط حديث الشارع. ورغم أنني لم أكن أفهم، بوضوح، ما كانت تعنيه هذه التعابير التي ألتقطها، فإن بعضها كان يبدو مليئاً بالسر وبالمادة المحرمة. وهكذا كنت أبعثرها، ثم أثبتها في عقلي وأعيدها مرة بعد أخرى ـ لنفسي دائماً ـ لكي لا أنساها. ولكن أحدها، ذات يوم، أفلت مني. تلفظت به بصوت مرتفع أمام والدتي، فأجفلت خائفة. وصرخت: من علمك هذه الكلمة البذيئة؟ لا تقلها بعد الآن.

ثم ذهبت إلى المطبخ وجلبت بعض الفلفل المطحون وفركت فمي به. بدأت أزعق. التهب فمي. ولكن بين لحظة وأخرى، نكاية بها، كنت أقسم سراً أني سوف أتابع التلفظ بهذه الكلمات ولو بيني وبين نفسي. ذلك أنني أحسست بمتعة كبيرة في لفظها.

ومنذ ذلك الحين صارت كل كلمة ممنوعة تحرق شفتي وتفوح منها رائحة الفلفل. وحتى الآن بعد سنوات كثيرة وخطايا كثيرة.

* * *

في تلك الأيام الموغلة في القدم في كريت كان البلوغ يتأخر كثيراً. فللاحمرار خجلاً في الأعماق كان البلوغ يجهد في أن يتخفى وراء مختلف أنواع الأقنعة.

وأول هذه الأقنعة، بالنسبة لي، كان الصداقة، عاطفة نحو زميل مدرسة غير متميز، والحقيقة أنه كان أقل زملائي تميزاً. ولد صغير وبدين ومقوس الساقين بجسد قوي وثقيل، دون أية ذرة من الفضول العقلي. كنا نتبادل يومياً رسائل لاهبة. وإن مر يوم واحد دون أن أتلقى منه رسالة كنت أحس بالتأنيب وأحياناً أبكي. وتعودت أن أتسكع حول بيته وأختلس النظر إليه ويخفق قلبي كلما رأيته يظهر. لقد استيقظ لحمي إلا أنه لم يعرف بعد الملامح التي سيعطيها لرغباته. ولم يكن يعرف بعد بشكل جيد ما يميز الذكر من الأنثى. إضافة إلى أن الترافق مع ولد كان أقل خطورة بكثير من الترافق مع فتاة وأكثر منطقية. وكلما واجهت امرأة كنت أحس بنفور غريب ممزوج بالخوف. وإذا هبت الريح ورفعت طرف ثوبها قليلاً كنت أحول وجهي عنها فوراً، وأنا أحمر من الخجل والسخط.

وذات يوم ـ لا بد أن الوقت كان ظهراً لأن الشمس كانت لاهبة ـ كنت أسير في زقاق ضيق ومظلل متجهاً إلى البيت. ظهرت امرأة تركية في الجانب الآخر من الشارع. وحين مرت أمامي فتحت قميصها قليلاً وأظهرت نهديها العاريين. وخارت ركبتاي تحتي. وفيما أنا أجر خطواتي نحو البيت اتكأت على الحوض وتقيأت.

بعد سنوات عديدة عثرت على رسائل صديقي في درج مهمل فخفت. يا إلهي! أية

Twitter: @ketab_n

حماسة! أي هراء. دون إرادة مني ودون وعي للمسألة كان هذا الزميل الأليف المشكل بجلافة قد أصبح قناعاً يخفي النساء عني عدداً من السنوات. ولا شك أنني كنت الشيء ذاته بالنسبة له مؤخٌراً، قليلاً، اللحظة الحاسمة التي سيسقط فيها في فخ رهيب لامرأة. وعلمت أنه قد سقط صدفة ـ سقط وتلاشى.

وذات صيف خلال العطلة، شكلت وهذا الصديق بالإضافة إلى زميل آخر: فتى مزموم الشفتين بعينين خضراوين مزرقتين وأطراف دقيقة، «جماعة صداقة» جديدة. كنا نعقد اجتماعات سرية، ونتبادل الأيمان ونوقع على قائمة من القوانين، وننذر حياتنا لهذا الهدف: أن نشن حرباً عنيدة ضد الزيف والعبودية والظلم لا ينتهي إلا بالموت. كان العالم يبدو لنا زائفاً وظالماً ومضللاً. والتزمنا بإنقاذه ـ نحن الثلاثة. عزلنا أنفسنا عن زملائنا الآخرين ورحنا نتجول معاً. رسمنا خططاً لتحقيق هدفنا وتوزعنا قطاعات الحرب. كان المفروض أنني سأكتب تمثيليات، وصديقي سيعمل ممثلاً ويقدمها. أما الثالث، الذي كان موبوءاً بالرياضيات، فسيدرس الهندسة ويخترع اختراعا عظيماً ليزيد من ثروة «الجماعة»، ويمكننا من مساعدة الفقراء والمضطهدين.

وفي الوقت ذاته، وإلى أن تحين تلك اللحظة العظيمة، كنا نبذل ما في وسعنا للبقاء ملتزمين بأيماننا. لم نكن نكذب. وكنا نضرب كل الأولاد الأتراك الذين نصادفهم في الأزقة النائية. واستبدلنا ياقاتنا وربطاتنا بقمصان داخلية مخططة بالأزرق والأبيض، ألوان العلم اليوناني.

في الميناء، مساء أحد أيام الشتاء، لمحنا عامل تحميل تركياً عجوزاً منزوياً في زاوية وهو يرتجف. كان الظلام قد هبط ولم يكن أحد يرانا. خلع أحدنا قميصه الداخلي، والآخر قميصه الخارجي، والثالث صدارته. وأعطيناها للرجل. كما أننا كنا نريد أن نعانقه غير أننا لم نجرؤ. ثم مضينا مزعوجين وخجلين لأننا لم نؤد واجبنا كاملاً.

«فلنرجع إليه»، اقترح صديقي:

ـ عظيم. فلنذهب.

رجعنا راكضين وبحثنا عن الحمال العجوز بغية معانقته لكنه كان قد ذهب.

وفي يوم آخر سمعنا أن محامياً كاسترويا شهيراً قد خطب صبية ثرية. وكان الزواج سيتم يوم الأحد. وفي الوقت ذاته وصلت سيدة أخرى من أثينا. كانت فقيرة لكنها جميلة جداً. وكانت حبيبة المحامي أيام دراسته في الجامعة وقد وعدها بالزواج. ما إن سمعت بهذه الفضيحة حتى دعوت أعضاء «جماعة الصداقة» إلى اجتماع. اجتمعنا، نحن الثلاثة، في غرفتي ونحن نغلي غضباً. وبناء على قوانين جمعيتنا وجدنا أنه من المستحيل أن نتساهل مع ظلم من هذا النوع. وبعد نقاش ساعات حول الإجراءات التي سنتخذها وصلنا أخيراً إلى

Twitter: @ketab_n

قرار: ثلاثتنا سنقدم أنفسنا أمام المطران. وسنشجب مقترف هذا الإثم. وبالإضافة إلى ذلك وجهنا رسالة إلى المحامي بتوقيع «جماعة الصداقة» نهدده فيها أنه إن لم يتزوج دوروثي (كان هذا هو اسم الأثينية) فسيدفع ثمن ذلك أمام اللّه وأمامنا.

مرتدين أجمل ملابس الأحد قدمنا أنفسنا للمطران. كان عجوزاً ضعيفاً مصدوراً، لكنه كان كتوماً كما يليق به. وعلى الرغم من أن جهد الكلام كان يجعله يشهق كي يتنفس، فإن عينيه توهجتا كالجمر. كانت الأيقونة المعلقة فوق مقعده تحمل صورة مسيح متورد الوجنتين حسن التغذية ذي شعر مفروق. وكانت صورة منقوشة في الحجر كبيرة تمثل القديسة صوفيا معلقة على الجدار المقابل.

سألنا: «ما الذي يدور في رؤوسكم يا أولاد؟»، وهو يتطلع إلينا مدهوشاً.

«ظلم كبير يا محترم». رحنا نصرخ ثلاثتنا لاهثين بصوت واحد لكي نتشجع. «ظلم كبير يحدث».

سعل المطران وبصق في منديله وقال بلهجة ساخرة: ظلم كبير؟ وهل هذا من شأنكم؟ أنتم تلاميذ. أليس كذلك؟ يجب أن تنتبهوا لدروسكم.

«يا محترم». بدأ صديقي الذي كان أفضل خطيب في المجموعة، ثم حكى الفضيحة المعروفة بأكملها. وختم كلامه بقوله: لن نستطيع النوم ولن نستطيع الانتباه لدروسنا يا محترم ما لم تتم إزالة هذا الظلم. المحامي يجب أن يتزوج دوروثي.

سعل المطران ثانية. ولبس نظارتيه وتأملنا طويلاً. بدا لنا أن حزناً غريباً قد ارتسم على وجهه. وانتظرنا، نحن الثلاثة، بألم. وأخيراً فتح شفتيه وقال: أنتم صغار. لا تزالون أطفالاً. ولا أدري ما إذا كان اللّه سيمد في عمري لأرى كيف ستنظرون إلى الظالم بعد خمسة عشر أو عشرين عاماً. ثم صمت قليلا وبعدها تمتم وكأنه يحدث نفسه: بهذه الطريقة بدأنا كلنا.

وعلقت على هذه النقطة، وقد رأيت أنه يغير الموضوع: يا محترم. ما الذي علينا أن نفعله لنحول دون وقوع هذا الظلم؟ قدنا. حتى لو طلبت إلينا أن نلقي أنفسنا في فرن مضطرم فإنني وصديقيَّ سنفعل ذلك طالما أن هذا ينصر العدل.

نهض المطران. وقال وهو يناولنا يده لنقبلها: اذهبوا الآن ومعكم بركاتي. لقد أديتم واجبكم. وهذا يكفي. الباقي عليّ.

انصرفنا كأسعد ما نكون. وهتف صديقي: «إنجاز عظيم يا جماعة الصداقة»، وهو يلف بذراعيه العضو الثالث وأنا، وكنا نسير على جانبيه.

ذلك الأحد تزوج المحامي الصبية الثرية. وعلمنا فيما بعد أن المطران قد حكى عن زيارتنا وسخطنا لأصدقائه كلهم بحديث ممزوج بالضحك.

* * *

Twitter: @ketab_n

قرأنا الروايات التي وقعت بين أيدينا كلها. والتهبت عقولنا. وتلاشت الحدود بين الواقع والخيال، وبين الحقيقة والشعر. وبدا لنا أن روح الإنسان قادرة على الالتزام بكل شيء وإنجاز كل شيء.

ولكن كلما أحسست أن قلبي يتفتح ويزيح حدود الحقيقة، أحسست أن قلبي يمتلئ ويفيض بالألم. كانت الحياة تبدو لي ضاغطة بشدة. ولعجزي عن التلاؤم معها صرت أتوق للموت. هذا هو الشيء الوحيد الذي بدا لي بلا حدود. وبالتالي فهو قادر على احتوائي. وذات يوم، أذكر أنه كان يوماً مشمساً. وأحسست أن جسدي معافى ومرتاح. اقترحت على صديقي أن نقتل أنفسنا. كنت قد كتبت رسالة مليئة باليأس، نوعا من الوصية ودعت فيها العالم. لكن صديقي رفض. ولم تكن لدي الرغبة في الرحيل بمفردي.

هيمن علي هذا الألم غير المحدد وغير المفهوم حتى جاء يوم أصبح فيه صديقي لا يحتمل بالنسبة لي. صرت أخرج وحيداً في أول المساء للتمشي قرب الجدران الفينسية المطلة على الأمواج.

كم الطقس رائع! ويا له من نسيم بحري منعش! والصبايا اللواتي يتمشين بأشرطتهن الحريرية المتدلية من شعورهن المنسابة، والتركيات الصغيرات الحفايا ينادين لبيع الياسمين والبزر المحمص passatempo بأصوات فتيات لطيفات، وبارباالاريس يرتب الموائد والكراسي في المقهى فوق البحر حيث يستطيع الرجال المحترمون أن يجيئوا مع زوجاتهم، والمخطوبون مع خطيباتهم، لطلب القهوة وشراب اللوز[2] orgeat وملعقة من المربى، وهم في أتم راحة وهناء يرقبون مغيب الشمس. لكنني لم أكن أرى شيئاً، لا البحر الواسع الهادئ ولا القمة البهية لجبل أغيا بيلاغيا البعيد ولا سترومبولاس، الجبل الهرمي الذي فيه (كنيسة المصلوب)، كالبيضة البيضاء الصغيرة في قمته. ولا الشبان مع خطيباتهم. كانت عيناي غائمتين بالدمع، دمع لا علاقة له بأي حزن شخصي، لأن روحي كانت مهتاجة بالسرين اللذين أفصح لنا عنهما معلم الفيزياء ذلك العام. وأظن أن الجروح التي أوقعها قد تقرحت منذ ذلك الحين.

كان السر الأول، السر الرهيب بحق، هو أن الأرض، على عكس ما كنا نعتقد، ليست مركز الكون. فالشمس والسموات المليئة بالنجوم لا تدور مذعنة حول الأرض. وكوكبنا ليس شيئاً. إنه مجرد نجم صغير تافه ملقى دون اكتراث في المجرة. وهو الذي يدور حول الشمس بعبودية. إن التاج الملكي قد سقط عن رأس الأرض، أمنا.

هيمن علي الخزي والمرارة. فنحن، مع أمنا، قد سقطنا من مكاننا المتصدر في السماء. بمعنى آخر إن أرضنا لا تقف كسيدة ثابتة وسط السموات، والنجوم تحوم حولها بإجلال. بل

(2) شراب غير مسكر.

Twitter: @ketab_n

هي التي تجول وسط اللهب العظيم في الهيولى وضيعة ومطاردة إلى الأبد. فإلى أين تذهب؟ إلى حيث تقاد، مشدودة إلى سيدّها، الشمس(3)، وتتبعه. ونحن أيضاً مشدودون. نحن، أيضاً، عبيد. ونحن أيضاً نتبع كذلك الشمس: هو الآخر مشدود ويتبع. يتبع من؟

باختصار، أية خرافة كان معلمونا، دون حياء، يهذرون بها حتى الآن. إن اللّه قد خلق الشمس والقمر زينة للأرض وأنه علق السماء ذات النجوم فوقنا كمشعل يمنحنا الضوء.

كان هذا هو الجرح الأول. أما الثاني فهو أن الإنسان ليس الأثير عند الله، وليس مخلوقه المفضل. اللّه لم ينفخ في منخريه نفس الحياة، ولم يعطه الروح الخالدة. إنه، مثل بقية المخلوقات،حلقة في السلسلة اللامتناهية من الحيوانات. هو حفيد، أو حفيد أحفاد القرد. فإن أنت كشطت قناعنا قليلاً، إن كشطت روحنا قليلاً، ستجد تحتها جدتنا القردة.

كان سخطي ومرارتي لا يحتملان. وبدأت أقوم بمشاوير وحدي على الشاطئ أو عبر الحقول، أسير فيها بسرعة لكي أتعب نفسي وأحاول أن أنسى. ولكن كيف لي أن أنسى؟ كنت أسير حاسر الرأس وقميصي مفتوح الصدر ذلك أني كنت أختنق. لم خدعنا طوال تلك السنوات؟ كنت أسأل نفسي وأنا أسير. ولم أقيمت العروش الملكية للبشر ولأمنا الأرض ثم لتسحب من تحتنا بعد ذلك؟ أكان هذا يعني أن الأرض لا قيمة لها وأننا نحن البشر لا قيمة لنا وأن يوماً سيأتي نتلاشى فيه كلنا؟ لا. لا. كنت أصرخ لنفسي، أنا أرفض قبول هذه الفكرة. يجب أن ندق باب مصيرنا وندقه إلى أن يفتح، وتتم نجاتنا.

ولعجزي عن تحمل الأمر أكثر من ذ لك بحثت ذات مساء عن أستاذ الفيزياء الذي أفضى لنا بهذه الأسرار. ذهبت إلى بيته. كان ذا ملامح مشمئزة ولا يتحدث إلا بقدر، ولكن بطريقة جارحة ولاذعة دائماً. كان فطناً دائماً وحاقداً دائماً. بعينين باردتين وشفتين مطبقتين مليئتين بالسخرية. وكان بجبهته الضيقة وشعره الذي يكاد يصل إلى حاجبيه شبيهاً، فعلاً، بالقرد ـ بقرد مريض. وجدته متمدداً في كرسي مخلع وهو يقرأ. نظر إلي، وبدا أنه قد فهم مشكلتي. ذلك أنه قابلني بابتسامة ساخرة. وسأل:

فيم هذه الزيارة؟ لا بد أن لديك أمراً هاماً في رأسك؟

فقلت لاهثاً: اعذرني لإزعاجك. لكنني أريد أن أعرف الحقيقة.

ـ الحقيقة! ، أجاب المعلم ساخراً. أهذا كل شيء؟ إنك تطلب الكثير أيها الشاب. أية حقيقة؟

ـ أنه أخذ التراب ونفخ. .

ـ من؟

ـ اللّه.

---

(3) الشمس مذكر.

Twitter: @ketab_n

وامتشقت نفسها من بين شفتيه الضيقتين الرقيقتين ضحكة حاقدة جافة وعاجلة. ورحت أنتظر. لكن المعلم فتح صندوقا صغيراً وأخرج منه قطعة من الحلوى ثم راح يمضغها. وخاطرت بسؤاله: ألن تجيبني يا سيدي؟

ـ نعم. سأجيبك. رد علي وهو ينقل الحلوى من حنك إلى حنك.

ومر وقت. ثم غامرت من جديد: متى؟

ـ بعد عشر سنوات وربما عشرين سنة. بعد أن يكون عقلك القزم قد أصبح دماغاً حقيقياً. أما الآن فلا يزال الوقت باكراً جداً. هيا إلى بيتك.

وودت لو أصرخ أن اشفق عليّ يا سيدي وقل لي الحقيقة، الحقيقة كلها. لكن حلقي كان مسدوداً.

وأعاد المعلم كلامه: هيا إلى بيتك. وأشار إلى الباب.

في طريق عودتي قابلت عند منعطف الشارع الأرشمندريت الذي كان معلمنا في الديانة. وهو رجل ساذج ومقوس، بدين وثقيل السمع. وكان منغمساً في حب أمه العجوز التي كانت تعيش في قرية صغيرة بعيدة عن كاسترو. وكان يحكي لنا دائماً بعينين دامعتين أنه قد رآها في حلمه. لم يكن لديه الكثير من الاتزان العقلي. وبسبب براءته العظيمة فقد قلّ هذا القليل الذي لديه. فكان كلما قرع الجرس معلناً نهاية الحصة يتردد عند المخرج قليلاً ثم يستدير ويطلب منا راجياً بصوت عذب: «قبل كل شيء، يا أبنائي، اجهدوا أن تخلدوا جنسكم». وكنا، ونحن نتقلب من الضحك، نرفع أصواتنا عالياً لكي يسمع: «لا تقلق يا سيدي. لا تقلق».

لم أكن أحب هذا المعلم أبداً. كان أبله كالنعجة. وكان عقله يثغو مبتعداً وغير قادر على تهدئة خواطرنا المبلبلة. وذات يوم كان يشرح لنا قانون الإيمان المسيحي فرفع إصبعه وأعلن بلهجة منتصرة: «هناك إله واحد ـ واحد ـ ذلك أن العقيدة تقول: أؤمن بإله واحد. ولو كان هناك اثنان لقالت العقيدة: أؤمن بإلهين اثنين».

حزنّا من أجله. ولم يكن لدى أحدنا من الشراسة ما يدفعه للاعتراض.

وفي يوم آخر وجدت أنه من المستحيل أن أكبح نفسي. كان يعلمنا عن قدرة اللّه الكلية. فرفعت قلمي وسألت: أستاذ. هل اللّه قادر على إلغاء حقيقة أن هذا القلم كان موجوداً؟

وتحول وجه الأرشمندريت المسكين إلى أحمر قان. فكر قليلاً مجاهدًا للوصول إلى جواب. وأخيراً، وقد عجز، أمسك بصندوق القرعة وقذف به في وجهي. فقفزت واقفاً، وقلت له بجدية متغطرسة: هذا ليس جواباً.

طردني من الصف ثلاثة أيام. وفي المساء ذاته ذهب لرؤية والدي. قال له: ابنك وقح ومتحلل. ستكون لهذا الولد نهاية وخيمة. يفضل أن تشد رسنه.

Twitter: @ketab_n

ـ وماذا فعل؟

ـ كذا وكذا. وحكى الأرشمندريت القصة بكاملها. فهز أبي كتفيه: «أنا لا أهتم إلا إذا كذب أو أكل قتلة. أما ما تبقى فهو الآن رجل. فليفعل ما يحب».

كان هذا، إذن، الأرشمندريت الذي التقيت به في الشارع. وحالما رأيته التفتُّ برأسي إلى الاتجاه الآخر لكي لا أضطر إلى تحيته. ففي تلك اللحظة كنت ثائر الأعصاب. لقد عرفت الآن أخيراً أنه هو وأشباهه كانوا يسخرون منا منذ سنوات، يسخرون منا في هذا الجانب من المسعى الإنساني والذي كان أكثرها قداسة.

يا لتلك الأيام التي مزقت فيها هاتان اللمعتان الخاطفتان عقليَ ـ ويا لها من ليال! لعجزي عن النوم كنت أقفز من فراشي في منتصف الليل وأنزل السلم ببطء شديد لئلا تطقطق درجاته وتفضحني وأفتح باب الدار ثم أندفع إلى الشارع. لا أحد على مرمى النظر والأبواب مغلقة والأضواء تخفت.

كنت أتجول عبر أزقة كاسترو الضيقة مصغياً باهتمام إلى الأنفاس الهادئة للمدينة النائمة. وكنت أحياناً أرى بعض العشاق وهم يغنون السيراندا على الغيتار والمزمار تحت النوافذ المغلقة، أغاني الحرمان المترعة، بالشكوى والابتهال وهي تنحدر من الأسطحة، وتسمع الغناء كلابُ الجيران فتستيقظ وتبدأ بالنباح. لكنني كنت أحتقر الحب والنساء. وكنت أظل أسأل نفسي، :كيف يستطيع الناس أن يغنوا؟ وكيف يتأتى لهم أن لا تكون قلوبهم منشغلة بما هي طبيعة الله، ومن أين أتينا، وإلى أين نحن ذاهبون؟ أعبرهم بأسرع ما أستطيع حتى أصل إلى المكمن حيث أعود إلى التنفس بحرية. البحر الفاحم السواد يرعد تحتي غاضباً ويندفع بوحشية إلى الاستحكامات ويلتهمها. كان الرذاذ يعلو الجدار ويرش جبيني وشفتي ويدي وينعشني. كنت أقف فوق المياه ساعات وأنا أحس أنها، هي وليست الأرض، أمي. وأن البحر وحده يمكن أن يفهم قلقي، لأنه يشاركني القلق ذاته. هو الآخر عاجز عن النوم. يضرب البحر صدره ويصدم الشواطئ فيصدم بالمقابل. وفي بحثه عن الحرية يجاهد لتقويض الحواجز التي تبدو أمامه بغية تجاوزها. أما الأرض الجافة فهادئة وآمنة، طيبة القلب ومكافحة. إنها تزهر وتحمل الفاكهة ثم تذوي لكنها لا تخاف. فهي آمنة في معرفتها أن الربيع، شاء أم أبى، سوف ينهض من التراب. أمي البحر ليست[4]، بأية حال، آمنة. إنها لا تزهر ولا تحمل فاكهة بل تتنهد وتناضل ليلاً ونهاراً.

كنت أسمعها وكانت تسمعني. وكان كل منا يطيب خاطر الآخر ويشجعه حتى يقترب الفجر. وعندها، وخشية أن يرانا الناس المستيقظون، كنت أعود إلى البيت مسرعاً وأستلقي

(4) البحر مؤنث. وهو يتحدث عنه هنا بوصفه أماً.

Twitter: @ketab_n

في سريري. وكانت غبطة مالحة ومُرة تطوّف في جسدي كله. فرحت لأنني لم أكن مصنوعاً من التراب. بل من مياه البحر.

كانت لدى إحدى جاراتنا قردة: مخلوق وقح بمؤخرة حمراء وعينين إنسانيتين. وكانت هذه الجارة قد رافقت أحد البكوات في الإسكندرية. وقد أعطاها هذه القردة للذكرى. كنت أراها جاثمة على كرسي قرب باب دارها كلما مررت. وكانت دائماً تقشر الفول وتهرش جسدها لتتخلص من القمل. في الماضي كنت أقف لأتفرج عليها وأضحك. كانت تبدو لي كاريكاتيراً عن الإنسان، ومخلوقاً وقحاً ومرحاً وخالياً من الأسرار، وربما كان الناس ينظرون إليها دون اهتمام ثم يضحكون. أما الآن فقد ارتعبت. صرت أغير طريقي لكي لا تقع عيني على هذا المخلوق. أكانت هذه جدتي؟ إنها تهين الإنسان. وبخجل وغضب أحسست أن مملكة في أعماقي تتقوض وتصبح حطاماً.

هذه جدتي الأولى؟ هذه جذوري؟ بمعنى آخر: أصحيح أن اللّه لم يحملني؟ ولم يصغني بيديه؟ وينفخ من أنفاسه في منخري؟ وهل ولد ت من قرد فنما سائله المنوي من قردة إلى قردة؟ بمعنى آخر: ألأنا لست ابن الله؟ بل ابن قردة؟

دام خزيي وتحرري من وهمي شهوراً. ومن يدري؟ ربما دام حتى الآن. فعلى الطرف الأول من الهوة كان يقف القرد. وعلى الطرف الثاني الأرشمندريت. وكان هناك خيط ممدود بينهما فوق الهاوية. وأنا أسير على هذا الخيط خائفاً محاولاً أن أتوازن. كان ذلك وقتاً صعباً بالنسبة لي.

جاءت العطلة واعتزلت داخل البيت مع كمية كبيرة من الكتب المستعارة عن الحيوانات والنباتات والنجوم. وظللت منكباً عليها ليلاً ونهاراً مثل إنسان يقتله الظمأ ثم ينكب على ينبوع لكي يشرب. لم أكن أخرج من البيت. وبشكل مقصود كنت قد حلقت نصف شعر رأسي. وحين جاء أصدقائي يدعونني لنزهة معهم أخرجت رأسي من النافذة وأشرت إلى نصف الرأس المحلوق، وقلت: «ألا ترونني؟ كيف أستطيع الخروج بهذه الحالة؟». ثم عدت إلى القراءة من جديد، وأنا أصغي بفرح لضحكات أصدقائي الساخرة وهم يبتعدون.

كلما كنت أمتلئ نفسي بالعلم كان قلبي يفيض بالمرارة. وكنت أرفع رأسي لأصغي لقردة جارتنا وهي تزعق. وذات يوم أفلتت من حبلها وجاءت إلى دارنا ثم تسلقت الأكاسيا. وحين رفعت عيني رأيتها بشكل مفاجئ وهي تتلصص علي من بين الأغصان. ارتعدت. لم يسبق لي في حياتي كلها أن رأيت عيوناً آدمية مثلها. كانت عيناها مزروعتين فوقي، مليئتين بالدهاء والمرح، مدورتين وسوداوين وثابتتين.

أبعدت كتبي وأنا أنهض. صرخت: «ليست هذه هي الطريقة. إنني أعاكس الطبيعة البشرية. إنني أترك اللحم من أجل الظل. الحياة تحتوي على اللحم الحي واللحم الميت.

Twitter: @ketab_n

وأنا جائع!». انحنيت من النافذة وقذفت للقردة بجوزة. أمسكت بها وهي في الهواء وكسرتها بين أسنانها وألقت بالقشر ثم راحت تمضغها بنهم. وهي تتطلع إلي بسخرية، وتهمهم.

كانت قد تدربت على شرب الخمر. فأسرعت إلى المخزن وجلبت ملء كأس ووضعت الكأس على حافة النافذة. وارتعش منخر القردة بحيوية ثم قفزت وجلست على الحافة. ثم مدت بحيزومها في الكأس، وراحت تشرب وتشرب وهي تمصمص بلسانها راضية. ثم ألقت بذراعيها حول كتفي وعانقتني وكأنها لم تكن تريد الانفصال عني. كانت تفوح منها رائحة الخمر واللحم المتسخ. وأحسست بحرارة جسدها في حلقي. ودخلت شعرات من شاربيها في منخري فدغدغتني وجعلتني أضحك. كان جسدها كله يضغط على جسدي بينما راحت تتنهد كأنها إنسان. امتزجت حرارة جسدينا وراح شهيق القردة يلحق بشهيقي: صرنا صديقين. وفي تلك الليلة حين غادرتني عائدة إلى حبلها، بدت لي تلك المعانقة فألاً سيئاً. لقد غادر نافذتي ملاك قاتم، رسول من إله ما، مكسو بالشعر وله أربعة أقدام.

في اليوم الثاني نزلت إلى الميناء قرابة وقت العشاء، رغم أن خطة كهذه لم تكن في رأسي من قبل. وقفت عند حانة يتردد عليها الصيادون وطلبت خمراً مع صحن من الحسحاس[5] المقلي كمازة. ورحت أشرب. لم أكن أعرف ما إذا كنت حزيناً أم غاضبا أم سعيداً. كل شيء ـ القردة، والله، والسموات المشعة بالنجوم، والكرامة الإنسانية ـ كان مختلطاً في أعماقي، كما لو أنني قد أوقفت آمالي على الكحول لكي يقوم بفرزها كلها من أجلي.

كان هناك عدد من الصيادين والحمالين يرتشفون خمرتهم بتكاسل في إحدى الزوايا وكلهم سكيرون مشهورون. ضحكوا حين رأوني.

قال أحدهم: لا يزال حليب أمه عالقاً على شفتيه ومع ذلك فهو يمثل دور الرجل في البلدة.

قال آخر: إنه يقلد أباه. لكن طريقه طويلة.

حين سمعت هذا الكلام اضطرمت غضباً. فصرخت: هيه. يا أصدقاء. تعالوا هنا لأسكركم.

اقتربوا وهم يقهقهون. وتابعت إملاء الكؤوس حتى الحافة ثم ابتلاعها دفعة واحدة واحداً بعد الآخر، ودون طعام الآن. نظر إلي الرجال مغتاظين. لم نكن نتحدث أو نغني بل اكتفينا بشرب الكؤوس المترعة والتحديق كل منا بالآخر، منتظرين أن يخضع واحد منا الآخرين. لقد التهب اعتزازهم الكريتي. خجل هؤلاء المدمنون ذوو الشوارب أن يهزمهم

(5) سمك صغير ذو حراشف فضية.

Twitter: @ketab_n

شاب لم تنبت لحيته بعد. ومع ذلك فقد تهاووا إلى الأرض واحداً بعد الآخر بينما أنا وحدي بقيت صاحياً. من الواضح أن ألمي كان شديداً حتى استطاع أن يتغلب على الخمر.

وحدث الأمر ذاته في اليوم التالي والذي بعده. وصرت معروفاً في كاسترو كلها كسكير يصاحب في كل ليلة الصيادين العاطلين وحمالي الشاطئ.

فرح أصدقائي وهم يرونني أنزل الهضبة راكضاً. فقد عجزوا منذ فترة بعيدة عن هضم فكرة أن لا رغبة لدي في مرافقتهم وأن أعزل لنفسي في البيت للقراءة، أو أن أخرج في ما بعد للمشاوير وحيداً وفي جيبي كتاب. لم أكن ألعب معهم أو أثرثر أو أخرج للغزل. وكانوا يقولون وهم ينظرون إلي بكراهية: «سيرفع رأسه حتى النجوم ثم يحطمه ألف قطعة». أما وقد رأوني الآن أشرب وأمرغ نفسي مع رعاع كاسترو الحفاة فإنهم سروا لذلك.

اقتربوا مني، وربما بدأوا يحبونني. وفي إحدى ليالي السبت أخذوني بخدعة ماكرة إلى أحسن ناد ليلي في البلدة، يحمل اسما جريئاً «مقاتلو الـ 21».

وقد وصل إليه منذ وقت قريب استعراض جديد، فرقة من الحسناوات الفرنسيات والرومانيات اللواتي كن يجنّنّ المواطنين المحترمين. كان أصحاب البيوت المحترمون هؤلاء يتسللون سراً مساء كل سبت إلى هذا الفردوس المحرم الخافت الأضواء، ويجلسون بهدوء على الموائد المنتحية وهم يتلفتون في كل اتجاه ليتأكدوا من أن أحداً من معارفهم لم يرهم. ثم يصفقون ليطلبوا مغنية معطرة ومتبرجة تجلس على ركبهم. بهذه الطريقة كان هؤلاء المواطنون الشرفاء، المساكين، يستطيبون للحظات، أن ينسوا المشاحنات والتعييبات التي تواكب حياة الفضيلة.

جلبني أصدقائي إلى الوسط تماماً وطلبوا شراباً. وجاءت رومانية بدينة متموجة فاض ثدياها المتعرقان عن صدارها الحريري غير المزرر. امرأة في سن معينة تعرف كل شاردة وواردة في حرفتها. وتابع أصدقائي تعبئة قدحي، ورحت أشرب. وأحسست بسعادة مريحة. وباستنشاقي عبير الأنثى اللاذع أحسست بالقرد ـ الذكر ـ في أعماقي يستيقظ. أمسكت بخف المغنية ورحت أعبئه بالشمبانيا مرة بعد أخرى ثم أشربه.

في اليوم التالي كانت كاسترو بأسرها تطن بالفضيحة: القديس، سليمان الحكيم ذو الأنف الشامخ ـ يا لحظه! يا للأسف ـ قد قضى الليل يسكر في كباريه وهو يشرب من خف مغنية. نهاية العالم! وأسرع أحد أخوالي، مخزياً بفعلة ابن أخته الشائنة، إلى والدي ونقل النبأ إليه. لكن والدي اكتفى بهز كتفيه وأجاب: هذا يعني أنه رجل الآن، لقد ابتدأ يصبح رجلاً. كل ما عليه أن يفعله الآن هو أن يشتري للمغنية خفين جديدين.

أما أنا فقد فرحت في أعماقي لأنني تخطيت القانون. لقد حررت نفسي من الأرشمندريت ومن فزاعات الوصايا العشر، لأنني كنت أتبع خطى سلفي ذي الشعر الكثيف،

Twitter: @ketab_n

الخطى الواثقة الثابتة. لقد بدأت خطواتي على المنحدر ولقد أحببته. كان تلك سنتي الأخيرة في الجمنازيوم[6]. وكنت أنظر إلى الأرشمندريت بكراهية، بينما كان يبتسم لي بوقار وهو غائص في فضيلته. كان هذا «الغنمة» الواثق من هذه الحياة والحياة الأخرى، ينظر إلينا، نحن الذئاب، بعطف. وهذا ما لم أستطع احتماله. كان علي أن أدمر سلاحه وأن أثير عاصفة في دمه، وأن أمحو تلك البسمة البلهاء التي تغمر وجهه. ولذلك فإنني ذات صباح قمت بعمل شرير.

أرسلت له مذكرة صغيرة: «أمك مريضة جداً. إنها تموت. أسرع إليها لعلها تمنحك بركتها». دفعت بها وذهبت إلى المدرسة لا مبالياً ورحت أنتظر.

ولم يظهر الأرشمندريت ذلك اليوم في الصف. ولا في اليوم التالي ولا اليوم الثالث. عاد بعد خمسة أيام وأنت لا تكاد تعرفه. كان وجهه منتفخاً ومشوهاً بأكزيما وصلت إلى حلقه وإبطيه. يهرش نفسه باستمرار ويتحول إلى أحمر قان. وكان يعجز عن الكلام ويترك الدرس قبل أن يقرع الجرس. ثم ظل طوال ثلاثة أشهر طريح الفراش. وعاد إلينا ذات صباح متخلصاً من انتفاخه. لكنه كان منهاراً ولا تزال آثار الجرب تغطي وجهه. راح ينظر إلينا بعطف. وعادت البسمة تغطي وجهه من جديد. وقد كانت كلماته الأولى: حمداً لله يا أطفالي. لقد حفَز اللّه اليد التي كتبت لي المذكرة التي تقول إن أمي مريضة جداً. وبهذا منحني الفرصة لأن أدفع ضريبة البشر بدوري ـ أن أقاسي.

جعلتني كلماته هذه أجفل. أكان، إذن، من الصعوبة بمكان التغلب على الفضيلة؟ للحظة شعرت أنني أريد أن أقف وأصرخ أنِ اغفر لي. لقد أخطأت. لكن صوتاً آخر برز فوراً في أعماقي، صوتاً مليئاً بالسخرية والحقد: أنت كلب. كلب ـ أرشمندريت. إنك تضرب بالسوط ثم تلعق اليد التي تسوطك. لا. إن ما فعلتُه صحيح. ويجب ألا أندم.

في اليوم التالي دعوت أعضاء «جمعية الصداقة». قلت لهم طالما أن عقولنا الآن مستنيرة فإن من واجبنا أن ننير عقل كل إنسان آخر. ويجب أن تكون هذه هي الرسالة العظيمة لجمعية الصداقة. حيثما ارتحلنا وأينما وقفنا، فإن كل كلمة من كلامنا، وكل أعمالنا يجب أن يكون لها هدف وحيد ـ هو التنوير.

وهكذا بدأ التنرير. لقد أنهينا الجمنازيوم ونحن الآن أحرار. وأرسلني والدي، الذي كان يريدني أن أدرس السياسة، إلى إحدى القرى لكي أكفل طفلاً في المعمودية. أخذت صديقي معي: ها هي ذي الفرصة السانحة لنا لتنوير قرية بأكلمها. وحينما جلسنا إلى المائدة بعد التعميد مباشرة وبدأ الحفل، راح صديقي الحميم يتحدث بتوتر واعظاً القرويين وينورهم.

(6) مدرسة ثانوية لتعليم الرياضة.

Twitter: @ketab_n

قبل كل شيء تحدث إليهم عن أصل الإنسان معلناً لهم أن سلفنا الأول قردة. وأننا يجب أن لا نكون مخدوعين إلى درجة الإيمان بمرتبتنا الحالية ككائنات متميزة خلقها الله.

وطوال الفترة التي قضاها صديقي وهو يُلقي بخطابه كان القس القروي يحدق إليه بعينين جاحظتين. وحين اقترب التنوير من نهايته هز رأسه بأسى وقال: اعذرني يا بني لتحديقي إليك طوال حديثك. من المحتمل، كما تقول، أن البشر قد تحدروا من القرود. ولكن بالنسبة لك أنت، واعذرني لقول ذلك، فإنك خلف ووريث مباشر للحمار.

عبرت جسدي رعشة. تطلعت إلى صديقي: وكأنني كنت أراه لأول مرة. فبفكه الكبيرة المتدلية وأذنيه الكبيرتين كالقرنبيط وبعينيه الهادئتين المخمليتين كان، فعلاً، يشبه حماراً. كيف لم ألحظ ذلك من قبل؟ لقد انقطع خيط في أعماقي. بعد ذلك اليوم لم أرسل له أية رسالة أخرى. ولم أعد أحسده.

لقد تحملنا الكثير في محاولتنا لتنوير البشرية في الأيام التالية ونحن نطوف في ميغالوكاسترو، أو ونحن نتجول في القرى. وقد سمونا بالملحدين والماسونيين والمرتزقة. وبالتدريج بدأنا نُقاطع باستهجان ونُرمَى بقشورِ الليمون أينما ذهبنا. لكننا تماسكنا بكبرياء وأصررنا على طريقنا رغم الإهانات والقشور مقتنعين بمعرفة أننا نشهد ونعاني الشهادة من أجل الحقيقة. ولتعزية أنفسنا كنا نقول أحدنا للآخر: ألم يكن هذا يحدث دائماً؟ ما أمتع الموت من أجل فكرة عظيمة!

وفي مناسبة أخرى ذهبنا، نحن الثلاثة، في نزهة إلى بلدة السوق التي تبعد ساعتين عن ميغالو كاسترو. وكانت هذه القرية، الشهيرة بكرومها، ممتدة على سفح جبل يوشتاس، الجبل المقدس الذي يقال إن زيوس، أبو الآلهة والبشر، قد دفن فيه. ولكن تحت الحجارة حيث يستلقي لا تزال لدى هذا الإله الميت القوة لإعادة تشكيل الجبل فوقه. ولقد قام بتغيير مواقع الصخور فأعطاها شكل رأس هائل مقلوب. وكان في وسع المرء أن يميز بوضوح الحاجب والأنف واللحية الكبيرة، وهي مؤلفة من البلوط والخرنوب والزيتون. كانت تمتد بوضوح حتى السهل.

«حتى الآلهة تموت». قال صديقي الثالث الذي كان يأمل أن يصبح مخترعاً لكي يمول جمعية الصداقة ويغنيها.

قلت: الآلهة تموت. لكن الألوهة خالدة.

وسأل الآخران: ماذا تعني؟ إننا لا نفهم.

وأجبت ضاحكاً: أنا نفسي لا أفهم جيداً.

وعلى الرغم من أنني كنت أحس أنني على حق، إلا أنني عجزت عن توضيح فكرتي. وعدت إلى الضحك الذي كان دائما بمثابة باب النجاة في لحظات الخطر.

Twitter: @ketab_n

وصلنا إلى القرية. كان الهواء عابقاً برائحة الراكي والتخمر. كان القرويون قد أنهوا القطاف وعبأوا الخميرة في البراميل واستخلصوا الراكي من تفل القُرَب. ولذلك فإنهم يجلسون الآن في المقهى أو خارجاً على مصاطبهم الحجرية أو تحت أشجار الحور يشربون الراكي ويلعبون الورق ويسترخون.

نهض عدد منهم لتحيتنا. وأجلسونا إلى مائدتهم ثم قدموا لنا ثلاثة أكواب من عصير الكرز. وبدأنا الحديث. لقد فهمنا من قبل. بالتدريج بدأنا نجر الحديث إلى المعجزات التي يحققها العلم. وسألناهم: هل تستطيع عقولكم أن تستوعب كيفية صنع الورق أو طبع الصحف؟ يا لها من معجزة عظيمة. غابة تقوض. والجذوع تنقل إلى آلات تسحقها وتحولها إلى عجينة. ثم تتحول العجينة إلى ورق يدخل إلى المطبعة من باب ويخرج صحيفة من الباب الآخر.

أنصت القرويون باهتمام وانضم إلى مائدتنا جلساء الموائد القريبة. لقد نجحنا معهم. لقد تنوروا. هكذا قلنا لأنفسنا. ولكن عند هذه المرحلة وصل رجل ضخم يستحق الشنق ومعه حمولة حمار من الخشب ووقف يستمع لما يقال.

وسأله أحدهم: هيا يا ديميتروس. إلى أين تنقل هذا الخشب؟

ـ لأصنع جرائد.

وبغتة انفجر بالضحك أولئك القرويون الذين كانوا حتى الآن يتمالكون أنفسهم أدباً. وارتجت القرية كلها بقهقهاتهم.

وهمست لصديقيّ: أظن أنه من الأفضل أن ننصرف. إنني أحس بقشور الليمون آتية.

وهتف القرويون: «أين تذهبون يا شباب؟»، وهم يسندون خواصرهم: «إبقوا أيضاً. وأخبرونا بالمزيد ـ فنحن نريد أن نضحك». ثم تبعونا وهم يصيحون:

ـ قولوا لنا أيهما جاء قبل الآخر الدجاجة أم البيضة؟

ـ وكيف يجعل اللّه الأذناب تقف دون مسامير؟

ـ وهل كان سليمان الحكيم رجلاً أم امرأة؟ دعونا نرى بضاعتكم.

ـ ولماذا تضحك العنزة المبرقعة؟ أتستطيعون الإجابة على هذا؟

لكننا كنا قد انطلقنا هاربين.

في ذلك الحين كنا قد تعبنا من تنوير الناس بكلمات الفم. فقررنا ذات يوم أن نطبع بياناً للجماهير؛ وثيقة نقول فيها هدفنا بوضوح وموضوعية ونحلل طبيعة الواجب الإنساني. فجلب كل منا مدخراته وذهبنا إلى ماركوليس عامل المطبعة، الذي كان يعرف باسم «البروليتاري»، لأنه كان هو الآخر يصدر بيانات تهدف إلى إثارة الفقراء وتوحيدهم ـ بهدف جعلهم قوة كبيرة تنتخبه وتوصله إلى المجلس النيابي. ذهبنا إليه ووجدناه. كان متوسط السن ذا شعر أشيب

Twitter: @ketab_n

مجعد ونظارتين وجذع واسع الصدر كالبرميل وساقين دقيقتين منحنيتين قليلاً. وكان منديل ملوث بالشحم ملفوفاً على رقبته. أخذ مخطوطنا وبدأ يقرأه بصوت مرتفع وبمبالغة انفجارية. وكلما استغرق في القراءة ازداد حماسنا. كم كان مكتوباً بفخامة وببساطة وبقوة! ورفعنا، نحن الثلاثة، رقابنا بنشوة مثل ديوك تتهيأ للصياح.

«جميل يا أولاد». أعلن ماركوليس وهو يطوي المخطوط. «انتبهوا لكلامي. ذات يوم ستنتخبون إلى المجلس النيابي وسوف تنقذون شعبنا. لم لا نوحد قوانا إذن؟ أنا أيضا أطبع بيانات. فلنتعاهد».

لكنني رفضت. قلت له: «إنك لا تهتم إلا بالفقراء. نحن نهتم بالجميع. هدفنا أكبر».

فقال المطبعي مستاء: «ولكن عقولكم أصغر. تظنون أنكم سترشدون الأغنياء؟ أتعتقدون ذلك؟ إن غسيل الزنجي ليس إلا هدراً للصابون. إصغوا إلي: الغني مستقر ومرتاح. وهو لا يريد أن يغير شيئاً، لا اللّه ولا الوطن ولا الحياة المترفة. فاقرعوا قدر ما تريدون على باب الأصم. عليكم أن تبدأوا بالفقراء، ياديوكي الصغيرة. ابدأوا بأولئك الذين ليسوا مستقرين ومرتاحين. ابدأوا بالمضطهدين. وإلا فاذهبوا للبحث عن طابع غيري لأنني معروف بالبروليتاري».

انسحبنا، نحن الثلاثة، إلى الباب لكي نتشاور. وبسرعة توصلنا إلى رأي جماعي. والتفت صديقي إلى الطابع: «لا. إننا نرفض قبول اقتراحك. لن نقدم أي تنازل. نحن على خلاف معك. نحن لا نميز بين الأغنياء والفقراء. الجميع يجب أن يتنوروا».

وزأر ماركوليس: «في هذه الحالة اذهبوا إلى الشيطان». وقذف بالمخطوط في وجوهنا.

Twitter: @ketab_n

14

الصبية الإيرلندية

لم أكن قد توصلت إلى القناعة بعد. كنت أحب الطريق الذي سرت فيه. لكنني كنت أريد الوصول إلى حدوده القصوى. وصلت تلك السنة صبية إيرلندية إلى كاسترو لتعطي دروساً إنكليزية. وكان الظمأ للعلم ملتهباً في أعماقي كما هو دائماً. وطلبت منها أن تعطيني دروساً. كنت أرى أن أتعلم اللغة وأن أكتب بيانات بالإنكليزية لتنوير أولئك الذين يعيشون خارج اليونان. لم نتركهم يعيشون في الظلام؟ وهكذا انكببت بكل اهتمام على تعلم الإنكليزية. وغرقت في ذلك العالم السحري الغريب. وكم كان ممتعاً أن أخطو خطواتي الأولى بين الشعر الإنكليزي الغنائي ومع تلك الفتاة الإيرلندية! اللغة بحروفها الصوتية وسواكنها تحولت كلها إلى عصافير مغردة. كنت أظل في بيتها حتى ساعة متأخرة من الليل. وكنا نتحدث عن الموسيقى ونقرأ الشعر. فراح الجو بيننا يشتعل. وحينما كنت أنحني فوق كتفها لأتتبع أبيات كيتس وبايرون كنت أستنشق رائحة إبطيها الدافئة اللاذعة. وكان عقلي يتشوش. يختفي كيتس وبايرون ويظل في الغرفة الصغيرة حيوانان قلقان أحدهما يلبس البنطلون والآخر فستاناً.

وبما أنني كنت قد أنهيت الجمنازيوم فقد كنت أتهيأ للذهاب إلى أثينا للتسجيل في الجامعة. ومن يستطيع أن يخمن ما إذا كنت سأراها مرة ثانية، ذات العينين الزرقاوين، المنحنية قليلاً والممتلئة الزغباء، ابنة القس الإيرلندي تلك. وحينما اقترب موعد افتراقنا تزايد قلقي. وتماماً كما يحدث حين نرى تينة ناضجة يسيل العصير الحلو منها، ونحن جائعون وظامئون فإننا نمد يدنا لنقشرها. وبينما نحن نقشرها يتحلب ريقنا. كذلك فإنني كنت ألقي، بالطريقة ذاتها، نظرات ملتهبة على تلك الفتاة الإيرلندية الناضجة، وأقشرها في خيالي كالتينة. وذات يوم من أيلول اتخذت قراري.

سألتها: أتحبين أن تتسلقي بسيلوريتي معي؟ إن كريت بأسرها تظهر من قمته. وهناك كنيسة صغيرة في القمة نستطيع أن نقضي فيها الليل وأودعك.

Twitter: @ketab_n

احمرت أذناها لكنها قبلت. أي سر عميق اشتملت عليه تلك الرحلة. وأية حلاوة وأي توقع قلق ـ كشهر العسل تماماً! انطلقنا ليلاً. كان القمر فوقنا فعلاً ينقط عسلاً. لم أر في حياتي بعد ذلك قمراً شبيهاً به. ذلك الوجه، الذي كان يبدو لي حزيناً، كان الآن يضحك وينظر إلينا بخبث بينما هو يتقدم معنا من الشرق إلى الغرب وينزل من فتحات قمصاننا إلى حلقينا ثم إلى صدرينا وبطنينا.

ظللنا صامتين، خوفاً من أن تدمر الكلمات التفاهم الكامل الصامت الذي حققه جسدانا وهما يسيران أحدهما إلى جانب الآخر. أحياناً كان فخذانا يتلامسان حين كنا نجتاز ممراً ضيقاً. ولكن كلاً منا كان يبتعد عن الآخر فجأة وفوراً. كان يبدو أننا لا نريد أن نبدد رغبتنا المرهقة في متع صغيرة. كنا نحتفظ بها بكراً بانتظار اللحظة العظيمة. فرحنا نسير مسرعين وبأنفاس متقطعة لا كصديقين، كما كان يبدو، بل كعدوين حاقدين. كنا نتسابق نحو الحلبة حيث سنتماسك صدراً لصدر.

ورغم أننا لم نفه بأية كلمة حب قبل ذلك الحين، ورغم أننا الآن، في الرحلة، لم نتفق على شيء فإن كلانا كان يعرف تماماً إلى أين نحن ذاهبان ولماذا. كنا متعطشين للوصول ـ وهي، كما كنت أشعر، أكثر تعطشا مني.

باغتنا الفجر في قرية على سفح بسيلوريتي. كنا متعبين فذهبنا لنأوي في بيت كاهن القرية. أخبرته أن رفيقتي ابنة قس يقيم في جزيرة بعيدة خضراء، وأنها ترغب في رؤية كريت كلها من قمة الجبل. وجاءت الباباديا، زوجة الكاهن، إلى المائدة. أكلنا. ثم جلسنا على الأريكة وغرقنا في حديث صغير. ناقشنا في البدء القوى العظمى ـ إنكلترا، وفرنسا وأمريكا وروسيا. ثم تحدثنا عن العنب والزيتون. وبعد ذلك تحدث الكاهن عن المسيح الذي قال عنه إنه كان أرثوذكسياً وأنه صمم على عدم التحول إلى البروتستانت مهما فعلوا به. وراهن أنه لو كان والد الفتاة معنا فإنه كان سيحوله إلى الأرثوذكسية في ليلة واحدة. لكن العينين الزرقاوين كانتا قد نعستا وأشار الكاهن لزوجته:

«رتبي لها السرير لكي تنام قليلاً. إنها، أخيراً، امرأة وهي متعبة». وتابع متجهاً صوبي: أما بالنسبة لك فإنك رجل، كريتي قوي. وإن من المعيب أن ينام الكريتي في النهار. تعال معي ودعني أرك الكروم. لا تزال هناك بعض العناقيد غير المقطوفة يمكننا أن نأكلها.

كنت على وشك التهاوي من التعب والنعاس. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل؟ لقد كنت كريتياً. ولا أستطيع أن أعيب كريت. ذهبنا إلى الكروم وأكلنا العناقيد غير المقطوفة. ثم تمشينا في القرية. كانت الكركة[1] تغلي والسائل يُستخلص. شربنا أكثر من اللازم من الراكي الساخن. وعدنا وقد شبكنا ذراعينا ونحن نترنح. كان المساء قد حل. وكانت الفتاة الإيرلندية

---

(1) أداة بدائية للتقطير. تغلى فيها خميرة العنب ثم تقطر لتصبح خمراً أو عرقاً أو راكي.

Twitter: @ketab_n

قد استيقظت. والبابادِيا قد ذبحت دجاجة فأكلنا ثانية. وأعلن الكاهن: لا حديث الليلة. ناموا. في منتصف الليل سأوقظكما. وسأعطيكما الراعي الصغير دليلاً لئلا تضيعا.

وخرج إلى الفناء فتفحص السماء كفلكيّ ثم عاد إلى الداخل راضياً.

قال: أنتما محظوظان. سيكون الغد رائعاً. سلما كل شيء لله. تصبحون على خير.

عند منتصف الليل أمسكني الكاهن من ساقي وأيقظني. كما أيقظ الفتاة بالقرع على مقلاة نحاسية فوق رأسها. كان ينتظرنا في باحة الدار راع فتي ذو شعر أجعد وأذنين مؤنفتين ونظرة حادة. وكانت تفوح منه رائحة الفحل والزوفا.

«جاهزان!» قال الراعي، وهو يرفع عصاه: «أسرعا الخطى! نريد أن نصل إلى القمة لحظة بزوغ الشمس».

القمر في كماله، لا يزال سعيداً، ولا يزال مليئاً بالحلاوة. كان الطقس بارداً في الخارج. فتلفعنا بمعاطفنا. وابيض أنف الفتاة الإيرلندية الدقيق؛ إلا أن شفتيها كانتا لا تزالان حمراوين ومكتنزتين. فحولت نظري لئلا أنظر إليهما.

جبل وعر. فبعد أن خلفنا وراءنا الكروم وبساتين الزيتون ثم السنديان والسرو وصلنا إلى الصخور العارية. كانت أحذيتنا تنقصها (الرزات) فصرنا نزلق. وسقطت الفتاة الإيرلندية مرتين أو ثلاث مرات. لكنها نهضت دون مساعدة. لم نعد بردانين. بل تصبب العرق من أجسادنا. أطبقنا شفاهنا، لكي لا نلهث. وتقدمنا بصمت: الراعي الصغير يقودنا والإيرلندية في الوسط. وأنا أحفظ المؤخرة.

بدأت السماء تتحول إلى بيضاء مزرقة، وصارت الجروف واضحة. وحامت أول الصقور في الجو الأسود المزرق بحثاً عن فريسة. لكننا حين وطئنا القمة أخيراً كان الشرق قد توهج أحمر زهرياً. غير أنني لم أستطع أن أرى شيئاً من بعيد. هناك ضباب كثيف حولنا يغطي الأرض والبحر. كان جسد كريت كله مغلفاً. وكنا نرتجف من البرد المخيف. ففتحنا بوابة الكنيسة ودخلنا. وبدأ الراعي، خلال ذلك، يبحث حولنا عن عيدان جافة لإشعال النار.

كانت الكنيسة مبنية بحجارة شيدت دون إسمنت. بقينا وحيدين في الداخل: الصبية الإيرلندية وأنا. وكان المسيح والعذراء يحدقان إلينا من أيقونتيهما المتواضعتين. لكننا لم ننظر إليهما. تصدى للمسيح وللعذراء شيطانان مضادان للمسيح وللعذراء برزا في أعماقنا. مددت يدي وأمسكت بالصبية الإيرلندية من قذالها فاستجابت مذعنة ـ كان هذا ما تنتظره ـ وتدحرجنا على الحجارة.

انفتح باب مصيدة مظلمة ليبتلعني وتلاشيت فيها. وحين رفعت عيني رأيت أن المسيح يحدق إلينا غاضباً من الأيقونة. وكان الصولجان الذي يمسك به في يده اليمنى يتأرجح وكأنه سيقذفني به. خفت. لكن ذراعي المرأة أحاطتا بي. وانغمرت مجدداً في الهيولى.

Twitter: @ketab_n

كانت ركبتاي ترتجفان حين فتحنا الباب للخروج. وارتجفت يدي وأنا أرتج المزلاج. لقد هيمن علي بغتة خوف عريق: سينزل الله علينا صاعقة تمحقنا، أنا والفتاة الإيرلندية ـ آدم وحواء ـ وتحيلنا رماداً. فالحقيقة أن لا حصانة لمن يدنس بيت الله أمام عيني العذراء. دفعت بالباب وخرجت. قلت لنفسي: مهما كان ما سيحدث فليحدث بسرعة ولننته منه. ولكن حين خرجت ورأيت. آه. أية غبطة هائلة وأية معجزة تتمدد أمامي! كانت الشمس قد ظهرت وانقشع الضباب، وجزيرة كريت بأسرها من أقصاها إلى أقصاها تتلامع بيضاء وخضراء ووردية ـ عارية تماماً ـ محاطة ببحارها الأربعة، وبقممها الثلاث الشاهقة والجبال البيضاء وبسيلوريتي وديكتي كانت كريت سكوَّنة[2] مثلثة الصواري تبحر في الزبد. كانت غولاً بحرياً، غرغونة[3] بآلاف الأثداء، مسترخية وممددة على الأمواج تتشمس تحت الشمس الصباحية. رأيت بوضوح وجهها ويديها وقدميها وذنبها وأثداءها المتوثبة.. لقد هبطت علي أفراح كثيرة العدد خلال حياتي ولا داعي لدي للشكوى. ولكن هذا، منظر جزيرة كريت بأسرها على الأمواج، كان واحداً من أهم الأفراح وأعظمها. التفتُّ لأنظر إلى الفتاة الإيرلندية. كانت تستند إلى الكنيسة الصغيرة تمضغ قطعة من الشوكولاته بهدوء ولا مبالاة وهي تلحس شفتيها اللتين كانتا مغطاتين بعضَّاتي.

كانت العودة إلى كاسترو كئيبة. وأخيراً اقتربنا. هناك تقوم الأسوار الفينيسية الشهيرة بأسودها الحجرية المجنحة. واقتربت الفتاة الإيرلندية لتستند إلى ذراعي. لكنني لم أستطع تحمل رائحتها أو عينيها الرصاصيتين ـ التفاحة التي أطعمتني إياها قد غطت شفتي وأسناني بالرماد. رفضت أن أسمح لها بالاقتراب. فتراجعت خطوة إلى الخلف دون كلام. وسمعت نشيجها. كنت أريد أن ألتفت، وأن أحتضنها بين ذراعي، وأن أقول لها كلمة لطيفة. ولكنني، بدلا من ذلك، أسرعت الخطى واحتفظت بصمتي. واقتربنا أخيراً من بيتها. سحبت المفتاح من جيبها وفتحت الباب. ثم وقفت تنتظر بالعتبة. وقفت تنتظر وهي مطرقة: هل سأدخل؟ أم لا؟ وهب في أعماقي حنوٌّ لا يقاوم وكمية هائلة من الكلمات المفرحة والمحزنة وصلت حتى حلقي.

لكنني زممت شفتي ولم أتكلم. مددت لها يدي، وافترقنا. في اليوم التالي رحلت إلى أثينا. ولم تكن لدي قردة أعطيها إياها للذكرى. ولكن مع أحد تلاميذها أرسلت إليها كلباً صغيراً كان يحب أن يعض، وكنت أحبه. كان اسمه كارمن.

---

(2) قارب شراعي متعدد الأشرعة.

(3) إحدى ثلاث أخوات في الميثولوجيا اليونانية رؤوسهن مكسوة بالأفاعي بدل الشعر، وكل من ينظر إليهن يتحول إلى حجر.

Twitter: @ketab_n

15

أثينا

الشباب وحش متناقض وأعمى. يلتمس الطعام ولا يأكل. أجبن من أن يأكل. يريد أن يومئ بالقبول للسعادة، التي تتدحرج في الشارع، والتي تريد أن تتوقف راغبة. لكنه لا يومئ. يتحول إلى الصنبور سامحاً للزمن أن يتبدد هباء ويضيع وكأن الزمن ماء. الوحش الذي لا يعرف أنه وحش ـ ذلك هو الشباب.

يتحطم قلبي حين أتذكر تلك السنوات التي قضيتها كطالب جامعي في أثينا. فعلى الرغم من أنني كنت أنظر، فإنني لم أكن أرى شيئاً. لقد كان العالم، المغطى بضباب كثيف من الأخلاق، والتصورات الخيالية، والطيش، محجوباً عن عيني. الشباب مرير، مرير ومزدر. إنه لا يفقه. وحين يبدأ المرء بالفهم يكون الشباب قد ولى. من كان ذلك الحكيم الصيني الذي ولد عجوزاً بشعر أشيب ولحية بيضاء وعيناه تضحكان وقد تخلص قلبه من أعبائه. وحين شارف على الموت في النهاية صارت وجنتاه كوجنتي العذراء يغطيهما الزغب الطفولي الناعم..؟ هكذا يجب أن تصير حياتنا. هكذا يجب أن تصير لو أراد اللّه أن يشفق على البشر.

لقد ثرت على قدري في كريت. وللحظة أسلمت نفسي للخمر. وفي لحظة أخرى لمست الفتاة الإيرلندية. ولكن لم يكن هذا طريقي. أحسست أني أخطأت. ولخجلي وندمي عدت إلى عزلتي وكتبي.

منذ الشهاب وحتى الشيخوخة كنت أعتبر كل كلمة أو عمل يبعدني عن قدري معصية. فما هو قدري هذا؟ وإلى أين كان يقودني؟ لا يزال عقلي عاجزاً عن حل اللغز. فسمحت لقلبي أن يقرر: «افعل هذا، ولا تفعل ذلك. امش. لا تقف. ولا تصرخ. عليك واجب واحد: أن تصل إلى الطرف».

«أي طرف؟» كنت أسأل. «لا تسأل أية أسئلة. تقدم!».

وبينما أنا أصغي، في عزلتي، لنصيحة قلبي الحمقاء والمدعية نمت رغباتي وصارت

Twitter: @ketab_n

غاية في الترف. ولم يعد أي شيء من كل ما أراه أو أسمعه حولي في أثينا، المدينة الشهيرة، قادراً على سد جوعي وحاجتي. وفشلت المواد في مدرسة الحقوق أن تلبي حاجات روحي إلى أقل حد ممكن. كما أنها لم تشبع فضولي العقلي. ولم أعد أشعر بالمتعة في الحفلات التي يقيمها زملائي مع الطالبات أو مع الخياطات الصغيرات الساذجات. كان الرماد لا يزال عالقاً على أسناني من التفاحة التي أطعمتني إياها الصبية الإيرلندية. بين حين وآخر كنت أذهب إلى المسرح أو إلى حفل موسيقي لأستمتع. لكن المتعة كانت سطحية. لم تتمكن من تغيير الإنسان الداخلي. كنت أنسى حالما أصل إلى الشارع. وتابعت دراستي للّغات الأجنبية. وكان إدراكي لمسألة أن ذهني يتوسع يسرني. ولكن كانت رياح الشباب السرية الحامية تهب مباشرة دائماً. وكانت تلك المتع تذوي. ووراء فم الفتاة السعيدة الضاحك كنت أرى فكّي جمجمتها العارية. كان العالم يأخذ أمام عيني إيقاعا عنيفاً وسريعاً ثم يتحول إلى دمار. الشباب يبحث عن الخلود ولا يجده ولا يقبل الحلول الوسطى. وهكذا يرفض الكون بأسره ـ من قبيل الكبرياء. وهذا لا ينطبق على حالات الشباب كلها. بل، فقط، على ما تجرحه الحقيقة.

كنت، أيام الآحاد، أحب أن أخرج إلى النزهات في الضواحي وحيداً. أحس أن رفقة الأصدقاء ـ أحاديثهم ونكاتهم وضحكاتهم ـ تحط من قيمة الصمت المقدس. كانت الجبال متأججة بالصنوبر والعسل. وكنت أدخل إلى غابات الزيتون، فأحس بعينيّ تنتعشان. أتبادل كلمة أو كلمتين مع أي فلاح يصدف أن يمر ـ ألباني، مثلاً، بجبهة ضيقة وقبعة سوداء قذرة تفوح منه رائحة الحليب والثوم. كلماته مبتذلة ومشوشة ومليئة بالفضول القاتم. كان هؤلاء الفلاحون ينظرون إلي من زوايا عيونهم الخبيثة الصغيرة مجهدين عقولهم الصغيرة لمعرفة من أكون ولم أجوب الجبال. جاسوس؟ مجذوب؟ بائع جوال؟ ويلقون بنظراتهم المفترسة على الحقيبة التي أحملها على ظهري.

وكانوا يسألونني: ماذا تبيع يا صديقي؟ أناجيل؟ أأنت ماسوني؟ هل الأمر كذلك؟

وذات يوم سمعت زقزقة، ورأيت عصفوراً أزرق فولاذياً يطير فوقي، فأوقفت فلاحاً كان يمر قربي وسألته بلهفة: «أي نوع من العصافير هذا يا صديقي؟ ماذا يسمى؟»، فأجاب بهزة من كتفه: المسكين. من يهتم له. إنه لا يؤكل.

تعودت أن أنهض عند الفجر. نجمة الصبح تقطر على الأرض، وضباب خفيف يحوم على «هيميتوس» ونسمة باردة تلفح وجهي، والقبرات تغط مغردة في الهواء ثم تغيب في الضوء. وذات أحد في الربيع أذكر أنني رأيت شجرتين أو ثلاث أشجار من الكرز المزهر في حقل أحمر محروث حديثاً.

ملأت السعادة قلبي. في تلك اللحظة بزغت الشمس وهي تتلامع، كما كانت يوم أن خرجت أول مرة من يدي الله. وتلألأ خليج سارونيك، في بحر إيجه البعيد، معبأ بالزهور

Twitter: @ketab_n

في ضوء الصباح. وطار غرابان عن يميني وأجنحتهما تهتز كأوتار القوس ـ بشارة طيبة. إلى جانبي كانت الأمواج البيضاء كالخيول الهومرية بقفزاتها العريضة وأشعار هوميروس المنعشة. وإلى الجانب الأخر زيتون أثينا الزيتي والمليء بالضوء، وغار أبولو، وعنب ديونيزوس صانع العجائب المليء بالخمر والغناء. والأرض الجافة البخسة، وحجارتها المحمرة من الشمس والجبال التي تخفق زرقاء في الجو، والبخار يتصاعد منها في الضوء وهي تتشمس براحة وسلام وكلها عارية كالرياضيين.

رحت أمشي. وبينما أنا أمشي كنت أحس أن الأرض كلها، والسماء كلها، تسيران معي. المعجزات المحيطة بي كلها اخترقتني. ازدهرتُ وضحكت وارتعشت بدوري كوتر القوس. آه. كيف تلاشت روحي ذلك الأحد، وغابت، وهي تغني في ضوء الصباح تماماً كالقبرة!

تسلقت قمة هضبة ورحت أجيل النظر في الشواطئ الضيقة الوردية والبحر والجزر الصغيرة. أية متعة كانت تلك! اليونان بجسدها العذري تسبح بين الأمواج وترفع بنفسها فوقه، والشمس تسقط عليها كعروس! كيف كانت تروض الحجارة والماء وتخلص نفسها من أساس المادة وقسوتها وتحتفظ بالجوهر وحده.

كنت أتجول بغية التآلف مع أتيكا، أو هكذا كنت أظن. لكنني في الحقيقة، كنت أ تجول بغية التآلف مع روحي. كنت أتمنى أن أجدها وأن أتعرف عليها في الأشجار والجبال والعزلة ـ ولكن دون جدوى. لم يقفز قلبي فرحاً. تلك العلاقة الأكيدة التي بينت لي أنني لم أجد ما كنت أبحث عنه.

مرة واحدة فقط، وكان الوقت ظهراً، اعتقدت أنني وجدتها. كنت قد تجولت وحيداً إلى سونيون. وكان الصيف قد حل، والراتينج يسيل من شقوق أشجار الصنوبر مالئاً الهواء بالعطر. وحط جندب على كتفي ومكث عليها. وسرنا معاً لفترة. كانت لجسدي كله رائحة الصنوبر. لقد مرت صنوبرة. ثم حين خرجت من غابة الصنوبر رأيت الأعمدة البيضاء لمعبد بوزينون، ومن بينها بدا البحر الأقدس بزرقته العميقة المتلألئة. تراخت ركبتاي تحتي وتوقفت. رحت أقول لنفسي إن هذا هو الجمال. وهذا هو النصر بلا أجنحة. قمة الغبطة التي لا يستطيع الإنسان أن يسمو إلى أعلى منها. هذه هي اليونان.

كانت فرحتي عظيمة إلى درجة أن خيل إلي للحظة، وأنا أتطلع إلى جمال اليونان، أنني قد شفيت من جرحي، وأن هذا العالم، على الرغم من أنه زائل ـ وربما لأنه زائل ـ فإن له قيمة. اعتقدت أنني كنت مخطئاً حين كنت أحاول أن أرى حيزبون المستقبل وراء وجه الفتاة الشابة، بل أن علي أن أعيد في وجه الحيزبون خلْق وتجديد عذوبة الفتاة وشبابها وهي التي لم تعد موجودة.

Twitter: @ketab_n

إن المشهد الأثيني خلاب بطريقة أخاذة لا يمكن التعبير عنها. هنا في اليونان يحس المرء أن كل شيء قائم على إيقاع بسيط وقوي ومتوازن. ولكل شيء هنا بهاؤه الأرستقراطي وتلقائيته: الأرض الجافة المقتصدة، والانحناءات البهية لهيميتوس بنتيليكوس، وأشجار الزيتون ذات الأوراق الفضية، والسرو الممشوق الزاهد ولمعان الصخور اللعوب تحت الشمس. وقبل كل شيء الضوء اللعوب الشفاف والروحي الذي يكسو الأشياء كلها ويعريها.

المشهد الأثيني يحدد قسمات الرجل المثالي: بنيته القوية ممشوقة، صموت، متحرر من الثروة السطحية، وقوي. إلا أنه من جهة أخرى قادر على السيطرة على قوته وفرض حدود على خياله. ويصل المشهد الأثيني أحيانا إلى حدود الصرامة. غير أنه لا يتجاوزها بل يتوقف عن الجدية المرحة الطيبة. ولا ينحدر بهاؤه إلى الرومانسية. ولا تنحدر قوته، بالتميز ذاته، إلى الخشونة. كل شيء متوازن ومحسوب بشكل جميل. حتى الفضائل لا تصل إلى المبالغة والإفراط ولا تحطم المعنى الإنساني بل تتوقف عند النقطة التي، إذا تجاوزوها، يصبحون بعدها إما أشراراً لا إنسانيين وإما إلهيين. والمشهد الأثيني لا يتباهى ولا يغرق في البلاغة ولا ينحدر إلى خطرات النشوة الميلودرامية. إنه يقول ما عليه أن يقوله بقوة هادئة ورجولة. وبأبسط الوسائل الممكنة يقوم بتشكيل الجوهري.

ولكن بين حين وآخر، وفي وسط هذه الجدية، هناك بسمة ـ شجرتا زيتون فضيتا الأغصان، أو ثلاث شجرات على منحدر قاحل. بعض الصنوبرات ذوات الخضرة المنعشة، أو شجيرات دفلى على حافة مجرى نهر جاف ناصع البياض. باقة من البنفسج البري بين الحجارة السوداء المزرقة اللاهبة. المتضادات كلها تتجاوز وتمتزج وتتصالح هنا خالقة ذلك التوافق المعجز السامي.

كيف حدثت هذه المعجزة؟ وأين وجد البهاء هذا القدر من الجدية؟ والجدية هذا القدر من البهاء؟ وكيف استطاعت القوة أن تتجنب تحقير القوة؟ إن هذا كله لابد أن يؤسس المعجزة اليونانية.

كانت تأتي لحظات، وأنا أجوب أتيكا، يبرز لدي فيها هاجس بأن هذه الأرض كان في وسعها أن تصبح أسمى درس في التحضر والنبل والقوة.

بعد كل جولة من جولاتي عبر الريف الأثيني كنت، دون أن أعرف السبب في البداية، أتسلق أكروبوليس للتطلع وإعادة النظر إلى بارتينون. هذا المعبد لغز بالنسبة لي. لم أستطع أبداً أن أراه مرتين بالطريقة ذاتها. كان يبدو أنه يتغير دائماً، ويحيا، ويتموج وهو ثابت ويلعب مع الضوء ويتلاعب بالعين البشرية. ولكن، بعد الشوق لرؤيته سنوات عديدة، حين واجهته للمرة الأولى بدا لي ساكناً، هيكلاً عظمياً لوحش بدائي. ولم يقفز قلبي عندها مثل العجل الصغير. (كانت هذه بالنسبة لي دلالة لا تخطئ عبر حياتي.. حين أقابل شروق الشمس أو

Twitter: @ketab_n

لوحة أو امرأة أو فكرة تجعل قلبي يقفز كعجل صغير أعرف عندها أنني أقف أمام السعادة). وأول مرة وقفت فيها أمام بارتينون لم يقفز قلبي. بدا لي البناء مأثرة من أفعال العقل ـ من الأرقام والهندسة ـ تفكير مصيب ورخامي، وإنجاز سام للعقل، فيه كل فضيلة. كل فضيلة باستثناء واحدة وهي أكثرها قيمة ومحبة: كان عاجزاً عن لمس القلب البشري.

كنت أحس أن بارتينون كان رقماً زوجياً مثل الاثنين والأربعة. الأرقام الزوجية تجري معاكسة لقلبي: لا شأن لي بها. وحياتها مرتبة بشكل مريح جداً. إنها تقف على أقدامها بثبات كبير. وليس لديها أية رغبة في تغيير مكانها. قانعة ومحافظة ومستقرة. لقد حلت كل مشكلة وحولت كل رغبة إلى واقع وهدأت. والرقم الفردي هو الذي يتلاءم مع إيقاع قلبي. فحياة الرقم الفردي ليست مرتبة بشكل مريح أبداً. والرقم الفردي لا يحب العالم بالشكل الذي يراه عليه. بل يرغب في تغييره والإضافة إليه ودفعه إلى الأمام. يقف على قدم واحدة والأخرى جاهزة في الهواء وهو راغب في الرحيل.

إلى أين؟ إلى الرقم الزوجي التالي من أجل أن يتوقف قليلاً ليلتقط أنفاسه ويستحضر زخماً جديداً.

أما هذه العقلانية الرخامية الواعية فقد كانت مزعجة لقلب الشاب الرافض الذي يريد أن يسحق كل شيء قديم ويعيد تجديد العالم. لقد كان خرِفاً محترساً جداً يرغب من مستشاريه أن يقدموا لجاماً قصيراً جداً لاندفاع القلب. أدرت ظهري لبارتينون وأغرقت نفسي في المنظر الرائع الذي يمتد حتى البحر. كانت الشمس في قبة السماء وكان الوقت ظهراً: ساعة النضج، خالية من الظلال أو من أية لعبة للضوء. كمال وسمو وصراحة. تطلعت إلى المدينة البيضاء الناصعة والمشعة والبحر المقدس المشعشع حول سلاميس والجبال المحيطة التي تتمشى عارية وسعيدة. غرقت في هذه الرؤيا ونسيت البارتينون الذي كان يقوم ورائي.

ولكن بعد كل عودة جديدة من غابات الزيتون الأثينية وخليج سارونيك، كان التوافق المخبوء يلقي عنه بحجبه الواحد بعد الآخر، ثم يكشف عن نفسه لعقلي ببطء وانتظام. وفي كل مرة أعود بها إلى تسلق أكروبوليس كان البارتينون يبدو وكأنه يتأرجح قليلاً، كما لو أنه في رقصة ثابتة ـ يتأرجح ويتنفس.

دام هذا الاستهلال شهوراً وربما سنوات. ولا أذكر بدقة اليوم الذي وقفت فيه أمام البارتينون مؤهلاً تماما وقلبي يقفز كعجل صغير. هذا المعبد الشامخ أمامي، أي نصب تذكاري كان! وأي مزيج من القلب والعقل وأية ثمرة سامية للجهد الإنساني! لقد تم قهر الفضاء. والفروق بين الصغير والكبير قد تلاشت. ودخلت اللانهاية إلى متوازي الأضلاع السحري الضيق هذا الذي حفره الإنسان. دخلت بيسر واسترحت فيه. كما أن الزمن أيضاً قد تم قهره وتحولت اللحظة اللطيفة إلى أبدية.

Twitter: @ketab_n

سمحت لنظرتي أن تزحف على الرخام الدافئ المشبع بالشمس. فلامست الحجارة ونقبت بينها كي تكشف الأسرار الخبيئة والتصقت بها رافضة تركها. ورأيت الأعمدة المتوازية ظاهرياً تُميل تيجانها بحركة غير مرئية واحدها نحو الآخر؛ بحيث أنها، بتصميم مسبق وبقوة ولطف، تسند الحفريات المقدسة المؤتمنة عليها. لم يسبق أبداً للتموجات أن أبدعت خطوطاً بهذه الاستقامة الكاملة ولم يسبق أبداً للأرقام والموسيقى أن تزاوجت بهذا التفاهم وهذا الحب.

اعتقد أن هذه التجربة هي أكبر متعة قابلتها في سنواتي الدراسية الأربع في أثينا. ولم تأت أية نشوة

أنثوية واحدة لتعكر الهواء الذي كنت أتنفسه. لكن كان لدي عدة أصدقاء. وكنت أحبهم كثيراً. كنت أذهب لتسلق الجبال معهم. وفي الصيف كنا نسبح معاً في البحر. وكنا نتحدث عن عرضية الأشياء اليومية. ثم أقمنا حفلات. كان بعضهم يجلبون صديقاتهم إليها. كنا نضحك دون سبب لأننا شبان. وكنا نحزن دون سبب لأننا شبان أيضاً. كنا كعجول قوية تتنهد لأن قوتها تخنقها.

كم من الفرص كانت أمام كل منا! كنت أنظر إلى عيون أصدقائي واحداً بعد الآخر محاولا أن أخمن الاتجاه الذي سوف تندلع طاقاتهم فيه فاتحة ممراً. كان أحدهم يلتهب فوراً حينما يفتح شفتيه للنطق بأية فكرة أو للتحدث عن حماقة مجنونة تستهويه. ولقد كان من الممتع جداً سماع القوة المحكمة العظيمة التي كان يعدد بها أفكاره دون تلعثم. وحين أستمع إليه كنت أحس بالحسد لأنني كلما فتحت فمي للكلام ندمت فوراً. الكلمات تأتيني بصعوبة. إذا حدث أن قدمت حجة لدعم رأيي لي فإن الحجة المناقضة، والصحيحة بالمقدار ذاته، كانت هي التي تقفز إلى ذهني.

ولخجلي من الكذب كنت أصمت فوراً. هناك صديق آخر متحفظ. كان متطرفاً في الإقلال من كلماته. فلم يكن يفتح فمه إلا عند استظهار درس القانون. وعندها كان المدرس، وكنا نحن جميعاً نصغي إليه بإعجاب، وهو يعقّد عامداً مشكلات العدالة ثم يحللها بمهارة فائقة. وآخر كان بارعاً في تنظيم الجماهير. انخرط في العمل السياسي وصار ينظم المظاهرات ويلقي الخطابات ويذهب إلى السجون ويخرج منها ليعاود كفاحه. وقد قلنا عنه جميعاً إنه ذات يوم سوف يصبح رجل دولة عظيماً. وآخر كان نباتياً شاحباً ناعم الحديث بعينين زرقاوين واهنتين ويدين أشبه بأيدي النساء. استطاع بعد جهد كبير أن يؤسس نادياً شعاره زهرة ليلك و«الأقدام أنظف من الأيدي». كان يحب القمر. وقد اعتاد أن يقول: «القمر هو المرأة الوحيدة التي أحب». وكان هناك آخر مثل ليلكة لم تمس. كان شاحباً متشائماً له عينان زرقاوان واسعتان ويدان بأصابع طويلة. كان يكتب الشعر. ولم أستطع أن أحفظ إلا القليل من شعره. ولكنني ما إن أردد هذه الأبيات وحدي حتى تمتلئ عيناي

Twitter: @ketab_n

بالدموع. ذلك أن «هذا الشاب قد وجد ذات ليلة خارج دير كنسارياني مشنوقاً على غصن شجرة زيتون.

هناك أصدقاء آخرون عديدون. لكثير منهم روحه المتميزة المليئة بالبراعم المغلقة. وكنت أسأل نفسي متى ستتفتح هذه البراعم؟ ومتى ستثمر؟ وكنت أدعو: يا إلهي دعني أعيش حتى أراها. ودعني أعيش حتى أرى أية براعم ستتفتح في داخلي أنا وأية ثمار ستعطي! كنت أنظر إلى أصدقائي بقلق وحزن صامتين وكأنني أودعهم. فقد كنت أخاف أن يكون الزمن هو العاصفة التي ستهب حينما تتبرعم الطبيعة وأخاف أن تهب بقسوة وأن تعري هذه الأرواح.

حين غادرت أثينا خلفت ورائي تاجين غاريين هما الوحيدان اللذان كوفئت بهما طوال حياتي. أخذت الأول من أجل المبارزة. كان إكليلاً ثقيلاً محاكاً من أشرطة بيضاء وزرقاء، ومؤلفًا من الغار الذي يفترض أن يكون مجلوباً من دلفي. وكانت كذبة. كنت أعرف أنها كذبة مثلما كان يعرف الجميع. إلا أن هذه الكذبة كانت تجعل الأوراق بهية. أما الثاني فأخذته في مسابقة لكتابة المسرحية. لا أعرف كيف. ولكن ذات يوم أحسست بدمي يلتهب فكتبت مسرحية حماسية مليئة بالعواطف والتشاؤم. كانت حول الحب. وسميتها «بزوغ النهار». ولقد كنت واثقاً من أنني أقدم للعالم أخلاقية أسمى، وحرية أعظم، ونوراً جديداً. حكم الأستاذ، الذي كان الحكم، وهو رجل حليق جاد يضع قبعة عالية، أن مسرحيتي هي أفضل المسرحيات المقدمة. ولكنه من قبيل الحرص، وصمها (بكاتاريفوزية[1] بليغة) بأن فيها عبارات جريئة وإثارة جنسية جامحة. وقال في النهاية: «إننا نمنح الشاعر التاج الغاري. إلا أننا نطرده من هذه الرياض المقدسة».

كنت في المدرج الكبير في الجامعة، تلميذاً غراً غير ملتح. وسمعت ما قاله فتضرجت ووقفت. ثم اندفعت خارجاً وقد تركت إكليل الغار على طاولة الحكم.

كان لي صديق يعمل ملحقاً في وزارة الخارجية. وكنا قد خططنا للسفر معاً إلى أوروبا الغربية. فقال لي ذات يوم: «يفضل أن تأخذ إكليل المبارزة. إذ أننا لن نستطيع الحصول على أوراق الغار شمالاً. وسنحتاج إليها من أجل الحمّام».

علقت الإكليل على الجدار واحتفظت به. ومرت السنوات. وحين تحقق حلمنا أخيراً وانطلقت، وصديقي، إلى ألمانيا، أخذت الإكليل معي. وخلال عامين كنا قد استهلكنا أوراقه كلها في الحمام.

---

(1) اللغة الإغريقية الكلاسيكية.

Twitter: @ketab_n

16

العودة إلى كريت ـ كنوسوس

عدت إلى كريت في الصيف الأخير من سنواتي الدراسية. وجدت أمي جالسة في مكانها المعتاد قرب النافذة المطلة على الدار. كانت ترفو الجوارب. وكان الوقت مساء، وقد بدأت أختي تسقي أصص الحبق والسمسق. وكانت العريشة فوق البئر مثقلة بالعناقيد الكبيرة غير الناضجة بعد.

لم يتغير شيء في البيت. كان كل شيء في مكانه. الأريكة والمرآة والمصابيح، وعلى الجدران أبطال عام 21 بشواربهم الكثيفة وصدورهم المشعرة والمسدسات على خصورهم: كانوا الأرواح العنيفة المحكومة بعواطفها والقادرة على فعل ـ وقد فعلت ـ الخير والشر حسبما كانت تدفعهم كآباتهم الداخلية. لقد كتب كاريسكاكس للكاتب ستورناراس: «أيها الأخ الباسل الكابتن نيكولاس. تلقيت رسالتك ورأيت كل ما كتبته. إن لمنخسي أبواقاً، وله أيضاً توبوليكا. وإنني أعزف على ما أريد». والتوبوليكا آلة موسيقية تركية بينما البوق يوناني. وهؤلاء الأبطال لم يكونوا أرواحاً نقية؛ بل كانوا أرواحاً عظيمة. والأرواح العظيمة خطرة دائماً.

إنني لأتساءل غالباً عن السر الذي يجعل زهرة الحرية الزرقاء تجد غذاءها في مزبلة كهذه، وتطلق جذورها فيها: مزيج من الكراهية والخيانات والمنازعات والمآثر البطولية والحب الوهاج للوطن الأم والرقص على زالونغون[1].

في الصباح التالي نهضت باكراً ومتنشطاً، وذهبت للبحث عن رفيقيّ اللذين لم أكن قد رأيتهما منذ أربع سنوات. لكن عضوَيْ جمعية الصداقة السابقين لم يعد من الممكن التعرف عليهما. لقد مرت الحياة عليهما وسطحتهما. صارا ينفجران بالضحك حين يتحدثان عن

(1) ريف صخري شيد في التاريخ اليوناني. وعلى هذا الريف فضلت 57 امرأة يونانية الموت على الاستسلام للأتراك عام 1803 (18 لك1). فأذين رقصة ألقين خلالها بأطفالهن من أعلى الريف. ثم قفزن الواحدة بعد الأخرى.

Twitter: @ketab_n

جمعية الصداقة. كان لأحدهما صوت جميل. وقد صار يدعى إلى حفلات الزواج والتعميد واحتفالات العطل المدرسية. صار يأكل ويشرب ويغني. وصار الناس يعجبون بصوته الجميل. وهو، أيضاً، كان يشاركهم الإعجاب. لقد بدأ السير على المنحدر وصارت يداه ترتجفان من الإفراط في الشرب. أما الآخر فقد درس الغيتار. وصار يعزف مقطوعات عاطفية وأغنيات راقصة برفقة صديقه. وجدت كلاً منهما حسن التغذية ومرتاحاً وأنفه محمراً. لقد وجدا عملاً في مشغل الصابون. إنهما يكسبان عيشهما ويتمتعان بالحياة ويرعيان زوجتيهما.

كنت أراقبهما وأنا أصغي لكلماتهما دون أن أتكلم. لقد سدت حنجرتي.

أكان من الممكن، إذن، أن يتحول اللهب إلى رماد بهذه السرعة؟ وهل كانت الروح متلاحمة مع اللحم؟ كانا يعرفان مهر كل فتاة، وأين تستطيع أن تأكل أظرف المأكولات louko، وأية حانة تقدم أفضل الخمور.

غادرتهما وأنا طعين. كما لو أنني كنت في جنازة. خطر لي أن الفضائل الثانوية أخطر بكثير من

الرذائل الثانوية. فلولا أن هذين الاثنين يغنيان ويعزفان جيداً لما دعيا إلى الحفلات، ولما سكرا، ولما هدرا وقتيهما، ولأمكن إنقاذهما. ولكن بما أنهما يغنيان جيداً ويعزفان على الغيتار جيداً فقد بدآ الانحدار.

وفي اليوم التالي حين لمحتهما عن بعد غيرت طريقي. لقد خجلت لأن صداقات وأشواقاً عديدة قد تلاشت من أعماقي بهذه السرعة. وتلاشت معها خطط عظيمة عديدة لإنقاذ العالم. لقد هبت الرياح وتعرت نهائياً شجرة الشباب المزدهرة. وتساءلت: أما كان من الممكن أن تحمل شجرة الشباب هذه أية ثمرة؟ أكانت هذه هي الطريقة التي انطلق فيها الأسطول الصغير ليمخر المحيط، ولا ينتهي إلا إلى الغرق في هذا الحوض العائلي؟

رحت أفكر وحدي عبر الأزقة، وأنا أعود مرة بعد الأخرى إلى المرفأ لأستنشق من جديد رائحة الخرنوب والكباد المتعفن. وكنت دائماً أحمل في يدي كتاباً. دانتي أحياناً، وأحيانا أخرى هوميروس. وبينما أنا أقرأ الأشعار الخالدة كنت أشعر أن في وسع الإنسان أن يكون خالياً وأن السطح الغريب للعالم المؤلف من البيوت والناس والمتع والإهانات، تلك الفوضى غير المنسجمة التي ندعوها بالحياة ـ تستطيع أن تتوحد في صيغة منسجمة.

ذهبت ذات يوم إلى بيت الفتاة الإيرلندية. لكنها كانت قد رحلت. ومررت بالمنزل مرة ثانية، وأنا أحس بمرارة وأسى غريبين لما فعلته ولما فشلت في فعله. كان يبدو كما لو أني قد اقترفت جريمة. وها أنا ذا أعود مرة بعد أخرى للدوران حول الضحية. لم أستطع النوم. وذات ليلة بينما كنت أعبر الحي التركي سمعت امرأة، تغني موالا(2) شرقياً بصوت مليء

---

(2) «أماني»، الأغنية التركية التي تردد فيها هذه الكلمة.

Twitter: @ketab_n

بعاطفة حزينة متشنجة. كان الصوت عميقاً وأجشّ وكئيباً ينطلق من حنايا المرأة ويملأ الليل باليأس والسوداوية الحزينة. وحين أحسست أنه من المستحيل علي أن أتابع السير وقفت أنصت ورأسي مائل إلى الجدار. لم أستطع أن ألتقط أنفاسي. ولما لم تعد روحي المختنقة قادرة على التلاؤم مع قفصها الطيني تدلت من قمة رأسي وراحت تتردد في أن تطير أم لا. لا. لم يكن الصدر الأنثوي للمرأة التي تغني مترعاً بالحب. ليس ذلك السر الكلي الذي يزاوج المرأة والرجل، ولا مترعاً بالغبطة ولا بالأمل. بل كان مترعاً بصرخة. بأمر موجه إلينا لكي نحطم قضبان سجوننا المؤلفة من الأخلاق والخجل والأمل. وأن نسلم أنفسنا، وأن نهدر أنفسنا أو نتوحد مع (العاشق) الرهيب المغوي، الذي يكمن منتظرا في الظلام، والذي نسميه اللّه.

وأنا أصغي إلى أغنية المرأة المرتعشة الحزينة في تلك الليلة شعرت أن الحب والموت واللّه متوحدون. أو أنهم شيء واحد. ومع مرور السنوات صرت أكثر وعياً بهذا الثالوث الرهيب الذي يكمن في لجة الهيولى – في اللجة وفي قلوبنا. لم يكن ثالوثاً؛ بل ما كان يسميه أحد المتصوفين الأرثوذكسيين «الجوهر المحارب».

صمتت المغنية فابتعدت عن الجدار. لقد تخلص العالم من عدميته. وثبتت البيوت وانداحت الشوارع أمامي بنعومة مرة أخرى. وصرت قادراً على السير. رحت أتجول طوال الليل. لكن عقلي ظل أخرس. ولم تأتني أية فكرة تخفف من اضطرابي، أو تغير من شكله. تركت جسدي يقودني وتنزهت على الجدران الفينسية فوق البحر. كانت السماء مشعة وكل شيء يتلألأ. وانزاحت مجموعات النجوم منحدرة نحو الغرب. ثم راحت تغيب وروحي تغيب معها. وهبت نسمة باردة جدا من الجبال، ودخلت البيوت من خلال الشقوق المحيطة بالنوافذ، فبرّدت النيام المتعرقين. وكنت أستطيع أن أسمع المدينة وهي تتنفس في الصمت العميق.

مررت، تلك الليلة، ببيت الفتاة الإيرلندية مرة أخرى. كنت قد مشيت ساعات. ودون أن أقصد ذلك أو أعيه وجدت نفسي أدور في دوائر متعارضة قربتني شيئاً فشيئاً من المركز: بيتها. كأن هناك صرخة قد بقيت في ذلك البيت، صرخة رهيبة مؤنبة، كانت تدعوني. ولم أكن أستطيع مقاومتها. وقرابة الفجر، وبينما كنت على وشك الوصول مرة أخرى أمام نوافذها وأبوابها الموصدة، عبرت ذهني ومضة مشعة وأنارته. لم تكن تلك صرخة. بل هي أغنية المرأة الخشنة الكئيبة التي سمعتها ذلك المساء، بينما كنت أعبر الحي التركي. لقد شوهت الأغنية في داخلها وتحولت إلى زعيق حيوان وحيد لا رفيق له وقد ترك مهجوراً.

الأغنية والزعقة الوحشية والصرخة اليائسة من الفتاة الإيرلندية، كلها تحولت إلى أنشوطة حول عنقي وراحت تخنقني. تذكرت قولاً مأثوراً سبق لي أن سمعته من شفتي مسلم عجوز: «إن دعتك امرأة للنوم معها ولم تفعل حلت عليك اللعنة. اللّه لا يغفر ذلك. وستوضع مع

Twitter: @ketab_n

يهوذا في قاع الجحيم»[3]. أرعبني ذلك. وتوجهت مسرعاً إلى البيت، وأنا أتصبب عرقاً بارداً وأترنح كحيوان جريح. نزلت الدرجات على رؤوس أصابعي لئلا تطقطق وتوقظ والدي. ثم ارتميت على فراشي. كنت أرتعش. في لحظة أحس أن جسدي صار كالنار. وفي اللحظة التالية أرتعش برداً. كان من الواضح أن حمى قد أصابتني. وجاءني النوم مثل عنكبوت سام ينسج شبكته من حولي. وحين استيقظت عند ظهر اليوم التالي كنت لا أزال أرتعش.

استمر هذا الألم ثلاثة أيام. لم يكن ألماً بل كان جسماً ثقيلاً في أعماق قلبي. وكان في فمي طعم المرارة، مرارة سامة. و بينما أنا أتطلع من النافذة إلى شجرة الأكاسيا في وسط الدار وإلى العريشة المثقلة بالعناقيد، وأختي تطرز، وأمي تروح وتغدو بصمت مقيدة إلى نير خدمتها المنزلية المقدسة، قفزت الكتلة الثقيلة من قلبي إلى حلقي. كنت أختنق. أحسست كأنني مطرود من الجنة. لا. لست مطروداً. بل كان الأمر كما لو أنني بمحض اختياري قد قفزت من الشرفة السماوية وهربت. تلك الفعلة التي أندم عليها الآن، وأنا أجول دون عزاء خارج البوابات الموصدة.

قفزت من فراشي في اليوم الرابع منذ الصباح الباكر. دون هدف واضح في رأسي، ودون أن أعرف ما سأفعله. فأخذت قلمي وبدأت أكتب.

وتحولت تلك اللحظة إلى منعطف خطير في حياتي. ربما أن ألمي الداخلي في لحظة كهذه في صباح كهذا، كان سيفتح لنفسه باباً ويهرب. ومن يدري؟ (لابد أنني فكرت بذلك ولكن دون أن أصوغه بوضوح). ربما لو أن الألم قد تجسد، ولو أن الكلمات جسدته، لرأيت وجهه. وبرؤيته أتخلص من خوفي منه. لقد اقترفت معصية كبرى. وربما أنني أجد العزاء حين أعترف بهذه المعصية.

لهذا بدأت أحشد الكلمات وأقذف بالقصائد وحكايات القديسين والروايات التي قرأتها. وبالنهب، دون خيار، من هذه وتلك بدأت أكتب. ولكن الكلمات الأولى التي سطرتها على الورق أدهشتني. لم يكن لدي شيء كهذا في ذهني. كنت أرفض أن أكتب شيئاً كهذا. فلمَ كتبته؟ كأني لم أتحرر أبداً من اتصالي الجنسي الأول (رغم أنني كنت متأكداً من تخلصي منه) وقد بدأت أبلور حكاية عن الفتاة الإيرلندية، حكاية مليئة بالعاطفة والتصورات الخيالية. لم يسبق لي أن تحدثت إليها بكلمات لطيفة كهذه. ولم يسبق لي أن أحسست بنشوة كهذه، حين لمستها، مثلما أجد الآن على الورق. كذب، كذبات، غير أنني وأنا أعدد هذه الكذبات، أمامي على الورق بدأت أفهم، لدهشتي، أنني كنت أجد بالفعل متعة كبيرة فيها. أكانت حقيقة فعلاً هذه الكذبات كلها؟ ولِمَ لمْ أكن أعرف بهذه المتعة خلال ممارستي لها؟ ولم وأنا أكتبها أعيها لأول مرة؟

---

(3) هذا الرأي يرد، في ما بعد في رواية «زوربا اليوناني».

Twitter: @ketab_n

صرت أحس بالزهو وأنا أكتب. ألم أكن إلها أفعل ما أشاء. أعيد صياغة الحقيقة وأشكلها كما أحب أن تكون. كما كان يجب أن تكون؟ كنت أجمع بين الكذب والحقيقة جمعاً لا انفصام له. كان كل شيء عجينة أجبلها وأدعكها بحرية حسب ما تمليه الرغبة ودون انتظار الإذن من أحد. من الواضح أن هناك تشككاً أكثر يقيناً من اليقين ذاته. وأحد جوانبه إيجاد قصة كاملة أرفع مستوى من ذلك البناء الواقعي الذي تعمل به الإنسانية باسم الحقيقة.

تلك الفتاة الإيرلندية التافهة المحنية قليلاً صارت شخصية أخرى غير معروفة في كتاباتي وبالنسبة لي، أنا الديك المنتوف، فقد ألصقت بنفسي ريشاً هائلاً متعدد الألوان لم يكن لي بالأصل.

انتهيت خلال أيام قليلة. جمعت المخطوطات وكتبت عليها «الأفعى والليلك» بحروف حمراء بيزنطية ثم نهضت وتوجهت إلى النافذة لاستنشاق الهواء. لم تعد الفتاة الايرلندية تعذبني الآن. غادرتني لكي تستلقي على الورق. ولم يعد في وسعها الانفصال عنه مرة أخرى. لقد نجوت!

كانت الغيوم تغطي السماء. وأصبح الجو معتماً وكانت السماء تمطر. وتلاصقت الأوراق العريضة على الدالية، وصارت العناقيد المكتنزة تتلامع كالزجاج. استنشقت عبير التراب المبلل، ذلك العبير الذي يذكرني دائما بقبر محفور مجدداً. لكن رائحة الموت قد تطهرت. وامتلأ عقلي بشذا عذب.

وجاءت سنونوة مبللة بالمطر والتجأت تحت النافذة. وكان الماء على السطح فوقي يهدل وينقر كرف من الحمام.

كنت لا أزال أمسك بالمخطوطة في يدي وكأنها مخلوق حي صغير لم أكن أريد له أن يهرب مني. وكأنني في قبضتي كنت أمسك بالسنونوة المبللة، أو كأنني قد تصالحت مع الفتاة الإيرلندية. لقد عاد الرماد من جديد إلى تفاحة. وها أنذا أمسك بالتفاحة في يدي.

خرجت إلى الدار ورحت أتمشى جيئة وذهاباً تحت المطر بين أصص الزهور متذوقاً ـ ها هو حقي ـ، المتعة التي تحسها شجرة ظمأى مغبرة حين تشفق عليها السماء ويبدأ المطر بالهطول عليها. كان المطر، دائماً، يمنحني تلك الغبطة التي لا يعبّر عنها. ولولا أنني أخجل لقلت إنها غبطة جنسية.

كنت أحس كما لو أنني الأرض، الأرض العطشى، والعنصر الأنثوي في أعماقي، المرأة المختبئة في أعماق أحشائي تستيقظ وتتلقى السماء كما تتلقى رجلاً. رحت أتمشى جذلاً تحت المطر، لقد تخفف قلبي. ولم أعد أفكر بالصبية الإيرلندية، إلا وأنا أعيد تشكيلها وتجسيدها بالكلمات. لقد بدأت الآن تضطجع لتستلقي على الورق. والحقيقة التي كانت تختزن الألم في قلبي طوال ذلك الوقت لم تكن الحقيقة الواقعية، بل هي تلك المخلوقة المولودة حديثاً من الخيال. فبوساطة الخيال قمت بطمس الحقيقة وأحسست بالخلاص.

Twitter: @ketab_n

هذا الصراع بين الحقيقة والخيال، بين اللّه الخالق وبين الإنسان الخالق، أسكر قلبي للخطة. «ها هو ذا طريقي. وهذا هو واجبي». صرخت بذلك في الدار وأنا أروح وأجيء تحت المطر. إن كل إنسان يكتسب مكانة العدو الذي يصارعه. وقد سرني أن أتصارع مع اللّه حتى لو كان في هذا دماري.

لقد أخذ طيناً وخلق منه العالم. وأنا آخذ كلمات. لقد صنع البشر كما نراهم (يزحفون على الأرض) أما أنا، فبالهواء والخيال، المادة التي تقوم عليها الأحلام، سأشكل بشراً آخرين بأرواح أقوى، بشراً قادرين على مقاومة بلى الزمن. وبينما بشر اللّه يموتون فإن بشري سوف يعيشون!

إنني أخجل الآن وأنا أستعيد هذه الغطرسة الشيطانية. ولكن في ذلك الحين كنت شاباً. وأن تكون شاباً يعني أن تتعهد بإخفاء العالم. وأن تكون لديك وقاحة الرغبة في إقامة عالم جديد وأفضل مكانه.

كان صدري مثقلاً بالألم. وعلى الرغم من أن التساؤلات القديمة قد تكورت بصمت في زاوية، فإن تساؤلات جديدة بدأت تبرز. والطريق الذي أضيء أمامي بغتة كان طريقاً خطراً وشديد الانحدار. كيف ظهر بهذه الفجائية ذلك الطريق الذي لم يكن يخطر لي على بال؟ ومن الذي فتح هذا الباب الداخلي وأشار لي نحوه على أنه البوابة المفترضة للخلاص؟ هل فعل ذلك ألم الحلم الذي لم يتحقق؟ أم أن من الممكن أن يكون القديسون قد فتحوا الباب من الأساطير التي قرأتها وأنا طفل؟ أم فتحته كريت التي، حين رأت أنني لا أستطيع مساعدتها بالقتال، وضعت أسلحة أخرى بين يدي؟

ولكي أحول توجه أفكاري، فإنني في الصباح التالي، وبينما كانت أجراس الأحد تقرع والمسيحيون يتوجهون إلى كنيسة القديس ميناس للصلاة، توجهت إلى معبد آخر. ذهبت أقدم احترامي إلى القديسة كريت التي قامت من تراب كفوسوس العتيق.

إن سر كريت عميق جداً. وكل من يطأ هذه الجزيرة يحس بقوة سرية تتشعب بحرارة وإحسان في أعصابه. أو يحس أن روحه تبدأ في النمو لكن هذا السر صار أعمق وأغنى منذ اكتشاف هذه الحضارة المتعددة الفوائد بشكل هائل، والمتعددة الألوان، والتي كانت حتى ذلك الحين مدفونة تحت التراب، هذه الحضارة المليئة بهذا النبل العظيم والغبطة الفتية.

غادرت المدينة سالكاً الطريق الساحر الذي يؤدي إلى المقبرة الجديدة. سمعت ندباً ونواحاً فأسرعت الخطى. كان هناك تاجر أصيل من جيراننا وواحد من وجهاء ميغالو كاسترو قد مات منذ يومين. وكانوا يدفنونه في المقبرة المحدثة مجدداً. لقد مات شاباً. وبينما كان أصدقاؤه ينقلونه تشبثت زوجته بالتابوت ورفضت أن تتركه. كنت أمر في تلك اللحظة. فحولت وجهي لكي أتجنب رؤية الجثة. ذلك أنني منذ ذلك اليوم الذي كنت فيه في الرابعة من عمري حينما، كما تذكرون، رأيت عظام جارتنا أنيكا تزال من قبرها، صرت عاجزاً عن

Twitter: @ketab_n

رؤية جسد ميت. إن الخوف يهيمن علي. فأنيكا بلا شعر أو عينين أو شفتين تقفز أمامي وتندفع للإمساك بي بغية إجلاسي من جديد على ركبتيها. أنا أعرف، طبعاً، أن هذا ليس حقيقياً. لكنني أعرف أيضاً أن هناك أشياء أكثر حقيقة من الحقيقة نفسها. ولهذا السبب أخاف وأسرع خطاي كلما رأيت جثة.

كنت محاطاً بالكروم وغابات الزيتون. لم يكن القطاف قد بدأ بعد. العناقيد تتدلى مثقلة وتلامس الأرض. والجو تملؤه رائحة أوراق التين. جاءت سيدة عجوز وتوقفت. رفعت أوراق التين التي تغطي السلة التي تحملها على ذراعها وأمسكت حبتي تين وقدمتهما لي.

سألتها: هل تعرفينني يا جدتي؟

نظرت إلي بدهشة وقالت: لايا بني. أعلي أن أعرفك لكي أعطيك شيئاً ما؟ أنت إنسان. أليس كذلك؟ وكذلك أنا. ألا يكفي هذا؟

وضحكت ضحكة شابة عذبة، ثم بدأت تعرج متجهة إلى كاسترو.

كانت التينتان تنقطان عسلاً. أظن أنهما أطيب ما ذقته في حياتي.

لقد أنعشتني كلمات العجوز وأنا آكل. أنت إنسان وكذلك أنا. وهذا يكفي.

وسقط قرب ظلي ظل. التفتُّ فرأيت قساً كاثوليكياً. نظر إلي وابتسم. قال: «الأب مونيير.» وهو يمسك بيده «ألديك ما يمنع من مرافقتي؟ أنا لا أعرف اليونانية الحديثة، أعرف القديمة فقط».

فأكملت بيونانية قديمة (. . . .).

ضحكنا وتابعنا ترجيع الأشعار الخالدة ونحن نسير. وعرفت فيما بعد أن هذا الأب الذي يضحك ويستظهر، وخصلة من الشعر الأشيب تتأرجح على جبهته، كان مشهوراً بورعه وذكائه. فقد نجح في إعادة عدد من الملحدين المشهورين في باريس إلى الرعية. بعقله النير كان يجوب العالم وهو يتحدث ويمازح السيدات، ولكن خلف هذا المظهر الخارجي اللاهي والديناميكي كان المسيح يتدلى مصلوباً كصخرة ثابتة حصينة. لا. ليس المسيح مصلوباً؛ بل المسيح مبعوثاً.

أسرع الحارس لتحيتنا وليشرح لنا عن الموقع. كان كريتياً بسيطاً وفرحاً، يرتدي سروالاً، ويحمل عصاً ضخمة. وكان اسمه داود. لقد تعلم الكثير خلال سنوات خدمته كحارس ودليل في كنوسوس. ولذا صار يتحدث عن القصر كما لو أنه يتحدث عن بيته. وقد استقبلنا كما لو أنه رب البيت. وصار يمشي أمامنا وهو يشير بعصاه ليدل على المواقع: «أمامكم البلاط الملكي العظيم. طوله تسعون متراً. وعرضه تسعة وعشرون متراً. هذه هي المخازن بجِرارها الهائلة المزينة. فيها كان الملك يخزن منتوجاته ليطعم شعبه. وجدنا رسوبات الخمر وزيت الزيتون في الجرار وبذور الزيتون والفاصولياء والحمص والقمح والشعير والعدس. لقد تفحّم كل شيء بسبب النيران الهائلة».

Twitter: @ketab_n

صعدنا إلى المخزن العلوي. من الجهات كافة كانت هناك أعمدة قصيرة وثخينة وملونة بالأسود والأرجواني. رأينا في الممرات رسوماً جدارية من الزهور والتروس والثيران. ووصلنا إلى الشرفة العالية. وامتد من حولنا المشهد المنزلي السعيد. وفي مركز الأفق يوكتاس، رأس زيوس المسترخي. وكان القصر، نصف القائم ونصف المتهدم، يتلامع ببهاء بعد آلاف السنوات مستمتعاً من جديد بشمس كريت المذكرّة. في هذا القصر لا يرى المرء توازن فن العمارة اليوناني. بل هنا يرى الخيال والعظمة واللعب الحر لطاقة الإنسان الخلاقة. لقد نما هذا القصر وتوالد مع مرور الزمن، ببطء وكعضوية حية، كشجرة. لم يُبْنَ نهائياً حسب مخطط ثابت مسبق التصميم، بل نما بالإضافات المتلاعبة والمنسجمة مع الحاجات المتجددة دائماً مع الأيام. لم يقم المنطق الجامد والصارم، هنا، بتوجيه الإنسان. هنا كان العقل مفيداً. ولكن كخادم لسيد. كان السيد شيئاً آخر وشخصاً آخر. أي اسم نستطيع أن نطلقه عليه؟

التفتُّ إلى الأب وبحت له بأفكاري. ثم سألته رأيه. فأجابني بابتسامة: «تريد أن تعرف من كان السيد؟ من تتوقع أن يقول لك عنه قس إلا الله؟ الإله الكريتي هو السيد. كان يسيّر أيديهم وعقولهم. وهم كانوا يبدعون. اللّه هو السيد الباني. وهذا الإله الكريتي كان نبيهاً وعابثا، مثل البحر الذي يعانق الجزيرة. ولهذا ففي المشهد وفي القصر وفي الرسوم والبحر التوحد والانسجام الصحيحان».

نزلنا السلم الحجري. ورحنا نتطلع بصمت إلى الرسوم على الجدران: عجول وزهور ليلك وأسماك في البحر الأزرق، والأسماك الطائرة التي تفتح زعانفها لكي تقفز فوق الأمواج؛ كما لو أن الماء، عنصر الأمومة لها، يقيدها، وهي تتوق لاستنشاق هواء أكثر نقاء. توقفنا على المسرح. وهنا التهب الدليل حماساً. قال ووجهه يتوهج فخراً: «هنا كانت تحدث مصارعة الثيران. لكن مصارعة الثيران الكريتية لم تكن مثل المصارعات الوحشية في أسبانيا. هناك، كما قيل لي، يتم قتل الثور وتنزع أحشاء الخيول. أما هنا فقد كانت المصارعة لعبة دون دماء. كان الثور والإنسان يلعبان معاً. مُصارع الثيران يمسك الثور من قرنيه. ويغضب الحيوان. فيرفع رأسه في الهواء عالياً، مما يعطي المصارع قوة دفع فيقفز بحركة بهلوانية بارعة إلى ظهر الثور. ثم يقوم بحركة بهلوانية أخرى، لينزل وراء ذنب الثور حيث تنتظره صبية لتأخذه بين ذراعيها».

كان الأب يركز نظرته على الصفوف الحجرية للمسرح، وكأنه يجاهد لسحب اللعبة المقدسة مجدداً إلى الضوء. شرحتُ له كلمات الحارس. فأخذني من ذراعي وتابعنا السير. وتمتم لي: «من الصعب أن تلعب مع الإله لعبة غير دموية».

توقفنا قرب عمود مربع من الجص المصقول. كانت على قمته العلامة المقدسة منقوشة: الفأس ذات الحدين. ضم الأب كفيه وحنى ركبتيه لحظة، ثم حرك شفتيه وكأنه يصلي.

Twitter: @ketab_n

استغربت وسألته: ماذا، أتصلي؟

ـ طبعاً أصلي يا صديقي الشاب. كل شعب وكل عصر يمنحه اللّه قِناعه الخاص به. ولكن وراء الأقنعة كلها في كل عصر وفي كل عرق يبقى هو ذاته اللّه الدائم الذي لا يتغير.

صمت قليلاً ثم أضاف: «إن لدينا الصليب شارة مقدسة لنا. وأجدادك الأقدمون كانت لهم الفأس ذات الحدين. لكنني أنحي جانباً هذه الرموز الفانية وأتحسس اللّه وراء الصليب ووراء الفأس ذات الحدين. أتحسسه وأنحني له احتراما».

كنت فتياً جداً في ذلك الحين. لم أفهم في ذلك اليوم. ولكن عقلي استطاع، بعد سنوات، أن يحتوي هذه الكلمات وأن يجعلها تثمر. وعندها رحت، أنا أيضاً، أتحسس الوجه الخالد والأبدي لله، وراء الرموز الدينية. وبعد ذلك، أيضاً، حين توسع عقلي أكثر، وقوي قلبي، بدأت أتحسس شيئاً وراء وجه اللّه: الهيولى، الظلمة الرهيبة غير المسكونة. ودون أن يقصد، قام ذلك الأب في ذلك اليوم في كنوسوس بفتح طريق أمامي. وسلكت ذلك الطريق. غير أني لم أتوقف حيث كان يُشاء لي أن أتوقف. فقد توغلت أكثر، مدفوعاً بفضولي الشيطاني. واكتشفت الهوة.

جلسنا بين عمودين. كانت السماء النارية تتوهج كالفولاذ. وكانت الجنادب على أشجار الزيتون المحيطة بالقصر تصم الآذان. وانحنى الدليل على العمود. أخرج كيس التبغ من تحت حزامه وراح يدرج لفافة. لم ينبس أي منا بكلمة. أحسسنا بقداسة اللحظة والمكان. وعرفنا أن الصمت هو الشيء الملائم الوحيد. وحلقت حمامتان فوق رؤوسنا وحطتا على أحد العمودين. هذان هما الطائران المقدسان للربة العظيمة التي يعبدها الكريتيون. تريان أحياناً على عمود، وأحياناً أخرى تضمهما الربة بين ثدييها الممتلئين بالحليب.

قلت بهدوء: «حمامتان». وكأنني خفت أن تخافا من صوتي وتغادرا العمود. فوضع الأب إصبعه على شفتيه، وهمس: اهدأ.

وعلى الرغم من أن عقلي كان طافحاً بالأسئلة، فإنني لم أتكلم. لقد مرت الصور الجدارية الغريبة أمام ناظري: عينان واسعتان لوزيتان، شلالات من الضفائر السوداء، وصيفات جليلات بنهود عارية، وشفاه مليئة شهوانية وطيور ـ درّج وحجل ـ وقرود زرقاء، وأمراء مزينون بريش الطواويس في شعورهم، وثيران هائجة مقدسة، وكاهنات واهنات لففن الأفاعي المقدسة على أذرعهن، وصبيان زرق في حدائق مزهرة. الغبطة والقوة والثروة: عالم مليء بالغموض، برزت أطلنتس[4] من أعماق التربة الكريتية. وراح هذا العالم يحدق إلينا بعينين كبيرتين سوداوين، لكن شفتيه ظلتا مطبقتين.

---

(4) جزيرة خرافية في المحيط الأطلسي، غربي جبل طارق، زعموا أنها غارت في أعماق المحيط.

Twitter: @ketab_n

أي عالم هذا؟ سألت نفسي. ومتى سيفتح شفتيه ويتكلم؟ وأية أعمال بطولية قام بها هؤلاء الأسلاف على الأرض ذاتها التي نمشي عليها؟

كانت كريت هي الجسر الأول بين أوروبا وآسيا وأفريقيا. وكانت كريت أول مكان مستنير في أوروبا المظلمة في تلك الأيام. وهنا أيضا أنجزت الروح اليونانية رسالتها المقدرة لها: لقد أنزلت اللّه إلى مرتبة الإنسان. وهنا في كريت أيضاً أصبحت النصب الهائلة الراسخة في مصر وآشور صغيرة ومجيدة، بأجساد تتحرك وأفواه تبتسم: وتطابقت ملامح اللّه ومنزلته مع الإنسان ومنزلته. إنسانية جديدة وأصيلة مليئة بالرشاقة والبهاء والترف الشرقي راحت تعيش وتلعب على الأرض الكريتية. إنسانية مختلفة عن اليونانيين الذين جاؤوا في ما بعد.

وفيما أنا أتطلع إلى الهضاب الصغيرة الأليفة، وأشجار الزيتون ذات الأوراق المبعثرة والسرو الممشوق المتأرجح ببطء والنافر من بين الصخور، وفيما أنا أصغي إلى الرنين الخفيف المنغم الصادر عن قطيع غير مرئي من الماعز أستنشق نسيم البحر العذب الذي ينتشر على الهضبة، تغلغل في أعماقي السر اليوناني القديم وتوغل وأصبح، على ما أعتقد، أقل غموضاً. لم يكن هذا السر معنياً بالمشكلات العُلْوية. بل بالمشكلات اليومية بكل تفاصيلها الحارة، وبالمشكلات المستجدة دائماً في حياة الإنسان هنا على الأرض.

سألني الأب: فيم تفكر؟

فأجبته: في كريت.

فقال مرافقي: أنا أيضا كنت أفكر في كريت. كريت وروحي. ولو أنني تمكنت من الولادة من جديد فإنني كنت سأتمنى رؤية الضوء هنا مرة أخرى، على هذه الأرض. هنا يكمن شيء من السحر غير المرئي. هيا بنا نذهب.

نهضنا وألقينا نظرة أخيرة بطيئة الحركة على المشهد الرائع. كنت أرغب أن أراه ثانية، ولكن الأب همس متنهداً: وداعاً. وداعاً للمرة الأخيرة.

ولوح بيده للأعمدة وللباحات الجدارية: وداعاً. من أطراف الأرض جاء راهب كاثوليكي ليؤدي فروض الاحترام لك ولقد أداها. فالوداع.

توجهنا عائدين. ولكن الطريق الحار والمغبر أنهك الأب. فتوقفنا عند دير صغير ينزل فيه دراويش يرقصون كل جمعة. كان الباب ذو القنطرة أخضر وله كف مفتوحة من البرونز ـ الرمز المقدس لمحمد ـ فوق الباب. وخلفه كانت الباحة النظيفة مفروشة بحجارة بيضاء. وكانت هناك أصص الزهور والعرائش على الأطراف وفي الوسط شجرة غار كبيرة مثقلة بالثمر.

وقفنا في ظلها لنلتقط أنفاسنا. ورآنا أحد الدراويش من حجرته. فحيانا وهو يقترب منا واضعاً يده على صدره وشفتيه وجبهته. كان يرتدي ثوباً أزرق طويلاً من الصدف الأبيض.

Twitter: @ketab_n

وكانت لحيته سوداء مؤنقة. وقرط فضي يتدلى من أذنه اليمنى. صفق بيديه. فجاء صبي بدين حافي القدمين. وجلب لنا مقاعد. جلسنا. وتحدث الدرويش عن الزهور التي كنا نراها حولنا، ثم عن البحر الذي كنا نراه يشع من بين أوراق الغار الدقيقة. ثم بدأ يتحدث عن الرقص.

ـ لولا أن الإنسان يستطيع الرقص لما استطاع الصلاة. الملائكة لها أفواه. ولكن تنقصها القدرة على الكلام. ولذا فإنها تحدث اللّه رقصاً.

وسأل الأب: أي اسم تطلقه على اللّه يا أبتي؟

فأجاب الدرويش: ليس لله اسم. إنه أكبر من أن تحتويه الأسماء. الاسم سجن. واللّه حر.

وأصر الأب: ولكن إذا شئت أن تناديه، حين تكون هناك حاجة فأي اسم تستخدم؟

أطرق الدرويش مفكراً، ثم افترّت شفتاه: آه! ـ هكذا أناديه. ليس الله. بل آّه.

وأربك هذا الكلام الأب فتمتم: إنه على حق.

وظهر غلام الدرويش البدين مرة أخرى. ومعه، هذه المرة، صينية فيها قهوة وماء بارد وعنقودان كبيران من العنب. بدأت حمامتان تتناجيان وتهدلان على السطح فوقنا. أكانتا الحمامتين اللتين رأيناهما في كنوسوس؟

وحين صمتنا قليلاً امتلأ الجو الديري بنهدات الحب. التفتُّ نحو الأب. كان يحدق إلى الحمامتين والسماء التي وراءهما وعيناه مترعتان بالدموع.

وأحس أنني أراقبه فقال مبتسماً: العالم جميل. نعم. إنه جميل في بلاد الشمس. حيثما نظرت تجد سماء زرقاء وحماماً وعنباً وغاراً فوق رأسك.

كان يأكل العنب حبة حبة برضى تام. وتستطيع أن تخمن أنه كان يأمل أن هذه اللحظة لن تنتهي. وقال: حتى لو تأكدت من أنني ذاهب إلى الجنة فإنني سأدعو اللّه بأن يجعلني أذهب من أبعد الطرق إليها.

أحسسنا في باحة ذلك الدير الإسلامي بسعادة جعلتنا لا نحتمل الانصراف. وظهر دراويش آخرون من الحجرات المحيطة. كان للأصغر بينهم وجوه صفراء وعيون متقدة. كانوا يبدون في سعي يائس نحو الله. أما الكبار، الذين لابد أنهم وجدوا الله، فقد كانت وجناتهم محمرة، وعيونهم مليئة بالنور. فرقصوا من حولنا. وأخرج بعضهم السبحات من تحت الأحزمة الجلدية. وبدأوا يسبحون بهدوء، وهم يحدقون بفضول إلى الراهب المسيحي. بينما أخرج آخرون الشبق الطويل، وبدأوا يدخنون بعيون نصف مغمضة وبصمت وارتياح.

وهمس الأب: أية سعادة هذه! وبأي بهاء يشع وجه اللّه هنا أيضا من وراء هذه الوجوه كلها. ولمس كتفي متوسلا: رجاء. إن للدراويش نظاماً دينياً فاسألهم عن قواعدهم.

Twitter: @ketab_n

ووضع أكبرهم سناً الشبق على ركبته، وهو عجوز بلحية طويلة بيضاء، وقال: الفقر. الفقر: أن لا تملك شيئاً. وأن لا تثقل نفسك بشيء. وأن تسير إلى اللّه عبر ممر مزهر. الضحك والرقص والغبطة هي ملائكة الهداية التي تأخذ بأيدينا وتقود خطانا.

والتفت الأب إلي من جديد: اسألهم كيف يستعدون للظهور أمام اللّه؟ بالصيام؟

ـ «لا. لا». أجاب درويش وهو يضحك. نحن نأكل ونشرب ونشكر اللّه على أن منح الإنسان الطعام والشراب.

وأصر الأب: «كيف إذن؟»

وأجاب الدرويش العجوز ذو اللحية الطويلة البيضاء: بالرقص.

ـ «بالرقص؟» قال الأب. «لماذا؟»

ـ لأن الرقص يقتل الذات. وبمجرد أن تقتل الذات لا يبقى أي عائق يمنعك من الاتصال باللّه.

وأبرقت عينا الأب، وهتف وهو يشد على يد الدرويش: إنه نظام القديس فرانسيس. هذا بالضبط ما كان يفعله القديس فرانسيس. كان يرقص في طريقه عبر الأرض، وهو يصعد إلى السماء. و قد اعتاد أن يقول «وما نحن إلا مهرجين لله. ولدنا لنلطف قلوب الناس ونزرع فيها السرور». وهكذا فإنك ترى يا صديقي الشاب، مرة أخرى ـ ودائماً دائماً وجه اللّه الذي لا يتغير.

وتجرأت على الاحتجاج: ولكن في هذه الحالة لماذا تذهب البعثات إلى أرجاء الأرض كلها وتحاول أن تجعل سكانها ينكرون قناع اللّه الذي يناسبهم من أجل أن يضعوا قناعاً أجنبياً ـ قناعاً ـ مكانه؟

ونهض الأب وقال: أجد الإجابة على هذا السؤال صعبة. إن شاء اللّه ستأتي إلى باريس لإكمال دراستك. فزرني في بيتي. ثم ابتسم بدهاء.

ـ ربما حتى ذلك الحين أكون قد وجدت الجواب.

ودعنا الدراويش. ورافقونا إلى الباب الخارجي بالبسمات والانحناءات، وهم يلمسون مرة أخرى الصدر والفم والجبين.

وعلى العتبة قال لي الأب: قل لهم، أرجوك، إننا جميعاً نعبد اللّه ذاته. قل لهم إنني درويش في ثوب أسود.

Twitter: @ketab_n

17

الحج عبر اليونان

وعدني والدي بسنة من الترحال إلى حيث أريد إذا تخرجت بمرتبة الشرف العليا. كانت المكافأة عظيمة. فانهمكت بكياني كله، قلباً وروحا، في الدراسة. وكان أحد أصدقائي، وهو كريتي بارع وشيطاني، سيقدم امتحاناته معي. وجاء اليوم الحاسم. فذهبنا معاً إلى الجامعة، وكل منا في غاية القلق والتوتر. كنت أعرف كل شيء. كما كنت قد نسيت كل شيء. كانت ذاكرتي خاوية وكنت خائفاً. وسألني صديقي: هل تذكر شيئًا؟

ـ لا شيء.

ـ ولا أنا. دعنا نذهب إلى حانة البيرة ونشرب حتى نسكر ونحل لساننا. هكذا كان والدي، يذهب إلى الحرب ـ سكران.

ـ هيا بنا.

شربنا، ثم شربنا أكثر، وبدأنا نشعر بالسعادة. وسألني صديقي:

ـ كيف يبدو العالم لك؟

. مزدوجاً . .

وأنا أيضاً. أتستطيع المشي؟

نهضت وسرت عدة خطوات ثم أجبته: نعم.

فلنذهب إذن. القانون الروماني ـ ارتجف!

انطلقنا متشابكي الذراعين في البداية. ثم استمد كل منا شجاعته، وسار وحده وعلى قدميه. وصرخت: هيه.يا باخوس يا سندي. أمسك جوستينيان وروواياته المسكة المطرقية[1] القديمة وألقه على الأرض. وسألني صديقي: لم تدعو باخوس؟ لقد شربنا البيرة ولم نشرب خمراً.

---

(1) نوع من المصارعة تلوى فيها يد الخصم خلف ظهره.

Twitter: @ketab_n

ـ متأكد؟

ـ ألا تصدقني؟ فلنرجع ونسأل.

ورجعنا. فأكد لنا صاحب الحانة: «بيرة. بيرة»، وهو يسند خاصرتيه من الضحك: إلى أين تتجهان أيها السيدان؟

ـ لتقديم الفحص في مادة القانون.

ـ انتظرا. سآتي معكما لكي أضحك.

نزع عنه صدريته وتبعنا. كان الأساتذة ينتظروننا، وهم متوجون في صف واحد. فبدوا أشبه بأسراب البعوض. كان دماغانا يتوهجان. وبحيوية هائلة أجبنا على أسئلتهم. أجبنا عليها بلا مبالاة فيها شيء من الوقاحة مازجين فيها الآيات اللاتينية بترديد عال. كان لسانانا يتحركان دون توقف. وخرج كل منا بأعلى درجات الشرف.

سررنا جداً. وخطط صديقي أن يفتح مكتباً للمحاماة في كريت وأن يدخل قسم السياسة. بينما أنا كنت مبتهجاً لأن هناك باباً للنجاة قد فتح لي. لقد كانت إحدى أهم رغباتي، طوال عمري، هي السفر ـ أن أرى وألامس البلدان المجهولة، وأن أسبح في البحار المجهولة، وأن أدور حول العالم متفرجاً على أراض وبحار وشعوب وأفكار جديدة بشهية لا تعرف الاكتفاء، وأن أرى كل شيء لأول مرة ولآخر مرة، ملقياً نظرة بطيئة وطويلة. ثم أغمض عيني وأحس بالغنى يترسب في داخلي بهدوء أو بشكل عاصف، حسبما يشاء، إلى أن يبدد الزمن أخيراً عبر منخله الجميل مصفياً الجوهر وحده من كل المسرات والأحزان. إن كيمياء القلب، كما أعتقد، هي الغبطة العظيمة التي يستحقها الناس كلهم.

الكناري الذي قدمه لي والدي كهدية في رأس السنة، حين كنت طفلاً، كان قد صار جثة منذ سنوات، لا. لم «يصر جثة» ـ إنني أخجل لأن هذا التعبير قد أفلت مني ـ بل «رحل». هذا ما عنيت قوله: رحل، مثل إنسان. بل الأفضل القول إنه «قد أسلم أغنيته إلى الله». لقد دفناه في حديقة دارنا. وبكت أختي. لكنني ظللت هادئاً، لأنني كنت أعرف أنني، طالما أنا حي، لن أسمح له بالفناء «لن أسمح لك أن تفنى». همست له وأنا أغطيه بالتراب. «سنعيش ونسافر معاً».

وحين كبرت وغادرت كريت، وتجولت في الأرض، كنت أحس دائماً أن هذا الكناري متعلق برأسي وهو يزقزق ـ مردداً في زقزقته اللازمة المتميزة: «فلننهض ولنرحل. لم نحن هنا؟ نحن عصفوران ولسنا محارتين. فلننهض ولنرحل». لقد تحول رأسي إلى كرة أرضية. والكناري متمسك بقطبها رافعاً عقيرته الحارة بالغناء نحو السماء.

كنت قد سمعت أنه في الزمن القديم كانت تقف المحظيات في «الحريم» كل مساء في صف واحد في الحديقة مستحمات ومتعطرات، ونهودهن مكشوفة. وأن السلطان كان ينزل

Twitter: @ketab_n

إليهن ليختار. وكان يمسك في يده منديلاً يضعه تحت إبط كل منهن ثم يشمه. وكان يختار لذلك المساء تلك التي تسره رائحتها.

وكان الأمر شبيهاً بذلك معي حين كنت أرى البلدان المختلفة مصفوفة أمامي كالمحظيات.

جلت بنظري على الخريطة بسرعة وحيوية. إلى أين أذهب؟ أية قارة وأي محيط سأرى أولاً؟ كانت البلدان كلها تمد أذرعها إلي وتدعوني إليها. العالم واسع، والحمد الله ـ وليقل الكسالى ما شاؤوا ـ لكن حياة الإنسان واسعة أيضاً. سيكون لدينا الوقت لرؤية البلدان كلها والتمتع بها.

فلم لا نبدأ باليونان!

* * *

دام حجي في اليونان ثلاثة أشهر. وحتى الآن، بعد هذه السنوات العديدة، يخفق قلبي سعيداً ومضطرباً كلما تذكرت الجبال والجزر والقرى والأديرة والشواطئ. إنها لمتعة كبيرة أن تجوب اليونان وأن تراها. متعة كبيرة وحزن.

جبت اليونان. وبدأت، بالتدريج، أرى بعينيّ وألمس بيديّ ذلك الشيء الذي لا يستطيع الفكر المجرد أن يراه أو يلمسه: الوسيلة التي يتحد بها البهاء والقوة. وإنني أشك أن عنصري الكمال، آريس وأفروديات[2]، قد سبق لهما أن اتحدا بهذه الأصالة في أي جزء آخر من العالم. اتحدا بهذه الأصالة، كما هما متحدان في أرض اليونان القاحلة الباسمة أبداً. بعض مناطقها قاسية ومتغطرسة ومناطق أخرى مليئة باللطف الأنثوي وأخرى جادة وفي الوقت ذاته مرحة وبهية. لكن الروح مرت عليها كلها. ومن خلال معبد أو أسطورة أو بطل منحت لكل منها نفساً خاصة وملائمة. ولهذا فإن أي امرئ يتجول في اليونان، وتكون لديه عينان يرى بهما وعقل يفكر به، فإنه يتجول في توحد سحري لا ينفصم من نصر روحي إلى آخر. في اليونان يتأكد المرء من حقيقة أن الروح هي الاستمرار وهي زهرة المادة والأسطورة. وهي التعبير البسيط والمركب عن الواقع الحقيقي. لقد سارت الروح على حجارة اليونان سنوات وسنوات. وأينما ذهبت فإنك تكتشف آثار خطاها الإلهية.

للعديد من المناطق في اليونان طبيعة مزدوجة. وللانتقال الذي ينبع منها طبيعة مزدوجة أيضاً. القسوة واللطف يقفان جنباً إلى جنب. ويكمل كل منهما الآخر ويتزاوجان كرجل وامرأة. أسبارطة هي النموذج للقسوة واللطف. ينتصب أمامك تايمجيتوس المشرع القاسي والمتعالي، المليء بالمنحدرات الصخرية والجروف، بينما يمتد تحتك السهل المغوي

(2) آريس إله الحرب. وأفروديات إلهة الحب والجمال. ومن زواجهما ولدت هارمونيا التي تعني التوافق والانسجام.

Twitter: @ketab_n

والمثمر كامرأة في حالة حب. من الجهة الأولى تايجيتوس، جبيل سيناء اليوناني، حيث الإله القاسي للشعب يملي الوصايا الشديدة الصرامة: الحياة حرب، والعالم ساحة قتال. وواجبك الوحيد هو الانتصار. لا تنم. لا تتزين. لا تضحك. لا تتكلم. هدفك الوحيد في الحياة هو القتال. ولهذا قاتِلْ. ومن جهة أخرى وعلى سفح تايجيتوس ـ هيلين، وما إن تبدأ بالتوحش وبازدراء متع الأرض حتى يأتي نفس هيلين بغتة، كشجرة ليمون مزهرة، ويجعل عقلك مضطرباً.

كنت أتساءل: هل هذا السهل الأسبارطي فعلاً لطيف وشهواني إلى هذا الحد؟ وهل شذا الدفلى فيه فعلاً مدوخ بهذا القدر؟ ـ أم أن هذا السحر يبرز، ربما، من جسد هيلين الجوّاب والمغطى بالقبل؟ لا شك أن أيوروتاس لم يكن ليمتلك بهاءه المغوي الحالي لو لم يجر كرافد في أسطورة هيلين الخالدة.

فالأرض والبحار والأنهار، كما نعرف جيداً، ترتبط بأسماء عظيمة ومحببة. وتلازمها هذه الأسماء أبدياً دون انفصام. ثم تجري في قلوبنا. سر على ضفاف اليوروتاس المنخفضة، وستشعر أن يدك وشعرك وأفكارك قد تشابكت في عبير امرأة خيالية؛ لكنها أكثر حقيقية وواقعية من المرأة التي تحبها وتلمسها. إن العالم يغرق اليوم في الدم. والعواطف تضطرم في جحيمنا الفوضوي الحالي. لكن هيلين، خالدةً ونظيفةً، تقف راسخة في جو أشعارها المتميزة، بينما الزمن يمر من أمامها.

كانت الأرض عبقة، وقطرات الندى متعلقة على أزهار الليمون وهي تتماوج تحت أشعة الشمس. وبغتة يهب نسيم لطيف، وتسقط على جبيني زهرة ترشني بالندى. وتمر بي رعشة كما لو أن يداً خفية قد مستني. كانت الأرض كلها تبدو مثل هيلين المستحمة الضاحكة الباكية. تزيح حجبها المزدانة بزهور الليمون، ويدها على فمها، وعذريتها متجددة دائماً وهي تلحق برجل، أقوى رجل يمكن أن يوجد. وحينما رفعت ساقيها، بالكاحلين الأبيضين كالثلج، التمع باطن قدميها مضرجاً بالدم.

ما الذي كانت هذه الهيلين ستؤول إليه لو لم يمر عليها نفس هوميروس؟ مجرد امرأة جميلة مثل أخريات لا يحصى عددهن، مررن على هذه الأرض ثم فنين. وكانت ستُختطف مثلما تُختطف الفتيات الجميلات في قرانا الجبلية حتى الآن. وحتى لو أدى هذا الاختطاف إلى إشعال حرب، فإن أي شيء ـ الحرب والمرأة والمذبحة ـ كان سيتلاشى ويفنى لو أن الشاعر لم يمد يده لإنقاذه. إن هيلين مدينة بخلاصها (وخلودها) للشاعر. وهذا المجرى النهري الصغير، يوروتاس، يدين بخلوده إلى هوميروس. وابتسامة هيلين تلون الجو الأسبارطي كله. ولكن حتى ما هو أبعد من ذلك. إنها قد تغلغلت إلى مجرى الدماء فينا. وكل إنسان قد شارك فيها بالتتالي. وإلى يومنا هذا لا تزال كل امرأة تعكس فتنتها. لقد

Twitter: @ketab_n

أصبحت هيلين صرخة حب. إنها تتجاوز البلدان وتوقظ في كل رجل التوق إلى التقبيل والقتل. وتحول كل امرأة نضمها إلى صدورنا، حتى أكثرهن ابتذالاً، إلى هيلين.

وبفضل هذه الملكة الأسبارطية فإن الرغبة الجنسية تتخذ لنفسها أسماء رفيعة من النبل. والنوستالجيا السرية لعناق ما هو مفقود يحلّي ويلطّف الجانب الوحشي فينا. وحين نبكي أو نصرخ، فإن هيلين تلقي قيثارة سحرية في الجرعة المرة التي نتجرعها. فننسى ألمنا نهائياً. وبيدها تمسك زهرة يطرد عبيرها الثعابين. بلمستها يستحيل الأطفال البشعون إلى أطفال جميلين. وهي تفسخ عنزة الطقوس الباخوسية العريقة وتهز قدمها ذات الحذاء المربوط، فيستحيل العالم كله إلى كرم. ذات يوم حين تلفظ الشاعر القديم ستيزيكوروس stesichorus بكلمة غير لائقة في حقها في أحد أناشيده أصيب بالعمى على الفور. فأمسك الشاعر بقيثارته ووقف أمام الإغريق في حقل كبير وهو يرتجف نادماً وغنى قصيدته التراجعية[3] الشهيرة:

ما قلته عنك ليس صحيحاً يا هيلين،

فأنت لم تعتلي السفن السريعة

ولم تصلي إلى أسوار طروادة

ثم بكى وهو يرفع يده. فنزل النور، ممتزجاً بالدموع، إلى عينيه.

كان أسلافنا يعقدون مباريات «هيلينيا Heleneia» للجمال على شرفها. لا شك أن الأرض حلبة صراع. وهيلين هي الإنجاز الذي لا يمكن تحقيقه، إنجاز ما بعد الحياة. وربما كان غير موجود. ربما كان مجرد خيال. في أحد المذاهب السرية يتقلص التراث إلى تلقين أن الآخيين لم يحاربوا عند طروادة من أجل هيلين الحقيقية. بل إن صورتها فقط اكتشفت في طروادة، وأن هيلين الحقيقية قد التجأت إلى مصر واختبأت في معبد مقدس. وبقيت هناك دون أن يمسها نفس بشري. ومن يدري ـ ربما كنا نحارب نحن أيضاً، ويبكي كل منا الآخر هنا على الأرض من أجل صورة هيلين فقط. ولكن من جهة أخرى؛ من يدري؟ (إن الظلال في هيدس قد عادت إلى الحياة حينما شربت دم إنسان حي) ـ بكل هذه الدماء التي شربها ظل هيلين عبر آلاف السنين ربما صارت عاجزة عن العودة إلى الحياة.

هذا ما أسأل نفسي عنه. وأتساءل إن لم يكن الظل سوف يندمج بلحمه على نحو مفاجئ، فيساعدنا بذلك على أن نعانق ذات يوم الجسد الحقيقي الحار ذاته لهيلين الحقيقية؟!

تايجيتوس هو المحارب القاسي. وهيلين زوجته. وحين استنشقت عبير هيلين من بين دفلى أيوروتاس نسيت نفسي. أحسست بالخجل. ومن أجل استنشاق هواء رجولة انطلقت ذات صباح لتسلق تايجيتوس.

---

(3) القصيدة التراجعية هي القصيدة الاعتذارية التي يعلن فيها الشاعر تراجعه عن موقف سابق معروف عنه.

Twitter: @ketab_n

بهجة الجبل وعبق الصنوبر والصخور النارية والصقور المحلقة فوقي والعزلة المنيعة. هذه الأمور كلها أعادت القوة إلى قلبي. ظللت أتسلق سعيداً ساعات عديدة. وقبيل الظهر تجمعت غيوم سوداء فوقي. وجاء هزيم كتيم من الرعد. فعدت راكضاً، وأنا أشعر بالعاصفة تتبعني. رحت أقفز من حجر إلى حجر، وأنا أسابقها وأنافسها لكي لا تلحق بي. ولكن بغتة اهتزت أشجار الصنوبر وأظلمت الدنيا وحوصرت بومضات البرق. لقد لحقت بي العاصفة. غمرت وجهي بالأرض لكي لا أسقط. وأغمضت عيني، ورحت أنتظر. راح الجبل كله يهتز. وإلى جواري انقصفت شجرتا صنوبر، وتهاوتا ترعدان في انحدارهما. صرت أشم رائحة الكبريت في الهواء. وبغتة هجم السيل. هدأت الريح وراحت عقود هائلة من الماء تنسكب من السماء. بدأ الصعتر والندغ والقصعين والنعناع بإطلاق الروائح تحت وقع المطر. وبدأ الجبل كله يطلق بخاراً.

نهضت واستأنفت نزولي مسروراً بالماء الذي ينهمر على وجهي وشعري ويدي. كان زيوس الهابط zeus the descender يسقط بكل قوته على الأرض، زوجته المختنقة التي تفتحت بضحكة مجلجلة لتتلقى المياه الذكورية.

وسرعان ما صفت السماء. لقد كانت العاصفة هبوطاً عنيفاً للروح القدس. والآن انتهى هذا الهبوط. كما بدأ الكوكو بالإعلان. وفي اللحظة ذاتها غابت الشمس. وفي الوادي البعيد تحتي لمحت الخرائب المستحمة للقلعة الفرانكية فيليهاردوينز على قمة هضبتها فوق ميسترا. وتحولت السماء كلها إلى ذهبية وخضراء. وفي اليوم الثاني ذهبت كحاج عبر البساتين وغابات السرو إلى ميسترا، بومباي الإغريق. تمتلك هذه الهضبة المقدسة، مسقط رأس اليونان الحديثة، كل المفاتن الظاهرة والسرية التي تلزم لإغواء أقوى الأرواح: أشجار الليمون والبرتقال، والأزقة الضيقة الملتوية، والأطفال، أنصاف عراة، يلعبون في الشوارع، والنساء الذاهبات لجلب الماء، والفتيات الجالسات تحت الأشجار المزهرة وهن يطرزن. لقد عادت الحياة للتشبث بهذه التربة من جديد. وهي تجهد للعودة إلى تسلق الهضبة العريقة كلها. هذه أول منطقة في ميسترا، المنطقة الخضراء والمسكونة. بعد قليل يبدأ الصعود المغبر والقاحل، وبالمسير بين البيوت المتقوضة تصل إلى الكنائس البيزنطية الفاتنة المقمرة بالشمس: بيريفليبتوس. ميتروبولي، آغيوي تيودوروي، أفينديكو وبانداناسا. هذه هي المنطقة الثانية في ميسترا. وهي مكتظة بالكنائس.

عطشت. فدخلت دير بانداناسا لأطلب من الراهبات كأس ماء. كانت الباحة مضاءة، والغرف مبيضة ونظيفة، والأرائك مغطاة بأستار صوفية ملونة. أسرعت الراهبات لاستقبالي. كان بعضهن شابات، وأخريات متيبسات بالروماتيزم. وكلهن شديدات الشحوب. لأن عليهن العمل بجدية وقسوة لكي يعشن. إنهن يسهرن ويصلين. ولا يحصلن على طعام يكفي لتهدئة جوعهن. وحين تكون لديهن ساعة فراغ، فإنهن ينكببن فيها على عملهن اليدوي لتطريز رسوم

Twitter: @ketab_n

تقليدية: زهور حمراء بخيطان حريرية حمراء، وصلبان وأديرة وأصص مليئة بالقرنفل وأشجار سرو صغيرة. وحين يقمن بعرض هذه المطرزات أمامك بفخر، يستولي عليك الحزن؛ وكأنهن يعرضن أمامك مهورهن. يبتسمن ولا يقلن شيئاً. ولكنك تعرف أن العريس غير موجود.

كانت بانداناسا تلتمع في الشفق الأخضر العسلي، مثل جن بيزنطي من العاج، مشغول بالأناة والحب لتعبئته بأنفاس العذراء الحلوة والدافئة. أية وحدة وأي تركيز وأي بهاء تمتلك هذه الكنيسة! ابتداء من حجر الزاوية في الأساس إلى الانحناءات الشهوانية في القبة. كان المعبد الساحر كله يحيا ويتنفس بسلام مثل كائن حار وحيواني. الحجارة كلها والنقوش والرسوم والراهبات تتواجد مثل قوائم عضوية لهذا الدير. وكأنها كلها، ذات ظهيرة، قد ولدت في وقت واحد، ومن الرعشة التناسلية ذاتها.

لم أتوقع أبداً أن أجد نعومة كهذه وفهما إنسانياً دافئاً كهذا في الرسوم البيزنطية. قبل ذلك لم أكن أرى سوى الأشكال القاسية والمتقشفة ممسكة برفوف مغطاة بحروف حمراء تدعونا لاحتقار الطبيعة والهرب إلى الصحراء، وإلى الموت من أجل الخلاص. ولكن هنا أرى ألواناً زاهية ووجوهاً فيها الحد الأقصى من الحلاوة. المسيح يدخل القدس على حيوانه المتواضع لطيفاً ومبتسماً، والتلاميذ يتبعونه بسعف النخيل. والناس يحدقون إليهم بأعين مغتبطة كما يحدقون إلى غيمة عابرة تمر وتتلاشى. كان الملاك الذي رأيته في إفنديكو، ذلك القوي الجميل بلونه الأخضر المستمد من النحاس المتأكسد، وبشعره الأجعد المربوط بشريطة كبيرة، وبخطوته النابضة وركبتيه القويتين المدورتين، يشبه عريساً يتقدم. ولكن إلى أين يتقدم بهذه السرعة وهذه الغبطة؟

في هذه اللحظة بدأت الأجراس تدق بنعومة وحلاوة معلنة عشية الجمعة الحزينة. دخلت إلى مدخل الكنيسة الدافئ والمقبي[4]. في الوسط. كانت هناك الابيتافيوس[5] مغطاة بأزهار الليمون والظلة الضريحية. وعلى أزهار الليمون كان يستلقي ميتاً، (هو) ذلك الذي يموت دائماً ويبعث دائماً. سمي مرة أدونيس. والآن يسمى المسيح. كانت النساء الشاحبات المتشحات بالسواد راكعات من حوله منحنيات عليه يندبنه. وكانت رائحة الشمع تملأ الكنيسة وتجعلها أشبه بخلية النحل. فكرت بالراهبات الأخريات، «الميليسيات»[6] في أرتميس[7] معبد أفيزيان، وفي معبد أبولو في دلفي المبني من الشمع والريش.

---

(4) مسقوف بقبة.

(5) أزهار تمثل المسيح ممدداً في القبر، توضع في الكنيسة يوم الجمعة الحزينة.

(6) نسبة إلى ابنتي أدراستيا وأدا، اللتين ربتا زيوس عند تخفيه في طفولته.

(7) أرتيميس ربة الخصب التي لها معبد في أفيزيوس.

Twitter: @ketab_n

وبغتة انفجر نحيب النساء في ترنيمة لا تحتمل وبقوة كبيرة. كنت أعرف أن المعاناة الإنسانية هي القوة التي ستبعث الله. أما هنا، في مملكة هيلين، فإن قلبي لم يكن متهيئاً أبداً للنحيب. لم تكن الظلمة قد حلت بعد. فنهضت واستأنفت صعود الهضبة ببيوتها الخربة وأبراجها الممتدة على الأرض، وكما لو أنها تاج حجري على القمة كانت قلعة فليهاردوينز الشهيرة. البوابة الكبيرة المحصنة مفتوحة والباحات خالية. صعدت الدرج المكسر ووصلت إلى الشرفة فجعلت مجموعة من الغربان تطير وقد فوجئت بي. نظرت إلى السهل الخصب الممتد تحتي، وإلى الدخان الذي يتصاعد من الأكواخ الواطئة. كنت أستطيع سماع قرقعة عربة وأغنية مليئة بالعاطفة. وأطلق الجو المحيط بي تنهيدة. كانت الأشباح تملأ الهواء. نهضت بنات السادة الفرنكيين الشقراوات من القبر. ونهض معهن الفرسان المدججون بالسلاح، الذين جاؤوا إلى بيلوبونيسوس بهيئة فاتحين وتزوجوا فتيات إغريقيات. فتمازجوا مع الدم الإغريقي ونسوا مسقط رؤوسهم. وبفضل نسائنا ذوات البشرات السوداء وشعورهن السوداء الغامقة وعيونهن الواسعة تم التغلب على المنتصرين.

بعد أيام قليلة استمتعت بمنظر آخر. تعبر مجرى نهر جاف مظلل بأشجار الدلب ومطرز بالصفصاف، وتتسلق جبلاً أجرد تفوح منه روائح الصعتر والندغ، خالياً من القرى والناس والماعز والغنم ـ مهجوراً تماماً. وبغتة وراء عطفة في التضاريس يلوح لك مفاجئاً معبد أبولو الشهير في باساي في قلب بيلوبونيسوس. إنه مبني من الحجارة الرمادية ذاتها التي تشكل الجبل. وما إن تواجهه حتى تحس بالتواصل العميق القائم بين المعبد والموقع. يبدو كأنه قطعة من الجبل، صخرة من صخوره، محشور دون تمييز بين منحدراته. هو نفسه جرف، لكنه الجرف الذي مرت فوقه الروح. وأعمدة هذا المعبد، بنقوشها وموقعها، تعبر عن الجوهر الفعلي لهذه القسوة وهذه الوحشة. كان يبدو كما لو أن المعبد هو جمجمة المشهد المحيط به، أو دائرة الاستحكام المقدسة التي يحتمي داخلها الفناء. ويقوم العقل بدور الحارس اليقظ. هنا تبرز فنية الأقدمين مستمرة ومعبرة عن المشهد بكماله. ولا تجعلك تشهق دهشة. بل ترفعك إلى القمة في طريق بشري، بلطف وبراعة بحيث لا يضيق نفسك. إنما يمكنك القول إن الجبل كله كان يتوق، منذ دهور، في أعماق جسده القائم، لأن يجد التعبير عن نفسه. وفي اللحظة التي حصل فيها على معبد أبولو ارتاح. ارتاح ـ أو بمعنى آخر توصل إلى معنى، معنى خاص به وفرح.

كل يوم، وأنا أسير على الأرض اليونانية، كنت أزداد إدراكا أن الحضارة الإغريقية القديمة لم تكن زهرة (فوق طبيعية) معلقة في الفراغ. بل كانت شجرة مدت جذورها عميقة في الأرض. وامتصت الطين ثم حولت هذا الطين إلى أزهار. وكلما أكثرت من امتصاص الطين كان إزهارها أكثر غنى وإتقاناً. إن بساطة الأقدمين الغنية وموازنتهم للأمور وصفاءهم لم تكن فضائل طبيعية تم التوصل إليها بسهولة ويسر من قبل شعب متزن وبسيط. بل هي مآثر

Twitter: @ketab_n

صعبة ونتائج سعي مؤلم وخطر. الصفاء اليوناني هو صفاء سحري ومعقد. وهو الموازنة بين القوى المتناقضة بشدة، بعد تعب شديد وكفاح طويل تم التوصل إلى السلام والوئام فيما بينها. ووصلت إلى النقطة التي وصفها صوفي بيزنطي بالتلقائية effortlessness (اللاجهد)، وبمعنى آخر إنها قمة الجهد.

والعامل الذي جعل جبال اليونان وقراها وتربتها ألقة بهذا المقدار هو الضوء. الضوء في إيطاليا ناعم وأنثوي. وفي أيونيا لطيف جداً ومليء بالتوق الشرقي. وفي مصر كثيف وحسي. أما في اليونان فالضوء روحاني خالص. لقد نجح الإنسان، بقدرته على الرؤية الواضحة في هذا الضوء، في فرض النظام على الفوضى، وفي إقامة «كون منظم» cosmos ـ والكون يعني التناغم.

ظهرت سيدة صغيرة الجسم وطاعنة في السن من كوخ الحارس القريب من المعبد. كانت تمسك بتينتين وعنقود من العنب في يدها. كانت أول ما نضج في هذا السهل المرتفع. وهي راغبة في تقديمها إلي كهدية. كانت عجوزاً نحيلة وعذبة. ولا شك أنها كانت تشع بهاء في صباها. سألتها: ما اسمك؟

ـ ماريا.

ولكنها حين رأتني أمسك قلمي لأسجل اسمها مدت يدها المجعدة لتوقفني. وقالت بدلع فتي «ماريتسا». فطالما أن اسمها سيخلد بالكتابة فقد كانت تبدو راغبة في إنقاذ اسمها الآخر: اسم الدلع. فهو سيوقظ أحلى اللحظات في ذاكرتها. «ماريتسا»، كررت الاسم وكأنها خافت أن لا أكون قد سمعته.

كنت سعيدا أن أرى الأنوثة الأبدية عميقة الجذور حتى في أكثر الأجساد تداعياً. وسألتها: ما هذا الذي حولنا؟

ـ ألا ترى؟ حجارة.

ـ ولم يأتي الناس من أطراف الأرض لرؤيتها؟

ترددت العجوز لحظة، ثم سألتني وهي تخفض صوتها: «أأنت اجنبي؟».

ـ لا. يوناني.

فهزت كتفيها متشجعة، وهتفت: «الأجانب بلهاء». ثم انفجرت بالضحك.

لم تكن هذه المرة الأولى التي أرى فيها هؤلاء العجائز، اللواتي يرعين المعابد القديمة والكنائس الشهيرة، التي تحتوي على الأيقونات المتقنة الصنع، وهن يضحكن ساخرات من القديسين، أو من القديسين الرخاميين القدامى الذين يحرسنهم. إنهن يعاشرنهم يومياً. ولا بد أن تولد الإلفة الاستهتار.

Twitter: @ketab_n

كانت ماريتسا العجوز تراقبني بارتياح وأنا آكل من العنب الحامض اللذيذ الذي أعطتني إياه. وسألتها وأنا أحاول إثارتها: وما هو رأيك في السياسة؟

أجابتني بكبرياء مفاجئة: إيه يا ولدي. نحن هنا على علو كبير، منعزلان عن العالم ولا نسمع عربدته.

«نحن» ـ وكانت تعني «أنا والمعبد». وقد لفظت كلمة «منعزلان» بلهجة متعالية تحمل معنى «أسمى». سررت. فإشارة هذه العجوز قد أفعمت قلبي بالسرور أكثر مما فعل المعبد.

رحت أتمشى جيئة وذهاباً تحت الأعمدة. كان المطر قد هطل منذ يومين. ولا تزال برك الماء هادئة وصافية في تجاويف الرخام المكسور. انحنيت فوقها، فرأيت الغيوم البيضاء الخفيفة تعبر كالأشباح سطح الماء. لقد قرأت مرة أن الإله كان يعبد بهذه الطريقة في الشرق الأقصى: في تجاويف مليئة بالماء تمر فوقها الغيوم.

وبينما كنت عائداً إلى السهل رأيت رجلاً عجوزاً راكعاً على الحجارة. كان منحنياً على قناة يراقب الماء يجري فيها، ووجهه مغسول بغبطة معجزة. كان يبدو كما لو أن أنفه وفمه وخديه قد تلاشت. ولم يبق سوى العينين اللتين تتابعان الماء في جريانه بين الصخور. صعدت إليه، وسألته: ماذا ترى هناك أيها العجوز؟

وأجابني دون أن يرفع رأسه، أو يزيح عينيه عن الماء: «حياتي. حياتي تجري».

* * *

في اليونان تتأنسن الأشياء كلها: الجبال والأنهار والبحار والوديان. إنها تتحدث إلى الإنسان بلغة هي على الأغلب لغة بشرية. وهي لا تعذبه ولا تهيمن عليه بشكل ساحق. بل تصادقه وتزامله في العمل. وتصبح صرخة الشرق القلقة المشوشة صافيةً، حالما تمر عبر ضوء اليونان: تتأنسن. تتحول إلى لوغوس logos: عقل. فاليونان هي المصفاة التي تنقّي، بجهد كبير، الوحشَ وتصفّيه إنساناً. وتجعل العبودية الشرقية حرية، والنشوة الهمجية عقلانية «حكيمة». إن إصباغ الملامح على ما لا ملامح له، والبعد إلى ما لا أبعاد له، والموازنة بين القوى المتصارعة العمياء: تلك هي رسالة البحر المكافح والأرض المعروفة باليونان.

الترحال عبر اليونان فرح حقيقي واغتناء عظيم. لقد كانت الأرض اليونانية المشبعة بالدم والعرق والدموع، والجبال اليونانية، ترى الكثير من الكفاح. والشواطئ تقرر مصير العرق الأبيض ـ والبشرية كلها. ولا بد أنه على واحد من هذه الشواطئ المليئة بالبهاء والمرح قد حدث التحول المعجز من الوحش إلى الإنسان. ولا بد أنه على شط يوناني كهذا ألقت عشتروت ذات الأثداء الخنزيرية المتعددة مرساتها من آسيا الوسطى.

واليونانيون الذين استلموا التمثال الخشبي، المحفور دون إتقان، قاموا بتخليصه من

Twitter: @ketab_n

وحشيته. ولم يبقوا عليه إلا الثديين البشريين. ومنحوه جسداً بشرياً مليئاً بالنبل. من آسيا الوسطى أخذ اليونانيون الغريزة البدائية والنشوة العربيدية والصرخة الوحشية: عشتروت. وقاموا بتحويل الغريزة إلى حب، والعض إلى قبل، والعربدة إلى عبادة دينية، والصرخة إلى هدهدة عاشق. حولوا عشتروت إلى أفروديت.

إن موقع اليونان الروحي والجغرافي يحمل معه إحساسا غامضاً بالرسالة والمسؤولية: ذلك أن تيارين دائمي النشاط يتصادمان على أرضها وبحارها. لقد كانت المكان المعرّض دائماً، جغرافياً وروحياً، لدوامات عاصفة لا تتوقف. وهذا الموقع المقدور قد أثر تأثيراً عميقاً على مصير اليونان وعلى مصير العالم بأسره.

لقد رأيت اليونان. وشممتها ولمستها، وأنا أسير على قدمي حاملاً قضيباً من الزيتون في يدي، وخرجاً على كتفي. وفيما كانت اليونان تتغلغل أعمق فأعمق في داخلي كنت أحس من أعماقي أن الجوهر السري لأرضها وبحرها موسيقى. وفي كل لحظة يتغير المشهد اليوناني قليلاً، لكنه يبقى ذاته. تُموّج جمالها، وتجدد نفسها. إن فيها وحدة عميقة. وفيها في الوقت ذاته تنوع دائم التجدد. وإنني لأتساءل ما إذا لم يكن الإيقاع ذاته هو الذي يحكم فن اليونانيين القدامى. ذلك الفن الذي و لد من التأمل والحب والفهم وإعطاء التعبير المحدد للعالم المرئي من حوله. أنظر إلى عمل من الفترة الكلاسيكية العظيمة. إنه ليس جامداً. بل إن رعشة غير ظاهرة تعبره تماماً، كالصقر الذي يتردد في أعلى تحليقه. جناحاه يصفقان. لكنه يبدو لنا ثابتاً. وهكذا، بالطريقة ذاتها، يتحرك التمثال القديم بشكل غير مرئي ويحيا. لحظة خالدة واحدة، يستمر فيها التراث الفني ويجهز المضمار لمستقبل الفن، وهي تمسك المجرى الثلاثي للزمن في توازن كامل.

بكفاحهم طهّر اليونانيون كل منطقة وأخضعوها للمعنى السامي الذي يشكل جوهرها المحدد. وبالجمال والعواطف المنظمة حولوا الطبيعة المادية لكل منطقة إلى ميتافيزيق. أزالوا العشب والتراب والحجارة، واكتشفوا الروح الباردة في أعماق المنطقة وتحت أرضها. كانوا يجسدون هذه الروح أحياناً في هيئة معبد فخم، وأحيانا في أسطورة، وأحيانا أخرى في إله طبيعي.

ساعات وأنا أحدق إلى فسحة أولمبيا المقدسة. نبلها وهدوؤها المتأمل والوادي المبهج الرحب بين سفوح التلال الأليفة التي تحميه من الريح الشمالية القاسية والريح الجنوبية الحارقة، وتتركه معرضاً في جانبه الغربي فقط للماء، حيث نسيم البحر البارد يهبط إليه من ألفيوس. ليس هناك من مكان آخر في اليونان يثير فيك هذا الشعور بالسلام والانسجام، وبهذا اللطف وبهذه القوة. بعيونهم التي لا تخطئ حدد اليونانيون القدامى هذا الموقع لالتقاء سلالاتهم بأخوّة، مرة كل أربع سنوات. وبتحديد هذه الوظيفة له مَلأوه بالمعاني. وزادوا في

Twitter: @ketab_n

هدوئه وقوته لكي يوحي بالتصالح والوئام. لقد تمزقت اليونان بالغيرة والكراهية والحروب الأهلية. وتتالت الديموقراطيات والارستقراطيات والاستبداديات يفني كل منها الأخرى.

الحصون المغلقة والجزر المعزولة والشواطئ المهجورة والمدن ـ الدول الصغيرة المستقلة خلقت، كلها، عضوية واحدة متعددة الرؤوس محكومة بالكراهية المتبادلة والعواطف الجياشة في كل صدر. وفي كل أربع سنوات مرة كان الرسل المكللون spondophoroi ينطلقون صيفاً من هذا الوادي المقدس في عذوٍ متواصل حتى آخر أطراف العالم اليوناني. فيعلنون الشهر المقدس Hibromenia للألعاب. ويعلنون هدنة عامة. ويدعون الأصدقاء والأعداء للمجيء إلى أولمبيا للتنافس. من بيلوبونيسوس كلها، ومن اليونان القارية، من مقدونيا وتسلى وأبيروس وتريس، ومن شواطئ البحر الأسود وآسيا الوسطى ومصر وسيرين، من ماغنا غراشيا وصقلية، كان الرياضيون والزوار يسارعون إلى المهد الهيليني المقدس للرياضة. ولم يكونوا يسمحون للعبيد أن يطأوا الأرض هنا ولا للمجرمين أو الأجانب أو النساء. اليونانيون الأحرار فقط.

لم يسبق لشعب آخر أن أدرك القيمة الواضحة والخبيئة للرياضة بهذا الكمال. حين تنجح الحياة بقوة الجهد اليومي في قهر الأعداء المحيطين بها ـ القوى الطبيعية والوحوش والجوع والعطش والمرض ـ فإنه من حسن الحظ أن تكون هناك قوة متبقية فائضة. هذه القوة تحاول أن تبدد نفسها في الرياضة. الحضارة تبدأ في اللحظة التي تبدأ فيها الرياضة. وطالما أن الحياة تناضل من أجل البقاء ـ حماية نفسها من الأعداء، وتمكين نفسها من البقاء على وجه الأرض ـ فإن الحضارة لا يمكن أن تولد. إنها تولد في اللحظة التي تُشبع فيها الحياة حاجاتها الأولية، وتبدأ في التمتع بقليل من الفراغ.

كيف يمكن استخدام هذا الفراغ؟ وكيف يوزع بين الطبقات الاجتماعية المختلفة؟ وكيف يزداد ويصفو حتى أقصى الحدود؟ طبقاً للكيفية التي يحل بها كل عرق وكل عصر هذه المشكلات يمكن الحكم على قيمة حضارته ونوعيتها.

كنت أتمشى بين خرائب الألتيس ALTIS متمتعاً برؤية الحجارة ذات القشور المجهزة لبناء المعابد. هذه الحجارة حطمها المسيحيون وبعثرتها الهزات الأرضية. الأمطار والفيضانات الألفية[8] أزالت تفرحاتها اللونية المذهلة. كما أن التماثيل أُحرقت من أجل الكلس. ولم يبق لنا إلا القليل. وكان هذا القليل كافياً لتغذية عقولنا. التقطت قطفتين أو ثلاث قطفات من النعناع المتبرعم من الفتحة التي قيل إن تمثال فيدياس الذهبي والعاجي كان واقفاً فيها. وملأت كفي الرائحة الخالدة. لقد صارع الإنسان في هذا المكان الغامض غير أن الآلهة صارعت قبله. قام زيوس[9] بقتال كرونوس، والده، لكي يأخذ منه مملكته. وأبولو، إله

Twitter: @ketab_n

الضوء، هزم هيريس[10] في العدو. وهزم آريس[11] في الملاكمة. العقل هو الذي هزم الزمن، والضوء هزم القوى المظلمة للخداع والعنف. كان على الأبطال أن يتنافسوا هنا بعد الآلهة. لقد جاء بيلوبس من آسيا. وهزم أوتيوماوس[12] المتوحش المتعطش للدماء وأخذ هيبوداميا، ابنته، مروضة الخيول. إن الحضارة الأيونية المتقدمة، المليئة بالبهاء والصفاء، قد هزمت المواطنين الهمج في المنطقة. هم أخضعوا الحصان وروضوه. كما زادوا في قدرة الإنسان. وبطل آخر، هو هيراكليس[13]. بعد أن قام بإخلاء الإسطبلات الأوجية جاء إلى هنا ليقدم القرابين العظيمة إلى زيوس، الإله الجيد. ومن الرماد المتبقي من الضحايا التي قام بإحراقها أقام مذبحاً ودعا إلى الألعاب الأولمبية الأولى. وراح هذا المذبح المقدس يزداد علواً بالرماد المتبقي من الأضحيات الجديدة. وصارت أولمبيا المصنع العظيم المتزايد باستمرار، الذي كانت السلالات اليونانية المختلفة تقوم فيه بتطريق أجسادها البرونزية.

ولم يكونوا يقومون بذلك لمجرد جعل أجسادهم جميلة. إذ لم يسبق لليونانيين أن خدموا الفن للفن. إن للجمال، دائماً، هدفاً: أن يكون في خدمة الحياة. كان القدماء يريدون أن تكون أجسادهم قوية وجميلة، لكي تكون هذه الأجساد أوعية لعقول متزنة وصحيحة. وأكثر من ذلك، فإن الهدف الأسمى هو أن يستطيعوا الدفاع عن POLIS الدولة ـ المدينة.

كانت الرياضة الجمنازية، بالنسبة لليونانيين، مطلوبة لتهيئة حياة كل مواطن كعضو في المجتمع. فقد كان المواطن الكامل هو الرجل الذي، بممارسة الجمنازيوم والمصارعة، يستطيع أن ينمي جسداً قوياً ومتناسقاً في آن. وبمعنى آخر ينمي جسداً جميلاً وجسداً مستعداً للدفاع عن الشعب. انظر إلى تمثال من العصر الكلاسيكي تعرف على الفور ما إذا كان الإنسان المصور حراً أم عبداً. إن جسده يوضح حالته. العاطفة الصافية، بمعنى الشكل الرياضي الجميل المتناسق، هذا ما يميز الرجل الحر. أما العبد فيصور دائماً بملامح فظة وغير منضبطة وجسد، إما أن يكون نحيلاً أو بديناً. ديونيزوس، إله النشوة، يقف بهدوء. بينما حوله الساتير وشياطين الغابات السكارى. وعبيده ومن هم أقل منه مرتبة يتصرفون بشكل غير لائق ويقومون برقصاتهم الداعرة.

(10) رسول زيوس في الأوديسة، وهو إله العاصفة وإله الفجر. كما يشتقون اسمه من كلمات يونانية تعني الحجر أو الصخر والحماية.

(11) إله الحرب والشجاعة الوحشية العمياء والغضب الدموي والمذابح.

(12) ابن آديس من زواجه بربة النهر أسيوس. منحه والده جواداً مجنحاً وقرر ألا يزوج ابنته هيبوداميا إلا لمن يسبقه، لأن النبوءة قالت له إن صهره سيقتله. وقد نجح بيليوس بن تانتالوس ملك فريجيا في ذلك.

(13) هرقل.

Twitter: @ketab_n

الانسجام بين العقل والجسم، هو المثل الأعلى لليونان. وكانوا يعتبرون تضخم أحدهما لإلحاق الأذى بالآخر أمراً وحشياً. وحين بدأت اليونان بالانحطاط بدأ جسم الرياضي في الوقت نفسه يتضخم ويقتل عقله. وكان يوريبيديس[14] من أوائل المحتجين. وقد نبه إلى الأخطار التي تواجهها الروح على أيدي الرياضة. وقد أضاف غالن فيما بعد استنكاره: «إنهم يأكلون ويشربون وينامون ثم يفرغون بطونهم ويتمرغون بالتراب والطين ـ انظر أية حياة يعيشها الرياضي». كما أن هيراكليس، الشهيد العظيم الذي كان في سنوات المجد ينتقل من مأثرة إلى مأثرة، موازناً بين العقل والجسد، بدأ ينحدر تدريجياً إلى «آكل ثيران ومدمن خمرة»، ذي جسد ضخم وثقافة ضحلة. وراح الفنانون، الذين كانوا في فترات الازدهار قد خلقوا النموذج الأمثل للشكل الشاب، يتجهون الآن إلى تقديم الأجساد الرياضية التي صاروا يرونها حولهم بواقعية فجة وصارت الأجساد وحشية وثقيلة.

في اليونان، كما في أي مكان آخر، ما إن تبدأ الواقعية بالسيطرة حتى تبدأ الحضارة بالانحدار. وهكذا نصل إلى المرحلة الهيلينية الواقعية الفخمة والعديمة الهدف. والتي كانت خالية من المثل فوق الشخصية. من الفوضى إلى البارثينون[15]، ثم من البارثينون إلى الفوضى: الإيقاع العظيم القاسي. توحشت العواطف والانفعالات. وبدأ الفرد يفقد قوى مبادئه. فاللجام الذي كان يتحكم بالغريزة ويوازنها بصرامة أفلت من يديه. الانفعال والعاطفية والواقعية.. بدأ توق سوداوي غامض يشوب الوجوه. وصارت الرؤى الميثولوجية المخيفة تتحول إلى ديكور مجرد. وراحت أفروديت تعري نفسها، كامرأة عادية. وصار زيوس يطلب الخبث والأناقة، وهيراكليس ينحدر إلى نذل. وبعد الحرب البيلوبونية بدأت اليونان تتفسخ. وفقد الإيمان بأرض الآباء وانتصرت الكفاية الفردية. ولم يعد البطل الإيجابي على المسرح هو الإله الشاب المثالي. بل صار مواطناً ثرياً، بمتعه وعواطفه الداعرة ـ مواطناً مادياً متشككاً ومتحللاً. لقد حلت الموهبة محل العبقرية. ثم حل الذوق محل الموهبة. وامتلأ الفن بالأطفال والنساء المتبرجات والمشاهد الواقعية، وبرجال إما أنهم مثقفون أو وحشيون.

تسلقتُ الهضبة متجهاً إلى المتحف، مسرعاً لرؤية هرميز رسول براكسيتيل ومآثر هيراكليس والشرفتين المدهشتين اللتين بقيتا. كنت أسرع الخطى وكأنني أخشى أن الأرض سوف تبتلع هذه البقايا قبل أن أصل. لماذا؟ ربما لأن عمل الإنسان يتخطى القوانين اللاإنسانية للخلود (ولهذا فإن حياتنا وإنجازاتنا تحتاج إلى قوة سحرية وبطولية. ليس تحت تصرفنا إلا دقيقة واحدة. فلنحول هذه الدقيقة إلى أبدية. إذ لا وجود لأي نوع آخر من الخلود).

اطمأن قلبي حين واجهت القاعة الكبرى في المتحف. كان أبولو وهيراكليس ونيكه

---

(14) الشاعر والمسرحي اليوناني المعروف.

(15) هيكل الربة أثينا في مدينة أثينا.

Twitter: @ketab_n

(النصر) والقنطور[16] والليبيتون[17] كلهم يتلامعون بهدوء في ضوء الصباح. وكلهم ما زالوا أحياء. سررت. عالمنا هذا يسير على قوانين إنسانية متميزة. نحن نحس، في أيامنا الحاسمة التي قدر لنا أن نعيشها، أن هناك قنبلة قد تسقط في أية لحظة، وتحيل أغنى الآثار الإنسانية إلى رماد. وحين نحتفي الآن بعمل فني فإن متعتنا تمتزج بخطر الفراق الأبدي الذي يحوم فوق هذا العمل.

وإنك إذ تنظر إلى هاتين الشرفتين العظيمتين هنا، تدرك بأية دقة صاغ الحكيم الشرق أقصى غاية للفن حين قال: «ليس الفن تمثالاً للجسد بل للقوى التي خلقت الجسد». وهذه القوى الخلاقة تضطرم بشكل واضح تحت السطح الشفاف هنا، وخاصة في الشرفة الغربية. لقد انتهت المأدبة لتوها.

والقنطورون النشوانون قد اندفعوا للإمساك بالنساء الليبينيات. أحدهم يسرع ويعانق امرأة. وفي الوقت ذاته يعتصر صدرها بكفة الضخمة. وتبدو المرأة وقد أغمي عليها من الألم، وأيضاً، من متعة غامضة لا توصف. في مكان آخر يطعن المتصارعون واحدهم الآخر، ويعضه. لقد انطلق الوحش في انفجارة ضارية للعواطف العنيفة! مشاهد مغرقة في القدم تعود إلى ما بين الإنسان والقرد تنبعث أمام أعيننا. إلا أن هناك مسحة من الهدوء تمتد على هذه العواطف البدائية المدهشة كلها. لأنه في وسط هؤلاء المسعورين يقف أبولو ببنيته المتكاملة، غير مرئي من قبل المتصارعين. وذراعه اليمنى، وحدها، ممدودة أفقياً.

وعلى الرغم من أن النحات الذي أبدع هذا المشهد العظيم، قبل البارتينون بسنوات قليلة، قد تجاوز الغرابة العذرية للفنان القديم. إلا أنه لم يصل، بعد، إلى الكمال الفني للحظة الكلاسيكية. كان لا يزال في حمى الهجوم. ولم يلمس الذروة بعد. وهو لا يزال يتحرق برغبة انفعالية متأججة لتحقيق النصر. لقد حطم التوازن الأول إلا أنه لم يصل إلى الثاني. إنه بامتلائه بهذا الاندفاع اللاهث يسرع إلى الغاية النهائية. فإن كانت الشرفة تؤثر فينا بهذا العمق، فمرد ذلك إلى أنها لم تصل إلى الذروة الإنسانية العليا، ذروة الكمال. والمرء لا يزال قادراً على تبين البطل المتألم المكافح.

وهنا متعة أخرى. فعلى هذه الشرفة تُميَّز المراتب كلها: اللّه والأحرار والنساء والعبيد والوحوش. إن اللّه يقف في الوسط منتصباً وهادئاً وواثقًا من قوته. ورغم أنه يرى الرعب من حوله، إلا أنه ليس قلقاً. إنه يسيطر على غضبه وعواطفه دون أن يكون، من جهة أخرى، لا مبالياً. ذلك أنه، بهدوء، يمد ذراعه ويمنح النصر إلى الفريق الذي يشاء. أما الأحرار -

---

(16) كائن خرافي نصفه رجل ونصفه حصان.

(17) الشعب الذي حارب بقيادة بيريثوس لاستعادة هيبوداميا من يوريتيون زعيم القنطور. (انظر الهامش 19).

Twitter: @ketab_n

الليبيتون ـ فإن لديهم الطابع الإنساني على وجوههم. وهم يحتفظون به بقدر ما يستطيعون من ثبات. إنهم لا يصرخون، ولا يبقون فريسة للألم. فهم، أخيراً، بشر. وليسوا آلهة. وإن ارتعاشة خفيفة على شفاههم، بالإضافة إلى تجعيدة على الحاجب، تبين أنهم يتألمون. والنساء يتألمن أكثر. لكن ألمهن يمتزج بصمت مع رغبة غامضة. ورغماً عنهن يبدين سعيدات بأن تمتلكهن الشهوات الذكورية الوحشية. وسعيدات بأن تُسفح الدماء لأجلهن. والعبيد، من جهة أخرى، يسترخون بنوع من الألفة الجريئة وهم يتطلعون إلى الآخرين. إن ما ينقصهم هو الكبح الصارم. ففي فترة خلق هذه الشرفة لم تكن هذه الأشكال المحنية على الحواف تستطيع أن تمثل آلهة. إن الآلهة ما كانت لتتمرغ بهذه الطريقة، وما كانت لتنسى قداستها الإلهية. وأخيراً لدينا القنطورات، الوحوش الفاسقة السكيرة، تنقض على النساء والأطفال وهي تزعق وتعض. العقل غائب. ولذا فإنه ليست هناك قوة تستطيع أن تفرض النظام على قوتها أو تفرض النبل على عواطفها.

إنها لحظة نادرة: تلك اللحظة التي تحتفظ فيها كل مراتب الحياة المتغيرة بملامحها بكراً: في تلك اللحظة الرخامية تتعايش العناصر كلها: رباطة جأش الألوهة ومبدأ الإنسان الحر وتفجر الوحش والتمثل الواقعي عند العبد. بعد أجيال قليلة سيتمكن هذان الأخيران ـ أحط العناصر ـ من أن يحكما. ستنتشر العاطفة الواقعية وتهشم كلاً من الإنسان الحر والآلهة. سيفلت الزمام وسينحط الفن ويسكن. ومن فاجعية هذه الشرفة الأولمبية والهدوء الإلهي في البارتينون سنصل إلى لفظية بيرغاموم[18] التي لا تحدها حدود.

عن هذه الشرفة نستمتع برؤية بذور الذروة والأنروية وما بعدها تتعايش في ومضة متوحدة. فالكمال توافق خاطف يبرق فوق الفوضى. وهو توازن عصبي وخطر. ما إن تُلقي أقل وزن على أحد طرفيه حتى يسقط.

وتمنحنا تلك الشرفة أيضاً متعة أخرى. حين ننظر إليها تبرز عدة أسئلة. لقد ظهرت فور أن هزمت القوات اليونانية الفرسَ، واندفعت موجة سعيدة من الراحة والفخر والقوة على الأرض كلها. أحست اليونان بعظمتها. كان العالم من حولها، وفيها، يتجدد. وكان الآلهة والبشر يشعرون بضوء جديد. ولابد أن يتجدد كل شيء بالمقدار ذاته: المعابد والتماثيل والرسوم والقصائد. لابد من تخليد أبدي للانتصارات اليونانية على البرابرة. فأي شكل نحتي سيأخذه هذا التخليد؟

ينظر الفنان تحت مجرى الواقع اليومي ويرى الرموز الخالدة اللامتغيرة. ووراء النشاطات التشنجية المتناقضة دائماً للإنسان الحي يميز «الفنان» التيارات العظيمة التي تدفع الروح

(18) رمز للقوة، ومكان فينيقي.

Twitter: @ketab_n

البشرية. يأخذ الأحداث العرضية ويعيد وضعها في مناخ لا يموت. إن الفنان العظيم يتطلع إلى التمثل الواقعي وإلى كاريكاتير (الخطوط العريضة) للخلود.

ولهذا ليس النحاتون فقط، بل وجميع الفنانين العظماء في اليونان القديمة، لرغبتهم في ضمان الديمومة لكل نصب معاصر لانتصار، كانوا يعيدون وضع التاريخ في مناخ الأسطورة السامي والرمزي. وبدلاً من تقديم اليونانيين المعاصرين وهم يحاربون الفرس قدموا لنا اللابيث والقنطورات[19]. وراء اللابيث والقنطور نستطيع أن نرى الخصمين الكبيرين الأبديين: العقل والوحش، الحضارة والهمجية. وهكذا فإن حدثاً تاريخياً يحدث في زمن محدد يتخلص من الزمن وينتمي إلى الشعب كله وإلى رؤى هذا الشعب القديمة. وفي النهاية يتخلص من الشعب ويصبح ذكرى خالدة للبشرية. وبفضل التسامي الرمزي تسامت الانتصارات اليونانية لتصبح انتصارات للبشر كلهم.

وهذا كله ينطبق أيضا على الميتوبات[20] الاثنتي عشر التي تزين معبد زيوس. إنها تمثل مآثر هرقل الإثنتي عشرة. وحتى في حالتها الخربة المبعثرة التي بقيت لنا وتعلقت على جدران المتحف، فبكم من العمق تؤثر بنا! إلى أي علاء فخور تسمو بالعقل؟ انظر كيف أن أثينا، الفطنة البشرية،فتية لكنها مليئة بالقوة، تقف إلى جانب البطل الرياضي وتعاونه. بطريقة مشابهة، وقبل ذلك بوقت قصير، لابد أنها قد قفزت من أكروبوليس إلى ماراثون وسالاميز لمساعدة اليونانيين. وعلى الميتوبات فيما بعد تجلس على صخرة، متعبة قليلاً للجهود التي بذلتها، غير أنها فخورة. انظر كيف تحدق إلى البطل، وهو يعود منتصراً ليقدم لها طيور ستيمفالوس[21] كغنائم. وبعد ذلك بقليل، انظر كيف ترفع يديها بحنو وهي تقف وراءه لتساعده على حمل عبء العالم.

وعلى الرغم من أن الفنان كان يرغب، بالتأكيد، في تمجيد يونانيي عصره، إلا أنه حول المديح إلى هرقل السلف العظيم وكبير جنسه. وتبدو ترنيمة المديح وكأنها تقول إننا نحن أبناء هذا الجيل لم نحقق هذا النصر. بل حققته عبقرية شعبنا. لقد حققه سلفنا البطل المصمم العنيد. وبهذا فإن الترنيمة، المصاغة رمزياً، تتسع أكثر فأكثر لتشمل جميع شعوب الإنسان الحر. نحن، اليونانيين، لم نحقق النصر. ولم يحققه عرقنا وحده بل، كما تقول الأغنية،

---

(19) اللابيث شعب خرافي من تيسالي. في عرس ملكهم بيريثوس على هيبوداميا دعي القنطور بوريتون الذي حاول، بعد أن سكر، أن يختطف العروس. وحين فشل في ذلك عاد مع شعب القنطور في هجوم كبير. ولكن اللابيث استطاعوا قهرهم ودحرهم إلى حدود أبيروس حيث التجأوا إلى جبل بندوس.

(20) الميتوب هو الفسحة الفاصلة بين واجهتين في إفريز.

(21) ستيمفالوس بحيرة تحميها طيور مرعبة. قامت أثينا بإعطاء هرقل صنوجاً نحاسية لإخافتها، ثم قتلها بالسهام. وهي طيور تأكل اللحم البشري. ولها مناقير وأجنحة ومخالب من الحديد.

Twitter: @ketab_n

حققه كل إنسان يتقدم من مأثرة إلى مأثرة، وهو يكافح ليقهر الوحوش والهمج والموت.

عبرت باب المتحف وتمشيت في الفناء المظلل بالصنوبر. وهنا تملكتني كآبة مفاجئة. تساءلت عما إذا كنا نحن، المحدثين، سنستطيع بدورنا أن ننجز الرؤيا البطولية المتوازنة والمفعمة بالتناغم التي أنجزها اليونانيون القدامى؟ إن كل حاج، بعد أن يخلص نفسه من الحلم الأولمبي، وبعد أن يخرج من باب المتحف ويواجه شمس أيامنا، لابد أنه سوف يطرح هذا السؤال على نفسه، بأسى. فالكآبة بالنسبة لنا نحن، اليونانين، مزدوجة: ذلك لأننا نعتبر أنفسنا أحفاداً لقدماء. ولذلك فإننا، شئنا أم أبينا، نتعهد بواجب أن نتساوى مع أسلافنا، وحتى أن نتجاوزهم. إن واجب كل ابن أن يتخطى والديه.

كم هو ممتع أن يتمشى اليوناني في بلده، ولا يسمع أصواتاً غاضبة قاسية تحت الأرض! فالرحلة عبر اليونان تتحول، بالنسبة لليوناني إلى عذاب منهك وآسر. إنك تقف على نقطة من أرض اليونان، وتجد نفسك وقد غلبك الأسى. إنها قبر عميق يضم طبقات متتالية من الجثث التي ترفع أصواتها وتناديك. ذلك أن الصوت هو الجزء الوحيد من الجثة الذي يظل خالداً. فأياً من هذه الأصوات ستختار؟ كل منها روح. وكل روح تتلهف على جسد يخصها. وقلبك يصغي وهو مضطرب أيما اضطراب. إنه يتردد في اتخاذ قرار لأن أعز الأرواح ليست على الأغلب هي الأرواح التي تستحق أكثر من غيرها. أذكر أنني شعرت بهذا الصراع الرهيب والعريق بين القلب والعقل ظهيرة ذات يوم، حين وقفت تحت شجرة دفلى مزهرة على طريق يوروتاس بين أسبارطة وميسترا. اندفع قلبي الجامح ليبعث الجثة الشاحبة والمختومة بالموت لإمبراطورنا البيزنطي كونستانتين باليولوغوس وليعيد، عجلة الزمن إلى 6 كانون الثاني 1449م. حيث قَبِل هنا، وعلى مرتفعات ميسترا، العرش البيزنطي القصير العمر والمضمخ بالدم. ومضات لا تحصى من التوق السلفي ومن التوق العرقي تحثنا لاتباع رغبات القلب. غير أن العقل يقاوم بعناد. يحول العقل وجهه صوب أسبارطة غاضباً. إنه يرغب في أن يرمي بالإمبراطور الشاحب إلى غياهب الزمن، وأن يرى انسجامه مع الشباب الأسبارطيين الشجعان - ذلك أن رغبة العقل هي بالضبط ما تتطلبه منا هذه اللحظة الرهيبة، اللحظة الرهيبة التي قدر لنا أن نولد فيها. فإن أردنا لحياتنا أن تثمر علينا أن نتخذ القرار الذي ينسجم مع الإيقاع المخيف لعصرنا.

حين يرتحلْ اليوناني في اليونان تتحول رحلته بهذه الطريقة المصيرية إلى بحث مضن عن واجبه. كيف سيصبح مستحقاً لأسلافه؟ كيف يستطيع أن يتابع تراثه الوطني دون أن يشينه؟ إن مسؤولية قاسية لا تعرف السكوت تجثم على كاهله وعلى كاهل كل يوناني حي. فللاسم ذاته قوة سحرية لا تقهر. وعلى كل إنسان ولد في اليونان واجب متابعة الأسطورة اليونانية الخالدة.

وليست هناك منطقة في الوطن تدعو اليوناني المعاصر إلى رعشة لا مبالية من التقدير

Twitter: @ketab_n

الجمالي. إن للمنطقة اسماً. واسمها ماراثون أو سالاميز و أوليمبيا أو تير موبيلاي أو ميسترا. وهي مرتبطة بذاكرة. هنا أُذللنا. وهناك حققنا مجداً. بغتة تتحول المنطقة إلى تاريخ. وتقع روح الحاج اليوناني في بلبلة. كل منطقة يونانية مشبعة بالنجاحات والإحباطات التي كان لها أصداء ملء العالم. كل منطقة مليئة بالكفاح الإنساني بحيث إنها تسمو إلى درس صارم لا نستطيع الهروب منه. إنها تصبح صرخة. وواجبنا هو أن نسمع هذه الصرخة.

موقع اليونان مأساوي فعلاً. وهي تلقي على كاهل كل يوناني معاصر بواجب خطر وصعب التنفيذ في آن. إننا نحمل مسؤولية ثقيلة. قوى جديدة تظهر في الشرق. وقوى جديدة تظهر في الغرب. واليونان، الواقعة أبداً بين الدافعين والمتعارضين، تقع مرة أخرى في دوامة. الغرب يتقدم لقهر العالم متتبعاً تراث العقل والبحث الإمبراطوري. والشرق، تحثه قوى مخفية غير مدركة، يندفع هو الآخر لقهر العالم. واليونان في الوسط. إنها نقطة تقاطع العالم جغرافيا وروحياً. ومرة أخرى عليها أن تصالح بين هذين الدافعين الوحشيين بإيجاد تركيبة جامعة. فهل ستنجح؟ إنه مصير مقدس ومرير. في نهاية رحلتي عبر اليونان امتلأت بأسئلة مأساوية ومفاجئة. بدأنا بالجمال، وانتهينا بآلام عصرنا وبالواجب المعاصر الملقى على كل يوناني. لم يعد الآن في وسع الإنسان الذي يحيا، الذي يفكر ويحب ويكافح، أن يتمشى في طريق بهيج وهو يستمتع بالجمال.

إن الكفاح يتوسع، في أيامنا، كالحريق. ليست هناك أية فرقة إطفاء يمكن أن تضمن سلامتنا. كل

إنسان يكافح ويحترق مع الإنسانية كلها. والأمة اليونانية تكافح وتحترق أكثر من البقية. وهذا قدرها.

أغلقت الدائرة. امتلأت عيناي باليونان. يبدو لي أن عقلي قد نضج في هذه الأشهر الثلاثة. ما هي أثمن الغنائم في حملتي العقلية هذه؟ أعتقد أنها: لقد رأيت، بوضوح أشد، الرسالة التاريخية لليونان، وهي الواقعة بين الشرق والغرب، وأدركت أن مأثرتها الأسمى ليست الجمال بل الكفاح من أجل الحرية. وشعرت بقدر اليونان المأساوي بعمق أكبر. كما شعرت بالواجب الثقيل الملقى على كاهل كل يوناني. أعتقد أنني بعد رحلتي عبر اليونان فوراً أصبحت ناضجاً بما فيه الكفاية للبدء بسنوات النضوج. ولم يكن الجمال هو الذي دلني على الطريق، وأدخلني في الرجولة بل المسؤولية.

تلك هي الثمرة المرة التي كنت أمسك بها في يدي وأنا أدخل بيت أبي بعد عودتي من رحلة الأشهر الثلاثة.

Twitter: @ketab_n

18

إيطاليا

عدت إلى بيت أبي. وهناك، وسط الصمت المؤثر الذي تغرق فيه أمي، وتحت نظرة أبي القاسية، سأعيش رحلتي من جديد مرتباً بعض الشيء أفراحها وأحزانها. لن أتهرب من مسؤوليتي بعد الآن. لقد كسبت صوتاً في داخلي. تكلمت الأرض، ونهض الموتى، وانكشفت اليونان أمامي كريتاً هائلة ـ هي الأخرى تقاتل من أجل حريتها (وهذا قدرها) منذ بدء الزمن. فما هو واجبي إذن؟ واجبي أن أعمل معها. أن ألقي بحياتي وبروحي في الكفاح إلى جانبها.

ولكن ممن؟ ومم أبحث عن الحرية؟ كانت هذه أسئلة صعبة لم أستطع الإجابة عنها. الشيء الوحيد الذي شعرت به هو أن دوري لا يكمن في الذهاب إلى الجبال، والبندقية في يدي، للقتال ضد الأتراك. كانت أسلحتي مختلفة. إضافة إلى أنني لم أستطع بعد أن أحدد هوية أعدائي. الشيء الوحيد الذي كنت أراه بوضوح هو أنني مهما كان القرار الذي سأتخذه فإن علي أن أؤدي واجبي بأشرف ما يمكنني. ولقد كنت واثقاً من ذلك: من وفائي وشرفي. كنت واثقاً من ذلك. ولا شيء غيره.

أتذكر حين جاء الأرشمندريت إلى والدي، واشتكى له أنني لا أسمع كلام أساتذتي. لقد أجابه والدي، وكنت هناك وسمعت: «أنا لا أهتم إلا إذا كان يكذب أو يأكل قتلة. هذان هما الشيئان الهامان. أما بشأن أي أمر آخر فليفعل ما يشاء!». لقد تغلغلت هذه الكلمات في أعماق عقلي. وأعتقد أن حياتي ما كانت لتصبح ما هي عليه لو أنني لم أسمع هذه الكلمات. كان يبدو أن هناك غريزة غامضة لا تخطئ تسيّر والدي في تربيته لابنه. غريزة الذئب وهو يربي دغفله الأول.

لم أبرح البيت. إذ ليس لدي الآن أصدقاء. كانت جمعية الصداقة طائرة ورقية ولادية، ولدت وتبعثرت أجزاؤها مع الرياح الأربع. نحيت جانباً الاهتمامات الجديدة التي كانت تعذبني منذ حجي عبر اليونان. وحولت أفكاري لدراسة النهضة الإيطالية والأرواح العظيمة

Twitter: @ketab_n

التي ولدتها. فلقد صممت على القيام برحلة إلى إيطاليا مستهلكاً ما تبقى من منحة والدي لعام الترحال.

وهكذا أخرجت نفسي ذات صباح من بيت أسرتي مرة أخرى. وسألتني أمي المحبة: «إلى متى ستظل ترحل؟ إلى متى؟». وأردت أن أجيب (كم الشباب عديمو الشعور!): «طالما أنا حي يا أمي. طالما أنا حي». لكنني تمالكت نفسي وقبلت يدها. ثم حملني البحر بعيداً.

أن تكون شاباً معافى وعمرك خمسة وعشرون عاماً، وأن لا تحب أي شخص محدد ذكراً كان أم أنثى (هذا أمر يضيّق قلبك ويبعدك عن الأشياء كلها بالاهتمام ذاته وبالحماسة ذاتها). وأن ترحل على قدميك وحيداً من طرف إيطاليا إلى طرفها الآخر وحقيبة جلدية على كتفك، وأن يكون الطقس ربيعياً ثم أن يأتي الصيف وبعده الخريف فالشتاء محملاً بالفاكهة والمطر.. أية وقاحة يتمتع بها الإنسان ليطمع في سعادة أعظم!!

كنت أعتقد أنه لا ينقصني شيء. تهللت الوحوش الثلاثة بالمقدار ذاته: الجسد والعقل والروح. وكان الثلاثة راضين. فلقد أشبع جوعها تماماً. وللحد الأقصى من شهر العسل هذا مع روحي كنت أشعر، أكثر من أي وقت آخر في حياتي، أن الجسد والعقل والروح قد صنعت من طينة واحدة. حين يهرم المرء أو يسقط بين براثن المرض أو التعاسة يحدث عندها فقط أن تفترق أو تتعارض فيما بينها. وقد يرغب الجسد أحياناً أن يتولى القيادة. وقد ترفع الروح راية عصيانها وتتمنى الفرار. ويقف العقل عاجزاً وهو يراقب ويدوّن التحلل. ولكن حين يكون المرء شاباً وقوياً كم يكون هذا الثلاثي متحدًا بأخوة حبيبة! وكيف يعيش الثلاثة على الحليب ذاته!

أغمض عيني. يعود الشباب، ويعود التوافق في داخلي. تمر الشواطئ والجبال طازجة أمام عيني، والقرى بأجراسها الهزيلة وساحاتها الصغيرة المظللة، شجرة الدلب، الينبوع المتدفق والمقاعد الحجرية على الأطراف، والعجائز الذين يجلسون، في المساء، منحنين على عكازاتهم وهم يتحادثون بهدوء. الأشياء ذاتها منذ سنوات عديدة. ومنذ قرون عديدة. وحتى الهواء من حولهم ومن فوقهم قديم قدم الزمن. كم ارتعش قلبي حين رأيت اللوحات الشهيرة لأول مرة. وقفت بالعتبة وركبتاي مثنيتان، لمدة طويلة، إلى أن هدأ قلبي المضطرب أخيراً، واستطعت أن أتحمل هذا الجمال كله. فالجمال، كما تنبأت وكان صحيحاً، لا يرحم. إنك لا تنظر إلى الجمال. بل هو الذي ينظر إليك ولا يسامحك.

انطلقت من مدينة إلى مدينة. رسوم وتماثيل وكنائس وقصور. أي شره وأي توقف! لم يكن من الممكن إرواء ظمئي وجوعي. ظل نسيم فاتن يهب بين حناياي. لم تتكرر أبداً تلك الغبطة الجسدية الصافية في حياتي. لا من النساء، ولا من الأفكار، ولا من الاتصال بالله. وبما أنه لم يسبق أن سيطر علي اهتمام خالص كهذا فقد كنت أجد المتعة في الرؤية والسمع واللمس. لقد اتحد العالم الداخلي بالعالم الخارجي. لمسته وكان دافئاً. وله عبير كعبير

Twitter: @ketab_n

جسدي. ولو قيض لي في تلك الفترة أن أخلق ربي لصنعته بجسد مراهق، مثل كوروس القديم. بزغب كثيف على خديه وركبتين قويتين وخصر أهيف، وهو يحمل العالم على كتفيه كما لو أنه ثور.

هنا في إيطاليا كانت تفاحة الحياة متينة ومتناسقة. أما اليونان فمختلفة تماماً. لقد كانت رحلتي عبر اليونان مؤلمة؛ لأن تلك التربة كانت قريبة جداً مني. وكانت لي. ولمعرفتي الجيدة بمعاناة اليونان كنت أرى معاناتها بوضوح وراء وجهها الجميل. وكنت أعاني معها. لكن إيطاليا كانت تربة غريبة. إن لها، أيضاً، آلامها. لكنني لا أعرفها. ولو أنني عرفتها لما استطاعت أن تقلقني إلى ذلك الحد. هنا لم يكن لوجه الجمال بالنسبة لي أي جرح. أو هكذا خيل لي.

كنت ريفياً غير معقد. لا يزال مغطى بزغب المراهقة. يمشي للمرة الأولى وحده، وبحريته، في بلد أجنبي. ولقد كانت فرحتي عظيمة إلى درجة أنني أحيانا كنت أحس بالرعب يتملكني. ذلك أنني أعرف تماماً أن الآلهة مخلوقات حسودة. وأنه من الخطر (والخطيئة) أن تكون سعيداً، وأن تعرف أنك سعيد. ولكي أبعد أذى عينها الشريرة التجأت إلى خطط مضحكة للتقليل من سعادتي. و أذكر أنني كنت تياهاً في فلورنسة لدرجة أنني أدركت أن الحقوق الممنوحة لبني البشر قد تم تجاوزها. كان علي أن أجد طريقة ما لكي أتلاءم. وهكذا اشتريت حذاء ضيقاً جداً. لبسته في الصباح وآلمني جداً حتى أنني لم أستطع المشي. كنت أعرج كغراب. طوال ذلك الصباح حتى الظهر كنت في حالة بائسة. ولكنني حين غيرت حذائي وخرجت في نزهة عصر ذلك اليوم أحسست بمتعة كبيرة. كنت أسير كأنني بلا وزن. كنت أطير. عاد العالم وأصبح فردوساً. تنزهت على ضفة أرنود. عبرت الجسور، وصعدت إلى سان مينياتو. هب نسيم بارد حين اقترب المساء. وكان الناس يرتدون ملابس من الذهب وهم يسيرون تحت آخر أشعة الشمس. ولكنني في الصباح التالي لبست الحذاء الضيق وابتدأت من جديد. غير أن الآلهة لم تعد لديها حجة للتدخل الآن. لقد دفعت الجزية التي فرضوها على البشر.

كان كل شيء بسيطاً بشكل طفولي. لم تزعجني أية مشكلة. ولم يكن في تفاحة الحياة أية دودة. كانت المظاهر كافية. ولم أكن أبحث لاكتشاف ما إذا كان هناك أي شيء وراءها. ذات يوم قام رسام يوناني برسم ستارة ودعا رساماً ينافسه ليراها ويحكم على عمله. «طيب. أزح الستارة ودعني أرى اللوحة». وكان جواب الفنان: «الستارة هي اللوحة». ستارة الجبال والأشجار والمحيطات والبشر التي كنت أراها أمامي الآن، تلك هي اللوحة. وكنت أستمتع بها بغبطة أصيلة وشرهة.

لقد قام العصيان الداخلي لسنوات المراهقة بتصريف طاقته. هضمت الأفكار المخزية حول أن الأرض ليست مركز الكون، وأن الإنسان متحدر من الوحوش. وأنه، هو نفسه،

Twitter: @ketab_n

وحش أكثر ذكاء، وأكثر بعداً عن الأخلاق من أسلافه. أما بالنسبة للأنثى التي جاءت وأثارت دمي لوهلة، فإنها لم تعد لإفساد سعادتي المتناغمة منذ أن وضعتها على الورق. ودون اهتمام بما يمكن أن يمليه العقل ليثبت أن للنساء قيمة الرجال وأرواحهم، فإن قلبي العجوز في أعماقي، القلب الإفريقي الذي يحتقر العقل المتأورب[1] ولا يهتم له، هذا القلب يستنكر النساء، ويرفض أن يثق بهن، أو أن يسمح لهن بالتغلغل في أعماقي بغية التملك. النساء، ببساطة، زينة للرجال. وفي أغلب الأحيان هن مرض وضرورة.

أفكر في كوستانديس حارس الحقول الضاري في كريت الذي كان يعيش كناسك، ولا يسمح لأنثى أن تقترب منه. وبغتة انتشر الكلام حول أن كوستانديس سيتزوج. قلت له: «كوستانديس. يا إلهي. ما هذا الذي أسمعه؟ هل ستتزوج حقاً؟» فأجابني: «طيب. وما الذي أستطيع أن أفعله يا معلم؟ لقد فكرت، افترض أنني أصبت بالزكام. فمن سيجلب لي كؤوس الهواء[2]». وقال لي شخص آخر يبرر زواجه في الخمسين: «وما الذي أفعله يا بني؟ أنت ترى. لقد قررت أنني أريد جدائل جميلة على وسادتي مثل غيري».

كما قلنا: أحيانا ضرورة وأحيانا أخرى زينة.

طوال شهر العسل ذاك في إيطاليا كنت حراً دون مشاكل ميتافيزيقية، ودون قلق حول الحب. أفراحي لم تكن تشوبها شائبة.

وحين أحاول أن أسترجع هذه الأفراح بعد مرور سنوات طويلة أندهش لمعظم الأفكار التي دخلت فيّ واتحدت معي. ولم يعد من الممكن تحديدها كذكريات. لقد تسربت من ذاكرتي إلى دورتي الدموية حيث تعيش وتعمل كغرائز طبيعية. وحين أقرر أمراً ما أتذكر في ما بعد أنه لم يكن أنا من اتخذ القرار بل الأثر الذي أحدثته بي اللوحة الفلانية، أو البرج الفلاني من عصر النهضة، أو البيت الفلاني عند دانتي الذي رأيته محفوراً في أحد الشوارع الضيقة في القسم القديم من فلورنسة.

ليست المتع الذهنية، بل متع أكثر مادية وأقرب إلى الحرارة الإنسانية، تلك التي تبقى ثابتة في ذاكرتي، وتحدق إلي بمحبة وحزن. والنتيجة النهائية هي أنني من مغامرة الشباب تلك كلها لم أعد إلا مع غنيمة هزيلة: غنيمة هزيلة ومتواضعة جداً بالفعل. زهرة رأيتها ذابلة على سياج في باليرمو، وفتاة صغيرة حافية تبكي في أحد حواري نابولي القذرة، وقطة سوداء مرقطة ببقع بيضاء جالسة على النافذة القوطية[3] في فيرونا. إنه لسر عجيب. ما الذي تختاره الذاكرة البشرية للاحتفاظ به من كل ما يقدم لها؟ من كان ذلك الفاتح العظيم الذي تنهد على

---

(1) العقل ذو النزعة الأوروبية.

(2) كؤوس يفرغ الهواء من داخلها بإحراق شيء فيها وهي ملتصقة بجلد المريض. وهو علاج شعبي.

(3) المصممة على الطراز القوطي.

Twitter: @ketab_n

فراش الموت: «طوال حياتي وأنا أتوق إلى ثلاثة أشياء لم أجد الفرصة للاستمتاع بها: بيت صغير على شاطئ البحر، وكناري في قفص، وحق من الحبق»؟ فمن مجمل رحلتي في إيطاليا استقرت في ذاكرتي حادثتان مريرتان أكثر من كل ما مر بي. وستظلان تطاردانني بالتأنيب حتى الموت، رغم أنني بريء تماماً تجاههما.

تلك هي الأولى:

الوقت قبيل حلول الظلام. كان النهار بطوله مطراً وعواصف مطرية. وصلت إلى قرية كالابرية صغيرة وأنا مبلل حتى العظام. كان علي أن أجد موقداً أجفف نفسي عليه، وزاوية أنام فيها. الشوارع مهجورة والأبواب موصدة. والكلاب، وحدها التي تشم رائحة الغريب، بدأت بالنباح من الدور. الفلاحون في تلك المنطقة أجلاف وانعزاليون ومتشككون بالغرباء. توقفت متردداً عند كل باب. ومددت يدي ولم أجرؤ على الدق.

آه. يا لجدي المرحوم في كريت، الذي كان يأخذ قنديله كل مساء ويتجول في القرية ليرى إن كان قد جاءها غريب. كان يأخذه إلى البيت ويطعمه ويمد له فراشاً للنوم. ثم يودعه في الصباح بكأس من الخمر وقطعة من الخبز. هنا في القرى الكالابرية لا يوجد أجداد مثله.

وبغتة رأيت باباً مفتوحاً في طرف القرية. مددت رأسي وتطلعت. فرأيت ممراً معتماً وناراً مشتعلة في الطرف الأقصى، وامرأة عجوزاً تنحني فوقها. كان يبدو أنها تطبخ. لا صوت. لا شيء إلا احتراق الخشب. كان ذا رائحة. لا بد أنه خشب صنوبر. اجتزت العتبة ودخلت، فاصطدمت بطاولة طويلة في وسط الغرفة. ووصلت أخيراً إلى النار وجلست على كرسي وجدته قرب الموقد. كانت العجوز قابعة على كرسي آخر، وهي تحرك الطبخة بملعقة خشبية. أحسست أنها نظرت إلي بسرعة ودون أن تلتفت. لكنها لم تقل شيئاً. خلعت سترتي وبدأت أجففها. وأحسست بالسعادة تتصاعد فيّ كالحرارة من قدمي إلى ساقي إلى فخذي فصدري. وبجوع وشره رحت أستنشق رائحة البخار المتصاعد من القدر. لابد أن الطبخة فاصولياء مقلية. وكانت الرائحة مهيمنة على كل شيء. ومرة أخرى أدركت كم أن السعادة الأرضية مصنوعة على مقاس الإنسان.

ليست السعادة طائراً نادراً علينا أن نطارده في لحظة محددة في السماء. وفي اللحظة التالية في عقولنا. السعادة طائر أليف موجود في باحة دارنا.

نهضت العجوز وتناولت صحنين للحساء عن رف قريب منها. ملأتهما، فامتلأ العالم برائحة الفاصولياء. وأشعلت مصباحاً وضعته على المائدة الطويلة. ثم جلبت ملعقتين خشبيتين ورغيفاً من الخبز الأسود. جلسنا متقابلين. رسمت علامة الصليب، ثم نظرت إلي بسرعة ففهمت. صلّبت وبدأنا نأكل. كان كل منا جائعاً. فلم ننبس بكلمة. قررت ألا أتكلم لأرى ما سيحدث. أيمكن أن تكون خرساء؟ هكذا سألت نفسي، أم لعلها مجنونة، واحدة من أولئك المجاذيب الهادئين اللطفاء الشبيهين بالقديسين.

Twitter: @ketab_n

وحالما انتهينا هيأت لي فراشاً على مقعد طويل قرب الطاولة. استلقيت. واستلقت هي على المقعد الآخر المواجه لي. في الخارج كان المطر ينهمر بغزارة. وبعد مدة سمعت الماء يطقطق على السطح ممتزجاً مع تنفس العجوز اللطيف والهادئ. لابد أنها متعبة. لأنها نامت بمجرد أن أراحت رأسها. وشيئاً فشيئاً مع المطر وتنفس العجوز المنتظم رحت بدوري في نوم عميق. وحين استيقظت رأيت ضوء النهار يتسرب من شقوق الباب.

كانت العجوز قد نهضت، ووضعت على النار قدراً لتهيئة حليب الصباح. تطلعت إليها الآن في ضوء النهار الخفيف. متغضنة ومحدودبة تستطيع أن تحملها في راحة يدك. قدماها منتفختان بحيث أنها تضطر إلى التوقف عند كل خطوة لالتقاط أنفاسها. ولكن عينيها، عينيها الواسعتين السوداوين فقط، كانتا تشعان ببريق فتي لم يعجزْ. كم كانت جميلة في صباها. رحت أفكر بيني وبين نفسي، وأنا أقدر مصير الإنسان وهرمه القدري. جلسنا كل في مواجهة الآخر مرة أخرى وشربنا الحليب. ثم نهضت وألقيت بحقيبتي الجلدية على كتفي. أخرجت محفظتي. ولكن العجوز تلونت وتمتمت وهي تمد يدها: «لا. لا». وحين نظرت إليها مندهشاً أضاء وجهها المجعد كله بغتة، وقالت: «مع السلامة. وليباركك الله. وليكافئك الله على الجميل الذي أسديته إلي. منذ أن مات زوجي لم أنم بهذا العمق».

وها هي ذي الذكرى الثانية والأكثر مرارة بينهما:

قرابة بدء الربيع وصلت إلى أسيزي، أكثر المدن الإيطالية قداسة. الحدائق والسقوف والباحات والهواء ذاته ـ كل شيء كان مليئاً بالحضور اللامرئي لفقير الله الصغير[4]. كان يوم أحد. وكانت الأجراس الهائلة في كنيسته تقرع، والأجراس الفضية ذات الصوت العذب في دير سانت كلير وسانت فرانسيس، يلتحمان في الهواء. يتحدان بلا انفصام إلى الأبد. والأصوات الخالدة التي تمنحهما إياها القداسة مع الموت: «يا أبانا فرانسيس، متى، أخيراً، ستأتي لترانا نحن الأخوات المسكينات في ديرنا؟»، «حين تزهر الأشواك بأزهار بيضاء». وبغتة! «تزهر الأشواك إلى الأبد. وحمامتا الله الأليفتان، المتحدتان إلى الأبد، تصفقان أجنحتهما إلى الأبد فوق أسيزي».

صعدت الشوارع الضيقة. أبواب تظل تفتح ونساء يظهرن. حديثات الاستحمام، معطرات بالخزامى وشعورهن مسرحة بعناية. ينطلقن مسرعات مرحات نحو الكنيسة ـ يرين وينزوين. في الربيع، في بلاد الشمس، تصبح الكنيسة غرفة الجلوس الخاصة بالله. أصدقاؤه، من رجال ونساء، يذهبون إليها. ويجلسون على صفوف الكراسي، ثم ينهمكون في أحاديث قصيرة مع الله للحظة ومع جيرانهم للحظة أخرى. وخادم الله يروح ويجيء مشدوداً بمشد أبيض وثوب أسود أو أحمر. يقرع الجرس الصغير، ويغني بصوت عذب

(4) القديس فرانسيس. ولكازانتزاكيس كتاب خاص عنه بعنوان «الفقير لله».

Twitter: @ketab_n

مدائحه للقديس فرانسيس، سيد المنزل. ثم ينهض الضيوف ويودعون وهم يتجهون إلى الباب. لقد قاموا بزيارتهم للقديس. والآن انتهت الزيارة. وتضحك السماء راضية. أما تحت على الأرض فتفتح الخمارات أبوابها.

كانت لدي رسالة تعريف إلى الكونتيسة أيريشيتا سوف تمكنني من المكوث في قصرها. وكانت قد وصفت لي بأنها أرستقراطية عجوز تعيش وحيدة مع خادمة موثوقة اسمها إيرميلاندا. وأنها ستكون سعيدة برفقتي. كانت فيما مضى الحسناء الأولى في أسيزي. ثم ترملت في السادسة والعشرين. ومنذ ذلك الحين لم تعرف رجلاً. إنها تملك غابات شاسعة من الزيتون والكروم. وكانت في ما مضى تمتطي مهرتها كل صباح وتنطلق لمراقبة أملاكها. أما وقد أصبحت الآن عجوزاً، وتحس دائماً بالبرد، فإنها تكتفي بالجلوس أمام موقدها صامتة وحزينة، وكأنها تأسف على حياة الطهارة التي قضتها. وقيل لي: تحدث إليها وانظر إليها، وكأنها لا تزال في السادسة والعشرين. وامنحها بعض المتعة حتى ولو كانت متأخرة كثيراً.

كان يوماً ربيعياً لطيفاً. السنونو قد عاد. والحقول مليئة بزهور المارغريت البيضاء الصغيرة. والنسيم دافئ وعابق. لكن النار كانت مشتعلة في البيت الكبير، والكونتيسة العجوز جالسة على كرسي واطئ أمام النار، وعلى شعرها الأبيض منديل من الحرير الأزرق. وضعت رسالتي على ركبتيها والتفتت لتتطلع إلي. كنت محمراً وعرقاناً من الصعود، وقميصي مفتوح الصدر، وركبتاي ــ كنت أرتدي سروالاً قصيراً ــ تلتمعان في ضوء النار. كنت في الخامسة والعشرين من عمري.

قالت العجوز وهي تبتسم لي: «طيب. اليونان كلها قد دخلت بيتي بغتة. أهلاً وسهلاً».

جاءت أيرميلاندا، «البنت المنتقاة» الفتية التي ستأخذ مهراً من سيدتها. جلبت صينية وهيأت مجلساً على المائدة المنخفضة. ثم رتبت الحليب والزبدة والخبز المقمر وعليه فاكهة.

قالت الكونتيسة: «أنا سعيدة جداً. لم أعد وحيدة الآن».

فأجبت: «ولا أنا. وبينما أنا جالس هنا أستطيع أن أفهم معنى النبل والجمال واللطف».

وتوهجت وجنتا الكونتيسة الشاحبتان لكنها لم تقل شيئاً. ورأيت ومضة تلتمع في عينيها. لابد أنها قالت لنفسها بغضب وضيق: فليأخذ الشيطان النبل والجمال واللطف. ما يهم هو الشباب. الشباب ولا شيء سواه.

فرزت لي غرفة واسعة تحتوي على سرير كبير، وعليه ظلة مخملية. نافذتان واسعتان تطلان على الشارع. كنت أستطيع رؤية باحة دير سانت كلير أمامي، والراهبات يرحن ويجئن بصمت. وعلى جانبي الرأس لكل منهما يتدلى طرفا القبعة البيضاء.

كان البرج والسطح والباحة مليئة بالحمام. والدير كله يتنهد بمودة كهديل حمامة هائلة. «ماذا تفعل الراهبات بهذا الحمام كله؟». هكذا سألتني الكونتيسة ذات يوم. «يا للخجل! ألا

Twitter: @ketab_n

يرينه ويسمعنه؟ ألا يعرفن كم هو مخز! يجب أن يطردنه. أو لعله من الأفضل لهن أن يذبحنه ويأكلنه، فيتخلصن منه! لكي نتخلص نحن منه».

بقيت في أسيزي ثلاثة أشهر. القديس فرانسيس والكونتيسة أيريشيتا هما اللذان أبقياني ولم يسمحا لي بالرحيل. وأين سأذهب؟ إن كانت السعادة هي غاية الحياة فلم أرحل؟ وأين سأستطيع أن أجد رفيقاً أعز وأوثق من القديس فرانسيس، الذي كنت أذهب لزيارته في بيته كل يوم؟. أو رفقة أجمل من الكونتيسة تلك القديسة كلير الحية؟ طوال النهار كنت أظل أتمشى في أوجريا البهية مقتفياً آثار القديس عبر غابات الزيتون والكروم.

ورأيت الربيع كله موكباً فرانسيسكانياً من الفيوريتي الحمراء والصفراء والبيضاء الناصعة: القديس فرانسيس مع حاشية من الورود ينهض مرة ثانية من أرض أسيزي ليحيي أخاه الشمس[5]. والأخ الريح والأخت النار وأخانا المرح الصغير الماء. والفتى الكريتي السعيد إلى جانبها.

كنت أعود كل مساء إلى البيت متعباً وسعيداً. ستكون النار مشتعلة والكونتيسة منتظرة بذراعين مفتوحتين على كرسيها الواطئ مرتدية ملابسها، ومزينة شعرها، وعلى وجهها بعض المساحيق. كانت تجلس، حزينة وصامتة كعادتها، وعيناها مغمضتان. ولكنها ما إن تسمع الباب، وتحس بخطواتي حتى تفتح عينيها. تشير إلى الكرسي المجاور لها، وتلمس ركبتي بيدها الممدودة.

«تحدث. تحدث. افتح فمك ولا تتوقف. هذه هي متعتي الوحيدة». وأفتح فمي، وأحدثها عن كريت وعن والدي ونساء جيراننا وعن الحروب الكريتية من أجل الاستقلال والأمير جورج حين خطا على الأرض الكريتية. الجزيرة كلها مزينة بالريحان والغار، والمحاربون القدماء ـ بلحاهم البيضاء الطويلة وأجسادهم المندوبة بضربات السيوف ـ ينحنون ليقبلوا يد الأمير.

كان أحدهم يدوس فوق الآخر لأنهم لم يكونوا يستطيعون أن يروا. فقد كانت عيونهم مليئة بالدموع. وفي مناسبات أخرى حكيت لها عن الصبية الإيرلندية وعن صعودنا الى بسيلوريتي وما فعلناه هناك حين كنا وحيدين في الكنيسة الصغيرة، وفراقنا الذي تبع ذلك.

وسألت الكونتيسة المدهوشة: ولكن لماذا؟ لماذا؟ ألم تسعدك تلك العزيزة المسكينة؟

ـ نعم كنت سعيداً جداً.

ـ إذن؟

ـ من أجل ذلك بالتحديد يا كونتيسة.

---

(5) تعامل الشمس على أنها مذكر.

Twitter: @ketab_n

ـ لم أفهم.

ـ سعادة أكثر مما يحتاج إليها شاب. كنت في خطر.

ـ خطر من ماذا؟

ـ من أحد الاحتمالين التاليين: إما أن أتعود على هذه السعادة بحيث أنها تفقد جدتها وبهاءها، أو أن لا أتعود عليها وأعتبرها دائماً بالعظمة نفسها. وفي هذه الحالة سأضيع نهائياً. لقد رأيت ذات مرة نحلة تغرق في عسلها وتعلمت درساً.

وغرقت الكونتيسة في تأمل طويل. ثم قالت أخيراً: «أنت رجل. إنك لا تحمل هذا وحده في عقلك. لديك أمور أخرى. أما بالنسبة لنا نحن النساء..».

ذلك المساء لم نقل شيئاً آخر. راح كل منا يحدق إلى النار بصمت حتى منتصف الليل.

كانت، أحيانا، ترسل لي إيرميلاندا لتسألني: «هل تستطيع الكونتيسة أن تأتي لزيارتك عصر اليوم؟» فأخرج فوراً لشراء الحلويات والزهور وأعود لانتظارها. وفي الساعة المحددة كانت تقرع الباب بلطف وتردد. وأهرع لفتحه لها. فتدخل، وهي مضرجة بحمرة الخجل، وكأنها فتاة في الخامسة عشرة خارجة للمرة الأولى مع فتى. كانت تظل فترة طويلة وهي مشوشة وعاجزة عن الكلام. ثم تبدأ في التجاوب معي بكلمات موجزة وعيناها مطرقتان وصوتها متردد. وكان قلبي ينفطر إلى نصفين. يكفي أن ترى كيف يعود الخجل والعذرية من جديد، وكيف ينتعشان وينبعثان في المرأة الحقيقية. لا يموتان بل يمنحانها ألقاً يائساً ومريراً في أرذل العمر.

وفي اليوم الذي كان علي فيه أن أرحل ألقت الكونتيسة بذراعيها على عنقي، وجعلتني أقسم أن أعود لزيارة أسيزي ولرؤيتها.

«وبأسرع ما تستطيع». وحاولت أن تضحك فلم تستطع واندفعت الدموع من عينيها. «بسرعة لأنني ربما أكون قد رحلت في ذلك الحين». لم تكن تقول «مت»، بل كانت تقول «رحلت».

وحافظت على وعدي. وبعد عدة سنوات استلمت رسالة من متلقي اعترافها دون ديونيجي: تعال. الكونتيسة ترحل.

كنت في أسبانيا. أرسلت برقية وسافرت فوراً.

قرعت باب مقرها بيد مرتعشة وأنا أحمل باقة من الزهور البيضاء.

هل هي حية أم ميتة؟ فتحت أرميلاندا الباب. ولكنني لم أجرؤ على سؤالها فقدمت لها الزهور.

قالت: الكونتيسة تنتظرك. إنها في سريرها. لا تستطيع أن تمشي الآن.

رأيتها جالسة في سريرها. شعرها مسرح ومجوهراتها عليها، وقليل من المساحيق

Twitter: @ketab_n

الحمراء على وجنتيها الشاحبتين، وشريطة قرمزية مربوطة حول رقبتها لإخفاء التجاعيد. وكانت قد لمّعت أظافرها. وكانت هذه أول مرة أراها تفعل ذلك. مدت ذراعيها وارتميت بينهما. ثم جلست على جانب السرير، ورحت أنظر إليها. كم كانت محافظة على جمالها وهي في الثمانين وأية حلاوة وأسى في عينيها..

قالت بصوت هامس: إنني راحلة. راحلة.

وكنت على وشك أن أفتح فمي لكي أعترض وأريحها. لكنها أمسكت بيدي وكأنها تستأذنني. وتمتمت من جديد: «إنني راحلة..».

حل الليل. ودخلت أرميلاندا لتشعل المصباح. لكن الكونتيسة لم تسمح لها.

كنت أستطيع رؤية الومضة الباهتة على وجهها في الغسق: صارت عيناها حفرتين واسعتين مليئتين بالليل. وحين تكاثف السواد أدركت أن الكونتيسة قد رحلت بصمت ويأس.

بعد بضع ساعات وقرابة منتصف الليل كانت قد رحلت.

Twitter: @ketab_n

19

صديقي الشاعر جبل آتوس

كم يصعب على الروح، وكم يشق عليها، أن تفصل نفسها عن جسدها. العالم: عن الجبال والبحار والمدن والناس. إن الروح أخطبوط. وهذه الموجودات كلها أذرعه.

هيمنت إيطاليا على روحي كما هيمنت روحي على إيطاليا. اتحدنا الآن اتحاداً لا انفصام بعده. ليست هناك قوة على الأرض أكثر استعمارية من الروح البشرية. إنها تحتل وتتعرض بدورها للاحتلال. غير أنها دائماً ترى إمبراطوريتها ضعيفة. ولأنها تحس بالاختناق فإنها ترغب في أن تفتح العالم لكي تتنفس بحرية.

هكذا كانت رحلتي الأولى، البكر، إلى أوروبا الغربية. وعلى الرغم من أنني لم أدرك ذلك في حينه، إلا أن الحدود الإقليمية في داخلي بدأت تتلاشى. رأيت أن العالم أغنى وأوسع من اليونان. و أن الجمال والمعاناة والقوة يمكن أن تظهر بملامح أخرى إلى جانب تلك الملامح التي أعطتها إياها كريت واليونان. وكم من المرات، وفيما أنا أحدق إلى الأجسام الجميلة في رسومات عصر النهضة، الأجسام المتألقة بخلود ظاهري، كان يهيمن عليّ حزن لا يحتمل، ونقمة عارمة لأن الأشكال الإلهية التي كانت ستار تلك الرسوم قد تفسخت واستحالت إلى تراب، فالجمال والبهاء البشريان لا يستطيعان أن يعرضا نفسيهما تحت الشمس لأكثر من وهلة. وانفتح الجرحان العظيمان في داخلي. ومنذ تلك الرحلة الأولى صار الجمال يترك على شفتي مذاق الموت. وكانت النتيجة أن روحي ازدادت غنى. لقد وجدت مصدراً آخر للعصيان. ذلك أن روح الشباب البسيطة لا تستطيع أن تتسامح مع منظر الجمال وهو يتناقص إلى لا شيء، بينما يقف الإله جانباً، ولا يرفع يده ليجعل الجمال خالداً. لو كنت إلهاً، هكذا يفكر الشاب، لوزعت الخلود بلا حساب، ودون أن أسمح ولو مرة واحدة لجسد جميل أو لروح شجاعة أن تموت. أي نوع من الآلهة ذلك الذي يقذف بالجميل والقبيح، بالشجاع والجبان في الحمأة ذاتها ويدوسها بقدمه دون تمييز، ويحولها كلها إلى وحل؟ إما أنه ليس عادلاً؛ وإما أنه القادر على كل شيء ـ وإلا فإنه، ببساطة، لا يفهم.

Twitter: @ketab_n

ودون أن يعرف الشاب يكون، على الأغلب، قد بدأ سراً في صنع إله في داخله، إله لا يُخجل قلبه.

حين سئل إرنست رينان ذات مرة عما إذا كان يؤمن بخلود الروح، أجاب ذلك المشعوذ العجوز الداهية: «لا أرى سبباً لجعل بقّالنا خالداً أو لجعلي أنا. لكنني أرى سبباً لضرورة عدم موت الأرواح العظيمة حين تغادر أجسادها». هكذا عدت إلى اليونان، مجروحاً. كنت مضطرماً بثورة ذهنية واضطراب روحي. وكل شيء في داخلي متضارب ومتردد. لم أكن أعرف ما الذي سأفعله بحياتي. قبل كل شيء كنت أريد أن أجد جواباً، جوابي، على الأسئلة الأبدية. وبعد ذلك أقرر ما الذي سأصير إليه أنا. قلت لنفسي إن لم أبدأ باكتشاف الهدف الأسمى للحياة على الأرض فكيف سأتمكن من وضع هدف لحياتي القصيرة الفانية! وكيف سأنهمك في العمل؟ لم أكن منشغلاً في اكتشاف الهدف من الحياة موضوعياً ـ لقد تكهنت بأن هذا مستحيل ولا طائل تحته ـ بل كنت ببساطة منشغلاً في اكتشاف الهدف الذي أستطيع أنا، وبإرادتي الحرة، أن أمنحه للحياة وبما يتلاءم مع حاجاتي الروحية والعقلية.

وفي ذلك الحين لم يكن يعنيني كثيراً ما إذا كان هذا الهدف هو الهدف الحقيقي أم لا. كان الأمر الهام، بالنسبة لي، هو أنني يجب أن أجد (أو أخلق) هدفاً منسجماً مع نفسي ذاتها. وباتباعه أستطيع إثارة إمكانياتي ورغباتي الخاصة إلى أقصى حد ممكن. وعندها أخيراً سأكون متعاوناً بانسجام تام مع كلية الكون. وإذا كان الانشغال بهذه الاهتمامات الميتافيزيقية في الشباب مرضاً فقد كنت، في ذلك الوقت، مريضاً جدًا.

لم يكن هناك أحد في أثينا. أما أصدقائي فقد استطاعت اهتمامات الحياة اليومية أن ترجح عقولهم وتهدئ قلوبهم. قال لي أحدهم: ليس لدينا الوقت للتفكير.

وأعلن آخر: «ليس لدينا الوقت للحب».

وقال لي ثالث، وهو يضحك: «أنت منشغل إذن بالهدف من الحياة. أليس كذلك؟ يا لك من مسكين! لِمَ تنشغل بذلك؟».

تذكرت الجواب الذي قدمه لي الفلاح حين حلق طائر فوق رؤوسنا وانشغلت بالسؤال عن اسمه. نظر إلي ساخراً وقال: يا لك من مسكين. لِمَ تنشغل بذلك؟ إنه لا يؤكل.

وتقدم صديق من المدينة فألقى علي نظرة ساخرة ثم غنى:

«سأغني لك أغنية، من أجمل ما أستطيع:

أن تتبرز وتأكل وأن تتبول وتشرب.

تلك هي حياة الإنسان».

بالنسبة للمفكرين: غيرات صغيرة، وخصومات صغيرة، وثرثرة وعجرفة. بدأت أكتب لكي أحول صرختي الداخلية، وأمنع نفسي من الانفجار. تعودت أن أصعد إلى عش الدبابير

Twitter: @ketab_n

الأدبي الخطير والعظيم في ساحة ديكساميني. أجلس في زاوية وأصغي. لم أكن أثرثر، ولا أتردد على الحانات ولا ألعب الورق. كنت شخصاً لا يطاق. وكانت مآسيّ الثلاث قد بدأت تكتسي باللحم بألم في أعماقي. وأشعار المستقبل لم تكن، بعد، إلا موسيقى تكافح لكي تتجاوز كونها مجرد أصوات ولكي تصبح كلاماً.

كانت هناك ثلاث شخصيات ـ أوليس ونيسيفوروس فوكاس والمسيح ـ تجاهد في أعماقي لكي يصبح لها وجوه، ولكي تنتزع أنفسها من أحشائي وتتحرر لعلي أستطيع، بدوري، أن أتحرر. طوال حياتي وأنا واقع تحت سيطرة الشخصيات البطولية العظيمة. ربما لأنني قرأت حياة القديسين بكثير من التأثر في طفولتي. وكنت أتوق لأن أصبح قديساً بدوري. ثم بعد ذلك كرست نفسي، بالانفعال ذاته، للكتب التي تتحدث عن الأبطال: الفاتحين والمكتشفين والدون كيشوتيين. وحالما يصدف أن تجمع شخصية ما بين البطولة والطهارة أحوز على نموذجي من الكائن البشري. وبما أنني لم أستطع أن أكون قديساً أو بطلاً فلقد حاولت، عن طريق الكتابة، أن أجد بعض العزاء عن عجزي.

وكنت غالباً ما أقول لنفسي: أنت معزاة. وأنا أحاول أن أضحك لئلا أنفجر بالبكاء. نعم، معزاة. روح عجوز مسكينة. أنت تحس بالجوع. ولكن بدلاً من أن تشرب الخمر وتأكل اللحم والخبز تأخذ قطعة من الورق الأبيض وتضع عليها كلمات الخمر واللحم والخبز ثم تأكل الورقة.

وذات يوم بزغ ضوء في الظلام. كنت قد انعزلت في مخبأ في كيفيسيا، في بيت صغير محاط بأشجار الصنوبر. لم أكن يوماً حاقداً على البشر، بل الحقيقة أنني كنت، دائماً، أحب الناس (عن بعد). وكلما جاء شخص لزيارتي، يستيقظ الكريتي في أعماقي، وأمنح نفسي إجازة لكي أرحب بهذا الإنسان في بيتي. ولفترة لا بأس بها كنت أستمتع وأنا أصغي إليه وأدخل أفكاره. وإن استطعت مساعدته بأية طريقة فإنني أفعل ذلك بفرح. ولكن ما إن تطول المحادثة أو الصلة حتى أنسحب إلى نفسي، وأتمنى أن أترك وحيداً. ويحس الناس أن لا حاجة لي بهم، وأنني أستطيع العيش من دون التحدث إليهم. وهذا ما رأوا أنه من المستحيل التسامح به معي. هناك قلة من الناس أستطيع العيش معهم مهما طال الوقت دون أن أحس بالانزعاج.

ولكن ذات يوم بزغ الضوء. في ذلك اليوم التقيت شاباً من عمري في كيفيسيا. أحببته واحترمته دون حدود. هو واحد من القلة الذين كنت أحس أنهم مقبولون في حضورهم، أكثر مما هم مقبولون في غيابهم. كان حسن المظهر إلى درجة كبيرة. وكان يعرف بذلك. وكان شاعرًا غنائياً كبيراً وكان يعرف بذلك. كان قد كتب قصيدة طويلة مدهشة قرأتها أكثر من مرة وأنا أكتشف متعة لا تهدأ في نظمها ولغتها وجوها الشاعري وانسياقها السحري.

كان هذا الشاعر من فصيلة النسور. وصل القمة من أول خفقة بجناحيه. وبعد ذلك

Twitter: @ketab_n

الحين حاول أن يكتب النثر فرأيت أنه نسر حقيقي. ذلك أنه حين توقف عن الطيران وحاول، بدلاً منه، أن يسير على الأرض كان ثقيلاً وغريباً كنسر يمشي. الجو عالمه. لديه جناحان وليس لديه عقل أرضي جامد. كان يرى بعيداً، أو بشكل مبهم، ويفكر بالصور. وكانت الشخوص الشعرية بالنسبة له حججاً منطقية لا تتزعزع. وكلما شوشه الاستدلال المنطقي، ولم يستطع أن يجد مخرجاً؛ إما أن تومض صورة براقة في عقله، وإما أن يهتز ضاحكاً ويهرب بهذه الطريقة.

غير أن لديه كرامة سامية عظيمة وفتنة نادرة ونبلاً. حين تراقبه وهو يتكلم، وعيناه الزرقاوان تشعان نشوة، أو حين تسمعه وهو يوقّع على النافذة عند قراءة قصائده، تفهم كيف كان الشعراء الملحميون اليونانيون القدامى، والشعراء الذين يتجولون من قصر إلى قصر مكللين بأوراق الكرمة أو بالبنفسج، وهم يرضون مستمعيهم الذين لا يزالون متوحشين بوساطة الشعر. والحقيقة أنني منذ اللحظة الأولى التي رأيت فيها هذا الشاعر الشاب، أحسست أنه شرف للجنس البشري.

صرنا صديقين بشكل مفاجئ وفوري. كنا مختلفين كثيراً. وتكهنّا أن كلا منا في حاجة للآخر. وأننا، معاً، سنشكل الإنسان الكامل. وبسبب امتلائي بالأسئلة والكفاحات الميتافيزيقية ظللت محصناً ضد الانخداع بالمظاهر الباهرة، لأنني تكهنت بالجمجمة تحت الوجه الجميل. كنت خالياً من السذاجة، وغير واثق من أي شيء. لم أولد أميراً. ولكنني كنت أجاهد لكي أصبح أميراً. أما هو فكان مرحاً وعظيماً وواثقاً من نفسه. يمتلك لحماً نبيلاً وإيماناً واضحاً ومولّداً للقوة بأنه خالد. لا شك أنه ولد أميراً. وليس عليه أن يعاني أو أن يكافح لكي يصبح أميراً. وليس عليه أن يتوق إلى القمة طالما أنه ـ وكان واثقاً من هذا أيضاً ـ قد وصل إليها. كان مقتنعاً أنه فريد من نوعه. وليس هناك من يحل محله. ولن يتنازل لمقارنة نفسه بأي فنان عظيم آخر، حياً كان أم ميتاً. وقد منحته هذه السذاجة قوة وثقة في النفس عظيمتين.

حكيت له ذات مرة كيف تطير ملكة النحل في الجو يوم زفافها يتبعها جيش من اليعاسيب التي تحاول اللحاق بها. وينجح واحد ـ هو العريس. يتزوجها ثم يسقط ميتاً على الأرض. قلت له: «الخاطبون كلهم يموتون راضين. لأن كلاً منهم يحس بمتعة العريس في عرسه ـ وكأنهم قد توحدوا كلهم في واحد».

لكن صديقي انفجر في ضحكة مدوية: «لا أفهم ما تقوله أبداً. العريس يجب أن يكون أنا. أنا وليس أي شخص آخر».

وأجبته ضاحكاً: «لا تسمى الروح: أنا. بل تسمى: كلنا». وذكّرته بكلمات صوفي حبيب: أحس أنني المتوج رغم أن الآخرين هم المنتصرون.

Twitter: @ketab_n

وفيما بعد. حين عرفته أكثر. قلت له ذات يوم: الفارق الكبير بيننا يا أنجيلوس، هو أنك تؤمن بأنك قد وجدت خلاصك. وباعتقادك هذا نجوت. أما أنا فأؤمن أن الخلاص غير موجود. وباعتقادي هذا نجوت.

في مكمن في أعماق نفسه، كان هناك ضعف لطيف للغاية وملزم للغاية. كانت لديه حاجة ماسة لأن يكون موضع حب وإعجاب. فإن استطعت أن تخترق وجهه المزهو بالانتصار ولهجته الواثقة الصادحة ترى أرستقراطيا قلقاً يمد يده لكل عابر. قال لي واحد من أصدقائه ذات مرة، وهو شخص ساخر: إنه يمثل دور السلطان. ولكنه في الحقيقة سلطانة.

كان الكثيرون يعتبرونه ممثلاً أو منافقاً، وذلك انطلاقاً من الغيرة منه، أو من الكره للتيه الملازم لحياته الخارجية. وكانوا يدّعون أنه لا يؤمن بشيء، وأن أقواله كلها وأفعاله كلها كذب وتباهٍ، وأنه طاووس دائم العرض لريشه الزاهي. ولكن لو نتفته لن تجد إلا دجاجة عادية لا أهمية لها.

لا. لم يكن منافقًا. حياته الخارجية ـ الكلام الكبير والعجرفة والمباهاة، والتأكيد على أنه فريد زمانه وعلى قدرته على القيام بالمعجزات ـ هذا كله كان منسجماً مع الصدق المطلق ومع الثقة الداخلية العميقة. لم يكن يتظاهر أنه فريد. بل كان يؤمن بذلك فعلاً. .كان يستطيع أن يضع يده في النار واثقاً من أنه لن يحترق. وكان يستطيع أن يزج بنفسه دون حذر في معركة مع ثقته التامة بأنه لن تصيبه رصاصة. يأكل الكثير ويتباهى بذلك، لأنه كان واثقاً أن كل ما يأكله سوف يتحول إلى روح. وقد اعتاد أن يقول: أما الآخرون. . أما الآخرون. .

وذات يوم بينما كنا نتمشى في الحي القديم من أثينا قال: أحس اللّه كثيرا في داخلي. بحيث أنك لو لمست يدي في هذه اللحظة لا نبعث منها الشرر.

لم أقل شيئاً. وحين لاحظ صمتي سألني: «ماذا؟ ألا تصدقني؟ حاول. المسها». ومد لي يده. لم أشأ أن أهينه. قلت له: طيب أنا أصدقك. فلم علي أن أجرب؟

كنت واثقاً، بالطبع، أن الشرر ينبعث منها. ولكن هل كنت واثقاً حقاً؟ من يدري؟! أحس الآن بالأسف لأنني لم أجرب.

أنجيلوس منافق؟ ربما كان كذلك لو أنه اتخذ مظهر البساطة والكياسة. لكنه كان أصدق إنسان في العالم. ولقد تأكدت من ذلك ذات يوم، حين رأيت حادثاً تجاوز حدود الفكاهة ودخل حدود الحماقة الخطرة المحرقة.

كنا نقيم في منزل ريفي تحيط به أشجار الصنوبر على الشاطئ. وكنا نتمشى لمسافات طويلة معاً، نقرأ دانتي والعهد القديم وهوميروس. وهو يتلو أشعاره علي بصوته الراعد. تلك كانت الأيام الأولى لتآلفنا. أيام الخطبة. كنت مغتبطاً جداً لأنني وجدت شخصاً عاجزاً عن التنفس في أي مكان إلا على أعلى مستويات الرغبة. ورحنا ندمر العالم ونعيد بناءه. وكان

Twitter: @ketab_n

كل منا يعرف أن الروح خارقة القوة، مع فارق بسيط أنه هو كان يؤمن بأن هذا خاص بروحه بينما كنت أرى أن هذا لأرواح الجنس البشري كله.

وبعد عصر أحد الأيام بينما كنا نتهيأ للقيام بمشوارنا المسائي، وكنا لا نزال نقف على العتبة ونحن ننظر إلى البحر، ومن سيصل عدواً إلا موزع بريد القرية؟ أخرج من حقيبته رسالة وأعطاها لصديقي ثم انحنى على أذنه وقال بصوت حزين وخائف: لديك أيضا رزمة كبيرة. لكن صديقي لم يسمع. راح يقرأ الرسالة ووجهه يصبح قرمزياً ثم ناولني إياها: اقرأ.

أخذت الرسالة وقرأت: العزيز بوداكي. جارنا الخياط قد مات. يا للمسكين. إنني أرسله إليك. أرجوك أن تحييه. وكانت الرسالة تحمل توقيع زوجته.

نظر إلي نظرة قلقة، وقال: «أتظن أني.. هل الأمر صعب؟». هززت كتفي، وقلت: «لا أدري. الحوادث كلها.. نعم. صعب جداً». لكن ساعي البريد كان على عجلة. فسأل، وهو ينهض على قدميه: ماذا أفعل بالرزمة؟

ـ «حوّلها». أجاب صديقي بجفاف، والتفت ليتطلع إلي من جديد، وكأنه يتوقع مني التشجيع. لكنني

أحسست بارتباك شديد ولم أقل شيئاً.

وقفنا صامتين ورحنا ننتظر. كانت الشمس على وشك المغيب، والبحر قد أصبح وردياً غامقاً، وصديقي ينتظر وهو يعض شفتيه. وسرعان ما ظهر قرويان يحملان نعشاً متواضعاً يحتوي على الخياط في داخله.

وأمر صديقي: «اجلبوه إلى الطابق العلوي». وقد اسود وجهه الزاهي. ثم التفت مرة أخرى، ونظر إلي قائلاً: «ماذا تظن؟»، وهو يحدق مباشرة في بؤبؤ عيني. «أتعتقد أنني أستطيع أن أفعل ذلك؟» فأجبته: «حاول. سأتمشى».

تمشيت على الشاطئ. ورحت أستنشق عبير الصنوبر والبحر. وقلت لنفسي: الآن سنرى ما إذا كان منافقاً أم أن لديه روحاً مغامرة ومجازفة مستعدة لأن ترغب في المستحيل، وأن تحاول تحقيقه. ما الذي سيفعله؟ هل سيحاول أن يبعث الجثة حية؟ أم أنه سيخاف من أن يبدو مضحكاً. ولذا سيتسلل كالثعلب الماكر ويزحف بهدوء إلى سريره؟ سنرى الليلة. رحت أمشي بأسرع ما أستطيع، وقلبي هائج، وأنا أرتعش لفكرة أن روح صديقي يجب أن تخضع للاختبار بهذه الطريقة أمامي.

كانت الشمس قد غطست لتوها وراء الأفق. وجاء النعيب الأول والحزين والناعم للبوم من غابة الصنوبر. وبدأت قمم الجبال البعيدة تذوب في الظلام. أطلت مشواري متعمداً لانزعاجي من فكرة العودة إلى البيت. فوجود الجثة كان يزعجني كتحصيل حاصل. ولم يسبق لي أن استطعت مواجهة جثة دون أن أهتز خوفاً وقرفًا. وكنت، من جهة أخرى، راغباً

Twitter: @ketab_n

في تأجيل رؤية الكيفية التي سيتصرف بها صديقي في هذه اللحظة الحاسمة قدر ما أستطيع.

وحين وصلت إلى البيت، كانت غرفة صديقي، التي تقع فوق غرفتي، تشع بالأضواء. ولأنني لم أحس برغبة في العشاء توجهت إلى سريري. ولكن كيف سأنام طوال الليل وأنا أسمع من فوقي خوارًا أخرس وقرقعة السرير تتبعها مباشرة خطوات ثقيلة تروح وتجيء في الغرفة لمدة طويلة ثم الأنين والقرقعة من جديد؟ واستمرت الحال هكذا طوال الليل. بين حين وآخر كنت أسمع صديقي يتنهد بعمق ويفتح النافذة، وكأنه يطلب الهواء لئلا يختنق. وعند الفجر نمت إعياء. وحين استيقظت ونزلت إلى الطابق السفلي كان الوقت متأخراً. وكان صديقي يجلس على المائدة والحليب أمامه لم يمس. حين رأيته خفت. كان شاحباً كالموتى، وشفتاه كرماد الموتى. وهالتان زرقاوان كبيرتان حول عينيه. لم أكلمه. جلست إلى جانبه وانتظرت، والقلق يأكلني.

قال أخيراً، وكأنه يرغب في تبرير نفسه: «لقد فعلت ما استطعت. أتذكر كيف أحيا النبي أليشاع[1] الميت؟ استلقى بكل جسده فوق الميت ووضع فمه على فمه ونفخ فيه زفيراً. لقد فعلت مثله». وصمت للحظة، ثم قال: «طوال الليل. الليل بطوله. ولا فائدة».

حدقت إلى صديقي بإعجاب ودهشة. لقد دخل بالفعل في حدود المضحك. لكنه عَبَرَهُ ليصل إلى الحدود المأساوية للحماقة. وها هو ذا يعود الآن ويجلس قربي منهكاً. والتفت إلي يسألني: «وما العمل الآن؟». أجبته: «أدع القس لدفنه. أما نحن فنتمشى على الشاطئ».

ناولته ذراعي الذي يرتعش. وخلعنا أحذيتنا وجواربنا ورحنا نخوض على الشاطئ لننعش أنفسنا. ورغم أنه لم يتكلم، إلا أنني أحسست به يهدأ ببرودة الماء والأمواج الخفيفة. وهمس أخيراً: «إنني خجل. أيعني هذا أن الروح عاجزة؟». أجبته: «ليست بعد. ولكنها ستصير هكذا. لقد قمت بعمل مدهش في شجاعته لمجرد أن ترغب في تجاوز الحدود البشرية؛ غير أنه عمل مدهش أيضاً أن تعترف بهذه الحدود دون خوف ودون يأس. سنضرب الجدران برؤوسنا ثم نعود إلى ضربها. ستحطم رؤوس عديدة ولكن ذات يوم ستنهار الجدران».

فأعلن لي بعناد، وهو يلقي بحجر كبير إلى البحر: «الرأس الذي سيحطمها يجب أن تكون رأسي. هذا ما أريده. رأسي». وعلا صراخه: «رأسي. وليس رأس أي شخص آخر».

ابتسمت. هذه الـ «ياء» و «الياء» والأنا والأنا كانت سجن صديقي. زنزانة دون أبواب أو نوافذ.

سألته محاولاً أن أريحه: «أتعرف أعلى ذروة يستطيع أن يصل إليها الإنسان؟ إنها قهر النفس. الأنا. حين نصل إلى هذه الذروة، وعندها فقط، سوف ننجو يا أنجيلوس».

(1) أليشاع: نبي عبراني من أتباع أليجا. وأليجا نبي يعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد.

Twitter: @ketab_n

لم يقل شيئاً. لكنه راح يضرب الأمواج بكعبه مهووساً. وصار الجو بيننا ثقيلاً.

قال: فلنعد إلى البيت. لقد تعبت.

الحقيقة أنه كان غاضباً، ولم يكن متعباً. ولم نتبادل كلمة واحدة طوال طريق العودة. سرنا مسرعين. كان النسيم يهب، والبحر يتنهد. وكان الهواء رطباً ومالحاً. وحين وصلنا إلى البيت أشرت إلى مكتبة صديقي الضخمة باذلاً جهدي للتخلص من الحادث السيئ. قلت له: «إسمع. سأغمض عيني وآخذ كتاباً. والكتاب سيقرر».

سألني صديقي مغتاظاً: ماذا سيقرر؟

ـ ما سنفعله غداً.

أغمضت عيني وتلمست بيدي حتى أمسكت كتاباً. اختطفه صديقي من أصابعي وفتحه. كان ألبوم صور: أديرة وكهنة وأبراج وأشجار سرو وكهوف فوق صخور هاوية منحدرة على البحر، والبحر يضطرم تحتها.

هتفت: «جبل آثوس». أضاء وجه صديقي وصرخ: «هذا ما أردته بالضبط. إنني أتمناه منذ سنين وسنين. فلنذهب». ومد ذراعيه، وضمني إلى صدره بعنف. ثم سألني: «أأنت مستعد؟ هل نلبس أحذيتنا ذات السبعة فراسخ. نحن غيلان. أليس كذلك؟ البس حذاءك ذا السبعة فراسخ لكي تطأ الجبل المقدس».

المطر يهطل. وقمة آثوس تختبئ وراء ضباب كثيف شامل. والبحر هادئ وموحل وهلامي. ودير يتلامع أبيض ناصعاً وسط أشجار الكستناء المسودة بالمطر. لقد نزلت السماء إلى ذرى الأشجار. وكان المطر منهمراً وصامتاً، من ذلك النوع الذي تتشربه الأرض. وخمسة رهبان أو ستة مبللون يقفون على الرصيف كأشجار السرو.

كان إلى جوارنا راهبان يتحدثان وهما جالسان في قارب تجذيف ينقلنا إلى داخل المرفأ الصغير في الجبل المقدس. كان أصغرهما، ذو اللحية السوداء القليلة الشعر، يتأبط كيساً ثقيلاً، ويقول: «مجرد سماعه وهو يغني ينسيك العالم. صوته أحلى من أب أو أم».

أجاب الآخر: «ما الذي تحاول أن تقوله لي؟ لدينا في ديرنا شحرور يغني: «أبانا. إنني أناديك!» و«المسيح قام» إنه يدير رؤوسنا ونحن نسميه الأب الشحرور. إنه يذهب معنا إلى الكنيسة ويصوم طوال الصوم الكبير».

فقال الراهب الشاب بعد فترة تأمل: لا يمكن إذن أن يكون شحروراً يا أب لافرينديوس. أبداً. لا يمكن أن يكون شحروراً.

ترجلنا على الأرض المقدسة. وألقى الراهبان، وهما يقفان على رصيف الميناء، بنظرات خبيرة على كل شخص ينزل من القارب كأنما يبحثان عن امرأة متنكرة بثياب رجال ومتخفية بين المسافرين. خلال الألف سنة، منذ أن نذر الجبل المقدس للعذراء، لم تدس

Twitter: @ketab_n

امرأة تلك المنطقة. ولم يُدنِّس الهواء بنفس أنثوي، ولا حتى إناث الحيوانات ـ نعاج أو ماعز أو دجاجات أو هررة. الهواء مشبع فقط بأنفاس الذكور.

انطلق مرافقانا المسافران وراءنا محملين كبغلين. وراحا يوسعان خطاهما لكي يلحقا بنا. وسألنا الراهب الشاب مبتسماً: حجاج؟ فلتكن بركتها في عونكم.

القديسون دائماً شغوفون بالكلام. وهذان الاثنان اللذان يتصاعد منهما البخار يتحدثان عن المعجزات والآثار المقدسة والزهاد الذين رفعوا أذرعهم مصلين على قمم الجروف الهائلة. قال الفتى: وطالما أنهم يرفعون أذرعهم لا داعي للخوف من انهيار العالم. إنهم يسندون العالم ويمنعونه من الانهيار.

وسألته: أصحيح أنه لم يسبق أن داست امرأة هذا الجبل المقدس؟

«أبداً. أبداً». أجاب الأكبر وهو يبصق في الهواء، ويغمغم: «ابق ورائي يا شيطان! أحيانا تبلغ الوقاحة ببعض النساء أن يأتين إلى الشاطئ متنكرات بثياب الرجال. ولكن الرهبان المراقبين يكتشفونهن فوراً ويعيدونهن».

«وكيف يعرفون؟»، سأل صديقي وهو يضحك.

«من الرائحة». أجاب الراهب الشاب: «هو ذا. اسأله. لقد كان ذات مرة خفيراً على الرصيف».

والتفت صديقي إلى الراهب الكبير: «هل للنساء رائحة مختلفة يا أبانا المقدس؟ كيف هي رائحتهن؟».

«مثل الظربان(2) المنتن»، أجاب العجوز وهو يوسع خطاه.

بدأ المطر يخف. لابد أن ريحاً قد هبت في طبقات الجو العليا. وتفرقت الغيوم. وظهر شيء من ضوء الشمس. بغتة ابتسمت الأرض وهي لا تزال تستحم بالدموع. وبرز قوس قزح شاحب في الجو إلى جانب الشمس مجدداً الصداقة بين السماء والأرض المبللة. «زنار العذراء!»، هتف الراهبان وهما يرسمان الصليب.

وتابعنا تسلقنا على ذلك الطريق المرصوف بالحصى والمؤدي إلى كاريسي، ونحن نتعكز على عصيّنا القوية المقطوعة من السنديان وحقائبنا على ظهورنا. مررنا بغابة كثيفة من أشجار الكستناء الخفيفة الخضرة، وأشجار الفستق والغار ذي الورق العريض. كان الهواء مشبعاً برائحة البخور، أو هذا ما خيل لنا. وأحسسنا وكأننا ندخل كنيسة هائلة مركبة من البحر والجبال وغابات الكستناء وسقفها السماء الصافية بديلاً عن القبة. التفت إلى صديقي راغباً في تبديد الصمت الذي بدأ يثقل علي. واقترحت عليه: لم لا نتحدث قليلا؟

(2) حيوان ثديي صغير نتن الرائحة.

Twitter: @ketab_n

«إننا نفعل»، أجاب صديقي وهو يلمس كتفي لمسة خفيفة. «إننا نتحادث ولكن بالصمت! بلسان الملائكة». ثم، بغتة، بدا عليه أنه بدأ يغضب: «وماذا تنتظر منا أن نقول؟ إن هذا جميل؟ وإن قلوبنا قد نبتت لها أجنحة؟ وإنها تريد أن تطير؟ وإننا قد بدأنا نسير على طريق يوصل إلى الفردوس؟ كلمات. كلمات. كلمات. ابق صامتاً». اندفع شحروران من شجرة جوز فاهتزت الأغصان المبللة ورشقت وجوهنا قطرات من المطر.

قال الراهب العجوز: لمملكة العصافير رهبانها أيضا ـ الشحارير، إن الجبل المقدس مليء بها.

وسأله الراهب الشاب: وماذا عن النجوم يا أب لافرنديوس. هل لها رهبانها أيضا؟

ـ سبق لها أن كانت رهباناً. كلها يا أخي. هنا على الأرض شهدوا على إيمان المسيح. ثم استشهدوا وسموا إلى حضن إبراهيم. فالجنة، إن كنت لا تعرف، هي حضن إبراهيم.

كنت أصغي إليهما معجباً بروح الإنسان، تلك القوة التي في عزّ قوتها كانت قادرة على تحويل الأشياء كلها وإخضاعها لأحلامها. الروح المؤمنة جعلت كلاً من الأرض والسماء تدور حول نجم قطب واحد هو المسيح، الشخصية الثابتة. وأجبرت كلاً منهما على الدخول في خدمته. المسيح، بالنسبة لهذه الأرواح، هو الجواب الأكبر لكل تساؤل. الأشياء كلها يتم شرحها وإضاءتها وتنظيمها. وبذلك تستريح الروح. ولا يطرح الأسئلة إلا أولئك الذين لا إيمان لديهم. وهم وحدهم يجاهدون ويضلون ويقعون فريسة.

ولكن بعد أيام قليلة وصلنا إلى الجبل المقدس. وقال زاهد نصف معتوه شيئاً بلبلني. كان يعيش في حالة من السعار المنتشي، وهو منزو في كهف مطل على البحر. قلت له، لأغيظه: أيها المسكين. أيها المسكين. لقد فقدت عقلك.

فضحك وقال: لقد تنازلت عن عقلي وأخذت اللّه عوضاً عنه. وبمعنى آخر لقد تنازلت عن فارذنغ[3] مزيف واشتريت الفردوس. فما رأيك يا بني؟ أليست صفقة رائعة؟ وبعد قليل من الصمت تابع: ودعني أقل لك شيئاً آخر لمعلوماتك. مرة كان هناك ملك عظيم لديه ثلاثمائة وخمس وستون زوجة في جناح حريمه. كان جميلاً يحب أن يأكل ويستمتع بوقته. وذات يوم ذهب إلى دير رأى فيه زاهداً. نظر إلى الزاهد مشفقًا، وقال: «أية تضحية عظيمة تقوم بها!» فأجاب الزاهد: «تضحيتك أعظم».

«وكيف ذلك؟»

«لأنني قد تخليت عن العالم الفاني وأنت تخليت عن العالم الخالد».

وبدأ جرس قريب يقرع لصلاة المساء من مكان ما وراء أشجار الجوز. وظهرت قرية الراهبين حين درنا منعطفاً في الطريق فأسرعنا الخطى.

---

(3) عملة ضئيلة القيمة.

Twitter: @ketab_n

البقالون وباعة الخضار والطباخون والباعة الجوالون ومنظفو الشوارع ـ كلهم رهبان. كانت قرية محزنة لا تحتمل. كلهم من الذكور، ودونما امرأة واحدة. ودون طفل. ودون ضحكة. لا شيء إلا الطيور سوداء وصفراء ورمادية وشهباء وبيضاء ناصعة. بعضها منقط وبعضها مشعث كالمكانس التي هي على هيئة الجرس. وبعضها مجعد وكثيف ومغلق كزهور القرنبيط.

ذهبنا إلى البروتاتون، محل الإقامة الذي تنزل فيه وفود العشرين ديراً. وهم متربعون على مقاعدهم بعيون كتومة سريعة الحركة مليئة بالشك. عرفنا عن أنفسنا ـ مسيحيان يخافان الله، يملأهما الحماس لله، وقادمان لتقديم فروض الطاعة. قلنا إننا لا نزال في سن الشباب، وقبل أن نبدأ في تذوق مشكلات العالم، وقبل الزواج، جئنا إلى هنا إلى حديقة العذراء لعل بركتها تنوِّرنا وترينا الطريق الصحيح. لقد جئنا إلى رحمتها كمنذورين.

وبدأ صديقي يصبح أكثر حماساً، وهو يتحدث بصوته المدوي وإلقائه الشعري. استمع إلينا الرهبان بأفواه فاغرة وبعضهم يشد لحيته. وكلما أفاض صديقي في الحديث استطعت، أنا نفسي، أن أسبر معانيه، وأن أفهم السبب الحقيقي الذي جعلنا نأتي إلى الجبل المقدس. ولاشك أن صديقي نفسه لم يكن يعرف السبب. إلا أنه اكتشفه في سياق الحديث.

تهامس الرهبان، وكل منهم ينحني على الآخر. ثم نهضوا كرجل واحد. ومنحونا إذناً مكتوبا بالتجوال في الأديرة وفي الصوامع كلها لنؤدي فروضنا في كل منها، وللبقاء إلى أن تمنحنا العذراء من رحمتها إشارة إلى أن نذرنا قد انتهى.

بدأت رحلتنا. و تجولنا مليئين بالنشوة، من دير إلى دير، ومن معجزة إلى معجزة، ونحن نتحادث بأصوات خرساء كالحجاج القدماء، عن ا لله، ومصير الإنسان، وواجبنا الخاص بنا ـ الموضوعات الدائمة لرحلتنا كلها. كنت أحمل دفتر مذكرات أسجل فيه كل مساء حصيلة اليوم. والآن، بعد أربعين عاماً، أراها مصفرة لطول العهد بها. ولكنني حين أقلب صفحاتها أعيد إحياء تلك الأيام الإلهية التي لا تصدق. أية كلمة، حتى غير الهامة، تعيد الفرح والأشواق إلى الحياة في داخلي. وكذلك تعيد هواجس الشباب، والمشاريع اللاهبة التي وضعتها وصديقي لتخليص أرواحنا ـ عجرفة الشباب ونبله وسذاجته كلها.

دير إيفيرون /19 نوفمبر:

مشوار صباحي على الشاطئ. نبع صغير من الماء المقدس. وكنيسة صغيرة إلى جانبه. وأيقونة العذراء داخلها. والدم يكاد ينفر من خديها. راهبان صيادا سمك يسحبان الشباك. والسمك يتراقص فيها.

عودة إلى الدير. البور تايتيسا ـ سيدة البوابة ـ أية معجزة! عينان حزينتان واسعتان، وفم صغير متموج، وذقن ثابتة ـ فرح وحزن. غبطة البشر وآلامهم كلها.

Twitter: @ketab_n

وفي الليل. أية لحظة قدسية حين رأينا البحر أبيض بهياً يتنهد، والقمر فوقه هائل في كبره. قال صديقي إن القمر الليلة يملأ فعلاً مركزه. كان يضيء الأبدية. تحدثنا بأصوات منخفضة ونحن متقاربان. قلنا إن علينا أن نتخذ قراراً جذرياً. علينا أن نتعرف على الأبدية في كل لحظة.

أينما ذهبنا كان يتبعنا راهب شاحب وصامت. مخلوق مريض كان يسعل ويبصق ويحك نفسه دون توقف. لكن وجهه كان يشع بالسعادة.

قال صديقي: لا بد أنه مجذوب.

وقلت: لا بد أنه قديس. ألا ترى وجهه كيف يضيء؟ تماماً كما لو أن شمساً مسلطة عليه.

وذات مرة توقفنا فانضم إلينا. قال: أنا الأب لافريندويوس المعتوه، ربما كنتم قد سمعتم عني.

أجاب صديقي: أنت محظوظ. لأنك قد دخلت الجنة وأنت لا تزال حياً. وجه منور.

«الحمد لله»، قال الراهب وهو يرسم إشارة الصليب. «ما يسميه الآخرون جنوناً أنا أسميه فردوساً. لكنني عانيت طويلاً حتى فتحت الباب».

ـ أي باب؟

ـ الباب إلى الجنة يا أخي. حين دخلت إلى الدير، في البدء، كنت أرتعش وأبكي خوفاً. كنت

أنتحب لفكرة الجنة وأنتحب لفكرة الجحيم. ولكنني ذات صباح نهضت وقلت لنفسي: لم البكاء؟ الله هو أبونا. أليس كذلك؟ ونحن أبناؤه. أليس كذلك؟ حسن إذن. لم الخوف؟ ومنذ ذلك اليوم سميت بالمعتوه.

وتناول كسرة خبز يابسة من تحت قميصه وناولني إياها. قال: «خبز الملائكة؛ كُلا كُلا. أيها الشيطانان المسكينان لكي تنمو لكما أجنحة أيضاً..».

دير سترافرونيكيتا /21 نوفمبر:

مكان شاهق فوق البحر. بواب عجوز من حطام كريت القديم. أمسكني من يدي: ايه. من أنت؟

ـ كريتي.

ـ ادخل.

في إحدى الحجرات كان بعض المبتدئين يتعلمون الموسيقى البيزنطية وهم يلتقطون النغمات الأولى بأصوات مرتفعة. كانوا يمسكون بالتراث كقنديل مشتعل بأيديهم القذرة والطفولية.

Twitter: @ketab_n

البحر ظاهر من برج الدير. كم يبدو كقوس هائل الكبر. قوس هائلة مشدودة. بعد ذلك في الدير نفسه رأس المسيح، ابن الإثني عشر عاماً، مليء بالفهم والجدية الإلهية. مندفع. جبهة عالية. صدر أبيض ريان. عينان عميقتان وغارقتان في التفكير. ابن بورتا تيسيا فعلاً. أيقونة أخرى. صورة كبيرة للقديس نيكولا من أويسترز. لديه محارة ضخمة على جبينه، وماء البحر ينقط من كفيه.

تحدثت مع البواب الكريتي: ما الذي جعلك تصبح راهباً؟

ـ ذات يوم قرأت لي عمتي في الإنجيل وقالت لي إن العالم لا قيمة له.

يجب أن لا أنسى الأب فيليمون الذي كان يخدمنا على المائدة. جسد ممشوق كسيف من الفولاذ الدمشقي[4]، مثل ملاك بين اللهيب. كان يتطلع إلى تلقي الأوامر. تملؤه الغبطة حين يخدم ويلبي. وكانت فرحته كبيرة إلى درجة لم يستطع معها أن يمنع نفسه من الضحك. كان يضحك باستمرار.

سألته: متى يأتي دوري في رؤية اللّه؟

فأجاب: الأمر سهل. سهل جداً. افتح عينيك فقط وستراه.

دير بانتو كراتوروس:

سمعت، قبل الفجر، نغمة ساحرة من باحة الدير. أعلى الأصوات. هرعت إلى نافذتي فرأيت راهباً في غسق الفجر. كان يعتمر قبعة الرهبان، والكاميافكو[5] الأسود معتدل على ظهره. وكان يحمل وضماً مستطيلاً من الخشب، سيمانتزون يمكن حمله، يوقع عليه بمطرقته. يتقدم ببطء في الباحة، وهو يتنقل من حجرة إلى أخرى منادياً الأخوة لصلاة الصبح. كان صديقي، الذي استيقظ بدوره، ينحني من النافذة إلى جانبي. وكنا، معاً، نصغي برضى واستغراق. وبعد أن انتهى السيمانتزون لبسنا وذهبنا إلى الكنيسة. ظلام مطبق، باستثناء مشعلين يشتعلان على الحامل[6] أمام أيقونتي المسيح والأم العذراء. وكان الهواء مشبعًا برائحة الشمع والبخور الزهري.

بدأت ترنيمة الصلاة الصباحية بنعومة ولطف، كحفيف الأشجار وتنهدات البحر. وجاء رئيس الدير يحمل شمعة بيده. واقترب من كل مقعد لكي يرى إن كان الأخوة كلهم قد نزلوا. ثم غطسْ المنضحة في الماء المقدس المتجمد وراح يرش جباه الرهبان بنشاط واضح.

---

(4) فولاذ مزدان بخطوط متموجة.
(5) وشاح أسود يضعه الرهبان الأرثوذكس فوق القبعة ويتدلى حتى الخصر. يأخذ أحياناً شكل الهرم على الرأس. على عكس الخمار من حيث الغاية. فهو يمنع الراهب من رؤية العالم.
(6) حاجز مزدان بالأيقونات يفصل المذبح عن الجزء الأساس من الكنيسة.

Twitter: @ketab_n

وحين تمشينا في الدير في ما بعد، رحنا نعلق على الحياة هنا. أي إيقاع قدسي، وأية صدفة مكتملة الزينة وساحرة: نتاج أجيال مجهولة ـ ولكن الآن، في داخلها، المحارة التي خلقت الصدفة وزينتها، وقد ماتت. وقلنا: يجب أن نعيد النظر في التنسك المسيحي.

وأقسمنا على أن نفعل ذلك: وهذا ما جئنا من أجله إلى الجبل المقدس.

دير فاتو بيدي:

اقتربنا من فاتو بيدي الشهير ذات صباح منعش مترع بمحبة اللّه اللطيفة! صباح قادم لتوه من السماء. وكان هذا هو اليوم الخامس للخلق. واللّه لم ينه بعد صنع الإنسان ليفسد عليه عمله.

تفتح الشرق على مراحل، كما تتفتح الزهرة. وظهرت الغيوم الصغيرة ذات الخدود المحمرة، كالملائكة الأطفال، من وراء الأفق. وراحت تكبر تدريجياً. فبدت وكأنها تنزل إلى الأرض. حط شحرور في وسط الطريق وتطلع إلينا، والندى لا يزال عالقاً على جناحيه. ولكن، كما لو أنه لم يكن شحروراً، كما لو أنه روح لطيفة تعرفت علينا. لم يخف ولم يتنح من طريقنا. وكانت هناك بومة صغيرة جاثمة على صخرة وقد دوخها الضوء. ظلت في مكانها بهدوء وصمت تنتظر أن يعود الظلام.

لم نتكلم. كان كل منا يحس أن الصوت البشري، مهما بلغت حلاوته وبلغ خفوته، سوف يثير الصخب ويكون نشازاً هناك. وسوف يتمزق الستار السحري الذي يشملنا. كانت أيدينا ووجوهنا تبرق بندى الصباح، ونحن نزيح أغصان الصنوبر الواطئة. ورحنا نتابع سيرنا.

سعادتي تخنقني. التفتُّ إلى صديقي وكنت على وشك أن أفتح فمي لأهتف: أية غبطة. هيه! لكنني لم أجرؤ. لقد عرفت أن السحر سوف يتبدد حالما أتكلم. أتذكر أني رأيت ثعلباً في عصر أحد الأيام في تايجيتوس فوق أسبارطة. كان يتقدم بحذر شديد وعنقه ممدود وذنبه الأشعث منتصب بقوة ملقياً ظلاً أرجوانياً طويلاً على الحجارة. حبست أنفاسي لئلا يشم الحيوان رائحتي ويهرب. لكن هدوئي لم يكن كافياً لمنعي من التهليل. ورغماً عني هربت مني صرخة صغيرة جداً سمعها الثعلب وقبل أن أجد الفرصة لمعرفة الاتجاه الذي سلكه كان قد اختفى. أحسست أن السعادة في حياة الإنسان هي نفسها دائماً.

وبغتة سمعنا كلاماً واضحاً. لقد وصلنا أخيراً إلى الدير. كان هناك راهبان حسنا التغذية يجلسان على مقعد حجري أمام الباب الخارجي، وهما ينكتان مع البواب. توقفنا بغتة، وكأننا رأينا أفعى. نظر صديقي إلي وقال: «لقد كان حلماً». وهز رأسه وتابع: «لوهلة خيل إلينا أن البشر غير موجودين». وأجبته: «يا للخجل! لقد كان هذا هو الفردوس الحقيقي. وهو أسمى بكثير من الفردوس الآخر. وبدلاً من رجل وزوجته يتمشيان تحت أشجار اللّه، كان هناك

Twitter: @ketab_n

صديقان. والآن. انظر. لقد طُردنا ـ لم يطردنا ملاك يأتي مهرولاً بسيفه. بل طردنا إنسان مسلح بصوت».

كان الراهبان يصرخان بصوت مرتفع وينفجران في ضحك متدفق، وهما يغيظان البواب. لكنهما صمتا حين رأيانا. ونهضا، وهما يربتان على بطنيهما، ومدّا لنا يديهما لنقبلهما.

قالا: «أهلاً. اللّه معكم».

وأجاب صديقي، وهو ينظر إلى خدودهما المحمرة وكرشيهما: «يبدو أن أموركما تسير على أفضل وجه يا أبوينا المقدسين». كان لا يزال عاجزاً عن مسامحتهما على طردنا من الفردوس.

قال الأول ذو اللحية الشقراء: «لقد هجرنا العالم الزائف ومتعه». ظللنا صامتين. غير أن الآخر، الراهب ذا اللحية السوداء، قال: «لم تنظران إلينا بهذه الدهشة؟ الصلاة مغذية أكثر من اللحم».

كانا قد اقتربا منا. وكانت رائحة الثوم تفوح منهما بشكل لا يمكن احتماله. فقلنا: «لندخل ونقدم احترامنا»، ونحن تواقان إلى الهرب من هذين الراهبين الثوميين.

وجاء المضيف. وهو راهب نظيف أزرق العينين ذو لحية بيضاء حريرية وبشرة متوردة يعيش برخاء واضح. وبعد أن رحب بنا سار أمامنا وتبعناه. كان ديراً مترفاً. مدينة بأكملها. غرف للزوار، وأبواب ونوافذ مدهونة حديثاً، وأضواء كهربائية، وحدائق مطلة على البحر. كان الرهبان قد غادروا غرفة الطعام لتوهم، وجلسوا خارج حجراتهم ليهضموا طعامهم في الشمس. دخلنا الكنيسة وقدمنا احترامنا أمام أيقونات العذراء الشهيرة،: الباراميثيا، الكنيغوريسا، البيجاتاريسا، الانتيغونتيريا، والاسفاغمينه، والاليابروتيدا. فتح أمامنا مذخر ثمين، وقبلنا حزام العذراء المقدس.

وتذكرت الراهبين الذين جلباه إلى كريت حين كنت طفلاً. تسابق الناس يومها إلى أيقونة القديس ميناس ليقدموا احترامهم، وهم يملأون حقيبة الرهبان الصغيرة بالمتيزيت الفضية والليرات الذهبية والحلق وأطواق الزفاف. لم يكن لدي ما أقدمه من أجل بركتها فبحثت في جيبي ووجدت قلم رصاص فألقيته في الحقيبة.

خرجنا إلى الباحة، وصعدنا إلى غرفة الضيوف. أعدت لنا وجبة فاخرة مليئة بنعم اللّه كلها. وقال صديقي الذي يحب الطعام الجيد: أمورنا هنا لا تسير بشكل سيئ. ليست سيئة أبداً ـ حتى لتظن أننا رهبان فاتوبيدي.

واقترحت عليه: لنشرب نخب برمودوس الفقير المسكين. برمودوس المسكين الجائع.

آه كم كان يمتلئ بالغيرة، وهو يفكر في رؤساء الأديرة الذين يتناولون وجباتهم في الأديرة. وكم كان ريقه يشط! وكم كان يشتكي لإمبراطوره. أتذكر الابيات؟

Twitter: @ketab_n

ـ طبعاً أتذكرها.

حين أفكر في رؤساء الأديرة يا صاحب الجلالة
أخرج من نفسي وأخرج من عقلي
يحشون أنفسهم بسمك النخب الممتاز
بينما يعطونني التن[7] المنتن.
يغرّون خمور كيووس إلى أن ينتفخوا
بينما يتيبّس بطني المسكين من الخل.

وضحك صديقي ولكن ظلاً مفاجئاً ارتمى على وجهه. قال: عيب علينا أن نضحك. هذا الدير يسحق قلبي. هل رأيت الرهبان؟ كلهم حسنو التغذية. لو عاد المسيح إلى الأرض، وصدف له أن توقف بفاتوبيدي، آه كم كان سيجعل السوط يغني فوق رؤوسهم. هيا بنا. دعنا نذهب.

ـ نذهب؟ إلى أين؟ إن قلوبنا لا يسحقها هذا الدير فقط بل العالم كله، ألا تشعر بذلك؟ في كل مكان يجوع بعضهم، بينما يتخم الآخرون ويلعقون شرحاتهم. الذئاب والغنم في كل مكان. قانون واحد في العالم لا يزال مصاناً: كل وإلا أُكلت ـ قانون الغاب.

ولكن هل يعني هذا أن الخلاص غير موجود؟ أليس هناك أي حيوان طيب بما فيه الكفاية وقوي بما فيه الكفاية بحيث أنه لا يأكل الآخرين، ولا يسمح أن يأكله الآخرون.

ـ ولا أحد. ولكن قد يأتي يوم. لقد انطلق حيوان ما منذ آلاف السنين لتحقيق هذا الهدف. لكنه لم يصل إليه بعد.

ـ أي حيوان؟

ـ القرد. نحن لا نزال في منتصف الطريق ـ البيتيكا نتروبوس[8]. فاصبر.

ـ اللّه يستطيع أن يصبر. هو خالد. ما الذي يخسره بالزمن؟ ولكن الإنسان..؟

أجبته: الإنسان خالد أيضاً. ورغم أنه ليس، كله، خالداً. ولكن الجذر الخالد منه يستطيع أن يصبر.

نهضنا عن المائدة ونزلنا إلى الشاطئ. كانت الشمس على وشك الغروب. ولم تكن ورقة تهتز. كان هناك نورسان يفردان أجنحتهما ويضربان البحر بصدريهما الأبيضين سعيدين.

قال صديقي وهو ينظر إليهما بإعجاب: لا بد أنهما رجل وزوجته.

فقلت: «أو صديقان»، والتقطت حصاة من الشاطئ ورميتها لتفريقهما.

* * *

(7) نوع من السمك.

(8) إنسان جاوة البدائي المنقرض.

Twitter: @ketab_n

حين أستغرق في هذه المذكرات القديمة الآن في شيخوختي وأرى حملاتنا الدونكيشوتية في ذلك الحين ـ الرمح المطعوج، والترس المنخور والخوذة التنكية والعقل المليء بالنبل والريح ـ أعجز عن أن أبتسم. ما أسعد الشاب الذي يؤمن أن واجبه هو إعادة صنع العالم وجعله أكثر انسجاما مع الفضيلة والعدالة وأكثر انسجاما مع قلبه. وما أبأس من يبدأ حياته دون جنون.

تجولنا في الجبل المقدس. وكلما استنشقنا هواءه ومناخه التهبت قلوبنا واشتعلت حماساً. يا إلهي. أي قرارات اتخذنا! وأي عهود قطعنا! وبأي خفة كنا نقفز فوق الصخور ونحن نتقدم من دير إلى دير، ونحن نشعر، ليس بخيالنا فقط، بل بجسدينا بأكملهما أننا مزودان بأجنحة ملائكية. هذا هو، بالضبط، المناخ الذي يولد الجنون أحياناً، وأحياناً أخرى الورع والبطولة. وفي السنوات التي أناخت علينا في ما بعد لم نعد، أنا وصديقي، نذكر تلك الساعات الكيشوتية المقدسة. كنا نحس بالخجل. ليس لأن اللهب قد خبا ـ وأسفاه، أنه لم يخبُ ـ بل لأن قوتنا قد أثبتت أنها رخوة، وأنها أقل من رغباتنا. إننا ما زلنا ـ كما كنا دائماً ـ نريد أن نخلق عالماً جديداً وأفضل. ولكننا رأينا أننا لا نستطيع أن نفعل ذلك. لقد اعترفت بالأمر. ولكن صديقي أبقاه مخفياً طوال حياته. وهذا هو السبب الذي جعله يذوي سراً ويعاني أكثر مما أعاني.

مرة واحدة فقط، ذات مساء بعد سنوات عديدة حين أشرق البدر الهائل من البحر حزيناً، ونحن نغادر الدير في سبيستاي، التفتُّ إلى صديقي وقلت له: «أتذكر يا أنجيلوس. . ؟». إلا أنه شحب. فقد أدرك أنني تذكرت القمر في آتوس. وضع يده على فمي وأمرني أن أصمت. ثم أسرع خطاه.

الآن، مرة أخرى، أنحني على دفتري القديم وأقلب الصفحات. دير كاراكالو:

غطت الغيوم سفوح آتوس وقمته تاركة منطقة واسعة من الثلج المشعشع في وسطه. بدأت تمطر ـ زخات شمسية. ركض دليلنا وأطلق طلقة من بندقيته، وجاءت أصوات أجراس الدير احتفالية من وراء أجمة من أشجار التنوب. وظهر رئيس الدير ممسكاً صليباً طويلاً يرمز إلى وظيفته، وهو يقف على العتبة يرحب بنا ومعه حاشيته.

دخلنا غرفة الطعام. كانت طويلة وضيقة بأعمدة مدهونة بالأزرق والأسود. جلس الرئيس على رأس المائدة صارماً وصموتاً وملتحياً. فوقه مسيح قاس مقطب الحاجبين مرسوم بالأخضر والأسود. وعن منبر عال وصغير يقرأ القارئ(9)، وهو راهب شاحب صغير السن، ملقياً فصولاً من حياة القديسين بصوت رتيب منغم. انكب على صحنه دون كلام. وقليلاً ما كان الرئيس يلمس طعامه أو ذقنه. ولكنه، بغتة، أمسك بجرس صغير على يمينه، وقرعه

(9) الذي يقرأ من الكتاب المقدس في القداس.

Twitter: @ketab_n

ثلاث مرات. وهب الرهبان جميعاً واقفين وهم ما زالوا يمضغون طعامهم الذي لم ينته. وركض الراهب الذي يخدم على المائدة يقدم نفسه أمام الرئيس، ويتلقى بركته. ثم فعل القارئ مثله وطلب العفو إن كانت قراءته سيئة. ودخل خبز القربان على صينية صغيرة. خبزة صغيرة أخذ كل راهب منها قطعة صغيرة راح يقضمها كأنتيدور(10) مقدس.

في تلك الليلة استلقينا ورحنا نتحدث. قال كل منا إن الوقت ملائم والعالم مهيأ لطريقة جديدة في حب المسيح. في وقت مبكر من ذلك اليوم كنا قد قابلنا راهباً يقف خارج مقبرة الدير. وحين سألناه عن سبب وجود الرسوم على مداخل المقبرة وهي دائماً تمثل المسيح مصلوباً وليس، كما هو أكثر ملاءمة، المسيح ناهضاً من قبره. غضب الراهب وأجاب: «مسيحنا هو المسيح المصلوب. هل رأيت في الأناجيل مسيحاً يضحك؟ إنه يتنهد دائماً تحت السياط ويبكي. إنه مصلوب أبداً».

ونحن عاجزان عن النوم الآن قلنا: «لقد جاء الوقت الذي يجب أن نجعل المسيح فيه يضحك. نعم. يجب. لا جلد بعد الآن ولا صلب. يجب أن يجمع المسيح في أعماقه آلهة اليونان الأقوياء والسعداء. يجب أن يتمثلهم جميعاً. لقد آن الأوان الذي يصبح فيه المسيح يونانياً».

«والذي سيحقق ذلك هو نحن». هتف صديقي، وهو يرفع يده وكأنه يقسم على ذلك.

وهتفت بدوري: «نعم. نحن!». وأحسست في تلك اللحظة أن لا شيء في العالم كله يستطيع أن يقاوم الروح البشرية.

صاح صديقي: لن نفترق أبداً. سنلزم نفسينا معاً مثل ثورين يفلحان الأرض.

بعد سنوات فهمنا. لقد ألزمنا نفسينا معاً كثورين. ولكننا فلحنا الهواء.

دير فيلوثيو:

مشوار ساحر في الضباب. حور بهي طويل مغطى باللبلاب. راهب ثائر اسمه إيونيكوس ـ أحمر الرأس، بارز العظام مهذار الكلام. لا يتوقف عن إخبارنا بقصة أخته كاليرهو التي تلبستها الشياطين. كان من الواضح أنه هو نفسه يحمل في أعماقه شياطين. اثنان منهما. واحد اسمه هوجا والثاني اسمه اسماعيل. هذان المخلوقان اللطيفان يعارضان اللّه دائماً. ويعارضان إيونيكوس. كانا يريدان أن يأكلا اللحم أيام الصيام. وكانا يحثان إيونيكوس على النزول على رؤوس أصابعه ليلاً، والذهاب إلى المطبخ لالتهام أي طعام متبق من العشاء. وإضافة إلى ذلك في كل صباح حين يسمع اسماعيل وهوجا الدعوة للصلاة يصرخ كل منهما: لست ذاهباً. لست ذاهباً.

(10) الخبز الذي يوزع على المصلين عند الأرثوذكس. وهو بديل عن «نعمة اللّه».

Twitter: @ketab_n

تقدمنا إلى باحة الدير. كان العشب نامياً في كل مكان، بين الفحم الحجري وعلى الجدران المحيطة. وكانت الحجرات سوداء من الرطوبة والعفونة. وكان المصلى في الوسط. دخلناه لتقديم صلاتنا أمام الأيقونة المدهشة الصنع، للعذراء ذات القبلة الناعمة. كان خدها مائلاً بحنان لا يوصف على خد المسيح الطفل وعيناها الحزينتان جداً تحدقان إلى البعيد.

قال الراهب الذي يرافقنا: انظرا بتمعن إلى عيني العذراء. ما الذي تريانه فيهما؟

اقتربنا وحدقنا. ثم أجبنا: لاشيء.

قال الراهب، وهو يلقي علينا نظرة قاسية: «كل من لديه إيمان يرى المسيح مصلوباً». ثم فتح مذخراً فضياً يحتوي على عظم طويل. «أديا صلاتكما. إنها ذراع كريسوستوم[11] اليمنى. ارسما شارة الصليب».

دير أغياس لافراس:

رحلنا في الصباح الباكر يدفعنا الشوق لرؤية دير لافراس العظيم والشهير، الذي بناه الأمبراطور الحزين نيسيفوروس فوكاس، والذي كان يرغب في إلقاء تاجه عنه واللجوء إلى هنا ليعيش حياة النساك. لكن توقه الآخر ـ للنساء ـ لم يسمح له بذلك. ولذا ظل يماطل ويماطل وينتظر. إلى أن جاءه أعز أصدقائه يحمل سيفاً قطع رأسه به.

وصلنا. هنا صنوبرتان كبيرتان. الأولى زرعها متلقي اعترافات نيسيفوروس فوكاس، القديس أتاناسيوس. وزرع الثانية تلميذه بوتيميوس. وكان آتوس المكلل بالثلوج معلقاً فوق الدير، وكأنه ضابط الكل[12].

أدخلنا إلى الموهف[13]. وبفخر أُظهرت لنا كنوز الدير ـ جمجمة باسيل الكبير، وفك يودور ستراتيلاتيس، والذراع اليسرى لكريسوستوم، وكومة من العظام الأخرى. وفُتحت لنا حقيبة ضخمة مزينة من نواحيها كلها بالحجارة الثمينة واللآلئ. وفي داخلها قطعة كبيرة من الصليب الحقيقي. وارتعش صوت الراهب بانفعال حقيقي. لكن هذا ذكرني بما قاله ذات مرة مسيحي حقيقي مؤمن: «كل قطعة من الخشب حقيقية. لأنه من كل قطعة يمكن أن يصنع صليب. ثم لباس نيسيفوروس فوكاس، وكله من الذهب ومزين بزهور ليلك من الحرير، وتاجه الذهبي مرصع بجواهر حمراء وخضراء هائلة الحجم، والإنجيل المكتوب بيده. وبعدئذ كمية كبيرة من الكتب البالية».

تطلعت وصديقي بإعجاب. لكن هذا كله لم ينجح في لمس قلوبنا. وأكثر ما أتذكره من

---

(11) القديس جون (345؟ ـ 407) أب يوناني للكنيسة. ولد في سورية.

(12) المسيح الذي يبارك العالم ممسكاً بيده اليسرى الكرة الأرضية في الكنائس الشرقية. (مر في مكان آخر باسم البانتوكرينور).

(13) غرفة المقدسات وملابس الكهنة.

Twitter: @ketab_n

هذا كله، وأتذكره بامتنان كبير، شذا شجرتي مشملة[14] مزهرتين في مدخل المكتبة. انتعش جسدي كله وهو يستنشق عطر المشملة الذي أعبده، ذلك العبير الحلو الحاد أكثر تحذيراً وإسكاراً من الخمور والنساء وكل روائع العالم.

في الصباح التالي انطلقنا إلى قمة آثوس قبل الفجر. كان المنادي (للصلاة) لم يرتل بعد في الرواق. ولم تستيقظ العصافير. والسماء حليبية وصافية. ونجمة الصبح تشع في الشرق كسارون[15] سداسي الأجنحة.

كان الأب لوكاس، القصير محني الرجلين، وهو مهرب سابق، يقودنا في الطريق. وبين حين وآخر كان يقف ليتحدث معنا عن البحار والعربدات والمشاجرات مع الأتراك. لقد ظل وجوده السابق في العالم كقصة خرافية في أعماقه. كان يبدو وكأن تلك الحياة السابقة قد حدثت على كوكب آخر أكثر خطراً وأكثر بدائية ووحشية، كوكب مليء بالصرخات واللعنات والنساء. كان يحكي ويعيد حكايته الخرافية ويعيد إحياءها ليحس بالسعادة. وعلى الرغم من أنه كان يتنكر لكل جانب من جوانب حياته السابقة فإنه حملها كلها معه، مصرورة داخل قفطانه.

وتوقف تحت شجرة تنوب كبيرة تواقاً للكلام: «سنتوقف لنرتاح قليلاً يا شباب ـ موافقان؟ فلنتبادل بعض الكلمات. إنني على وشك الانفجار». وأخرج كيس تبغ مخبأ تحت طوقه ودرج لفافة ثم فتح الحديث:

«أنا، الشخص الذي تريانه مرتدياً الطوق، اعتادوا أن ينادوني ليونيداس، كابتن ليونيداس من كاليمنوس مصدر رعب الأتراك. كنت مهرباً ومؤذياً بمقدار ما يستطيع المرء أن يكون. فكيف جئت لأرتدي الطوق! هذا ما سأحكيه لكم في وقت آخر. ويكفي أن أقول الآن إن المهرب في أعماقي لم يتذمر أبداً. وكيف يستطيع أن يتذمر وأنا أحشوه بالطعام والشراب كما لو أنه بيك؟ ولا أهمية لكونه مربوطًا في داخلي ككلب في قارب. لوكاس يأكل الخبز والزيتون في غرفة طعام الدير مع الرهبان الآخرين. لكنه حين يعود إلى حجرته ويوصد الباب، يعد المائدة لليونيداس ويأكل اللحم. وكما تريان، نحن لسنا واحداً بل اثنين. مفهوم؟ هذا ما أردت أن أحكيه لكما. الخطيئة التي يُعْتَرَفُ بها هي الخطيئة التي يتم إصلاحها. لقد تكلمت. وأحس أنني صرت أفضل. والآن فلنذهب».

هتف صديقي وهو ينفجر بالضحك: برافو يا كابتن لوكاس! لقد كنت بارعاً في تدبير ما لا يدبر. ولكن ألم يداخلك الشك أبداً في أن هذا كله قد يكون من عمل المغوي[16]؟

---

(14) شجر من الفصيلة الوردية.

(15) أحد الملائكة الحارسة لعرش الله في المعتقدات اليهودية القديمة.

(16) الشيطان.

Twitter: @ketab_n

ـ طبعاً، طبعاً. قال الراهب، وهو يغمز بدهاء. هذا الشك يداخلني كل صباح ـ لكنني عند العشاء

أنساه.

واقترحت عليه: اربط منديلاً بيدك للتذكر.

مج من لفافته بعمق وأخرج الدخان من منخريه، وقال: «ليس لدي منديل». وعاودنا صعودنا. صنوبر وجروف شاهقة. كان البحر، الهادئ هذا اليوم، يمتد في الأسفل تحت ضوء الصباح اللطيف. وحين تزايد الضوء استطعنا أن نميز الجزر المقدسة، ليمنوس وساموتراس، عن بعد. كانت تبدو وكأنها تقوم وسط الجو دون أن تلمس الماء.

وصلنا خط الثلج. وكان الأب لوكاس يتقدمنا ببطء وبخطوات حذرة.

انزلقنا وسقطنا ونحن نتقدم بصعوبة على الثلج الجليدي. كان الجبل شديد الانحدار ووحشياً وقاسياً. وبغتة توقف صديقي، الذي كان يمشي أمامي، وانحنى محدقًا إلى الهوة العميقة التي لا قرار لها. أصيب بدوار جعله يشحب. فالتفت إلي هامساً: دعنا نرجع.

قلت له: «ولكن ألن يكون هذا مخجلاً؟»، وأنا أنظر إليه مؤنباً. كنت شديد الرغبة في الوصول إلى القمة. «نعم. نعم»، قال خجلاً «فلنتقدم!». وبدأ الصعود من جديد.

كانت الشمس مرتفعة حين وصلنا إلى القمة. وكان كل منا يلهث تعباً. لكن وجوهنا كانت متألقة، لأننا وصلنا إلى هدفنا.

ذهبنا إلى الكنيسة الصغيرة لتقديم صلاة قصيرة لتجلي المسيح. وفي ذلك الحين كان الأب لوكاس قد أشعل ناراً من العيدان والأغصان التي جمعها خلال الطريق. ثم أخرج من حقيبته قهوة وأعدها. تكومنا معاً وراء صخرة كبيرة لأن الريح كانت قد بدأت تهب. وبدأنا نحس بالبرد. رحنا نحدق إلى البحر الصامت اللامحدود الممتد أمامنا والجزر المبحرة فيه ببياض ناصع، وبعيداً جداً الجبال الغامضة التي أعطت الجو هيئة رصاصية.

أعلن لوكاس: «يقولون إنك تستطيع أن ترى القسطنطينية من القمة المقدسة». ثم راح بعينيه الجاحظتين يحدق نحو الشرق جاهداً أن يرى العاصمة الملكية.

ـ هل سبق لك أن رأيتها يا كابتن لوكاس؟

تنهد الراهب وقال: «لا. لم أستحق ذلك. يبدو أن أعيننا المادية غير كافية. تلزمنا عيون أخرى، عيون الروح. وا أسفاه؟ إن روحي مصابة بقصر النظر».

قلت: لكنك تستطيع أن ترى الله.

أجاب الراهب: إيه! لا حاجة للعيون من أجل ذلك. الله أقرب إلينا من كبدنا ورئتينا.

كان صديقي مكتئباً وصامتاً. لاشك أنه لا يستطيع أن يجبر نفسه على مسامحة جسده

Twitter: @ketab_n

الذي جبن للحظة. وبغتة لم يعد قادراً على السيطرة على نفسه أكثر من ذلك. مد يده وضغط على يدي بقوة. قال: أرجوك. إنس ذلك. أقسم أنني لن أفعلها ثانية.

ايوزافايوي/ 16 كانون الأول ـ ديسمبر:

قضينا هذا اليوم، يوم شفيعي[17]، في الاستديو الشهير لايوزافايو. هناك عشرة رهبان رسامين. كل

أسبوع يجيء الدور على واحد لإدارة شؤون المنزل ـ يمسح ويغسل ويطبخ ـ بينما ينصرف الآخرون إلى الرسم. وتخرج من هذا الاستديو أفضل لوحات المسيح، حسن الصحة وحسن التسريحة، لتوزع في كافة أرجاء العالم الأرثوذكسي، وكذلك لوحات العذراء الجميلة، والمترفة والمكللة، ولوحات القديسين ذوي الوجنات المتوردة والوجوه الرضية والذين تنقصهم الطهارة. وكلها لوحات معادٌ رسمها. الرهبان بسطاء حسنو المظهر، محترمون وكرماء. يحبون الطعام الجيد والخمرة الجيدة والقطط المخصية. جلسنا بعد العشاء ساعات ونحن نتحدث أمام النار. نحن عن هذا العالم، وهم عن العالم الإلهي في السماء. لقد قضى الأب أكاكيوس، وهو راهب قصير مستدير ذو قدمين متورمتين، النهار بطوله وهو يرسم القديس أنطونيوس. وهو الآن يربت على قطة سوداء مكتنزة على ركبتيه. كان يتحدث بأسلوب مؤثر عن الناسك المقدس. يبدو أن فتاة قد جاءت إليه ذات يوم وقالت: «لقد التزمت بوصايا اللّه كلها وأنا أضع ثقتي كلها بالله، وبأنه سيفتح لي أبواب الجنة». وعندها سألها القديس أنطونيوس: «هل صار الفقر ثروة لك؟»، «لا يا أبانا»، «ولـمَ يصبح العيب شرفاً؟»، «لا يا أبانا»، «ولم يصبح الأعداء أصدقاء؟»، «لا يا أبانا»، «اذهبي يا فتاتي المسكينة إذن واشتغلي لأنك حتى الآن لا تملكين شيئاً».

وبينما كنت أنظر إلى أكاكيوس البسيط، الذي كان يتعرق من كثرة الطعام، ومن حرارة النار ومن ذكرى الناسك المخيف، رحت أفكر بهذا الأنطونيوس ذي الوجنتين الموردتين الذي ظل يرسمه طوال النهار. وتملكتني رغبة شيطانية في أن أقول له: اذهب واشتغل يا صديقي المسكين لأنك الآن لا تملك شيئاً. لكنني لم أتكلم. طبقة من الشحم والعادة والجبن تحيط بالروح. ومهما كان ما تطمح إليه من أعماق سجنها، فإن الشحم والعادة والجبن تنفذ شيئاً مختلفاً تماماً. لم أتكلم ـ جبناً.

حين ذهبنا إلى النوم تلك الليلة اعترفت لصديقي. فقال ليعزيني: «لابد أنك أحجمت أدباً. وليس جبناً. إنها شفقة. لأنك لم تشأ أن تحزن شخصاً لطيفاً كهذا. وربما لقناعتك بأن كلماتك لن تحقق شيئاً».

---

(17) عيد القديس الذي يحمل اسمه.

Twitter: @ketab_n

واعترضت قائلاً: «لا، لا. وحتى لو كان الأمر كما تظن فإن علينا أن نقهر الفضائل الصغيرة التي تتحدث عنها ـ الأدب والشفقة والتلاؤم. إنني أقل خوفاً أمام الخطايا الكبيرة مني أمام الفضائل الصغيرة لأن لهذه وجوهاً لطيفة تخدعنا بسهولة فائقة. أما أنا فإنني أريد أن أقدم التفسير الأسوأ: أقول بأنني فعلت ذلك جبناً، لأنني أريد أن أخجل روحي وأمنعها من تكرار ذلك مرة أخرى».

في الصباح التالي ونحن جالسان مع الفنانين العشرة المطوقين في شرفة الصومعة الزجاجية، وبين القديسين المرسومين بوجوه متوردة، وبين العذراوات الريانات، رحنا نشرب حليبنا ونمضغ الرصك[18] القمحي الطيب مع التوابل التي ترافقه. ودخلت شمس الشتاء بلطف زائد من خلال النوافذ الكبيرة ممزوجة بعبير الصنوبر العذب. تحدثنا وضحكنا. لم يكن هذا الجبل المقدس. لقد بعث المسيح هنا وكان يضحك معنا. وحين راح الرهبان يعدون معجزات القديسين ارتعشت عيونهم إيماناً (أو عدمه) والتمعت وجوههم ببريق بعيد.

مد الأب أغابيوس يده ولفت انتباهنا إلى إحدى لوحاته، التي كانت معلقة أمامنا على الجدار. كان أصغر الفنانين. وله لحية سوداء لامعة وشفتان حمراوان. «إنه أرسينيوس الناسك العظيم»، قال وهو يتأمل عمله بإعجاب. والمرأة التي ترونها راكعة عند قدميه أرستقراطية رومانية جميلة عبرت الجبال والبحار لتلقي بنفسها أمامه. ولكن انظروا كيف أن الناسك يقطب حاجبيه، وهو يشير إلى البحر (أريد أن أظهِر أنه يرفضها بغضب)، ويقول لها: «ابتعدي. ولا تخبري أحداً أنك رأيتني، لأن البحر سيتحول إلى طريق. وستبدأ النساء بالانتقال لاقتحام عزلتي». وتتوسل المرأة: «صل لأجلي يا أبي». ويجيب الناسك: «أيتها المرأة، سأصلي لله لكي يجعلني أنساك».

ـ والتفت الرسام ملقياً علينا نظرة ماكرة ثم سألنا: «ماذا يعني ذلك؟ سأصلي لله لكي يجعلني أنساك؟».

ظللنا صامتين لأننا لم نعرف ما يدور في ذهن الراهب.

ـ «يعني أن الناسك قد اخترقه جمال المرأة: وهذا ما يفسر السبب الذي يجعله يطلب عون الله ليجعله ينساها».

وسأل صديقي وهو يغمز الراهب: وهل نسيتها؟

فأجاب: «وهل يمكن نسيان أشياء كهذه؟». ولكنه حين رأى هاباكوك يسدد إليه نظرات نارية اعتذر عن كلماته وعض على شفتيه الحمراوين المكتنزتين.

---

(18) نوع من البسكويت.

Twitter: @ketab_n

دير القديس بول:

مشوار رائع في قارب تجذيف إلى دير القديس بول. البحر بآلاف الألوان ـ أزرق شاحب وأخضر وكعرق اللؤلؤ. صخور ناتئة حمراء كالدم القاني، وأمواج سوداء، وحمام بري ثم فجأة امتداد أفقي من الرمل الأبيض اللامع.

كان مزاج صديقي اليوم حسناً. وكان القارب كله يهتز من قهقهاته. طلبت منه أن يغضب كصيني. وباستعداد مدهش بدأ فوراً يهدر بتيار صاخب من الكلمات الصينية الوهمية. كنت سعيداً إلى درجة أني لم أعرف كيف أستقر في القارب. «والآن مارس الجنس كعربي». قلت له ذلك، فبدأ بعاطفة فياضة يبوح بحبه لسيدة عربية. وهكذا، وكأنما بلمح البصر، وصلنا إلى ميناء القديس بول، وبدأنا الصعود الشاق إلى الدير. كان البواب سيفالونياً[19]، عجوزاً ماكراً كثير المزاح. ولتمضية الوقت كان يقضي أيامه وراء الباب ممسكاً بمطواة وهو يحفر ما يبدو أنه صور خشبية للمسيح والقديسين والشياطين. تطلع إلينا متمعناً وسألنا، وهو يضحك: ما الذي تريدانه هنا أيها الغبيان؟

ـ نريد أن نصلي أيها العجوز.

ـ تصليان لمن؟ هل أنتما بكامل قواكما العقلية؟

ـ نصلي للدير.

ـ أي دير؟ ليس هناك دير، لقد انتهى! العالم هو الدير. اسمعا نصيحتي وعودا إلى العالم!

حدقنا إليه فاغرين. كان يبدو أنه فعلا آسف لوضعنا.

عند ذلك قال: ليس إلا مزاحاً. ادخلا. أهلاً بكما.

دخلنا وتفرجنا على الحجرات التي تحيط بالباحة. مد الراهب يده وقال ساخراً: انظرا إلى خلية نحل الله. انظرا إلى الحجرات. لقد كانت ذات يوم مسكونة بالنحل الذي يصنع العسل. أما الآن فاليعاسيب. ويا للسعها! فليحمنا اللّه. أضاف ذلك وهو يتفجر بالضحك.

لم ننبس بكلمة ولكننا كنا مشمئزين. هل تفرغ الدير المقدس من محتوياته القدسية إلى هذا الحد؟ ألم يخلف الرهبان إلا الحجرات الفارغة إلى هذا الحد، وقد طارت الفراشة المقدسة من داخلها؟

بأقدام متعبة صعدنا الدرج الحجري المؤدي إلى الغرفة المعدة للضيوف. أمسك صديقي بيدي متأثراً وقال: «اصبر. لا تنزعج. طالما أن أرواحنا محتفظة بقوتها، فإن شيئاً غير ذلك لا

(19) من سكان سيفالونيا، الجزيرة التي سميت باسم سيفالوس. وله قصة طويلة مع زوجته بوركريس حول الشك والغيرة تنتهي بقتلها ونفيه.

Twitter: @ketab_n

يهم. المهم أن لا تنحط أرواحنا. لأن سقوط أرواح معينة في هذا العالم سيؤدي إلى أن ينهار العالم نفسه. إن الأعمدة التي تسنده قليلة غير أنها كافية». وهزني بقوة، وقال وهو يضحك: «تماسك يامسيو لونغي المسكين».

دخلنا الغرفة. كان الأعضاء، خمسة رجال أو ستة، ضخام الأجساد أيديهم متصالبة على بطونهم، جالسين حول الرئيس، وهو متربع في الوسط. شخص ذكي ذو لحية سوداء مجعدة ووجه أنثوي ويدين بيضاوين وعمرة من الحرير الأسود. مد لنا يده بكثير من الغندرة لتقبيلها. ثم سألنا عن أحوال العالم، وعما إذا قد جلبنا معنا أية صحف. وسأل أحد الأعضاء: «ما الذي يجري في إنكلترا؟ وما الذي يجري في ألمانيا؟ أتظنان أن الحرب ستقع؟». قال آخر: «ستقع إن شاء الله». وغمز لجاره: «وآمل أن الألمان سيمرغون».

وعند سماع هذه الكلمات رفس آخرُ بدين، يبلغ طوله سبعة أقدام، كرسيه ثم هب واقفاً على قدميه: «سيلتهمهم الألمان. الجميع بلقمة واحدة. الإنكليز والفرنسيين والروس. واجدعوا أنفي إن كنت مخطئاً. الألماني هو مسيح هذه الأيام. هو الذي سينقذ العالم!».

فقال الرئيس: «اجلس يا جرمانوس». ووضع يده البيضاء على فمه لكي يمنع نفسه من الضحك. ثم التفت إلينا: «لا تصغيا إليه. اسمه جرمانوس. وهذا يفسر كونه مناصراً للألمان. إن الأخوة يستفزونه».

ولكن ما إن بدأ الحديث يأخذ منحى هادئاً حتى دُفع الباب ودخل راهب نحيل أخرق متأجج برأس مجروح والدم يسيل على لحيته ورداءه الممزق. وصاح: يا أبانا المقدس. انظر. إن أعداء المسيح قد حاولوا قتلي لأنني صوتُّ لك يوم الانتخاب.

نهض الرئيس شاحباً وصرخ: اخرج من هنا. ألا ترى أن لدينا ضيوفاً؟

لكن الراهب لم يبد عليه أنه سيخرج؛ بل خلع قبعته التي كانت ممزقة والدم يقطر منها، وقال: سأعلقها أمام أيقونة القديس بول لكي يرى إلى أي درك سقط ديره.

ونهض الرهبان مهتاجين، وبدأوا يلاطفونه ويهدئونه. وراح يقاومهم. ولكن بالتدريج استطاعوا أن يحملوه خارجاً. أما نحن فقد اغتنمنا الفرصة في ذلك الحين. انزلقنا بين الرهبان وخرجنا من الغرفة. نزلنا إلى الرواق حيث رحنا نتمشى جيئة وذهاباً ونحن صامتان. ورآنا البواب ففهم. تخلى عن قديسيه وشياطينه وجاء إلينا متفجراً بالبهجة. قال: لا تستاءا ياصديقيّ. لقد رأيتما الأب أنوسنت[20] أليس كذلك؟ تحطم رأسه. لكنه سيشفى. لا داعي للخوف. ليست هذه أول مرة.

وسأل صديقي: ولكن هل تحدث أمور كهذه دائماً في الدير؟ بمعنى آخر أيدخل الشيطان حتى إلى هنا؟

---

(20) البريء.

Twitter: @ketab_n

ـ وأين إذن سيدخل يا بني! مهما فعلت فإنه سيدخل بطريقة ما. ذات يوم كان هناك دير يحتوي على ثلاثمئة وخمسة وستين راهباً. ولكل راهب ثلاث عُدد من السلاح وثلاثة خيول. الأول أبيض والثاني أحمر والثالث أسود. كانوا يحرسون الدير في ثلاث نوبات يومياً لكي يمنعوا الشيطان من الدخول: في الصباح على الخيول البيضاء، وعلى الحمراء ظهراً، وعلى السوداء ليلاً.

ـ وهل دخل الشيطان؟

ضحك الراهب الماكر وقال: هل تمزح؟ طوال الوقت الذي كانوا فيه ممتطين جيادهم حول الدير، كان الشيطان جالساً على عرش رئيس الدير في الداخل. كان هو الرئيس.

وسأل صديقي: وماذا عنك أيها البواب القديس؟ هل سبق لك أن رأيت الشيطان؟

ـ طبعاً. لا شك أنني رأيت الشيطان.

ـ وكيف هو؟

ـ ريّان وأمرد. جميل وأهيف. عمره اثنا عشر عاماً. ونظر إلينا ثم غمز بعينه: «لقد رأيتما رئيسنا المقدس كما أظن. كيف كان انطباعكما عنه؟ فلتحل بركاته عليكما معاً».

ثم انفجر بالضحك وتحصن وراء الباب.

جاء خمسة أو ستة رهبان وأحاطوا بنا. ومن أجل أن ننسى رأس أنوسنت المحطم أخذونا لنقدم احترامنا للرفات المقدس المحفوظ بعناية في مذخر فضي. عظام متنوعة وهبات من المجوس: ذهب وبخور ومر[21]. جعلونا ننحني فوقها لكي نشمها. قالوا إن قروناً عديدة قد مرت دون أن تفقد الهبات رائحتها ـ إنها معجزة عظيمة!

حين خرجنا إلى الباحة وبقينا وحدنا أشار لنا البواب برأسه فذهبنا إليه.

قال لنا وسط قهقهته: لها رائحة. آه؟ معجزة عظيمة! حين نسكب الكولونيا فوقها فإن رائحتها ستصبح كولونيا. وإذا سكبت فوقها البتشول[22] فإن رائحتها ستصبح بتشول. وإذا رششت فوقها الكازولين فإن رائحتها ستصبح كازولين. أقول لكما إنها معجزة عظيمة. كيف كانت رائحتها اليوم؟

ـ كالزهور. قال صديقي.

ـ هذا يعني أنهم قد رشوا فوقها ماء الزهر. أترى؟ وانحنى على قطعة الخشب التي كان ينحتها وهو غارق في الضحك.

---

(21) صمغ راتنجي يستخرج من ساق شجر المر.
(22) عشب ذو رائحة عطرة.

Twitter: @ketab_n

ـ ابتعدا الآن، وإلا رأوا أنني أتحدث إليكما. وعندها سأوضع في ماء مغلي. إنهم يعتبرونني مجنوناً وأنا أعتبرهم حمقى. أما الشيطان، فسيأخذنا جميعاً.

دير ديونيزيو:

انطلقنا في الصباح الباكر في قارب تجذيف وتوجهنا إلى ديونيزيو. أخبرنا صاحب القارب، الأب بينيديكت، أنه أشد الأديرة صرامة في الجبل المقدس. فمهما كنت مرحاً لا تستطيع أن تضحك. ومهما شربت من خمور في ذلك الدير لا تستطيع أن تسكر. وهناك غار مزروع في الباحة. فإذا تطلعت إليه بعناية سترى المسيح مصلوبا على كل ورقة. كان معنا مطران يريد الذهاب إلى ميناء دافنه لكي يسافر.

ـ العالم كله، يا أب بينيديكت، صليب صلب عليه المسيح. وليست أوراق الغار وحدها. بل أنا وأنت وحجارة الأرض ذاتها.

كان هذا أكثر مما أحتمل.

ـ أرجو عفوك يا مطران. إنني أرى المسيح مبعوثاً في كل مكان.

هز المطران رأسه وأجابني: إنك على عجلة. على عجلة يا بني. سنرى المسيح المبعوث. ولكن ليس قبل أن نموت. ممرنا الأرضي هذا، وطالما نحن أحياء، هو الصلب.

ووثب على مقربة منا دلفين خارجاً من المياه. والتمع ظهره القوي اللين تحت الشمس. وغاص ثانية، ثم عاد إلى الظهور وراح يقفز فرحاً ـ المحيط كله مملكته. وبغتة ظهر دلفين آخر على بعد وراح كل منهما يندفع مسرعاً نحو الآخر. وحين التقيا راحا يلعبان. وبغتة سبحا بعيداً عنا متجاورين، وهما يرقصان بذيليهما المشرعين.

تملكتني الغبطة فمددت ذراعي وأشرت إلى الدلفين وأنا أسأل بلهجة المنتصر: هل المسيح مصلوب أم مبعوث؟ ما الذي يقوله لنا الدلفينان؟. لكننا كنا قد وصلنا إلى ديونيزيو. ولم يجد المطران وقتاً للإجابة.

في اللحظة التي خطونا فيها إلى الباحة توقفنا مرعوبين. أحسسنا أننا ندخل سجناً معتماً وكئيباً. كانت الأعمدة المحيطة منخفضة وسوداء. والأقواس بينها مدهونة بالبرتقالي الغامق. وكل إنش من الجدران مغطى برسوم وحشية من سفر الرؤيا: شياطين ونار الجحيم وعاهرات يجري نهران من الدم من نهودهن. وغيلان مرعبة لها قرون ـ كان توجه الكنيسة كله لإرهاب الناس وجلبهم نحو السماء، ليس بالحب، بل بالرعب.

جاء المضيف، الراهب المسؤول عن الزوار. حين رآنا نحدق إلى الرسوم مرعوبين فتح شفتيه الصفراوين الضيقتين بحقد ـ كان يبدو مترعاً بالكراهية لرؤيته رجلين ثريين حسني الهندام في زهو شبابهما.

Twitter: @ketab_n

قال: افتحا أعينكما على اتساعها ولا تشيحا بوجهيكما مكشرين. انظرا! جسد الإنسان مليء بالنيران والشياطين والعاهرات. الفحش الذي تريانه ليس جهنم. بل هو أحشاء الإنسان.

واعترض صديقي: لقد خُلق الإنسان على صورة الله. وهو ليس مجرد فحش. إنه شيء آخر.

وزعق الراهب: كان. كان ولم يعد كما كان. في العالم الذي تعيش فيه تحولت الروح أيضاً إلى لحم. لقد ضمتها الخطيئة إلى صدرها وأرضعتها.

وسألت: ما العمل إذن؟ أليس هناك منفذ إلى الخلاص؟

ـ يوجد. يوجد. لكنه منفذ ضيق معتم وخطير. لا يدخله المرء بسهولة.

ـ أي منفذ تعني؟

ـ انظر!

ومد يده مشيراً إلى مدخل الدير.

ـ «لم نتهيأ بعد». قال صديقي الذي اعتبر كلام الراهب مغيظاً. «فيما بعد، حين نعجز ونضعف. اللحم من صنع الله أيضاً».

وارتسمت على شفتي الراهب ابتسامة حاقدة. وزعق: «اللحم من صنع الشيطان. لقد حان الوقت لكي تتعلموا، أنتم يا جواسيس العالم. إن صنع الله هو الروح». والتف بردائه وكأنه يخاف أن نلمسه، ثم اختفى تحت قنطرة برتقالية.

قال صديقي: «دعنا نخرج. من الواضح أن المسيح لا يعيش هنا». وانفتحت أبواب حجرتين أو ثلاث حجرات. وظهر رهبان كالهياكل العظيمة، وهم يتطلعون إلينا ويتمتمون بشيء ما. ثم أغلقوا الأبواب من جديد.

أصر صديقي: لا حب هنا. دعنا نرحل. فسألته: ألا تحس بالشفقة عليهم؟ افترض أننا بقينا هنا عدة أيام ووعظناهم بحقيقة المسيح. ما رأيك؟

ـ لهم؟ مستحيل! هدر للجهد.

ـ لا شيء يذهب هدراً. حتى لو لم يتم تخليصهم سنكون قد أخذنا المستحيل على عاتقنا.

ـ هل أنت جاد؟ سأل صديقي وهو ينظر إلي مدهوشاً. فأجبته وقد استولت علي كآبة مفاجئة: «لو أنني أعرف فقط! هل سيكون هذا ما أستطيع القيام به فعلاً؟ قلبي يقول لي إن كنت رجلاً حقاً ابق هنا وشن الحرب. ولكن وا أسفاه! فالعقل ـ الشيطان ـ لا يسمح لي».

تجرأ راهبان على المجيء إلينا لإدخالنا. أخذانا حول الدير. ورأينا لوحة جدارية لعملاق برأس خنزير بري، هو القديس كريستوفر، وقد أظهر مخالبه الهائلة. ثم أخذانا لنصلي لليد اليمنى ليوحنا المعمدان. وفي غرفة الطعام كان هناك ساروفان مشتعلان احمراراً.

Twitter: @ketab_n

وكل منهما يمسك بزوج من الرماح المستقيمة في كل يد وأقدامها البيضاء الناصعة مغروسة في الأرض الخضراء. على الجدار الأيسر صورة للعذراء جالسة بين ملاكين وإلى جانبيها أشجار خضراء زاهية وعصافير تحط على الأغصان. ووراء كل من الملاكين شجرة سرو ممشوقة. فوقنا على القبة ضابط الكل تتدلى من فمه شريطة. وعلى الشريطة حروف ضخمة حمراء. وأشار الراهبان إلى البانتوكريتر مادين أذرعهما: أتستطيعان قراءة هذه الحروف؟ «أحبوا بعضكم بعضاً». الفظا هذه الكلمات أمام عصا ميتة وستزهر. ولكن قولاها لإنسان فإنه لا يزهر. نحن كلنا موجهون إلى جهنم.

كانت المقبرة بسيطة وساحرة مثل شرفة مطلة على البحر. وليس هناك أكثر من خمسة أو ستة صلبان متآكلة بفعل الريح والملح. وبغتة حلقّ فوقنا رف من الحمام الأبيض متجهًا نحو الماء. ومد أحد الراهبين يده بجشع، وعيناه مليئتان بالقتل والجوع، وكأنه يريد الإمساك بالحمام. وتمتم، وأسنانه تصر جوعاً ونهماً: يا إلهي لو أن معي بندقية.

* * *

وأخيراً وصلت رحلتنا إلى نهايتها. وقبل رحيلنا بعدة أيام انطلقت وحدي لأصعد إلى كاروليا، الصومعة الموحشة المحاطة بصخرتين والمطلة على البحر. هناك يعيش أكثر النساك وحشية وقدسية في الجبل المقدس. كل منهم منزو في كهف ليصلي مستغفراً عن خطايا العالم، ومبتعداً ما أمكنه عن جاره لكي يستمد الراحة من تجنب منظر بشري آخر. ولدى كل منهم سلة صغيرة مدلاة فوق الماء. والمراكب التي يصدف أن تمر بين وقت وآخر تضع في هذه السلال كسراً من الخبز وحبات من الزيتون ـ أو ما يمكن أن يكون لديها ـ لئلا يموت الزهاد جوعاً. وكثير من هؤلاء الزهاد المتوحشين يفقد قواه العقلية. وقد يعتقد أحدهم أنه قد تنبت له أجنحة صغيرة فيطير من فوق الجرف، ويهوي إلى الأسفل. ولذا فإن خط الشاطئ السفلي مغطى بالعظام.

وكان يعيش بين هؤلاء الزهاد ماكاريوس الكهف، الراهب المشهور بطهارته. والرغبة في رؤيته هي التي دفعتني إلى الرحيل إلى كاروليا. وكنت قد قررت ذلك منذ أن وطئت الجبل المقدس. كنت أريد أن أنحني وأقبل يده وأعترف له بخطاياي. ليس خطاياي ـ إذ إنني لم أكن أعتقد بأنني قد اقترفت الكثير منها إلى هذا الحد ـ بل الغطرسة الشيطانية التي كانت غالباً ما تحثني على التحدث بشكل مهين عن الأسرار المقدسة السبع، وعن الوصايا العشر، وتجعلني، راغباً في أن أنقش وصاياي.

قرابة الظهر وصلت إلى الصوامع. الثقوب السوداء في الجرف وعلى كل منها صليبها الحديدي المغروز في الصخر. وظهر من أحدها هيكل أرعبني. كان يبدو وكأن القيامة قد قامت. وهذا الهيكل قد ظهر من تحت الأرض، قبل أن يكون لديه الوقت للاكتساء بلحمه

Twitter: @ketab_n

كله. تملكني الخوف والقرف. وفي الوقت نفسه سيطر علي إعجاب خبيء غير معلن. ولما لم أجرؤ على الاقتراب منه سألته عن الطريق من بعد. ودون أن يتكلم مد ذراعاً مقددة وأشار لي إلى الأعلى نحو كهف أسود على حافة الجرف تماماً. وبدأت، مرة أخرى، أتسلق الصخور التي جرحتني بحوافها الحادة. وحين وصلت إلى الكهف انحنيت عليه لأتطلع داخله. ظلام تام: ورائحة التراب والبخور. وبالتدريج بدأت أميز جرة صغيرة على اليمين في فلع في الصخر ولا شيء آخر. كنت على وشك أن أنادي. لكن الصمت داخل هذه الظلمة بدا لي مهيباً ومقلقاً. فلم أجرؤ على الصراخ. وشعرت أن الصوت البشري، هنا، كالخطيئة أو الدنس.

وتعودت عيناي على الظلام. وحين تمعنت في الداخل بعيني الجاحظتين رأيت وميضاً فوسفورياً ـ وجهاً شاحباً ويدين هزيلتين ـ يتحرك في أعماق الكهف كما سمعت صوتا حلواً لاهثاً: أهلاً!. تشجعت ودخلت الكهف متقدماً باتجاه الصوت. كان الناسك متكوماً على الأرض. رفع رأسه فاستطعت أن أتبين في العتمة وجهه الذي كان مضيئاً في أعماق جمال لا يوصف. بلا شعر، بعينين غارقتين في محاجرهما، وقد أرهقه الأرق والجوع. لقد تساقط شعره كله وراح رأسه يلتمع كالجمجمة.

«باركني يا أبي» قلت ذلك وانحنيت لأقبل يده.

لم يتكلم أي منا خلال فترة طويلة. ورحت أنظر بشغف إلى هذه الروح التي محت جسدها، والذي كان يثقل جناحيها ويعيقها عن التحليق إلى السماء. الروح التي تؤمن أن الوحش، آكل للبشر، لا يرحم. لقد التهمته، لحماً وعينين وشعرًا: كله.

لم أجد ما أقوله ولم أعرف من أين أبدأ. كان الجسد الهزيل أمامي يبدو كميدان إثر مذبحة رهيبة. وعليه رأيت الجراح التي تركها (المغوي) وعضاته. وأخيراً، استجمعت شجاعتي فسألته: ألا تزال تتصارع مع الشيطان يا أب ماكاريوس؟

ـ ليس بعد يا بني. لقد شخت الآن. وهو الآخر قد شاخ معي. لم تعد لديه القوة. إنني أتصارع مع الله.

ـ مع اللّه! هتفت مندهشًا وهل تأمل أن تنتصر؟

ـ إنني آمل أن أهزم يا بني. لا تزال عظامي معي. وهي التي تستمر في المقاومة.

ـ حياتك صعبة يا أبي. أنا أيضا أريد الخلاص. ولكن أليس هناك طريق آخر؟

ـ مقبول أكثر؟ سأل الناسك وهو يبتسم متفهماً.

ـ أكثر إنسانية.

ـ طريق أحد. واحد فقط.

ـ وما هو؟

Twitter: @ketab_n

ـ الصعود. أن تتسلق سلسلة من الخطوات. من المعدة المتخمة إلى الجوع، ومن الحلق المبلل إلى الظمأ، ومن المتعة إلى المعاناة. اللّه يتربع على قمة الجوع والعطش والمعاناة. والشيطان يتربع على عرش الدعة. فاختر.

ـ أنا لا أزال شاباً. والعالم جميل. لدي الوقت الكافي للاختيار. مدّ العظام الخمسة في كفه ولمس ركبتي ودفعني: استيقظ يا بني. استيقظ قبل أن يوقظك الموت.

ارتجفت: «أنا شاب»، وكررت كلامي لكي أستمد الشجاعة.

ـ الموت يحب الشبان. وجهنم تحب الشبان. الحياة شمعة صغيرة مشتعلة من السهل إطفاؤها. انتبه ـ استيقظ!

وصمت قليلاً ثم سألني: مستعد؟

تملكني العناد والسخط فهتفت: لا.

ـ عنجهية الشباب. إنك تقول ذلك وأنت تظن أنه شيء يستحق أن تتباهى به. توقف عن الصراخ. ألست خائفاً؟

ـ ومن لا يخاف؟ نعم. أنا خائف. وماذا عنك يا أبانا المقدس. ألست خائفاً أيضاً؟ لقد جعت وعطشت وقاسيت. وها أنت على وشك الوصول إلى الدرجة العليا. إن باب الجنة يظهر أمامك. ولكن هل سينفتح هذا الباب ويسمح لك بالدخول؟ هل سيحدث هذا؟ أأنت واثق؟

تدحرجت دمعتان من طرفي عينيه وتنهد. وبعد صمت قصير قال: أنا واثق من طيبة الله. فهي التي تقهر خطايا الإنسان وتغفرها.

ـ وأنا أيضا واثق من طيبة الله. بمعنى آخر إنها قد تغفر عنجهية الشباب أيضاً.

ـ ويل لنا إن اعتمدنا على طيبة اللّه وحدها. ففي حالة كهذه ستدخل الرذيلة والفضيلة معاً إلى الجنة متشابكتي الذراعين.

ـ أتعتقد يا أبي أن طيبة اللّه ليست كافية وواسعة لكي تسمح بذلك؟

حين نطقت هذه الكلمات لمعت في رأسي فكرة ـ فكرة غير ورعة ربما، ولكن من يدري ربما كانت عظيمة القدسية ـ إن وقت الخلاص الكامل سيحين، وقت الصلح الكامل، حين تنطفئ نيران جهنم ويصعد الشيطان، الابن العاق، إلى السماء ليقبل يد والده والدموع تنسكب من عينيه. وسيصرخ:

«لقد أخطأت». وسيقول الأب، وهو يفتح ذراعيه على اتساعهما: «أهلاً. أهلاً يا بني. سامحني لأنني عذبتك بهذا القدر». لكنني لم أجرؤ على التعبير عن فكرتي مباشرة. وبدلاً من ذلك اخترت طريقاً ملتوية كوسيلة لتمويهها: «قيل لي، يا أبي، إن هناك قديساً ما ـ لا أذكر من هو الآن ـ كان عاجزًا عن إيجاد الراحة في السماء. وسمع اللّه تنهداته فاستدعاه وسأله:

Twitter: @ketab_n

ما الأمر؟ ما الذي يجعلك تتنهد؟ ألست سعيداً؟. فأجابه القديس: كيف تتوقع مني أن أكون سعيداً يا مولاي طالما أن وسط الجنة هناك ينبوع يبكي؟».

ـ أي ينبوع؟

ـ دموع الملعونين.

ورسم الناسك شارة الصليب بيدين راجفتين: «من أنت؟»، سألني بصوت واهن ميت. «قف ورائي يا شيطان[23]!»، وصلّب ثلاث مرات أخرى ثم بصق في الهواء وكرر: «قف ورائي يا شيطان!». واستعاد صوته القوة.

لمست ركبته التي كانت تلمع عارية في العتمة. وتجمدت يدي. قلت: أبانا. أنا لم آت إلى هنا لأغويك. أنا لست المغوي. أنا شاب يريد أن يؤمن مثلما كان جدي الفلاح يؤمن ببساطة وسذاجة ودون طرح أسئلة. أريد ذلك ولكنني لا أستطيع.

ـ الويل لك. الويل لك يا طفلي التعس. سيلتهمك العقل، ستلتهمك الذات، الأنا، النفس. أتعرف متى ألقي الملاك ليوسيفر إلى جهنم، وهو نفسه الذي تدافع عنه وتريد إنقاذه؟ حدث ذلك حين التفت إلى الله وقال: أنا. نعم. نعم. اسمع أيها الشاب وسجل هذا في عقلك جيداً. هناك شيء واحد يعاقب في جهنم: الذات، نعم. الذات. فلتحل عليها اللعنات كلها!

هززت رأسي بعناد: بهذه الذات، بهذا الوعي بالنفس، ميز الانسان عن الوحوش. لا تقلل من شأنها يا أب ماكاريوس.

ـ بهذا الوعي بالنفس ميز الإنسان عن الله. كان كل شيء في البدء متحداً بالله وراضياً في أحضانه. لم تكن هناك أشياء مثل أنت وأنا وهو. ولا أشياء مثل لي ولك. لم يكن هناك اثنان. كان هناك واحد. كون[24] واحد، كينونة واحدة. هذا هو الفردوس الذي تسمع عنه. هذا أو لا شيء غيره. من هنا بدأنا كلنا. وهذا ما تتذكره الروح. وإليه تتوق أن تعود. مبارك هو الموت. إذ ما هو الموت برأيك؟ إنه بغل. ونحن نمتطي هذا البغل ونرحل.

كان يتكلم، وكلما تكلم أصبحت ملامحه أكثر إشعاعاً وألقاً. وطافت على شفتيه ابتسامة حلوة رضية ثم كست الوجه كله حتى تظن أنه قد انغمر بالجنة. سألته: لم تبتسم يا أبتِ؟

ـ وكيف أمنع نفسي من الابتسام؟ أنا سعيد يا بني. كل يوم وكل ساعة أسمع وقع حوافر البغل، أسمع الموت يقترب. كنت قد تسلقت الصخور وغايتي الاعتراف أمام هذا المنكر القاسي للحياة. ولكني رأيت أنه لم يحن الوقت بعد. فالحياة لم تتصعد بعد في داخلي. كنت أحب العالم المرئي كثيراً. ولا يزال ليوسيفر يتلامع ببهاء في عقلي. إنه لم يتلاشَ بعد في

---

(23) مرت هذه العبارة من قبل أكثر من مرة. وهي تفيد التعوذ.

(24) كوزموس، الكون بوصفه نظاماً منسجماً ومتناغماً.

Twitter: @ketab_n

وهج الله الآخذ للأبصار. وقد قلت لنفسي فيما بعد: غدًا. حين أكبر وأشيخ وأضعف وحين يضعف ليوسيفر في أعماقي.

نهضت فرفع العجوز رأسه وسألني: «أأنت راحل؟ حظاً سعيداً، الله معك». وبعد لحظة قال ساخراً: «تحياتي إلى العالم». فرددت عليه: «تحياتي إلى السماء. وقل لله هذا ليس خطأنا بل خطأه. فهو الذي خلق العالم جميلاً».

* * *

لم يكن الرهبان جميعاً سعداء. ولم يكونوا جميعاً واثقين من أنفسهم. أتذكر بشكل خاص واحداً منهم: الأب أغناطيوس. كنت وصديقي نقضي كل ليلة في الحديث بعد أن يغادرنا الرهبان إلى النوم ويتركوننا وحدنا في غرفة الضيوف. كنا نناقش اهتماماتنا الروحية العظيمة، والطرق المختلفة التي يستطيع الإنسان أن يسلكها للوصول إلى الله. إضافة إلى أننا كنا نجهد لإعطاء هذه الكلمة مضموناً أكثر عذرية بعد أن ابتذلت كثيراً في أفواه الرهبان والكهنة. وذات مرة بينما نحن نتحدث ـ لابد أنه كان منتصف الليل ـ انبعث بغتة صوت مفعم بالانفعال من زاوية معتمة:

ـ يا رب. مكّني من البقاء هنا والاستماع إليك إلى الأبد. إنني لا أريد جنة غير هذه.

كان هذا الأب أغناطيوس. لاشك أنه لم يكن يفهم تماماً ما كنا نقوله. لكن كلمات مثل الله والحب والواجب كانت تؤثر فيه. وكانت تتردد كثيراً في محادثاتنا. وفوق كل شيء كان تؤثر فيه حرارة أصواتنا. وربما، أيضاً، شحوب وجهينا في ضوء المصباح.

تصادقنا. ومنذ تلك الليلة ظل يواظب على الحضور معنا دون أن يتكلم. بل كان يكتفي بالاستماع. وإنك تستطيع أن تحس بتعطشه لسماع الأحاديث التي كانت تتفوق على المحادثات التي يجريها الرهبان في ما بينهم. ومساء يوم رحيلنا دعاني إلى حجرته. كان الوقت متأخراً. وكان صديقي متعباً وقد ذهب لينام. قال: اجلس. أريد أن أعترف لك.

قدم لي مقعداً جلست عليه. نظرت إليه. كانت لحيته البيضاء قليلة الشعر تشع في ضوء القمر وتحول رداءه الأسود إلى أخضر بفعل القدم. وكان القماش قد صار صقيلاً لامعاً من الاستخدام، ومن البقع الشحمية. وكانت وجنتاه غائرتين، ووجهه مغطى بالتجاعيد كحقل محروث. وكان حاجباه الكثيفان الأشعثان يبرزان فوق عينيه الغائرتين السوداوين الفاحمتين. ورائحة البخور تفوح منه ممزوجة برائحة زيت الزيتون الزنخة. ويبرز الإبهام الكبير لقدمه اليمنى من خلال القشاط في حذائه الضخم المصنوع كيفما كان.

ظل صامتاً لفترة طويلة، وكأنه كان قد اتخذ قراراً ثم ندم عليه الآن. وأخيراً قال: «بحق الله اصبر واستمع إلي. لا تتكلم، أو تنهض قبل أن أنهي اعترافي. أشفق علي». كان صوته يرتجف. وسألني: «هل تشرب قهوة؟»، وكأنه يرغب في تأجيل الوصول إلى اللحظة

Twitter: @ketab_n

الحرجة. لكنه قبل أن ينتظر الجواب جلس على سريره المتواضع وأمسك بلحيته وهو غارق في تأمله وتردده. أحسست بالشفقة عليه وقلت: «لا حاجة بك إلى التردد يا أب أغناطيوس. أنا إنسا ن طيب. وأنا أعرف شيئاً ما عن معاناة الإنسان. تكلم بحرية. وخفف عن نفسك».

ـ «ليست مسألة معاناة». قال ذلك وقد اكتسب صوته العجوز قوة مفاجئة. «ليست مسألة المعاناة بل المتعة. هل المتعة ملعونة؟ أم مباركة؟ إنني أعذب نفسي منذ سنوات جاهداً لمعرفة ذلك دون أن أستطيع. لهذا دعوتك. إنني في حاجة للمساعدة. أتفهمني؟».

لم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى انفتح قلبه. لم يعد يتردد الآن. صلّب وركز عينيه، ليس علي بل على المصباح المشتعل أمامه قرب أيقونة المصلوب. وبدأ:

ـ «حاولت منذ سنوات طويلة، يا بني، أن أرى الله. ولكنني لم أنجح. سنوات طويلة وأنا أسجد، أنظرْ كيف تيبست يداي. وسنوات طويلة بعدها كنت أصرخ: طيب. دعني لا أرى اللّه طالما أنني لا أستحق ذلك. ولكن دعني أقوى على الإحساس بحضوره اللا مرئي لكي أحِس أنا أيضا بالغبطة ولو لطرفة عين. ولكي أعرف أنني مسيحي وأن سنوات تنسكي لم تذهب عبثاً. كنت أصرخ وأصوم وأبكي، دون جدوى. كان قلبي عاجزاً عن أن ينفتح ويسمح لله بالدخول فيه. لقد أقفله الشيطان وخبأ مفاتيحه».

رفع حاجبيه ليراني جيداً، ثم التفت نحوي محدقاً: «لِمَ أخبرك بهذا كله؟»، سأل وكأنه يوبخ نفسه، «من أنت؟ ومن أين أتيت؟ وما الذي تفعله هنا على الجبل المقدس؟ لِمَ علي أن أثق بك؟ وأرغب في الإفشاء لك بهذا السر الذي ستسمعه بعد قليل، السر الذي لم أكشف عنه حتى لكاهني، والذي يثقل علي ويغمسني في الجحيم؟ ولماذا؟ لماذا؟».

ونظر إلي حائراً ينتظر الجواب. فأجبته: لعلها إرادة اللّه. ربما أن اللّه قد أرسلني إلى الجبل المقدس لكي أستمع إليك يا أب أغناطيوس. كيف تتوقع أن يعرف العقل البشري الطرق التي يختارها اللّه لكي يجعلك تتخفف من العبء الذي كنت تتحدث عنه؟

أطرق الراهب برأسه وغرق في التفكير لوهلة. وأخيراً قال: «ربما»، ثم تشجع وأكمل دون توقف:

كما ترى. لقد عذبت نفسي سنوات وسنوات. وأحسست أن حياتي تضيع هباء. لا الصلاة ولا الصوم ولا العزلة كانت قادرة على مساعدتي في أي شيء. ثم هيمن عليَّ شك رهيب في أنه قد لا يكون هذا هو الطريق. ليس الطريق الذي سيقودني إلى اللّه. لا بد أن هناك طريقاً آخر. الطريق الآخر!! ولكن أيها؟ وذات يوم أمرني رئيس الدير أن أذهب للعمل كمشرف على ملحق كان الدير يمتلكه قرب سالونيكا. كان الوقت صيفاً، أيام الحصاد. وعلي أن أذهب إلى هناك لكي أمنع المحاصصين من خداعنا. منذ إحدى وعشرين سنة لم أكن قد خطوت خارج الدير. ولم أكن قد رأيت الناس مع أطفالهم، أو سمعت ضحكة، أو وقعت

Twitter: @ketab_n

عيني على امرأة. كان السهل في الخارج قائظاً. وكان عمري قرابة الأربعين عاماً. إحدى وعشرون سنة منها في السجن. والآن تنفتح الأبواب وأستنشق الهواء النقي. كنت قد نسيت الأطفال وهم يتدحرجون على الأرض ويلعبون. ومنظر المرأة التي تذهب إلى النبع وجرتها على كتفها. والشباب الذين يشربون في الخمارات وقطفة الحبق وراء آذانهم. على باب الملحق رأيت امرأة تحمل طفلها بين ذراعيها وترضعه. لوهلة ـ سامحني يا رب ـ ظننت أنها مريم العذراء. وكنت على وشك الانحناء والصلاة لها. لم كن قد رأيت امرأة منذ عشرين عاماً، كما قلت لك، وكان عقلي مبلبلاً. أما هي فزررت قميصها وأخفت ثديها حالما رأتني. ثم انحنت لتقبل يدي. قالت: «أهلاً بك يا أبانا. امنحنا بركتك». لكني غضبت دون أن أعرف السبب. سحبت يدي وصرخت: «لا ترضعي حيث يمكن أن يراك الرجال. ادخلي». احمرت خجلاً. فشدت الخمار الذي كان ملفوفاً على رأسها، وغطت فمها به. ثم دخلت مذعورة دون أن تنبس بكلمة.

أغمض الراهب عينيه، محاولاً بالتأكيد أن يرى الممر ويرى المرأة والقميص المفتوح.

ـ تابع. قلت له، وقد لاحظت أنه ظل صامتاً طويلاً.

ـ من هنا بدأ الصعود، أجاب الراهب، «الدرج الصاعد ـ أعني الدرج النازل. لقد اتفقنا على أن تستمع إلي دون أن تتكلم أو تنهض للانصراف. ليس ذنبي. إنه ذنب الشيطان. لا. حتى ليس ذنبه. كل شيء من صنع الله. يقول الكتاب المقدس إنه إذا سقطت ورقة واحدة من شجرة فإن الله هو الذي يسقطها. فكيف يكون الأمر حين تسقط الروح... أقول ذلك لأريح ضميري. لكنه لا يمكن أن يرتاح. خلال النهار لا يقول شيئاً. ولكنه في الليل ينهض ويصرخ بي. إنها خطيئتك.

لقد حكيت لك عن المرأة التي كانت تقف على الباب وهي ترضع طفلها. منذ اللحظة التي رأيت فيها ثديها لم أعد أعرف الهدوء. هناك ناسك عظيم اسمه القديس أنطونيوس، يقول: (إن كنت في راحة وسمعت زقزقة السنونو فإن قلبك لا يظل محتفظاً بهدوئه السابق). حسن إذن، إن كانت زقزقة السنونو تستطيع أن تلقي القلق في قلوبنا، فما الذي يستطيع أن يفعله ثدي عار لامرأة؟! لا تنس: كنت لا أزال فتياً حين دخلت الدير. ولم أكن قد عرفت امرأة من قبل. لم أقصد: عرفت؟ لم أكن قد لمست امرأة من قبل. ماذا أفعل؟ وكيف أستطيع أن أتخلص من الشيطان؟ ألقيت بنفسي إلى الصيام والصلاة. أخذت السوط الذي يستخدم لضرب الثيران أيام الدراسة ورحت أسوط نفسي بسرعة إلى أن يتحول جسدي كله إلى جرح كبير. ومرة أخرى لا جدوى. لا جدوى. ما إن ينخفض ضوء المصباح قليلاً حتى أرى ثدياً أبيض يلمع في الظلام. وذات ليلة حلمت حلماً رهيباً لا أزال أرتعش حين أفكر فيه.

وبغتة رُبط لسانه وجف فمه. لكنني طالبته دون شفقة:

Twitter: @ketab_n

ـ وماذا كان الحلم؟

جفف العرق عن جبينه والتقط أنفاسه: حلمت بثدي أبيض. لم أحلم بجسد أو بامرأة. ظلام حالك ووسطه ثدي. وأنا بردائي وقبعتي ولحيتي مضغوط عليه. أرضع!

وتنهد مثل عجل ثم صمت.

ـ تابع. تابع. قلت له دون شفقة. لقد تغلبت لدي الرغبة في السماع على اللطف والكياسة. لم يكن الأمر فضولاً، بل كان تعاطفاً مع هذا التعس الذي كان تواقاً للكلام وعاجزاً عنه.

وسألني الراهب وهو يحدق إلي مستطلعاً: لم أنت ملحاح؟ ألا تشفق علي؟

ـ لا. أجبته، لكنني بغتة أحسست بالخجل: نعم. نعم. إنني أشفق عليك ولهذا أنا مصر. سترى. حالما تتحدث سترتاح.

ـ صحيح. نعم. حالما أتحدث سأشعر بالراحة. حسن إذن. اسمع. كل مساء كانت هذه المرأة التي رأيتها في اليوم الأول على عتبة الباب، تجلب لي صحناً من الطعام وكأسًا من الخمر لعشائي. في البدء كنت آكل. لكنني في ما بعد صرت أترك كل شيء دون أن أمسه وطوال عدة أيام. وفي كل صباح حين تأتي لاستعادة الأشياء كانت تتردد لحظة وكأنها راغبة في أن تسألني لِمَ لمْ آكل. لكنها لم تكن تجرؤ. وذات ليلة.على أية حال. كانت ليلة أحد. وكانت مرتاحة. لم تكن قد أتعبت نفسها بالحصاد في الحقل. كانت قد غسلت شعرها ولبست ملابس الأحد. صدارة مشدودة ذات تطريزة حمراء كما أذكر. كان الطقس حاراً في الخارج وكانت قد فتحت قميصها قليلاً وظهر إنش من رقبتها. لابد أنها كانت قد زيتت شعرها بزيت الغار حسب عادة الريفيات. ذلك أن رائحته كانت حلوة. لا أعرف كيف. ولكنها ذكرتني بالكنيسة يوم الفصح بعد أن كنا قد زيناها بالأمس ورششنا أوراق الغار على أرضها. كان الهواء مشبعاً برائحة الغار والقيامة. وضعت الصحن والخمرة على المائدة ثم استجمعت شجاعتها ـ من يعرف لماذا؟ ألأنها كانت مستحمة؟ ألأنها كانت مرتاحة؟ (حمام، وبعض العطور وزر مفتوح، هذا كله يعين المغوي على إلقاء شخص ما إلى الجحيم) على أية حال باستجماعها شجاعتها هذه المرة فإنها لم تخرج بل ظلت واقفة حث كانت.

لَم لم تأكل خلال الأيام الأخيرة ياأب أغناطيوس؟ سألتني وصوتها مليء بالعطف والاهتمام. ولكي أقول الحق كانت كما لو أن ابنها لم يرضع منذ عدة أيام. وكانت قلقة من أنه قد يمرض. لم أجب. ولكنها لم تخرج. أتعرف السبب؟ إنك لا تزال شاباً لذا فأنت لا تعرف. لأن الشيطان داخل رحم المرأة لا ينام. كان يشتغل.

قالت: ستدمر صحتك يا أب أغناطيوس. الجسد أيضاً من صنع الله. وعلينا أن نغذيه.

تمتمت لنفسي: «ابق ورائي يا شيطان». ورفضت أن أرفع عيني لأنظر إلى المرأة.

Twitter: @ketab_n

وبغتة أطلقتُ صرخة، وكأنني كنت أغرق «اخرجي».

خافت المرأة فركضت باتجاه الباب. ولكنني حين رأيتها تقترب منه اتضح لي أنني خائف أيضاً. كنت خائفاً من أن تتركني. اندفعت إليها، وأمسكت بها من شعرها. كنت قد أطفأت المصباح لكي لا يراني المصلوب. هرب الضوء. والظلمة هي مسكن الشيطان. وأنا لا أزال ممسكاً بها من شعرها. ألقيت بها على السرير. كنت أخور كالعجل. وكانت صامتة. أمسكت بصدارها وسحبته. وبحركة واحدة فتحت أزرار قميصها كلها.

كم من السنوات مرت منذ ذلك الحادث؟ ثلاثون؟ أربعون؟ لا. ولا سنة. لقد توقف الزمن. هل سبق لك أن رأيت الزمن يتوقف؟ أنا رأيت. ثلاثون عاماً وأنا أفكك أزرار قميصها ولا نهاية لذلك. هناك دائما زر آخر.

أبقيتها معي حتى الفجر دون أن أسمح لها بالذهاب. يا إلهي أية متعة كانت! وأي تخفف! وأية قيامة! لقد كنت مصلوباً طوال حياتي. وفي تلك الليلة قمت. لكن كان هناك شيء آخر. القِسْم المخيف. القسم الذي أعتقد أنه يشكل خطيئتي. لهذا جلبتك هنا إلى حجرتي، لكي تحل لي اللغز. القسم المرعب هو هذا: للمرة الأولى في حياتي أحسست باللّه يقترب مني. يقترب بذراعين مفتوحتين. أية منة أحسست بها! وأية صلوات أديتها طوال ذلك الليل حتى طلوع الفجر! وبأي كمال انفتح قلبي وسمح للّه بالدخول! للمرة الأولى في حياتي. آه. لقد سبق لي أن قرأت ذلك في الكتاب المقدس من قبل. ولكن تلك كانت مجرد كلمات ـ للمرة الأولى في حياتي اللا إنسانية الجافة فهمت إلى أية درجة هو اللّه طيب، وإلى أية درجة يحب الإنسان، وكم أنه أشفق عليه لكي يخلق له المرأة، ويخصها بفضل أن تقودنا إلى الجنة عبر أقصر الطرق وأكثرها ضماناً. المرأة أقوى من الصلاة ومن الصوم و ـ سامحني ـ أقوى حتى من الفضيلة.

وتوقف مذعوراً من الكلمات التي تلفظ بها. وانحدرت دمعتان من عينيه الغائرتين تحت حاجبيه وهو يلقي بنظرة متضرعة إلى المصلوب.

«سامحني يا مسيحي». جأر، ثم أغمض عينيه، لكي لا يرى الأيقونة. لكنه، بشكل ما، استجمع نفسه فوراً، وفتح عينيه ونظر إلي. كنت على وشك أن أفتح فمي لأقول شيئاً ما. ولم تكن لدي فكرة عما سأقوله. لكنني لم أستطع احتمال الصمت. والدموع، التي ظلت تنحدر من العينين الشائختين كانت ترعبني. وقبل أن تسنح لي الفرصة للتلفظ بكلمة واحدة مد يده وكأنه سيضعها على شفتي. قال: انتظر. لم أنته. عند الفجر نهضت المرأة مسرعة وارتدت ملابسها. ثم فتحت الباب بهدوء وخرجت. أغلقت عيني وبدأت أبكي. وأنا مستلق في السرير على ظهري. لكن تلك الدموع لم تكن مثل الدموع المرة الحاقدة التي كنت أذرفها في حجرتي. كان فيها شيء من الحلاوة التي لا توصف. لأنني أحسست بأن اللّه كان في حجرتي، منحنياً على مخدتي، وكنت واثقاً من أنني لو مددت يدي للمسته. لكنني لم أكن

Twitter: @ketab_n

توماس المتشكك. لم أكن في حاجة إلى أن أمد يدي لألمسه. امرأة هي التي منحتني هذا اليقين. أكرر: امرأة وليست صلاة أو صياماً: امرأة، ليباركها الله، هي التي أدخلت اللّه إلى غرفتي.

منذ تلك الليلة وطوال ثلاثين أو أربعين سنة أجلس وأفكر لنفسي: أيمكن أن تكون الخطيئة أيضاً في خدمة اللّه؟ إيه. أعرف ما ستقوله لي (إنه ما يقوله الجميع) نعم بالتأكيد إن تبت. لكنني لم أتب. ولم أندم. أقول هذا بصراحة ووضوح. فلتنزل علي صاعقة اللّه إن أرادت ولتُحلني إلى رماد. لم أندم. ولن أندم. ولو أتيحت لي الفرصة لفعل ذلك مرة أخرى فسأفعل.

أراح قبعته وحكَّ رأسه. وتحدر شعره الأبيض مغطياً وجهه. وغرق في أفكاره لوهلة. وخمنت أنه متردد في المضي أبعد من ذلك لكنه أخيراً اتخذ قراره: هل من الممكن أن لا يكون ما فعلته خطيئة؟ وإن لم يكن خطيئة، فما معنى الخطيئة الأصلية، الأفعى والتفاحة المقطوفة من الشجرة المحرمة؟ أنا لا أعرف. ولهذا دعوتك إلى هنا. ربما كنت تعرف. هذا ما دعوتك من أجله. إنني متمسك بالحياة بما تبقى لدي من عظمين أو ثلاثة عظام. أريد أن أفهم قبل أن أموت. لم لا تقول شيئاً؟ يبدو لي أنك مشوش مثلي يا بني.

ما الذي كنت أستطيع أن أقوله؟ أكانت الخطيئة في خدمة اللّه؟ هذه أول مرة ينزل فيها علي هذا السؤال ليعذبني. أكان هناك بموازاة طريق الفضيلة طريق آخر أعرض وأكثر يسراً هو طريق الخطيئة يمكن أن يقودنا إلى اللّه؟

أجبته: «يا أب أغناطيوس. أنا لا أزال فتياً. ولم أجد بعد الوقت لاقتراف خطايا عديدة أو للمعاناة كثيراً. ولذا لا أستطيع أن أجيب على سؤالك. ولا أريد أن أجعل عقلي قاضياً، فأنا لا أثق به. كما أنني لا أثق بقلبي. الواحد يدين دائماً بينما الآخر يعفو دائماً فكيف أستطيع أن أقرر أيهما الصحيح؟ يقول العقل، يا أب أغناطيوس، إن طريق الخطيئة، هذا الذي قلت إنه يقودك إلى الله، هو أكثر إمتاعاً وملاءمة، وأنا أرفض قبوله. ومن جهة أخرى يقول القلب إنه من المستحيل أن تبلغ شراسة اللّه وظلمه أن يريد للإنسان معاناة الشهادة والجوع والعري والضعة. بمعنى آخر هل المجانين والمحطمون جسدياً هم وحدهم القادرون على الدخول إلى بيته؟ أنا أرفض قبول هذا. وهكذا فإنك ترى يا أب أغناطيوس أية نتيجة أصل إليها حين أؤمن أن الرأيين صحيحان!».

بينما كنت أتكلم كنت أفكر لنفسي دون النطق بأفكاري. المطلوب وصايا جديدة! وصايا جديدة! أما كيف ستصنف هذه الوصايا الفضائل والرذائل فهو ما لم أعرفه. وكان ما رحت أقوله لنفسي مرة بعد أخرى: وصايا جديدة. الوصايا الجديدة مسألة ضرورية جداً. ولكن من سيعطينا إياها؟

Twitter: @ketab_n

بدأت النافذة الصغيرة في الحجرة تضاء بضوء صغير. ومن باحة الدير بدأت تصل الضربات الإيقاعية للسمانترون الخشبي وهو ينتقل من حجرة إلى أخرى داعياً الرهبان إلى صلاة الصبح.

ونظر الأب أغناطيوس إلى النافذة. ثم تمتم مندهشاً: «بزغ الفجر، بزغ الفجر».

وانسحب إلى زاوية، وانحنى متأوهاً من الألم في ظهره. وتناول إبريق الزيت الصغير ثم توجه إلى الصليب وسكب قليلاً من الزيت في المصباح الموجود أمامه. وتلقى اللهب الصغير دفعة جديدة من الحياة فتوهج وجه المسيح وأضيئت القسمات الصفراء المتوجعة وقطرات الدم المتساقطة من تاج الشوك على الحاجب والخدين.

وسمر الراهب عينيه على هذا الوجه مدة طويلة ثم تنهد والتفت إلي: «باختصار، أليس لديك أي جواب لي؟ لاشيء؟». كانت نبراته ساخرة. أو هكذا بدت لي. نهضت عن المقعد ووقفت إلى جانبه ورحت أحدق معه إلى المصلوب. كنت متعباً ونعساناً. أجبته: «لا شيء!».

قال الراهب: «حسن. لا يهم». وتناول أمتعته من الزاوية للذهاب إلى صلاة الصبح. ثم عاد مرة أخرى إلى مواجهة الأيقونة ليقدم لها احترامه. وأضاء وجهه الذاوي والخالي من الحياة تحت ضوء المصباح. ثم رفع إصبعه مشيراً لي نحو المصلوب، وقال: «هو أعطى الجواب».

وفي اللحظة ذاتها قرع باب الحجرة، وجاء صوت ينادي: «يا أب أغناطيوس!»، وأجاب الراهب: «قادم يا أبانا المقدس». ثم سحب ثوبه.

* * *

حين أقلب صفحات دفتري يتضح لي أن لاشيء يموت. كل شيء ينام في أعماقي. وها هو ذا كل شيء يستيقظ الآن وينهض من الصفحات الممزقة ونصف المطلسمة ليصبح من جديد أديرة ورهبانا ولوحات وبحراً. وصديقي أيضاً هو الآخر ينهض من التراب مثلما كان في ذلك الحين، أنيقاً في زهرة شبابه وضحكته الهومرية. وعيناه الزرقاوان الصقريتان وصدره المليء بالقصائد! كان يعطي الناس أكثر مما يستطيعون أن يأخذوا. وكان يطلب منهم أكثر مما يستطيعون أن يعطوا. ومات مهجوراً وحزيناً حين لم يبق لديه شيء سوى الابتسامة المرة لروح جريحة ذات كبرياء. كان نيزكاً قهر الظلمة لوهلة ثم تلاشى. هكذا سنتلاشى جميعاً. وهكذا ستتلاشى الأرض أيضاً. غير أن هذه الحقيقة لا تقدم أي عزاء كما أنها ليست تبريرا له (للّه) ذلك الذي يخلقنا ويدمرنا.

ظللنا نتجول في الجبل المقدس أربعين يوماً. وحين أكملنا دائرتنا عدنا أخيراً إلى دافنه

Twitter: @ketab_n

مساء عيد الميلاد لكي نرحل. وكانت تنتظرنا أكثر المعجزات مفاجأة وحسماً. فعلى الرغم من أننا كنا في عز الشتاء إلا أنه كانت هناك شجرة لوز مزهرة في حديقة صغيرة متواضعة.

أمسكت ذراع صديقي وأشرت للشجرة المزهرة. قلت له: «أنجيلوس! طوال رحلتنا هذه كانت قلوبنا تتعذب بأسئلة معقدة. والآن هاك الجواب!».

ثبت صديقي عينيه الزرقاوين على شجرة اللوز المزهرة ورسم شارة الصليب، وكأنه يقدم احترامه وصلاته أمام أيقونة مقدسة صانعة للمعجزات. وظل فترة طويلة دون أن يتكلم. وأخيراً قال ببطء شديد: تصعد إلى شفتي، قصيدة صغيرة موجزة، هاي كاي! وتطلع ثانية إلى شجرة اللوز.

* * *

قلت لشجرة اللوز:

حدثيني عن الله يا أخت

فأزهرت شجرة اللوز.

Twitter: @ketab_n

20

القدس

حين عدت إلى وحدتي من جديد أغمضت عيني وسألت نفسي عما تبقى لي أخيراً من الجبل المقدس. من المتع العديدة والتجارب المثيرة ومن الأسئلة الوفيرة التي عذبتْ صديقي وعذبتني. ما الذي ترسب في أعماقي؟ ما الذي كنت أبحث عنه حين ذهبت إلى الجبل المقدس؟ وما الذي وجدته هناك؟

الجراح القديمة التي أصبت بها خلال بلوغي، حينما أفشى لي معلمي بالسرين العظيمين، أن الأرض ليست مركز الكون، وأن الإنسان ليس مخلوقاً متميزًا نازلاً مباشرة من يد الله، تلك الجراح القديمة، التي كانت قد برئت منذ سنوات طويلة، نُكئت من جديد على الجبل المقدس. العذابان الميتافيزيقيان: من أين جئنا؟ وإلى أين نذهب؟ أحد الجوابين قدمه المسيح. جلب بلسماً أشفى جراحاً عديدة. ولكن أكان في وسع هذا البلسم أن يشفي جراحي؟ لفترة قصيرة استطاعت صلوات الصباح والسمانترون والتراتيل والرسوم ـ الإيقاع القدسي لحياة النساك ـ أن تهدئ كربي. وبالتعرف على كفاح المسيح من جهة ثانية أحسست أن كفاحي قد تزود بالشجاعة والحلاوة والأمل. ولكن السحر سرعان ما تبدد. ووجدت روحي نفسها مرة أخرى مهجورة. لماذا؟ ما الذي كان ينقصها؟ ومن الذي كان ينقصها؟ وما الذي كانت روحي تبحث عنه حين ذهبت إلى الجبل المقدس؟ وما الذي فشلت في العثور عليه هناك؟

بمرور السنين بدأت شيئاً فشيئاً أهمس بأنني ذهبت إلى الجبل المقدس بحثاً عن شيء ما، كنت أبحث عنه خلال حياتي كلها: صديق عظيم، أو عدو عظيم، ليس من مقامي بل أكبر مني، يمكن أن يخوض الكفاح إلى جانبي. ليس امرأة وليس فكرة. بل شيء آخر، شخص آخر. كان هذا هو الشيء، أو الشخص، الذي ينقص روحي. ولهذا كانت تحس بأنها تختنق.

وبعد ذلك فقط، وليس أثناء وجودي هناك، أدركت أنني فشلت في العثور على هذا

Twitter: @ketab_n

الشخص على الجبل المقدس. وإنني لأتساءل عما إذا كانت هذه هي ثمرة رحلتي كلها على جبل آثوس؟ الشيء الوحيد الذي وجدته، وأنا أطوف الجبل المقدس، كان داعية متمرساً (أو هكذا بدا لي في البداية) يمد كفيه المجروحتين للرهبان الذين يعبرونه. وكان الدم يقطر من قدميه الحافيتين، وكانت وجنتاه غائرتين جوعاً، وثيابه ممزقة يظهر منها جسده الهزيل. كان يقرع كل باب وهو يرتعش وعيناه مغرورقتان بالدموع. ولكن أحداً لم يقبله. كان يُطرد من دير إلى دير. والكلاب تجري متعلقة بردائه الممزق وهي تنبح. رأيته ذات مساء جالساً على حجر، وهو يحدق إلى البحر المقفر. اختبأت وراء شجرة تنوب ورحت أتلصص عليه. ظل صامتاً لفترة طويلة. وحين عجز عن السيطرة على نفسه أكثر من ذلك صرخ بغتة: «للثعالب جحور، وأنا لا أملك مكاناً أسند عليه رأسي».

واخترقت عقلي ومضة. لقد عرفته[1] وركضت لأقبل يده. أحببته حين كنت طفلاً صغيراً، وأحببته منذ ذلك الحين. وأنا الآن أبحث عنه في كل مكان. ولكنه اختفى. ولإحساسي بالغبن جلست على الحجر الذي كان يجلس عليه. آه لو أني، فقط، أستطيع أن أفتح له قلبي، لعله يدخله. ولا يظل يتشرد بردانا دون بيت. فكرت في الفيلسوف بروكلوس، الذي عاش في الوقت الذي لم يعد فيه الناس يؤمنون بآلهة الأولمب وراحوا يتنكرون لها.

نام بروكلوس في كوخ على سفح أكروبوليس. وبغتة سمع في منتصف الليل شخصاً يقرع بابه. قفز وركض ليرى من الطارق. فرأى «أثينا» واقفة بأبهتها الكاملة على عتبته. قالت له: «يا بروكلوس. أينما ذهبت يرفضون استقبالي. لقد جئت ملتجئة إلى جبينك».

كم أرغب لو أن هذا المسيح، بطريقة مشابهة، يستطيع أن يلتجئ إلى قلبي!

وبعودتي من جبل آثوس شعرت للمرة الأولى أن المسيح يتجول جائعاً شريداً، أو أنه في خطر وأنه دوره الآن لكي يُخلَّص ـ من قبل الإنسان. هيمن علي حزن وحنو شديدان. ولعدم رغبتي في العودة إلى حياة الدعة والراحة سلكت طريقاً. ورحت أمشي أياماً وأياماً عبر الجبال المقدونية إلى أن عثرت على قرية صغيرة كئيبة معتمة وبائسة: زرائب مغطاة بالروث، وقطيع من الأطفال والخنازير الملوثة بالوحل. نظر الرجال إلي بوجوه مقطبة. وحين حييتهم لم يجيبوا. أما النساء فصفقن أبوابهن حالما رأينني. قلت لنفسي إن هذا هو المكان الملائم لي. هنا، يا روحي، في هذه القرية المخيفة، وبين هؤلاء الناس المخيفين، ستثبتين قدرتك على الاحتمال.

لم يفارق الداعية الجريح بالي. ولأنني كنت أريد أن أذلل جسدي قررت أن أقضي الشتاء في هذه القرية. وبعد مشكلات لا نهاية لها نجحت أخيراً في جعل راعٍ عجوز يفهم أني لست مجرماً ولا ماسونياً ولا مجنوناً. وقبل أن يؤجرني زاوية من كوخه وأن يقدم لي بعض

(1) الضمير مكتوب بحرف كبير. وهذا يعني أن المقصود هو الله، أو المسيح.

Twitter: @ketab_n

الحليب والخبز كل يوم. وهناك، بسبب توفّر الكثير من الخشب، جلست أقرأ أمام النار. لم يكن معي أي شيء باستثناء الأناجيل وهوميروس. ورحت أقرأ كلمات المسيح عن الحب والتواضع حيناً، وأقرأ الأشعار الخالدة لشيخ اليونانيين وأبيهم حيناً آخر. يجب أن تكون طيباً ومسالماً وصبوراً. وإذا صُفعت على خدك يجب أن تدير الآخر. لا قيمة للحياة على هذه الأرض. الحياة الحقيقية هي تلك التي في السماء ـ هكذا كان الأول يأمر. يجب أن تكون قوياً، ويجب أن تحب الخمر والنساء والحرب. يجب أن تقتل وتُقتل لكي ترفع عالياً كرامة الإنسان وكبرياءه. أحبَّ هذه الحياة الدنيا. عبد حي أفضل من ملك في هيدس ـ هكذا كان يأمر الثاني، جد اليونان.

وبرز الآخيون[2] على حافة عقلي، الآخيون بأنوفهم الضخمة، بواقيات سيقانهم، بأقدامهم الكبيرة الناسية، وبأفخاذهم المشعرة ولحاهم المدببة، بشعورهم الكثة الطويلة المزفرة، بروائح الخمر والثوم التي تفوح منهم. وكانت هناك هيلين تتجول خالدة غير دنسة على الجدران، بهية ونقية في الضوء وأخمصا قدميها المقوسان فقط مضرجان بالدم. والآلهة، المتوجون بجلال في الغيوم، يقضون وقتهم بالتفرج على البشر وكل منهم يذبح الآخر.

هنا في عزلتي هذه أتلعت أذني ورحت أصغي إلى السيرانتين[3]. كنت أستمع إليهما معاً. براثنهما منغرزة في أحشائي. وكل منهما كان يسحرني. ولكنني لم أكن أعرف إلى أي من شبحي هذين السيرانتين سأقدم عظامي.

الثلج في الخارج. وأنا أتطلع من النافذة الصغيرة، وأراقب نتف الثلج المتساقطة على قبح القرية. كل صباح تمر قطعان الغنم وتوقظني بأجراسها. وكنت أقفز من الفراش وأتسلق معها الدروب المغطاة بالثلج متبادلاً بضع كلمات مع الراعي حول موضوعات الفقر والبرد والأغنام التي تموت. طوال عمري لم أسمع راعياً يتحدث عن أي شيء بهذا الرضى. لا شيء أكثر من الفقر والبرد والأغنام التي تموت.

ذات يوم كان كل شيء مغطى بفراش ناصع من الثلج وبدأت أجراس القرية تدق حِداداً. لابد أن شخصاً ما قد مات. كان القرويون معتصمين داخل بيوتهم، وقد أوصدوا أبوابهم. وبين حين وآخر يحرك الهواء الساكن جرس بغل. ومن نافذتي أستطيع أن أرى الغربان الجائعة وهي تطير جيئة وذهاباً. كنت قد أشعلت ناري، وضمَّني الدفء، في عناق حنون مثل أم. أحسست أن سعادتي كاملة. ولكن عند ذلك، فجأة، وكأن الفرح خيانة وخطيئة كبرى تفجر البكاء في داخلي ـ بكاء هادئ يائس وحنون مثل أم تغني تهويدة لابنها الميت.

---

(2) الآخيون أهالي أخايا، أو اليونان القديمة. وفي الإلياذة هي تسمية لليونانيين كلهم.

(3) كائنات أسطورية لها أجساد طيور و رؤوس نسوة. كانت تسحر الملاحين بغنائها. . وهنا يقصد المسيح وهوميروس.

Twitter: @ketab_n

لم تكن هذه المرة الأولى التي أسمع فيها هذا البكاء الداخلي. كلما أحسست بالحزن يزداد لطفاً حتى ليبدو لي كطنين النحل البعيد. وكلما أحسست بالسعادة تفجر هائجاً. وقد اعتدت أن أصرخ خائفاً: «من الذي يبكي في داخلي؟ ولأي سبب؟ وبماذا أخطأت؟».

حل الليل. وبينما كنت أحدق إلى النار راح قلبي يقاوم. لقد رفض أن ينضم للمناحة. لم علي أن أبدأ العويل والنواح؟ لم يكن هناك حزن كبير يسحق روحي. لدي الهدوء والدفء، والهواء الفلاحي في البيت تفوح منه رائحة السفرجل والقصعين. وكنت جالساً أمام الموقد أقرأ هوميروس ـ كنت سعيداً. وصرخت: «أنا سعيد. ما الذي ينقصني؟ لاشيء! إذن فمن أو ما الذي يبكي في داخلي؟ وماذا يريد؟ وماذا يريد مني؟».

للحظة خيل إلي أنني سمعت قرعاً على الباب. نهضتُ فلم أجد أحداً. كانت السماء صافية تماماً والنجوم تلتمع كالفحم المشتعل. انحنيت وتفحصت الطريق المغطى بالثلج تحت ضوء النجوم لأرى إن كنت أستطيع أن أتبين بالصدفة آثار أقدام بشرية. لاشيء. أتلعت أذني ورحت أصغي. كان هناك كلب ينبح مكتئباً في طرف القرية. لابد أنه رأى كيرون يطوف على الثلج. لقد سقط منذ يومين راع عجوز في المسيل. ولكنه قوي ويبدو أنه خالد. ظل طوال هذا اليوم وهو يُسْلم الروح، والقرية كلها تخور متوجعة من الغرغرة الراعدة لنزاعه الأخير. إنه الآن صامت. ولا شيء يُسمع إلا النباح النائح لكلبه. لابد أنه مات. قلت ذلك لنفسي، وأنا أرتجف. أغضبني الموت. فالكلمات المعزية حول المجيء الثاني والوجود في المستقبل لا تزال عاجزة عن خداعي. ولكن، من جهة أخرى، لم تصبح لدي القوة بعد على مجابهة الموت دون خوف.

غرقت مرة أخرى في هوميروس. وكأنني أبحث عن الأمان عند ركبتي الجد العجوز. وبدأت الأشعار الخالدة تتدحرج كالأمواج من جديد وتتكسر على صدغيَّ. عبر القرون رحت أسمع الضجة التي يثيرها الآلهة والبشر وهم يغيرون برماحهم. ورأيت هيلين وهي تمشي الهوينى على الأسوار الطروادية يحيط بها عجائز المدينة. وحين رأيتها رحت أجاهد لأنسى. ولكن أفكاري كانت مركزة على الموت. قلت لنفسي. آه لو أن قلب الإنسان يكون كليَّ القدرة، قوياً إلى درجة يستطيع معها مصارعة الموت! لو أنه كان مثل مريم المجدلية ـ مريم المجدلية البغي ـ ويستطيع أن يبعث الجثة المحبوبة.

أحسست بقلبي مترعاً. وا أسفاه! كيف أستطيع أنا، بدوري، أن أبعثه[4] وأجد الراحة! وأدركت أن الممدد ميتاً في أحشائي، هو الذي يظل يبكي. كان يجاهد لكي ينهض. لكنه لا يستطيع دون معونة الإنسان. وعلى هذا الأساس يحس نحوي بمقت كبير. كيف أستطيع أن أخلصه ـ وأخلص نفسي؟

(4) الحديث أيضاً عن المسيح أو الله.

Twitter: @ketab_n

لو كان جدي لنشر شراع مركبه وأبحر إلى المضائق ليصادم مراكب الأتراك. ذلك لأنه يرى أن الأتراك واليهود يشتركون في مسؤولية صلب المسيح. كان بهذه الطريقة سينفث غضبه ويجد الراحة. ولو كان أبي لامتطى فرسه وهاجم الكفرة بالطريقة ذاتها. وعاد من المعركة ليلاً ليعلق العمامات الملطخة بالدم لأعداء المسيحية على الفاصل الأيقوني في بيتنا تحت أيقونة المصلوب. بهذه الطريقة كان، أيضاً، سيجد الراحة. وعلى طريقته سيحس بالمسيح وقد بعث في قلبه. نهاية الأمر: إن أبي كان محارباً. وكانت الحرب طريقته في تحقيق الخلاص وتلقيه.

ولكن ما الذي أستطيع أنا، حثالة الذرية، أن أفعله؟

عالياً في جبال كريت يحدث أحياناً، ونادراً جداً، أن يولد مخنث في عائلة من الغيلان. ويتطلع إليه الأب العجوز، ثم يتطلع إليه ثانية، ولا يستطيع أن يفقه شيئاً. كيف استطاع الشيطان أن يُخرج هذه النفاية، هذه الهشاشة، من صلبه؟ ويدعو أبناءه، الوحوش الأخرى التي أنجبها، إلى اجتماع لكي يروا رأيهم فيه. «إنه عار على ذريتنا»، يزأر العجوز: «ما الذي سنفعله يا أولاد؟ لن يستطيع أن يكون راعياً. إذ كيف له أن يثب على القطعان الأخرى ليسرق؟ ولن يستطيع أن يكون محارباً، فسيشق عليه أن يقتل. إنه وصمة على سلالتنا. لنجعل منه أستاذ مدرسة!».

وأنا، للأسف، كنت أستاذ المدرسة في عائلتنا. ولكن لم الاحتجاج؟

يمكنني أن أتأقلم مع الأمر. ومهما بالغ أسلافي في احتقاري فإن لدي أنا الآخر أسلحتي وسوف أذهب إلى الحرب.

كان الثلج يهطل خارجاً. وكان الله لرحمته يغطي عدم اتساق العالم بثلجه. والخرق التي علقها على السياج المحيط بالزريبة المقدونية التي كنت أقطن فيها قد تحولت إلى فرو أبيض ثمين. والأشواك الوسنانة قد أزهرت كلها. بين حين وآخر تسمع بكاء طفل أو نباح كلب أو صوت رجل، غير أن كل شيء يغرق في الصمت من جديد. ثم لا تعود تسمع شيئاً إلا الصمت، صوت الله.

ألقيت بعود في النار وكمشة من أوراق الغار لكي أعطر الهواء. ثم انكببت على هوميروس من جديد. لكن أفكاري لم تعد متعلقة بالآخيين أو الطرواديين أو آلهة الأولمب. كان المشهد المغسول بالشمس يرفرف أمام عيني كالفراشة ثم يختفي. ومرة أخرى سمعت أعماقي تبكي.

كان يستلقي في القبر منتظراً أن يهرع الحواريون ويدحرجوا الصخرة، ويجثموا في القمة، وينادوه.. بينما هو ينهض ثانية إلى الأرض. لكن أحداً لم يأت. ولإحساسه بالغبن بدأ يبكي.

Twitter: @ketab_n

وبينما أنا أحدق إلى اللهب المتفائل رأيت الحواريين المشبعين بالألم محتشدين في العلّية: «مات الرّبان. مات». كانوا ينتظرون هبوط الليل لكي يغادروا القدس ويتفرقوا. لكن امرأة قفزت. هي وحدها رفضت موته، لأن المسيح قد قام في قلبها. وحافية القدمين شعثاء الشعر نصف عارية راحت تركض نحو القبر مع بزوغ الفجر. ولأنها متأكدة من أنها سترى المسيح فقد رأته. ولثقتها بأن المسيح قد بعث فإنها بعثته. وصرخت: «يا ربان». وسمع الرّبان صوتها في قبره. انحنت على قدميه ورأته عند الفجر يمشي على عشب الربيع.

امتلأ عقلي بصورة البعث هذه. وأثقلت جفنيّ حمى خفيفة بالغة الحلاوة. وبدأ الدم يتدفق حامياً إلى صدغي. وكما يحدث حين تهب الريح قوية، وتتبعثر الغيوم ثم تتوحد من جديد، وتتشكل بشراً وحيوانات وسفناً، كذلك، وبالطريقة ذاتها، في أعماقي.. وبينما أنا جالس قرب النار هب عقلي. فتفككت الرؤيا في داخلي ثم تحولت إلى وجوه بشرية ملفعة بالتوق والريح.

لكن هذه الوجوه سرعان ما تتبعثر في حلقات كالدخان داخل رأسي إذا لم تأت الكلمات ـ في البدء مرتعدة ومترددة ثم بالتدريج تصبح أكثر عنفاً وثقة ـ لتبلور ما يمكن بلورته. وفهمت. الريح المنوية المولّدة التي هبت في أعماقي أصبحت مادية. وصارت جنيناً. وهو الآن يرفس رغبة في الظهور. أخذت قلمي وبدأت أكتب لكي أريح نفسي ـ لكي ألد.

لم أبدأ من البداية. المجدلية أول من قفز. كانت خائفة مبللة بالدموع وشعرها مشعث. لقد استيقظت مذعورة قبل الفجر. لابد أنها رأت الرّبان في حلمها. وكما يجذب الصياد فريسته بدأت تناديه:

آه، كم هو مدهش. لا أستطيع
أن أرفع رأسي. الهواء مفعم بالشذا.
انهض، يا قلبي، واضرب الأرض لتجبرها على أن تفتح.
كتفاي الدنيويتان تطفران كجناحين.
لكن الفجر يبطئ في المجيء. والجسد، آه، ثقيل جداً.
لا تتعجلي يا روح. قبل أن أرتدي ملابسي وأذهب
انظري. إنني ألبس كعروس وأتأنق.
لقد حنّيت راحتيّ وقدميّ
وكحّلت عينيّ بكحل مشعشع
وبقعة جمال تصل حاجبيّ
لأنني كما أحب الأرض
فإن السماء المبجلة

Twitter: @ketab_n

تضرب صدري بلطف.
وحين أنحني
أقبل (الكلمة) بفرح وِحزن
كما لو أنها رجل
وعندما أصل إلى قبرك الحبيب أخيراً
عبر دروب مشكولة بالورد
يا مسيحي
مثل امرأة هجرها حبيبها
سأتمسك بركبتيك الشاحبتين
لكي لا تتركني أبداً.
سأتحدث وأنا أمسك بركبتيك الشاحبتين
ورغم أن الجميع ينكرونك، يا مسيحي
لكنك لن تموت.
لأنني أحتفظ في صدري بماء الخلود.
أقدمه لك
فتصعد مرة أخرى إلى الأرض
وتتمشى معي على المروج.
سأغني كعصفورة ملتاعة حباً
تحط على غصن شجرة اللوز
أيام الثلج، وهي تغرد منتشية
ومنقارها مرفوع نحو السماء
إلى أن تزهر البراعم على أغصانها.

لم أستطع النوم. كنت على غاية من العجلة. فطالما أن الوجوه قد تصلبت لوهلة فإنني كنت أريد أن آخذها في وقتها ـ الحواريون والمجدلية والمسيح، الضباب الذي يصبح مادياً، والكذبة التي تصبح حقيقية، والروح التي تغني من عشها القائم على أعلى أغصان الأمل ـ وأثبتها إلى الأبد بكلمات متينة وقوية.

وفي نهاية أيام وليال قليلة كانت مخطوطة المسرحية كلها على ركبتي. أمسكتها بقوة، تماماً كما تمسك الأم بابنها بعد ولادته.

بدأ الصوم الكبير واقترب عيد الفصح. وبدأت أتمشى في الحقول. لقد تحول العالم

Twitter: @ketab_n

إلى جنة وراحت ثلوج الأولمب تتلامع تحت الشمس، بينما الحقول من تحت خضراء زاهية والسنونوات العائدة، مثل مكوك النول، تنسج الربيع في الجو. وبدأت زهور برية صغيرة صفراء وبيضاء، تدفع التراب برؤوسها الدقيقة، وتظهر تحت ضوء الشمس لكي ترى العالم الذي فوقها. لابد أن شخصاً ما قد أزاح عنها حجارة القبور الأرضية: أكانت تحقق قيامتها. شخص ما؟ من؟ لابد أنه الله، اللّه ذو الوجوه التي لا تحصى: أحيانا هو ورد، وأحيانا عصفور أو زغف طازج من دالية وأحيانا أخرى قمح. وبينما كنت أتمشى عبر الحقول المزدهرة قام دوار لطيف بتحويل الزمان والمكان من حولي. بدا لي أنني أسير في فلسطين وليس في اليونان.

واستطعت أن أتبين الآثار الطرية التي تركتها قدما المسيح على تراب الربيع الخفيف. وحولي تسمو جبال الكرمل وجيلبوا وتابور المقدسة. ولم تكن هذه سويقات القمح الناهضة من الأرض إلى أن تصبح بطول الرجل. بل هي المسيح ينهض من قبره. وهذه ليست شقائق النعمان الحمراء بل هي الدم المقدس للمسيح. سأل أحدهم مرة الرابي نعمان: «ما الذي تعنيه حين تعظ بأننا يجب أن نذهب إلى فلسطين؟ لا شك أن فلسطين مجرد فكرة ومثل أعلى يجب أن تبلغه أرواح اليهود ذات يوم». وغضب نعمان فألقى بأمتعته على الأرض، وصرخ: «لا. لا. حين أقول فلسطين فأنا أعني حجارتها وخضرتها وترابها. فلسطين ليست فكرة. إنها حجارة وخضرة وتراب. وإلى هناك يجب أن نذهب!». قلت لنفسي: وإلى هناك يجب أن أذهب. لكي أرى وألمس جسد فلسطين الحار وليس الاكتفاء بالاستمتاع بها في خيالي وأنا أتمشى على جبال اليونان وحقولها. أن أتنفس الهواء وأدوس على الأرض وألمس الحجارة، التي تنفسها المسيح وداسها ولمسها. أن أتبع قطرات الدم التي رسمت طريقه بين البشر. نعم يجب أن أرحل. ربما استطعت أن أجد هناك، في فلسطين، ما كنت أبحث عنه عبثاً في الجبل المقدس.

مرة أخرى هبت رياح الرحيل في عقلي. إلى متى ستظل تهب؟ حتى الموت إن شاء اللّه؟ أية متعة أن ننطلق من أرض جافة ونرحل. أن نقطع الخيط الذي يربطنا باليقين ونرحل. أن نتطلع وراءنا ونرى الجبال والناس الذين نحبهم يتضاءلون في البعد.

أسبوع الآلام يقترب. وفي المسيحية كلها سوف يصلب المسيح وسوف تنكأ الجراح الخمسة الخالدة. وسوف يأتي القلب ـ مريم المجدلية ـ مرة أخرى للصراع مع الموت. ما الذي يحدث حين يكون لرجل قلب طفل ويستطيع أن يقاسي خلال هذه الأيام: يعجز عن الأكل أو النوم أو كفكفة دموعه حين يرى في صلوات العيد جسد شجرة الليمون المزهرة لآلهة تذوي على الصليب؟ وأية سعادة أكبر مما لديه حين يحب فتاة والربيع يدخل من نوافذ الكنيسة المفتوحة، وقد تواعدا على اللقاء ظهر الجمعة الحزينة لكي يتباركا معاً بتقبيل قدمي

Twitter: @ketab_n

المصلوب، ثم لكونه لا يزال فتياً يرتعش خوفاً لأنه يعتقد أنه يقترف إثماً باجتماع شفتيه بشفتي امرأة على جسد الله.

أغلقت هوميروس وقبلت يد الجد الخالد دون أن أجرؤ على رفع رأسي والتطلع في عينيه. كنت خجلاً وخائفاً أمامه. لأنني كنت أعرف تماما أنني أخونه في تلك اللحظة بتركه ورائي وأخذ عدوه الكبير معي: الإنجيل.

لم تكن الأرض قد استيقظت بعد، ولا السماء؛ ديك على السطح فقط يمد رقبته إلى الشرق وينادي الشمس (لقد طال الليل كثيراً!) داعياً إياها للظهور.

وكما لو أنني كنت خائفاً من أن يسمعني الجد العجوز فتحت الباب متسللاً كلص. وسلكت الطريق إلى المرفأ لكي أبحر. كانت قد وصلت حشود من الرجال والنساء قادمة من قراها لكي ترحل، مثلي، إلى فلسطين ولكي تؤدي فروضها على القبر المقدس. ولن أنسى مساء يوم الرحيل. العذوبة والحلاوة والحنو! كان هناك رذاذ خفيف رحيم. ولو أنك رفعت رأسك ونظرت إلى السماء لرأيت وجهاً لله مغطى بالدموع.

وعلى القارب نفسه مدت بطانيات ولحف ملطخة بالشحم وبألوان متعددة على أرضه. ومجموعات من العجائز اللواتي يفتحن سلالهن ويمضغن. كان الهواء مشبعاً برائحة بيوض السمك والبصل. وفي الوسط وقف رجل عجوز بخدين متوردين وشعر طويل أشيب. وبينما هو يؤرجح جذعه إلى الأمام والوراء كان يقرأ قصة المسيح بصوت عال منغم؛ حياة المسيح وآلامه: كيف جاء العريس إلى القدس، وبعد ذلك كيف أكل المسيح وتلاميذه من العشاء الرباني المر، وكيف غادر التلميذ الخائن مسرعاً، وكيف تسلق يسوع جبل الزيتون والعرق يتصبب من جبينه «كقطع من الدم المتخثر».

وتنهدت النسوة العجائز الصغيرات الحجم والملفعات بالسواد. وهززن رؤوسهن بتأثر عميق دون أن يتوقفن عن المضغ بهدوء وصمت كالأغنام. كان الله في قلوبهن البسيطة يكتسي مرة أخرى باللحم ويتصلب، وينقذ البشر. وكان راع فتى، يدير ظهره للعجائز يصغي باهتمام وهو ينحني وسكينه في يده لينحت رأس عصفور على مقبض عصاه.

وبغتة حين جفف الظمأ حلق المسيح إلى درجة لا تحتمل وصرخ: «عطشان!» قفزت امرأة، فتية ممتلئة قليلاً، بهياج مسعور وصرخت: «آه يا ولدي!». كم انفعلت حين سمعت صرخة المرأة العميقة الأمومية، حين سمعتها تدعو ربها نفسه ابنها.

تركنا بحر إيجة وراءنا ورحنا نقترب من الشرق الأدنى. إفريقيا ظاهرة للعيان على يميننا وقبرص على يسارنا في الأفق. وكان البحر المتأجج يلتمع. حومت فراشتان على الأشرعة. وحين بدأت فتاة شاحبة ضعيفة تصرخ محتجة، قال لها أحدهم: «إنسي ذلك. هكذا يجب أن تسير الأمور. أتظنين أن الله امرأة ضعيفة؟».

Twitter: @ketab_n

كنا نقترب من الأرض المشوية بالشمس، حيث ذات يوم شب لهب من كوخ فقير في الناصرة، لهب أحرق قلب الإنسان وجدده. الحياة اليوم في حالة من التفسخ، مرة أخرى تماماً كما كانت قبل ألفي سنة، لكن المشكلات التي تبدد التوازن القائم بين العقل والقلب هي الآن أكثر تعقيداً، والحلول أكثر صعوبة ودموية. في ذلك الحين وجدت رسالة بسيطة تتمتع بحلاوة فائقة. وبرز الخلاص على وجه الأرض كفصل الربيع. لم يسبق أن وجدت رسالة أبسط منها ولا أحلى. ربما كانت تلك الرسالة قادرة على تخليصنا حتى اليوم ـ من يدري؟ لهذا نحن ذاهبون إلى القدس: لكي نستمع مرة أخرى إلى ابن مريم.

كان الوقت ليلاً. وتمددت على سطح القارب لكي أنام، لكن جدلاً عنيفاً بدأ يحتدم في العنبر. وأعطيت أذني. شخص ما، يبدو من صوته أنه شاب، كان يدين بعنف الحياة الاقتصادية والاجتماعية الحالية بظلمها وتضليلها. الجماهير تجوع بينما العظماء والأقوياء يكدّسون الثروات. النساء يبعن أنفسهن، والكهنة لا يصدقون. الجنة والجحيم كلاهما هنا على الأرض. الحياة الأخرى غير موجودة. هنا علينا أن نجد العدل والسعادة. وتصاعدت الصرخات: «نعم، نعم، أنت على حق!»، «النار والفأس». شخص واحد فقط حاول أن يعترض. استطعت أن أميزه من تنغيمات صوته فهو الشماس الذي يسافر معنا. لكن صوته كان يضيع وسط الصرخات والضحكات.

نهضت عن وسادتي ورحت أستمع بشغف. عنبر هذه السفينة كان يبدو مثل مقبرة جديدة يجتمع فيها العبيد مرة أخرى ـ عبيد اليوم ـ ليتآمروا على نسف العالم من جديد. كان أمراً مخيفاً. فهدف رحلتنا هو أن نتعبد لوجه الله الحلو الأليف، بلطف زائد وعذاب كبير وامتلاء بالأمل في الحياة الخالدة. كانت النسوة الصغيرات العجائز قد جلبن له خبزاً منذوراً، ونذوراً فضية وشموعاً ودموعاً وصلوات. بينما في الدرجة الأولى كان عديمو الإيمان السعداء يتحدثون في السياسة أو ينامون، هنا في الأسفل، وفي أعماق العنبر، كنا نحمل، كهدية رهيبة، بذور نظرية كونية[5] جديدة وخطرة وغير متشكلة نهائياً بعد.

كان العالم الحبيب المقدس في خطر. وعالم آخر، قاس، مكون من الوحل والنار، ينهض مليئاً بالحياة من الأرض ومن قلب الإنسان. وهو مختبئ في أعماق العنبر من كل سفينة كان يشتريها ويرحل.

في صباح اليوم التالي بدأنا نرى الأرض الموعودة ـ خط بعيد على الأفق في البدء غير واضح بسبب الغيم الحليبي، ثم الجبال المنخفضة في اليهودية[6]، شهباء في البدء، وبعد

(5) كوزموغوني: نظرية أصل الكون.

(6) 13 كلم شمال يافا. كانت تعرف سابقاً باسم اليهودية، ثم سميت «العباسية» نسبة إلى ولي مدفون فيها (راجع: بلادنا فلسطين، مصطفى مراد الدين، ص 278).

ذلك زرقاء فاتحة. وأخيراً تتلاشى غارقة في ضوء النهار القوي. نهضت العجائز معاً ومعهن صررهن، ولففن مناديلهن على رؤوسهن، ثم بدأن برسم شارات الصليب والبكاء.

رمل وحدائق غناء ونساء سمراوات بدينات وصبار ونخيل، وصعود إلى المدينة المقدسة في باصات لاهثة. وأخذ كل قلب يخفق بعنف. جدران وشرفات مفرجة[7] وبوابات محصنة وروائح روث وتوابل وفواكه متعفنة. جلابيب بيضاء وأصوات قاسية حلقية. ونهضت من التراب ظلال الأنبياء المقتولين كلهم. وعادت الحجارة إلى الحياة، وراحت تصرخ وهي مضرجة بالدماء.

القدس!

لا أرغب في تذكر أسبوع الآلام ولا أجرؤ. خلال تلك الأيام السبعة اتضحت أخيراً مغامرة الإنسان المأساوية كلها: الأمل والحب، الخيانة والتضحية، والصرخة: «إلهي يا إلهي لم تخليت عني؟» ليس المسيح بل الإنسان ـ كل إنسان عادل ونقي ـ يخان ويساط ويصلب دون أن يمد الله يده لمساعدته.

والحقيقة أنه لولا وجود قلب المرأة العطوف لكان الله قد ترك الإنسان في القبر إلى الأبد. خلاصنا معلق بخيط، بصرخة حب.

ليلة بعد أخرى، حتى الوصول أخيراً إلى الفجر المقدس ليوم الفصح، كانت كنيسة القيامة تضج كخلية نحل هائلة. وكان الجو مشبعاً برائحة الشمع وعرق البشر. الآباط المتعرقة البيضاء والسمراء والسوداء لرجال ونساء ناموا تلك الليلة تحت قباب الكنيسة منتظرين اللحظة الخالقة للكون التي فيها سينبعث النور المقدس في ضريح المسيح. في كل مكان الرائحة الواخزة العميقة للشمع والزيت الزنخ. وتحت الأيقونات المقدسة تُغلى القهوة في أوعية صغيرة. والأمهات يعرين صدورهن لإرضاع أطفالهن. ولابد أن الزنجيات قد زينّ شعورهن بالودك[8]، وقد ذاب الآن فجعل لهن رائحة كرائحة الأغنام. وكان رجالهن يفرزون ما لا يطاق من نتن الفحول.

ووصلت موجة بعد أخرى من الحجاج حتى ضاقت الكنيسة بهم. تسلق بعضهم الأعمدة، وآخرون انتشروا على المقاعد، بينما احتشد غيرهم في رواق النساء وأعينهم المستثارة الجاحظة تتوجه نحو الهيكل الصغير في وسط الكنيسة الذي سيصعد منه النور في أية لحظة. أحباش وبدو وزنوج بالطرابيش والجلابيب المتعددة الألوان والعيون اللاهبة الدامعة. بشر من كافة الأجناس. يصرخون ويضحكون ويتنهدون. وأُغمي على شاب فُرُفع ومُدِّد في

(7) شرفات ذات فتحات لإطلاق النار.

(8) شحم حيواني.

Twitter: @ketab_n

الباحة كاللوح. وسقط كاهن ماروني عجوز ونحيل، مرتدياً السوتان[9] الأبيض الناصع والحزام الأحمر، على الحجارة المرصوفة والزبد يصعد من فمه. وبغتة صمت الحشد. وامتلأ الجو بالعيون المتوهجة. لقد ظهر البطريرك مرتدياً ملابس موشاة بالذهب. وحده سار خافض الرأس تحت الهيكل في وسط الكنيسة. ورفعت الأمهات أبناءهن إلى أكتافهن لكي يمكنّهم الرؤية. ووقف الفلاحون فاغري الأفواه. كل ثانية كانت تسقط مثل قطرة كثيفة على رؤوسنا. وتوتر الجو حتى صار له صريف كجلد الطبل. هبت ومضة من الظلة المقدسة، وظهر البطريرك وبيده حزمة كبيرة من الشموع البيضاء والمشتعلة. وفي ومضة عين كانت الكنيسة تموج باللهب من أرضها حتى سقفها. المتفرجون جميعاً كانوا قد اندفعوا نحو البطريرك وهم يمسكون بشموعهم البيضاء لكي يتلقوا النور. وراحوا يضعون أيديهم في اللهب ثم يفركون وجوههم وصدورهم. كانت النسوة يزعقن بينما بدأ الرجال بالرقص. وبهذا الضجيج تدفق الجميع إلى الباب، ليخرجوا.

وبقيت الكنيسة خالية. الضجة الرهيبة والحشد المسعور والأسمال المتعددة الألوان. هذا كله بدا وكأنه كان حلماً غريباً. نظرت إلى الأرض، فتأكدت أن تلك الرؤية كلها كانت حقيقة. فتحتي على الحجارة المرصوفة رأيت بقايا معينة من النشوة: قشور برتقال ونوى زيتون وزجاجات مكسورة.

خرجت إلى الفناء لاستنشاق الهواء النقي. كنت أتمنى أن أرحل، أن أذهب إلى الجبال الموحشة الجرداء المواجهة لي. وأظل أمشي وأمشي دون أن أرى شيئا إلا الشمس والقمر والصخور. فطوال الوقت الذي كان فيه الحشد المنتشي يضطرم من حولي، والمؤمنون يندفعون في نشوتهم، وهم يدعون المسيح ـ يأمرونه ـ بالقيام من قبره، كنت أضبط نفسي وأرفض أن أدع قلبي يثمل. فللروح، كما للجسد، حياؤها: إنها ترفض أن تتعرى أمام الملأ. ولكن ما أن صرت وحدي حتى رحت أصرخ: بعيدًا! بعيدًا إلى البراري! هناك يهب اللّه كالريح المحرقة، هناك سأتعرى وأدعه يحرقني.

وقال اللّه: ابقي أيتها السيدة الروح. لا ترحلي.

ـ ما الذي تريده مني يا رب؟

ـ أريدك أن تتعري أيتها السيدة الروح.

ـ يا رب. كيف تستطيع أن تطلب مني طلباً كهذا؟ إنني أخجل.

ـ أيتها السيدة الروح، لا شيء يجب أن يقف حائلاً بيننا ولا حتى أرقّ الحجب. لهذا أيتها الروح يجب أن تتعري.

Twitter: @ketab_n

ـ ها أنذا يا رب. لقد تعريت. خذني!

انطلقت إلى البحر الميت وأنا أغني هذه الكلمات الخالدة عن روح تعشق الرب. كنت أريد أن أرى الهوة التي فتحتها المدينتان الخاطئتان حين غارتا. كانت الصخور الشهباء والصفراء والمتوردة تطلق البخار حين تسقط عليها الشمس القاسية اللزجة. وبين حين وآخر تهب دفعة من الريح المحرقة فتملأ فمي ونفسي بالرمال. كانت الحجارة لاهبة. لا زهرة، ولا قطرة ماء، ولا عصفور يطلق صوتاً ليرحب بعابر أو يحاول أن يطرده. وكان اللّه معلقاً فوقي، إله وحده؛ كالسيف.

هذا الرب ليس المسيح. خطرت لي الفكرة فارتعشت. ليس ابن مريم اللطيف ذا الكلام الحلو. إنه يهوه، آكل البشر المخيف. لقد بحثت عن رب ووجدت آخر. كيف أستطيع الفرار في هذه النقطة من تخوم صمته المظلمة المستغلقة؟

كلما ابتلعتني الصحراء أكثر، التهب رأسي أكثر، ورحت أدعو اللّه أن يظهر ويكلمني. ألم يخلقني بشراً؟ أو لم يكن الإنسان الحيوان الذي يطرح أسئلة؟ حسن. إني أطرح أسئلتي وعليه أن يجيب. كنت أسأله بهدوء في الريح اللاهبة. واعترفت: يا رب، إنني أمر في لحظة حرجة، ما الذي علي أن افعله؟ ضع في فمي مرة، كلمة، الكلمة البسيطة التي تحقق الخلاص. لهذا نزلت في البئر العميقة، البئر التي يعميها النور الباهر. لكي أتحدث إليك. فتجل.

انتظرت وانتظرت. ولا جواب.

منذ سنوات طفولتي، حين كنت أقرأ سير القديسين، في دارنا، كنت أحترق رغبة لأن أضع قدميّ على هذه الأرض التي أخطو عليها الآن. أحترق رغبة لأن أسير على الأرض والحجارة التي سار عليها المسيح وأن أسمع صوته. كان لدي دائما ـ ولا يزال ـ ما أقوله له. لا بد أن يشفق علي. ألن يفعل؟ نعم. سيجيب! وبينما العالم يتحرك يقوم بتغيير أسئلته وعذاباته وشياطينه. ولربما كان لدى المسيح كلمة جديدة ما يشفي بها الجراح الجديدة ويجعل للحب وجهاً جديداً وأكثر رجولة.

رحت أحدث نفسي بهذه الطريقة وأنا أتقدم وأستنشق هواء الصحراء المكون من لهيب ورمال، والذي تنشقه الأنبياء وتلقوه في أعماقهم. وحين وصلت إلى بطن الوادي فاجأني البحر الميت يلتمع أمامي، ساكناً ورمادياً كالرصاص الذائب، وممتلئاً بالمياه الموحلة الرجراجة القطرانية، والتي عنها يجري نحو فلسطين، بين القصب والطرفاء، نهر الأردن الأزرق المائل إلى الخضرة. كان هناك العديد من الرجال الذين يرتدون القمصان الطويلة ويرسمون شارات الصليب. ووقف على ضفة النهر قس يغني، بينما كان الآخرون يغطسون في المياه المطهرة ويتحولون إلى حجاج.

Twitter: @ketab_n

أقيمت حانة على الضفة تحت سقف من القصب المحبوك. وفيه حاكٍ عتيق يطلق «الأمان»[10] العربي بصوت أجش. بينما راح صاحب الحانة، ذو الجلباب المبقع بالشحم يجأر مع الحاكي. وهو يشوي كبد الغنم.

أسرعت الخطى ملتفاً حول ساحل البحر الميت ودخلت الصحراء من جديد وعيناي القلقتان الهائجتان مسمرتان على المياه الراكدة، وكأنني أجهد لاستكشاف المدينتين الغائرتين في أعماقها. وبينما أنا أتطلع ومضت في ذهني لمعة صفراء. رأيت قدماً جبارة قادرة قد تقدمت لتدوس مدينتي سدوم وعمورة وتسحقهما وتخفيهما. روعت. ذات يوم ستقوم قدم جبارة قادرة بسحق سدومنا وعمورانا وإبادتهما. وهذا العالم الذي يضحك وينسى اللّه سيتحول بدوره إلى بحر ميت. في ختام كل مرحلة تأتي قدم اللّه بهذه الطريقة وتبيد المدن ذوات البطون المتخمة والعقول المتخطية.

خفت. (يبدو لي أحياناً أن هذا الألم هو سدوم أخرى قبل مرور قدم اللّه عليه. وأظن أنه يمكن سماع القدم الرهيبة الآن وهي تقترب).

توقفت على كثيب رملي منخفض. ورحت أحدق إلى هذه المياه الملعونة، وهي تحاول أن ترفع المدينتين الفاتنتين الخاطئتين من أوعية القطران. كنت أريد لهما أن تشعا من جديد ولو لوهلة بسيطة تحت أشعة الشمس وبما يكفي لأن ألمحهما. ثم أرف جفني من جديد، وتتلاشيان.

كانت المدينتان تضطجعان على ضفة النهر كعاهرتين تتبادلان القبلات. رجال يتعانقون مع رجال، ونساء مع نساء، رجال مع خيول، ونساء مع ثيران. يأكلون حتى التخمة من (شجرة الحياة) ويأكلون ويتخمون من (شجرة المعرفة). وحين حطموا

أصنامهم المقدسة وجدوا أنها ليست إلا خشباً وحجارة. وحين حطموا أفكارهم وجدوا أنها كانت مليئة بالهواء. وحين اقتربوا من اللّه كثيراً، قالوا: «هذا اللّه ليس أباً للخوف. بل هو ابن الخوف». فقدوا خوفهم. وكتبوا على البوابات الأربع المؤدية إلى المدينة بحروف صفراء كبيرة، هنا لا يوجد إله. ماذا تعني عبارة لا يوجد إله؟ تعني أنه لا كوابح على غرائزنا. لا ثواب على خير. ولا عقاب على شر. لا فضيلة ولا خجل ولا عدل. إننا نحن، ذئاباً وذئبات، في حالة نزاء[11].

غضب اللّه ونادى إبراهيم: يا إبراهيم.

ـ مرني يا مولاي!

---

(10) الغناء الذي يردد: أمان أمان.

(11) حدة الهياج الجنسي عند أنثى الحيوان.

Twitter: @ketab_n

ـ يا إبراهيم خذ غنمك وإبلك وكلابك وخدمك وجواريك وزوجتك وابنك، وارحل! ارحل. لقد وصلت إلى رأي.

ـ يا مولاي: «وصلت إلى رأي»، على شفتيك تعني «سأقتل!».

ـ عقولهم صلفة وقلوبهم مترعة بالفرح وبطونهم متخمة ـ لقد مللت منهم. يبنون بيوتاً من الحجر والحديد وكأنهم مخلدون. زودوا أنفسهم بالأفران وأشعلوا النيران وذوبوا المعادن. لقد سطحت الصحراء كالجذام على وجه الأرض لأنني أريدها هكذا. فقام هؤلاء البشر في سدوم وعمورة بري الصحراء وتسميدها وتحويلها إلى جنة. ولم تعد العناصر الخالدة من ماء وحديد وحجر ونار إلا عبيداً لهم. لقد انتهيت منهم! فهُم أكلوا شجرة المعرفة وقطفوا التفاح وسوف يموتون!

ـ كلهم يا مولاي؟

ـ كلهم. ألست القادر على كل شيء؟

ـ لا يا مولاي. أنت لست القادر على كل شيء؛ لأنك عادل. لست قادرًا على القيام بكل ما هو ظالم وخسيس ولا معقول.

ـ وما الذي يستطيع أن يعرفه أي منكم عن العادل والظالم والشريف والخسيس، المنطقي واللامعقول أيتها الديدان المخلوقة من طين، والتي تعيش على الطين، ومصيرها أن تعود إلى طين؟ إن غاياتي لا تُكتنه. ولو قدر لكم أن تواجهوها لأصابكم الرعب.

ـ أنت رب السموات والأرض. أنت تمسك بالموت والحياة جنباً إلى جنب في راحة يدك. وأنت الذي تختار. أنا دودة. مجرد طين وماء. ولكنك نفخت فيَّ فخلقت من الطين والماء روحاً. ولهذا سأتكلم. هناك آلاف من البشر في سدوم وعمورة يأكلون ويشربون ويتبرجون ويضحكون ويسخرون. وهناك آلاف من العقول التي تشرئب كالثعابين لتنفث بسمومها نحو السماء وهي تفح. ولكن إن كان بينها أربعون روحاً فاضلة، فهل ستحرقها يا مولاي؟

ـ أسماء! أريد أسماء! من هؤلاء الأربعون؟

ـ وماذا لو كانوا عشرين! عشرين روحاً فاضلة يا مولاي؟

ـ أنا أريد.أسماء. إنني أمد يدي لأعد.

ـ وماذا لو كانوا عشرة، عشرة أرواح فاضلة يا مولاي؟ وماذا لو كانوا خمسة؟

ـ أغلق فمك الصفيق يا إبراهيم.

ـ ارحمنا يا مولاي. لست عادلاً فقط. أنت طيب أيضاً. ولو كنت عادلاً فقط لحدث الويل. كنا ضعنا كلنا. لكنك طيب يا مولاي. ولهذا لا يزال الناس قادرين على الوقوف في الهواء.

Twitter: @ketab_n

ـ لا تركع وأنت تمد يدك للإمساك بركبتيَّ. فليست لي ركبتان. ولا تبدأ النواح لكي تمس قلبي إذ لا قلب لي. أنا صارم، قطعة خامدة من الغرانيت الأسود. ولا يمكن ليد أن تطبع لمستها علي. لقد وصلت إلى قراري: سأحرق سدوم وعمورة.

ـ لا تتسرع يا مولاي. لم العجلة حين تكون مسألة قتل؟ انتظر. لقد وجدت واحدة!

ـ ما الذي وجدته وأنت تنقب في التراب أيتها الدودة؟

ـ روحاً فاضلة.

ـ من؟

ـ لوط، ابن أخي هرون.

ورحت أشعر بصدغيَّ ينبضان، وأنا واقف على الكثيب الرملي.

سمعت في أعماقي صوت الله يصطرع مع صوت الإنسان. وبدا لي لوهلة أن الهواء يتخثر، وأن لوطاً يقف أمامي. قاسياً وحافياً بلحية متدلية ولهب منتصب على جبينه. لم يكن لوط العهد القديم، العبد. بل كان لوطاً خاصاً بي، لوطاً متمرداً يرفض أن يطيع أمر ربه في أن يهرب وينجو بنفسه. وبدلاً من ذلك فإنه يحس بالشفقة على مدينتيه الفاتنتين الخاطئتين وبملء إرادته يلقي بنفسه إلى النار ليحترق ويفنى معهما.

صرخ بإبراهيم: قل له إنني لن أذهب. أنا سدوم وعمورة ـ قل له ذلك ـ وأنا لست راحلاً. ألا يقول إنني حر؟ ألا يقول (ويتباهى) بأنه خلقني حراً؟ إذن أنا أفعل ما أريد. لست راحلاً.

ـ إنني أغسل يدي من الأمر أيها العاصي. وداعاً.

ـ وداعاً يا بئر الفضيلة العجوز، وداعا يا حَمَل الله! وقل لمولاك: «تحيات من لوط العجوز». وقل له شيئاً آخر أيضاً. إنه ليس عادلاً وليس طيباً. إنه القادر على كل شيء. إنه القوي فقط. ولا شيء آخر!

كانت الشمس قد غربت. وصار الضوء أكثر لطفاً، بينما هدأ صدغاي. شعرت وكأنني خارج لتوي من صراع يائس. تنهدت ونظرت إلى الوراء. كيف خرج متمرد كهذا من أعماقي؟ كان أمراً مرعباً. وأين كانت هذه الروح المتوحشة النفور مختبئة في أعماقي وراء الله؟ لقد كنت مع إبراهيم الأب التقي المطيع. فكيف حدث أنني الآن قد هجرته، ودست على الكتاب المقدس لأخلق لوطاً كهذا وأتحد به؟

لقد كان الشيطان الصفيق يجثم في أعماق نفسي منتظراً أن يتشوش رأسي لوهلة وأن يهمل عقلي الأقفال لكي يقوم بفتح باب الفخ والقفز إلى النور ثم البدء بالتصرف بوقاحة مع الله عدوه الأبدي.

لقد رأيت أنه من الضروري لي أن أطهر أعماقي وأن أطرد الشياطين من داخلي ـ الذئاب

Twitter: @ketab_n

والقردة والنساء، والفضائل الصغيرة والمتع الصغيرة والنجاحات ـ لكي أبقى مجرد لهب صاعد نحو السماء. وبما أنني قد أصبحت رجلاً فما الذي كنت سأفعله إلا أن أقوم بما كنت أتوق إليه وأنا طفل في دار أسرتي! يولد المرء مرة واحدة فقط. ولن تكون لي فرصة أخرى أبداً.

كان الليل قد حل حين عدت إلى القدس. وبدت النجوم مثل لقمات من النار معلقة فوق رؤوس البشر. لكن أحداً في شوارع القدس المقدسة لم يكن يرفع رأسه ليراها ويفنى خوفاً. لقد تغلبت العواطف اليومية والاهتمامات الصغيرة والطعام والدخل المالي والنساء على الخوف. وبهذا استطاع الناس أن يثابروا على نسيانهم وأن يتابعوا حياتهم.

وفيما كنت أتقلب على فراشي القاسي قلت لنفسي: لقد آن لي أن أتخذ قراراً. أن أكمل ما تنبأت به، وأنا طفل لا يزال حليب الله على شفتي.

حين كنت في جبل آثوس أخذ أحد الرهبان يدي وحدق إلى راحتي وقال إنه سيقرأ لي بختي. .كان وجهه، فعلا، وجه غجري: أسود مدبوغاً وله شفتان كشفتي الماعز، وعينان يتطاير منهما الشرر.

قلت له ضاحكاً: أنا لا أؤمن بسحرك.

فأجاب: هذا لا يهم. ما يهم هو أن أؤمن أنا.

تطلع إلى خطوط كفي ونجومها وتقاطعها وتجعداتها. وبعد تمعن قال: لا تحشر أنفك في شؤون الناس. أنت لم تخلق للفعل. ابق على مبعدة. إنك لا تقوى على صراع الناس. ليس أنت. لأنك وأنت تقاتل تظل تفكر بأن عدواً لك قد يكون على حق. ومهما فعل لك بعد ذلك فإنك تسامحه. أتفهم؟.

قلت له: «تابع». لقد تأثرت قليلاً، لأنني رأيت أنه على الرغم من أن هذا الراهب لم يرني من قبل فإنه كان يقول الحق. تطلع إلى يدي مرة أخرى متفحصاً، وقال: «ستتآكلك اهتمامات متعددة. تريد الكثير وتسأل أسئلة كثيرة. إنك تفتك بقلبك. ولكن خذ نصيحتي ولا تبالغ في الاهتمام بإيجاد الجواب. يجب ألا تخرج لكي تجده. هو سيأتي لكي يجدك. استمع لما أقول وأرح نفسك. إنه آتٍ. و دعني أخبرك بما قاله لي معلمي ذات مرة: كان هناك كاهن يبحث طوال حياته عن الله. وحين كان يلفظ أنفاسه الأخيرة أدرك أن الله كان يبحث عنه طوال ذلك الوقت».

وانحنى على يدي من جديد ثم حدق إلي بعينين منتفختين. قال: «في أواخر عمرك ستكون كاهناً. لا تضحك. ستصير كاهناً». إن النبوءة الكاذبة قد تتحقق أحياناً. ويجب على المرء أن يؤمن بها ببساطة. وتذكرت النبوءة الأخرى التي تنبأت بها القابلة حين ولدت إذ نظرت إليّ في الضوء وقالت: «ذات يوم سيكون أسقفاً».

Twitter: @ketab_n

صرخت وقد هيمن علي الرعب: «لا. لا. لا أريد أن أصبح راهباً». وسحبت يدي وكأنني أحسست بالخطر.

ظننت أنني نسيت كلمات الكاهن بعد تلك السنوات الطويلة. ثم في هذه الليلة برزت إلى ذاكرتي من جديد. حاولت أن أضحك فلم أستطع. كان يبدو أن الكلمات تعمل فيَّ سراً طوال تلك المدة. تدفعني تماماً إلى حيث لا أريد أن أذهب. لم تعد المسألة مضحكة.

أغمضت عيني لكي أنام وأهرب. وفجأة تحولت إلى عاص مطارد في شوارع مدينة كبيرة. قبض علي وحوكمت وحكم علي بالموت. أخذني الجلاد وجعلني أمشي أمامه، بينما هو يتبعني والفأس على كتفه. بدأت أركض، فسألني الجلاد وهو يلهث: «لم تركض؟»، فأجبته: «مستعجل». وحين قلت ذلك هبت نسمة دافئة واختفى الجلاد. لم يكن جلاداً بل غيمة سوداء، وقد تلاشت. وأردت أن أتابع. ولكنني لم أستطع. برز أمامي جبل سد طريقي. صخرة قاسية من الصوان وعلى قمتها علم أحمر يرفرف. قلت لنفسي إن كنتُ أريد التقدم أبعد من ذلك فإن علي أن أتسلقها. حسن إذن. باسم الله. رسمت شارة الصليب وبدأت الصعود. لكنني كنت ألبس بوطاً بمسامير ضخمة. وراح الشرر يتطاير من وقع المسامير على الصوان. صعدت وصعدت، وتزحلقت وسقطت، واستعدت زخمي وتسلقت من جديد. وحينما اقتربت من القمة رأيت أنه لم يكن علماً ذلك الذي يرفرف في الذروة بل كان لهباً. وتابعت صعودي. وحامت عيناي على الذروة. لا. لم يكن لهباً أيضاً ـ صار بوسعي أن أراه الآن بوضوح ـ كان الله. ليس اللّه الأب. بل اللّه الآخر، يهوه الرهيب. وكان ينتظرني.

تجمد الدم في عروقي. ولوهلة كنت على وشك أن أعود. لكنني خجلت. همست لنفسي: «فات الأوان على التوقف. إلى الأمام». وسأل صوت أنثوي في داخلي: «ألست خائفاً؟» فصرخت: «نعم. أنا خائف». صرخت بصوت عال وبألم شديد إلى درجة أنني استيقظت.

جلست في فراشي. كان الحلم لا يزال يلمع بين جفني. درسته مرة أخرى. لكنني لم أستطع أن أجد تفسيراً. لِمَ عاص؟ ولِمَ الجلاد؟ ولِمَ العلم واللهب والله؟ وهززت رأسي. يأتي الجواب حين نتوقف عن طَرح السؤال. هكذا قلت لنفسي وهدأت. الجواب يأتي حين ينزل السؤال من عقولنا المهذارة ويغزو قلوبنا وأصلابنا.

«الماء العذب لمن يظمأ. أنت مغلق على من يتكلم ومفتوح على من يحتفظ بهدوئه. ومن يظل صامتاً يأتي ويجدك، أيها النبع، ويشرب». تلك كانت الكلمات القديمة الخالدة. وفي هذا اليوم همست بها شفتاي امتناناً.

كان هناك موكب ديني يمر تحت نافذتي. وكان الجو مليئاً بالبخور والأغاني. أحسست

Twitter: @ketab_n

بالسعادة. قرار سري ما كان ينضج في العتمة في أعماقي. وما زلت عاجزاً عن تبين ملامحه. لكن كان لدي الإيمان.

نهضت وارتديت ملابسي، ثم فتحت النافذة. كانت السماء متوهجة والطريق تحتي يعج بكافة أنواع البشر. وكلهم على عجل. الهواء مشبع بروائح البخور والفاكهة المتعفنة، والنتن الثقيل الكريه المتصاعد من البشر. وكانت امرأة عربية بدينة توازن سلة من الذرة المشوية على رأسها وهي تنادي على سلعتها وأسنانها تلتمع بيضاء ناصعة تحت أشعة الشمس. بينما اليهود بشواربهم الطويلة المشحمة يتسللون بمحاذاة جدران البيوت وأنوفهم المعقوفة تقطر سماً. وعبر رهبان كاثوليك وأرثوذكس وأرمن كل في طريق الآخر دون أن يتبادلوا التحية. لقد انحدر المسيح على أيديهم إلى راية للكراهية.

نزلت إلى الشارع وتجولت في المدينة. كنت أنظر إلى كل شيء للمرة الأخيرة وأودعه. رأيت في نافذة حانوت منحوتة قديمة لجبل سيناء والقديسة كاترين تقف في الوسط وعلى رأسها تاج ملكي وعلى جانبيها جبلان: سيناء والقديس ابستيم. كانت تمسك بيدها الأولى ريشة، وبالأخرى كانت تربت بحنان على العجلة التي كانت أداة استشهادها. وتحتها كتب بيونانية قديمة: «ما الذي تساوينه أيتها الجبال الباقية؟ ولم تتباهين بأنك مغطاة بالنباتات وزاخرة بالأشجار ومعبأة بالحليب؟ جبل واحد وواحد فقط هو المكتظ بالأشجار والملفع بالضباب، والتقي الكثيف المقدس الشريف النقي السماوي الروحي الملائكي والإلهي: جبل سيناء الذي وطئه الله».

ظللت وقتاً طويلاً عاجزاً عن رفع عيني عن هذه المنحوتة. وكلما ازددت تحديقاً إليها ازددت تأكداً من أنه لو استمر الحلم أكثر من ذلك، ولو لم أصرخ: «أنا خائف»، وأستيقظ، لتحول الجبل الذي كنت أتسلقه إلى جناحين. لأن ذلك الجبل المصنوع من الصوان والشرر كان طريق الصعود في كفاحي. ولو أنني بلغت حدوده لتحول الكفاح إلى جناحين ولتوحدت بذلك الشيء المشع على الذروة سواء كان علماً أحمر أم لهباً أم إلهاً.

وامتزجت الأحلام بالأشواق الطفولية بالنبوءات الغامضة مع واقع هذه الصورة عن سيناء الموجودة أمام عيني. وبغتة وجد الحلم الذي كان ينضج في أعماقي ملامحه. قلت بصوت مرتفع: «هذا هو طريقي. لقد وجدت ما سوف أفعله. سأذهب إلى سيناء. وهناك ستتفتح عيناي».

Twitter: @ketab_n

21

الصحراء

ـ سيناء ـ

لسنوات عديدة كان سيناء، الجبل الذي وطئه اللّه(*)، يلمع في ذهني كقمة لا ترتقى. وقبل الدير الشهير المبني على قمة العليقة التي «اشتعلت بالنار ولم تحترق»، كان هناك البحر الأحمر والبتراء العربية وميناء رايثو(1) الصغير، والرحلة الطويلة على الإبل عبر الصحراء، والمسيل التّجرفي عبر الجبال الوحشية الرهيبة حيث قضى العبرانيون المعذبون سنوات عديدة.

منطقة الجليل، ببهائها الغنائي، وجبالها المتناغمة، وبحرها الأزرق والبحيرة الصغيرة الساحرة، تمتد خلف ظهر يسوع وتشبهه، كما تشبه الأم ابنها. إنها تعليق بسيط وواضح تحت نص الإنجيل (العهد الجديد). في الجليل كشف اللّه عن نفسه مسالماً مكتفياً مرحاً ـ كإنسان جميل.

لكن العهد القديم كان يثيرني دائماً. فقد كان يتلاءم بعمق أكبر مع حاجات روحي. وفي كل مرة كنت أتتبع فيها هذا (الكتاب المقدس) المليء بالنقمة والصواعق، هذا الكتاب الذي يتصاعد بخاراً حين تلمسه تماماً مثل الجبل الذي نزل عليه اللّه، كنت أحس برغبة عارمة في أن أذهب وأرى هذه الذرى اللابشرية التي ولد عليها (الكتاب المقدس)، أن أراها بعيني وألمسها.

(*) تمشياً مع فكرته حول أن المعاناة البشرية واجتياز طريق الآلام هما السبيل الوحيد للخلاص البشري، فإن كازانتزاكيس، وبرؤية الشاعر، يورد ما ستقرأه هنا عن اليهود ومعاناتهم في عبور سيناء. وهو هنا يردد المعلومات الشائعة دون تمحيص لأنه، كما قلنا، ينطلق من موقف الشاعر وليس من موقف المؤرخ. إذ إن هناك إمكانية للتشكيك بكل ما روي عن التاريخ اليهودي مما لم تثبته حفريات ولم تقرره مرجعية تاريخية، ولم يستند إلا إلى الرواية التوراتية، التي لا تشكل من الناحية العلمية مصدراً تاريخياً يمكن اعتماده. ونُحيل القارئ الكريم إلى كتاب ترجمناه، بعد سنوات طويلة من ترجمة هذا الكتاب، وهو بعنوان «تلفيق تاريخ إسرءيل وطمس التاريخ الفلسطيني» لكيت وايتلام \ دار قدمس \ دمشق \ 2000.

(1) Raïtho.

Twitter: @ketab_n

لن أنسى ما حييت ذلك النقاش الذي دار ذات مرة بيني وبين فتاة في حديقة.

قلت: لقد قرفت من الشعر والفن والكتب. تبدو لي كلها دون جوهر. كأنها مصنوعة من الكرتون. تماماً كما لو أنك جائعة وبدلاً من أن يقدم لك الخبز والخمر واللحم تقدم لك قائمة الطعام فتمضغينها كالعنزة.

ولا أدري ما الذي حدث لي فأغضبني. ربما كان الأمر أنني كنت أرغب في الفتاة التي تقف أمامي. ولكنني لا أستطيع أن ألمسها. هي شبيهة بصبية من الفلاحات الروسيات: شاحبة بعظام بارزة في الوجنتين وفم واسع. وفيما أنا أتطلع إليها تزايد غضبي. كنت أمسك بزهرة. فبدأت أنتزع وريقاتها.

«هكذا تشبع أرواحنا المنهكة جوعاً ـ كالماعز».

غمزت الفتاة بعينها غمزة خبيثة وأجابت ضاحكة: إنك تكلمني بغضب مع أنني أتفق معك. الكتاب الحقيقي الوحيد هو العهد القديم. فهو غير مصنوع من الكرتون. كله من اللحم والعظم. والدم يتقاطر منه. بالنسبة لي تبدو الأناجيل مثل قدح من البابونج يقدم للبسطاء والمرضى. كان المسيح حملاً فعلاً. وقد ذبحوه على العشب الأخضر في عيد الفصح. أما هو فقد ثغا مستسلماً دون مقاومة. يهوه هو ربي. يهوه القاسي الفظ المتلفع بجلود الوحوش التي قتلها، كهمجي خارج من أدغاله، ومن حزامه تتدلى بلطة. وبهذه البلطة يفتح قلبي ويدخل.

وصمتت للحظة وخداها يتوهجان. غير أن اللهب لم يخبُ، فتابعت: أتذكر كيف يخاطب البشر؟ أرأيت كيف تذوب الجبال والبشر بين يديه؟ وكيف تغور الممالك تحت قدميه؟ الإنسان يصرخ ويبكي ويتوسل ويختبئ في الكهوف ويلطأ في الأخاديد ـ يحاول جاهداً أن يهرب. ينما يظل يهوه مغروساً في قلبه كالخنجر.

ومرة أخرى صمتت الفتاة مثلي. لكنني أحسست بالخنجر في سويداء قلبي.

كان ذلك اليوم نقطة البدء في اشتعال رغبتي في أن أرى وألمس الوادي الذي شقه الله وهو يعبر الصحراء، رغبتي في أن أدخله كما يدخل المرء عرين الأسد. وها أنا ذا الآن، والحمد لله، قد جاءتني الساعة التي سأشبع فيها هذا الجوع الجديد.

كانت رحلتي تبدو كالحلم الخاطف. رؤيا نارية وفاتنة: من القدس إلى السويس، ثم من السويس إلى رايثو، ميناء البتراء العربية، التي منها سأنطلق إلى سيناء الذي وطئه الله. كانت الجبال شاهقة زرقاء، والماء أخضر، والمرفأ واسعاً ومفتوحاً، وبعض الزوارق الصغيرة الحمراء والصفراء والسوداء في التجاويف العميقة، وقلة من الأكواخ الفقيرة على طول الشاطئ. سكون عظيم. وظهر جملان على رصيف المرفأ. التفتا برأسيهما نحو البحر قليلاً ثم تأرجحا. وبخطوات إيقاعية جبارة اختفيا بين البيوت. وجاء قارب شراعي لأخذي. كان

Twitter: @ketab_n

فيه راهب صبياني بدين. لقد أرسل الآباء السيناويون المقيمون في القاهرة إشارة بوصولي.

كان قلبي يتراقص حين وطئت قدمي الرمل الخشن. أيمكن أن يكون هذا كله حلماً؟ كان خط الشاطئ مغطى بالأصداف الكبيرة. وكانت البيوت مبنية من الشعاب الصخرية المستخرجة من البحر، ومن الإسفنج والمرجان المتحجر وقناديل البحر وتروس السلاحف الضخمة. وكان هناك عدد من الفلاحين يقفون على المصطبة الترابية وهم يلتمعون بوجوههم الداكنة وجلابيبهم البيضاء. وفتاة صغيرة سمراء كالشوكولاتة تلعب على الرمل، وهي مرتدية ثوباً رسم عليه بوغنفيلية[2] مظللة. وعلى مبعدة كانت هناك بعض البيوت الأوروبية المبنية من الخشب، ولها شرفات ومظلات واسعة وملونة وحدائق غناء وعلب تنكية مرمية في كل مكان. كانت هناك امرأتان إنكليزيتان تجلسان على شرفة خضراء، وتبدوان في هذه الصحراء الحارة شاحبتين وكأنهما قد أغمي عليهما.

وشرح لي الراهب الصبياني الذي جاء لأخذي أنه هنا في رايثو كان محجر المسلمين العائدين من الحج في مكة. في أوقات كهذه يحتشد الشاطئ المهجور بآلاف الحجاج. كان هناك صخب هائل بالدفوف والمزامير، والحجاج يجلسون من بعيد على الرمل يقرأون القرآن بأصوات عالية منغمة.

وصلنا إلى المنتجع الذي أقامه السيناويون في رايثو. من هنا سنأخذ الجمال وننطلق إلى الجبل الذي وطئه الله. كانت الباحة واسعة ومحاطة بغرف متعددة، وأجنحة للزوار ومدرسة للصبيان وأخرى للبنات ومخازن ومطابخ وإصطبلات. وكانت الكنيسة في الوسط. غير أن أكبر معجزة في هذه الصحراء العربية كانت قلب الأرشمندريت تيودوسيوس الدافئ والمليء بالحب، سيد المنتجع. قلما يأتي اليونانيون إلى هذه البرية. ولذا راح الأرشمندريت تيودوسيوس، الطويل المتوقد حماساً واليوناني المبجل القادم من تسيسميس في آسيا الوسطى يرحب بي، وكأنه يرحب باليونان ذاتها.

أقيمت كافة الطقوس اللبقة للضيافة الدينية، تلك الطقوس التي صارت مألوفة لدي: ملعقة من المربى، قهوة تركية مع كأس من الماء الباردة، مائدة مرتبة بشكل جميل وعليها سماط أبيض معطر، وإشعاع الفرح في وجوه من يقومون على خدمة الزائر.

كنت أستطيع أن أرى البحر الأحمر وهو يتلألأ من نافذتي، وجبال ثيبايد متجمعة على بعد وغارقة في الضوء. تكلمت مع الرئيس عن «ثلاث عشرينات وعشر نخلات»[3] التي تقول الأناجيل إن العبرانيين وجدوها في هذه القرية الصغيرة. وسألت عن «اثنتي عشرة عين ماء»،

---

(2) نبات معرش.

(3) «ثم جاؤوا إلى إيليم، وهناك اثنتا عشرة عين ماء وسبعون نخلة. فنزلوا عند الماء». التوراة \ الخروج\

Twitter: @ketab_n

وكأنني أسأل عن أقرباء أعزاء يعيشون في الخارج. وحين أخبرني أن غابة النخيل لا تزال موجودة، وأن الينابيع جارية فرحت.

كثيراً ما أحسست بسعادة مشابهة ـ بعد رحلة متعبة كأس من الماء البارد، مأوى بسيط وملائم، قلب إنساني يعيش مجهولاً في ركن مصطلى العالم ليقدم الدفء والأمان للغرباء. وحين يظهر الغريب في الطرف الآخر من الشارع يقفز قلبه فرحاً لأنه وجد إنساناً. في الكرَم، كما هو الأمر في الحب، لابد أن من يعطي يكون أكثر سعادة ممن يأخذ.

أكلت والأرشمندريت على مائدة الكرم والمحبة. وتبادلنا الأحاديث كصديقين قديمين سعيدين لجمع شملهما. .لقد ولّدت فيه، هنا في هذه الصحراء، كمية كبيرة من الأسئلة. وهو تواق لأن يسمع مني الأجوبة. حكيت له عن المدن الكبيرة، كفر الإنسان المعاصر وآلامه، غطرسة الأغنياء وإملاق الفقراء، عجز الشرفاء، ثم حكيت له عن القلاقل التي حدثت في روسيا.

وسألني الرئيس بتفهم: وهل يؤمن هؤلاء الموسكوفيون باللّه؟

ـ كلا. انهم يؤمنون بالإنسان.

ـ بهذه الدودة؟ قال الرئيس باحتقار.

ـ نعم بهذه الدودة يا أب تيودوسيوس. أجبته بعناد وأنا أحسّ أن علي أن أدافع عن هذه الدودة.

وبدأت تلح علي رغبة شيطانية. كانت الأفعى تتسلق شجرة المعرفة وتفح. وكان الراهب يتقي شرها.

وهكذا، بقيادتي لقلب الناسك المطمئن إلى التجربة، ومحولاً طمأنينته إلى إدراك، رددت على حسن ضيافته بأحسن طريقة ممكنة.

وجاء طعمة ومنصور وعواد. كانوا يرتدون الجلابيب المتعددة الألوان، وعلى رؤوسهم عمائم مصنوعة من وبر الجمال ويطقانات طويلة في أوساطهم. هم رعاة الإبل الثلاثة ـ ثلاثة من البدو بأرجل نحيلة لينة وعيون صقرية صغيرة ـ الذين سيرافقونني في رحلة ثلاثة أيام وثلاث ليال إلى الدير. وسيحمونني في ساعات الخطر. ويقول تاريخ قديم إن البدو يرون ضعف المسافة التي تراها عيوننا، ويشمون رائحة الدخان عن بعد ثلاثة أميال، ويميزون نوع الخشب المحروق، كما يميزون بين الآثار التي يخلفها الرجال على الرمل، وبين تلك التي تخلفها النساء. ويعرفون ما إذا كانت النساء متزوجات أم عازبات أم حوامل.

حيّونا دون كلام، وهم يضعون راحاتهم على صدورهم فأفواههم وجباههم. ووراءهم ظهرت ثلاثة جمال في باحة الدار محملة بأحمال عالية من لوازم الرحلة: مؤن وبطانيات وخيمة. كنت قد تعلمت حتى الآن بعض الكلمات العربية، الكلمات الأساسية التي تلزمني في الأيام الثلاثة التي سأعيشها مع البدو. كلمات عن الخبز والماء والنار واللّه.

Twitter: @ketab_n

بركت الجمال. كانت عيونها اللامعة جميلة. لكنها خالية من اللطف. وكانت أعنتها مزينة بشرابات سوداء وبرتقالية مصنوعة من الشعر.

ـ أعط النوق قليلاً من البلح لتحلية أسنانها، أمر الرئيس. فخرج الراهب الشاب مسرعاً، وقبضتاه مليئتان بالبلح.

تعانقت والأرشمندريت وعيوننا على وشك أن تمتلئ بالدموع. وافترقنا. على مقربة من ملحق الدير تبدأ الصحراء. شهباء وصامتة وقاحلة.

إيقاع الإبل الواثق المتموج ينقل جسدك. ودمك يتعود على إيقاع هذا التموج. ومع دمك تتعود روحك. يحرر الزمن نفسه من التقسيمات الحسابية التي حشره فيها، بإذلال، العقل الوقور الصافي في الغرب. أما هنا ومع اهتزاز «سفينة الصحراء» فيتحرر الزمن من حدوده الرياضية الثابتة. يصبح الزمن مادة سائلة غير قابلة للتقسيم، ودوامة خفيفة مسكّرة تحول الأفكار إلى موسيقى ولحن حالم.

وباستغراقي مع هذا الإيقاع لساعات بدأت أفهم لماذا يقرأ أبناء الأناضول القرآن وهم يتأرجحون إلى الأمام وإلى الخلف وكأنهم على ظهور الإبل. بهذه الطريقة ينقلون لأرواحهم الحركة الرتيبة المسكّرة التي تقودهم إلى الصحراء الكبيرة الغامضة؛ إلى النشوة.

على مرمى النظر كان يمتد أمام عيوننا اتساع مغوٍ زهري اللون وظننت أنه البحر. تجمع البدويون الثلاثة وتهامسوا ثم افترقوا. وتابعنا السير، لم يكن ذلك بحراً. الامتداد الزهري كله كان صحراء أثارتها عاصفة مخيفة أعطت لغيوم الرمل المحترق لونها الزهري. وبعد قليل دخلنا في العاصفة الرملية فكدنا أن نختنق. قطع طعمة أغنيته. ولف البدويون الثلاثة أنفسهم بإحكام برانيسهم وغطوا أفواههم وأنوفهم.

ارتفع الرمل ليضرب وجوهنا وأيدينا ويجرحها. وبدأت الجمال تدور على نفسها عاجزة عن حفظ توازنها. ومع أن الطريق المتعرج استمر ثلاث ساعات، فقد فرحت سراً لأنني استطعت أن أضيف هذه العاصفة الصحراوية الرهيبة إلى تجاربي.

بدأت الشمس تغرب. كنا قد خلفنا العاصفة وراءنا ورحنا، أخيراً، نقترب من الجبال. وبالتدريج بدأت الصحراء تتحول إلى اللون البنفسجي وتتغطى بالظلال. ووقف طعمة الذي كان يسير في المقدمة، وأعطى إشارة التخييم: «كررا! كررا!»، راحت حلوق البدو تغرغر. ونخرت الجمال. ركعت على ركبها الأمامية ثم سقطت إلى الخلف على مؤخراتها بصوت راعد مثل بيوت تتهدم.

أنزلنا الأحمال ونصبنا الخيمة ونحن نعمل معاً. وكوم عواد حزمة من العيدان التي جمعها بعناية فائقة في الطريق. ثم أشعل النار. وأخرج منصور الكاسرولة والرز والسمن من حقيبة مصنوعة من القش المجدول وبدأ يطبخ. بينما كان طعمة يمزج الطحين بالماء. ثم راح

Twitter: @ketab_n

يرشق العجين في المقلاة بأصابعه الدقيقة. فأعد فطائر صغيرة تشبه التورت. وفي أثناء ذلك كله كان البيلاف[4] قد بدأ يطلق روائحه الشهية. جلسنا معاً حول النار وأكلنا ثم أعددنا الشاي وأخرجنا غلايينا ورحنا ندخن ونحن نحدق حيناً إلى الجمر المتلاشي وحيناً إلى النجوم العديدة المتأججة والمعلقة فوق رؤوسنا.

عم جسدي وروحي إحساس غريب بالارتياح. لكنني حاولت أن أخضع هذه الرومانسية كلها ـ الأرض العربية، والصحراء والبدو ـ فسخرت من قلبي الذي كان يخفق مستثاراً.

تمددت داخل الخيمة وأغمضت عيني فانصبت في رأسي همهمات الصحراء المكبوتة الغامضة. كانت الجمال تجتر طعامها خارجاً. وكنت أستطيع سماع أحناكها وهي تمضغ. كانت الصحراء كلها تجتر مثل ناقة.

في فجر اليوم التالي بدأنا رحلتنا بين الجبال، تلك الجبال المهجورة القاحلة التي تكره الناس وتنفر منهم. بين حين وآخر كان حجل رمادي يصفق بجناحيه بصوت رنان بين تجاويف الصخور السوداء. وأحياناً كان غراب يدور محلقا فوق رؤوسنا وكأنه راغب في أن يتشمم ما إذا كنا قد بدأنا نتفسخ لكي ينقض علينا.

طوال النهار مع إيقاع الجمل وأغنية طعمة الرتيبة الهادئة. كانت الشمس تنصب علينا ناراً والهواء يمر راعشاً على رؤوسنا وعلى الصخور.

مشينا الطريق ذاته الذي سلكه العبرانيون منذ ثلاثة آلاف سنة في هروبهم من أرض مصر الغنية. هذه البرية الموحشة التي كنا نجتازها كانت المشغل الذي جاع فيه بنو إسرائيل وعطشوا وتألموا وتشكلوا. ورحت أتطلع بعينين قلقتين إلى الصخور الشاهقة واحدة بعد أخرى وأدخل الوادي المتعرج وأثبت ذرى الجبال اللاهبة في ذهني. وتذكرت كيف أنني ذات يوم على الشاطئ اليوناني توغلت ساعات داخل كهف مليء بالنوازل الهائلة والقضبان الحجرية العملاقة التي كانت تلتمع مشعة حمراء تحت ضوء المشعل. كان فيما مضى كهفاً لنهر كبير. ثم ظل فارغاً، لأن النهر قد غير مجراه عبر القرون. ولمعت في ذهني فكرة أن الشيء نفسه قد حدث لهذا الوادي الذي كنا نجتازه الآن تحت الشمس. الله ـ يهوه القاسي ـ هو الذي حفر هذه السلسلة من الجبال لكي يمر.

وقبل أن يعبر هذه المتاهة لم يكن يهوه قد حدد هويته بعد، لأن شعبه لم يكن قد تجدد بعد. والألوهية[5] المتعددة لم تكن واحداً. كانوا أرواحاً لا تحصى تهيم في الجو لا أسماء لها ولا يمكن رؤيتها. هم الذين نفخوا روح الحياة في العالم وأنجبوا وهبطوا على النساء من الأعالي وقتلوا وبرقوا وأرعدوا وجاؤوا إلى الأرض في هيئة صواعق. لم يكن لديهم موطن.

---

(4) طعام شرقي من رز ولحم وتوابل. ربما يقصد المنسف.

(5) أو الربوبية، elohim جاء شرحها في قاموس ويبستر: اسم عبري لله استخدم في العهد القديم في مقاطع تعود إلى مراحل متأخرة من التاريخ التوراتي.

Twitter: @ketab_n

ولم يكونوا لأحد ولا لأية قبيلة. لكنهم بالتدريج اكتسوا باللحم وصاروا مرئيين يفضلون الصخور الشاهقة. وفرضوا أماكنهم في مراكز سامية.

وقام البشر بدهن الشحوم على هذه الصخور وبتقديم الأضحيات، لها حتى غطوها بالدماء. ومهما كان الشيء عزيزاً على المرء ـ وليده الأول أو ابنته الوحيدة ـ فقد كان عليه أن يضحي به إلى الإله لكي يستطيع الزحف إلى فضل الله العظيم.

وعبر قرون من الرفاه تنعم العرق البشري ببطء وصار متحضراً. وتنعم الله أيضاً وصار متحضراً. وصارت الحيوانات تُقدَّم له كأضحيات، بدلاً من البشر. وصار يعطى مظاهر يمكن الوصول إليها: الأفعى والصقر والعجل الذهبي والسفنكس المجنح[6]. وهكذا في هذه الأرض المصرية الغنية والمترفة بدأ رب العبرانيين ينفس من غيظه. ولكن بغتة جاء الفراعنة المعادون فاقتلعوا العبرانيين من الأرض الغنية وألقوا بهم إلى الصحراء العربية. وبدأ الجوع والعطش مثلما بدأ التذمر والعصيان. ولابد أنهم في هذه المنطقة بالذات قد توقفوا ظهر أحد الأيام وهم ظمأى وجائعون وراحوا يصرخون: «كم نتمنى لو أننا متنا بيد الله في أرض مصر حين كنا نجلس حول قدور اللحم، وحين كنا نأكل الخبز حتى التخمة». فقام موسى بتقديم البخور ورفع يديه إلى الله في يأس ثم الصراخ: «ما الذي أستطيع فعله بهذا الشعب الجاحد؟ بعد لحظة سيلتقطون الحجارة ويرجمونني».

وانحنى الله على شعبه وسمع. أحياناً كان يُنزل عليهم المن والسلوى ليأكلوا. وأحياناً كان يرسل عليهم سيفاً يقطعهم. ويوماً بعد يوم، وكلما توغلوا في الصحراء أكثر ازدادت ملامحه قسوة وازدادت معاملته لهم ضراوة.

في الليالي كان يصبح ناراً تزحف إلى رؤوسهم. وفي النهار عموداً من دخان. كان يحشو نفسه في تابوت العهد. وكان اللاويون[7] يحملونه مذعورين. فاليد التي تلمسه تستحيل إلى رماد. وازدادت ملامحه صرامة. صارت فظة. وأخذت مظهر إسرائيل القاسي. لم يعد مجموعة من الأرواح اللامرئية، والتي لا أسماء لها، والمبعثرة في الهواء دون مأوى. كما لم يعد رب الأرض كلها. لقد صار يهوه، القاسي المنتقم المتعطش للدماء، رب عرق واحد من البشر، العبرانيين. كان عليه أن يكون قاسياً ومنتقماً ومتعطشاً للدماء. لأنه كان يمر في ظروف صعبة. فقد كان يحارب العماليق والميديانيين والصحراء. وكان عليه أن ينتصر عليهم - بتحمل الآلام وبالمكيدة والقتل ـ وينقذ نفسه.

هذا الوادي المجدب القاحل الموحش الذي كنا نجتازه كان الغمد الرهيب ليهوه. من هنا مر وهو يزأر.

---

(6) كائن خرافي في الميثولوجيا اليونانية له جسد أسد وجناحا طائر وصدر امرأة ورأسها. وهو أبو الهول.

(7) نسبة إلى قبيلة لاوي العبرية.

Twitter: @ketab_n

كيف يمكن لأي إنسان أن يعرف العبرانيين معرفة حقيقية دون أن يعبر هذه الصحراء المخيفة ودون أن يجربها؟. لثلاثة أيام مديدة رحنا نعبرها على جمالنا. حنجرتك تطقطق من العطش، ورأسك يدور، وعقلك يهوم، وأنت تلتف في هذا الوادي المتعرج الأملس، حيث تطرق[8] شعب طوال أربعين عاماً في هذا الأتون. فرحت لرؤية الحجارة الرهيبة التي ولدت عليها فضائل العبريين: دأبهم، وقوة إرادتهم وعنادهم وقدرتهم على الاحتمال، وفوق كل شيء لحم الرب الذي من لحمهم، ولهبه الذي هو من لهيبهم. ذلك الرب الذي نادوه: «أطعمنا واقتل أعداءنا وقدنا إلى الأرض الموعودة».

لهذه الصحراء يدين اليهود بقدرتهم الدائمة على البقاء وفضائلهم ورذائلهم التي سيطروا بها على العالم. واليوم، في فترة الغضب القلقة، والانتقام والعنف هذه التي نمر بها، يبدو اليهود بالضرورة مرة أخرى الشعب المختار لإله الخروج الرهيب من أرض الرق.

في تلك الظهيرة كنا سنصل أخيراً إلى دير سيناء. لقد صعدنا الهضبة الميديانية على علو أكثر من 5000 قدم. وكنا قد قضينا الليلة السابقة في مقبرة إسلامية حيث نصبنا خيمتنا أمام ضريح الشيخ. استيقظنا فجراً. كان البرد لاذعاً. وقد غطى الثلج خيمتنا. و كان السهل الممتد أمامنا كله أبيض ناصعاً. هدمنا سقف كوخ خرب في المقبرة وأشعلنا منه ناراً. وتصاعدت ألسنة اللهب فتحلقنا حول النار التماساً للدفء. وكذلك اقتربت الجمال ومدت أعناقها فوقنا. شربنا منقوع التمر وأعددنا بعض الشاي. ثم مد البدو بساطاً على الثلج وركعوا وراحوا يصلون، ووجوههم النحيلة التي لوحتها الشمس متوجهة صوب مكة.

التمعت وجوههم وهم غارقون في النشوة. ورحت، باحترام كبير، أرقب هذه الأجساد الثلاثة الصبورة الجائعة الممتلئة بشكل مقبول. لقد مارس منصور وطعمة وعواد نوعاً من الصعود، فتحت الجنة أبوابها لهم ودخلوها. تلك جنتهم الخاصة، الجنة الإسلامية، جنة بدوية من الشمس والجمال البيضاء وقطعان ترعى في سهوب خضراء وخيام متعددة الألوان، وأمامها تتربع النساء ورؤوسهن مردودة إلى الوراء مع الضحك وأساور ذهبية على معاصمهن وكواحلهن، وعيونهن مكحلة وشعر رؤوسهن محنّى وبقعتان تجميليتان على خدي كل منهن، والطعام يتصاعد منه البخار، والمناسف[9] مع اللبن، والتمر، والخبز الأبيض، وجرة من الماء البارد. وكانت هناك ثلاث خيام أكبر من بقية الخيام، ثلاثة وثلاثون جملاً أسرع من بقية الجمال وثلاثمئة وثلاثون امرأة أكثر سحراً من بقية النساء: الخيام والجمال والنساء لطعمة ومنصور وعواد[10]. انتهت الصلاة وأغلقت الجنة أبوابها. ونزل البدو الى الهضبة الميديانية

---

(8) كما يتطرق الحديد.
(9) هي كلمة بيلاف أيضاً.
(10) إنه يصف الجنة التي تراود أحلام رفاقه المسلمين.

Twitter: @ketab_n

واقتربوا من النار صامتين، وعادوا الى أعمالهم الأرضية المتواضعة مرحين. المهم كم ستطول هذه الحياة؟ الجنة ستكون الختام. ولذا فالصبر جميل.

مددت يدي إلى طعمة الذي كان يجلس إلى يميني ورددت له بالعربية النداء الإسلامي المقدس: لا إله إلا الله محمد رسول الله. اهتز مندهشاً كما لو أنني كشفت سره. شع وجهه بالفرح ونظر إلي ثم ضغط على يدي.

انطلقنا. وتابعت على قدمي غير قادر على احتمال الإيقاع البطيء المتأني للجمل. جبال من الغرانيت الأحمر والأخضر تنهض على الجانبين. وبين حين وآخر يمر فوق رؤوسنا طائر كالجوكي، طائر صغير وأسود بقلنسوة بيضاء صغيرة. وظهرت في الطرف الآخر من الطريق قافلة من الجمال. أطلق البدو صرخات الفرح وتوقفنا: «السلام عليكم»[11] هتف قائدا الجملين المقتربين يحييان. تصافحا بالأيدي مع أدلائنا وانحنى الزوجان كل زوج للآخر واقتربت الأوجه وبدأ الحديث بأصوات هامسة هادئة ليطول به السلام. وبدأت أسئلة التحية البسيطة القديمة: «كيف حالكم؟ كيف حال زوجاتكم؟ وجمالكم؟ من أين تأتون؟ والى أين تذهبون؟» وراحت كلمتا «سلام» و «الله» تتردد على شفاههم. وأخذ هذا اللقاء في الصحراء المعنى المقدس السامي الذي يجب أن يميز دائما لقاء الإنسان بالإنسان.

إن لدي إعجاباً قلبياً عميقاً بأبناء الصحراء هؤلاء. انظر كيف يعيشون ـ على تمرات قليلة وكمشة من القمح وقدح من القهوة. أجسادهم رشيقة وسيقانهم دقيقة كسيقان الماعز، وعيونهم كعيون الصقور. إنهم أفقر أهل الدنيا. لكنهم أكثر أهل الدنيا كرماً. مهما جاعوا لا يأكلون حتى الشبع أو التخمة. يحتفظون ببعض السكر وبعض القهوة وكمشة من التمر ليقدموها لغريب. في رايثو حكى لي الرئيس كيف أن بدوية صغيرة وقفت تحدق إلى سائح إنكليزي كان قد فتح معلبات الطعام المحفوظ وبدأ يأكل. وقدم لها الإنجليزي لقمة. لكنها رفضت بكبرياء. ثم بغتة داخت من الجوع وانهارت على الأرض.

الحب الأول للبدوي هو جمله. ولقد اعتدت أن أرى آذان طعمة ومنصور وعواد تهتز قلقاً كلما سمعوا أحد الجمال يطلق أضعف تنهيدة. يقومون ويوازنون السرج ثم يفحصون البطن والخف ويجمعون ما يمكن جمعه من عشب جاف ويطعمونه. في المساء يفكون الحمولة ثم يغطون الجمال ببطانيات من الصوف ثم يمدون على الأرض قطعة من القماش وبعناية فائقة ينتقون الأقذار من طعامها.

هناك قصيدة عربية قديمة تمتدح رفيق البدوي المحبوب:

تمشي الناقة في الصحراء وتتقدم
قوية كأخشاب التابوت

---

(11) موضوعة باللفظ العربي، وبالأحرف اللاتينية، ومشروح معناها أيضاً.

Twitter: @ketab_n

فخذاها شبيهان ببوابة برج
وآثار الحزام على خاصرتها
كالبحيرات الجافة المليئة بالحصى
إن لمستها في هذا المكان
تظن أنك تلمس مبرداً
وهي شبيهة بقنطرة بناها إغريقي
وغطاها بالقرميد[12].

كنا نحث الخطى في الجبال، ونحن نتحرق رغبة للوصول إلى الدير. قليل من الماء في حوض طبيعي، نخلات قليلة، كوخ حجري. وبعد قليل صليب خشبي مركز على الصخور. وبغتة رفع طعمة ذراعه وصرخ: الدير[13].

تحتنا وعلى امتداد مكشوف بين جبلين ظهر دير سيناء الشهير محاطاً بالجدران العالية. كنت تواقاً لهذه اللحظة. ولكن ما إن جنيت ثمار هذا الجهد الطويل حتى بدأت أحس بفرح هادئ دون صخب. لم أوسع خطاي. ولوهلة أحسست بدافع يدعوني للعودة. وومضت فيَّ المتعة القاسية في حدها الأقصى، متعة عدم جني ثمرة رغبتي والتمتع بها. ولكن فجأة هبت نسمة دافئة تحمل أريج الأشجار المزهرة، وانتظر الإنسان فيَّ فتقدمت.

لقد صار في وسعي الآن أن أميز ملامح الدير بوضوح أكبر. جدرانه وأبراجه وكنيسته وشجرة السرو. وصلنا إلى حديقة الراهب التي تقع خارج الجدران. مددت نفسي إلى حافة السياج فرأيت أشجار الزيتون والبرتقال والجوز والتين مع أشجار لوز مقدسة هائلة، ولكنها تلتمع في ضوء الشمس هنا في قلب الصحراء! مع الدفء اللطيف والعبير وصرير الحشرات الصغيرة كانت هنا الجنة!

تمتعت بهذا الوجه للرب لفترة طويلة، الوجه المرح الذي يحب الناس والمصنوع من

---

(12) لنا أن نتصور من هذه الترجمة ما يصيب الشعر عند نقله عبر لغتين. الكلام المثبت هنا هو ترجمتي للترجمة الإنكليزية. ولكي يكون القارئ العربي في الصورة الصحيحة نشير إلى أن كازانتزاكيس يقصد أبيات طرفة بن العبد في وصف الناقة. وهي:

وإنّي لأمضي الهمّ، عند احتِضاره، ... بِعَوْجاءَ مِرْقالٍ تَروحُ وتَغتَدي
أمُونٍ كألْواحِ الأرانِ نَصَأْتُها ... على لاحِبٍ كأنّهُ ظَهْرُ بُرْجُدِ
لها فَخِذانِ أُكمِلَ النّحضُ فيهما ... كأنّهُما بابا مُنيفٍ مُمَرَّدِ
لها مِرفَقانِ أفتَلانِ كأنّمَا ... تَمُرّ بِسَلْمَىْ دالجٍ مُتَشَدّدِ
كَقَنْطَرَةِ الرّوميّ أقسَمَ رَبُّها ... لَتُكْتَنَفَنْ حتى تُشادَ بقَرْمَدِ

Twitter: @ketab_n

التراب والماء والعرق البشري. خلال الأيام الثلاثة الماضية كنت أواجه وجهه الآخر: الوجه الرهيب القاتم المصنوع من الغرانيت فقط. لقد قلت لنفسي إن هذا (النار التي تحرق، والغرانيت القاسي بما لا يسمح للرغبات البشرية أن تنقش عليه) هو الرب الحقيقي. ولكن الآن، وأنا أنحني على السياج وأتطلع إلى الحديقة المزهرة، أتذكر بانفعال قول الناسك: اللّه رعشة ودمعة لطيفة.

يعلن بوذا: «هناك نوعان من المعجزات، معجزات الجسد ومعجزات الروح: وأنا أؤمن بالثانية لا بالأولى». إن دير سيناء معجزة للروح. مبني حول بئر وسط الصحراء الوحشية ومحاط بقبائل نهاية تدين بدين مختلف وتتكلم لغة مختلفة. وقد ظل هذا الدير أربعة عشر قرناً محصناً كالقلعة يقاوم القوى الطبيعية والبشرية التي تحاصره. وفكرت بفخر أن الضمير البشري الأسمى موجود هنا، الفضيلة البشرية هنا قد أخضعت الصحراء.

لم أستطع كبح ابتهاجي إلا بصعوبة. أنا، هنا، بين الذرى التوراتية وعلى هضاب العهد القديم المنبسطة. إلى الشرق جبل المعرفة حيث طمر موسى الثعبان النحاسي. وإلى الوراء أرض العمالقة وجبال العموريين[14] وإلى الشمال جبال كيدار وأدوم وتيمان التي تصل إلى صحراء مؤاب[15]. وإلى الجنوب رأس فران والبحر الأحمر. وأخيراً إلى الغرب سلسلة جبال سيناء، والقمة المقدسة التي تكلم موسى مع اللّه من فوقها. وعلى مبعدة قمة القديسة كاترين. كانت حديقة الدير تتلامع بالشمس والثلج، وأشجار الزيتون تحف أوراقها بهدوء، وأشجار البرتقال تتوهج بخضرتها الزاهية، وأشجار السرو تسمو متفردة سوداء وشاهقة. والعبير المتصاعد من أشجار اللوز المزهرة يفوح بطيئاً ومنتظماً، كأنفاس الله، جاعلاً منخريك وعقلك ترتعش غبطة.

كيف استطاع هذا الدير ـ القلعة، فعلاً، أن يقاوم هبات نسيم الربيع الفاتنة هذه؟ وكيف ـ عبر القرون ـ تماسك عن التهاوي إلى الأرض ذات ربيع؟

* * *

دخلت الدير من بوابة الحصن العالية. وسط باحة واسعة كانت الكنيسة وإلى جانبها جامع صغير بمئذنة نحيلة. هنا، أخيراً، اجتمع الهلال والصليب. وحول الباحة حجرات مغطاة بالثلج يتلامع بياضها الناصع، وكذلك أجنحة الزوار ومخازن المؤن. كان هناك ثلاثة رهبان يتشمسون. وقفت طويلاً وأنا أستمع إليهم باستغراق. كان لكلماتهم صدى واضح في صمت الهواء. وكان كل منهم مهتماً بأن يتكلم ويريح باله. أحدهم كان يتحدث عن

(14) شعوب سامية متعددة عاشت في العراق وسورية وفلسطين خلال الألف الثالث والألف الثاني قبل الميلاد.

(15) شعب سامي قديم.

Twitter: @ketab_n

المعجزات التي رآها في أمريكا ـ سفن بخارية وناطحات سحاب ونساء وأضواء زاهية في الليل. وتحدث الآخر عن تحمير الخروف على السفود في مسقط رأسه. والثالث عن معجزات القديسة كاترين. كيف أخذها الملائكة من الإسكندرية، وجلبوها إلى هنا على قمة الجبل. وكيف أنك تستطيع إلى الآن أن ترى آثار جسدها على الصخور.

صعدت البرج لكي أستطلع الجوار. ورآني شاب شاحب فركض يرحب بي. وإذا به في الثامنة عشرة من العمر وكريتي. ولأن الشمس قد لوحته فإن الزغب الأجعد الكثيف على خديه كان أشقر كستنائياً شفافاً.

وفيما نحن نتحدث عن موطننا البعيد ظهر رجل عجوز جميل ومسالم يقارب عمره الثمانين. اقترب منا لاهثاً مقطوع الأنفاس. ولأن إحدى قدميه قد صارت في القبر لم تعد لديه القوة لأن يرغب في خير أو شر. كانت أحشاؤه، كما يرغب بها بوذا، خاوية.

جلسنا، نحن الثلاثة، على مقعد طويل في الشمس. وأخرج الشاب كمشة من التمر من تحت قميصه. وقدمها لي وهي لا تزال مليئة بحرارة جسده. ولمس العجوز ركبتي وبدأ يحكي لي كيف بني الدير وكيف صمد طوال قرون عديدة. وبدت لي قصة الدير، وأنا جالس في الشمس بين الجبال، أسطورية: قصة بسيطة وحقيقية كأية قصة خرافية.

«الإمبراطور جوستنيان بنى الدير حول البئر التي كانت بنات يترو يردنها لسقي غنمهن، وبالضبط في موقع العليقة التي التهبت بالنار ولم تحترق. وأرسل جوستنيان مئتي عائلة من بونتوس ومصر للإقامة قرب الدير ليقوموا بخدمته وحمايته. بعد قرن جاء مُحمّد. زار جبل سيناء ولا تزال آثار خف ناقته محفوظة على بلاطة من الغرانيت الأحمر. وقد استقبله الرهبان بحفاوة كبيرة مما أبهجه وأرضاه. (**) وجعله يمنح الدير امتيازات عظيمة. وفيه مخطوطة مكتوبة بخط كوفي على جلد الرو[16]: «إذا التجأ راهب من سيناء في السهل أو الصحراء، في الجبال أو في كهف، فسأكون معه وسأحميه من كل أذى. سأدافع عن قاطني سيناء حيثما كانوا، في البر أو البحر، في الشرق أو الغرب، في الشمال أو الجنوب. ولن يكون عليهم أن يدفعوا جزية، ولن يستدعوا للتجنيد، أو لدفع الضرائب، ولن يدفعوا عن محاصيلهم عُشراً. وستخيم أجنحة الرحمة فوق رؤوسهم».

وبينما كان العجوز يتكلم، امتلأ الجو بالقديسين والشهداء. وراح اليافع الكريتي بجانبي يستمع بفم فاغر وهو غارق في النشوة. تحتنا في الباحة كان الرهبان قد خرجوا من حجراتهم

(**) مرة أخرى ينقل كازانتزاكيس كلام الآخرين بحرارة روائية دقيقة ولكن دون تمحيص أيضاً. وهذا يؤكد ملاحظتنا الأولى في بدء هذا الفصل. إذ أن مجيء النبي محمد إلى سيناء لا أساس له من الصحة. (لقد حذف عبارة دعاء على النبي، رغم أنها قيلت على لسان شخصية في عمل أدبي، مما يعني أنها لا تُعبّر عن رأي الكاتب ـ الناشر ـ).

(16) نوع من الأيائل.

Twitter: @ketab_n

لوزن القمح الذي جلبه العرب. وكان باب المطبخ مفتوحاً. واستطعت من خلاله أن أرى مائدة طويلة محملة بسرطانات بحرية ضخمة وحمراء، وراهباً شاحباً متلفعاً ببطانية بنية يرسم محارة بحرية كبيرة.

قال العجوز، وهو يضحك: «هذا هو الأب باكوميوس. إنه نصف مجنون. هذا الأبله المسكين يرسم صوراً».

قلت، وأنا راغب في الدفاع عن الفنانين جميعاً: «الرسول لوقا كان رساماً أيضاً».

ـ إنها غواية كبيرة يا بني، فليبعدك اللّه عنها. يجب أن تكون رسولاً لكي تستطيع المقاومة.

كان على حق، فسكتُّ. نهضت ونزلت إلى الباحة. كان الرهبان يحملون الثلج ويلعبون به كالأولاد. لقد كانوا مسرورين لأن الثلج قد هطل. فذلك يعني أن الصحراء ستعشب. وأن الأغنام والماعز سوف تأكل. والناس سوف يحصلون على كفايتهم من الخبز.

جاء عدد من العبيد وجلسوا عند جدار الدير. وراحوا يدخنون ويؤشرون ويتحادثون بأصوات مرتفعة. وكان بينهم بعض النساء القذرات الحافيات متلفعات بأرواب سوداء، وشعورهن مدفوعة فوق جباههن على هيئة الكعك مثل قربوس السرج، ووجوههن مغطاة من أنوفهن وما تحت بسلاسل دقيقة في نهاية كل منها أصداف وقروش فضية صغيرة. فتحت كل امرأة رداءها وأخرجت منه طفلاً وضعته على الحجارة أمامها. كان الجميع ينتظرون أن يظهر الرهبان ويلقوا لهم الحصص اليومية: ثلاثة أرغفة صغيرة مدورة لكل رجل، ورغيفين لكل امرأة وطفل. والقاعدة هي أن يحضروا شخصياً لتلقي هذا الطعام. ولقد غادروا خيمهم منذ ساعات لكي يصلوا في الوقت المناسب. غير أن هذه الأرغفة الصغيرة لا تسد جوعهم. ولذا فإنهم يجمعون الجنادب[17] التي يجففونها ويطحنونها ثم يعجنونها ليصنعوها خبزاً.

تأثرت كثيراً وأنا أرى هؤلاء الأخوة البعيدين. قروناً وهم يحيطون بهذه الأسوار البيزنطية، والأرغفة الصغيرة (المصنوعة في معظم الأحيان من النخالة) تلقى إليهم كالصخور. إنهم يعيشون ويموتون بتهديدهم للدير. واليوم تماماً كما في أيام يترو، البنات هن اللواتي يرعين الأغنام. لا أحد يزعجهن. وحين يقع شابان في الحب يتسللان سراً ويذهبان إلى الجبل. يقوم الشاب بالعزف على الناي والفتاة بالغناء دون أن يلمس أحدهما الآخر. ثم ينزل الفتى فيلقي ببرنسه عليها ويغطيها. ويأتي والد الفتى. وكذلك يأتي الشيخ. يمسك الأبوان بسعف نخل ويقسمانه إلى قسمين. وعندها يقول والد الفتاة: «أريد ألف ليرة[18] مقابل ابنتي».

---

(17) لعله يقصد الجراد.

(18) هو يقول «باوند». وربما يقصد الجنيه أو الدينار.

Twitter: @ketab_n

ويهتف الشيخ: «ألف ليرة! لكن ابنتك تستحق ألفين. والعريس راغب في دفع هذا المبلغ. وعلى أية حال من أجل خاطري خفِّض له خمسمئة ليرة».

ويجيب الأب: من أجل خاطر الشيخ أتنازل عن خمسمئة. وفي الوقت ذاته يكون الأقارب قد توافدوا واحداً بعد الآخر وجلسوا متربعين أمام الخيمة. وعند هذه المرحلة ينهضون:

ـ خفض له مئة أخرى من أجل خاطري.

ـ ومئة أخرى. يقول آخر.

ـ وخمسين..

ـ وخمسة وعشرين أخرى..

إلى أن يتم تخفيض المبلغ إلى ليرة واحدة.

وفي هذه اللحظة تبدأ النسوة اللواتي كن يطحنَّ القمح في زاوية بالزغردة: «لو.لو.. لو.. لو..».

وينهض والد الفتاة: «ومن أجل خاطر النساء اللواتي يطحنَّ القمح أقدم ابنتي لقاء نصف ليرة».

يأكلون ويشربون ويرقصون مساء يوم العرس باذلين كل ما يملكونه. وهكذا استمرت عادات الصحراء دون تغيير طوال آلاف السنين.

* * *

جاء الكريتي الشاب وقال لي: «الآباء المقدسون ينتظرونك في قاعة الاستقبال. فتفضل».

كان يجلس في القاعة الكبيرة التي يتم فيها استقبال الضيوف ما يقرب من عشرين راهباً. راحوا يحدِّقون إليّ بفضول. كان عليَّ أن أقبِّل أيديهم جميعاً. ولكن لوجود كثيرين منهم قررت أن ذلك سيكون مملاً. فلم أقبِّل إلا يد رئيس الدير. كان يجلس في الوسط نحيلاً وقاسياً دون أن يتكلم. ومرة أخرى القهوة وملعقة المربى وكأس من خمر التمر والكلمات اللطيفة العريقة ـ من أين أنت؟ من أنت؟ أهلاً وسهلاً.

الرئيس، شجرة السنديان العتيقة المبخّرة والمفحّمة بصواعق اللّه، كان ينظر إلي. لكنني كنت واثقاً من أنه لا يراني. بدأت عيناه تغيمان. ما عادتا تميزان العالم المرئي بوضوح. كان ينظر إليّ ويرى وراء كتفيّ مدناً كبيرة: الـ «عالم» المتمرغ في الرذيلة والخيلاء والصفاقة والموت.

قلت له إنني أمر في أزمة. واستأذنت المكوث في الدير عدة أيام ريثما تستقر روحي وتصل إلى قرار.

وسألني الرئيس: «هل ترغب في أن تجد اللّه؟». وأدركت أنه قد رآني الآن للمرة الأولى. أما قبل ذلك فكان ينظر إليّ فقط.

Twitter: @ketab_n

وأجبته: أريد أن أسمع صوته. أريد منه أن يدلني على أي طريق أختار. فهنا، في الصحراء فقط، تستطيع الروح أن تسمعه.

وقال الرئيس: «الأصوات كلها يمكن أن تسمع هنا في الصحراء. وخاصة صوتان من الصعب الفصل بينهما: صوت اللّه وصوت الشيطان. فانتبه يا بني».

دخل راهبان إلى قاعة الاستقبال ليريا الحاج الجديد ويحيياه. كان أولهما المسؤول عن الضيافة. وهو شخص بدين ذو لحية جعداء وعينين زرقاوين ضاحكتين: وعمله هو العناية بالغرباء. أما الثاني فله ابتسامة حزينة ساخرة. طويل له شاربان ولحية وحاجبان. وكلها بيضاء كالثلج، وكفان طويلتا الأصابع لونهما أبيض أيضاً. لم يكلمني. بل اكتفى بالتحديق إليّ وعيناه ترتعشان وتضحكان. تضحكان أم تسخران؟ في هذه اللحظة لا أعرف. بعد أيام سوف أعرف.

نهض الرئيس. مد لي يده وقال: فليأذن اللّه بأن تجد في الصحراء ما كنت تبحث عنه عبثاً في العالم.

ركض راهب ليفتح الباب له. ومشى بخطوات ثقيلة ثم اختفى. وجاء إليّ مسؤول الضيافة، وقال: حان وقت الأكل. تعال إلى حجرة الطعام من فضلك.

كان الرهبان جالسين حول مائدة طويلة والرئيس في مقدمتها. وجلب الراهب الذي يقوم بالخدمة وجبة الطعام: سرطانات مسلوقة وخضروات مع خبز وقدح من الخمر لكل شخص. وبدأ الآباء يأكلون. لم يتكلم أحد. وصعد القارئ منبراً صغيراً، وبدأ يرتل تعليقه على درس اليوم: عودة الابن الضال.

مرات عديدة، وفي عدة أديرة، عرفت هذا الإيقاع الطقسي للطعام. بهذه الطريقة تأخذ الوجبة أهميتها العظيمة والروحية الملائمة. قال الرابي مرة: «بالأكل يحرر الإنسان الفاضل اللّه الموجود في الطعام».

ورتل القارئ بتنغيمات أناقته البيانية عن الابن الضال: عذاباته وخزيه بعيداً عن بيت أبيه، وكيف كان يأكل بذور الخروب مثل الخنزير، وكيف أنه، ذات يوم، لعجزه عن التحمل أكثر من ذلك، عاد إلى أبيه. ووسط هذا الجو العميق من الطاعة المسيحية رحت أفكر لنفسي. في دير آخر أكثر انسجاما مع قلق العصر الروحي وعصيانه كانوا سيقرأون النتيجة الفاخرة التي صاغها معاصر خائف لهذه الأمثولة. يعود الضال متعباً ومهزوماً إلى البيت الأبوي الهادئ. وفي تلك الليلة التي اضطجع فيها على الفراش الناعم لكي ينام، يفتح الباب بهدوء ويدخل أخوه الأصغر. يقول: «أريد أن أرحل. لقد صار بيت أبي سجناً خانقاً!». ويسر الأخ العائد لتوه مهزوماً لسماع هذا الكلام. يعانق أخاه ويبدأ بتوجيه النصح له حول ما يجب أن يفعله، والاتجاه الذي عليه أن يسلكه. وهو يحثه على أن يثبت أنه أكثر شجاعة وثقة

Twitter: @ketab_n

بالنفس مما كان هو، وعلى أن لا يتنازل بالعودة إلى «الإصطبل» الأبوي (هكذا يسمي بيت أبيه). ويرافق أخاه إلى الباب ويهز يده وهو يفكر: إن أخي سيكون أقوى مما كنت أنا ولن يعود[19].

* * *

كيف سأستطيع نسيان الليلة الأولى التي قضيتها في حصن اللّه الصحراوي؟ أصبح الصمت مليئاً بالأشباح التي تحلق من حولي، وكأني قد سقطت إلى قاع بئر جافة مظلمة. ثم تحولت بغتة إلى صوت وبدأت روحي ترتعد.

«ما الذي تريده هنا في بيتي؟ أنت لست نقياً ولا شريفاً. نظرتك تطير بهذا الاتجاه في البدء ثم في ذلك الاتجاه. إنني لا أثق بك. أنت مستعد للخيانة في أية لحظة. إيمانك خليط دنس من إلالحادات المتعددة. إنك لا تعرف أن اللّه يجلس منتظراً في نهاية كل طريق. ستظل على عجلة دائماً. وستفقد شجاعتك دائماً في منتصف الطريق. وترجع لتسلك طريقاً آخر. الناس العاديون لا يرون السيرانات[20] ولا يسمعون أغنيات في الجو. يجلسون عمياناً وطرشاناً، وهم محنيون في قبضة الأرض وفي سبيلها.

ولكن المصطفين، القباطنة، يسمعون سيرانة في أعماقهم ـ في روحهم ـ فيتبعون صوتها بشجاعة. ما الذي تظن أنه يجعل للحياة قيمة غير ذلك؟ أما القباطنة captains المساكين المهمومون فيسمعون السيرانة ولا يصدقون. يتحصنون وراء الحذر والجبن ويظلون طوال حياتهم وهم يزينون الحجج المؤيدة والحجج المعارضة بميزان تحليلي دقيق. والله، الذي لا يعرف أين يلقي بهم، والذي لا يرغب بهم زينة لجهنم أو دنساً للجنة، يأمر بأن يظلوا مقلوبين في الهواء متأرجحين بين الفساد والطهر».

توقف الصوت. وظللت أنتظر ووجنتاي ملتهبتان احمراراً من الخجل والغضب. ثم من مكان ما ـ أتساءل إن كان من الصحراء نفسها ـ اكتسبت القوة لأرفع رأسي احتجاجا وعصياناً.

ـ لقد وصلت إلى النهاية. وفي نهاية كل طريق وجدت الهاوية.

ـ لقد وجدت عجزك عن أن تتابع. الهاوية هي الاسم الذي نعطيه لكل ما لا نستطيع عبوره. ليست هناك هاوية. ولا نهاية للطريق. هناك روح الإنسان فقط. وهي التي تسمي كل شيء بما ينسجم وشجاعتها أو جبنها. المسيح وبوذا وموسى، كلهم، وجدوا الهاوية. لكنهم نصبوا جسوراً وعبروا من فوقها. ومنذ قرون إلى الآن وجماهير البشر تعبر وراءهم.

---

(19) نموذج آخر لصياغات كازانتزاكيس الجديدة والمعاصرة للقصص القديمة، التراثية والدينية.

(20) السيرانة، واحدة من مجموعة كائنات أسطورية (عند الإغريق) لها رؤوس نسوة وأجساد طيور، كانت تسحر الملاحين بغنائها فتوردهم موارد الهلاك. وهي من النوع الذي يحاول أن يغوي أوليس في طريق عودته من حرب طروادة (في الأوديسة).

Twitter: @ketab_n

ـ بعض الناس يصبحون أبطالاً بأمر الله. وآخرون بكفاحهم. أنا أكافح.

وتفجرت ضحكة مخيفة من حولي وفي أعماقي: أبطال؟ ولكن أن تكون بطلاً يعني أن تلحق نفسك بإيقاع منتظم يتخطى الفرد. أما أنت فلا تزال مليئاً بالقلق والكسل. ولعجزك عن إخضاع الفوضى التي تعتمل في داخلك وعن خلق الـ «كلمة» المكتملة الواحدة تنتحب بقناعة ذاتية: «الصيغ القديمة خانقة». ولكن لو أنك تقدمت أبعد من ذلك في الفكر أو في الفعل لاستطعت أن تصل إلى الحدود البطولية التي تتمكن فيها عشرة أرواح مثل روحك أن تجد مكاناً لها وأن تعمل. ولو أنك تلقيت دوافعك من رموز سماوية معروفة لاستطعت أن تدفع بنفسك في تجارب دينية خاصة بك، وأن تعطي (هذا ما تبحث عنه لكنك لم تكتشفه بعد) صيغة معاصرة للعواطف القديمة نحو الله والإنسان.

ـ إنك ظالم. قلبك لا يعرف الشفقة. كنت أسمعك من قبل أيها الصوت القاسي، كلما وقفت على مفترق طرق لأختار سبيلي.

ـ وستظل تسمعني دائماً كلما هربت.

ـ لم أهرب أبداً. إنني أتقدم متخلياً عما أحب، وقلبي ينشطر نصفين.

ـ وإلى متى ستظل تفعل ذلك؟

ـ إلى أن أصل إلى ذروتي. هناك سأرتاح.

ـ ليست هناك ذروة. هناك مرتفعات فقط. لا راحة. بل كفاح فقط. لم أنت مندهش؟ ولم تحدق هكذا بعينين جاحظتين؟ ألم تعرفني بعد؟ تظن أنني صوت الله. أليس كذلك؟ لا. أنا صوتك أنت. إنني أسير معك دائماً، ولا أتركك أبداً. أسفي عليك لو أني تركتك لنفسك! ذات مرة، تلك المرة التي قفزت فيها غاضباً من صلبك، سميتني اسماً احتفظت به لأنني أحببته. أنا (مرافقتك الجوابة ـ النمرة).

توقف الصوت. ازددت ثقة حين عرفته. لم علي أن أخاف من هذه النمرة؟ إننا نرحل معاً دائماً. لقد رأينا كل شيء وتمتعنا معاً بكل شيء. ونحن، الاثنين، قد أكلنا وشربنا في أراض غريبة، وقاسينا معاً. ومعاً استمتعنا بالمدن والنساء والأفكار. وحين نعود إلى حجرتنا الهادئة محملين بالغنائم ومثخنين بالجراح، تشق هذه (النمرة) طريقها بمخالبها إلى قمة رأسي حيث وجارها. وتُمدد نفسها بإحكام حول جمجمتي وتنشب براثنها في دماغي، وكل منا، دون لجوء إلى الكلمات، يتأمل في ما رأيناه. ويتوق إلى ما يجب أن نراه.

نبتهج لأن العالم المرئي والمخفي كله لغز عميق مبهم ـ لا يمكن إدراكه ويتجاوز الفكر والرغبة واليقين. نتبادل الأحاديث، أنا ومرافقتي الجوابة، النمرة، ونضحك لأننا قاسيان ولطيفان وقلقان. نضحك من عدم استقرارنا على الرغم من كوننا واثقان أننا ذات مساء سوف نتحول إلى كمشة من التراب ونستقر.

Twitter: @ketab_n

يا روح الإنسان، أيتها النمرة، يا مرافقتي الجوابة: ما أمتع أن نحيا ونحب الأرض. وأن ننظر إلى الموت دون خوف.

نهضتُ في الفجر تواقاً إلى السير في الصحراء. كانت نجمة الصباح لا تزال ظاهرة والضوء الخافت قد انتشر على ذرى الجبال. استيقظت طيور الحجل. والجبل كله، بقمته المقدسة التي نزل عليها يهوه، يردد أصداء القوقأة. صفت السماء وذابت الثلوج المتراكمة إلى الأسفل وشربتها الرمال. ولكن الثلوج في أعالي الجبال لا تزال تتلامع بلونها القرنفلي تحت الأشعة الأولى للشمس. لا صوت. لا دليل على الماء. لا عشبة خضراء. عزلة وحشية مقتصرة على الرمل والله.

لاشك أن نوعين من البشر، فقط، يستطيعان أن يتحملا العيش في صحراء كهذه: المجانين والأنبياء. إن العقل يتداعى هنا. ليس من الخوف، بل من الرهبة المقدسة. قد ينهار أحياناً، فيبدد طمأنينة الإنسان. وقد يندفع أحياناً أخرى عالياً فيدخل السماء ويرى الله وجهاً لوجه ويلمس هدب ردائه اللاهب دون أن يحترق. ويسمع ما يقوله الله ثم يأخذ ذلك ويلقيه في وعي الناس. في الصحراء فقط، نرى ولادة هذه الأرواح العنيفة التي لا تنضبط، والتي تثور، عاصية رافضة، حتى ضد الله ذاته. وتقف أمامه دون خوف وعقولها من المادة البهية نفسها التي لحاشية الله. يراها الله فيحس بالفخر لأن نفسه لم تتبدد فيها. ولم يتنازل الله كي يصبح إنساناً.

نبيان كانا يسيران في الصحراء وهما يتخاصمان. ادعى الأول أن الله نار. وادعى الآخر أن الله قرص عسل. ورغم أن صوتيهما قد بُحّا من الصراخ فإن أحداً منهما لم يستطع أن يكسب الآخر إلى صفه.

وأخيراً أشار الأول غاضباً نحو الجبل المواجه له وقال: إن كنت أقول الحق فإن الجبل سيرتجف.

حين قال ذلك بدأ الجبل بالرجفان.

فأجاب النبي الثاني باحتقار: هذا ليس برهاناً. إن كنت أقول الحق سينزل من السماء ملاك يغسل قدمي.

وحين قال ذلك نزل ملاك من السماء وانحنى بذلّ وبدأ يغسل قدميه.

لكن الآخر هز كتفيه وقال: هذا ليس برهاناً. إن كنت أقول الحق سيهتف الله: هذا صحيح.

حين قال ذلك سُمع من السماء صوت يهتف: هذا صحيح.

لكن النبي الثاني اكتفى بهز كتفيه مرة أخرى والقول: هذا ليس برهاناً.

في تلك اللحظة كان أليشاع ماراً بالسماء. وحين رأى الله يضحك اقترب منه وسأله: لم تضحك يا رب؟

Twitter: @ketab_n

فأجاب الرب: لأنني مسرور يا أليشاع. على الأرض تحتي أرى رجلين يتحدثان وهما ابناي الحقيقيان.

وفيما أنا أسير كنت أفكر بإعجاب بالنبيين العنيفين. وبدا لي أنني لا أزال قادراً على رؤية آثار خطاهما على الرمل. سعيد هو الأب الذي يستحق الحصول على أبناء كهؤلاء. وقلت لنفسي أيضاً: سعيدة هي الصحراء التي رأت أسدين كهذين يمشيان عليها وهما خارجان من أدغال الله.

في اليوم التالي صعدت مع الأب أغابيوس والأب الرسام باكوميوس إلى القمة المقدسة، الحصن الشفاف الذي فيه رأى موسى ربه «وجهاً لوجه»، وتحدث إليه. كان الخط الأفقي المفاجئ يبدو عن بعد مثل عرف خنزير بري. يسأل اللوح: ما الذي تساوينه أيتها الجبال الباقية، أيتها الجبال المغطاة بالعشب والقطعان والأجبان؟ جبل واحد، واحد فقط، هو الجبل الحقيقي. جبل سيناء الذي نزل عليه الله. وهو يقيم الآن فيه.

يهوه، شيخ بني إسرائيل المخيف، يجلس متربعاً على قمة هذا الأولمب العبري. يتربع على قمته كالنار جاعلاً الجبل يتبخر. لا أحد يستطيع لمسه. ولا أحد يستطيع رؤيته وجهاً لوجه. كل من رآه مات. يهوه يعرف بالنار. كان يلتهم كل ما كان العبرانيون يلقون به إلى اللهيب. وفوق كل شيء آخر كان يحب التهام أطفالهم.

حين صعدنا الـ 3100 درجة المؤدية من سفح الجبل إلى قمته مررنا بباب منخفض مقوس محفور في الصخور. في الأزمنة التي كان الناس يخافون فيها لمس القمة كان يجلس هنا من يتلقى اعترافاتهم. كل من يتسلق جبل الرب يجب أن تكون لديه يدان نظيفتان وقلب طاهر. وإلا قتلته القمة.

اليوم يبدو الباب مهجوراً. تستطيع الأيدي الملطخة والقلوب الخاطئة أن تمر دون خوف. فالقمة لم تعد تقتل.

مررنا.

فوقنا كان الكهف الذي رأى فيه النبي أليشاع رؤياه العظيمة. دخل الكهف فأرعد صوت الرب: غداً تذهب وتقف أمام الرب. ستهب عليك ريح قوية عاتية تقتلع الجبال وتحطم الصخور. لكن الرب لن يكون في الريح. وبعد الريح ستأتي هزة أرضية لكن اللّه لن يكون في الهزة. وبعد الهزة نار. لكن الرب لن يكون في النار. وبعد النار نسيم عليل بارد. وهناك يكون الرب.

هكذا تأتي الروح، بعد العاصفة والهزة والنار، نسيماً عليلاً بارداً. وهكذا ستأتي في أيامنا أيضاً. إننا نمر في فترة الهزة. والنار تقترب. وفوراً (متى؟ بعدكم جيل؟) سيهب النسيم العليل البارد.

Twitter: @ketab_n

وفوق هذا الكهف وقف باكوميوس وأشار إلى جرف صخري: هنا وقف موسى يوم حارب العبرانيون العمالقة. وطالما أبقى ذراعه مرفوعة عالياً كان العبرانيون ينتصرون. لكنه حين تعب وأخفضها تحول العبرانيون إلى دهماء. فجاء قسان هما، هرون وحور، وثبتا ذراعي موسى مكانهما إلى أن كان آخر الأعداء قد طردوا بحد السيف.

كانت لهذه الأساطير في روح باكوميوس الساذجة أهمية لا مثيل لها. كان يحدق مدهوشاً بعينين جاحظتين، وكأنه يحكي عن غيلان مقدسة ـ الديناصورات والبهاضم[21] ـ لا تزال تجوب الجبال ويمكن أن يراها كل من كان قلبه طاهراً.

كان الأب أغابيوس النحيل الهزيل يقودنا في الطريق برشاقة الشباب. لم يكن يتكلم بل كان تواقاً إلى الوصول للقمة لانزعاجه من ثرثرة الأب باكوميوس.

حين وضع قدمه على القمة اضطرب قلبي. لم يسبق لعيني أن تمتعتا بمشهد أكثر مأساوية وروعة. تحتنا البتراء العربية بجبالها الأرجوانية العميقة. وعلى مبعدة التخوم الزرقاء لبلاد العرب السعيدة. والبحر الأخضر البراق يتلألأ مثل الفيروز. وإلى الغرب الصحراء التي ينطلق البخار منها تحت الشمس. ووراءها بعيداً في خلفيتها جبال إفريقيا. وفكرت: هل تجد روح الإنسان الواثق أو اليائس سعادتها القصوى.

دخلنا كنيسة صغيرة على القمة. وبدأ باكوميوس يحك الجدران بأظافر يديه باحثاً عن بقايا اللوحات الجصية القديمة. وأشار بلهجة المنتصر إلى الأعمدة البيزنطية الصغيرة للنافذة. ودعاني بفخر لأرى رمزَي الروح القدس: حمامتان بيزنطيتان بمنقارين متصلين. كان يجهد نفسه لاكتشاف الحياة القديمة وإعادة بنائها دون أن يسمح للماضي بالعبور.

هنا على القمة، حيث هبط اللّه مثل لهب متقد، كانت روح المنقب الأثري تزعجني. التفتُّ إلى الراهب وسألته: «كيف تتصور اللّه يا أب باكوميوس؟». ألقى علي نظرة متحيرة. وبعد أن فكر قليلاً، أجاب: «مثل الأب الذي يحب أبناءه». فصرخت: يا للعار! هنا على جبل سيناء تجرؤ على التحدث عن اللّه بهذه الطريقة؟ ألم تقرأ الكتاب المقدس؟ الرب الإله ـ «نار مهلكة».

ـ لم تقول لي ذلك؟

ـ لكي تدعها تحرق هذا كله ـ أعني الماضي. اتبع نار اللّه يا باكوميوس. ولا تجمع الرماد.

وفتح الأب أغابيوس شفتيه وقال: «استمع لنصيحتي وتوقف عن التعامل مع نفسك فوق طبيعة اللّه. لا تلمس النار فتحترق. ولا ترغب في رؤية اللّه فتعمى».

---

(21) البهضم: بهيمة منقرضة من الدرداوات ـ المورد.

Twitter: @ketab_n

وفتح الحقيبة التي كان يحملها على ظهره فأخرج زوجاً من الحمام المقلي وسرطانين بحريين وكمية من الجوز والتمر وحِقّاً خشبياً مليئاً براكي[22] التمر ورغيفاً كبيراً من خبز القمح.

ـ الطعام جاهز!

فجأة أدركنا كم كنا جائعين. مددنا الطعام على نضد صخري في النقطة التي يقال إن آثار قدمي موسى لا تزال ظاهرة فيها. وهو منخفض شبيه بتابوت طفل صغير. وأسلم باكوميوس نفسه للحمام المقلي بشهية منفتحة ناسياً الحمامتين اللتين تتبادلان القبل والحمامات الحجرية. لم يسبق لي أن رأيت إنساناً يشغل عينيه ويديه وأسنانه بهذا الشره. حتى أنه أخذ العظام الصغيرة المتبقية وكومها أمامه وبدأ يمصمصها.

قلت له ضاحكاً: لقد عادت الحمامتان إلى الحياة يا أب باكوميوس. ادخل إلى الكنيسة وسترى أنهما ما عادتا موجودتين.

فقال باكوميوس: ولم تضحك؟ كل شيء ممكن.

وهتف أغابيوس الذي لم يكن يهتم أبداً بشره الآخر: «نعم! ولو أن الروح القدس كان حمامة لأكلته أيضاً!». ثم صلّب وتطلع إلى الصحراء وهو يتنهد.

وسألته: «لم تتنهد يا أب أغابيوس؟»، وقد كنت تواقاً لمعرفة المزيد عن هذا الراهب الصارم الذي تسلق الجبل بهذه الحيوية على الرغم من كبر سنه.

فأجاب: وكيف أستطيع أن لا أتنهد ويداي وقدماي ـ وقلبي ـ مغطاة بالوحل؟ لقد حلت أخيراً الساعة التي يجب أن أقدم نفسي فيها أمام اللّه، ولكن بأي يد وأي قدم وأي وجه؟ يداي ملطختان بالدم وقدماي موحلتان. من سينظفها لي؟

فقال باكوميوس ليريحه: المسيح سيقوم بذلك يا أب أغابيوس. وإلا فلم نزل إلى الأرض؟ يجب أن تقول له: هاهي ذي يداي وقدماي يا مسيحي فاغسلها.

ضحكت. أكان هذا عمل اللّه إذن؟ أن يغسل أقدامنا؟

وانزعج باكوميوس، فسأل: لم تضحك؟

أجبته: بعد إذنك يا أب باكوميوس سأجيبك بأمثولة. ذات يوم كان يعيش ملك في الجزيرة العربية. وكان داهية، يجمع عبيده كل صباح قبل الفجر ولا يسمح لهم أن يبدأوا العمل قبل أن يأمر الشمس بالبزوغ. وذات يوم جاءه حكيم أشيب وقال له: «ألا تعرف أن الشمس لا تنتظر أمرك؟»، «أعرف، أعرف يا أستاذنا العجوز. ولكن قل لي أي نوع من الآلهة لدينا إذا كان لا يستطيع أن يصبح أداة لي؟». أتفهمني يا أب باكوميوس؟

(22) خمر مصنوعة من التمر. وهو يسميها راكي لأن هذا اسم الخمر التركية.

Twitter: @ketab_n

ولكن بينما كنت أتكلم كان باكوميوس قد اكتشف عظمة صغيرة عليها قليل من اللحم فراح يقضمها ولم يجب. التفتُ إلى أغابيوس لكي أغير الموضوع.

ـ كيف صرت راهباً يا أب أغابيوس؟

ـ كيف صرت راهباً؟ لم تكن رغبتي، بل كانت رغبة الله. حين صرت في العشرين من عمري تملكني توق كبير لأن ألبس الرداء. غير أن الشيطان وضع العوائق في طريقي. أيةعوائق؟ ستسألني. حسن. مجرد هذه: كانت أموري تسير بشكل حسن وكنت أكسب مالاً. وماذا يعني كسب المال؟ يعني نسيان الله. كنت متعهداً أبني الجسور والبيوت والطرق وأكسب مالاً وفيراً. وكنت أقول لنفسي دائماً: حالما أخسر أموالي سأذهب لأصبح راهباً. وأشفق اللّه علي. لعبت في البورصة وخسرت كل ما أملك. قلت: الحمد لله. قطعت حبالي ورحلت. أتعرف كيف يقطعون حبال منطاد فيرتفع للسماء؟ هكذا تركت العالم.

احمر وجهه الشاحب. لقد تذكر أنه خلص نفسه من العالم وأحس بالسعادة.

ـ وهكذا جئت إلى هنا. لم تكن لدي فكرة إلى أين سأذهب. لكن اللّه فضله شامل ـ أمسك بيدي وجلبني إلى هنا. جئت، لكنني كنت لا أزال شاباً وجسوراً. لا تنظر إلي الآن. لقد شخت، وذبت، وتيبست كالزبيب. في تلك الأيام كان دمي لا يزال يضطرم في داخلي. لم أكن أستطيع الجلوس بيدين مطوقتين دون أن أفعل شيئاً. لم تكن الصلاة تريحني. فبدأت أعمل. شققت طرقاً. الطرق التي سلكناها كلها من شغلي. وشق الطرق هو العمل المحدد لي هنا. هذا ما خلقت لأجله. وإن ذهبت إلى الجنة فعلى الطريق التي شققتها.

وضحك محاولاً أن يسخر من آماله: بف!! الجنة! أبهذه الطريقة يدخل الإنسان إلى الجنة؟

كان باكوميوس، الذي خدره الإكثار من الأكل، نصف نائم، وهو ملتف ببطانية ثقيلة. سمع كلمات أغابيوس الأخيرة، ففتح عينيه وقال بصوت عذب: ستدخلها يا أغابيوس. ستدخل. لا داعي للقلق. فضحك أغابيوس وقال: أنت لديك كل شيء على ما يرام بالتأكيد. لا خوف على الإطلاق. إنك تمسك فرشاتك وألوانك وترسم الجنة ثم تدخلها. ولكن ماذا أفعل أنا؟ أنا، يا سلام! أن أبني وأبني وأبني من الخارج للخارج. علي أن أشق طريقاً ملائماً يصل إلى بوابات الجنة. وإلا فلن أدخل. كل بما فعل.

والتفت إلي: وماذا عنك؟

ـ أنا؟ أنا فيها الآن. في خاطري أرى الجنة جبلاً عالياً وعلى قمته كنيسة صغيرة وخارج الكنيسة مقعد حجري. وعليه حِقّ من راكي التمر وحمامتان مقليتان وبعض الجوز والتمر. ويرافقني شخصان لطيفان وكلنا نتحدث عن الجنة.

لكن باكوميوس كان يرتعش. شد البطانية على جسمه ونهض. كانت شفتاه قد ازرقتا

Twitter: @ketab_n

فانحنى وأمسك بحق الراكي وشرب ما تبقى فيه: بحِقّ اللّه دعونا نرجع. سنتجمد ونموت هنا.

قال ذلك وبدأ الهبوط.

* * *

في تلك الليلة بدأت أقلب صفحات العهد القديم في حجرتي، وأنا وحيد، محتفظاً بصورة الصحراء في أعماق ذاكرتي. لاشك أن الصحراء خالية إلا من واحد. وهذا الواحد لا يسامح ولا يبتسم ولا يشفق. ليس الألم سيد الصحراء ولا الظمأ أو الجوع أو الإعياء. وليس، كذلك، أي أسد جائع، ولا الموت. اللّه هو السيد.

وبينما أنا أقرأ في العهد القديم وصلت إلى العليقة التي اشتعلت ولم تحترق. وتصورت أنني أعود إلى دخول الوادي الرهيب الذي شقه يهوه بين الجبال لكي يعبره. بدا لي الكتاب المقدس كسلسلة من الجبال المتعددة الذرى حيث نزل الأنبياء المولولون مربوطين بالحبال ومتلفعين بخرق بالية.

وبينما أنا منحن على الكتاب المقدس قافزاً من قمة إلى قمة وأنا أقلب صفحاته تذكرت الفتاة التي حدثتني ذات مرة بشكل مؤثر عن المراهق المتورد «ذي الملامح الجميلة» الذي اختاره اللّه ملكاً رغم معارضة البشر[23].

وملأ النبي الوقور صموئيل، الذي اعترض فدُعك بين يدي الله، قلبي بالأسى. ولكي أخفف من أساي أخذت ورقة وبدأت أكتب. تلك هي وسائل الجبان التي تعودت أن ألجأ إليها للتخفيف من أحزاني:

ـ صموئيل!

كان النبي الوقور بحزامه الجلدي وأسماله المرقعة يحدق إلى المدينة من عل فلم يسمع نداء الله. ووقفت الشمس على علو ذراع فوق الأفق. وكان جيلغال الخاطئ يغمغم من تحت وهو محشور بين صخرتين حمراوين في جبل الكرمل بنخيله الممشوق كالسيوف وتينه البري المثقل بالثمار.

ـ صموئيل!

رنّ صوت اللّه مرة أخرى: لقد شخت يا صموئيل، يا خادمي الأمين. ألا تستطيع أن تسمعني؟

---

(23) في الأساطير اليونانية أن زيوس اختار شاباً جميلاً من البشر وأصعده إلى السماء لكي يكون ساقياً له. وفي القاموس الذي أعددناه ملحقاً لترجمتنا للإلياذة جاء: غانوميديس: ابن تروس الجميل. أرسل زيوس نسراً وخطفه حين كان يرعى قطعان أبيه ليشغله ساقياً عنده، وجعله مخلداً.

Twitter: @ketab_n

وارتعش صموئيل. وتقاطع حاجباه الكثيفان غضباً وارتجفت لحيته الطويلة المشعثة بعنف ورددت أذناه الأصداء كمحارتين. وصهلت اللعنة في أحشائه كمهرة غير مروضة.

«لعنتي»، جأر وهو يمد ذراعه النحيلة فوق المدينة التي كانت تضحك وتغني وتصخب كعش من الدبابير. «لعنتي على كل من يضحك، وعلى الأضحيات العاصية التي تلطخ وجه السماء. وعلى المرأة التي تضرب قبقابها على حجارة الشوارع!» إلهي يا إلهي! هل انطفأت الصواعق في راحتك البرونزية؟ لقد نفخت علتك المقدسة على الجسد النقي لمليكنا فسقط على الأرض يرغي كالبزاق ويفح كسلحفاة. لماذا؟ لماذا؟ ما الذي فعله لك؟ إنني أسألك ـ أجبني، سلط الطاعون، إذن، على البشر كلهم إن كنت عادلاً. واستخرج بذور الرجال من أصلابهم وارشقها على الصخور!

وأرعد الرب للمرة الثالثة: صموئيل! اهدأ يا صموئيل وأصغ إلى صوتي!

بدأ جسد النبي يرتجف. وحين انحنى ليستند إلى الصخرة الملطخة بالدم، حيث تذبح قرابين الله، سمع صرخات اللّه الثلاثة دفعة واحدة. رفع ذراعية عالياً ونادى: أنا هنا يا رب.

ـ صموئيل. املأ إبريقك بالزيت النبوي واذهب إلى بيت لحم.

ـ ولكن بيت لحم بعيدة. وقَرن من ضرب الأرض في خدمتك قد يبّس قدمي. امتط شخصاً آخر يا إلهي. أنا لم أعد أستطيع.

ـ أنا لا أكلم اللحم؟ هذا ما أحتقر وأرفض أن ألمس. أنا أتحدث إلى صموئيل!

ـ تكلم يا إلهي. أنا هنا.

ـ إملأ إبريقك يا صموئيل بزيت النبوة. واذهب إلى بيت لحم. ودون أن تفتح فمك، ودون أن تسمح لأحد بمرافقتك اقرع باب يس.

ـ لم يسبق لي أن ذهبت إلى بيت لحم. فكيف سأعرف باب يس.

ـ لقد علمته ببصمة من الدم. اقرع باب يس. ومن أبنائه السبعة اختر واحداً.

ـ أيهم يا ربي؟ لقد حسر بصري ولا أستطيع أن أرى جيداً.

ـ حين تقابله سيخور قلبك مثل عجل. هذا هو الذي عليك أن تختاره. افرق شعره حتى ترى قمة رأسه وادهنه لتتوجه ملكاً على إسرائيل. لقد تكلمت!

ـ لكن شاؤول سيعرف. وخلال عودتي سينصب لي فخاً ويقتلني.

ـ وماذا يهمني؟ إنني لا أقيم وزناً لحياة خدمي. اذهب.

ـ لا. أنا أرفض.

ـ امسح العرق عن وجهك يا صموئيل. وتحكم بفكيك فلا يصطكان. ثم كلمني أنا ربك. إنك تتأتئ يا صموئيل! تكلم بوضوح.

ـ إنني لا أتأتئ. قلت إنني أرفض أن أذهب.

Twitter: @ketab_n

ـ تكلم بنعومة وهدوء! إنك تزعق وكأنك خائف. لم ترفض أن تذهب؟ إنني واثق من أن صموئيل سوف يتلطف بإجابتي. هل أنت خائف؟

ـ لا. لست خائفاً. الحب يمنعني من الذهاب. فأنا الذي جعلت شاؤول ملكاً على إسرائيل. لقد أحببته أكثر من أولادي. ولقد نفخت روحي بين شفتيه الشاحبتين. إنها روح النبوة، روحي، التي جعلته شهيراً. إنه جسدي وروحي، لن أخونه.

ـ لم تصمت؟ هل فرغ قلب صموئيل بهذه السرعة؟

ـ يارب. إنك القادر على كل شيء. لا تلعب بي. اقتلني. لا خيار لك. اقتلني!

امتلأت عينا صموئيل بالدم. فتمسك بالصخرة وراح ينتظر.

وزأر قلبه مرة أخرى: اقتلني! اقتلني!

ـ «يا صموئيل». صار صوت الرب حنوناً الآن. كان يبدو وكأنه يستعطفه. لكن النبي العجوز ازداد عنفاً وضراوة.

ـ اقتلني. اقتلني! لا خيار لك!

لا جواب. عبرت الظهيرة وتحدرت الشمس. وظهر ولد داكن حافي القدمين. صعد الطريق واقترب من النبي مرعوباً وكأنه يقترب من حافة هاوية.

وضع وجبة النبي المؤلفة من التمر والعسل والخبز وجرة من الماء في ظل صخرة، ثم انصرف مسرعاً بأنفاس لاهثة. ونزل إلى المدينة وغاب في كوخ أهله المتواضع. وانحنت أمه عليه وهي تعانقه وسألته بصوت مرتجف: ألا يزال؟ ألا يزال؟

فأجاب الولد: لا يزال. لا يزال يتصارع مع الرب.

غابت الشمس وراء الجبل. وظهرت نجمة المساء معلقة فوق المدينة الخاطئة كبذرة من نار. رأتها امرأة شاحبة من وراء حصيرة(24) النافذة فصرخت: ستسقط الآن وتحرق العالم!!!

وراحت النجوم تعوم متلاعبة متوهجة فوق جدائل النبي الطويلة وهي تدور مذعنة على عجلات غير مرئية. وبينما كان يقف في وسطها مرتعداً اندفعت في شعره واصطدمت بصدغيه مثل حبات ضخمة من البرد.

وهمس مخاطباً: «يارب.. يارب». ولم يستطع أن ينطق بشيء أكثر من ذلك.

أخذ الجرة وملأها بالزيت النبوي. وأمسك بعكازه ذي العقد، وبدأ نزوله.

كانت لقدميه أجنحة نامية، وكانت قطرات الندى تتلامع على لحيته البيضاء كالنجوم. كان طفلان يلعبان عند عتبة أول بيت انطلقا هاربين منذ أن لمحا أسمال النبي المرقعة وعمامته الخضراء. وبدأ الصراخ: إنه قادم. إنه قادم.

(24) حصيرة تسمح للنور والهواء بالدخول، وترد أذى الشمس والمطر.

Twitter: @ketab_n

وقبعت الكلاب في الزوايا وأذنابها بين سيقانها. و خارت عِجْلة وهي تمد رقبتها على الأرض. وهبت دفعة من الريح القوية فعبرت المدينة من طرفها الأول إلى طرفها الأخير. أوصدت الأبواب، ودعت الأمهات أطفالهن، وأدخلنهم من الشوارع. وراح صموئيل، وهو يدق عكازه على الحجارة، يتقدم بخطوات واسعة ليعبر وهو يتمتم: أحس كأن حرباً معلقة فوق رؤوس البشر، كأنه الطاعون أو الله.

وظهر في الطريق راعيان يحمل كل منهما عصاً طويلة. وحالما رأيا النبي انبطحا على الأرض. «مرني أن أحطم جمجمتيهما يا رب. كلم قلبي! أنا مستعد». لكن لم يأت أي صوت يهدئ باله. فعبرهما وهو يتلفظ بلعناته الثقيلة على بذور الإنسان. كانت الشمس حامية والغبار يثور من تحت قدميه ويلتف حوله مثل غيمة. وأحس بظمأ مفاجئ فهتف: «يا رب أعطني ما أشربه». «اشرب». أجابه صوت لطيف إلى جواره، صوت مثل سقسقة المياه. التفت فرأى ماء يقطر من شق في صخرة ويتجمع في تجويف فيها. انحنى وأبعد شاربيه ووضع فمه على الماء. فسرت البرودة حتى كعبيه وطقطقت عظامه العتيقة.

استأنف سيره. وغابت الشمس فارتاح على جذع نخلة واضعاً كفه اليمنى تحت خده وراح في نوم عميق. وتجمعت حوله الثعالب. ولكن حين شمت رائحته ولت مذعورة. وتعلقت النجوم فوقه كالسيوف. واستيقظ في الفجر فانطلق من جديد. وفي اليوم الثالث ظهر السهل من ممر في الجبال، ونهر الأردن يلتمع في مجراه مثل ثعبان ممدد بطيء الحركة. مرت ثلاثة أيام. وعندئذ بغتة لمعت بيوت بيت لحم بيضاء ناصعة من وراء أشجار النخيل.

مرّ رفّ حمام فوق رأس النبي، وتردد لحظة ثم اندفع مذعوراً نحو المدينة.

عند البوابة الكبيرة الشمالية، الملفعة بروائح القطعان النتنة، وقربها العميان والمجذومون يتسولون الخبز، كان العجائز يقفون بانتظار النبي. وهمهموا فيما بينهم مرتعدين: سيحل الجذام في قريتنا! فاللّه لا ينزل إلى الأرض إلا لكي يدمر مخلوقاته.

تماسك أكبرهم عمراً وخطا إلى الأمام خطوة واحدة. وقال: أنا سأتحدث إليه.

وصل النبي مع غيمة الغبار وأسماله ترفرف مثل راية حرب ممزقة.

ـ ما الذي جلبته لنا؟ سلاماً أم مذبحة؟

أجاب النبي وهو يمد يديه: السلام! اذهبوا إلى بيوتكم وأخلوا الشوارع. أريد أن اعبرها بمفردي.

أخليت الشوارع وأوصدت الأبواب. تحرى صموئيل الأبواب كلها بدقة بتمرير أصابعه عليها وهو يدخل القرية. وعلى طرف القرية وعند آخر بيت فيها اكتشف بصمة الدم. قرع الباب فاهتز البيت كله. ونهض يس العجوز مرعوباً ليفتح الباب.

Twitter: @ketab_n

ـ السلام على بيتك يا يس. والصحة لأبنائك السبعة. ولتحمل كنائنك بغلمان. معك الله.

أجاب يس: «فلتتحقق مشيئته». وراحت فكه السفلية ترتعش.

وظهر رجل يملأ الباب. التفت صموئيل، وحين رآه انفرجت أساريره. كان الرجل عملاقاً ذا شعر أسود مجعد وصدر واسع مشعر وفخذين قويين كعمودين من البرونز. قال يس بفخر: «هذا ابني إلياب». لم يقل صموئيل شيئاً. كان ينتظر من قلبه أن يجأر. لابد أن هذا هو. قال لنفسه. «لابد أن هذا هو. لم لا تتكلم يا رب؟». انتظر طويلاً ولكن بغتة تفجر الصوت الرهيب في داخله: لم هذه الثرثرة؟ روحك قد مالت إليه. أليس كذلك؟ طيب. ولكني لا أريده. لا أريده. أنا أفحص القلب وأغوص في الصلب وأزين نقي العظام. لا أريده.

وأمر صموئيل: «اجلب ابنك الثاني». وشحبت شفتاه.

جاء الابن الثاني. لكن قلب النبي ظل صامتاً. وظلت أعماقه ساكنة. «أليس هو؟»، «ليس هو». راح يخور وهو يرفض الأبناء الستة واحداً بعد الآخر وهو يثبت عينيه على جباههم وحواجبهم وأفواههم متفحصاً ظهورهم وركبهم وجذوعهم وأسنانهم كما لو أنهم حملان. و تكوم منهكا على العتبة وصرخ متألما: لقد خدعتني يا رب. إنك ماكر دائماً. ودائماً لا ترحم. إنك لا تشفق على البشر. اظهر. أنا صموئيل أناديك. لم لا تتكلم؟

واضطرب يس وجاء إليه. قال: لا يزال هناك داود أصغرهم. إنه يرعى الغنم.

ـ استدعه.

وقال الأب: إلياب. اذهب وادع أخاك.

قطب إلياب حاجبيه فخاطب الأب ابنه الثاني: أبيناداب. اذهب واستدع أخاك.

لكن هذا رفض أيضاً. ورفضوا كلهم.

نهض صموئيل عن العتبة: «افتح الباب. أنا سأذهب بنفسي». وسأل العجوز: أأصف لك شكله لكي تستطيع التعرف عليه؟

ـ لا. سأتعرف عليه أكثر من أبيه وأمه.

وفيما هو يتعثر على الحجارة بدأ يصب لعناته وهو يصعد الهضبة صارخاً: «لا أريد. لا أريد». بينما راح يتقدم صعداً.

وفي اللحظة التي لمح فيها شاباً واقفاً بين غنمه، شاباً ذا شعر أحمر متوهج يشع كالشمس المشرقة توقف، وخار مثل عجل. ناداه بلهجة آمرة: تعال إلي يا داود!

فأجاب داود: بل تعال إلي أنت. أنا لا أترك غنمي.

وزأر صموئيل، وهو يتقدم مليئاً بالنقمة: إنه هو! هو!

Twitter: @ketab_n

اقترب منه وأمسك بكتفه وغاص بأصابعه في ظهره وفحص ساقه ثم عاد إلى الرأس.

وأبعد الصبي رأسه غاضباً: من أنت؟ وماذا تعني بفحصك لي؟

ـ أنا صموئيل خادم الرب. لقد أمرني أن أذهب فذهبت. وأمرني أن أصرخ فصرخت. أنا قدمه وفمه ويده وظله على الأرض. انحنِ.

ويتلمس قمة رأس الصبي سكب الزيت المقدس.

ـ إنني أكرهك. لا أريدك. أنا أحب شخصاً آخر. لكن رياح الرب تمر من فوقي وهي ضد إرادتي. أنا أرفع يدي وأسكب الزيت النبوي على قحفك. داود ملك إسرائيل المدهون! داود ملك إسرائيل المدهون! وضرب القارورة المقدسة على الحجارة فحطمها: «لقد حطمت قلبي بالطريقة ذاتها يا رب. لم أعد راغباً في العيش».

وانطلقت سبعة غربان من أعماق السماء، وتحلقت في دائرة فوقه وراحت تنتظر. فك النبي عمامته الخضراء ونشرها على الأرض مثل الكفن. اقتربت الغربان أكثر وتشجعت. غطى النبي وجهه بأسماله المرقعة ولم يتحرك بعد ذلك[25].

بهذه الرؤيا عن الرجل الذي يحاول، عبثاً، أن يعارض اللّه حملني النوم بعيداً، وأسلمت نفسي دون مقاومة للأيدي اللامرئية. وبهذا مر الليل، الذي كنت أخافه كثيراً، بسعادة ومن دون أحلام.

---

(25) وردت القصة في التوراة (صموئيل الأول، الإصحاح السادس عشر) كما يلي (ونحن نوردها هنا لكي يتمكن القارئ من معرفة الطريقة التي يعيد بها كازانتزاكيس صياغة القصص التراثية): «فقال الرب لصموئيل: حتى متى تنوح على شاول، وأنا قد رفضته من أن يملك على إسرائيل. إملأ قرنك دهناً وتعال أرسلك إلى يس البيتلحمي (نسبة إلى بيت لحم) لأني قد رأيت لي فيه ملكاً. فقال صموئيل: كيف أذهب؟ إن سمع شاول يقتلني. فقال الرب: خذ بيدك عجلة من البقر وقل قد جئت لأذبح للرب. وادع يس إلى الذبيحة. وأنا أعلمك ماذا تصنع. وامسح لي الذي أقول لك عنه. ففعل صموئيل كما تكلم الرب وجاء إلى بيت لحم. فارتعد شيوخ المدينة عند استقباله وقالوا: أسلام مجيئك؟ فقال: سلام. قد جئت لأذبح للرب. تقدموا. وتعالوا معي إلى الذبيحة. وقدس يس وبنيه ودعاهم إلى الذبيحة. وكان لما جاؤوا أنه رأى إلياب. فقال إن أمام الرب مسيحه. فقال الرب لصموئيل: لا تنظر إلى منظره وطول قامته لأني قد رفضته. لأنه ليس كما ينظر الإنسان. لأن الإنسان ينظر إلى العينين. وأما الرب فإنه ينظر إلى القلب. فدعا يس أبيناداب وعبره أمام صموئيل. فقال: وهذا أيضاً لم يختره الرب. وعبر يس شمة. فقال: وهذا أيضاً لم يختره الرب. وعبر يس بنيه السبعة أمام صموئيل. فقال صموئيل ليس: الرب لم يختر هؤلاء. وقال صموئيل لِيس: هل كملوا الغلمان؟ فقال بقي بعد الصغير وهو ذا يرعى الغنم. فقال صموئيل لِيس: أرسل وأت به لأننا لا نجلس حتى يأتي إلى ههنا. فأرسل وأتى به. وكان أشقر مع حلاوة العينين وحسن المنظر. فقال الرب: قم امسحه لأن هذا هو. فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه في وسط أخوته. وحل روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعداً».

Twitter: @ketab_n

نزلت إلى الباحة فجراً وأنا مرتاح جداً. وكان الرهبان يتنقلون كالأشباح في العتمة. ثم اختفوا واحداً إثر الآخر في الكنيسة. دخلت معهم لأسمع صلاة الصبح، وأنا جالس في أحد المقاعد. كان هناك مشعلان يحترقان أمام الفاصل الأيقوني ـ ولم يكن هناك ضوء آخر ـ لكنني استطعت أن أتبين شكل المسيح الصارم في العتمة وإلى جانبه الوجه الحنون والحزين للعذراء المقدسة. وكان الهواء عابقاً بروائح الشمع والبخور.

وفكرت لنفسي: أية سعادة هنا وأية عزلة! وكم هو بعيد العالم المضطرب الصاخب! فلم الهرب من تحت جناح المسيح ـ وإلى أين؟ ولم الغرق في اهتمامات أقل ومتع أصغر؟ المحارة هنا، وفيها الجوهرة الكبيرة. سأسيطر على جسدي وعلى روحي، وسأشذب الأغصان الصغيرة كلها التي تخفف من قوة التاج، لن أبقي إلا على التاج. وسوف أنهض. أمامي مكافح عظيم سأتبعه. إنه يكابد صعوداً شاقاً سأتسلقه معه.

ظللت أحدق إلى شكل المسيح القوي الزاهد في ضوء المشعلين اللطيف، متفحصاً اليدين الرشيقتين اللتين تقبضان بقوة على العالم وتمنعانه من السقوط في العدم. لقد عرفت أن المسيح، هنا على الأرض وطوال حياتنا الكاملة، لم يكن المرفأ الذي يلقي فيه المرء بمرساته، بل ولا المرفأ الذي ينطلق المرء منه راحلاً ليكسب وسط البحر، وليجابه بحراً عنيفاً عاصفاً، ثم يكافح طوال العمر لكي يرسو في الله. المسيح ليس النهاية أو الغاية. إنه البدء. وهو ليس «الترحيب»، welcome، بل هو الوداع! Bon voyage. وهو لا يسترخي وسط الغيوم الناعمة، بل هو الذي تضربه الأمواج، مثلما تضربنا، وعيناه مثبتتان على نجمة الشمال North star، ويداه مثبتتان على الدفة. لهذا أحببته. ولهذا سأتبعه.

كان ما جذبني وشجعني، فوق كل شيء آخر، هو بأي كفاح وبأية جرأة بطولية، انطلق الشخص الذي اكتشف نفسه في المسيح لكي يصل إلى الله ويندمج فيه بحيث يصبح الاثنان واحداً لا يقبل الانفصام. لا طريقة للوصول إلى الله إلا هذه. باتباع آثار المسيح الدموية علينا أن نناضل لتحويل الإنسان فينا إلى روح، بحيث يمكن لنا أن نتحد بالله.

لقد كانت الطبيعة المزدوجة للمسيح، دائماً، لغزًا عميقاً مبهماً بالنسبة لي، وخاصة توق المسيح، الإنسان، هذا التوق البشري والإلهي، للوصول إلى الله، أو بدقة أكبر للعودة إلى الله والتطابق معه. هذه النوستالجيا(26)، التي هي روحية جداً وواقعية جداً، فتحت فيّ جروحاً عميقة. لكنها أيضاً فجرت فيّ ينابيع إضافية.

بدءاً من شبابي كان ألمي الرئيسي ومنبع أفراحي وأحزاني كلها، مستمداً من المعركة الدائمة الوحشية بين الروح واللحم. في داخلي كانت القوى المظلمة الممعنة في القدم للشخص الشرير: البشري وما قبل البشري. وفي داخلي أيضاً كانت القوى المضيئة، البشرية،

(26) التوق المتوقد لما لا يمكن الوصول إليه أو استعادته.

Twitter: @ketab_n

وما قبل البشرية، لله ـ وكانت روحي هي الحلبة التي يلتقي فيها هذان الجيشان ويشتبكان.

كان الألم ممضاً. كنت أحب جسدي ولم أكن أريد له أن يفنى. وكنت أحب روحي. ولا أريد لها أن تتعفن. ورحت أجاهد لكي أصالح معاً هاتين القوتين المتنازعتين والخالقتين للعالم، وأجعلهما تدركان

أنهما ليستا عدوين. بل هما زميلتا علم لكي تستمتعا بانسجامهما ـ وأستمتع أنا أيضا معهما.

كل إنسان نصف إله ونصف إنسان. إنه روح ولحم معاً. لهذا لا يعتبر لغز المسيح لغزاً لمذهب معين بل هو شمولي وعام. يتفجر الصراع بين اللّه والإنسان داخل كل شخص مصحوباً بالرغبة في الصلح. وكثيراً ما يكون هذا الصراع قصير الأمد في اللاوعي. والروح الضعيفة ليس لديها القدرة على احتمال مقاومة اللحم طويلاً. إنه يصبح ثقيلاً ويصبح هو ذاته لحماً. فينتهي النضال. لكن بين الناس المسؤولين، الذين تظل عيونهم مثبتة ليلاً ونهاراً على الواجب الأسمى، يتفجر بين اللحم والروح صراع لا مكان لرحمة فيه وقد يستمر حتى الموت.

وكلما ازدادت قوة الروح واللحم، ازداد الصراع غنى في نتائجه وازداد غنى الانسجام النهائي. اللّه لا يحب الأرواح العنيفة واللحم الرخو. إن الروح ترغب في الصراع مع لحم قوي ومليء بالمقاومة، فهي طائر لاحم جائع أبداً، يأكل اللحم وبتمثله يخفيه.

الكفاح والصراع بين اللحم والروح، العصيان والمقاومة، المصالحة والخضوع، وأخيراً ـ الهدف الأسمى للصراع ـ الاتحاد بالله، هذا هو الصعود الذي التزم به المسيح، الصعود الذي يدعونا للالتزام به أيضاً متتبعين آثاره (آثار المسيح) الدامية.

هذا هو الواجب الأسمى للإنسان الذي يكافح، أن ينطلق باتجاه القمة الشاهقة التي وصل إليها المسيح، الابن الأول للخلاص. فكيف نبدأ؟

إذا كان علينا أن نقوى على اللحاق به يجب أن نحصل على معرفة عميقة بصراعه (المسيح). يجب أن نعيش ألمه من جديد، انتصاره على المكائد الفاتنة في الأرض، وتضحيته بمتع البشر الصغيرة والكبيرة، وصعوده من تضحية إلى تضحية، ومن مأثرة إلى مأثرة.. حتى الوصول إلى قمة الشهادة: الصليب.

لم يسبق لي أن تتبعت رحلة المسيح الدامية إلى الجلجلة بهذه الحدة. ولم أعش من جديد حياته وعواطفه بهذا الفهم والحب. مثلما حدث لي خلال أيامي ولياليّ في القدس والجليل والبحر الميت. ولم يسبق لي أن أحسست، بهذا القدر من الحلاوة وبهذا القدر من الألم، بدم المسيح يتساقط قطرة فقطرة في قلبي.

ذلك أنه من أجل الصعود إلى الصليب، قمة التضحية، وإلى الله، قمة اللامادية، مر

Twitter: @ketab_n

المسيح بكل المراحل التي يمر بها الإنسان المكافح. كلها ـ ولهذا تكون معاناته أليفة لنا. لهذا نشفق عليه. ولهذا يبدو لنا انتصاره النهائي انتصارنا الخاص بنا الذي سنحققه في المستقبل. هذا الجانب من طبيعة المسيح الذي كان بشرياً بشكل عميق يساعدنا في فهمه وحبه ومتابعة معاناته وكأنها معاناتنا. فلو لم يكن لديه، في داخله، هذا العنصر البشري الحار لما استطاع أن يلمس قلوبنا بهذا اليقين وهذا اللطف، ولما استطاع أن يصبح نموذجاً لحياتنا. إننا نكافح، ونراه يكافح أيضاً، فنستمد منه القوة. نرى أننا لسنا وحدنا في العالم. إنه يناضل إلى جانبنا.

كل لحظة عند المسيح هي صراع وانتصار. لقد تغلب على الفتنة اللامرئية في المتع البشرية البسيطة. تغلب على الغواية. وكان، باستمرار، يحول اللحم إلى روح ويصعد. وصار كل عائق في رحلته فرصة لتحقيق انتصار آخر. ثم علامة على هذا النصر. لدينا أمامنا نموذج، نموذج يشق لنا الطريق ويمنحنا القوة.

ما يهب عبر السماء والأرض، في قلوبنا وقلب كل شيء حي، هو نفَسٌ عات ـ صرخة عظيمة ـ نسميه الله. كانت حياة النبات تتمنى أن تستمر في نومها الساكن قرب المياه الراكدة، لكن الصرخة انبعثت فيها وهزت جذورها بعنف: «بعيداً! انخلعي من الأرض، سيري!». ولو كانت الشجرة قادرة على أن تفكر وتحكم لصرخت: «لا أريد! ما الذي تدفعينني للقيام به؟ إنك تطلبين المستحيل!». لكن الصرخة لا ترحم. فتتابع هز الجذور والصراخ: «بعيدًا! انخلعي من الأرض! امشي!».

ظلت تصرخ بهذه الطريقة آلاف الدهور. وفي النهاية، نتيجة للرغبة والكفاح، هربت الحياة من الشجرة الساكنة. وتحررت. ظهرت الحيوانات ـ الديدان ـ لتعيش على راحتها في المياه والوحول. وقالت: «نحن هنا على ما يرام. لدينا السلام والأمان، لن نتزحزح من هنا».

لكن الصرخة الرهيبة انهمرت بين أصلابها دون شفقة: «غادري الوحل. قفي. لدي ما هو أفضل منك».

ـ لا نريد! لا نستطيع.

ـ أنت لا تستطيعين. أما أنا فأستطيع. قفي!

وبعد آلاف الدهور ظهر الإنسان يرتجف في وقفته على رجليه الليتين.

الإنسان قنطور، حوافره الخيلية[27] مزروعة في الأرض. لكن في جسده من الصدر حتى الرأس تشتغل الصرخة العديمة الشفقة وتعذبه. لقد كافح مرة أخرى طوال آلاف الدهور لكي

(27) نسبة إلى الخيول.

Twitter: @ketab_n

يسحب نفسه، كالسيف، من غمده الحيواني. وهو يكافح أيضا ـ وهذا كفاحه الجديد ـ لكي يمتشق نفسه من غمده البشري. وينادي يائساً: «إلى أين أستطيع أن أذهب؟ لقد وصلت إلى الذروة، وما بعدها فالهاوية». وتجيبه الصرخة: «أنا بعدها. قف!». كل شيء قنطور، ولو لم تكن الحالة هكذا لتعفن العالم في الخمول والعقم.

وفيما أنا امشي ساعة بعد ساعة في الصحراء المحيطة بالدير، بدأ اللّه يحرر نفسه تدريجياً من القسس. ومنذئذ صار اللّه بالنسبة لي هو هذه الصرخة. ومع مرور الأيام في هذه العزلة الإلهية هدأ قلبي. وبدا أنه يمتلئ بالأجوبة. لم أعد أطرح أسئلة. صرت متيقناً ـ من أين جئنا؟ وإلى أين نذهب؟ وما الغاية من وجودنا على الأرض؟ ـ وبالتدريج تعود قلبي على الإيقاع الإلهي. صلوات الصبح، القربان المقدس، صلوات المساء، المزامير، شروق الشمس صباحاً، وغروبها مساء، مجموعات النجوم المعلقة كل ليلة مثل ثريات فوق الدير. كل شيء كان يأتي ويروح مطيعاً قوانين خالدة ليسحب دم الإنسان إلى الإيقاع الهادئ ذاته. صرت أرى العالم مثل شجرة، صورة هائلة. وأنا مثل ورقة خضراء معلقة على غصن سويقة نحيلة. وحين كانت ريح اللّه تهب كنت أخفق وأتراقص مع الشجرة كلها.

ظللت أتحدث إلى روحي، وأسألها بألم: هل تؤمنين؟ أأنت على استعداد لبذل وجودك كله؟ أأنت مستعدة؟

ما كنت أريده هو التوافق مع النظام القاسي، الانخراط في جيش انطلق لتحقيق الأمل الأسمى، والصعود بدوري إلى السفينة ذات (البرج المسيحي) جنباً إلى جنب مع أبطالها القانعين المعوزين الأطهار ـ ولسوف نرفع الشراع الأحمر. ولسوف تتبرعم كرمة القربان المقدسة من الصاري. ولسوف نطوف البحار كالقراصنة لكي نختطف جزة الخلود الذهبية عن كتفي الله. ما كنت أريده هو الانتصار، بدوري، على التفاهة والمتعة والموت.

كنت أجوب الصحراء كل يوم عدة ساعات مدركاً أن قراراً خفياً كان ينضج في داخلي ببطء، قراراً لم يجرؤ بعد على إعلان اسمه. وفي الأماسي بعد عودتي كنت أجد الرهبان خارج حجراتهم. لقد هدأ قيظ النهار فراحوا يستنشقون برودة الليل القادم.

العزلة ضرورية لأية روح تفشل في أن تحترق بعاطفة عظيمة. فإن لم يستطع راهب، في عزلته، أن يحب اللّه حتى الجنون فهو هالك. لقد تشوشت عقول العديد من الرهبان. هؤلاء الأخوة ليس لديهم ما يفكرون فيه أو ما يرغبون به. يغمضون أعينهم نصف إغماضة ويجلسون صفاً واحداً في الباحة وينتظرون الساعة التي سيدخلون فيها إلى الكنيسة ثم قاعة الطعام فحجراتهم ـ وهذا كل شيء. لقد غامت ذاكرتهم وتساقطت أسنانهم وجاءهم وجع الظهر. لم يعودوا بشراً. لكنهم ليسوا حيوانات أيضاً. كما أنهم ليسوا ملائكة. ليسوا ذكوراً ولا إناثاً. ليسوا أحياء ولا أمواتاً. يمدون أذرعهم في غيبوبتهم وينتظرون الموت تماماً كما تنتظر البذور مجيء الربيع.

Twitter: @ketab_n

أحدهم كان يظل يتذكر زوجته ويبصق بلا توقف. وكان لدى الآخر دفتر ملاحظات ورزمة من الأقلام تحت قميصه. وبين حين وآخر يخرجها وينهمك في رسم الصورة ذاتها ـ مسيح ذو نهدين يُرضع أمه. وراهب ثالث عند يقظته في كل صباح ينزل إلى الباحة ليغتسل في النبع ويدلل نفسه كالمهووس ليزيل الدنس الذي خلفته الأحلام التي جاءته في الليل. ويجلس دائماً في المكان ذاته من الباحة وكتاب مغلق على ركبتيه. ذلك هو الراهب الغريب الذي دخل إلى مقر الرئيس مع مسؤول الضيافة في اليوم الأول. لم يكن يتكلم مع أحد أبداً. وكلما دخل الباحة رفع عينيه ورآني، تفتر شفتاه عن ابتسامة لطيفة أحياناً ـ هذا ما كان يبدو لي ـ وابتسامة ساخرة أحياناً أخرى. وفي مناسبات عديدة، حين كنت أمر من أمامه يتهيأ للنهوض وتراه على وشك أن يتحدث إلي. لكنه، دائماً، يعود إلى الجلوس والابتسامة تتقلص على شفتيه.

استمتعت بهذه العزلة المقدسة سبعة أيام. وفي اليوم السابع جاء إلى حجرتي مسؤول الضيافة مرحاً كعادته: أرسلني الأب المقدس لأسألك أين تقف روحك؟ ما هو القرار الذي توصلت إليه؟

أجبته: أقبل يديه. أفضل أن أعترف قبل أن أجيبه.

توقف مسؤول الضيافة للحظة. وأخيراً سألني: أتحب أن تبقى معنا؟

ـ أحب أن أبقى مع الله. وهنا في الصحراء أحسه أقرب إلي منه في أي مكان آخر. ولكنني أخشى أن الجذور التي تربطني بالعالم لم تقتلع كلها بعد. سأعترف للأب وهو الذي سيقرر.

ـ كن حذراً. الأب المقدس يتوقع الكثير من الناس.

ـ وأنا أتوقع الكثير من نفسي يا أبي. ولهذا أظل متردداً.

وتوقف في اللحظة التي فتح فيها الباب ليخرج.

ـ حملني الأب جواكيم رسالة. إنه يود لو يراك.

ـ الأب جواكيم؟

ـ العجوز الذي جاء معي إلى قاعة الاستقبال للترحيب بك.

سررت. أخيراً سأعرف ماهية هذا الراهب الصامت الغريب.

سألته: متى؟

ـ يقول: الليلة في حجرته.

ـ جميل. قل له إنني سأكون هناك.

ـ لقد اعتاد أن يكون في مركز مرموق. إنه لا يختلط بأحد. ولا يتحدث إلا مع الله. لقد عرف اسمك. وهو يريد أن يراك. كلِّمه باحترام.

Twitter: @ketab_n

بهذه الكلمات كان قد اجتاز العتبة دون أن ينتظر جوابي.

تأخرت حتى هبط الليل وغط الرهبان في نومهم. وانطفأت الأضواء في الحجرات واحداً بعد آخر. مشيت على رؤوس أصابعي في الممر الطويل حتى وصلت إلى حجرة الأب جواكيم. توقفت لألتقط أنفاسي إذ كنت قد بدأت ألهث وكأنني كنت أركض. كانت الحجرة مضاءة. وضعت أذني على الباب وأصغيت باهتمام. صمت. وفي الوقت الذي رفعت فيه يدي لأقرع الباب فتح باب الحجرة وظهر الأب جواكيم. كان حاسر الرأس وشعره الأبيض منسدل على كتفيه. كان يلف حبلاً معقداً كثيفاً حول خصره. كما كان حافياً. قال: أهلاً وسهلاً. آمل أن أحداً لم يرك. ادخل.

الجدران عارية. وفي الزاوية فراش ضيق من القش مدعوم بزوج من الهياكل السريرية المعدنية. كرسيان وطاولة صغيرة وجرة في كوة في الجدار.

مجلد ضخم على الطاولة، واضح أنه الأناجيل، وصليب خشبي كبير على الجدار المقابل وليس عليه صورة المسيح المصلوب، بل صورة المسيح في قيامته. ومن العوارض تتدلى صفوف من التفاح مربوطة معاً كالسبحات. الحجرة كلها عابقة بروائح الفاكهة المتعفنة.

مد الأب جواكيم ذراعيه، وكانت الغرفة ضيقة إلى درجه كاد معها أن يلمس الجدران وقال وهو يبتسم: هذه هي شرنقتي. إنني أحبس نفسي فيها مثل اليرقة. وأنتظر اليوم الذي سوف أخرج فيه فراشة.

هز رأسه واستطعت أن أراه يعض شفتيه الرقيقتين والمشققتين وهو يقف قرب المصباح الذي كان يضيء وجهه الطويل الذابل. وصار صمته الآن مليئاً بالمرارة والسخرية: ما الذي تتوقع أن تحلم به يرقة أكثر من ذلك؟ أجنحة!.

وصمت. التفت يتطلع إلي. تلاشت السخرية وصارت نظرته نظرة إنسان يطلب العون: ما رأيك؟ لماذا تحلم اليرقة بالأجنحة؟ أهي براءتها الساذجة؟ أم صلفها؟ أم أنه من الممكن أن كتفيها تحسان بوخز الأجنحة التي تهيئها؟

قام بحركة سريعة من ذراعه وكأن في كفه إسفنجة ينظف بها شيئاً ما. وهتف: حتى هنا وليس أبعد من ذلك. لقد وصلنا إلى الأعماق بسرعة كبيرة. وهذا يكفي! خذ كرسياً واجلس. لقد دعوتك لأخبرك بشيء آخر. حسن. اجلس. لا تهتم بي. أنا لا أستطيع الجلوس. وضحك ثم قال: أتعرف أن هناك بدعة تقول: على أقدامك دائماً. لقد التزمت بهذه البدعة منذ سنوات، منذ أيام طفولتي.

ـ أما أنا يا أبانا فأنتمي إلى بدعة أخرى: قلق دائماً. إنني أصارع منذ أيام طفولتي.

ـ ومع من تتصارع؟

Twitter: @ketab_n

ترددت. بغتة تملكني الرعب. فكرر الراهب سؤاله: «مع من؟». ثم انحنى علي وخفض صوته: «مع الله؟».

ـ نعم.

وثبت العجوز عينيه علي دون أن يتكلم.

ـ أيمكن أن يكون هذا مرَضاً يا أبانا؟ وكيف أشفى منه؟

ـ أرجو أن لا تشفى.

ورفع يديه وكأنه يريد أن يباركني ـ أو يلعنني.

ـ أمر مؤسف أن تضطر إلى الصراع مع ند لك أو مع من هو أقل منك، ولكن بما أنك تتصارع مع الله فالمؤسف أن تشفى من هذا المرض.

وصمت للحظة ثم تابع: تأتي الغوايات إلينا كثيراً هنا في الصحراء. ذات يوم جاءتني غواية غريبة في نومي. رأيت نفسي حكيماً عظيماً في القدس.

استطعت أن أشفي من أمراض عديدة مختلفة. لكنني قبل كل شيء استطعت أن أخرج الشياطين من الممسوسين. صار الناس يجلبون إلي المرضى من أنحاء فلسطين كافة. وذات يوم وصلت مريم، زوجة يوسف، من الناصرة ومعها ابنها يسوع البالغ من العمر اثني عشر عاماً. وقعت على قدمي وصرخت باكية: أيها الحكيم الشهير اشفق عليّ واشف ابني. في داخله العديد من الشياطين.

طلبت من الأبوين أن يخرجا وظللت وحيداً مع يسوع. ربتُّ على كتفيه وسألته: «ما الأمر يا بني؟ أين تشكو الألم؟». فأجاب وهو يشير إلى قلبه: هنا. هنا.

ـ وماذا أصابك؟

ـ لا أستطيع النوم أو الأكل أو العمل. إنني أجوب الشوارع وأنا أتصارع.

ـ ومع من تتصارع؟

ـ مع الله. مع من غيره تتوقع مني أن أتصارع؟

أبقيته قربي شهراً. كلمته بلطف دائم. وأعطيته أعشاباً تنومه. وضعته في حانوت نجار لكي يتعلم صنعة. وكنا نخرج لنتمشى معاً. فأكلمه عن الله وكأن الله صديق أو جار يأتي إلينا في المساء ويجلس معنا على عتبة بيتنا لنتحدث. لم يكن هناك شيء صعب أو مؤثر في أحاديثنا. كنا نتحدث عن الطقس وحقول القمح وكروم العنب والفتيات اللواتي يذهبن إلى النبع. وفي نهاية الشهر شفي يسوع تماماً. لم يعد يتصارع مع الله. صار رجلاً مثل غيره من البشر. ورحل إلى الجليل. ثم علمت فيما بعد أنه صار نجاراً عظيماً، أفضل نجار في الناصرة.

ونظر الراهب إليّ ثم سألني: هل تفهم؟ يسوع قد شفي. وبدلاً من أن ينقذ العالم صار

Twitter: @ketab_n

أفضل نجار في الناصرة. فما معنى المرض والعافية إذن؟ طيب. يكفينا من هذا كله ـ فلنغير الموضوع! تبدو متعباً. اجلس.

جلست على الكرسي تحت الأيقونة ورحت أحدق إلى قدمي الراهب الحافيتين على الحجارة المرصوفة، وعظامها الدقيقة، وكاحليه النحيلين والإبهامين الطويلين الأنيقين. كان الضوء قد جعل إبهاميه يلتمعان مثل الرخام العتيق الذي صار أشقر محمرًا بسبب الشمس.

تراجع خطوتين ثم عاد ووقف قبالتي شاداً ذراعيه على صدره وقال لي بصوت حنون وكأنه يحدث طفلاً صغيراً: تطلع. انظر إلي جيداً. ألا تتذكرني؟

أجبته مندهشاً: لم يسبق أن وقعت عيني عليك.

ـ لاشيء يموت في ذاكرة الطفل. لابد أن وجهي لا يزال موجوداً في مكان عميق من ذاكرتك. إسمع: لقد قضيت صيفاً في كريت حين لم تكن قد بلغت الخامسة بعد. كنت بائعاً بالجملة في تلك الأيام أتعامل بالكباد والخروب والزبيب. كان والدك أحد زبائني. ألا يزال حياً؟

ـ نعم. لكنه عجوز محني لا أسنان له الآن. إنه يجلس على الأريكة طوال النهار وهو يقرأ كتاب الصلوات.

فصرخ الراهب وهو يرفع يده: ظلم! أجساد مثل جسده يجب أن لا تتهدل. يجب أن تموت موتاً فجائياً وهي تمشي. والأرض تهتز من تحتها. الموت فعل الله، اسم النقطة التي عليها يلمس اللّه الإنسان. لكن انهيار الجسد فعل شيطاني غادر خسيس أيمكن أن يكون صحيحاً أن الكابتن ميكائيل عجوز ومقعد؟

ظل صامتاً قليلاً وصارت عيناه ضاريتين. لكنه سرعان ما تنفس بعمق وتابع: اعتاد والدك أن يشتري الزبيب والكباد والخروب لحسابي. وكنت أحمل السفن وأرسلها إلى تريست. كنت أشتغل جيداً وأكسب الكثير ثم أبدد بالكثرة نفسها. كنت حيواناً متوحشاً لا يمكن أن يكتفي من الطعام والشراب والزنى. بعت روحي للشيطان وظل جسدي دون قيادة ودون كابح. ورحت أسخر من اللّه وأسميه البعبع والفزاعة، وأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً أكثر من إخافة العصافير التي لا عقل لديها، وإبعادها من أن تنقرَّ في الحدائق وكل مساء بعد أن أنهي عملي كنت أكرس نفسي للسكر بلا خجل حتى الفجر.

والآن. حاول أن تتذكر: ذات صباح كنتَ تقف باكراً أمام حانوت والدك حين سمعتَ بشكل مفاجئ غناء وضحكاً وعربة بأربع عجلات منطلقة بأقصى سرعتها. التفت فرأيت ست نساء مخمورات ـ من مغنيات المقاهي ـ وكلهن يصرخن ويقهقهن ملء حناجرهن، وهن يلقين بالجوز والتين على الناس في الشارع. وكان السائق شخصاً مهيباً بقبعة رسمية صقيلة، يسوط الجياد مهووساً وهي تصهل مستثارة وتجمح. عندها أحسست بالخوف، ظننتَ أنهم

Twitter: @ketab_n

قادمون نحوك مباشرة. فصرخت وركضت لتختبئ وراء سترة أبيك. هل تذكر؟ هل عادت الحادثة إليك الآن؟ الحوذي السكران كان أنا. كنت أعتمر قبعة رسمية، وأقول لك ـ هي قبعة حريرية ـ ولكي أثيرك وجهت السوط إليك مباشرة وفرقعته في الهواء. هل تتذكر الآن؟

انحنى ووضع يده على كتفي ودفعني: هل تتذكر؟

كنت قد أغمضت عيني. وبينما أنا أصغي إليه كنت أجاهد لأزيح أستار الذاكرة المكومة على سنوات طفولتي واحدة بعد الأخرى. وبالتدريج خفَّت الظلمة. وبغتة عادت الجياد الأربعة والمغنيات السكرانات والقبعة المخيفة وفرقعة السوط فوق رأسي، كلها حية من أعماق الذاكرة. صرخت: نعم، نعم، أتذكر. أكان ذلك أنت يا أبانا؟ أنت؟

لكن الراهب العجوز لم يسمعني. كان قد انحنى على الجدار وأغمض عينيه. وبهذه الحالة وبعينين مطرقتين تابع: ذات صباح أحسست بالكفاية. الجولة اللحمية ليست كبيرة جداً. إنها تنتهي بسرعة. تأكل وتشرب وتقبّل وتأكل ثانية وتشرب ثانية وتقبّل ثانية ـ وليس هناك مكان آخر تذهب إليه. أقول في النهاية وجدت أنني اكتفيت. تذكرت روحي. فركبت عربة وذهبت إلى دير في جبل آثوس. بقيت هناك ثلاثة أشهر. صلاة وصيام وصلاة صبح وقربان مقدس، تفاصيل عمل، خبز شعير، زيتون فاسد، حبوب محمصة ـ فقرفت سريعاً من ذلك كله. ولكن ما الذي لدي لأفعله في العالم الآن؟ لم تعد لديه متعة واحدة إضافية يقدمها إلي، ولا خطيئة واحدة لم أتذوقها. عدت إلى الدير. ولكنني طلبت من الحوذي أن يظل هذه المرة على مقربة، أن ينتظر في أقرب قرية لعلي أحتاج إليه. وبالفعل قبل مضي وقت طويل احتجت إليه. ومرة أخرى فررت من الدير. انحطت حياتي حتى صارت غير محتملة. وصرت معلقاً بين الأرض والسماء، متأرجحاً من إحداهما إلى الأخرى رافضاً الاثنتين. ذهبت إلى ناسك عجوز يعيش، بعيدًا عن الأديرة، في كهف محفور في صخر منحدر مطل على البحر وجعلته يتلقى اعترافي.

ـ ما الذي أفعله يا أبانا المقدس؟ أتنصحني؟

وضع الناسك العجوز يده على رأسي وقال: اصبر يا ولدي. ولا تسرع. السرعة إحدى أحابيل الشيطان. انتظر بهدوء ومع الإيمان.

ـ إلى متى؟

ـ إلى أن ينضج الخلاص فيك. امنح الحصرم وقتاً لكي يتحول إلى عسل.

ـ وكيف سأعرف يا أبانا متى يتحول الحصرم إلى عسل؟

ـ ستستيقظ ذات صباح وترى أن العالم قد تغير. ولكن أنت الذي تكون قد تغيرت يا بني. وليس العالم. سيكون الخلاص قد نضج فيك. في ذلك الوقت سلم نفسك لله. وبعدها لن تخونه. وهذا ما حدث بالضبط. فتحت نافذتي ذات صباح. كان الفجر يبزغ

Twitter: @ketab_n

لحظتها، ونجمة الصباح لا تزال تلتمع في السماء. وكان البحر الهادئ يتنهد بهدوء ولطف وهو يتكسر على الشاطئ. كنا لا نزال في عز الشتاء لكن شجرة مشحلة أمام نافذتي كانت مزهرة. وكان عبيرها لاذعاً وحلواً كالعسل. كان المطر قد هطل خلال الليل، والأوراق كانت لا تزال تقطر الماء، والأرض بأكملها تلتمع راضية. تمتمت: يا رب، يارب. أية معجزة هذه! ثم بدأت أبكي. وعندها فهمت. لقد وصل الخلاص. جئت هنا إلى الصحراء ودفنت نفسي داخل هذه الحجرة بسريرها المتواضع وجرة الماء فيها وكرسييها الصغيرين. وأنا الآن أنتظر. أنتظر ماذا؟ فليسامحني الله. لا أعرف بالفعل ماذا أنتظر. ولكن هذا لا يزعجني. أهلاً بكل ما يأتي. أعتقد أني سأبرز في الطليعة عند أي حادث. وإن كانت الآخرة موجودة فعلاً أكون قد دبرت أمري للتوبة في آخر لحظة. (ألم يعدنا المسيح بأن التوبة قبل ثانية من الموت تؤمن الخلاص؟) ومن جهة أخرى إن لم تكن الآخرة موجودة أكون قد استمتعت بهذه الحياة واعتصرتها ثم ألقيتها ورائي مثل قشرة الليمون. هل تفهم؟ ما الذي تفكر فيه؟

ـ كنت أتساءل لماذا دعوتني إلى حجرتك الليلة يا أبانا؟ لابد أنك ترغب في أن تخبرني بشيء آخر إلى جانب هذا.

أمال الجرة وملأ كأساً من الماء ثم أخذ رشفة. فلأنه لم يكن متعوداً على الكلام منذ سنوات عديدة فإن حلقه قد جف.

ـ بالطبع. كنت أريد أن أخبرك بشيء آخر. ولكن عليك أن تعرف أولاً من أنا ومن كنت. بهذا فقط تستطيع أن تفهم ما أريد أن أقوله لك، وتدرك أن من حقي أن أخبرك به.

صمت للحظة، وبعد أن انتقى كلماته، أضاف بصوت مليء بالانفعال: ليس الحق فقط بل الواجب.

رفعت نظري لأتطلع إليه. كان يقف في وسط الغرفة منتصباً ومتشنجاً مثل عمود. تطلعت إليه ودهشت. أي متع وأي ذل عرف هذا الرجل وأي صلف أبدي في تحدي الله القدير. وتعجبت كيف دخل إلى الصحراء دون أن يقبل النسيان. وكيف سمح، بشجاعة، لقافلة خطاياه أن تتبعه بحيث تمشي معه، وهو مليء بالثقة، نحو الله.

ظل صامتاً. وكان من الواضح أنه يجهد لاختيار ما سيقوله وكيفية قوله، دون أن يحرجني. ذلك أنه قد رآني أتلوى بعصبية على كرسي. وأخيراً أعلن: أريد منك أن تعرف أن بين متع العالم كلها ـ وفيه متع كثيرة عليه اللعنة ـ الشباب هو ما أحترمه أكثر من البقية. حين أرى شاباً في خطر أحس أن طليعة الله، أو الحياة كلها، في خطر. أهرع لتقديم العون قدر ما أستطيع ـ إعانة الشباب. . على أن لا يفنى، بمعنى آخر أن لا يضل، وتتساقط زهوره ويشيخ قبل أوانه. لهذا دعوتك الليلة إلى حجرتي.

اضطربت وسألته: «ماذا؟ أأنا في خطر؟» دون أن أعرف ما إذا كان علي أن أغضب أم

Twitter: @ketab_n

أضحك. لوح العجوز يده ببطء إلى الأمام والخلف ليهدئني. وقال: إغضب. إضحك. أخرج عن طورك ـ ولكن

أصغ بعناية. إنني أحدثك منطلقا من تجربة شخصية مريرة. ومن واجبك أن تستمع. لقد راقبتَك سبعة أيام وأنت تدور حول لهب اللّه مثل فراشة ليلية. وأنا لا أريد أن أتركك تهلك. لا. ليس أنت. أكرر، بل الشباب. إنني أشفق على خديك الذين ما زال الزغب يغطيهما. وعلى شفتيك اللتين لم تشبعا من القبل أو من الكفر. فيما روحك البريئة التي تندفع نحو الهلاك تحاول أن تسترق ومضة من الضوء. لكنني لن أتركك. إنك على حافة الهاوية. ولن أتركك تسقط.

ـ أية هاوية؟

ـ هاوية الله.

اهتزت الحجرة حين لفظ تلك الكلمة الرهيبة. دخل كائن غير مرئي. لم يسبق لهذه الكلمة التي طالما نطقت بها بامتهان أن أثارت في خوفاً كهذا الخوف. انبعثت في داخلي مخاوف الطفولة التي كنت

أحس بها وأنا أسمع كلمة «يهوه»، وكأنها تخرج من كهف مظلم مليء بالضجيج. نهضت عن الكرسي وانزويت في ركن. وتمتمت: لا تتوقف يا أبي. إنني مصغ.

ـ في أعماقك اهتمام عظيم مهلك. إنني أراه في عينيك المحترقتين، وفي حاجبيك المرتعشين بلا توقف، ويديك اللتين تتلمسان الهواء وكأنك أعمى، أو كأن الهواء جسد وأنت تتلمسه. انتبه. هذا القلق. فهو إما أن يقودك إلى الجنون أو إلى الكمال.

أحسست بنظرته تخترقني وتخبط أحشائي: أي قلق؟ لا أعرف أي قلق تعني يا أبي.

ـ القلق حول القدسية. لا تخف. أنت نفسك لا تعيه لأنك تعيشه. لماذا أقول لك ذلك؟ لأمكّنك من معرفة الطريق الذي تسلكه والاتجاه الذي اخترته. لأبعدك عن الضلال. على الرغم من أنك انتهيت من أصعب صعود فإنك في عجلة من أمرك للوصول إلى القمة. وتظن نفسك قادراً على تحقيق ذلك قبل تجاوز سفح الجبل وجوانبه. وكأنك تفترض نفسك نسراً. لكنك إنسان. لا تنس ذلك. إنسان، لا أكثر ولا أقل. لك ساقان وليس لك جناحان. نعم. أعرف أن رغبة الإنسان السامية هي في القداسة. جميل وحسن. لكن علينا أولاً أن نتجاوز الرغبات الأقل سمواً. يجب أن نتعلم احتقار اللحم. وكذلك احتقار التعطش للسلطة والذهب والعصيان. ما أعنيه هو أن علينا أن نعيش شبابنا وكل عواطفنا البشرية كاملة. يجب أن نفرغ هذه الأصنام من محتوياتها وأن نكتشف أنها محشوة بالتبن والهواء. يجب أن نفرغ أنفسنا وننظفها لكي لا نرغب في النظر إلى الوراء. عند ذلك، وعند ذلك فقط، نقدم أنفسنا أمام الله. هكذا يتصرف المجاهد الحقيقي.

Twitter: @ketab_n

أجبته: لا أستطيع التوقف عن الصراع مع الله. سأظل أتصارع معه حتى اللحظة الأخيرة التي أقدم نفسي فيها أمامه. أعتقد أن هذا قدري، أن لا أصل إلى غايتي ـ هذا ما لن أفعله ـ بل أن أصارع.

اقترب مني وطبطب بلطف على كتفي: لا تتوقف عن الصراع مع الله. ليس هناك مبدأ أفضل من ذلك. ولكن لا تفترض أنك لكي تصارع بثقة أكبر، عليك أن تقتلع الجذور المظلمة من أعماقك ـ أعني الغرائز. إن رؤية امرأة تخيفك حتى الموت. تسميها المغوية ـ ابعد ورائي يا شيطان ـ نعم. إنها المغوية. ولكن إن كنت ترغب في التغلب على الغواية فهناك طريقة واحدة فقط. عانقها. تذوقها وتعلم كيف تحتقرها. عندها تعجز عن إغوائك مرة أخرى. وإلا، حتى لو عشت مئة عام، إن كنت لم تستمتع بالنساء، فسيأتين. سيان كنت نائماً أو ناشطاً. ويمرغن أحلامك وروحك. لقد قلتها ذات مرة. وأنا أعيدها ثانية: كل من يقتلع غرائزه يقتلع قوته. فمع الزمن والشبع والمبدأ يمكن أن تتحول هذه المادة المظلمة إلى روح.

تطلع حواليه ثم خطا نحو النافذة وكأنه يخشى أن يسمعنا أحد. ثم عاد مقترباً مني وهمس لي بصوت أجش: ما زال لدي شيء آخر أقوله لك. نحن وحيدان. ولا يستطيع أن يسمعنا أحد.

قلت: اللّه يستطيع.

ـ أنا أخاف البشر. ولا أخاف الله. اللّه يفهم ويغفر. أما هم فلا ـ ولا أريد، تحت أية ظروف، أن أفقد الكنيسة التي وجدتها هنا في الصحراء. فاستمع إذن واحفظ جيداً ما سأقوله لك. وأنا متأكد أنه سيساعدك.

توقف للحظة ونظر إلي بعينين نصف مغمضتين من خلال جفنيه وكأنه يقدر وزني.

تمتم: أتساءل إن كنت تستطيع تحمله.

أجبته وقد فقدت صبري: أستطيع. أستطيع. تكلم على حريتك يا أبانا.

خفض صوته أكثر وقال: ليس الملائكة أكثر من ـ أتسمع؟ ـ ليسوا أكثر من شياطين مصفًاة. وسيأتي اليوم ـ آه لو أنني أستطيع أن أعيش حتى أراه ـ الذي يفهم فيه الناس ذلك وعندها. .

وانحنى مقترباً من أذني، وللمرة الأولى كان صوته يرتفع وهو يقول: وعندها يتقدم دين المسيح خطوة أخر ى على الأرض. سيشمل الإنسان كله وليس نصفه كما هو الآن باحتوائه للروح فقط. ستتسع رحمة المسيح. سيحتوي الجسد ويطهره مثلما يفعل للروح. وسيرى ـ وسيعظ ـ بأنهما ليسا عدوين، بل زميلي عمل. أما الآن. ما الذي يحدث؟ إن بعنا أنفسنا للشيطان فإنه يدفعنا لإنكار الروح، وإن بعنا أنفسنا لله يدفعنا لإنكار الجسد. متى ينمو قلب المسيح بما لا يكفي لمواساة الروح وحدها، بل لمواساة الجسد أيضاً والمصالحة بين هذين الوحشين المفترسين؟

Twitter: @ketab_n

تأثرت بعمق وقلت: شكراً يا أبي للهبة العظيمة التي وهبتني إياها.

ـ إلى الآن وأنا أبحث عن شاب أستطيع أن أأتمنه على هذا قبل أن أموت. الحمد لله. الآن أنت أتيت. خذه. إنه ثمرة التماهي الكامل بين الروح واللحم.

ـ إنك تقدم لهب حياتك كلها. هل سأستطيع حمله أبعد من ذلك وتحويله إلى نور؟

ـ يجب أن لا تسأل إن كنت ستنجح أم ستفشل. ليس هذا ما يهم. ما يهم هو كفاحك من أجل حمله أبعد من ذلك. واللّه يقدر ذلك ـ الهجوم ـ على حسابنا وليس على حساب أحد غيرنا. أما إذا كنا سننتصر أو ننهزم فهذا شأنه وليس شأننا.

لوقت لا بأس به لم يتكلم أي منا. ومر ليل الصحراء بأصواته اللامتناهية المقلقة من خارج نافذة الحجرة الصغيرة. وكان من الممكن سماع الثعالب وهي تعوي من بعيد؟ هي الأخرى كانت تعاني آلام الحب والجوع.

تمتم العجوز وهو يرسم شارة الصليب: إنها الصحراء: الضوع[28] والثعالب وبعيداً الأسود. أما داخل الدير فالرهبان نائمون يحلمون. وفي السماء فوقنا النجوم. واللّه في كل مكان.

ومد لي يده قائلاً: لم يعد لدي ما أقوله لك يا بني.

عدت إلى غرفتي بخطوات خفيفة. كان ذهني واضحاً. وقلبي يخفق بهدوء. كانت كلمات الأب جواكيم كأساً من الماء العذب. ولقد كنت ظامئاً. وامتدت البرودة إلى نقي عظامي.

جمعت أمتعتي وربطتها في رزمة. ووضعتها على ظهري وفتحت الباب.

لابد أن النهار قد بدأ لأن السماء صارت حليبية. وبدأ أصغر النجوم يغيب. وفي أسفل الوادي بدأ حجل يقوقي.

بعمق استنشقت الفجر المبارك ورسمت شارة الصليب وهمست: باسم الله.

تقدمت في الممر مرة أخرى. كان الضوء لا يزال مشعاً في حجرة العجوز.

قرعتها وسمعت قدميه الحافيتين تنزلقان على الحجارة المرصوفة. فتح الباب وتطلع إلي. وحين رأى الرزمة على ظهري ابتسم.

قلت له: «إنني راحل يا أبي»، وانحنيت أقبل يده: «امنحني بركتك».

فوضع راحة كفه على شعري وقال: باركك اللّه يا بني. ارحل. وليكن اللّه معك!

---

(28) طائر.

Twitter: @ketab_n

22

كريت

أُرهقت. لقد كنت شاباً، قبل أي شيء آخر. وقلق الشباب عبء مرهق لن يتنازل للاعتراف بحدود طاقة الإنسان. إنه يبحث عن الكثير ولا يستطيع إلا القليل. بعد أن كافحت للوصول إلى هذه الحدود، وبعد أن تعبت من الكفاح، عدت إلى أرض آبائي. كنت راغباً في الالتقاء بجبالنا، وفي رؤية حمَلَة الألوية بطرابيشهم المائلة وضحكاتهم الواسعة، وفي الاستماع، مرة أخرى، إلى حروب الحرية. كنت أريد أن أمشي على تراب الوطن لكي أستمد منه القوة.

سألني والدي: من أين أنت قادم؟

فأجبته: «من مكان بعيد جداً»، ودون أن أذكر كلمة واحدة عن مغامرتي التي كادت أن تنتهي بأداء القسم في سيناء.

تلك كانت المرة الثانية التي تجهض فيها محاولتي للوصول إلى القداسة. المرة الأولى، كما تذكرون، كانت في طفولتي، حين ذهبت إلى الميناء وركضت إلى قبطان كان يستعد لرفع مرساته، ورجوته أن يأخذني معه إلى جبل آثوس حيث أستطيع أن أصبح راهباً. وطقت خاصرتا القبطان من الضحك وصرخ بي: «إلى البيت! إلى البيت!». وراح يصفق بيديه ليبعدني وكأنني دجاجة صغيرة. وتكرر الأمر ثانية الآن. صاح بي الأب جواكيم: «عد إلى العالم. في أيام كهذه، وفي سن كهذه، العالم هو الدير الحقيقي الذي ستصير فيه قديساً».

رجعت إلى أرض الوطن لكي أستجمع قواي. غادرت كاسترو ماشياً إلى القرى، حيث كنت آكل وأشرب مع الرعاة والفلاحين. وأحسست بالخجل حين رأيت كيف تتعارض الحياة الكسول المخادعة في الدير مع أرض كريت كلها. تلك الأرض التي تتصارع، دون توقف، إن لم يكن مع الفيضانات والجفاف، فمع الفقر والمرض أو الأتراك. وأنا كنت أحاول أن أسير بعكس رغبتها، وأن أخونها بتحولي إلى راهب. كان الأب جواكيم على حق. العالم هو ديرنا.

Twitter: @ketab_n

والراهب الحقيقي هو ذلك الذي يعيش مع البشر، ويعمل هنا مع اللّه ملتصقاً بالتراب. فاللّه ليس جالساً على عرش فوق الغيوم. إنه يصارع هنا على الأرض وإلى جانبنا. لم تعد العزلة طريق الإنسان المكافح. والصلاة الحقيقية، الصلاة التي تسلك طريقها إلى بيت الرب وتدخله، هي العمل النبيل بهذه الطريقة. من يصلي، اليوم، هو المحارب الحقيقي.

ذات مرة قال لي كريتي: حين تقف أمام الأبواب السماوية ولا تفتح لك لا تمسك بالمطرقة لتدق الباب! بل أنزل البندقية عن كتفك وأطلق!

أتعتقد، فعلاً أن اللّه سيخاف ويضطر إلى فتح الأبواب؟

ـ لا يا بني. لن يخاف. لكنه سيفتحها لأنه سيعرف أنك عائد من المعركة.

لم يسبق لي، أبداً، أن سمعت كلمات مثقف بهذا العمق الذي اتسمت به الكلمات التي كنت أسمعها من الفلاحين، وخاصة منهم العجائز الذين أتموا الكفاح. لقد خمدت عواطفهم في أعماقهم وراحوا يقفون على عتبة الموت، وهم يلقون بحنان نظرة أخيرة هادئة إلى الوراء.

بعد ظهر أحد الأيام التقيت بعجوز على منحدر جبلي. كان نحيلاً ذاوياً بشعر أبيض كالثلج، و«شروال»[1] مرقع وحذائين مليئين بالثقوب. وكما هي عادة الرعاة الكريتيين كان يعلق عصاه بين كتفيه. ويتابع صعوده البطيء من حجر إلى حجر، وكان يقف بين حين وآخر ليتطلع مستغرقاً إلى الجبال والسهل البعيد، وفسحة البحر الظاهرة عن بعد من بين ضفتي الوادي.

هتفت إليه من بعد: يعطيك العافية يا جدي. ما الذي تفعله هنا وحدك؟

ـ أودّع يا إبني. أودع.

ـ في هذا المكان المهجور؟ لا أرى أحدًا هنا. من تودع؟

هز العجوز رأسه غاضباً وقال: أي مكان مهجور؟ ألا ترى الجبال والبحر؟ لماذا منحنا اللّه العيون؟ ألا تسمع العصافير من فوقك؟ لماذا منحنا اللّه آذاناً؟ تقول إن هذا المكان مهجور؟ هؤلاء هم أصدقائي. إننا نتبادل الأحاديث. أناديهم فيجيبونني. أنا راع. لقد تجولت خلال جيلين برفقتهم. ولكن وقت الفراق قد حان. لقد حل المساء.

قلت، وقد خيل إلي أن بصره منحسر بسبب السن: ولكن لا يزال الوقت باكراً. نحن في الأصيل يا جدي. لم يحلّ المساء بعد.

هز رأسه: أعرف ما الذي أتحدث عنه. إنه المساء كما أقول لك. المساء. وداعاً.

قلت لأشجعه: ستسجن حتى كيرون يا جدي.

(1) هو السروال التقليدي الذي يلبسه الفلاحون. ويمتاز باتساع شديد بين الفخذين. وقد استخدمت كلمة «الشروال» لتمييزه.

Twitter: @ketab_n

فضحك: لقد حققت ذلك. لعنه الله. نعم. لا تقلق. لقد سجنته. هذا المخاتل العجوز. كيف؟ بعدم خوفي منه. وداعاً. أنت أيضاً تسجنه يا فتاي الجميل. وستنال بركتي.

لم أستطع احتمال تركه يذهب.

ـ قل لي اسمك يا جدي. لا أريد أن أنساك.

ـ حسن إذن. انحن والتقط حجراً. سلها وستجيبك: مانوسوس العجوز من كافوهوري. هذا ما ستقوله لك. حسن. يكفي الآن. اعذرني. كما تستطيع أن ترى. إني على عجلة. رحلة موفقة.

بعد أن قال ذلك استأنف صعوده وهو يتعثر لضعف بصره.

صحيح أننا لا نستطيع أن نقهر الموت، إلا أننا نستطيع أن نقهر خوفنا من الموت. كان هذا الجبلي العجوز يواجه النهاية بصفاء. لقد وسّعت التلال روحه وحضنتها. فهو لن يتنازل بالركوع أمام كيرون. وما كان يريده منه هو، ببساطة، التأجيل لأيام قليلة ريثما يودع مرافقيه السابقين: الهواء المنعش والزعتر والحجارة.

ولكنني، فيما كنت أمشي ذات يوم قرب فايستوس، على سهل ميسارا الواطئ، رأيت عجوزاً آخر مئوياً[2]. كان يجلس على عتبة كوخه المتواضع ليتشمس. وكانت عيناه مثل جرحين أحمرين وأنفه يشر، وريقه يسيل من فمه، ورائحة التبغ والبول تفوح منه.

عند دخولي إلى القرية كان أحد أحفاد هذا الرجل قد حدثني ضاحكاً عن جده. وقد قيل لي أن أذهب وأراه لأنه كان قد عاد طفلاً من جديد. ظاهرياً كان يجلس عند مورد القرية كل مساء ينتظر الصبايا أن يأتين لملء جرارهن. وقد قال لي الحفيد: «إنه يمط عنقه عند سماعه قرقعة قباقيبهن[3]. إنه نصف أعمى. وهو غير قادر على تمييزهن جيداً. ولذلك فانه يمد ذراعيه وينادي: «أنتِ يا من هناك. من أنت؟ تعالي هنا يا طفلتي إن كنت راغبة في مباركتي. اقتربي ودعيني أراك». وتذهب الفتاة إليه ضاحكة. ويمد هذا العجوز الشاذ كفه إلى وجهها. يمد كفه بشراهة ـ حتى ليخيل إليك أنه سيلتهمه. يتحسس الأنف والفم والذقن بنهم ثم يحاول أن ينزل إلى الرقبة. لكن الفتاة لا تريد أن تسمح له. تطلق صرخة وتركض وسط الضحك الصاخب. وتترك العجوز وهو يتنهد وراحته لا تزال مفتوحة. وهو الآن يتنهد! إن عليك أن تسمعه.».

تنهده شبيه بالثور. لقد سألته ذات يوم: «ولكن لماذا تتنهد يا جداه؟ ما مشكلتك؟» فأجابني بدموع مدرارة: «ما الذي تظن أنها مشكلتي؟ عليها اللعنة! أليس في رأسك عينان؟

(2) أي أن عمره في حدود المئة.

(3) القبقاب: تسمية شعبية لحذاء خشبي بسير جلدي في المقدمة فقط. وهو يصدر صوتاً عند السير به.

Twitter: @ketab_n

إنني أغرق في القبر تاركاً صبايا جميلات كهؤلاء ورائي! آه لو أنني كنت ملكاً لذبحتهن جميعاً لكي أستطيع أخذهن معي». ثم، وبعد أن يحس أنه مليء بالخزي، يبدأ في غناء المانتينا[4]، والمقطع ذاته دائماً، بصوته المتحشرج:

وا أسفاه! مرت الأيام، الأيام الغالية.

آه على استعادتها، ولو من كل عام يوم.

لقد جعلني استماعي للحفيد متشوقاً للذهاب وإبداء الإعجاب بهذه السنديانة المئوية. دُللت على كوخه، حيث وجدته جالساً يستدفئ بالشمس. قلت له وأنا أتقدم منه: طيب. طيب، يا جدي. سمعت أنك في المائة من عمرك. قل لي كيف بدت لك الحياة خلال هذه الأعوام المئة؟

تطلع إلي بعينين خابيتين لا أجفان لهما، وقال: إنها مثل كأس من الماء البارد يا بني.

ـ أو لا تزال ظمآن أيا جدي؟

رفع كفه عالياً وكأنه يستنزل لعنة وقال: اللعنة على كل من ليس ظمآن!

* * *

قضيت ثلاثة أيام في دير وأنا أتطلع إلى البحر الليبي. كنت دائما أحب الحياة الفوضوية في الأديرة ـ الإيقاع القديم الذي يسودها، والقساوسة بعيونهم الماكرة أو الناعسة وكروشهم المنتفخة أو الفارغة وأكفهم الضخمة الممسكة بمنجل التشذيب أو الفأس حيناً وبالقربان المقدس أو الطبق حيناً آخر. كنت أحب رائحة البخور دائماً، وصلاة الصبح في الهيكل فجراً وبعد ذلك توجه الجميع معاً إلى المعلف الكبير، غرفة الطعام، التي تعبق بالفضلات وبزيت الزيتون الزنخ. والمحادثات الهادئة في الأمسيات على شرفة الدير وفترات الصمت الثقيلة المليئة بأصداء العالم البعيدة.

نادراً جداً ما كنا نتحدث عن المسيح. كان مثل سيد صارم لكنه غائب. ذهب إلى السماء وترك خدمه وحدهم في قلعته حيث قاموا دون خجل باقتحام مخزن الطعام وبالنزول إلى مستودع الخمور وبالتمدد على الأسرة الناعمة ـ أي قاموا بالرقص بعد غياب الهر. ولكن آه لو أنه ظهر بالباب بغتة! كيف كانت الموائد ستنقلب! وأية صرخات كان هؤلاء المترهبنون الأدعياء سيطلقونها! وكيف كان قوس المولى سيرنّ!

ذات يوم بينما كنت جالساً على شرفة الدير مع أحد القساوسة حولت الحديث إلى القديس الذي أحبه كثيراً، فرانسيس الأسيزي. لم يكن القس قد سمع به من قبل. تجهم

---

(4) مأخوذة من الكلمة الإيطالية مانتينانا. وهي في الأصل أغنية عاشق يغنيها تحت نافذة حبيبته. وفي كريت تأخذ المانتينانا دائماً صيغة الدوبيت (بيتين من الشعر). وهي أغنية ضحلة. ولم تعد محددة بموضوع.

Twitter: @ketab_n

وجهه (كان فرانسيس قديساً كاثوليكياً، أي كان مهرطقاً). غير أن الفضول اليوناني هو الذي انتصر أخيراً: جميل وحسن. أنت تحكي وأنا أستمع.

ولف ذراعيه حول بطنه مستعداً لإدانة كل ما سأقوله. وبدأت: اعتاد هذا القديس أن يقول لله في صلواته: كيف أستطيع أن أتمتع بالجنة يا مولاي وأنا أعرف أن الجحيم موجود؟ يا إلهي العزيز ارحم الملعونين وضعهم في الفردوس أو فلتدعني أنزل إلى جهنم لأواسي المعذبين. سأقيم نظاماً يهدف إلى النزول إلى جهنم لمواساة الملعونين، فإن لم نستطع التخفيف من آلامهم سنبقى نحن في الجحيم لنتعذب معهم.

وانفجر القس ضاحكاً، وقال: دعني أقص عليك الآن قصة جميلة. ذات يوم دعا أحد الباشاوات معوزاً إلى العشاء. وضع أمامه صحن زيتون وصحناً من الكافيار الأسود. ودون أن يتطلع إلى الزيتون كثيراً هجم المعوز على الكافيار بشراهة وأتى عليه. وقال له الباشا: كل بعض الزيتون أيضاً يا أخي. فأجابه الآخر: لماذا يا باشا أفندي؟ وما الغلط في الكافيار؟ أتفهم؟ الفردوس هو الكافيار الأسود. آسف. ولكن بمقدار ما يعنيني الأمر فإن صديقك فرانسيس ـ كيف تقول اسمه؟ ـ ليس إلا كاثوليكياً أبله آخر.

يوم مغادرتي نهضت قبل الفجر وذهبت لصلاة الصبح متشوقاً لسماع الترنيمة المرتعشة الرتيبة التي يرددها القساوسة لله والكلمات المؤثرة المليئة بالندم التي ابتكرها مؤمنو الأزمنة القديمة ليصبّحوا بها على الله قبل طلوع النهار: إلهي. يا إلهي! أقف أمامك صباحاً. روحي ظامئة إليك. واللحم يتوق إليك في الأرض الجافة الظامئة التي لا ماء فيها.

وقفت فوق مقعد في جوار النافذة التي كنت أرى البحر تحتي من خلالها، متسعاً بلا حدود وغير مطروق، لا يزال أبيض في ضباب الصباح وممتداً إلى رمال أفريقيا الحارة.

كانت العصافير قد استيقظت مع القساوسة وبدأت أنغامها لتحية النور. وسط الغناء كانت ذروة شجرة السرو قد أضيئت، بينما كانت أوراق شجرة البرتقال المجاورة لها لا تزال غارقة في قتامة خضراء معتمة. كان عازف السيمانترون قد أكمل جولته على الحجرات لإيقاظ القساوسة. وقد دخل الآن إلى الهيكل نصف المضاء وأزاح وشاحه(5) المتدلي ثم علق السيمانترون الخشبي قرب الباب. وفيما كان يقف في المدخل نصف مظلل، كان للحيته المجعدة القاتمة وشعره المتدلي على كتفيه بريق أخاذ. بطوله وتقاطيعه السوداء كان يتدفق شباباً. كم من المخجل أن جسداً كجسده لم يُقدَّر له أن يعانق امرأة وينجب أطفالاً. لا بد أن أبناءه وبناته كانوا سيجمّلون العالم.

---

(5) كاهيمافلاك: غطاء من قماش أسود فوق قلنسوة القساوسة الأرثوذكس، ويتدلى من الخلف حتى الخصر. ويجمع أحياناً بشكل هرمي فوق الرأس. وهو يشبه الخمار في استخدامه: إنه يمنع القساوسة من رؤية العالم.

Twitter: @ketab_n

وفيما كنت أفكر في كيف أن خسارة العالم قد فشلت في تحقيق كسب الله ظهرت بهدوء امرأة متشحة بخمار أسود في المدخل وعلى ذراعيها طفل. كان رئيس الدير قد حذرني في اليوم السابق، تحذيراً مصحوباً بابتسامة ماكرة، بأن لا أُصدم إن جاءت امرأة حديثة الزواج من قرية مجاورة في الصباح طالبة البركة لوليدها الجديد. فقد كانت تريد أن تحميه من العين الشريرة. وكان من الواضح أن الطفل جميل جداً. وكانت عيناه المحاطتان بحاجبين كثيفين تشكلان تعويذة له.

وقفتُ قرب الباب وانتظرتُ برأس محني أن تنتهي صلاة الصبح لكي يقترب منها رئيس الدير بمنضحة الماء المقدس. وبدا أن الجو يتغير، وأن الأنفاس الرهبانية الثقيلة تمتزج بأنفاس المرأة. ومن الكنيسة تفوح رائحة زيت الغار من شعر العروس المغسول منذ قليل. ودبت الحياة في صوت الرئيس الرتيب، تماماً في اللحظة التي كان ينشد فيها الترنيمة المرحة: «إنه الرب الإله. ولقد تجلى لنا. مبارك القادم باسم الرب». ومال الرهبان بمقاعدهم إلى الأمام والتفتوا وألقوا نظرات جانبية نحو الباب. وبدأ اثنان أو ثلاثة منهم بالسعال. واتجه عازف السيمانترون إلى المرأة وهمس لها بشيء ما. ودون أن ترفع رأسها تقدمت خطوتين إلى الأمام وجلست على الكرسي القريب من الباب. كنت تستطيع أن تحس بأن كلاً منهم قد فقد هدوءه، وأن الرهبان كلهم الآن، وأنا بينهم، لم يعودوا قادرين على الانتظار لانتهاء الصلاة.

كانت الشمس في ذلك الوقت قد أشرقت. وامتلأت الباحة بالضوء. وراحت الأشعة المائلة تدخل الكنيسة جاعلة الأيقونات المقدسة ووجوه الرهبان وأيديهم تشع متلامعة. ونزل الرهبان عن مقاعدهم وهم يتنهدون جميعاً: «حمداً لله! حمداً لله!». لقد انتهت الصلاة.

ارتدى رئيس الدير بطرشيله وأمسك بالمنضحة. ووقف عازف السيمانترون خلفه ومعه وعاء القربان المليء بالماء المقدس. ووضعت المرأة نفسها بالباب وجسدها كله في الضوء. كانت الآن قد ألقت عنها خمارها كاشفة عن وجهها كله. رفعت عينيها وتطلعت إلى رئيس الدير. وكان قد وضع راحته على رأس الطفل الصغير وبدأ يتلو المباركة. ثم ثبتت نظرها على عازف السيمانترون. وذكرتني عيناها الواسعتان السوداوان الحزينتان، بحلاوتهما المعجزة عن الوصف، بعيني بورتابيتيسا في دير إيفيرون ـ الحلاوة ذاتها وقلق الأم ذاته على الابن.

وبغتة بدأ الطفل يرفس بقدميه الصغيرتين ويزعق. ولكي تسكته فكت الأم أزرار صدرها وأخرجت ثديها. وتلقف الطفل الحلمة وهدأ. كانت لحظة لن أنساها ما حييت: صدر العروس الملتمع باستدارته الناضحة ورائحة الحليب تفوح في الجو وتزداد قوة مع القليل من العرق. والبحر الليبي ممتد في الخارج، أزرق قاتماً الآن، خلف كتفي المرأة. ولجم لسان رئيس الدير ولكن لوهلة فقط. تغلب الإله في داخله. فأكمل الصلاة دون أن يخزي نفسه.

وحثني الشيطان على التحدث إلى عازف السيمانترون. توجهت إليه في الفناء على الرغم من أني لا أعرف ماذا سأقول.

Twitter: @ketab_n

وبدأت: أب نيكو ديموس!

لكنه وسّع خطاه ودخل حجرته.

بعد ساعة عدت إلى تطوافي على قدمي كما كنت أفضل.

كم من السنوات مرت منذ ذلك الحين؟ أربعون؟ خمسون؟ لقد تلاشى الدير من ذاكرتي ولم يبق، بديلاً عنه، إلا ثدي الأم الخالد الأبيض المدور متلامعاً فوق البحر الليبي.

* * *

باغتني الليل في اليوم التالي وأنا أقترب من قرية. كنت جائعاً ومتعباً من السير طوال النهار على الأرض القاحلة الصخرية. إلا أنني على الرغم من عدم معرفتي بأحد في القرية، ومن عدم وجود أدنى فكرة عما يمكن أن يكون اسمها، فقد أحسست بالراحة. كنت أعرف أنه لا يهم أن تطرق أي باب في قرية كريتية فإن الباب سيفتح لك. وستعد وجبة على شرفك. وستنام بين أفضل ملاءتين في المنزل. وفي كريت لا يزال الغريب هو الإله المجهول. وأمامه تُفتح الأبواب كلها والقلوب كلها.

كان الليل قد بدأ يهبط حين دخلت القرية. الأبواب كلها مغلقة. والكلاب في الدور، وقد شمت رائحة الدخيل، بدأت بالنباح. أين سأذهب؟ وأي باب سأدق؟ إلى بيت القس حيث يجد الغرباء كلهم الملجأ. إن القساوسة في قرانا غير مهذبين وثقافتهم ضحلة. وهم عاجزون عن أية مناقشة نظرية حول المبدأ المسيحي. غير أن المسيح يعيش في قلوبهم. وأحيانا يرونه بعيونهم، إن لم يكن على وسادة مصيبة الحرب فإنهم يرونه جالساً تحت شجرة لوز مزهرة في الربيع.

فتح باب. وخرجت امرأة عجوز صغيرة وبيدها مصباح لكي ترى من هذا الغريب الذي دخل القرية في ساعة كهذه. توقفت وقلت: «أطال اللّه عمرك ياسيدتي». وقد نعّمت صوتي لئلا أخيفها. «أنا غريب وليس لدي مكان أنام فيه. فهل تتلطفين بأن ترشديني إلى منزل القس؟».

ـ بكل سرور. سأرفع المصباح لكي لا تتعثر. فاللّه ـ تبارك اسمه ـ قد منح التراب لبعضهم والحجارة لبعضهم الآخر. لقد كانت الحجارة من نصيبنا. انتبه لخطواتك واتبعني.

وسارت أمامي بالمصباح. انعطفنا عند زاوية ووصلنا إلى باب ذي قنطرة. وكان هناك مصباح معلق عليه. قالت العجوز: «بيت القس».

رفعت المصباح، فوقع الضوء على وجهي وتنهدت. كانت على وشك أن تقول شيئاً ما، لكنها غيرت رأيها.

قلت: شكراً لك يا سيدتي اللطيفة. تصبحين على خير.

ظلت تتطلع إلي دون أن تبتعد.

Twitter: @ketab_n

ـ إن كنت لا تنزعج من بيت فقير تستطيع أن تأتي وتبيت عندي.

لكنني كنت قد طرقت باب القس. سمعت خطوات ثقيلة في الدار. وفتح الباب فرأيت رجلاً عجوزاً يقف أمامي بلحية ناصعة البياض وشعر طويل منسدل على كتفيه. ودون أن يسألني من أنا وما أريد مد يده: أهلاً. هل أنت غريب؟ ادخل.

وأنا أدخل سمعت أصواتاً. فُتحت أبواب وأُغلقت. ثم انسلت عدة نساء مسرعات إلى غرفة مجاورة واختفين. وأجلسني القس على الأريكة.

ـ زوجتي، البابا ديا، متوعكة قليلاً. عليك أن تعذرها. لكن أنا نفسي سأطبخ لك وأعد المائدة لعشائك وأهيء السرير لنومك.

كان صوته مثقلاً ومتألماً. تطلعت إليه. كان شاحباً جداً وكانت عيناه منتفختين وملتهبتين بتأثير البكاء. ولكن لم تخطر لي أية فكرة عن مصيبة. أكلت ونمت. وفي الصباح جاء القس وجلب لي صينية فيها خبز وجبن وحليب. مددت له يدي وشكرته وودعته.

قال: باركك اللّه يا بني. وليكن المسيح معك.

ذهبت. وفي طرف القرية ظهر رجل عجوز. وضع يده على صدره وحياني. ثم سألني: أين قضيت الليل يا بني؟

ـ في بيت القس.

تنهد العجوز: آه. المسكين. وأنت لم تشم رائحة أي شيء؟

ـ ما الذي كان هناك لأشم رائحته؟

ـ لقد مات ابنه صباح الأمس. ابنه الوحيد. ألم تسمع النسوة يندبن؟

ـ لم أسمع شيئاً. لاشيء.

ـ لقد نقلنه إلى الغرفة الداخلية. لا بد أنهن كبحن ندبهن لكي لا تسمع وتنزعج. مع السلامة. رحلة موفقة!

كانت عيناي قد امتلأتا بالدموع. وهتف العجوز مستغرباً: ما الذي يبكيك؟ آه. عرفت. أنت شاب. إنك لم تتعود على الموت بعد. رحلة موفقة!

* * *

جميل أن تكون في كريت ولكن من أجل أن تستمد منها العزم فقط. بعد أشهر قليلة أحسست بالضيق من جديد. ضاقت الطرق، وتقلص بيت أسرتي وفقد الحبق والقطيف أريجهما. وبعد أن رأيت كيف استقر أصدقائي القدامى تملكني الرعب. أقسمت أن لا أحبس نفسي أبداً ضمن الجدران الأربعة لمكتب، وأن لا أنسجم مع حياة الدعة، وأن لا أوقع على اتفاقية مع الضرورة. تعودت أن أنزل إلى المرفأ وأتطلع إلى البحر. كان يبدو باباً للحرية. آه ما أحلى أن تفتحه وتهرب.

Twitter: @ketab_n

بدأت أسير جيئة وذهاباً في المنزل بصمت مطبق. وكان والدي يراقبني وقد قطب حاجبيه. وذات يوم سمعته يقول لأمي: ما الذي حدث لابنك هذا؟ أية أفكار حمقاء تتآكله؟ بدل أن يتطلع أمامه ليقبض على ما هو في متناول يده يتطلع إلى ما لا يمكن الحصول عليه. إنه يرى أن عصفورين على الشجرة أحسن من عصفور في اليد. وقولي عني إنني كاذب إن لم يكن ابننا مثل أولئك المجذوبين الذين قرأت عنهم في قصص الجنيات، أولئك الذين يذهبون إلى أطراف الأرض مفترضين أنهم سيجدون نبع الشباب.

لكنه كان يبكي على حليب مراق. كان يتوقع مني أن أفتح مكتباً وأبدأ العمل عراباً في حفلات التعميد في القرية وفي الأعراس، لكي أكسب أصدقاء سينتخبونني إلى الهيئة التشريعية، وأن أكتب المقالات في الصحيفة المحلية، وأن أصدر كراساً يقول إن المنطقة تسير إلى الهلاك، وإنه من الضروري، بأية طريقة، أن يظهر بشر جدد ويتسلموا الدفة.

وذات يوم لم يستطع تمالك نفسه فسألني: لمَ تظل تتجول هكذا دون أن تقوم بشيء؟ متى تنوي أن تفتح مكتباً وتبدأ العمل؟

ـ لم أتهيأ لذلك بعد.

ـ ما الذي تحتاج إليه أيضاً؟

لم أكن أحتاج لشيء. وفي الوقت نفسه كنت أحتاج إلى كل شيء. كنت لا أزال أتعذب تحت وطأة صلف الشباب وشراهته.

كان نساك طيبة، بتوقهم إلى المطلق، يتحركون في أعماقي (وربما أنهم لا يزالون) كما كان يتحرك أيضا الرحَّل العظام الذين وسعوا الأرض بترحالهم.

استجمعت شجاعتي وأعدت القول: «لم أزل غير مستعد. إن جامعة أثينا غير كافية. علي أن أتابع الدراسات العليا».

ـ وهذا يعني؟

ترددت. كان أبي يجلس على الأريكة في ركنه المعتاد قرب نافذة الدار. تابع درج لفافته وفلشها دون أن يتطلع إلي. كان عصر يوم أحد، وأشعة الشمس تتخلل الألواح ملقية ضوءها على وجهه الصارم الذي أحرقته الشمس، وعلى شاربيه الكثيفين، وعلى الندبة في جبينه، التي لابد أن سيفاً تركياً قد خلفها فيه.

ـ وهذا يعني..؟ أعاد السؤال رافعاً رأسه الآن لينظر إلي: هل تريد أن ترحل إلى الخارج؟

ـ نعم.

ـ إلى أين؟

Twitter: @ketab_n

أظن أن صوتي كان يرتجف: إلى باريس.

ظل أبي صامتاً لحظات قليلة. وأخيراً قال: طيب. اذهب.

كان أبي وحشياً وغير مثقف. إلا أنه لم يمنع عني أبداً أي شيء له علاقة بتطوري الفكري. وقد سمعته ذات يوم يقول لأحد أصدقائه وقد كان مزاجه طيباً: من يسأل عن الكروم اللعينة أو الزبيب والخمر وزيت الزيتون! فلتتحول مواسمي كلها إلى ورق وحبر لابني. إنني مؤمن به!

كان يقوم بأية تضحية معلّقاً عليّ، كما يبدو، آماله كلها في خلاصه الشخصي. لأنني إن نجوت نجا معي، وكذلك نجت معنا ذريتنا المجهولة كلها.

حين كنت لا أزال طفلاً قلت له مرة إنني أريد أن أتعلم العبرية لكي أقرأ التوراة بلغتها الأصلية. وكان هناك يهود في ميغالو كاسترو في ذلك الحين. فقام والدي باستدعاء الحاخام. واتفقا على أن أذهب إليه ثلاث مرات في الأسبوع لأتلقى دروس العبرية. ولكن ما إن سمع أقرباؤنا وأصدقاؤنا بالأمر حتى وقفت شعور رؤوسهم وركضوا إلى أبي صارخين: ما هذا الذي تفعله؟ أليست لديك مشاعر تجاه ابنك؟ ألا تعرف أن هؤلاء الصالبين يضعون الأطفال المسيحيين يوم الجمعة الحزينة في جرن مليء بالمسامير ويشربون دماءهم؟

وأرهق والدي من صرخاتهم ومن بكاء أمي. فقال لي ذات يوم: لقد أوقعنا أنفسنا في التباس طريف. انس مسألة العبرية. ستتعلمها حين تكبر.

كلما كنت أقول له إنني أريد أن أتعلم لغة أجنبية كان يقول: جميل. هيا. تعلمها. ولكن بشرط واحد فقط: أن تلبس قميصاً داخليا آخر. يبدو أنني كنت نحيلاً. ولابد أنه كان خائفاً علي.

تعلمت ثلاث لغات أجنبية قبل أن أغادر كريت. وكان علي نتيجة لذلك أن أرتدي قمصاناً داخلية إضافية. وحين ذهبت إلى الجامعة في أثينا خلعتها.

ـ طيب. اذهب. قال ذلك مرة أخرى.

لم أستطع استيعاب فرحتي. انحنيت للإمساك بيده وتقبيلها. ولكنه سبقني وسحبها قائلاً: «لستُ قسّاً».

في اليوم التالي قبلت يد أمي. انحنت علي ومنحتني بركتها وطلبت إلي حبّاً بالله أن لا أتحول إلى كاثوليكي. ثم علقت حول رقبتي تميمة. وكانت تحتوي على قطعة من (الصليب الحقيقي). يبدو أن جدي كان يلبسها في الحروب فلم تلمسه رصاصة واحدة.

رافقني والدي إلى المرفأ وهو يتطلع إلي بقلق وفضول من وقت لآخر من زاوية عينه. لم يستطع أن يفهم من أنا، وماذا كنت أريد، ولماذا كنت أتنقل من مكان إلى آخر بدل المكوث والاستقرار في كريت.

Twitter: @ketab_n

قال لي حين وصلنا إلى الواجهة المائية: أظن أنك تشبه جدك. لا أعني والد أمك بل والدي. القرصان.

وبعد لحظة صمت تابع: ولكنه كان يسطو على السفن ويقتل ويسلب ويزيد أملاكه. فما شأنك أنت! أية سفن تسطو عليها؟

وصلنا إلى الميناء فشد على يدي: «وداعاً. وحظاً سعيداً. وانتبه لما أنت فيه». ثم هز رأسه غير راض أبداً عن ابنه الوحيد. وبالفعل أية سفن سأسطو عليها؟

Twitter: @ketab_n

23

باريس ـ نيتشه ـ الشهيد العظيم

الفجر. كان هناك رذاذ خفيف ولطيف. ألصقت وجهي بنافذة العربة فاستطعت رؤية باريس تمر من وراء شبكة المطر الشفافة. تمر ضاحكة وسط دموعها وهي ترحب بي. رأيت الجسور تمر قربي والمباني المتعددة الطوابق والمغطاة بالسخام والحدائق والكنائس، وأشجار الكستناء القوية العارية من أوراقها والناس يسيرون مسرعين في الشوارع العريضة المضاءة. من خلال خيوط المطر المتدلية استطعت أن أرى وجه باريس اللعوب الفاتن كله، وهو يبتسم ويتلألأ، تماماً كما نرى الحائك خلف خيطان النول.

سألت نفسي عما يمكن أن يكون مخبأ لي في هذه المدينة التي طال اشتهائي لها. ولمت روح الإنسان لعجزها عن التنبؤ بالمستقبل ولو بساعة واحدة قادمة. أفلا تستطيع الروح أن تفعل شيئاً لرؤية ما سيأتي إلا انتظار ولادة ما لم يولد؟ فهل الروح كئيبة وهشة مثل اللحم؟ كنت أتساءل عما إذا كنت سأجد في هذه المدينة الكبيرة ما كنت أبحث عنه. ولكن ما الذي كنت أبحث عنه؟ ما الذي كنت أرغب في أن أجده؟ أكان هذا يعني أن الدليل، ذا إكليل الشوك، لم يكن كافياً لي؟ الدليل الذي كان يقف كمعلم، على قمة جبل عالية، مصنوع من الحجارة والدم، وكان يدلني على الطريق؟ أم أن الأب جواكيم كان على حق في دفعي لعبور الجحيم والمطهر الأرضيين إن كنت أرغب في الوصول إلى الفردوس! أن أجرب المتعة والألم والخطيئة، وبعدها أتجاوز المتعة والألم والخطيئة! إن كنت أرغب في الخلاص!

كان الضوء قد رفع رأسه قليلاً. شمس ملساء علقت نفسها في هذه السماء الغريبة المؤلفة من الضباب والكآبة واللطف العَصي على التعبير. كم يبدو سائق معجلة[1] اليونان المؤنس مقتلعاً من جذوره في هذه الأراضي الغريبة. بعيداً في وطنه كان يعري كل شيء ويكسوه من جديد بضوئه جاعلاً الروح تتألق صريحة ومرئية مثل الجسد. إن الشياطين تهجر

(1) يقصد الشمس.

Twitter: @ketab_n

حجرتها المظلمة هناك فيتغلغل الضوء إلى نقي عظامها الأسود ويحولها إلى مخلوقات طاهرة حلوة الكلام مثل البشر. ولكن الشمس هنا مختلفة. الأمر الذي يعني القول إن وجهَيْ الأرض والروح مختلفان. كان علينا أن نتعلم محبة الجبين نصف المضاء للجمال الجديد والابتسامة الكتوم والبهاء الخفي.

هذه ملامح اللّه الجديدة. هكذا رحت أفكر، وأنا أحدق بشراهة إلى الأشجار والبيوت والنساء المتبرجات والكنائس الكئيبة. هذه هي ملامح اللّه الجديدة. إنني أسقط وأصلي لمجده. كان احتكاكي الأول بهذه الملامح الأرضية الجديدة نشوة دامت عدة أيام، بل عدة أسابيع. الشوارع والحدائق والمكتبات والمتاحف والكنائس القوطية، والرجال والنساء في المسارح وفي الشوارع، والثلج الجميل الذي بدأ يهطل ـ كل منها كان ثملاً أيضاً. وراحت كلها تتقلب أمام روحي المبتهجة، إلى أن زالت السكرة أخيراً، وهدأ العالم نفسه مرة أخرى وثبت.

وذات يوم بينما كنت منكباً على كتاب في مكتبة سانت جنفياف جاءت إلي فتاة. كانت تمسك بكتاب يحتوي على صورة رجل وقد غطت أسفل الصفحة بكفها لكي تخفي اسمه. انحنت فوقي وتطلعت إلي بدهشة. ثم أشارت إلى الصورة. وسألتني: من هو؟

هززت كتفي: كيف لي أن أعرف؟

ـ ولكنه أنت. الصورة! انظر إلى الجبين وإلى الحاجبين الكثيفين والعينين الغائرتين.

ونظرت إلى الصورة مضطرباً.

ـ طيب. من هو؟ قلت وأنا أحاول أن أزيح يد الفتاة جانباً لكي أرى اسمه.

ـ ألا تعرفه؟ أهي المرة الأولى التي تراه فيها؟ إنه نيتشه!

نيتشه! لقد سمعت عنه. لكنني لم أكن قد قرأت أياً من كتبه بعد.

ـ ألم تقرأ «ولادة التراجيديا» أو «زرادشت»؟ عن العود الأزلي أو الإنسان المتفوق (السوبرمان)؟

ـ لا شيء. لاشيء. أجبت الفتاة بخجل.

ـ انتظر لحظة! هتفت وغابت على عجل.

خلال دقائق قليلة عادت ومعها زرادشت: هاك. قالت ضاحكة: ها هنا غذاء قوي لعقلك ـ إن كان لديك عقل وإن كان جائعاً.

* * *

كانت تلك واحدة من اللحظات الحاسمة في حياتي. فبفضل تدخل طالبة جامعية مجهولة كان قدري ينصب لي كميناً في مكتبة سانت جنفياف. كان المسيح الدجال ينتظرني هنا، ذلك المحارب الناري العظيم المضرج بالدماء.

Twitter: @ketab_n

في البدء أرعبني تماماً. لم يكن ينقصه شيء. براثن ليوسيفر وأنيابه وأجنحته كانت كلها ظاهرة؛ إضافة إلى الصفاقة والغطرسة والعقل العاصي والرغبة الجامحة في التدمير والسخرية والشك والضحكة العاقة. لكن طيشه وكبرياءه حرراني من قدميّ. وأثملني الخطر. فغرقت في كتابه بخوف وتوق، وكأنني أدخل غابة صاخبة مليئة بالوحوش الضارية والنباتات المدوخة.

كل يوم كنت أعجز عن انتظار انتهاء دروسي في السوربون وهبوط الليل. كنت أتشوق للذهاب إلى البيت وللطلب إلى صاحبة المنزل أن تشعل لي النار لكي أفتح كتبه ـ كانت كلها مكومة على مكتبي ـ وأبدأ في مشاركته كفاحه. تعودت شيئاً فشيئاً على صوته، ونفسه اللاهث وصرخاته المتألمة. لم أكن أعرف أن المسيح الدجال ـ لقد اكتشفت هذا لتوي ـ يكافح ويتألم، تماماً كما يكافح المسيح ويتألم. وأنهما أحياناً، في لحظات الكارثة، كان وجهاهما يبدوان متشابهين.

كانت أقواله تبدو لي تجديفات عاصية. والسوبرمان عنده قاتل لله. إلا أن لهذا العاصي سحراً غامضاً. كانت كلماته رقية مغوية تدوخ وتسكر، إنها تجعل قلبك يرقص. والحقيقة أن فكره كان رقصة ديونيسية (عربيدة)، وأغنية نشوانة قائمة بانتصار في أكثر اللحظات يأساً من مأساة الإنسان والإنسان المتفوق. ورغماً عني أعجبت بألمه وجلَده وطهارته، كما أعجبت بقطرات الدم التي لطخت حاجبيه. وكأنما هو أيضاً، المسيح الدجال، كان يضع على رأسه إكليلاً من الشوك.

وعلى الرغم من أنني لم أكن قد توصلت إلى هذه الفكرة بوعي إلا أن الشخصين، ،المسيح والمسيح الدجال، بدآ يظهران بالتدريج. أكان صحيحاً، إذن، أن هذين الاثنين لم يكونا عدوين أبديين، وأن ليوسيفر لم يكن عدو الله؟ وهل سيتمكن الشر، أخيرًا، من الدخول في خدمة الخير ويتعاون معه؟ ومع مرور الأيام وفيما كنت أدرس أعمال هذا النبي المعادي لله كنت أصعد درجة بعد أخرى للوصول إلى وحدة صوفية حمقاء. كانت الخطوة الأولى في الاستهلال، كما قلت لنفسي، هي: الخير والشر عدوّان. الدرجة الثانية والأعلى هي: الخير والشر زميلا عمل. الخطوة الأعلى. وأعلى خطوة أستطيع الوصول إليها الآن هي: الخير والشر متطابقان (هما الشيء ذاته).

عند هذه الدرجة توقفت مرتعداً من الشك الرهيب الذي لمع في عقلي: ربما أن هذا الكافر القديس كان يحثني على الانضمام إليه في كفره!

قضيت الشتاء كله منشغلاً بهذه المعركة. صار النزاع أكثر عناداً ودقة. ومع مرور الزمن، استنشقت لهاث الخصم، لهثات عميقة متألمة من بعد متزايد، إلى أن بدأت الكراهية تتحول وتتغير. ودون أن أدري تحول الصراع إلى عناق. لم يسبق لي في حياتي كلها أن أحسست، بمادية ملموسة كهذه بدهشة كهذه. إن الكراهية، بعبورها بنجاح عبر الإدراك والشفقة

Twitter: @ketab_n

والتعاطف، يمكن أن تتحول إلى حب. وخطر لي أن الأمر يبدو وكأنهما كانا فيما مضى، متحدين ثم تفرقا. وهما يكافحان الآن للالتقاء من جديد. لكن وقت المصالحة التامة لم يحن بعد. وإذا كان في وسعي أن أحكم من خلال تجربتي فلا بد أن وقتاً كهذا سيحين. أي أنه سيأتي اليوم الذي يعترف فيه بالخصم وبمساهمته الحرة في المركب العظيم الذي يسمى «الكون المتناسق» ـ كوسموس. وبتعبير آخر «التوافق والانسجام» ـ هارموني.

ما أثر في أكثر من أي شيء آخر، أيها (الشهيد العظيم)، هو حياتك المأساوية المقدسة. كان المرض ألد أعدائك وأوفى أصدقائك. الوحيد الذي ظل وفياً حتى الموت. لم يكن يسمح لك أبداً أن تسترخي، أو أن تبقى حيث أنت. ولم يسمح لك أن تعلن: «إنني مسرور هنا. ولن أذهب أبعد من ذلك». كنت لهباً تأجحت ثم ذويت، تاركاً رمادك خلفك ثم رحلت.

نعم، أعرف من أين أتيت.
مضطرماً كاللهيب
أحترق وأتلف.
كل ما ألمسه يتحول إلى ضوء
وكل ما أغادره يتحول إلى فحم.
لاشك أنني ملتهب.

حين جاء الربيع، وصار الطقس أكثر دفئاً بقليل، انطلقت في رحلة حج لكي أعثر على قطرات دمك الذي لا يزال حاراً وأتابعها على كل مرتقيات كفاحك واستشهادك البطولي.

ذات صباح ماطر كنت أتجول عبر الضباب. باحثاً عنك في الأزقة الضيقة الموحلة في قريتك ـ مسقط رأسك. ثم وجدت بيت أمك في المدينة الصغيرة المجاورة ذات الكنيسة القوطية الفخمة.

خلال نوبات الحمى الشديدة كنت تلجأ إلى هناك لكي تجد الراحة في أن تعود ابنَها من جديد. ثم أتت الشوارع المقدسة على كورنيش جنوه، حيث كنت تجد متعة كبيرة في البحر وحلاوة في السماء والناس المتواضعين. كنت لطيفاً وحليماً، فقيراً جداً ومرحاً جداً، إلى درجة أن سمّتك نسوة الجوار: «القديس». وأنت تذكر أنك قد خططت للبدء بحياة على غاية من الهدوء والبساطة: «إنني أعتزم أن أكون مستقلاً بطريقة لا يؤذي فيها استقلالي أحداً، أن يكون لدي كبرياء خبيئة رخيمة الصوت، أن أنام دون هموم وأن أتجنب الشراب، وأن أعد وجباتي الخاصة المتواضعة: أن لا يكون لدي أصدقاء لامعون يفرضون أنفسهم، وأن لا أتطلع إلى النساء، أو أقرأ الصحف، أو أبحث عن امتيازات، وأن أختلط مع الصفوة المختارة فقط. فإن لم أجد الصفوة أختلط مع الناس العاديين».

Twitter: @ketab_n

كم تأثرت حين كنت أبحث تحت شمس الربيع في أنغادين بين سيلز ماريا وسيلفابلانا عن الصخرة الهرمية، حيث هيمنت عليك للمرة الأولى رؤيا (العود الأزلي)! لقد صرخت وسط البكاء والنواح: «مع أن حياتي كانت مريرة ولا تطاق؛ فلتحل عليها البركة. ولتتكرر مرة بعد أخرى مرات لا تحصى». ذلك لأنك كنت تتذوق فرح الأبطال المرير، الفرح الذي كان يبدو للنفوس الحقيرة استشهاداً: أن ترى الهاوية أمامك، وأن تتقدم إليها دون أن تتنازل للإحساس بالخوف.

كانت القمم المحيطة بي تطلق بخاراً أزرق في ضوء الشمس. سمعت ضجة عن بعد ورأيت جبلاً من الثلج ينهار بغتة. فتذكرت ما كتبه إليك صديقك: «يبدو لي كأنني أسمع في كتبك صوت الشلال البعيد».

في طريقي داخل سيلز ماريا التفتت إلى اليمين مرتعشاً بينما كنت أعبر جسر المشاة الصغير الذي تليه المقبرة المتواضعة. ارتعشت. فمثلما أحسست أنت بوجود زرادشت إلى جانبك، كذلك فإنني رأيت ظلي تحتي ينقسم إلى اثنين، وأنا أنظر إليه ـ وكنت أنت هناك تسير إلى جانبي.

أيها الشهيد العظيم. مآثرك ومحنك كلها تبرز في عقلي. حين كنت لا تزال مليئاً بالشباب والحماس، كنت تستجوب بإصرار كل بطل لكي تختار ذلك الذي سيُخضع قلبك. لقد جاء اليوم الذي التقيت فيه شوبنهور (برهمي الشمال). جلستَ عند قدميه واكتشفت الرؤية البطولية واليائسة للحياة: العالم من خلفي. وكل شيء، المرئي وغير المرئي، حلم خادع. لاشيء موجود إلا الإرادة ـ وهي عمياء دون بداية أو نهاية. لا هدف لها. مستهترة. ليست عقلية أو لا عقلية. هائلة بشكل لا عقلاني. حيث تنحشر في الزمان والمكان وتتفتت إلى أشكال لا نهائية. وتمحوها. ثم تخلق أشكالاً جديدة وتسحقها من جديد. وتستمر إلى الأبد على هذا المنوال. ليس هناك شيء اسمه التقدم. فالقدر لا يحكمه العقل. والدين والأخلاق والأفكار العظيمة عزاء لا قيمة له. وهي لا تصلح إلا للجبناء والحمقى. الإنسان القوي، الذي يعرف ذلك يواجه بهدوء سلسلة الأوهام في العالم (فانتا سماروجيا)، هذه التي لا غاية لها. ويفرح لتفسخ قناع مايا[2] (ذي الأشكال المتعددة والعمر القصير).

كل ما تنبأت به في الماضي، آه يا نبي إنسان المستقبل المتفوق، قد انتظم الآن في نظرية صارمة ومحبوكة. وتسامى إلى مستوى الرؤيا البطولية. فالشاعر والفيلسوف والمحارب الذين كانوا متخاصمين في قلبك قد أصبحوا أخوة. وصار الزاهد الشاب أمام الموسيقى والعزلة والمشيات الطويلة يستمتع بالسعادة لفترة معينة.

ذات يوم حين فاجأك المطر الغزير في الجبال كتبت: «ما الذي يعنيني من المبادئ

---

(2) قوة سحرية عند الهنود فيها قدرات الآلهة والشياطين.

Twitter: @ketab_n

الأخلاقية: افعل هذا، ولا تفعل ذاك؟ كم يختلف عنها البرق والعاصفة والبرد ـ القوى الحرة الخالية من التعاليم الأخلاقية! كم هي سعيدة وقوية تلك القوى التي لا يزعجها الفكر!».

كانت نفسك تفيض بمرارة بطولية حين قيض لك القدر، ذات يوم في زهو شبابك، أن تلتقي وجهاً لوجه بدليلك الثاني بعد شو بنهور، ذلك الإنسان الذي منحك أعظم متعة في حياتك: فاغنر.

لحظة عظيمة. كان عمرك خمسة وعشرين عاماً. وكنت متوهجاً بالحماس ومنكمشاً على نفسك، بطباع هادئة ولطيفة وعينين غائرتين عميقتين. وكان فاغنر في التاسعة والخمسين، في أوج قوته، مليئاً بالأحلام والمآثر. قوة طبيعية متفجرة فوق رؤوس الجيل الجديد. وكان يقول للشبان: أريد مسرحاً أستطيع أن أخلق فيه بحرية. تعالوا وامنحوني إياه. أريد شعباً يفهمني. وأنتم ستكونون شعبي! ساعدوني! ـ إنه واجبكم. ساعدوني وسأمجّدكم!

كان الفن هو المتنفس الوحيد. لقد كتب فاغنر إلى الملك لويس الثاني: بتقديم الحياة على أنها لعبة يحول الفن أكثر وجوه الحياة إخافة إلى صور جميلة. وبهذا فإنه يسمو بنا ويعزينا.

كنت تستمع باهتمام، وتُحول كلمات المعلم إلى لحم ودم يقاتلان إلى جانبه. ألقيت بنظرك إلى الفلاسفة ما قبل السقراطيين. وبغتة انبثقت أمامك حقبة عظيمة وبطولية، حقبة مليئة بومضات نادرة من البصيرة والخرافات المخيفة والأفكار المأساوية والنفوس المعذبة التي انتصرت على الهاوية بأن غطتها بالأساطير البهيجة. ولم تعد أمامنا اليونان الرعوية التي صورها لنا أساتذة المدارس، الأرض المتوازنة السعيدة التي كانت تواجه الحياة والموت بهدوء باسم ساذج. انتهى هذا الهدوء، وكان هذا ثمرة الشجرة المتوهجة المزدهرة التي بدأت تذبل. وجأرت الفوضى تحت الأثداء اليونانية بقيادة الرجال والنساء في رقصات مسعورة بين الجبال والكهوف. وقامت اليونان بأسرها ترقص مثل مينادة[3]. وفي حمى الحكمة المأساوية رحت تكدح لتجمع أجزاء رؤياك في كل موحد. كان أبولو وديونيزوس هما الازدواج المقدس الذي ولد المأساة. أبولو يحلم بتوافق العالم وجماله وهو يراه في صيغ منسجمة، راسخاً في تفرده وسكونه. كان يقف وسط بحر الظواهر المتلاطمة وهو مستمتع بالأمواج التي كانت تغيظه في أحلامه. نظرته مليئة بالنور. وحتى حين كان الحزن أو الغضب يهيمنان عليه لم يستطيعا تمزيق التناغم الوحدوي المقدس.

ديونيزوس يمزق التفرد، ويلقي بنفسه في بحر الظواهر ويلحق بالأمواج الرهيبة المتلألئة المتقلبة. وتآخي البشر مع الوحوش. وصار الموت ذاته يُرى كأحد أقنعة الحياة. وينقسم الوهم المتعدد الصيغ والمنتشر باطراد إلى قسمين. ونرى أنفسنا وجهاً لوجه مع الحقيقة. أية

(3) امرأة تشارك في مهرجانات باخوس، أو امرأة شديدة الاهتياج مخالطة في عقلها.

Twitter: @ketab_n

حقيقة؟ حقيقة أننا جميعاً واحد، . وأننا جميعاً ومعاً نخلق إلهاً، وأن الله ليس سلف الإنسان بل حفيده.

كان اليونانيون، وهم محصنون في حصن أبولو، يكافحون في البدء لإقامة حاجز في وجه هذه القوى الديو نيزوسية المنفلتة من عقالها، والتي كانت تأتي عبر الطرق البحرية والبرية لتلقي بنفسها على الأرض اليونانية. لكنهم كانوا عاجزين عن ترويض ديونيزوس ترويضاً كاملاً. والتقى الإلهان في منازلة دون أن يتمكن أحدهما من إخضاع الآخر. فأصبحا صديقين. وخلقا المأساة.

تحررت الطقوس الديو نيزوسية من وحشيتها، وغسلتها رقة الحلم المضبوطة، وكللتها بالبهاء. غير أن ديونيزوس ظل البطل الدائم والوحيد للمأساة. إن أبطال المأساة وبطلاتها جميعاً هم ببساطة أقنعة للإله ـ هم ابتسامات ودموع ملطفة تتألق بالعظمة الأبولونية.

ثم تلاشت المأساة اليونانية. اغتالها التحليل المنطقي. قام سقراط، بجدلياته، بقتل الرصانة الأبولونية والثمالة الديونيزوسية. وانحطت المأساة على يدي يوربيديس إلى مستوى بشري بدلاً من العاطفة الإلهية، وإلى موعظة سوفسطائية للدعوة للأفكار الجديدة. فقدت جوهرها المأساوي وتبددت.

غير أن الثمالة الديو نيزوسية بقيت. وخلدت نفسها في مذاهب سرية، وفي لحظات الفرح العظيمة في حياة الإنسان. وكنت أتساءل عما إذا كانت ستستطيع أن تكسو نفسها مرة أخرى بلحم الفن المقدس. وهل ستُبقي الروح السقراطية ـ بتعبير آخر: العلم ـ ديو نيزوس في قيوده إلى الأبد؟ أم لعله بعد أن أدرك العقل البشري حدوده يمكن لحضارة جديدة أن تظهر، ويكون سقراط رمزها، سقراط الذي تعلم الموسيقى أخيراً؟

حتى ذلك الحين كان المثل الأعلى لحضارتنا هو الباحث الاسكندراني. غير أن التاج الذي على رأس العلم بدأ يتقلقل. فالروح الديونيزوسية كانت دائماً تعود إلى الاستيقاظ. . وأعلنت الموسيقى الألمانية من باخ إلى فاغنر عن مجيئها. بدأ فجر «حضارة مأساوية» جديدة بالبزوغ. وبدأت المأساة تعاني بعثها. فكيف تم تحول عالم الوهم هذا، صحراء شوبنهاور المعتمة؟ وكيف وقع كل ما هو ميت وساكن في عصف دوامة النقد الألماني! وهتف النبي الشاب: نعم يا أصدقائي! تعلموا أن تؤمنوا، كما أؤمن، بالحياة الديونيزوسية وببعث المأساة الديونيزوسية. لقد انتهى العصر السقراطي. أمسكوا بالترسوس[4] في أيديكم. وتوجوا أنفسكم باللبلاب. .تجرأوا على أن تكونوا كائنات مأساوية. وهيئوا أنفسكم لمعارك عظيمة. وثقوا بإلهكم ديو نيزوس.

---

(4) الصولجان. وهو أيضاً رمح متوج بحلية على شكل كوز صنوبر. ويلف أحياناً بأعواد الكرمة. كان يحمله باخوس وأتباعه. (المورد).

Twitter: @ketab_n

هكذا، يا نيتشه، كانت الآمال الخلاقة الشاملة التي علقتها على عمل فاغنر. فالحضارة المأساوية الجديدة كانت ستنبع من ألمانيا. كان أسخيلوس الجديد حياً. وهو يقاتل أمام عيوننا. إنه يخلق. وهو يتمنى أن نعينه.

غير أن تنبؤاتك لم توقظ أية استجابة. احتقرك الباحثون. وظل الجيل الجديد غير مهتم. تألمت وتولدت الشكوك في أعماقك، حتى بدأت تشك في إمكانية تسامي الإنسان المعاصر. مرضت وتخلى عنك تلاميذك في الجامعة.

ألمّ يعتصر القلب. قام الشاعر الذي فيك بتغطية الهاوية بزهور الفن. ولكن الفيلسوف الذي فيك، والذي كان راغباً في أن يتعلم مهما بلغت التكاليف، كان يحتقر كل راحة؛ وحتى راحة الفن.

كان الأول ـ الشاعر ـ يخلق ويبعث الأمل. بينما كان الثاني ـ الفيلسوف ـ يحلل ويشرح ويبعث اليأس. قام عقلك النقدي بتحطيم الأصنام. فأية قيمة لفن فاغنر؟ هكذا كنت تسأل نفسك. لقد كان فناً بلا شكل وبلا إيمان. لا شيء أكثر من التلفظ ببلاغة خاوية من الشمالة والنبل القدسيين ـ تماماً مثل فن يوريبيديس. إنه فنّ صالح للسيدات المهسترات وللمنافقين وللعجزة. وانحط نصف إلهك الآن. وتحول إلى منافق. لقد خدعك ولم يحافظ على وعده. إنه يعمل الآن في مضامين مسيحية. ويكتب «بارسيفال». لقد اندحر البطل وتحطم عند أسفل الصليب ـ الرجل ذاته الذي كان قد وعد بخلق أساطير جديدة وأن يشد فهد العقل إلى العربة الديونيزوسية.

ان الفن يغطي الحقيقة الرهيبة بصورة جميلة. ولذا فإنه عزاء للجبناء. كانت تلك صرختك الجديدة. أما نحن فلنكتشف الحقيقة حتى لو دمر العالم خلال ذلك.

كانت هذه الصرخة الجديدة متناقضة في بدايتها. لقد انتصر الناقد فيك على الشاعر. وانتصرت الحقيقة على الجمال. ولكن حتى شوبنهور الآن لم يستطع أن يلبي حاجات عقلك المتزايدة. فالحياة ليست مجرد إرادة العيش. بل هي شيء أكثر حدة ـ هي إرادة السيطرة. والحياة لا ترضى بمجرد الحفاظ على الذات. إنها ترغب في التوسع والسيطرة.

ولم يعد الفن غاية الحياة. بل هو استراحة قصيرة في معركة الحياة. إن المعرفة أسمى من الشعر. وسقراط أعظم من أسخيلوس. وعلى الرغم من أن الحقيقة مميتة إلا أنها أسمى من أجمل الكذبات وأغناها.

انشطر قلبك إلى نصفين، وأنت تنتقل في مرضك من مكان إلى مكان. كانت الحرارة تشلك، والثلج يجرح عينيك، والريح تسلخ أعصابك. ولعجزك عن النوم بدأت تتعاطى المهدئات. كنت تعيش في غرف غير مدفأة وغير مريحة ومعدمة. ولكن ظللت تقول: أليس من حق المريض أن يلعن الحياة؟ وانبثقت من آلامك أنشودة الفرح والصحة صافية ومقاومة.

Twitter: @ketab_n

أحسست ببذرة عظيمة تنتش في أعماقك وتلتهم أحشاءك. وذات يوم بينما كنت تتمشى في أنغادين توقفت فجأة. لجمك الرعب وأنت تفكر في أن الزمن لا يحد. بينما المادة محدودة. ولذا فلا بد أن تأتي لحظة جديدة تعود فيها تركيبات المادة هذه إلى الحياة كما كانت من قبل. بعد آلاف من القرون سيقف شخص مثلك، والحقيقة أنه أنت بالذات، على هذه الصخرة ذاتها ويعيد اكتشاف الفكرة ذاتها.

ولن يتكرر هذا مرة واحدة فقط بل عدداً لا يحصى من المرات. ولذا فلا أمل في مستقبل أفضل. لا خلاص. سنظل ندور إلى الأبد على عجلة الزمن ذاتها. وبهذه الطريقة يصبح لأكثر الأمور عرضة للفناء خلودُها، ويصبح لأكبر أعمالنا أهمية لا تقاس.

غرقت في نشوة الألم. فهذا كله كان يعني أن معاناتك لا حدود لها. وأن معاناة العالم لا شفاء منها. ولكن كبرياء الزاهد فيك جعلتك تستقبل الشهادة بفرح.

وقلت لنفسك إن عملاً جديداً يجب أن يخلق. وإن من واجبي أن أخلقه. وذلك لطرح إنجيل جديد على البشرية. ولكن بأية صيغة؟ النهج الفلسفي؟ لا. يجب أن ينسكب الفكر غنائياً. ملحمة؟ نبوءات؟. وأبرق في ذهنك زرادشت.

ووسط هذا الألم الممتع وجدتك لوسالوم، السلافية النارية ذات الفكر المتوقد والمليئة بالإثارة والفضول، والتي انحنت أمامك، أيها الشهيد العظيم، وراحت تستمع إليك باهتمام. بذلت نفسك لها فاستنزفتها وهي لا تعرف الشبع حتى جففتها. كم من السنوات قد مرت منذ أن فتحت قلبك بمثل تلك الثقة، واستمتعت بالتوهج والاهتياج والإنتاجية التي تثيرها فينا النساء، وأحسست بقلبك يذوب تحت درعك الحربي الثقيل! في ذلك المساء حين دخلت حجرة تصوفك، كان هواء حياتك عبقاً لأول مرة برائحة امرأة ورحت تستنشقه بعمق.

تحقيق السوبرمان. وكان العَود الأزلي يخنقك. كان السوبرمان هو شيميرا[5] الجديد الذي يستطيع القضاء على رعب الحياة.

ليس الفن، بعد، بل القدرة. اعتبرت الإله طاحونة هوائية، يا دون كيشوت، ورحت تدكه. أعلنت: «مات الله». وأوصلتنا إلى حافة الهاوية. هناك أمل وحيد: على الإنسان أن يتخطى طبيعته ويخلق السوبرمان. وسيقع على عاتقه عبء الإدارة الكاملة والتنظيم الشامل للكون (كوسموس) وستكون لديه القدرة على تحمل هذه المسؤولية.

اللّه ميت. وعرشه خال. وسنتوج أنفسنا مكانه. هل نظل وحدنا تماماً في العالم؟ وهل رحل السيد؟ يكفي هذا. منذ الآن لن نعمل لأنه يأمرنا بذلك. وليس لأننا نخاف أو نطمح.

---

(5) بين أغوال العواصف يكفي ذكر شيميرا وهاربيس للحماية. شيميرا إلهة العواصف. لها رأس أسد

Twitter: @ketab_n

بل لأننا نحن أنفسنا نريد أن نعمل. إن العود الأزلي خاوٍ من الأمل والسوبرمان هو الأمل العظيم.

كيف يمكن تحقيق المصالحة بين هاتين النظرتين المتناقضتين للعالم؟

ألمٌ لا يوصف. منذ ذلك الحين وروحك ترفرف أجنحتها فوق هاوية الجنون. وظل زرادشت مجرد صرخة. تركت تلك القصيدة المأساوية في حالة نصف اكتمال ورحت تكافح الآن لتثبت أن جوهر الحياة هو الرغبة في السيطرة.

صرخت أن أوروبا تنهار. وعليها أن تنصاع لمبدأ الزعماء الصارم. إن الأخلاقية المسيطرة اليوم هي من صنع العبيد، مؤامرة دبرها الضعفاء ضد الأقوياء. دبرها القطيع ضد الراعي. لقد قام العبيد، بأنانية داهية، بقلب القيم رأساً على عقب. صار القوي سيئاً. وصار المريض والضعيف طيباً. هؤلاء العبيد لا يستطيعون تحمل الألم. إنهم خيرون ومسيحيون واشتراكيون. السوبرمان وحده، الذي يقسو على نفسه بادئ ذي بدء، هو القادر على طرح وصايا جديدة وإعطاء الجماهير أهدافاً سامية جديدة.

ولحقت بك أحلى الرعشات تلك إلى الجبال، أيها الزاهد، حيث كنت قد أقمت ملجأك. كنت تنتظر رسالة المرأة متقطع الأنفاس. وذات يوم أرسلت إليك ثمانية أبيات. خفق قلبك وكأنك فتى في العشرين من العمر. ورحت ترتلها تحت أشجار التنوب المنعزلة:

من ذا الذي يستطيع الهرب إن قبضت عليه
إن حولت نحوه عينك القاسية؟
لن أرغب في الهرب إن أمسكت بي
ولن أصدق أنك تستطيع الاكتفاء بالتدمير
أعرف أنك تمر عبر كل كائن أرضي
ولا شيء على الأرض يظل دون أن تلمسه.
الحياة من دونك ستكون جميلة
ولكنك جدير جداً بأن تحيا.

ثم جاءت، فوراً، أيام الفراق المشؤومة. أَخَفْتَ المرأة. كنت مثل غابة داهمها الليل، وفي عتمتك لم تستطع المرأة أن ترى الإله الصغير يبتسم لها وإصبعه على شفتيه. وبدأ من جديد استشهادك: المرض والعزلة والصمت. كنت تحس إحساس الشجرة التي أثقلتها ثمارها فأحنتها. وكنت تتوق إلى أيد تأتي وتجني محصولها.

وعلى الرغم من أنك كنت تقف في نهاية الطريق وتطل على مدن البشر تحتك فإن أحداً لم يأت. أليس هناك من يحبني؟ رحت تصرخ في عزلتك. أليس هناك من يهينني أومن يسخر

Twitter: @ketab_n

مني؟ أين الكنيسة لتنزل لعناتها علي؟ وأين الدولة لتقطع رأسي؟ إنني أصرخ وأصرخ. ألا يسمعني أحد؟

وانبثق في حناياك أمل جديد ـ بذرة جديدة، السوبرمان. كان السوبرمان يشكل غاية العالم. وهو الذي يمسك بالخلاص بين يديه ويحدد الجواب لسؤالك القديم؛ عما إذا كان من الممكن السمو بالإنسان المعاصر. نعم. ممكن. وليس عن طريق المسيح كما كان ذلك المرتد فاغنر يعظ في عمله الجديد؛ بل عن طريق الإنسان نفسه، بفضائل أرستقراطية جديدة وبكفاحاتها. كان الإنسان قادراً على استيعاب طبيعة هذه الأهداف، والتنظيم الملائم للنخبة وللدهماء، ودور الحرب في هذه الحقبة المأساوية من التاريخ الأوروبي. تلك كانت المشكلات التي أرهقتك في السنوات الأخيرة من وضوحك الفكري.

ولما لم تكن قادراً على حلها، وراح عقلك يتداعى، انصرفت من جديد تكرس نفسك لقصائدك الديونيزوسية القديمة. وغنيت أغنية البجعة الخاصة بك بتشاؤم مرير:

الشمس تغيب.
سرعان ما ستتوقف عن الظمأ
يا قلبي المحترق.
في الهواء عذوبة
أحس بأنفاس من أفواه مجهولة ـ
البرودة العظيمة تقترب..
الهواء غريب ونقي.
ألم تُلقِ هذه الليلة
نظرة ساخرة ومغوية علي؟
فلتتماسك يا قلبي الجريء
ولا تسأل لماذا.
إنه مساء حياتي!
والشمس تغرب.

رأيتَ ما لم يكن مسموحاً للإنسان أن يراه. فانخطف بصرك. رقصت، خارج حدود الاحتمال البشري، على حافة الهاوية. ثم غرقت في الهاوية. سيطرت الظلمة على عقلك بسرعة. ودامت هذه الظلمة أحد عشر عاماً حتى موتك. كنت أحياناً تمسك بين يديك كتاباً وتسأل: «أنا أيضا كتبت كتباً رائعة. ألم أفعل؟». وحين كانت تقدم إليك صورة فاغنر كنت تقول: «لقد أحببت هذا الرجل كثيراً».

لم يسبق أن انطلقت من صدر إنسان صرخة أكثر تمزيقاً للقلب. ولم يسبق لي أن عشت

Twitter: @ketab_n

حياة قديس بهذه الصرامة، حتى حين كنت أقرأ الأساطير المقدسة في طفولتي. أعتقد بعد انتهاء حجي إلى الجلجلة وعودتي إلى باريس أن قلبي (وليس عقلي) قد تغير. إلى هذا الحد عانيت آلام هذا الشهيد الملحد العظيم. وبقسوة كبيرة بدأت جراحي القديمة تلتهب، وأنا أتتبع هذه الآثار الدامية إلى درجة أني صرت أشعر بالخجل من حياتي: حياة الجبان المنظمة الرصينة التي لم تجرؤ على تهديم جسورها وراءها لتدخل وحدها تماماً مملكة اليأس والشجاعة الكاملين. ما الذي قام به هذا النبي؟ وما الذي طلب منا أن نفعله بالدرجة الأولى؟ طلب إلينا أن نرفض العزاءات كلها ـ الآلهة والأوطان والأخلاق والحقائق ـ وأن نظل منعزلين دون أصحاب ومرافقين، وأن لا نستخدم إلا قوتنا. وأن نبدأ في صياغة عالم لا يُخجل قلوبنا. أي الطرق أكثرها خطرًا؟ ذلك هو الطريق الذي أريده. أين هي الهاوية؟ تلك هي التي أتوجه إليها. أي المتع أكثرها شجاعة؟ إنها تحمل المسؤولية الكاملة.

كنت أحس أحياناً، وبشكل مفاجئ، بظله إلى جنبي، وأنا أتمشى تحت أشجار الكستناء الباريسية أو على ضفة نهرها الشهير. كنا نسير جنباً إلى جنب صامتين إلى أن تغيب الشمس. كان دائماً متقطع الأنفاس يلهث عابقاً برائحة الكبريت. خطر لي أنه كان حتماً عائداً من الجحيم. توقف نفَسي في حلقي وبدأت ألهث. لكننا لم نكن نتصارع الآن. لقد صرنا صديقين. تطلع إلي ورأيت نفسي في بؤبؤي عينيه. إن الألم سارٍ[6] على أية حال. لقد نقل إلي مشاكله كلها. وإلى جانبه بدأت معركتي لمجاراة ما لا يجارى، لمصالحة الأمل المطلق مع اليأس المطلق، ولفتح باب إلى ما وراء العقل واليقين.

ذات مساء، وعندما كانت الشمس تغرب، وكنا على وشك أن نفترق، التفت إلي، هو الذي لم يكن يكلمني من قبل، وقال: «أنا أدونيس المصلوب ـ أنا وليس هو». كان صوته مشبعًا بالحسد والكراهية والحب.

يعود الهدوء إلى قلبي دائماً حين أذهب في اليوم التالي وأستمع إلى صوت برغسون السحري. كلماته تعويذة سحرية تفتح باباً صغيراً في أعماق الظلمة. وتسمح للضوء أن يتدفق. ولكن الجرح والدم والتنهيدة الجبارة ـ تلك العناصر التي تأخذ بألباب الشباب ـ كانت قد ضاعت. وتعودت أن أخرج وأمشي مرة أخرى تحت أشجار الكستناء للقاء الآخر الذي يجرح.

لم يخترقني الجرح عميقاً في تلك الأيام. كنت أشاركه أوجاعه ولكن بشكل سطحي فقط. ومثل القديس فرانسيس وسمت بوصمة، بينما كان النبي الصلب يحمل جرحاً دافقاً. وتحول جلدي إلى أسود وأزرق. وهذا كل شيء. في ما بعد، حينما هبطت الملائكة الرؤيوية، التي رآها ببصيرته، على البشر بدأت جراحي تتفتح. كان ذلك في لندن، كما

---

(6) أي أنه كالأمراض السارية.

Twitter: @ketab_n

أذكر، وبعد سنوات عديدة. كان الخريف قد عاد من جديد. وكنت جالساً على مقعد في إحدى الحدائق. وكان الجو مرعباً.

لقد ولد السوبرمان في مكان ما. في مكان ما نمرٌ متعطش للدماء. إنه السوبرمان. ولعجزه عن التواؤم في عرينه أكثر من ذلك سيطرت عليه الرغبة في التسلط. لقد لبس جنكيز خان طوقاً حديدياً نقشت عليه كلمتان: «راستي روستي»، أي «القوة هي الحق». إن عصرنا قد قدم هذا الطوق الحديدي ذاته. كان شيطان عصرنا مثل ذلك الملك الإفريقي الذي تسلق أعلى أبراجه ومعه اثنتا عشرة امرأة واثنا عشر مغنياً وأربعة وعشرون جلداً من جلود الماعز مليئة بالخمر. كان طويلاً مثل برج، وبديناً شاحماً كالزبدة. وكان جسمه مغطى بالشعر. كانت المدينة تهتز بالرقص والغناء. فانهارت الأكواخ القديمة على الأرض. في البداية رقص الملك. ثم، وبعد أن تعب، جلس على حجر وراح يضحك. ثم تعب من الضحك وبدأ يتثاءب. ولكي يقضي الوقت ألقى بالنساء في البدء عن البرج، ثم المغنين، وأخيرا الجلود الفارغة من الخمر. لكن قلبه لم يرتح. فبدأ يندب معاناة الملوك التي لا عزاء لها.

جاء بائع صحف يعلن آخر بلاغات الحرب. توقف الناس في الشارع وكأن قلوبهم قد توقفت عن الخفقان. وركض بعضهم بسرعة إلى البيوت. كان يبدو عليهم وكأنهم يريدون أن يتأكدوا مما إذا كان أطفالهم ما زالوا على قيد الحياة.

اقترب ظلٌّ. وجلس على المقعد إلى جانبي. التفتُّ إليه فارتعش. كان هو. من كان ذلك الذي أعلن أن جوهر الحياة هو التوق إلى التوسع والسيطرة، وأن القوة وحدها جديرة بأن تنال الحقوق؟ من كان ذلك الذي تنبأ بالسوبرمان، وعند التنبؤ به جلبه؟ لقد وصل السوبرمان. وها هو نبيه المرتعد المنكمش يجاهد أن يختبئ تحت شجرة خريفية!

كانت تلك هي المرة الأولى التي أحس فيها بتعاطف مأساوي كهذا معه. لأنها كانت المرة الأولى التي أرى فيها بهذا الوضوح أننا جميعاً مزامير راع غير مرئي، وأننا نعزف أية نغمة ينفخها فينا. ولا نعزف النغمة التي نرغب فيها نحن.

حدقت إلى العينين الغائرتين والحاجب المقفل والشاربين المتدليين.

همست له: «لقد جاء السوبرمان. أهذا ما كنت تريده؟». انكمش أكثر مما كان منكمشاً مثل وحش جريح مطارد يحاول أن يختبئ. ورن صوته من الضفة الأخرى فخوراً أو متألماً: «نعم». كنت أستطيع أن أحس بقلبه ينشطر إلى نصفين.

أنت زرعت. انظر الحصار. هل يعجبك ذلك؟

ومرة أخرى جاءت من الضفة الأخرى صرخة يائسة تجرح القلب: نعم!

وحيداً مرة أخرى نهضت عن مقعد الحديقة لأرحل. في تلك اللحظة أرعدت قاذفة قنابل فوق المدينة المعتمة. كانت الطائرة ـ التي تخيلها ليوناردو دافنشي طائراً صناعياً لطيفاً

Twitter: @ketab_n

يحمل الثلج من قمم الجبال الشاهقة في الصيف ليرشه على المدن من أجل تبريدها ـ تمر فوقنا الآن محملة بالقنابل.

بالطريقة ذاتها. بدأت أفكر ـ وأنا لا أزال محتفظاً بنبي الحرب المسالم في ذهني. بالطريقة ذاتها تنبثق الأفكار من العقل الإنساني مثل القبرات فجراً. ولكن ما إن تقع عليها نظرة الإنسان الجشعة حتى تتحول إلى عقبان نهمة آكلة للحوم. ويصرخ رئيسها التعس ويحتج يائساً: «ليس هذا ما كنت أريده! ليس هذا ماكنت أريده». ولكن العقبان تمر من فوقه زاعقة وهي تلعنه.

كان الغذاء الذي غذاني به نيتشه في تلك المرحلة الحاسمة النهمة من شبابي غذاء قوياً كغذاء الأسود. كنت قد كبرت بسخاء.

وأجد نفسي الآن أتقلص من خلال الإنسان المعاصر في الحالة التي أنزل نفسه إليها، ومن خلال المسيح في الحالة التي أنزله إليها الإنسان.

آه كم كان دهاءً من الدين، قلت لنفسي غاضباً، أن يستبدل الثواب والعقاب بحياة أخرى في المستقبل ليريح الجبناء المستعبدين والحزانى فيمكنهم من أن يحنوا رقابهم بصبر أمام أسيادهم، ومن أن يتحملوا هذه الحياة الدنيا دون تذمر (وهي الحياة الوحيدة التي يمكن لنا أن نتأكد منها)! وكم هذا الدين مساومة يهودية على (مائدة الإله) حيث تلقي بفارذنغ في هذه الحياة ثم تجمع في الحياة الأخرى الملايين المخلدة! لا. الإنسان الذي يأمل في الجنة أو يخاف من الجحيم لا يستطيع أن يكون حراً. أية سذاجة وأي دهاء وأي ربا! ويا لخجلنا لو أننا نستمر سكارى في حانات الأمل أو في أقبية الخوف. كم من السنوات قد عشت من دون أن أعي ذلك! كان من الضروري أن يأتي النبي القاسي ويفتح عيني.

حتى الآن كنا قد عهدنا إلى الله بالإدارة الكاملة للعالم. أيمكن أن يكون قد جاء دور الإنسان لتحمل المسؤولية. دورنا لخلق عالم، عالمنا الخاص، وبعرق الجبين؟. هب نسيم شيطاني من الغطرسة بين صدغي. وأعلنت بوقاحة أنه قد آن الأوان لأن يتلقى الإنسان في حنايا صدره الكفاحات كلها والآمال كلها، وأن عليه أن يستخرج النظام من الفوضى دون أن ينتظر معونة الإله. أن يحول الفوضى إلى كون متناسق. علينا أن نحافظ على استقلالنا الشخصي، وأن نُبقي عليه متيناً متماسكاً بحيث يمكن أن نكون واقفين على أقدامنا وسط الهيجان المعاصر الذي يعم العالم حين يؤون الأوان بالنسبة لنا لتحويل الصرخات غير الواضحة إلى رسالة بسيطة وحقيقية؛ إلى إنجيل.

سمعت هذا الإنجيل في داخلي كصداح بعيد، كأول نسمات الربيع. كان قلبي شبيهاً بشجرة اللوز. فحينما كان الشتاء مهيمناً حولها وكانت السماء من فوقها معتمة فإن تلك الشجرة، وقد تلقت الإيعازات اللفظية السرية، تظهر أمام عيوننا مغطاة بالزهور ـ مغطاة

Twitter: @ketab_n

بالزهور في عز كانون الثاني على الرغم من أنها تقف مرتعشة أمام الريح القارسة ـ وكذلك كان قلبي المزهر تماماً يرتعش. قد تهب ريح قوية وتعريه. و لكن لا يهم. لقد قام بواجبه. صرخ بأعلى صوت بأنه قد رأى الربيع.

ذات ليلة حلمت حلماً. خلال حياتي كانت الأحلام دائماً أدلة لا تخطئ. وجميع المشاكل التي كانت تعذب عقلي الأرِق، وهي تزدوج وتتداخل في جهد يائس لاكتشاف حل بسيط مؤكد، كانت تصفى في أحلامي. إنها تتخلص من الزيادات فيها وتعود إلى الجوهر البسيط. وهذا الجوهر يتحرر.

خلال تلك الفترة كلها كنت مثل القديس سيباستيان، تخترقني وتعود إلى اختراقي السهام التي أطلقها علي النبي المأساوي للعود الأزلي. وكان عقلي يجهد عبثاً، وسط الظلمة التي تحيط بنا وتخنقنا، لاكتشاف ما يشكل أساس واجب الإنسان. ثم في ليلة من الليالي رأيت حلماً. بدا لي أنني كنت واقفاً على الطريق الأقصى من الشاطئ محدقاً إلى البعيد. كان المحيط أسود حالكا هائجاً ومرعباً. وكانت السماء فوقه سوداء مثله وثقيلة ومنذرة بالخطر. لا نسمة. كان الصمت والركود مخيفين. وكنت أختنق وأنا عاجز عن التنفس. وبغتة لمع شراع أبيض مضاء في الفرجة الضيقة التي لا تزال بين البحر والسماء.

كان مركباً صغيراً متألقاً بين القمتين يتقدم بسرعة جنونية وسط الهدوء الخانق، وشراعه منتفخ موشك على التمزق. مددت ذراعي نحوه وصرخت: «قلبي!». ثم أفقت.

كان الحلم عوناً كبيراً لي في حياتي. يا لخجلي من أنني لا أستطيع أن أركض للعثور على الأب اليائس القانط للأمل لأخبره بالمعنى الكامن الذي جاءني في نومي. ألم يكن في هذا حل لمتاعبه كلها؟ ألم يكن هو الذي أثار القارب الصغير الجسور، وسط اليأس المطبق الذي يبحر بريحه الذاتية ويشع بضوئه الخاص دون حاجة منه لأحد؟

كم من مرة، في لحظات الحرج والمتاعب، حين يعتم كل ما حولي ويتخلى عني أعز أصدقائي وأعز آمالي، أغمض عيني وأرى ذلك القارب الصغير بين أجفاني؟ ويكتسب قلبي الشجاعة فيقفز على قدميه صارخاً: «أمسك بالدفة ولا تخف». ثم يمخر عباب الظلمة!

كانت الجراح التي أصابني بها نيتشه عميقة ومقدسة، لا تقوى علامات بيرغسون الصوفية على شفائها. إنها تهدئها مؤقتاً. ولكنها سرعان ما تُنكأ وتنزف من جديد ـ ذلك أنني طوال فترة شبابي كان ما أرغب فيه، أكثر من غيره، هو الجرح. وليس العلاج.

في تلك المرحلة صارت معركتي مع اللامرئي واعية وعديمة الرحمة.

كانت النقمة قد هيمنت علي في تلك السنوات الباكرة. أتذكر أنني لم أكن أستطيع أن أتحمل استعراضات الوجود الإنساني: كيف كانت الحياة تتوهج لوهلة ثم تنفجر في الهواء بعدد هائل من الومضات الملونة ثم تتلاشى تماماً وفوراً. من الذي أشعلها؟ ومن الذي منحها

Twitter: @ketab_n

هذا السحر والجمال ثم بغتة ودون رحمة أطفأها؟ صرخت: «لا. لن أقبل بذلك. لن أقره. سأجد وسيلة ما تمنع الحياة من الانطفاء». ذلك لأنني كنت أشفق على روح الإنسان وأعجب بإنجازاتها. كيف كانت دودة الحرير البطيئة هذه قادرة على استخراج حرير قدسي كهذا من أحشائها؟

دودة الحرير أكثر الديدان طموحاً. لاشيء إلا البطن والفم. تجر نفسها وهي تأكل وتتبرز. وتأكل من جديد. أنبوبة قذرة بفوهتين. ثم يتحول الطعام كله إلى حرير. الإنسان هكذا. تتوهج السماء والأرض، وتتوهج الأفكار بأثمن أنواع الحرير التي كساها بها. ثم تأتي قدم جبارة بشكل مباغت فتدوس على الدودة صانعة المعجزة.

لقد ذهبت دعة الطفولة الساذجة والمبسطة إلى الأبد. عرفت الآن أن السماوات هيولى سوداء مليئة بالصمت واللامبالاة. رأيت ما يحدث للجمال والشباب حين يغيبان في القمر. ولم تعد روحي تقبل التنازل لترضى بالعزاء الذي تقدمه الآمال المقبولة الجبانة.

تدريجياً وبخطى مترددة كنت أقترب من الهاوية. لكن بصري كان لا يزال غير متعود فلم أجرؤ على التحديق إلى عينيها. روحي لا تزال قلقة ومضطربة. كانت، أحيانا، تنهض وتتحدى قدر الإنسان بثقة الشباب، وأحياناً أخرى تتقلص متراجعة وتهيمن عليها سوداوية رومانسية.

بعد ذلك بكثير، بكثير جدًا، استطعت أن أقف، وركبتاي ثابتتان، على حافة الجرف وأتطلع إلى الهاوية دون خوف ودون أي أثر للتبجح.

* * *

أية ليال هادئة قدسية قضيتها في العمل والدراسة في تلك الغرفة الصغيرة بعيداً عن وطني! كنت أسمع أحياناً صرخات وضحكات في الشارع تحتي وأغاني حب في منتصف الليل، وأحياناً كان الثلج الهادئ الأبيض يتكوم على الأسطحة. المصباح يتوهج حتى أواخر الليل، والنار في الموقد. وأنا منكب على كتبي أعيد إحياء المآثر العقلية للبشرية.

بأفكار مسبقة كهذه، أفكار مسبقة مستمدة في الوقت ذاته من الشباب ومن العصر بشكل ظاهر، قضيت سنواتي في باريس.

بدأت صاحبة البيت تشك بشيء ما. وظهر الانزعاج عليها. كانت تلقي بنظرات جانبية تنمّ عن عدم رضاها علي. وتحييني بشيء من البرود. وذات يوم لم تعد فيه قادرة على ضبط نفسها فصرخت: وأخيراً يا مسيو. إلى متى ستستمر هذه الحالة؟

ـ أية حالة؟

ـ أية حالة! لِم تعود باكراً كل مساء؟ ولا يأتيك زوار، لا رجال ولا نساء، ويظل ضوؤك حتى ما بعد منتصف الليل. أترى هذا طبيعياً؟

Twitter: @ketab_n

ـ لكنني أحضر دروساً طوال النهار في الجامعة؟ وفي الليل أدرس وأكتب. أليس هذا مسموحاً؟

ـ لا. ليس مسموحاً. إنني أتلقى احتجاجات من المستأجرين الآخرين. أنت تخفي شيئاً ما. هذه الكياسة وهذه العزلة وهذا الصمت، دون امرأة. ولبق ودون صديق! لا بد أنك مريض. نعم. لابد أنك مريض. وإلا فمع احترامي الشديد أنت تهيئ شيئاً ما في الخفاء. أنا آسفة. ولكن ببساطة هذا لا يمكن أن يستمر.

في البداية كنت على وشك أن أغضب. ولكنني سرعان ما أدركت أن صاحبة المنزل على حق. حين يكون شخص كبيراً وطبيعياً في مجتمع عنيد لا أخلاقي وصاخب، ولا يستقبل رجالاً أو نساء في غرفته، فإنه يتخطى الحدود. لا يُغفر له ذلك. ولا يمكن أن يُغفر له. وبما أن حياتي كانت غاية في البساطة فقد اعتبرها الناس معقدة بشكل خطر. ومهما كان ما أقوله أو أفعله فإنهم يُكسبونه معنى مختلفاً، ويحاولون دائماً أن يتكهنوا بما هو مختلف وكامن.

فيما بعد حتى أفضل أصدقائي لم يستطع أن يصدق بساطة كهذه. ثم رأى أنها لا تحتمل حين صدّقها. ذات ليلة كنت جالساً في الدار أحدق إلى النجوم. كانت السماء المليئة بالنجوم بالنسبة لي دائماً أكثر المشاهد إثارة واعتصاراً للقلب. ولم تكن تمنحني أية غبطة. لا شيء إلا الرهبة. لم أكن أستطيع أن أتطلع إليها دون أن يغزو الألم قلبي. جاء صديقي إلى الدار وسألني مستغرباً: ما الذي تفعله هنا؟ ثم: آه. إنك لا تتكلم؟ لماذا؟ واقترب مني وانحنى فوق رأسي ورأى الدموع التي تنسكب من عيني فانفجر في قهقهة صاخبة وصرخ: «كذاب! منافق! أفترض أنك ستقول لي إنك تبكي لأن النظر إلى النجوم مؤثر. لكنك لا تستطيع أن تستغفلني، أيها اليسوعي! لابد أنك تفكر في واحدة من تلك النساء ذوات الأذيال المتأرجحة اللواتي يحمن حولك».

وفي مناسبة أخرى أيضاً، بعد هذه، عندما عرفت بانيت استراتيتي في روسيا وكنا عائدين معاً إلى اليونان، ظل بانيت يحدق إلي طوال الرحلة كلها. ظل يتفحصني دون أن أعرف ما هي النتيجة التي توصل إليها. وفي أثينا سأل صحفياً أجابه: «ماذا أستطيع أن أقول؟ إنه إنسان غير طبيعي». وسأل بانيت المسكين وهو مليء بالتوجس: «ماذا يفعل؟»، فجاءه الجواب: «هذا هو الأمر بالضبط: لاشيء، حتى أنه لا يدخن».

هكذا كانت حياتي في باريس خلال ثلاث سنوات من إقامتي فيها. مسالم ومتقد الحماس، ومن دون مغامرة خارجية واحدة، ودون مسائل حب الطلبة أو سكر الطلبة، ودون مؤامرات سياسية أو ثقافية. وفي النهاية حتى صاحبة المنزل تعودت علي. فبعد أن اعتقدت أنها سبرت أسراري استطاعت أخيراً أن تغفر لي طهارتي ولياقة حياتي، التي كانت فيما مضى غير مفهومة بالنسبة لها.

Twitter: @ketab_n

«لابد أنه منخرط في نظام ديني ما في بلده»، سمعتها من وراء ظهري تقول لإحدى الجارات، وهي امرأة كانت ترقبني صباحاً ومساء بعين متوجسة. «إنه يريد أن ينخرط. نعم إنه يريد. لكنه لم يُقبل».

وسألت الجارة مغتاظة: إن كان هذا هو النظام الذي ينخرط فيه فلم لا ينسحب؟

وأجابت صاحبة المنزل بتسامح: طيب، إنها حيلته الوحيدة.

وحين أعددت حقائبي، وكنت على وشك الرحيل، جاءت إلى غرفتي مع ابنتها سوزان. وقالت، وهي مستميتة لإغوائي: طيب. قبّل ابنتي الآن طالما أنك راحل. وحين رأتني الفتاة أقترب منها، قالت محتجة: ولكن ليس على الجبين. ليس على الجبين.

ـ أين إذن؟

ـ في أي مكان تريده أيها الشيطان المسكين.

ـ على الفم. زعقت الأم وهي تتقصف من الضحك.

انحنيت عليها وقبلتها على خدها.

* * *

قبل مغادرتي باريس ذهبت عصر أحد الأيام لتوديع نوتردام. سأظل دائما ممتناً لهذه الكاتدرائية لأنها أثرت فيّ بهذا القدر حين رأيتها أول مرة. في كنائسنا تصدم القبة المرء كائتلاف بهي بين المحدود واللامحدود، بين الإنسان والله. ويتسامق الهيكل وكأنه طامح في الوصول إلى السماء. ولكن بعد ذلك، باستسلام ورع يُخضع زخمه بغتة لـ «الشرط» المقدس. وينحني بخضوع ويلتوي داخل نفسه أمام المطلق المستحيل. ويصبح قبة ساحباً البانتوكريتر إلى قمته.

لقد صدمني الاندفاع المتهور في الكاتدرائية القوطية على أنه أكثر تقديراً لنفسه. تنبثق نوتردام من الأرض وكأنها قد جمعت حجارة الأرض كلها لترتيبها بحيث تنتهي إلى سهم حاد جريء يندفع في الماء مثل قضيب من البرق. كل شيء في هذه المعمارية القدسية يجاهد للاندفاع نحو القمة. ويتحول إلى سهم. هنا لم يعد لدينا المنطق المستقيم والمربع للأسلوب اليوناني الذي يضع النظام البشري على رأس الهيولى موازناً موازنة كاملة بين الجمال والحاجة، ومدشناً تآلفاً معقولاً بين الإنسان والله. بدلاً من ذلك لدينا شيء قوي ولا عقلاني. سعار ذو منبع قدسي ينقل الناس نقلاً مباغتاً ويحثهم على القيام بهجوم على البرية الزرقاء الخطرة لإنزال (ومضة البرق) العظيمة ـ الله ـ إلى الأرض.

ربما كانت الصلاة والروح البشرية شيئاً كهذا ـ من يدري؟ فبعد تجميع آمالنا البشرية ومخاوفنا علينا أن نقذف بها كالسهام نحو الذرى فوق البشرية التي لا تُطال. إن الروح البشرية زخم وكبرياء. صرخة وسط الصمت الجبان الذي لا يحتمل. رمح يقف منتصباً لا ينحني. ويمنع السماء من أن تسقط على رؤوسنا.

Twitter: @ketab_n

أحدق إلى هذا السهم المشرئب نحو السماء، دون خوف، وأحس بروحي تزداد متانة. وتمدد نفسها ثم تصبح سهماً.

بغتة أطلقت صرخة غبطة. ألم تكن صرخة نيتشه مثل هذه الصرخة تماماً؟ ألم تكن هي الأخرى سهماً في الجو، قضيباً من البرق متوجهاً للقبض على الإله لإنزاله عن عرشه؟

كم كنت سعيداً وأنا أتجول بهذه الطريقة تحت الأقواس القوطية ساعة الغروب، وأنا مغمور بهذه الروح الزرادشتية المؤلفة من الحجارة والحديد والزخرفة الملونة الصافية، والتموجات العميقة للأرغن اللامرئي ذي البهجة القدسية.

بهذه الطريقة ودعت باريس على مهلي وقلبي مفعم بالأسئلة، وبيأس وأمل هائجين.

كنت راحلاً وقد فقد قلبي يقينه وهدوءه. من كان ذلك الزاهد الذي أعلن: «إنك تجلس بهدوء وقلبك مرتاح. لكن لو أنك سمعت زقزقة السنونو كثيراً لما بقي قلبك في هدوئه السابق»؟ وأنا ـ أنا الذي استمع إلى الزعقة الحادة للصقر المتوحش؟

كنت أغادر باريس، الجراح على كفي وقدمي وجانبي ـ جراح الصلب كلها ـ قد شفيت. ولكن مكانها كانت روحي تؤلمني ألماً رهيباً وهي تقفز في داخلي دموية متمردة.

دائماً، وكلما توصلت إلى يقين، تصبح راحتي وهدوئي قصيري العمر. تنبع شكوك ومقلقات جديدة من هذا اليقين. وأجد نفسي مجبراً على البدء بكفاح جديد لتخليص نفسي من اليقين السابق وللبحث عن يقين جديد ـ إلى أن ينضج هذا اليقين الجديد أخيراً ويتحول بدوره إلى شك. فكيف إذن نستطيع تحديد الشك؟ شك؟ أم يقين جديد؟

علمني نيتشه أن لا أثق بكل نظرية متفائلة. كنت أعرف أن القلب المخنث للإنسان يحتاج دائماً إلى العزاء، حيث يكون العقل، ذلك الصوفي المتفوق في قسوته، مستعداً دائماً لتقديم العون فيها. وبدأت أحس أن كل دين يعد بتحقيق الرغبات البشرية هو ببساطة ملجأ للجبناء ولا يليق بالإنسان الحقيقي. سألت نفسي عما إذا كان طريق المسيح هو الطريق المؤدي إلى خلاص الإنسان أم أنه مجرد خرافة محكمة الصنع تعد بالجنة وبالخلود بمهارة وبراعة فائقتين، وبحيث أن المؤمن لن يستطيع أبداً أن يعرف ما إذا كان هذا الفردوس ليس أكثر من انعكاس لتعطشه الخاص. فنحن لا نستطيع التحقق من ذلك حتى الموت. وما من أحد قد عاد، أو سوف يعود، من أرض الموت ليخبرنا[7].

لذلك علينا أن نختار أكثر الآراء بعثاً للأمل. وإذا صدف أن كنا نخدع أنفسنا، وكان الأمل غير موجود، فهذا أفضل بكثير. بهذه الطريقة، وفي الأحداث كلها، لا تهان روح الإنسان. ولن يستطيع الإله أو الشيطان أن يسخر منها بالقول إنها كانت مخدرة كمدخن

(7) الفكرة قديمة ومتكررة. وفيها شيء واضح مما يقوله هملت في مونولوجه الشهير: نكون أو لا نكون.

Twitter: @ketab_n

الحشيش. وإنها قد خلقت فردوساً وهمياً من خلال سذاجتها وجبنها ـ بغية تغطية الهاوية. ولا يبدو لي الإيمان الخالي من الأمل على أنه الأصح بل هو بالتأكيد الأكثر شجاعة. كنت أعتبر الأمل الميتافيزيقي طعماً مغرياً لا يتنازل الناس الحقيقيون لقضمه. كنت أريد كل ما هو أكثر صعوبة، وبتعبير آخر، ما هو لائق بالإنسان أكثر. الإنسان الذي لا يلين ولا يتراجع ولا يمضي متسولاً راجياً. نعم. هذا ما كنت أريده. ثلاث تحيات لنيتشه، قاتل الله. فهو الذي مدّني بالشجاعة للقول: إن هذا ما أريد. وبدت لي كنيسة المسيح في الحالة التي أوصلها إليها رجال الدين حظيرة فيها آلاف الأغنام المذعورة تثغو ليلاً ونهاراً. يتكئ كل منها على الآخر وهي إلى الأبد في النيران المتأججة. بينما لا يستطيع البعض الآخر انتظار الذبح، لأنها تأمل في أن ترعى إلى الأبد عشباً ربيعياً خالداً. لكن الإنسان الحقيقي ليس غنمة. وليس كلب حراسة أو ذئباً أو راعياً. إنه ملك يحمل مملكته معه ويتقدم. ولأنه يعرف إلى أين يذهب فإنه يصل إلى حافة الهاوية وينزل التاج الكرتوني عن رأسه ويلقيه. ثم يتعرى من مملكته. يتعرى تماماً كغواص. يضم كفيه ويضم قدميه أيضاً. ويلقي بنفسه على رأسه في الهاوية فيفنى.

وكنت أتساءل عما إذا كنت سأستطيع ذات يوم مواجهة الهاوية بهذه النظرة الهادئة الجسور.

وإنني لأتساءل عما إذا كان قد سبق لي أن سمعت صرخة كهذه على الأرض من قبل، صرخة فيها من الكبرياء ما يكفي لاحتقار الأمل. حتى نيتشه استسلم للرعب لوهلة. لقد صدمه (العود الأزلي)، بأنه استشهاد لا متناه. ومن خوفه صاغ أملاً عظيماً، منقذاً للمستقبل، السوبرمان. ولكن السوبرمان ليس إلا فردوساً آخر، سراباً آخر يخدع الإنسان التعيس المسكين ويمكّنه من تحمل الحياة والموت.

Twitter: @ketab_n

24

فيينا ـ مرضي

كان جسدي منهكاً، وروحي في حالة من التوتر الزائد. فأغلقت عينيّ في عربة القطار. ولم أحاول أن أفتح جفني لأرى البلدان التي أجتازها. كان القوس مشدوداً جداً حتى أنني كنت أسمع تمزق الحبل الممدود في داخلي بين صدغيّ. لقد وصل إلى حد الانقطاع.

صدغان يرنان، والأعصاب في رقبتي تخفق. أحسست بقواي تتسرب من دماغي وحقوي ورسغي ـ وتتلاشى. ورحت أفكر مع نفسي. هكذا هو الموت إذن. هادئ وشفوق. شبيه بدخولك إلى حمام دافئ وقطع شرايينك. فتحت الباب امرأة بين ذراعيها طفل لتدخل المقصورة التي كنت أتمدد فيها وحيداً بطولي كله. حين رأتني أغلقت الباب بسرعة وفرت مذعورة. لابد أن رأسي قد أصبح الآن جمجمة. هكذا فكرت. ولهذا ذعرت المرأة. جميل أن الموت لم يصبني في عقلي كما فعل بك يا سيدي.

حين وصلنا إلى فيينا استجمعت قواي كلها لمغادرة القطار وشراء صحيفة من الكشك على الرصيف. لكنني انزلقت واصطدمت بعمود حديدي، فسقطت على الأرض فاقد الوعي.

لا أذكر شيئاً بعد ذلك. حين فتحت عيني وجدت نفسي في بهو واسع فيه صفوف من الأسرة. كان الوقت ليلاً. ومصباح أزرق صغير يتأجج فوقي. وكان رأسي ملفوفاً بقطن وشاش. وكان شبح أبيض بجناحين كبيرين، على كل صدغ جناح، يرفرف بخفة بين الأسرة. جاء إلي ووضع يده الباردة اللطيفة على نبضي، وكأن أجنحة روحي تخفق هناك.

كان النوم العميق هو كل ما تبدى لي من مكوثي في سرير المرض. أيام عديدة وأنا أرفض أن أفتح فمي للأكل. ذبلت وصرت عاجزاً عن رفع نفسي للحركة. كل يوم كنت أحس بنفسي أغرق أعمق فأعمق ـ في البدء حتى الخصر ثم إلى الصدر ثم إلى الرقبة ـ في وحل ناعم فاتر تفوح منه رائحة الأوراق المنتنة. وخمنت أنه لا بد أن يكون الموت.

بين حين وآخر كنت أرفع رأسي من خدره. ومع عودة وعيي إلى النور استدعيت

Twitter: @ketab_n

الممرضة. فجاءت بجناحيها البارزين من صدغيها، وقد عرفت ما أريد. فحملت في يدها قلماً وورقة مستعدة للكتابة.

كان ذهني يعمل ويقاوم ويحاول أن يمنع نفسه من الغرق في الوحل مع ما تبقى مني. وكنت قد عودت الممرضة على المجيء لكي أقول بعض الكلمات لها ـ هاي كاي[1] أو أي شيء يبرز من هذه الهيولى ـ وأجعلها تكتبها لي. كثير من هذا الهاي كاي كان لاشيء. بينما أدخلت فيما بعد، فقرات أخرى منها في كتاباتي بعد خروجي من مستنقع الموت.

«أنا مستعدة»، قالت الأخت وهي تمسك بيدي وتبتسم.

كانت دائما تكتب والورقة مستقرة على ركبتيها. أتذكر يديها النحيلتين الناصعتي البياض. أغمضت عيني وأمليت عليها: مرحباً أيها الإنسان، أيها الديك الصغير المنتوف ذو الساقين! صحيح ـ ولا أهمية لما يقوله الناس ـ إن الشمس لن تشرق ما لم تَصِح.

ضحكت الممرضة وقالت: أية أمور تخترعها في حُمّاك!

اكتبي: دودة تنام في قلب الإله وتحلم أن الإله غير موجود.

اكتبي: لو فتحتم قلبي لوجدتم جبلاً شاهقاً منيعاً ورجلاً وحيداً يتسلقه.

واكتبي هذا أيضا: لو أزهرت الآن وسط الشتاء يا شجرة اللوز المبعثرة فسيأتي الثلج ويدمرك. وتجيب شجرة اللوز في كل ربيع: دعه يفعل.

ـ يكفي. يكفي لهذا اليوم. قالت الأخت وهي ترى أن لوني قد صار شاحباً.

ـ لا. لا. هذه أيضا: إنني أستمتع برؤية العقل وهو يدق باب السماء ويتوسل، والله يرفض أن يفتح الأبواب ويعطيه كسرة من الخبز.

وأصرت الأخت: يكفي! يكفي!

ـ لا. لا. هذه أيضاً، لكي يعرفوا هناك في اليونان إذا ما مت: أينما ذهبت وحيثما حللت فإنني أمسك باليونان بين أسناني كورقة من الغار.

أغمضت عيني، لقد فرغ دماغي. تمتمت: «تعبت يا أخت». وغرقت من جديد في المستنقع.

كانت متع حياتي وتقلباتها، الناس الذين أحببت، والبلدان التي رأيت، كلها تعوم في رأسي مثل الغيوم. تتماسك قليلاً ثم تتبعثر وتتلاشى. بينما تبرز غيوم أخرى، أحياناً من صدغي الأيمن، ومن الأيسر أحياناً أخرى، حسب الجهة التي تهب منها الريح.

ذات يوم ووسط الحمى تذكرت (عذراء الخطى الذهبية). وهو دير كريتي مطل على البحر الليبي. يا لهذا اليوم الذي كان! ويا لها من شمس ربيعية لطيفة! وكيف كان البحر

---

(1) هايكو: شكل شعري ياباني. القصيدة فيه من ثلاثة أبيات دون قافية.

Twitter: @ketab_n

يتلامع وهو يندفع نحو الشاطىء المغربي! ورئيس الدير، العجوز المربوع العريض المفعم بالحيوية بلحيته البيضاء المدببة وشاربيه المفتولين كالجندي. . كم كان مفعماً بالمزاج الطيب وكم كان عقله متألقاً! أخذني لنتمشى ونتفرج على مقبرة الدير، حيث أراني قبور الرهبان محفورة في الصخور فوق المياه. كان البحر يبلل الصلبان الخشبية السوداء كلما هبت عاصفة فتمّحي الأسماء المكتوبة عليها كافة. أردت أن أعود إذ أنني أجد التمشي بين القبور أمراً مزعجا جداً. لكن رئيس الدير أمسك بذراعي وضغط عليه حتى آلمني. وقال وهو يضحك: تعال. تعال أيها الفتى الشجاع. لا تخف. يقال إن الإنسان هو الحيوان الذي يفكر في الموت. لكنني أخالف هذا الرأي. لا. الإنسان هو الحيوان الذي يفكر في ديمومة الحياة. تعال وانظر!

وتوقف عند قبر فارغ مكشوف: انظر. هذا قبري. لا تخف يا فتى! اقترب. إنه لا يزال فارغاً. لكنه سوف يمتلىء. وانفجر في عاصفة من الضحك. هو نفسه كان قد حفر القبر في الصخور بمعول. كما هيأ الشاهدة. قال لي: «انظر ما الذي كتبته عليها. طيب. لم لا تنحني وتقرأ؟ كفاك خوفاً. أقول لك». ركع ومسح الغبار عن الحروف المكتوبة، وقرأ: «إيه أيها الموت. إنني لا أخافك!». وتطلع إلي. حتى أذناه كانتا تضحكان. «ولم علي أن أخاف منه ذلك الأفاك العجوز! إنه بغل، سوف أمتطيه وأجعله يأخذني إلى اللّه».

أعتقد أن بعض أغنى ساعات الإنسان وأكثرها حرية والأكثر تحرراً من الزمان والمكان والعقلانية هي ساعات الحُمّى. كنا في أيار. وقد صرت أخيراً قادراً على مغادرة المصح والخروج إلى الضوء. كان الليلك مزهراً في الحدائق، والنساء يرتدين ملابس شفافة بألوان زهرية، والصبايا والشباب يتبادلون الهمسات تحت أشجار حديثة الخضرة، وكأن لديهم أسراراً عظيمة يحكونها. في عصر اليوم الذي خرجت فيه كان نسيم لطيف يهب حاملاً معه الروائح من شعر النساء ووجوههن المطلية بالمساحيق. رحت أردد لنفسي أن هذه هي الأرض، العالم العلوي. وما أجمل أن تكون حياً ومعك حواسك الخمس ـ الأبواب الخمسة التي يدخل العالم منها ـ وهي تعمل بشكل جيد. وما أجمل أن تقول إن العالم جميل وأنا أحبه.

لقد أثارت فيّ الأرض المغتسلة بالشمس إحساساً بالرقة أثارني إلى حد كبير. شعرت أنني قد ولدت لتوي. وقد نزلت إلى العالم السفلي لوهلة، وأنني حين رأيت الرعب قفزت وفتحت عيني فوجدت نفسي مرة أخرى في الضوء القدسي المألوف. أسير تحت الأشجار وأصغي إلى الضحكات والأحاديث البشرية.

رحت أتمشى ببطء. كانت ركبتاي لا تزالان ترتجفان. وكان دوار زاهي الألوان حلو وناعم كضباب الصباح يلف عقلي. وراء الضباب كنت أرى العالم نصفه صلب ونصفه مصنوع من الأحلام. تذكرت أيقونة رأيتها ذات مرة في كنيسة ما لا أذكر اسمها. كان الرسم مقسوماً إلى مستويين. في المستوى السفلي القديس جورج الأشقر القوي يمتطي حصاناً هائجاً وهو

Twitter: @ketab_n

يغرز رمحه في الوحش المزبد المتلوي الرهيب، الذي فتح فمه القرمزي استعداداً لأكله. وكان الصراع المماثل المثار على الجزء العلوي بعيداً عن القديس جورج والحصان والوحش مؤلفاً من غيمة رقيقة على وشك التبعثر والتلاشي في الهواء. وفيما كنت أتمشى بركبتين مرتعشتين عبر حدائق فيينا وشوارعها كان هذا المستوى العلوي المرسوم في لوحة العالم هو الجانب الذي أراه. وكنت أرتعد خشية أن تهب ريح ما وتبددها. كيف لي أن أعرف أنه في غضون أيام قليلة ستهب هذه الريح ذاتها وتبعثرها فعلا!

فيينا مدينة فاتنة مغرية. يتذكرها المرء دائما كعشيقة. جميلة متقلبة متبرجة تعرف كيف تلبس وكيف تتعرى. كيف تسلم نفسها وكيف تخون. ليس بدافع الحب أ والكراهية، بل من خلال المرح. إنها لا تمشي بل ترقص. ولا تنادي بل تغني. المطر يبللها والثلج يغطيها والشمس تدفئها. تراها ـ ليس لديها ما تخفيه ـ فتهتف: تاليا، أغلايا، يوفروسين ـ فيينا ـ ربات الحسن الأربع(2)!

خلال الأيام القليلة الأولى من عودتي إلى الحياة استمتعت بهذه المدينة الضاحكة. استمتعت بالضوء وبعبير الأرض وأحاديث الناس. واستمتعت أكثر من ذلك بالماء العذب والخبز الطري والفاكهة. كنت أغمض عيني على شرفة غرفتي وأصغي لصخب العالم. العالم يبدو مثل خلية نحل تعج بالعاملات واليعاسيب والعسل. ونسيم الربيع مثل يد رقيقة باردة على وجهي.

ولكن بعد أن أتخم جسدي واستلمت روحي الزمام من جديد بدأ ذلك الفرح كله يصدمني؛ إذ يبدو لي غاية في الضحالة والتفاهة. فهو متعارض مع أعمق حاجاتي. يحس المرء أن هناك من يدغدغ الرجال والنساء، وهذا ما يفسر ضحكهم الدائم. لكنني كنت أعتبر الإنسان حيواناً ميتافيزيقياً، أو هكذا كان يبدو لي في ذلك الحين. الضحك والاستهتار والمرح خيانة وصفاقة. تذكرت والدي الذي كان يرى الضحك وقاحة دون أن يعرف لماذا. إلا أنني كنت أعرف لماذا. وتلك هي الخطوة الوحيدة التي نجح الابن في تجاوز أبيه فيها.

بدأ الصوت الصارم القاسي للنبي المأساوي الذي أحبه يبرز في أعماقي بوضوح متزايد. «يا للخجل!» جأر الصوت الداخلي: «أهذا هو العقل الأسديّ المتماسك الذي غذيتك به؟ ألم آمرك بعدم الانحناء للعزاءات؟ العبيد والجبناء وحدهم لديهم آمال، من الأفضل لك أن تستسلم لهذه الحقيقة. العالم مصيدة أعدها الله. لا تتنازل لقضم الطعم. مت جوعاً بدلاً من ذلك!». ثم بثقة، وبصوت أكثر نعومة: «أنا جبنت وفشلت. أما أنت فلتنجح!».

في أحيان أخرى كان هذا الصوت يعلو مهسهساً مستهجنًا وساخرًا: «ما الذي تعنيه

---

(2) هن ثلاث ربات للحسن، وشقيقات. كان اليونانيون يعتبرونهن مانحات للفتنة والجمال. كن وصيفات لأفروديت يعتنين بزينتها. وقد أضاف المؤلف إليهن اسم فيينا.

Twitter: @ketab_n

بتباهيك وادعائك أنك تريد ما هو أكثر صعوبة، وأنك تثق بالإيمان الذي لا ينحني للعزاءات في الوقت الذي تقضي وقتك كله خلسة، وتسكر في حانات الأمل هذه، في الكنائس، منحنياً لعبادة الناصري ومتسولاً: «ساعدني يا مولاي»، بيد ممدودة؟ شق طريقك ـ وحيداً! تقدم! توصل إلى النهاية وهناك ستجد الهاوية. تطلع إليها ـ هذا كل ما أطلبه منك. أن تتطلع إلى الهاوية دون أن تصاب بالذعر. هذا ولا شيء غيره. أنا نفسي قمت بذلك. لكن عقلي انهار. اجعل عقلك متماسكاً وثابتاً. تجاوزني».

قلب الإنسان لغز قاتم لا يحل. إنه جرة مثقوبة وفمها مفتوح أبداً. وعلى الرغم من أن أنهار الأرض كلها تصب فيها فإنها ستظل فارغة عطشى. إن أعظم الآمال لم تستطع ملأها. فهل ستمتلئ الآن بأعظم اليأس؟

هذا هو الاتجاه الذي ظل الصوت عديم الرحمة يدفعني لسلوكه. تكهنت بمن كان يدفعني لاقتفاء أثره. الخطوات التي سبقتني بثبات ودون تردد نحو الهاوية، دون إبطاء، ولا إسراع. بل بانتظام نبيل عظيم. كان الصوت يقول لي دائماً: «إنه المخلص النهائي، يخلص الإنسان من الأمل والخوف والآلهة. اتبعه! أنا نفسي فشلت في القيام بذلك في الوقت المناسب، لأن السوبرمان جاء حاملاً معه أملاً عظيماً لي فضللت. لم أجد الفرصة لتنحيته جانباً. ولكن أنت! ادفع بسوبرمانك الناصري جانباً، وحقق ما لم أجد الفرصة لتحقيقه: الحرية القصوى».

ظل الصوت المزعج يحثني بعناد لا يرحم. وشيئاً فشيئاً بدأ نبي الفداء الكلي المطلق ينهض صامتاً في داخلي. صارت أحشائي زهرة لوتس جلس عليها متربعاً، وعجلتان غامضتان محفورتان على باطني قدميه. أصابعه مضفورة بمهارة، ولولب أسود بين حاجبيه مثل عين ثالثة. كانت ابتسامته المغلقة المؤذية تمتد من شفتيه الصغيرتين إلى أذنيه الكبيرتين، ومنهما إلى الجبين. ثم تنزلق كالعسل من هذا المطل العالي لتغزو جسده كله. ولتصل بوضوح إلى باطني قدميه حيث تتحرك العجلتان وكأنهما متشوقتان للانطلاق.

بوذا! كنت قد قرأت عن حياته وعن رسالة الكبرياء اليائسة منذ سنوات عديدة. لكنني كنت قد نسيت كل شيء. من الواضح أنني كنت لم أنضج بعد. ولهذا لم أستطع أن أنتبه. ثم صدمني صوته كنداء ساحر غريب صادر من أعماق آسيا، من غابة معتمة مليئة بالأفاعي وبالسحليات المدوخة. وظل صوت آخر، صوت أليف ذو حلاوة مطلقة، ينبعث من أعماقي، ورحت أتقدم بثقة للالتقاء به. ولكن الآن، في وسط عربدة هذه المدينة، هنا أيضاً جاء صوت ذلك المزمار الساحر الغريب. كيف أغمضت عيني وتلقيته! كان الصوت أكثر إلفة الآن، كما لو أنه لم يسبق له أن صمت في داخلي بل كان، ببساطة، قد طغى عليه البوق المسيحي ليوم القيامة.

لا شك أنني قد قويت بالطعام الأسديّ للنبي الشيطاني. لأنني بدأت أحس بالخجل من

Twitter: @ketab_n

محاولاتي لتغطية الهاوية بستارة مبهرجة. كنت لا أزال لا أجرؤ على مواجهتها مباشرة كما هي: عارية وبغيضة. لقد حل المسيح، وهو يمد ذراعه بشفقة، بيني وبين الهاوية ليمنعني من رؤيتها ومن الخوف منها. بدأت أثير روحي وأعذبها. وعلى الرغم من أنها كانت تود أن تظل متورطة باللحم، وأن تُوهَب فماً ويدين لتقبُّل العالم وتلمسه، وعلى الرغم من أنها لم تعد ترغب في اعتبار غلافها، الجسد، عدوًا بل صارت ترغب في مصادقته لكي يستطيعا أن يسيرا معاً، يداً بيد، وبحيث لا يفترقان حتى القبر. ـ على الرغم من أن الروح كانت ترغب في ذلك كله فقد وقفت في طريقها. أي «أنا»؟ شيطان في داخلي، شيطان جديد ـ بوذا. كان هذا الشيطان يظل يصرخ، الرغبة لهب، والحب لهب، الفضيلة والأمل و«أنا» و«أنت» والجنة والجحيم كلها لهب. شيء واحد، وشيء واحد فقط، من نور، هو نكران اللهب. خذ اللهب المتأجج الذي يحرقك. خذه وحوله إلى نور. ثم أطفئ النور.

حين ينتهي عمل النهار في الهند وتسقط الظلال على الأسطحة وأزقة القرية وصدور الناس يغادر أحد السحرة[3] كوخه ليقوم بجولات في القرية. ينتقل من باب إلى باب، والقصبة السحرية بين شفتيه يعزف عليها نغمة حلوة ومهدئة كالسحر الذي يشفي الأرواح. وقد سميت هذه النغمة بـ «نغمة النمر». ويقال إنها تشفي جراح النهار. تلك هي النغمة التي كنت أرغب في سماعها بوضوح. ولكي يتحقق لي ذلك أقفلت غرفتي على نفسي وانكببت ليلاً ونهاراً على كتب ضخمة لدراسة طقوس بوذا وتعاليمه.

«في زهرة شبابي، وبشعري الأسود الأجعد، في أوج متعتي بشبابي، وعند أول اعتزاز بقوة الرجال، حلقت شعري حتى الجلد وارتديت الثوب الأصفر وفتحت باب بيتي ودخلت الصحراء..».

هنا تبدأ معارك المبدأ الزاهد: «صار ذراعاي أشبه بقصبتين جافتين. وكغذاء كنت أتناول حبة أرز واحدة من شروق الشمس حتى غروبها. ولا يخطرن لك أن الأرز كان أكبر مما هو عليه الآن. بل كان كما هو الآن تماماً. صارت مؤخرتي مثل خف الجمل وظهري مثل السبحة. وصارت عظامي بارزة مثل هيكل كوخ خشبي نصف متهدم. ومثلما يتلامع الماء في قاع بئر عميقة كذلك كانت عيناي تلتمعان. ومثل اليقطين الذي يتيبّس في الشمس ويتفسخ، كذلك كان رأسي».

غير أن الخلاص لم يأت من هذا الطريق القاسي للمبدأ التصوفي. عاد إلى قريته وراح بوذا يأكل ويشرب. وجلس تحت شجرة بهدوء غير سعيد ولا حزين. وقال: «لن أنهض من تحت هذه الشجرة. لن أنهض من تحت هذه الشجرة. لن أنهض من تحت هذه الشجرة حتى أجد الخلاص».

(3) طارد الأرواح الشريرة.

Twitter: @ketab_n

بنظره الصافي وروحه الطاهرة رأى التفاهة. رأى الحياة تخرج من الأرض ثم تختفي. ورأى الآلهة تتناثر كتناثر الغيوم في السماء ورأى الدورة الكاملة، فاستند إلى شجرته. وحين فعل ذلك بدأت أزهار الشجرة تتساقط على شعره وركبتيه، والرسالة السامية على عقله.

تلفت يمنة ويسرة، أمامه ووراءه. كان هو نفسه الذي يجأر في الوحوش ويجأر في البشر وفي الآلهة. تملكه الحب، الحب والشفقة على نفسه، التي كانت موزعة تكافح خلال العالم. عذابات الأرض كلها وعذابات السموات كانت عذاباته. «كيف يمكن لأحد أن يكون سعيداً في هذا الجسد المسكين وفي هذا الخليط من الدماء والعظام والدماغ واللحم والمخاط والمني والعرق والدموع والبراز؟

كيف يمكن لأحد أن يكون سعيداً في هذا الجسد المحكوم بالحسد والكراهية والكذب والخوف والألم والجوع والعطش والمرض والشيخوخة والموت؟ الأشياء كلها، النباتات والحشرات والوحوش والبشر، تتقدم نحو الفناء. انظر خلفك إلى أولئك الذين لم يعودوا موجودين. وانظر أمامك إلى أولئك الذين لم يولدوا بعد. ينضج الناس مثل القمح، ويتساقطون كالقمح، وينبتون من جديد. المحيطات التي لا حدود لها تجف. والجبال تمحي. يرتعش نجم القطب، والآلهة تتلاشى».

الشفقة. هذا هو الدليل الذي لا يخطئ في الرحلة البوذية. بالشفقة نخلص أنفسنا من أجسادنا. نقضي على التجزئة ونذوب في اللاشيئية. «نحن جميعاً واحد. وهذا الواحد يتألم. ويجب أن نخلصه. حتى لو تألمت قطرة مرتعشة من الماء فقط فإنني أتألم».

«تبزغ (الحقائق النبيلة الأربع) في عقلي. العالم شبكة وقعنا فيها. الموت لا يخلصنا لأنا سنولد من جديد. فلنتغلب على الظمأ. ولنقتلع الرغبة من جذورها. ولنفرغ أحشاءنا! لا تقل: أريد أن أموت. أو: لا أريد أن أموت. بل قل: أنا لا أريد شيئاً. اسمُ بعقلك فوق الرغبة والأمل. و عندها، حتى وأنت لا تزال في هذه الحياة، ستكون قادراً على الدخول في غبطة انعدام الوجود. وبيدك توقف (عجلة البعث)».

لم يسبق أن سما شكل بوذا أمامي مستحماً بضوء ساطع كهذا. في الماضي حين كنت أعتبر النيرفانا[4] مساوية للخلود، كنت أرى بوذا جنرالاً آخر من جنرالات الأمل يقود جيشه بعكس اندفاع العالم. والآن فقط أدركت أن بوذا يحث الإنسان على الرضى بالموت، وعلى حب المقدور. وأن يوائم بين قلبه والدفق الشامل. وحين يرى المادة والعقل يطارد كل منهما الآخر يتحدان ويلدان ويفنيان، كان يقول: «هذا ما أريد».

بين الناس جميعاً، الذين ولدتهم الأرض، يقف بوذا متألقاً في الذروة. روحاً نقية خالصة. دون خوف أو ألم. مليئاً بالرحمة والحكمة. كان يمد يده ويفتح الطريق إلى

(4) مرحلة النشوة والسعادة القصوى التي تتحقق عن طريق قتل الحواس والشهوات عند البوذيين.

Twitter: @ketab_n

الخلاص، وهو يبتسم بوقار. والكائنات كلها تتبعه دون تفكير. وبالخضوع، بحرية، لما لا يمكن تجنبه، تقفز مثل الجداء الذاهبة للرضاعة. ليس البشر وحدهم بل الكائنات كلها، البشر والوحوش والأشجار. وعلى خلاف المسيح لا يخصص بوذا البشر وحدهم. إنه يشفق على كل شيء. ويخلص كل شيء.

كان يحس في قلبه بالكون يتشكل ويفنى. وحده دون معونة القوى الغيبية. كان الأثير يتكثف في جمجمته المقمرة بالشمس ويصبح سديماً. والسديم يصبح نجماً. والنجم، كالبذرة، يشكل قشرة ويولد أشجاراً أو حيوانات وبشراً وآلهة. ثم تشب النار في رأسه ويتحول كل شيء إلى دخان ثم يتلاشى.

عشت أياماً وأسابيع عديدة وأنا مندفع في هذه المغامرة الجديدة. أية هاوية هو القلب البشري! وكيف تتحول خفقات القلب إلى وجيب فيسلك طرقاً غير متوقعة! أيمكن أن شوقي وتوقعي كله للخلود يقودني إلى الفناء المطلق؟ أم أن من الممكن أن يكون الخلود والفناء هما الشيء ذاته؟

حين نهض بوذا من تحت الشجرة، حيث ظل يكافح سبع سنوات بحثاً عن الخلاص، مضى وقد وصل إلى الخلاص الآن. جلس متربعاً في ساحة مدينة كبيرة. وهناك بدأ يتكلم، وهو محاط باللوردات والتجار والمحاربين، ويعظهم عن الخلاص. في البدء سخر منه هؤلاء الكفرة كلهم. لكنهم بالتدريج بدأوا يحسون أن أحشاءهم قد فرغت. وأحسوا بأنفسهم وقد تطهروا من الرغبة. وشيئاً فشيئاً تحولت أثوابهم المبهرجة بالأبيض والأحمر والأزرق إلى صفراء مثل ثوب بوذا. وأنا، بطريقتي الخاصة، أحسست أن أحشائي قد فرغت وأن عقلي قد ارتدى الثوب الأصفر.

ذات يوم بينما كنت أتمشى في براتر، وهي حديقة فيينا الكبيرة، توجهتُ إلى تحت الأشجار فتاة من الجماعة المتبرجة. وسعت خطاي خائفاً لكنها لحقت بي وأمسكت بذراعي. كانت تفوح منها رائحة البنفسج القوية. وفي الضوء استوضحت عينيها الزرقاوين وشفتيها المدهونتين وثدييها نصف العاريين.

همست وهي تغمز بعينها: تعال معي.

- لا. لا. صرخت وكأنني في خطر.

تركت ذراعي وسألت: ولم لا؟

- آسف. ليس لدي وقت.

- هل أنت معتوه؟ قالت الفتاة وهي تنظر إلي بإشفاق. ما أنت؟ راهب؟ لا أحد يرانا.

كنت على وشك أن أجيب أن بوذا يرانا، لكنني أمسكت نفسي. وكانت عينا الفتاة، في الوقت ذاته، قد وقعتا على متسكع وحيد آخر فهرعت إليه لتحدثه. تنفست مرتاحاً، وأنا أحس كما لو أنني قد نجوت من خطر كبير. ورجعت بأقصى سرعة إلى غرفتي.

Twitter: @ketab_n

كنت قد غرقت في بوذا. عقلي عباد شمس أصفر. وبوذا هو الشمس. كنت أتتبعه وهو يشرق، ثم وهو يصل إلى ذروة سمته، ثم وهو يختفي. قال لي ذات مرة عجوز روملي: «الماء ينام. لكن الأرواح لا تنام». إلا أنه بدا لي خلال تلك الأيام أن روحي قد غرقت في نوم مبهج. وغمرتها السكينة البوذية. ومثلما تحلم وتعرف أنك تحلم، وحين لا يثير فيك كل ما تراه في نومك، سيان كان خيراً أم شراً، لا فرحاً ولا حزناً ولا خوفاً لأنك تعرف أنك ستستيقظ وسينمحي كل شيء، بهذه الطريقة ذاتها، ودون أن أحس بفرح أو خوف كنت بسكينة تامة أراقب مرور أشباح العالم أمام عيني.

ولكي أمنع هذه الرؤيا من التبدد بسرعة كبيرة، وأزيد من صلابة الخلاص الكامل بالكلمات، لكي تستطيع روحي أن تحسه بشكل ملموس، بدأت أكتب حواراً بين بوذا وحواريه الأثير لديه أناندا(5).

* * *

نزل المتوحشون من الجبال وهدموا المدينة. وجلس بوذا باسماً تحت شجرة مزهرة. وكان أناندا يحني رأسه على ركبتي بوذا ويغمض عينيه ليمنع سلسلة أشباح العالم (فانتاسماغوريا) من تضليل أفكاره. وحولهما كان يقف حشد من المستمعين الذين يتوقون لأن يصبحوا حواريين. كانوا يريدون أن يسمعوا كلمات الخلاص. ولكن ما إن سمعوا بأن الهمج المتوحشين يشنون حرباً حتى صاروا يضطرمون. صرخوا: «إنهض أيها المولى! قدنا لصد الهمج. في ما بعد تستطيع أن تقول لنا سر الخلاص».

هز بوذا رأسه: لا. أرفض أن آتي.

وصرخ الآخرون بغضب: هل أنت متعب؟ هل أنت خائف؟

وأجاب بوذا: «لقد أكملت الرحلة». وكان صوته يتجاوز التعب والخوف، ويتجاوز الحماس الوطني.

فصرخ البقية: «طيب. إذن. فلنذهب نحن ولندافع عن أرض آبائنا!»، وعادوا باتجاه المدينة.

قال بوذا وهو يرفع يده ليباركهم: اذهبوا ومعكم بركتي. لقد ذهبت إلى حيث أنتم ذاهبون. ذهبت ورجعت. سأظل جالساً هنا تحت هذه الشجرة المزهرة منتظرًا عودتكم. وعند ذلك فقط، حين نجلس جميعاً تحت الشجرة المزهرة ذاتها يصبح لكل كلمة أقولها، ولكل كلمة تقولونها، المعنى ذاته لنا جميعاً. أما الآن فلا يزال الوقت باكرًا جداً. إنني أقول شيئاً

(5) ولد في اليوم ذاته الذي ولد فيه بوذا. وكذلك زوجته وحصانه وشجرته ومرافقه. كان متزوجاً من امرأة جميلة. وكان قلبه متعلقاً بها. ولذلك احتاج بوذا إلى مجموعة من التجارب (أخذه إلى الجنة والجحيم) لكي يقنعه بالزهد وبالمبدأ البوذي. ثم أصبح أفضل أتباعه.

Twitter: @ketab_n

وتفهمون شيئاً آخر. إننا لا نتكلم اللغة ذاتها. ولذا أرجو لكم رحلة مريحة. وإلى اللقاء!

قال ساريبوتا: أنا لا أفهم يا مولاي. هل عدت تتحدث إلينا بالألغاز؟

ـ ستفهم حين تعود يا ساريبوتا. كما قلت لك. لا يزال الوقت باكرًا. لقد عشت سنوات حياة البشر وعذابهم، سنوات وأنا أمتلئ وأنضج. قبل ذلك لم أكن أتمتع بهذه الحرية الكاملة يا رفقائي. ولماذا حققت هذه الحرية؟ لأنني اتخذت قراراً عظيماً.

ـ قرار عظيم؟ سأل أناندا. ورفع رأسه ثم انحنى ليقبل باطن قدم بوذا المقدسة: أي قرار يا مولاي؟

ـ لا أريد أن أبيع روحي لله، لذلك الذي، أنتم الآخرين كلكم، تسمونه الله. ولا أريد أن أبيع روحي للشيطان، لذلك الذي أنتم كلكم، تسمونه الشيطان. لا أريد أن أبيع نفسي لأحد. أنا حر! سعيد هو الإنسان الذي ينجو من مخالب الله والشيطان. هو، وهو وحده، الذي يجد الخلاص.

وسأل ساريبوتا والعرق يتصبب من جبينه: الخلاص مم؟ الخلاص مم؟ هناك كلمات لا تزال على شفتيك يا مولاي. إنها تحرقك.

ـ لا يا ساريبوتا. إنها لا تحرقني. إنها تبردني. اعذرني. ولكنني لا أعرف إن كنت تملك الاحتمال، إن كنت تستطيع أن تسمعها دون أن يصيبك الذعر.

ـ مولاي. قال ساريبوتا. نحن ماضون إلى الحرب وقد لا نعود. قد لا نراك بعد الآن. فاكشف لنا عن هذه الكلمات الختامية، كلماتك الأخيرة. الخلاص مم؟

ببطء وتثاقل، مثل جسد يهوي في الهاوية، تساقطت الكلمات عن شفتي بوذا المشدودتين: من الخلاص!

وهتف ساريبوتا: من الخلاص؟ الخلاص من الخلاص؟ لا أفهم يا مولاي!

ـ هذا أفضل يا ساريبوتا. لو فهمت لخفت. ومع ذلك أريد، أيها الزملاء، أن تعرفوا أن هذا هو شكل حريتي. لقد نجوت من الخلاص.

وصمت. إلا أنه لم يعد قادراً على كبح جماح نفسه: أريدكم أن تعرفوا أن أي شكل آخر للحرية هو عبودية. ولو أنني ولدت ثانية لقاتلت من أجل هذه الحرية العظيمة، من أجل الخلاص من الخلاص. ولكن هذا كاف. لم يئن الأوان لحديثنا. سنقول كل شيء حين تعودون من الحرب ـ إذا عدتم. وداعاً.

وتنفس بعمق. وحين رأى حوارييه مترددين، ابتسم وسألهم: فيم بقاؤكم؟ لا تزال الحرب واجباً عليكم. هيا إذن. هيا إلى الحرب. وداعاً!

قال ساريبوتا: إلى اللقاء يامولاي. هيا بنا. فلنذهب. وليكن الله معنا.

لم يتحرك أناندا. ونظر إليه بوذا راضياً بطرف عينه.

Twitter: @ketab_n

قال الحواري وهو يتلون بشدة: سأبقى معك هنا يا مولاي.

ـ خوفاً يا عزيزي أناندا؟

ـ بل حباً يا مولاي.

ـ لم يعد الحب كافياً يا رفيقي الوفي.

ـ أعرف ذلك يا مولاي. حين كنت تتكلم رأيت اللهب يلعق فمك.

ـ لم يكن لهباً يا أناندا. بل تلك هي كلماتي. هل تفهم هذه الكلمات فوق البشرية يا صديقي المخلص الفتي؟

ـ أظن أنني أفهمها. ولهذا بقيت معك.

ـ ما الذي تفهمه؟

ـ كل من يقول إن الخلاص موجود هو عبد. لأنه يظل يزن كل كلمة من كلماته، وكل عمل من أعماله في كل لحظة. إنه يتساءل مرتعداً، هل سأنجو، أم ستحل علي اللعنة؟ وهل سأذهب إلى الجنة، أم إلى الجحيم؟ كيف يمكن لروح أن تكون حرة وهي تأمل؟ كل من يأمل يخاف من حياته ومن الحياة القادمة معاً. إنه سيتعلق في الهواء متشككاً، وهو ينتظر الحظ أو رحمة الله.

وضع بوذا يده على شعر أناندا الأسود وقال له: ابق.

ظلا صامتين بعض الوقت تحت الشجرة المزهرة وبوذا يداعب شعر حواريه الحبيب بهدوء ومحبة.

ـ الخلاص يعني التخلص من المخلصين كلهم. تلك هي الحرية السامية. أسمى حرية. حيث لا يتنفس الإنسان إلا بصعوبة. هل تستطيع الاحتمال؟

أحنى أناندا رأسه ولم يتكلم.

ـ بمعنى آخر، أنت تفهم الآن من هو المخلص الكامل..

صمت للحظة، ثم قال وهو يفرك بين أصابعه زهرة سقطت من الشجرة: إنه المخلص الذي سيخلص البشر من الخلاص.

* * *

بأحرف الأبجدية الستة والعشرين (الحجارة الوحيدة والإسمنت الوحيد الذي لدي) شققت الطريق المؤدي إلى الخلاص. أنا أعرف الآن. ولأنني أعرف كنت أنظر إلى العالم بهدوء، دون خوف، لأنه لم يعد يستطيع أن يخدعني الآن. كنت أنحني من نافذتي وأنظر إلى الرجال والنساء والسيارات والمخازن المعبأة باللحوم والبقالة والمشروبات والفاكهة والكتب؛ وأبتسم. هذه كلها ليست إلا غيوماً ملونة، تهب عليها نسمة لطيفة فتتشتت وتتبدد. لقد أنجبتها قوة المغوي. ويتعلق الآن بها الظمأ والجوع البشريان لساعة أو ساعتين، قدر الإمكان، قبل أن تهب النسمة وتبددها.

Twitter: @ketab_n

أخرج إلى الشارع وأنخرط في موج الناس الذين يركضون كلهم بسرعة كبيرة. كنت أركض معهم. لم يعد لدي ما أخافه. وكنت أقول لنفسي إنهم أطياف، ضباب تشكل من قطرات ندى. لم أخاف منهم؟ لم لا أذهب وأرى ما يفعلونه؟ وصلنا إلى دار سينما ملونة بأضواء حمراء وزرقاء وخضراء ودخلنا وتبوأنا مقاعد مغطاة بالمخمل.

في الطرف الأقصى كانت هناك شاشة متألقة تمر عليها بسرعة ظلال قلقة. ما الذي كانوا يفعلونه؟ يقتلون ويقتلون ثم يقتلون. إلى جانبي كانت تجلس فتاة. وكانت رائحة أنفاسها عابقة بالقرفة.

أحسست بصدرها يعلو وهي تتنفس. بين حين وآخر كانت ركبتها تلمس ركبتي، ارتعشت. لكنني لم أبتعد. التفتت وتطلعت إلي لوهلة، وفي شبه الظلمة المخيمة على الصالة خيل إلي أني رأيت ابتسامتها.

سرعان ما أحسست بالاكتفاء من مراقبة تلك الظلال فنهضت لأخرج. ونهضت الفتاة أيضاً. عند المخرج التفتت مرة أخرى وابتسمت. وبدأنا حديثاً. كان القمر يسطع فوقنا فتوجهنا إلى الحديقة وجلسنا على مقعد صغير. كان الوقت ربيعاً. وكان الليل حلواً كالعسل والليلك عابقاً. كان الأزواج[6] يمرون باستمرار. وكان آخرون يتعانقون ويتمددون على العشب. وبدأ بلبل مختبئ بين الليلك يغرد فوق رؤوسنا. وتوقف قلبي. لم يكن طائراً، لابد أنه جني داهية. أعتقد أني كنت قد سمعت هذا الصوت ذاته من قبل ـ عندما تسلقت جبل بسيلوريتي ـ وعرفت ما كان يقوله. مددت يدي ووضعتها على شعر الفتاة. سألتها: «ما اسمك؟»، فأجابت ضاحكة: «فريدة. لم تسأل؟ اسمي: امرأة».

عند هذا الحد انفلت شيء رهيب من فمي. لم تكن الكلمات التي قلتها كلماتي ـ لابد أنها تخص واحداً من أسلافي ـ وليس أبي الذي كان يحتقر النساء. بل هو شخص آخر. وفي اللحظة التي نطقت بها أحسست أن الرعب يهيمن علي. ولكن بعد فوات الأوان.

ـ فريدة. هل تقضين الليلة معي؟

أجابت الفتاة بهدوء: ليس الليلة. لا أستطيع. غداً.

أحسست بالارتياح فنهضت بسرعة كبيرة. افترقنا. وعدت متعجلاً إلى غرفتي.

وعند ذلك حدث شيء لا يصدق، شيء يجعلني أرتجف حتى الآن حين أتذكره. إن روح الإنسان غير قابلة للتلف فعلاً. إنها فعلاً نبيلة وجليلة القدر، ولكن لأنها مضغوطة على قلبها فإنها تحمل جسداً يزداد تعفناً كل يوم. في طريق عودتي إلى البيت سمعت الدم يصعد إلى رأسي. ثارت ثائرة روحي حين أحسَّت أن جسدي كان على وشك الوقوع في الخطيئة.

(6) المقصود بالأزواج (الكوبل) كل اثنين، الذكر والأنثى، وليس بالضرورة الزوج والزوجة.

Twitter: @ketab_n

قفزت على قدميها، مترعة بالاحتقار والغضب. ورفضت أن تمنح الإذن. وتابع الدم تدفقه إلى الأعلى، وتجمع في وجهي إلى أن أدركت شيئًا فشيئاً أن شفتي وخدي وجبهتي قد تورمت. وصغرت عيناي إلى درجة لم يبق منهما إلا شقان صغيران. وبصعوبة فائقة صرت أستطيع أن أرى أي شيء.

وأنا أتعثر في مشيتي رحت أوسع خطاي وأركض متلهفاً باتجاه البيت لكي أتطلع إلى المرآة وأرى الحالة التي كنت فيها.

وأخيراً حين وصلت. أشعلت الضوء وتطلعت، فأطلقت صرخة ذعر. كان وجهي كله متورماً ومشوهاً بشكل مخيف. بالكاد كانت عيناي تظهران بين كتلتين مندفعتين من اللحم الوردي. وفمي أصبح شقاً طولياً عاجزاً عن الانفتاح. وتذكرت الفتاة فريدة. كيف أستطيع أن أراها في اليوم التالي، وأنا في هذه الحالة المقرفة؟

كتبت برقية: «لا أستطيع المجيء غداً. سآتي بعد غد». ثم سقطت على سريري يائساً. أي مرض يمكن أن يكون هذا؟ سألت نفسي. أهو الجذام؟ حين كنت طفلاً في كريت كنت كثيراً ما أرى المجذومين بوجوههم المنتفخة القانية المتقشرة دائماً. وتذكرت الآن أي رعب كانت تثيره فيّ وجوههم. إلى درجة أنني قلت ذات يوم: «لو أنني ملك لأخذت كافة المجذومين وعلقت على رقابهم حجارة وألقيت بهم في البحر». هل من الممكن أن يكون (اللامرئي) ـ أحد اللامرئيين ـ قد تذكر كلماتي اللاإنسانية فأرسل علي هذا المرض المرعب عقوبة؟

لم أنم لحظة واحدة تلك الليلة. كنت متشوقاً لمجيء الفجر؛ لأنني قلت لنفسي إن المشكلة قد تنتهي في الصباح. وكنت أستمر في تلمس وجهي لأرى ما إذا كان الانتفاخ قد بدأ يخف.

عند الفجر قفزت من السرير وركضت إلى المرآة. كان هناك قناع مرعب من اللحم يكسو وجهي. وكان الجلد قد بدأ يتفجر وينزف سائلاً أبيض مصفراً. لم أكن إنساناً بل كنت شيطاناً.

استدعيت الخادمة لأعطيها البرقية. زعقت وخبأت وجهها براحتيها، في اللحظة التي فتحت الباب ورأت وجهي. ودون أن تجرؤ على الاقتراب مني اختطفت البرقية وذهبت. مر يوم ويومان وثلاثة وأسبوع وأسبوعان. وكل يوم، وخشية أن تأتي الفتاة إلى غرفتي وتراني، كنت أبعث بالبرقية ذاتها: «لا أستطيع أن أتي اليوم. سآتي غداً». لم أكن أحس بأي ألم. لكنني لم أكن أستطيع أن أفتح فمي لكي آكل. كان طعامي الوحيد هو الحليب وعصير الليمون. وكنت أمتصهما بمصاصة. وأخيراً لم أعد أستطيع التحمل. كنت قد قرأت كتباً عديدة في التحليل النفسي كتبها فلهلم ستيكل، التلميذ الشهير لفرويد، فذهبت أبحث عنه.

Twitter: @ketab_n

إن نفسي هي التي أوقعت بي في هذا المرض دون أن أعرف السبب. وتكهنت: إن نفسي هي المسؤولة.

بدأ البروفسور العالم يستمع لاعترافي. حكيت قصة حياتي: كيف كنت أبحث عن طريق للخلاص منذ بلوغي، وكيف تبعت المسيح سنوات عديدة، وكيف وجدت دينه في النهاية مبسطاً جداً ومتفائلاً جداً، وكيف تركته لأسير في طريق بوذا.

وابتسم البروفسور. وقال لي: «إن البحث لإيجاد بداية العالم ونهايته هو أمر مَرَضيٌّ. الإنسان الطبيعي يعيش ويكافح ويجرب الفرح والحزن. ويتزوج وينجب أطفالاً. ولا يضيع وقته في التساؤل: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ إلا أنك لم تنه قصتك. لا تزال تخفي عني شيئاً ما. اعترف بكل شيء».

حكيت له كيف قابلت فريدة وقلت له إننا قد رتبنا موعداً.

وانفجر البروفسور في ضحكة قوية ساخرة. تطلعت إليه مستثاراً. كنت قد بدأت أكره هذا الرجل لأنه كان يتفحص أسراري تحت عدسته المكبرة الحمقاء، ويضغط ليفتح كافة الأبواب الموصدة والمرتجة في داخلي.

«يكفي! يكفي!»، قال وقد بدأ يضحك بطريقته الساخرة. «سيظل هذا القناع على وجهك طالما أنت في فيينا ـ المرض الذي أصابك يسمى مرض الزهّاد. إنه مرض نادر جداً في أيامنا لأنه ما من جسد، اليوم، يطيع روحه. هل سبق لك أن قرأت أساطير القديسين؟ هل تتذكر الناسك الذي هجر صحراء طيبة وركض إلى أقرب مدينة لأن شيطان الزنا كان قد ركبه. فأحس أنه مجبور على أن ينام مع امرأة؟ ركض وركض ولكن حين كان على وشك أن يعبر بوابات المدينة، تطلع فرأى برعب أن الجذام يغطي جسده. ولكنه لم يكن الجذام. كان هذا المرض. المرض ذاته الذي أصابك. كيف يستطيع أن يقف أمام امرأة بوجه مضطرم كهذا؟ وأية امرأة سترى أنها تستطيع لمسه؟ وهكذا ركض عائداً إلى صومعته في الصحراء. وقدم الشكر لله الذي أنقذه من الخطيئة. بينما غفر له اللّه وأزال الجذام عن جسد. هل تفهم الآن؟ إن روحك المنغمسة في البوذية ـ أو بالأحرى ما تسميها روحك ـ تعتقد أن النوم مع امرأة خطيئة مميتة. ولهذا فهي ترفض أن تسمح لجسدها باقتراف هذه الخطيئة، إن أرواحاً كهذه، قادرة على أن تفرض نفسها إلى هذه الدرجة على اللحم، هي أرواح نادرة في عصرنا. طوال عملي العلمي لم أواجه إلا حالة واحدة أخرى مشابهة. وهي حالة سيدة من فيينا تقية ومستقيمة وفاضلة إلى أبعد الحدود. كانت تحب زوجها حباً شديداً. لكنه كان في الجبهة. وصدف لها أن قابلت شاباً وعشقته. وذات ليلة كانت مستعدة لتسليم نفسها. لكن روحها ثارت وعارضتها. صار وجهها متورماً بشكل كريه تماماً كوجهك الآن. فبحثت عني يائسة. وهدأتُها وقلت لها: ستشفين حين يعود زوجك من الحرب. وبالفعل حالما رجع زوجها،

Twitter: @ketab_n

بمعنى أنه حالما زال خطر الخطيئة، عاد وجهها إلى جماله الأصلي. حالتك مشابهة تماماً. ستشفى حالما تغادر فيينا وتترك فريدة وراءك.

لم أصدق. خرافات علمية. هكذا قلت لنفسي وأنا أغادره في حالة من الهيجان العنيد. سأبقى في فيينا. سأبقى وسأتحسن. بقيت شهراً آخر لكن القناع لم يزل. وتابعت إرسال البرقية اليومية إلى فريدة: «لا أستطيع أن آتي اليوم، سآتي غداً». لكن هذا الغد لم يأت أبداً. وذات صباح وقد أنهكني الأمر كله نهضت من فراشي مصمماً على السفر. أخذت حقيبتي ونزلت الدرج. وصلت إلى الشارع، وتوجهت إلى المحطة. كان الصباح باكراً. وكانت نسمة باردة تهب علي. كان رجال الطبقة العاملة ونساؤها مسرعين إلى أعمالهم في مجموعات مرحة، وهم لا يزالون يمضغون لقمات من الخبز. لم تكن الشمس قد وصلت إلى الشوارع بعد. كانت عدة نوافذ قد فتحت، والمدينة كانت تستيقظ. مشيت بخطوات خفيفة وبمزاج حسن. كنت أستيقظ مثل المدينة. وأحسست بوجهي يفقد ثقله فيما كنت أتقدم. كانت عيناي قد تحررتا وصار بوسعهما أن تتفتحا. وبدأ التورم في شفتي يخف. فرحت أصفر مثل طفل. مر النسيم البارد على وجهي مثل يد رحيمة، مثل المداعبة. وحين وصلت أخيراً إلى المحطة أخرجت مرآة جيبي لأتطلع إلى نفسي. يا لفرحتي! أي حظ طيب! كان التورم في وجهي قد اختفى تماماً. ملامحي السابقة، الأنف والفم والخدان، عادت. هرب الشيطان وعدت مرة أخرى إنساناً.

منذ ذلك اليوم أدركت أن روح الإنسان منبع رهيب وخطير للاضطرابات. دون أن ندري نحمل كلنا قوة متفجرة ملفوفة بلحمنا وشحمنا. والأسوأ من ذلك أننا لا نريد أن نعرفها، لأننا عندها نفقد مبررات النذالة والجبن والكذب. لا يعود في وسعنا الاختباء وراء عجز الإنسان المفترض وفساده. نحن أنفسنا يجب أن نتحمل المسؤولية حين نكون سفلة أو جبناء أو كذابين. ذلك لأنه على الرغم من أننا نمتلك قوة كلية القدرة في أعماقنا فإننا لا نجرؤ على استخدامها خشية أن تدمرنا. لكننا نفضل الطريق السهل المريح. ونسمح لها بأن تصرف طاقتها شيئاً فشيئاً إلى أن تنحط هي بدورها وتتحول إلى لحم وشحم. ما أرهب أن لا نعرف أننا نمتلك هذه القوة! لو أننا كنا نعرف لكنا فخورين بأرواحنا. في السموات والأرض كلها. لا شيء يشبه الله هذا الشبه مثل روح الإنسان.

Twitter: @ketab_n

25

برلين

قفزت من فيينا إلى برلين. وعلى الرغم من أن بوذا كان قد روى الكثير من ظمئي، إلا أنه لم يستطع أن يطفئ ظمئي لرؤية مناطق كثيرة من الأرض وبحار كثيرة، وبالقدر الذي أستطيعه. لقد منحني ما كان هو يسميه «عين الفيل» ـ القدرة على رؤية الأشياء كلها وكأنما للمرة الأخيرة وتوديعها.

ظللت أقول لنفسي إن العالم شبح. وإن الناس أطياف، وكائنات ندية، وأبناء للندى سريعو الزوال. لقد بزغ بوذا، الشمس السوداء، فذابوا وصاروا لا شيء. لكن الشفقة هيمنت على روحي. الشفقة والحب. لو أنني أستطيع، فقط، أن أبقي هذه الأشباح على حافة رؤياي لحظة أخرى وأمنعها من التلاشي! أحسست أن آخر نبضة من قلبي لم تتلفع بالرداء الأصفر. لقد ظلت خفقة حمراء قانية، تخفق بعناد، رافضة أن تسمح لبوذا بالاستحواذ علي كاملاً. كان في أعماقي كريتي يرفع يده احتجاجا، رافضاً أن يدفع فاردنج نحاسياً كجزية للفاتح المسالم.

في برلين أدركت ذلك كله. وحينما أغمض عيني الآن لأتذكر خطاياي في تلك المدينة الكريهة (خطايا قاتلة لشخص من أتباع بوذا) تفيض ذاكرتي بالضحك وبالكلمات المشتعلة والليالي الدافئة المدهشة التي انقضت دون تفكير بالنوم، وبأشجار الكستناء والكرز المزهرة وبالعيون اليهودية النهمة، وبالرائحة الواخزة للإبطين الأنثويين. وأعجز عن وضع الأمور في نصابها.

أقلب دفاتر صفراء في محاولة لمعرفة ما حدث، أولاً وما حدث بعده. وأية أيمان أقسمناها، وما سبب الفراق. عظيمة فعلاً قدرة حروف الأبجدية، تلك الجند الصغيرة الستة والعشرين، التي تقف على حافة المهوى لتدافع عن قلب الإنسان، لوقت ما على الأقل، وتمنعه من السقوط والغرق في عين بوذا السوداء التي لا قاع لها.

2 اكتوبر:

كنت أتجول خلال ثلاثة أيام في شوارع برلين الرتيبة التي لا تنتهي. لقد فقدت أشجار

Twitter: @ketab_n

الكستناء أوراقها. وكانت الريح قارسة وقلبي قد تجلد. دخلت اليوم باباً كبيراً كتب عليه بأحرف كبيرة: «مؤتمر الإصلاح التربوي». كان الثلج يهطل وكنت بردانا فدخلت. كانت القاعة مليئة بالأساتذة. وكان حشد الرجال والنساء كبيراً. بحثت عن مكان أجلس فيه. وبغتة رأيت بلوزة برتقالية تتلامع بين السترات السوداء والرمادية. وتماماً كما تنجذب الحشرة إلى لون الزهرة، كذلك فإنني، بالطريقة ذاتها، تحركت نحو الفتاة ذات البلوزة البرتقالية. كان المقعد المجاور لها خالياً فجلست. وكان أحد المعلمين يؤشر بطريقة مضحكة. كان قد أبح صوته فشرب قليلا من الماء وهدأ لبعض الوقت. ثم أجهد نفسه من جديد وذلك كله حول الكيفية التي سيغير بها المنهاج المدرسي ويصنع جيلاً ألمانياً جديداً يستخف بكل من الحياة والموت. ها هنا أيضا مخلّص آخر، كان يجاهد لإنقاذ العالم بتحطيمه.

التفتُّ إلى جارتي. كان شعرها أسود داكناً وعيناها الواسعتان كانتا سوداوين ولوزيتين. وأنفها كان معقوفاً قليلاً. كانت بشرتها داكنة، بلون الكهرمان القديم، مع بقع خفيفة على الوجه. انحنيت صوبها وسألتها: من أين تظنينني؟

أجابت وقد تضرجت بشدة: من بلاد الشمس.

ـ صحيح. من بلاد الشمس. إنني أختنق هنا. هل نخرج ونتمشى قليلاً؟

ـ نعم. هيا بنا.

ما إن أصبحتُ في الشارع حتى راحت تقفز وتضحك وتصرخ مثل طفل أعطي لعبة جديدة.

«اسمي سارينا. وأنا يهودية. وأكتب قصائد».

دخلنا إلى حديقة. كانت الأوراق الصفراء المتراكمة على الأرض تنسحق تحت أقدامنا. وضعت يدي على شعرها. كان دافئاً وناعماً كالحرير. ودون كلام توقفت الفتاة ومدت عنقها وكأنها تنصت باهتمام لشيء ما.

قالت: يدك تمنح القوة. أحس كأنني جرة ملئت من النبع.

كان الوقت قبيل الظهر. فاقترحت: فلنذهب ونأكل حساء مكثفاً. ظريفاً وساخناً ليدفئنا.

ـ هذا يوم صيام عند اليهود. الأكل فيه خطيئة. إنني جائعة وبردانة مثلك. لكنها خطيئة.

ـ فلنقترف الخطيئة إذن لكي نستطيع أن نندم فيما بعد ويغفر لنا إلهك يهوه الرهيب.

بدا عليها الانزعاج عندما سمعتني ألمح إلى إلهها بهذه الطريقة المازحة.

ـ ومن هو إلهك؟

جعلني سؤالها أجفل. أحسست فوراً أنني كنت أرتكب خطيئة بحق إلهي. طوال ذلك

Twitter: @ketab_n

الوقت كنت قد نسيت أن هاتين العينين وهذا الشعر وهذه البشرة الكهرمانية ليست إلا شبحاً، وأنني لم أنفخ ولم أكن أريد أن أنفخ لطرده.

ـ ديونيزوس؟ سألت الفتاة ضاحكة. السكير العظيم؟

ـ لا. لا. واحد غيره. واحد رهيب أكثر من إلهك يهوه. لا تسألي!

كان علي في تلك اللحظة أن أنهض وأنصرف. لكنني أشفقت على جسدي. وأشفقت على جسدها فبقيت.

ـ اقرئي واحدة من قصائدك. قلت ذلك لأحول أفكاري.

شع وجهها بهجة. وصار صوتها أكثر هدهدة ومرارة:

أيها المنفيون الذين لم يدركوا بعد
أن المنفى وطن.
حين ندخل مدناً جديدة
يسير الوطن لاحقاً بنا مثل أخت.
أيها المنفيون الذين لم يدركوا بعد
أنه في قلوبنا المنفية،
يبدأ نشيد الإنشاد
حين نمنح ابتسامة.

امتلأت عيناها بالدموع وسألتها: هل تبكين؟ وانحنيت عليها. فأجابت: أينما لمست اليهودي فإنك تجد جرحاً.

3 اكتوبر:

آه لو كان الإنسان قادراً على الاحتفاظ بالنشوة! لو أن ديونيزوس كان إلها كلي الإبداع وشمولي الخلق! لكن النشوة تتبدد بسرعة. والذهن يصفو ويتحول اللحم المتماسك الحار إلى شبح من جديد. في اليوم التالي استيقظ عقلي. نظر إلي باحتقار وتجهم وصرخ: كافر، خائن، غدار، متقلب! إنني أخجل من أن أعيش وأسافر معك. ربما أن بوذا يستطيع أن يغفر لك. لكن أنا لا أستطيع. إياك أن تخطو مرة أخرى إلى الشرك ذي اللون البرتقالي.

إلا أن أول شيء فعلته في الصباح، رغم ذلك، هو أنني سلكت الطريق ذاته وعدت إلى المؤتمر. تطلعت. لكنني لم أر اللون البرتقالي في أي مكان. وعلى الرغم من أنني كنت أريد أن أبتهج إلا أنني لم أستطع. ومرة أخرى سمعت الكلام المنمق المفخم. كان كثير من المستمعين يأكلون التفاح ليهدئوا جوعهم. وكان آخرون منكبين يسجلون ملاحظات ورؤوس أقلام ودون أن يضيعوا كلمة واحدة.

Twitter: @ketab_n

وبغتة شعرت بشيء كالأنفاس الدافئة ورائي: وجه يبحث عني ويثبت عينيه علي. التفت فرأيتها في الطرف الأقصى من القاعة.

كانت تلبس شالاً رثاً ذا لون زيتي غامق. وقد ردت قبتها ذات الفرو المنزوع الوبر لأن الغرفة كانت باردة. ابتسمت لي وأشع وجهها مثل تمثال رخامي في ضوء الشمس.

لم ألتفت للنظر إليها مرة ثانية. حاولت أن أخرج. لكنها لحقت بي في الردهة، وأعطتني مجموعة صغيرة من قصائدها. ضحكت وقفزت. لم تكن نشوتها من اليوم السابق قد تلاشت. لكنني كنت تواقاً لمفارقتها وللانصراف. وفي اللحظة التي بدأت فيها أنحني لتقديم يدي إليها رأيت عينيها تتطلعان إلي متسائلتين ومتشككتين، وظل من الخوف يخيم عليهما. كان جسدها قد ازداد صغراً وصار أكثر انحناء. لقد تقلصت داخل نفسها. وانفطر قلبي شفقة. أمسكت بها من أعلى ظهرها وفركت كتفيها النحيلتين.

ـ لماذا تؤذيني؟ سألت وهي تحاول الفرار.

ـ لأنك مصنوعة من طينة مختلفة، ولأن لديك إلها مختلفاً. ولأنني كنت أفكر فيك طوال الليل. كنت أريد أن أسألك بعض الأسئلة. ولكن يجب أن تقولي الحقيقة.

ـ ولم لا أقول الحقيقة؟ أنا لا أخافها. أنا يهودية.

ـ ما الذي يأمر به إلهك؟ أي واجب يفرضه عليك؟ هذا ما يجب أن أعرفه قبل أن نتقدم أكثر من ذلك.

ـ الكراهية. هذا هو الواجب الأول. هل ارتحت؟

بغتة تشنجت قسماتها. وعلى الرغم من أن شفتيها السميكتين لم تعودا تتكلمان فإنهما قد ظلتا ترتعشان. عينان صفراوان وشدق فاغر لنمرة صارت واضحة وراء الوجه الجميل ذي الملامح القاتمة.

ـ هل ارتحت؟ همست مرة أخرى باستفزاز.

تذكرت قول بوذا: إذا رددنا على الكراهية بالكراهية فلن يتحرر العالم من الكراهية.

أجبتها: الكراهية هي الخادم الذي يسير في الأمام وينظف الطريق لكي يمر السيد.

ـ ومن هو السيد؟

ـ الحب.

ضحكت اليهودية ساخرة: «هذا ما يثغو به مسيحك. أما بالنسبة لنا فإلهنا يهوه بأمرنا قائلاً إذا لكمك أحدهم وأسقط لك سناً فحطم فكه كلها بالمقابل. أنت حَمَل. أما أنا فذئبة جريح. نحن لا نستطيع أن نختلط. جميل أننا أدركنا ذلك قبل أن نجمع شفاهنا».

ـ ما الذي لديك ضد العالم؟ لم تريدين أن تدمريه؟

ـ أشك في أن تكون قد سبق لك أن جعت. أبداً. ليس أنت. أنت لم يسبق لك أن

Twitter: @ketab_n

نمت تحت جسر. ولم تُقتل أمك في مذبحة منظمة. باختصار؛ ليس لك الحق في أن تسأل. هذا العالم ـ عالمك ـ ظالم وفاسد. لكن قلوبنا ليست كذلك. أريد أن أساعد رفاقي على تدميره وبناء عالم جديد، عالم لا يجعل قلوبنا تحس بالخجل.

تمشينا تحت الأشجار العارية. كانت بعض الأوراق لا تزال عالقة في الأعالي. لكن هبة قارسة جاءت لتهزها فارتمت على رأسينا وأكتافنا. كانت اليهودية ترتعش. وكان قفازاها مليئين بالثقوب. وكانت بلوزتها قطنية وحذاؤها بالي الكعبين. كان ممزقاً رثاً. نظرت نظرة جانبية إلى عينيها للحظة ورأيت مذعوراً أنهما مثبتتان علي وتشعان بكراهية تملأهما.

ما الذي مرت به هذه الفتاة لكي تتحدث بهذه الكراهية! قلت لنفسي ربما لأنها كانت تخشى أن تقع في حب رجل من المعسكر المعادي.

كانت شفتاها قد ازرقتا من البرد. وكانت أسنانها تصطك. خجلت. فخلعت معطفي الفرو وألقيته بسرعة على كتفيها قبل أن تجد الوقت للهرب. هزت نفسها غاضبة محاولة أن تلقيه عنها. لكنني أمسكت به عليها بثبات ورجوتها أن تبقيه.

توقفت وكأنها صارت عاجزة عن التقاط أنفاسها. لقد توقفت عن المقاومة. وشعرت بحرارة جسدي تخرج من معطفي وتتغلغل ببطء وعمق داخل جسدها. عادت شفتاها إلى احمرارهما من جديد. وشيئاً فشيئاً بدأ وجهها يستعيد جماله. واتكأت بذراعها علي. لابد أن ركبتيها قد تراختا.

تمتمت: جميل أن تدفأ. تبدو الحياة وكأنها تتغير.

اغرورقت عيناي بالدموع وأنا أفكر بأن قليلاً من الدفء وقليلاً من الخبز وسقفاً فوق رأسك وكلمة لطيفة وعندها تمحي الكراهية.

وصلنا إلى بيتها.

سألتها: متى سأراك مرة أخرى؟

قالت: خذ معطفك. لقد فهمت الآن لماذا يتحدث كل من لديه معطف من الفرو بالطريقة التي تتحدث بها. خذه لأن قلبي على وشك أن يضعف.

ـ ليس قلبك يا ساريتا بل كراهيتك.

ـ إنها الشيء ذاته. بارك الله بالبرد والجوع. لولاهما لانغمرت بالراحة. بمعنى آخر لكنت ميتة وجثة. وداعاً!

لم تمد يدها: فتحت حقيبتها وأخرجت مفتاحها لتفتح الباب. وكررت سؤالي: متى سأراك مرة أخرى؟

لكن وجهها كان قد عاد وأصبح قناعاً أصغر من الكراهية. ودون أن تجيب فتحت الباب وغابت في العتمة.

Twitter: @ketab_n

ولم أرها بعد ذلك أبداً.

اعتزلت في غرفتي. لقد تحول قلبي إلى كيس مليء باليرقات. بغتة كان العالم قد اكتسى باللحم والعظم من جديد. وبدا أنه موجود فعلاً. وانفتحت التعطشات الخمسة في جسدي. وبدأت أنادي بوذا ليأتي ويطرد المغوي. ذات مرة كان هناك قديس عظيم عجز، بعد أربعين سنة من التمسك بالزهد، عن أن يصل إلى الله. كان هناك شيء يقف في طريقه ويصده. وفي نهاية السنوات الأربعين فهم. كان الشيء جرة صغيرة كان يحبها كثيراً لأنها تبرد ماء الشرب الذي يحفظه فيها. حطم الجرة فاتحد بالله فوراً[1].

عرفت. عرفت أن الجرة في حالتي هي جسد الفتاة الصغيرة الذي لا يقاوم. فإن كنت بدوري راغباً في التوحد بالله. فإن علي أن أمحو هذا الجسد الذي يقف في طريقي. حين يتسلل دبور وحشي إلى خلية نحل ليسرق العسل. تندفع العاملات إليه وتقمّط جسده كله بشبكه من الشمع الأرج فتخنقه. كانت شبكتي الشمعية مؤلفة من الكلمات والأشعار والأوزان. بهذه الحبال المتلوية المقدسة سألف ساريتا وأمنعها من سرقة عسلي.

بدأ الدم يندفع إلى صدغي. جمعت أفكاري المبعثرة التائهة. وجاهدت لكي أركز قوتي على جسد واحد وصوت واحد وعينين سوداوين قلقتين. كنت أريد طرد هذه الأشياء لأنها كانت تفصلني عن بوذا.

حشدت الكلمات ووقفت في مقدمتها ثم انطلقت إلى الحب. بدأت أكتب. ولكن كلما أكثرت من الكتابة ابتعد هدفي عني وازداد توقي. راحت ساريتا تبتعد أكثر فأكثر. وازدادت صغراً إلى أن تلاشت. ولمع أمامي مرتقى، مرتقى صخري عليه أثر أحمر ورجل يتسلق. حرف هيروغليفي بسيط مرسوم بأقل قدر من الضربات. وعرفت فيه حياتي. حللت لغزه. فرأيت بكم من السذاجة وبكم من الآمال كنت قد انطلقت. ورأيت أين كانت محطات الطريق المختلفة التي توقفت فيها مؤقتاً لالتقاط أنفاسي ولاستجماع زخم جديد ـ النفس، العرق، الجنس البشري، الله ـ وكيف بغتة توضحت القمة السامية من فوقي ـ الصمت، بوذا ـ وأخيراً رأيت التوق الذي بدأ يتأجج في أعماقي، التوق لتحرير نفسي إلى الأبد من الخدع كلها، الأرضية والسماوية، وللنجاح في الوصول إلى القمة المنعزلة المهجورة. حين جمعت الصفحات التي كتبتها وقرأتها ـ كانت مبعثرة على الأرض ـ تملكني الرعب. كنت أريد أن أكتب تعويذة للتخلص من ساريتا لكنني بدلاً من ذلك كتبت تعويذة للخلاص من الكون كله. كان بوذا يجلس ساكناً وواثقاً من نفسه على القمة يراقب كفاحي في سفح المرتقى وهو يبتسم بمودة ولطف.

بعد أن نظمت الأسئلة القديمة، وبعد أن وجدت الكلمات وشكلت الجواب شعرت

---

(1) هذه القصة رويت عن المتصوف الإسلامي السري السقطي.

Twitter: @ketab_n

بالراحة. نهضت لأخرج وأحرك تنمل جسدي الذي كان معتزلاً منذ عدة أيام. كان الليل قد حل، لا بد أن الناس قد أنهوا عشاءهم. ولأنها لم تكن تمطر ولم يكن الثلج يهطل فقد تدفقوا إلى الشوارع. رأيت أضواء ملونة على مدخل كبير، وإعلانات ملونة تقول: «رقصات من جاوة». ومن الداخل سمعت موسيقى رزينة مليئة بالعاطفة، كان الرجال والنساء يدخلون فدخلت أيضاً.

بين المشاهد التي كانت روحي تستمتع بها يقف في ذروتها دائماً الرقص والسماء المليئة بالنجوم. لم تستطع الخمرة أو النساء ولا حتى الأفكار أن تضعني في حالة هياج تام ـ جسداً وعقلاً وروحاً ـ كما يفعل هذان الشيئان. ولهذا فقد كنت مسروراً لأنني في هذه الليلة، وبعد هذه الأيام العديدة من الصيام الزاهد، لن أكتفي بأن أجعل لحمي ينفض عنه حذره وأن أمتع نفسي، بل سيستمتع معي عقلي وروحي ـ هؤلاء الرحالة الثلاثة المترافقون.

حين دخلت الصالة كان الرقص قائماً والأضواء مطفأة باستثناء البقعة الخضراء المزرقة الغامضة التي كانت تضيء المسرح وتجعله يبدو مثل قاع بحر شرق أقصوي. كان هناك يافع دقيق الأطراف داكن البشرة يرتدي حلى غريبة ساحرة وبذلة خضراء ذهبية ـ مثل حشرة ذكر في حالته النزوية الصيفية ـ يرقص ويرقص مستعرضاً رشاقته أمام الأنثى. وكم كان لديه من القوة ومن اللدانة، وكم كان يستحق ـ هو ولا أحد غيره ـ أن يُنتقى للتزاوج معها وإنجاب ابن بحيث تنتقل هذه المزايا من الرشاقة والقوة واللدانة إلى هذا الابن ولا تفنى. كانت الأنثى تقف بلا حراك وهي تتطلع إليه وتزنه بنظرها محاولة أن تتخذ قرارها. وبغتة قررت. وألقت بنفسها إلى الرقص. ولخوفه انتحى الرجل جانباً. لقد جاء دوره الآن لكي يقف مستغرقاً بلا حراك وهو يتطلع إلى المرأة. راحت ترقص وترقص أمام الرجل المذعور. فتحت ذراعيها ونحّت عنها أستارها حتى التمع جسدها أخضر مزرقاً لوهلة ثم انطفأ. في اللحظة التالية اقتربت منه متظاهرة بأنها ستلقي بنفسها في حضنه. أطلق صرخة انتصار وفتح ذراعيه. لكن المرأة كانت تفر منه في كل مرة مع هسهسة، وترقص بعيداً عن متناول يده.

سواء كانت حيوانات أم طيوراً أم بشراً، فإن الأقنعة في كل دورة رقص كانت تلقى، ووراءها كلها يظهر الوجه ذاته، الوجه الخالد للحب. وفيما كنت أرقب الثنائي الجاوي سألت نفسي عما إذا كانت رقصة أخرى أبعد من ذلك، ولنقل إنها رقصة الله، ستستطيع في دورانها أن تخلع قناع الحب هذا أيضاً. وخطر لي أن أتساءل: أي وجه مرعب سيظهر عندها؟ كنت أجاهد أن أستحوذ على الوجه النهائي خلف كل قناع. لكنني لم أستطع. وتساءلت عما إذا كان سيكون هواء فارغاً ـ وجه بوذا؟ كان الراقصان، الرجل والمرأة، قد اندمجا هذه المرة. كانا يرقصان متشابكي الذراعين في حالة من النشوة وهما يقفزان في الهواء ويسقطان ليدفعا إلى الأعلى من جديد، محاولين وسط لهاث الرغبة أن يتخطيا الحدود الإنسانية.

خرجت وتجولت في الشوارع حتى ما بعد منتصف الليل. بدأت كسفات ثلجية متفرقة

Twitter: @ketab_n

تتساقط. واستقبلتها بشعور من الارتياح لأنها بردت شفتي المحترقتين. كانت أسئلة جديدة تبرز في أعماقي.

لقد فتح رقص هذا المساء الينابيع القديمة في أحشائي، الينابيع التي كنت قد ظننت أنها قد نضبت. وأدركت أن حشايا الكريتي لا تفرغ بسهولة. كان في داخلي أسلاف رهيبون لم يأكلوا من اللحم أو يشربوا من الخمر قدر ما كانوا يحتاجون، ولم يقبّلوا من النساء قدر ما كانوا يشتهون. وها هم الآن ينتفضون بشراسة ليمنعوني ـ ويمنعوا أنفسهم ـ من الموت. وفي الحقيقة ما الذي كان لبوذا في كريت؟ وما الذي يمكن أن يأمل فيه في كريت؟

تطلعت إلى كسفات الثلج الهائمة في ضوء مصابيح الشارع فذكرتني بالرجل والمرأة الجاويين اللذين رأيتهما ذلك المساء، وبعدد لا يحصى من الرجال والنساء الذين يمثلون الرقصة ـ المطاردة والمعركة والرغبة ـ وفي النهاية يشكلان وحدة لكي ينجبا أبناء ويضمنا خلودهما. إن الظمأ للخلود أصعب إرواءً من الظمأ للموت.

استلقيت، منهكاً تماماً، لأنام. وكعادة حظي الحسن، حين يتعذب عقلي المتيقظ بالأسئلة ويعجز عن التخلص منها، يأتي النوم ليبسطها ويحولها إلى حكاية. هكذا هي ذروة المادة الساكنة للحقيقة حين تزهر.

حلمت أنني أتسلق جبلاً. كنت أحمل عصاي على كتفي كعادة الرعاة الكريتيين. وكنت أغني. وأتذكر أنها كانت أغنية شعبية كنت أحبها كثيراً:

بذرت بذرة فلفل على شفتي ماراغارو
فنمت بكثافة وصارت نبتة عملاقة.
الآن يجنيها اليونانيون وينقلها الأتراك
وماراغارو تدرسها بانفراج ساقيها وهي تصعد.

وبغتة اندفع عجوز من كهف. كان قد شمر أكمامه ويداه كانتا مغطاتين بالوحل. وضع إصبعه على شفتيه ليسكتني. ثم أمرني بصوت صارم: توقف عن الغناء. أريد الهواء! ألا ترى أنني أشتغل هنا؟ (وأشار إلى يديه).

سألته: ما الذي تشتغله؟

ـ ألا تستطيع أن ترى بنفسك؟ داخل هذا الكهف أنا أصنع المفتدى.

صرخت وقد بدأت الجراح القديمة تنزّ في أعماقي من جديد: المفتدى؟ من الذي يفتدى؟

أجاب العجوز بسرعة وهو يدخل من جديد إلى كهفه: «ذلك الذي يعي الكلية ويحبها ويعيشها!».

«ذلك الذى يعى الكلية ويحبها ويعيشها!». طوال اليوم الثاني وأنا أردد هذه الكلمات

Twitter: @ketab_n

التي جاءتني من حلمي دون أن أتعب منها. أكان هذا صوت الله، الصوت الذي لا يمكن أن يسمع إلا ليلاً وذلك حين يكون العقل الثرثار قد أغلق فمه؟ هكذا رحت أسأل نفسي. كنت دائماً أؤمن بالنصح الذي تقدمه لنا ساعات الظلمة.

لاشك أن الليل أكثر عمقاً وقداسة من ذلك الساذج، النهار. الليل يشفق على الإنسان.

مرت عدة أيام. كثيراً ما حدث في حياتي أن هذين الشيطانين، شيطان الـ «نعم» وشيطان الـ «لا»، يتصارعان ويتعاركان في داخلي. وفي كل مرة أجد فيها جواباً على الأسئلة التي تعذبني، كنت أقبله دون ارتياح لأنني كنت أعرف أن هذا الجواب سوف يفقس، حتماً، أسئلة جديدة. ولذا فإن المطاردة التي يقوم بها الشيطانان في داخلي هي مطاردة لا نهاية لها. ويبدو أن كل جواب يخفي أسئلة مستقبلية في طيات يقينه المؤقت. ولهذا كنت دائماً لا أنظر إلى مجيئه بارتياح بل بقلق دفين.

كان المسيح يخفي بذرة بوذا في أعماقه الدفينة. وتساءلت: ما الذي كان بوذا يخفيه ملفوفاً في ردائه الأصفر؟

ذات أحد ماطر كنت أتجول على مهلي في متحف أتفرج فيه على أقنعة أفريقية قوية مصنوعة من الخشب وجلود الحيوانات والجماجم البشرية. وفي محاولتي لحل لغز الأقنعة قلت لنفسي إن القناع هو وجهنا الحقيقي، وهذه الغيلان ذات الأفواه الدامية والشفاه المتدلية والعيون المرعبة هي نحن. إن هناك قناعاً كريهاً يعوي وراء الملامح الجميلة للمرأة التي نحب، وهيولى وراء العالم المرئي، وبوذا وراء وجه المسيح اللطيف. وأحياناً في لحظات الحب والكراهية والموت تتلاشى الفتنة والسحر ونرى الملامح المخيفة للحقيقة. وتذكرت وأنا أرتعش الصبية الإيرلندية داخل تلك الكنيسة الصغيرة على قمة الجبل الكريتي. ما أن لمستها شفتاي حتى بدا أن وجهها قد تهرأ وتلاشى كاشفاً عن قردة مخيفة متعذبة منتشية ملأتني بالقرف والخوف. منذ ذلك الحين كنت أضبط نفسي، بصعوبة، عن تعرية الوجوه الحقيقية للبشر. لأن الحب والغزل والتفاهم المتبادل سوف تختفي كلها. عندها يبدو أنني أتظاهر بتصديق الوجوه. وبهذه الطريقة أستطيع أن أعيش مع رفقائي البشر.

كل يوم قبل طلوع النهار كان هؤلاء الأروميون(2) الذين ينحتون الأقنعة يتسابقون إلى أعلى أقرب تل لينادوا الشمس ـ ليتوسلوا إليها ـ علها تظهر وهم يرتعدون خشية أنها بصدفة ما قد لا تأتي ثانية. كان المطر بالنسبة إليهم مليئاً بأرواح الذكور التي تدخل الأرض وتخصبها. وكانت ومضات البرق هي النظرات الغاضبة للرئيس غير المرئي. كانت الأوراق على الأشجار تتكلم، مثل شفاه البشر تماماً وكانت عجائز عديدات يفهمن ما تقوله. وحينما كان هؤلاء الأروميون يعبرون نهراً فإن النهر هو الذي يسحبهم إليه ويغرقهم. إلا أنهم كانوا

---

(2) من الأرومة. والمقصود سكان البلاد الأصليين.

Twitter: @ketab_n

يستجمعون قواهم ويمرون عبر التيار دون سرعة كبيرة. ثم يتلوون ضحكاً حين يصلون إلى الضفة المقابلة لأنهم اجتازوه بأمان. كانت الأشياء كلها تتكلم وتجوع وتسمع. ولها جنسها. وتتزاوج. كان الهواء مليئاً بكثافة بأرواح الموتى. ومن أجل إزاحتها جانباً كان هؤلاء الناس يتفرقون ويحركون أذرعهم حين يسيرون وكأنهم يسبحون. لهذا استطاعوا رؤية الحقيقي بهذا الوضوح خلف الظاهر. وعرّوا القناع الأزلي المتخفي وراء الوجه الزائل.

جاءت فتاة ووقفت إلى جانبي وبدأت تتفرج، مثلي، على الأقنعة. لوهلة كنت على وشك الخروج لأنني أحس دائماً بانزعاج معين حين أكون وحيداً أو أتفرج على شيء يؤثر فيَّ ثم يأتي شخص ما ليتفرج عليه أيضاً. كانت قصيرة وبدينة ولها صدر بارز وذقن قوية وأنف صقري وعينان برموش كبيرة.

التفتت وألقت علي نظرة متأملة طويلة، وكأنني كنت أنا الآخر قناعاً.

سألتني: هل أنت أفريقي؟

فضحكت، وأجبت: لست أفريقيا كاملاً. قلبي فقط.

قالت: ووجهك أيضاً. ويداك. أنا يهودية.

قلت لأثيرها: شعب مرعب. خطر. يتظاهر أنه يريد أن ينقذ العالم. أما زلتم تنتظرون المسيح؟

ـ لا. لقد جاء.

ـ المسيح؟

ـ نعم المسيح.

ضحكت ثانية: متى؟ وأين؟ ما اسمه؟

ـ لينين.

كان صوتها قد أصبح عميقاً وأصبحت عيناها كئيبتين.

لينين! للحظة بدا لي أن الأقنعة كلها أمامي قد تحركت وقضقضت بفكوكها الكبيرة المفتوحة. ودون كلام راحت الفتاة تتطلع عبر النافذة إلى السماء القاتمة.

نعم، قلت لنفسي، كان لينين مخلصاً جديداً آخر، مخلصاً جديدًا آخر خلقه المستعبدون والجائعون والمضطهدون ليمكنهم من تحمل العبودية والجوع والاضطهاد. قناعاً جديداً آخر ليأس البشر وأملهم.

ـ أعرف مسيحاً آخر يخلص الإنسان من الجوع ومن التخمة أيضاً، من الظلم ومن العدل أيضاً، و ـ وهذا هو الأهم ـ من كل المسيحات.

ـ واسمه..

ـ بوذا!

Twitter: @ketab_n

ابتسمت بازدراء ثم قالت بصوت غاضب: سمعت عنه. إنه شبح. أما مسيحي فمصنوع من لحم ودم.

لقد تفجرت. وتصاعدت الرائحة الواخزة لجسدها المتعرق من بلوزتها المفتوحة. وتثاقلت عيناي لوهلة.

قلت وأنا ألمس ذراعها: لا تغضبي. أنت امرأة وأنا رجل. نستطيع أن نصل إلى حيث يفهم كل منا الآخر.

تطلعت إلي بعينيها نصف المغمضتين وحاجباها يرتعشان.

ـ «هذا المكان مقبرة»، قالت ذلك وهي تتطلع الآن إلى الأقنعة والى الآلهة الخشبية والأسلحة الغريبة التي تحيط بنا. «مقبرة. إنني أختنق هنا. المطر يتساقط في الخارج. تعال. دعنا نتبلل».

قضينا ساعات في المطر ونحن نسير تحت أشجار الحديقة الواسعة. كانت عائدة من روسيا منذ عدة أيام ـ من الفردوس ـ وكان كيانها كله يشع حباً وكراهية ضارية. وكان اسمها أيتكا.

استمعت إليها. في البدء كنت أقدم احتجاجات. لكنني سرعان ما أدركت أن الإيمان يسيطر ويتحكم من مكان سام أعلى من رأس الإنسان، وأن العقل عاجز عن لمسه. تركتها لذلك تسترسل في حديثها. وتركتها تهدم العالم وتعيد بناءه.

اقترب المساء. وقل عدد المتسكعين، وأضيئت الأنوار. وبدا أن الناس والبيوت والأشجار قد غرقت في المطر المضيء.

ـ تعبت. قالت الفتاة وهي تميل على ذراعي. «دعنا نذهب إلى غرفتي».

تركنا الحديقة وسرنا في الأزقة الضيقة ووصلنا إلى حي العمال.

ـ ستلتقي بثلاث من صديقاتي. سنتناول الشاي معاً هذا المساء. الأولى رسامة. إنها تتصارع مع الألوان. تصنع شيئاً ثم تمحوه. إنها تبحث لكنها لا تعرف عم تبحث. وهي تقول (عندما أجده سأعرف ما الذي أبحث عنه). اسمها دينا. وهي يهودية.

الأخرى ممثلة، وهي تبحث مثل دينا تماماً. إنها تتقمص كل شخصية تمثلها. ولكن حين تنتهي وتخرج منها فإنها تمزق نفسها إرباً. اسمها ليا. وهي يهودية أيضاً. الثالثة جميلة جداً لكنها مفسدة ومتكلفة. والدها الغني يواصل مدها بالمال. وهي تنتقي فساتين سهرة وتشتري العطور وتختار الرجال الذين تريدهم وتنام معهم. اسمها روزا. وهي ليست يهودية بل من فيينا. إنني أحبها ولا أعرف لماذا.

صمتت للحظة ثم أضافت: ربما لأنني أحب أن أتشبه بها. من يدري؟

Twitter: @ketab_n

تظاهرت أنني لم أسمع. ولكنني في أعماقي سررت سراً لأن أسمع صوت الأنثى الأبدية يعلو على الأفكار والنظريات حول تدمير العالم وإعادة بنائه.

كانت الصديقات قد وصلن. روزا اشترت الحلويات والفاكهة. وقد أعدت المائدة وكن ينتظرن. روزا تضع أحمر الشفاه وقد تمددت على أريكة بينما كانت الاثنتان الأخريان تقرآن بشغف في صحيفة مدتاها أمامهما. كان الناس مهتاجين مرة أخرى. والعالم في نوبة حمى.

فيما كنت أراقب الأرواح الأربعة المتوحشة المحيطة بي رحت أفكر: بورك حظي الذي يلقي بي دائماً بين اليهود. أظن أنهم يلائمونني أكثر من المسيحيين.

أطلقت الفتيات الثلاث صرخة حين دخلنا. لم يكنّ يتوقعن رجلاً.

قالت أيتكا ضاحكة: إنني حتى لا أعرف اسمه. وجدته في المتحف الأثنولوجي[3]. إنه قناع.

عدلت روزا جلستها وامتلأ الجو بالشذا. لقد جعلتني رائحة الأنفاس الدافئة والشباب المتعجل أمرض فوراً. لا أعرف لماذا. ولكن حين وجدت نفسي بين هذا العدد من الصدور الأنثوية، وهذا العدد من العيون القلقة والشفاه المتبرجة، فإنني امتلأت بالخجل والخوف. كنت أفضل أن أنصرف. ولكن الشاي كان قد جُلب. فجلسنا على وسائد على الأرض وركبنا متلاصقة. الآن، وبعد سنوات طويلة، لا أتذكر من هذه الأمسية كلها ـ تلك الأمسية التي أثقلت علي كثيراً ـ إلا أيتكا وهي تتحدث بحماس عن موسكو، عاصمة العالم الحمراء، وروزا تضحك وتعيد صبغ شفتيها بعد أن شربت الشاي، والبنتان الأخريان تحدقان بعيون جاحظة ولا تقولان شيئاً.

حل الليل. ونهضت الفتيات الثلاث لينصرفن. نهضت معهن. لكن أيتكا شدت على ذراعي وأشارت لي بالبقاء. بقيت. وفي تلك الليلة بدأ بوذا يشحب في داخلي. أدركت في تلك الليلة أن العالم ليس طيفاً. وأن جسد المرأة حار ومليء بمياه الخلود. وأن الموت غير موجود.

بقيت معها عدة ليال. لم تقل كلمة واحدة عن الحب، ولم يجرؤ القلب على إفساد ألعابنا العارية المقدسة بتنهداته وتعهداته. لاشيء الآن إلا الأجساد، مثل الحيوانات. كنا نتعارك ثم نغرق في نوم عميق منهكين وفرحين. آه! بوذا! بوذا! كنت أفكر وأضحك.

أية راحة تتحقق حينما لا يتورط اللحم في الاهتمامات الروحية بل يبقى على الأرض نقياً ونظيفاً مثل حيوان. لقد مرغت المسيحية اتحاد الرجل بالمرأة حينما وصمته بالخطيئة. وبعد أن كان في الماضي عملاً قدسياً وخضوعاً مفرحاً لإرادة الله. حطت المسيحية من قيمته

Twitter: @ketab_n

وجعلته تجاوزاً. قبل المسيح كان الجنس تفاحة حمراء. ثم جاء المسيح. فدخلت دودة إلى تلك التفاحة، وبدأت تأكلها.

كنت أتطلع بإعجاب إلى هذه الفتاة المتأججة. طوال الليل تكون وحشاً نهماً آكلاً للذكر. وكل ذرة في روحها قد تحولت إلى لحم. بينما تظل طوال النهار لهباً من النقاء الخالص. ذكرتني بامرأة استثنائية أخرى، كانت مثلها: إما أن تكون كلها جسدًا، وإما أن تكون كلها روحاً. إنها القديسة تيريسا. ذات يوم رأتها راهبات ديرها وهي تلتهم بنهم حجلاً محمراً. روعت الراهبات الساذجات. لكن القديسة تيريسا ضحكت. وقالت: «عند الصلاة صلاة. وعند الحجل حجل!». كانت تمنح نفسها بكليتها إلى كل من العملين لتغذي جسدها وروحها بالنهم ذاته.

كانت أيتكا تلعب معي طول الليل. ولكن حين يأتي النهار كانت تقطب حاجبيها وتنظر إلي بكراهية. وتسألني دائماً: ألست خجلاً من كونك مرتاحاً وغنياً؟ دون أن تجوع أو ترتجف برداً في الشتاء، ودون أن يكون لديك حذاء مهترئ؟ ألا تخجل من التسكع في الشوارع وأنت تقول لنفسك: العالم جميل وأنا أحبه؟

وأقول لها: أنا لا أقول إن العالم جميل وأنا أحبه. أقول إن العالم سلسلة أطياف. الجوع والبرد والحذاء (المثقوب أو ما هو دون ثقوب) هي أطياف. ستهب عليها نسمة وتبددها كلها. هذا ما أقوله.

هاجمتني بعنف وأغلقت فمي براحتها: اسكت! اسكت! لا أريد أن أسمع أية كلمة أخرى. أيمكن أن يكون صحيحاً إذن أنكم أنتم الأثرياء، كلكم لا قلوب لديكم تحسون فيها بالعطف؟ أليس لدى أي منكم عينان يرى بهما؟ تعال انظر!

أخذتني وقادتني عبر الحي البروليتاري. كان كل شخص يعرفها. دخلت إلى الأكواخ البائسة. وجعلتني أرى الأطفال الجائعين والأمهات الباكيات والرجال العاطلين عن العمل جالسين بصمت وهم يعضون شفاههم. وحين كنت أطرح عليهم أسئلة كانوا يتأملونني من رأسي إلى قدمي ثم يحولون وجوههم عني.

سألت أيتكا: لماذا لا يتكلمون؟ لماذا؟

ـ إنهم يتكلمون فعلاً. إنهم يجأرون ـ ولكن كيف لمثلك أن يسمعهم؟ ولكن لا تخف. ذات يوم ستسمعهم بوضوح تام.

وثبتت عينيها علي آملة أن ترى معاناة البشر وقد تغلغلت فيَّ.

لكنني أحبتها ساخراً: يا للخجل! إنني أيضاً لا أمتص أي نوع من السكاكر أحلي به ريقي، أحد تلك المنتجات اللذيذة للفن الإنساني الحلواني: الله، وأرض الوطن، وصديقك المفضل كارل ماركس. ذات يوم التقيت بأسعد إنسان في العالم. كان يمتص سكرتين في آن

Twitter: @ketab_n

معا: المسيح وماركس. فلكونه مسيحياً متعصباً وشيوعياً متعصباً أيضاً استطاع أن يحل كافة الإشكالات في الحياة، الأرضية والسماوية.

كنت قد بدأت ممازحاً ولكن وأنا أتكلم أحسست بالعطف والمرارة يثقلان روحي. ومن باب الإحساس الكاذب باحترام النفس لم أشأ أن أكشف عنهما. وأصررت على معارضتها والمفاخرة برفض استقاء العزاء من امتصاص السكاكر.

«أنا لا أريد أياً من هذه المريحات. كل إيمان يعد بالجزاء وبالسعادة يبدو لي عزاء جباناً لا يصلح إلا للمخرفين والضعفاء والنباتيين».

ـ أنا لست خرفة ولست كسيحة أو نباتية. ردت رفيقتي غاضبة. «توقف عن تبجحك. بوذا الذي لديك سكّرة أخرى مثل البقية. وأكثر من ذلك أريد أن تعرف أنني لا أريد أن أراك أو أسمعك بعد الآن».

نفضت رأسها بغضب وتركت ذراعي ثم دخلت في أول شارع صادفناه وتركتني.

ولكن عند المساء تبتسم شفتاها اليهوديتان المليئتان: «كل ما قلناه خلال النهار ـ ماء فوق السد». هكذا اعتادت أن تهتف ضاحكة كل مساء. «الآن إنه الليل!».

كنا نفترق كل صباح. هي تذهب إلى العمل حيث تشتغل، وأنا تعودت المشي وحيداً في الأحياء الفقيرة. لم أكن أشأ أن أذهب إلى هناك مرة أخرى في وجود أيتكا لأنني حين أكون معها كانت كبريائي تجعلني أقاوم فأغلق قلبي. ولكن حين أكون وحيداً لا تعود معاناة البشر سلسلة من الأطياف. لم تعد ظلاً بل حقيقة. إنها جسد جائع يتألم وينزف.

يا رب لا تنزل على الإنسان كل ما يستطيع تحمله! لم أكن أعرف أن هذا القدر من الألم ومن الجوع والظلم موجود في العالم. لم يسبق لي حتى الآن أن التقيت بهذا الوجه الرهيب للحاجة بهذا القدر من القرب. إن قائمة أخرى من القوانين هي التي تتحكم هنا، والكراهية في الدرجة الأولى. لابد أن تتغير الوصايا العشر هنا ـ بل لقد تغيرت. لقد صار للحب والكراهية والحرب والأخلاق معانٍ جديدة. ذات يوم رأيت امرأة هزيلة ممددة على الرصيف. وكانت أسمالها قد انحسرت فكشفت عورتها. ولأنني أشفقت عليها توقفت لأقول لها أن تسحب ثوبها. قلت: «أنت غير محتشمة». فهزت كتفيها وارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة: أنا جائعة وأنت تتحدث عن الاحتشام. الحياء للأغنياء.

لم أستطع تحمل هذا القدر من الرعب، خدان غائران من الجوع. أطفال هزيلون ينقبون في أكوام النفايات لكي يعثروا على الفتات الذي لم يؤكل. بطونهم خضراء ومنتفخة. وأرجلهم ليست أكثر من عظام ملفوفة بصباغ أصفر. بعضهم يتكئون على عكازات لأن أرجلهم لم تعد قادرة على حملهم وبعضهم كانت لديه لحى نامية على خدودهم الطرية. ولعجزي عن تحمل الأمر أكثر من ذلك حولت عيني لكي لا أرى؛ فقد أحسست بالخجل.

Twitter: @ketab_n

أذكر ذلك جيداً: قبل العطف على البشر أحسست بذلك الخجل الداخلي. خجلت لرؤيتي العذاب الإنساني في الوقت الذي كنت فيه أجهد لتحويل هذا الرعب كله إلى مشهد زائل وعبثي. كنت أقول لنفسي أن لا شيء من هذا حقيقي. وإنني يجب أن لا أضل بحيث أؤمن، مثلما يفعل أي شخص بسيط وساذج. لا. إن الجوع والتخمة، الفرح والحزن، الحياة والموت، كلها أطياف! كنت أقول هذا وأكرره. ولكنني حين رأيت الأطفال الجائعين الباكين والنساء بخدودهن الغائرة وعيونهن المليئة بالكراهية والألم، بدأ قلبي يذوب تدريجياً. وبانفعال شديد صرت ألاحظ هذا التغير المفاجئ في داخلي. في البدء خفق الخجل في قلبي وبعده العطف.

بدأت أحس بعذابات الآخرين كما أحس بعذاباتي. ثم جاء بعده السخط والنقمة، ثم التوق إلى العدالة، وفوق كل شيء آخر، الإحساس بالمسؤولية. إني المسؤول عن كل ما في العالم من جوع وظلم وقلت لنفسي: هذه مسؤوليتي.

ماذا علي أن أفعل؟ رأيت واجبي يتحول. كان العالم يتوسع: والحاجة أكبر من أن يسيطر عليها، والواجب الذي يُحَس مسجون ومخنوق في جسد صغير واحد، في روح صغيرة واحدة. ما الذي علي أن أقوم به؟ وأية وجهة أسلك؟ في أعماقي كنت قد عرفت ما علي أن أفعله. لكنني لم أجرؤ على الكشف عنه. بدا أن هذا الطريق ضد طبيعتي. ولم أكن واثقاً مما إذا كان الإنسان، بالحب والجهد، قادراً على تجاوز نزعته الطبيعية. لكنني فكرت في الأمر. تساءلت ما إذا كان لديه الكثير من القوة الخلاقة؟ إن كان لديه فإنه إذن لا تبرير مقبول لديه إن لم يسع في اللحظات الحاسمة لتحطيم حدوده.

خلال تلك الأيام الصعبة، حين كنت أجاهد ضد طبيعتي من أجل تجاوز نفسي الكريهة، ومن أجل تحمل الآلام للتخفيف من العذاب الإنساني، ورد إلى ذهني نموذج للتضحية والحب استثنائي في نبله ـ كان يبدو كأنه راغب في أن يدلني على طريقي. وتذكرت ما قاله لي ذات يوم: علينا أن نهتم دائماً بصرخة إنسان يطلب العون.

حين دخلت أول مرة أزقة أسيزي الضيقة خلال جولتي في إيطاليا وسمعت الأجراس تقرع بمرح (كانت صلاة المساء) من برج الأجراس في كنيسة القديس فرانسيس ومن رجل الله المسكين، ومن دير القديسة كلير الصغير أحسست بسعادة لا توصف. وعندما أقمت في قصر الكونتيسة العجوز أيريشيتا، ظللت في تلك المدينة المقدسة أشهراً عديدة غير راغب في مغادرتها. والآن في هذه الأيام الصعبة التي كانت فيها روحي تحاول أن تكافح لكي تسمو أعلى قليلاً انفتح قلبي واندفعت منه أسيزي. برز ابن برناردون الأشعث الحافي إلى الضوء في تلك الأيام العصيبة، وخطا إلى المقدمة ثم أشار إلى طريقي بيده. لم يكن طريقاً بل مرتقى صخرياً شديد الانحدار. لكن الهواء من حوله كان محملاً بأريج القدسية الحلو.

تذكرت اليوم الغائم الذي تسلقت فيه ديلا فيرنا جبل استشهاد فرانسيس ومجده. كانت

Twitter: @ketab_n

ريح جليدية عنيفة تهب. وكانت الصخور شهباء وعارية، خالية من العشب. والأشجار العارية كانت كلها سوداء. المنطقة كلها تئن متعذبة وقاسية. لا شيء إلا الفقر والقفر والعزلة. كانت الظلمة تقترب. والضوء كان خافتاً دون ألق. وكانت القمة لا تزال تلوح من فوقي. حاولت دون جدوى أن أركز رغبتي، وأن أستثير قوتي كلها، وأنا أحس بألم يسيطر على جسدي المتجلد الجائع، الذي كان على وشك أن يداهمه الليل في هذا القفر. وبغتة حدثت المعجزة. بدا أن هذه المنطقة اللاإنسانية اللامزهرة من حولي قد انتقلت من مكانها، صعدت الخطوة السرية التي يتوق الواقع كله سراً لصعودها. وأحسست أن من حولي هنا كان الفقر ـ الفقر الفرانسيسي ـ قاسياً على الجسد، عديم الرحمة بعادات الإنسان المقبولة وبمتعه الكسول المسفة.

لقد كان هذا القديس هو ذاته الذي أمات لحمه، وأنكر متع الحواس الخمس وألقى بالرماد على طعامه، حينما أحس بالشيطان الداخلي الشره يلعق شرائح اللحم أمامه. كان يلقي بنفسه في جداول جليدية في عز الشتاء، ويبقى طوال الليل سهراناً، ويظل جائعاً وبرداناً. عذب جسده الطيني بهذا القدر، وحين أشفق عليه على فراش الموت، التفت وقال: اغفر لي يا أخي الحمار. فلقد عذبتك كثيراً.

لكن هذا الفقر كان فرانسيسياً. أي أنه كان واثقاً من غناه، ومن الربيع السري الذي كان يهيئه ومن الصيف الدافئ المحمل بالثمار الذي يختفي في داخله. وتفتح في ذهني جبل فيرنا المقفر الأجرد في ذلك المساء، وتحول إلى مشهد ساحر من فردوسنا الداخلي. مشهد مخضوضر شذي مغطى في ضواحيه كلها بالنحل والفراش. وبدأت الآن أتسلق الجبل المعاد خلقه من جديد، وأنا أصرخ: بوركت يا أخت لافيرنا، أيتها الأخت الفقر.

جاء الربيع. كيف لي أن أغادر؟ كنت أعيش سعيداً في مواجهة دير القديسة كلير الصغير في قصر الكونتيسة أيريشيتا العجوز التي كانت مشبعة بالمتعة والبهاء الفرنسيين. لم يسبق لي أن تعرفت على هذا التطابق بين القديس فرانسيس وبين الربيع بهذا العمق. ذلك أنه بين المقولات الفرنسيسية العظيمة الثلاث عن الفقر والطهارة والطاعة، لم يكن بينها ما يتلاءم كلياً مع روح فرانسيس النقية المبعوثة أبداً مثل مقولة الربيع العظيمة عن الطهارة. في أية منطقة أخرى كان حرياً بالربيع أن يوقظ روح الإنسان المفتونة التواقة إلى ذكرى الشباب والمرأة التي أحب، وابنته الصغيرة. وأن يبعث على الاستياء. لم تكن الطبيعة متجددة الانبعاث إلى هذا الحد بينما يعجز الناس عن استعادة شبابهم!! إنه لا بد أن يجعل روح الإنسان تحسد الجبال والوديان لأنها «لا تنتظر الموت ولا تعرف الشيخوخة». إلا أن الربيع في أسيزي يأخذ بالضرورة ويفرح هيئة فرانسيس هذه التربة الأمبرية[4]، التربة التي كان لها حسن حظ إنتاج

---

(4) نسبة إلى المقاطعة الإيطالية أمبريا.

Twitter: @ketab_n

فاكهة كهذه، تزداد اتساعاً وغنى. إنها تبشر بربيع مزدوج أو ثلاثي، كل زهرة أسيزية فيه تسمو، دون أن تفقد بأي شكل مصيرها السعيد، لتصبح رمزاً قدسياً لازدهار روح الإنسان.

كان فرنسيس واحداً من الأوائل. كان الزهرة المكتملة الأولى التي تنبعث من شتاء العصور الوسطى المحروث بأشكال عديدة. كان قلبه بسيطاً وسعيداً وطاهراً. وكانت عيناه، مثل عيون الأطفال والشعراء العظام، تريان العالم دائماً للمرة الأولى. لابد أن فرانسيس كان كثيراً ما يحدق إلى حشرة، أو زهرة بسيطة أو ينبوع ماء ثم يجد عينيه مليئتين بالدموع. ولا بد أنه فكر بينه وبين نفسه: أي منظر هذا؟! وأية متعة؟! وأية أسرار قدسية هي الزهور والمياه والحشرات؟! بعد قرون عديدة كان فرانسيس أول من يرى العالم بعينين عذراوين. لقد سقط درع العصور الوسطى السكولاستي[5] الثقيل غير العملي، وظل الجسد والروح عاريين معرضين لرجفات الربيع كلها[6].

زرت أسيزي بعد عدة شهور عاجزاً عن البقاء بعيداً عنها. كان السهل المدني بكرومه العديدة وكروم التين وغابات الزيتون محملاً بالثمار الآن. عبرته وحيداً متنقلاً من قرية إلى أخرى مستمتعاً بالتربة الخصبة الباهرة بهدوء صامت: الأرض المقدسة الولود التي تحملت آلام الحراثة والعزق باستسلام صامت. وها هي ذي الآن تضطجع مسترخية مغتبطة وحضنها يفيض بالثمار. تحس أنها راضية ورخية لأنها أدت واجبها. فبانصياعها للقوانين الأزلية، وبمرورها الواثق الصبور عبر مراحل التأمل والمعاناة كلها، استطاعت أن تنجز هذا الجنى الخريفي الثري الخاص بها.

من دون أي جهد مقصود، وجدت نفسي أتعرف مرة أخرى على المعنى العميق للطاقة، المبدأ الفرانسيسي الأساسي الثالث. إطاعة الإشارة الصارمة ونكران أنفسنا لثقتنا بالقوى السامية التي تحيط بنا والتي فينا. القوى المرئية والخفية. ونحن راسخون في إيماننا بأنها تعرف كل شيء بينما نحن لا نعرف شيئاً. هذا هو الطريق الوحيد إلى النماء. الطرق الأخرى كلها مجدبة وخادعة لأنها لا تؤدي إلى أي مكان. بل تكتفي بأن تعيدنا إلى النفس البائسة اللعينة بعد الخواء والتيه الصلف.

وهكذا حدث أن نهض فرانسيس ثانية من هذه الأرض التي كان مفتوناً بها. لقد رأيته مستلقياً على الأرض تماماً مثلما حدث في ذلك الصباح الباكر الذي وجده فيه الرهبان مفترشاً أرض حديقة القديسة كلير، وهو يغني تمجيداته للشمس والنار والماء. ويموت. لقد كان

---

(5) فلسفة سائدة في العصور الوسطى اتصفت بإخضاع الفلسفة للاهوت. من أبرز ممثليها توما الأكويني.

(6) يتحدث كازانتزاكيس كثيراً عن القديس فرانسيس. وإذا نظرنا إلى هذا الكتاب على أنه مسيرة الكاتب الفكرية، وليس سيرته الذاتية، فهمنا أنه يلخص الأفكار التي يحملها والتجارب التي عاشها، والتي انعكست في رواياته أو في شخصيات تلك الروايات. وله عن القديس فرانسيس رواية جميلة بعنوان «القديس فرانسيس الأسيزي: الفقير لله».

Twitter: @ketab_n

سعيداً. ولقد ألزم نفسه بقوانين أزلية. وملأ يديه بالثمار، ومثل عامل طيب كان عائداً إلى مولاه.

خلال تلك الشهور التي كنت فيها أتجول في أزقة أسيزي وفي الحقول النائية، أو أتأمل لوحات القصر العظيم لـ (الرجل المسكين) أتذكر أنني ظللت أجاهد لكي أتعرف بنفسي على ربيع كهذا أو خريف مثله قدر ما أستطيع. أي سنوات شباب نهمة مستعصية كانت!!

في كل صباح كنت أنطلق، سعيداً ويائساً، مع بزوغ الفجر للطواف في تلك المنطقة المقدسة. وكنت أشعر بما لابد أن يشعر به أي شاب، وبما أحس به ذلك الأسبارطي الشاب الذي رأى الثعلب قريباً من لحمه العاري، فلم يتكلم ولم يصرخ، على الرغم من أن جسده كان ممزقاً ـ لقد كان يتألم فخوراً لمعرفته بأنه قد نجح في السيطرة على ألمه.

ودون أن أكون راغباً في الأمر لابد أن وجهي قد كشف عن كفاحي وألمي. لأنني ذات صباح وأنا أغادر المدينة من بوابة القديسة كلير أوقفني رجل نحيل طويل بدأ شعره الأشقر يشيب. ورغم أنني كثيراً ما كنت أراه يتجول مثلي في تلك المنطقة التي كانت تجتذب الكثير من الحجاج إلا أننا لم يسبق أن تبادلنا أية كلمة. كنا نكتفي بأن يبتسم كل منا للآخر بأدب كلما تقاطعت دروبنا. ثم نتابع سيرنا دون كلام. كنا نمشي بالمزيد من الخفة، كطريقة في الكلام، وكأن كلاً منا كان يرغب في أن لا يفسد على الآخر عزلته وهدوءه.

ولكن في ذلك الصباح توقف هذا الغريب المجهول وتطلع إلي. وبعد لحظة من التردد سألني: هل تحب أن نتمشى قليلاً معاً؟

ـ نعم. أحب.

وبعد أن سرنا عدة خطوات قلت له: أنا من اليونان. لقد جئت إلى أسيزي ووقعت في هوى القديس فرانسيس.

وأجاب الغريب: أنا من الطرف الآخر من أوروبا. من الدانمرك. أنا الآخر وقعت في هوى القديس فرانسيس. لقد عشت هنا في أسيزي سنوات عاجزاً عن الرحيل. اسمي جورجنسن.

أجفلت: أنت الذي كتب الكتاب الرائع عن فرانسيس؟

ابتسم جورجنسن بمرارة وهز رأسه: من ذا الذي يستطيع أن ينصف القديس فرانسيس؟ حتى دانتي لا يستطيع. هل تعرف الفصل الحادي عشر من بارادیزو[7]؟

فرحت. في تلك الأيام ذاتها كنت قد أحببت هذا الفصل حباً جارفاً. وفيما كنت أقوم بمشاويري وحيداً عبر شوارع أسيزي أو في الريف المحيط بها كثيراً ما كنت أتمتم بأبياتِ مطلعها:

---

(7) «الجنة»، فصل من الكوميديا الإنسانية.

Twitter: @ketab_n

يا علاج الفانين الأحمق
ما أكذب الحجج التي
تجعلك تتحدر، وأنت تضرب جناحيك!

وبدأنا، معاً، نستظهر الإيطالي المدهش، وقد توحدنا، بغتة في أخوّة تحت جناح الشعر العظيم. سلكنا الطريق العالي المطل على الوهد بكرومه وغابات زيتونه الوافرة. كانت الشمس قد أشرقت الآن وأضاءت العالم فملأته بظلال مديدة. صمتنا لبعض الوقت. وأخيرًا التفت إلي مرافقي وسألني: لماذا تحب القديس فرانسيس؟

لكنه أسف فوراً لما فعل فقال: اعذرني. لقد كنت مشتتاً.

أجبته: أحبه لسببين: الأول لأنه شاعر. واحد من أعظم شعراء ما قبل النهضة. وبانكبابه على أتفه مخلوقات الله سمع العنصر الخالد الذي تحتويه في أعماقها: الاتساق.

«والثاني؟»، سأل جور جنسن.

ـ ثانياً أحبه لأنه بالحب وبمبدأ الزهد استطاعت روحه أن تقهر الواقع ـ الجوع والبرد والمرض والصلف والظلم والبشاعة (ما يسميه الناس الذين لا أجنحة لهم واقعاً) ـ ونجحت في أن تحول هذا الواقع إلى حلم مفرح محسوس أكثر حقيقة من الحقيقة ذاتها. لقد اكتشف السر الذي كان كيميائيو العصور الوسطى يبحثون عنه بشغف: كيف تحول حتى أحقر المعادن إلى ذهب؟ لماذا؟ لأن

«حجر الفيلسوف»، بالنسبة لفرانسيس، لم تكن شيئاً مستحيلاً أو خارجاً عن الإنسان لا يمكن العثور عليه إلا ببلبلة القوانين الطبيعية. إن الحجر هو قلب الإنسان. وهكذا، ومن خلال هذه المعجزة في الكيمياء السرية، استطاع أن يخضع الواقع وأن يحرر الإنسان من الضرورة، وأن يحول، داخلياً، لحمه كله إلى روح. إن القديس فرانسيس بالنسبة لي هو الجنرال العظيم الذي يقود الرعايا البشرية إلى نصر غير مشروط.

أليس هناك شيء آخر؟

أجبته: أنا أعرف ما الذي تريد أن تسألني عنه. لا. لا شيء آخر. جنرال وشاعر ـ لاشيء غير هذا ـ.

صمتنا من جديد. لكن سرعان ما قال جو رجنسن: «هذا لا يكفي». وعلى الرغم من أنه بدأ يرفع يده وكأنه يرغب في لمس كتفي وفي استرضائي لصالح إعلانه البليد هذا، إلا أنه أبقاها في الجو وكرر بمزيد من الصرامة هذه المرة: لا. هذا لا يكفي.

كنت سأرد. ولكنني ضبطت نفسي، خشية أن أقول شيئاً فظاً.

قال جورجنسن، وكأنه يكمل فكرة صامتة: لهذا يبدو وجهك متعباً جداً. إنك لا تزال

Twitter: @ketab_n

تكافح. لم تحقق خلاصك بعد. وهذا الكفاح ينهكك يوماً بعد الآخر. هذا هو السبب الذي جعلني أوقفك هذا الصباح وأتحدث إليك.

ـ على فرض أنك تستطيع أن تساعدني في كفاحي؟ سألته بصوت جاء، رغماً عني، مليئاً بالغضب والسخرية.

خجلت. إننا نتكلم أحيانا قبل أن تجد أرواحنا الفرصة للسيطرة على الجسد.

قال جورجنسن: اضبط نفسك. أنا لا أستطيع أن أساعدك. على كل إنسان أن يجد طريقه الخاص به وأن ينقذ نفسه. مم؟ من الآنيّ. ينقذ نفسه من الآني ويعثر على الأزلي.

قلت، وأنا لا أزال مغتاظاً: من وجهك الصافي ومن مشيتك الهادئة الواثقة ولهجتك اللطيفة دائماً يبدو أنك قد عثرت على طريقك. ولاشك أنك تنظر إلينا، نحن البقية، بشفقة. بل ربما بتعاطف ـ نحن البقية التي لا تزال تكافح. ربما كنت قد ولدت متميزاً بمواصفات متوازنة ولم تعرف أية مشقة في حياتك.

توقف جورجنسن ونظر إلي لوهلة. مد يده بتصميم هذه المرة، وكأنه يمدها إلى غريق، وأمسكني من ذراعي. قال: لا تزال شاباً. لقد كنتُ ذات مرة شاباً. وأنا أعرف أنك عديم الصبر. لا يزال ينقصك التواضع. ولا تزال ترفض أن تتنازل لطلب المساعدة. اسمح لي أن أقول لك شيئاً. إنني لم أولد متميزًا. لقد عرفت معنى الألم والكفاح والعجرفة جيداً. حين كنت شاباً مثلك كانت لدي مطامح شيطانية عظيمة. كتبت روايات مليئة بالفجور والعواطف والسخرية. ومع الأيام صار الفن يضايقني كثيراً. وحين كرست نفسي للعلم تحولت إلى داعية متعصب للداروينية ولكل فكرة معادية للمسيحية. كنت أريد أن أحطم الكنيسة والدولة والأخلاق ـ الأغلال كلها. تربعتُ على عرشي في قلب الحياة. كتبت الخطابات وألقيتها في كل مكان. ركضت وركضت والراية في يدي. لكنني توقفت وسكت. بدأ ضيق مفاجئ وغير مفهوم يقلق فؤادي. غادرت الدانمرك لكي أهرب من أصدقائي ومن عاداتي القديمة. ورحلت إلى ألمانيا. ثم توجهت إلى إيطاليا وجئت الى أسيزي، (وابتسم)، كان ذلك منذ ثلاثين عاماً. لقد قضيت الأعوام الثلاثين الفائتة هنا في أسيزي تحت ظل فرانسيس. الحمد لله.

قلت وقد تأثرت بعمق: ثم؟ إنني لم أقرأ أياً من كتبك باستثناء القديس فرانسيس؟

ـ هذا أحسن. لقد نشرت كتاب رحلات تحدثت فيه (أو بالأحرى حاولت أن أتحدث) عن الشعور الذي شعرت به عند رؤيتي المدن القديمة بقلاعها وكنائسها ولوحاتها. كنت قد ذهبت من قبل إلى دير بنديكتين لكنه أخافني. فغادرته فوراً صباح اليوم التالي. وعلى الرغم من أن عشاء الرهبان الهادئ المبهج كان يبدو لي جميلاً وجذاباً، ومتناقضاً تماماً مع الحياة التي كنت أعيشها، وعلى الرغم من أنه مكنني للمرة الأولى أن أرى الطريق الذي يؤدي إلى السعادة، إلا أنني ترددت في سلوك هذا الطريق.

Twitter: @ketab_n

والتف جورجنسن وأشار بفرح متوقد إلى أسيزي المقدسة بجدرانها القديمة والأكروبولوس[8] المتهدم ـ روغا غراند ـ وكنيسة القديس فرانسيس الشبيهة بالحصن والمبنية على ثلاثة مستويات. وسألني: هل سنعود لرؤيتها؟

سلكنا الطريق الذي يعود بنا الى أسيزي. كان الفلاحون، النحيلون ذوو العيون المتوقدة، يعبرون بنا. تسبقهم أزواج الثيران، ثيران أومبريا البيضاء الشهيرة، وهي تسير متثاقلة تحت النير، وقرونها المعقوفة مكللة بسنابل القمح الناضجة. حيتنا فلاحة صبية ذات شعر حالك السواد وبصوت جلي pax et bonum رد جورجنسن على قولها: «صباح الخير». وعلى الطريقة الفرانسيسية أشار الى البراسيليفا[9] الكبيرة عند سفح أسيزي. في داخلها توجد كنيسة فرانسيس الصغيرة «بورزيونكولا». قال: هناك في بورزيونكولا ركعت على ركبتي لأول مرة مجبراً. وذلك حين نظرت إلى القديس والجروح الخمسة التي في جسده. لكنني خجلت فنهضت وخرجت. ما الذي جعلني أركع؟ ما الذي حدث لي؟ وتابعت أسأل نفسي غاضباً. ولكن في الوقت ذاته غمر كياني الداخلي العميق إحساس بالراحة لا يوصف. وسألت نفسي من جديد: لماذا؟ لِمَ أحس بهذا الارتياح؟ والحقيقة أن هذه السعادة قد تجاوزت أي شيء تذوقته في حياتي حتى تلك اللحظة. ولكن على الرغم من ذلك كان في داخلي شيء لا يريد أن يؤمن. كان هذا الشيء يحتقر كل ما هو فوق الطبيعة. وكان يضع ثقته وإيمانه في شيء واحد فقط. في العقل البشري وفي كل ما يقوله العقل. وهذا ما وقف على باب قلبي ومنع المعجزة من الدخول.

«طيب، وبعد ذلك؟»، سألت نافذ الصبر، وقد رأيت مرافقي يغرق في الصمت من جديد. «كيف جاءك الخلاص؟».

ـ بهدوء ودون ضجيج. كما يأتي في معظم الأحيان. تماماً كما تنضج الثمرة وتصبح حلوة ريانة. كذلك نضج قلبي وصار حلواً رياناً. بغتة بدا كل شيء بسيطاً ومؤكداً أمامي. وتوقفت الآلام والترددات والمعارك كلها. جلست عند قدمي فرانسيس ودخلت السماء. وفرانسيس، فرانسيس نفسه، هو (الأخ البواب) الذي فتح لي الباب.

اقتربنا أخيراً من أسيزي. كانت الشمس تشع على قلعة المدينة الملوثة بالدم ونصف المنهارة. وكان جرس القديسة كلير المصفر ذو الصوت الفضي قد بدأ يقرع مرحاً مهذاراً، مثل حجل الجبال. قال جورجنسن: يجب أن تعذرني لأنني تحدثت عن نفسي كثيراً. اعتبره اعترافاً. إنني أكبر منك سناً. وأنا أستمتع بالاعتراف لمن هم أصغر مني، لأن هذا هو النوع الوحيد من الاعتراف الذي ربما كانت له أية فائدة.

---

(8) الجزء الأعلى المحصن من المدينة الأغريقية.

(9) كنيسة مبنية على شكل مستطيل، في أحد طرفيه جزء ناتئ نصف دائري.

Twitter: @ketab_n

ولكي أخفي انفعالي قلت ضاحكاً: آه لو أن فرانسيس كان فعلاً بواب السماء ـ أية فرحة! إنه كان سيُدخل إليها القديسين والخاطئين، المؤمنين والكفرة وحتى أصحاب الملايين. نعم وحتى أشنع أنواع الحيوانات، الفئران والديدان والضباع.

قال جورجنسن دون أن يبتسم: ستكون هذه فوضى. ليست فوضى فقط. بل ستكون ظلماً.

مررنا تحت بوابة الحصن. كان دير القديسة كلير على يسارنا، والبيت الذي أقيم فيه على يميننا.

قال مرافقي: سآتي معك للحظة لكي أسلم على الكونتيسة العجوز. أتذكرها في أول مجيئي. إنها أجمل نبيلة في أسيزي. لقد ترملت وهي فتية ولم تتزوج بعدها أبداً. وأذكر أنها اعتادت أن تمتطي جواداً أبيض لتفقّد أملاكها، غابات الزيتون والكروم. لو أنها عاشت في أيام القديس فرانسيس لربما أصبحت قديسته كلير.

ـ أتساءل إن كانت تشاركك اعتقادك الديني.

أجاب جورجنسن: ألا ترى وجهها؟ إنه منور.

صعدنا الدرجات. كان الطقس بارداً في القصر الكبير. وكانت نار تتأجج في غرفة الكونتيسة. كانت خادمتها إيرميلاندا قد بدأت تعد المائدة الصغيرة الواطئة وتجلب القهوة والحليب وخبز الحنطة لسيدتها. وحين رأتنا أضافت قدحين إضافيين. وجلسنا.

نعم. لقد كان الوجه الأرستقراطي المسن منوراً فعلاً. ظلت العينان المخمليتان الواسعتان حالكتي السواد دون أن يمسهما الزمن. فتح الباب الموصل إلى الحديقة وتلألأت شجيرة ورد مزهرة تحت ضوء الشمس.

ـ إلى أين ذهبتما في هذا الصباح الباكر؟ سألت الكونتيسة: أنا واثقة أنكما كنتما تتحدثان عن القديس فرانسيس.

ـ كيف عرفت؟ سأل جورجنسن وهو يتطلع إلي مبتسماً.

ضحكت الكونتيسة: لأنني منذ لحظة، حين خرجت إلى الحديقة، رأيتكما من بعيد تتجهان إلى هنا. وكنتما، الاثنين، ملفعين باللهب!

* * *

بكم من الوضوح تعود إليّ تلك الأيام في أسيزي بكل تفاصيلها! إنني لم أطلب معونة فرانسيس. ولكن ها هو ذا يركض ليريني الطريق. لو أنني أجد القوة فقط. حين رأيته يعانق المجذومين من بعيد هيمن علي القرف والخوف. وحين رأيته يتجول حافياً من أجل أن يعظ، ووجهه مشع بالغبطة فيما الناس يسخرون منه ويضربونه ويلقون عليه الحجارة، صار قلبي عاجزاً عن المقاومة. وعلى الرغم من أنني كنت أعي ضعتي فقد ظللت أقول لنفسي: كل

Twitter: @ketab_n

شيء إلا هذا! الأفضل هو الموت فجأة في استشهاد فوري. إن مواجهة الهزء والسخرية يوماً بيوم مسألة تفوق احتمالي.

كنت دائماً أجد الصلة المباشرة بالبشر مثيرة للضيق. لقد كنت تواقاً لمساعدتهم قدر ما أستطيع. ولكن عن بعد. وكنت أقوم بذلك بمتعة كبيرة. لقد أحببتهم كلهم وتعاطفت معهم كلهم ولكن عن بعد. وكلما اقتربت منهم كنت أجد أنه من المستحيل علي أن أتسامح معهم طويلاً. وكانوا يحسون الإحساس ذاته نحوي فنفترق. لدي حب جارف للعزلة والصمت. إنني أستطيع أن أقضي ساعات وأنا أحدق إلى النار أو البحر دون أن أحس بالحاجة لأية رفقة إضافية. لقد كان هذان دائماً أعز رفاقي وأحبهم، وكلما أحببت امرأة أو فكرة فذلك لأنني كنت أجد فيهما الصفات الرئيسية للنار والبحر.

الأكثر من ذلك (قلت ذلك لنفسي لكي أبرر عجزي عن انتهاج طريق فرانسيس الصاعد) كيف يمكن (لرجل اللّه المسكين) ـ دون كيشوت عُلْوي أخر ببساطة ساذجة مشابهة، ونقاء وحب مشابهين ـ كيف يمكن لإنسان كهذا أن يظهر ثانية على الأرض في هذه الأيام التي نعيش فيها أيام مامون ومولوخ[10]؟

قلت ذلك مراراً وتكراراً، علّي أعزي نفسي. ولم أكن أعرف أن (رجل اللّه المسكين) الجديد قد ظهر الآن على الأرض. وكان المجذومون الذين يحيطون به هم الزنوج. ولو أنني علمت به خلال تلك الأيام التقليدية الحاسمة في برلين التي كانت تدفعني للتخلص من الكسل البوذي وتدفعني إلى الفعل الثوري، لشعرت بالمزيد من الخجل من جبني. ولكنني علمت بعد ذلك بكثير، بكثير جداً، حين لم يعد من الممكن، وربما لم يعد من المستحسن، أن أغير حياتي، حين كنت قد قررت نهائياً سلوك طريق مختلف كليا من أجل أداء واجبي.

لقد سيطر علي الانفعال في ذلك الأصيل من آب، حين سلكت ذلك الطريق الضيق إلى قرية غونسباخ الصغيرة في الغابات الألزاسية. وحين قرعت الباب فتح لي القديس فرانسيس بنفسه، الذي هو ابن عصرنا، ومد لي يده. كان صوته عميقاً ومريحاً. تطلع إلي وهو يبتسم تحت شاربيه الكثيفين الشائبين. لقد سبق أن رأيت محاربين كريتيين عجائز ـ مثله تماما ـ مليئين باللطف وبالإرادة الصلبة.

كانت لحظة قد باركها القدر. انفتح قلب كل منا على الآخر. جلسنا معاً حتى حلول الليل ونحن نتحدث عن المسيح وهوميروس وأفريقيا والجذام وباخ. وقبيل المغرب ذهبنا إلى الكنيسة الصغيرة في القرية.

«فلنبق صامتين»، قال لي في الطريق وقد غمر وجهه القاسي انفعال عميق.

---

(10) مامون: شيطان الجشع وحب المال. ومولوخ: إله سامِ كانت عبادته تتطلب التضحية بالأطفال وذبحهم.

Twitter: @ketab_n

كان ذاهباً من أجل الأرغن ليعزف عليه باخ. جلس. أعتقد أن تلك اللحظة واحدة من أسعد لحظات حياتي.

في طريق عودتنا، حين رأيت زهرة برية على جانب الطريق توقفت لأقطفها.

«لا تفعل»، قال وهو يمسك بيدي «هذه الزهرة حية. يجب أن يكون لديك احترام للحياة».

كانت نملة صغيرة تتمشى على قبة سترته. أمسكها بلطف لا يوصف ووضعها على الأرض، وعلى جانب بعيد من الطريق لكي لا يدوسها أحد. وعلى الرغم من أنه لم يقل شيئاً، إلا أن كلمتي «أختي النملة» كانتا على طرف لسانه، من بين الكلمات اللطيفة الموروثة عن جده الأول في أسيزي.

افترقنا أخيرا حين حل الليل. عدت إلى عزلتي. لكن ذلك اليوم من آب لم يغب أبداً تحت طيّات ذاكرتي. لم أعد وحيداً. بثقة لا تتزعزع كان هذا المكافح يسلك طريقه بخطوات فتية ثابتة إلى جانبي. وعلى الرغم من أن طريقه لم يكن طريقي فقد كان من المريح لي جداً، وكان درساً قاسياً لي، أن أراه يصعد مرتقاه بهذه القناعة وذلك العناد. منذ ذلك اليوم صرت مقتنعاً بأن حياة القديس فرانسيس لم تكن خرافة. أحسست باليقين في ما بعد بأن الإنسان لا يزال قادراً على إنزال المعجزات على الأرض. لقد رأيت المعجزة ولمستها وتحدثت إليها. ولقد ضحكنا معاً وصمتنا معاً.

بعد ذلك اليوم لم يعد قلبي قادراً على التمييز بين هذين الشخصين المُغربين اللذين أزيحا من الزمن الفاني واتحدا اتحادا لا انفصام له في الأبدية، أي في خطى الله. كل منهما يشبه الآخر كأخوين: القديس فرانسيس من أسيزي وألبرت شفيتزر[11].

الحب القوي الرفيق للطبيعة .والترنيمة للأخ الشمس وللأخوات القمر والبحر والنار تتردد أصداؤها كل يوم وكل ليلة في قلبيهما. كل منهما كان يمسك بورقة شجرة برؤوس أصابعه، وعند رفعها إلى الضوء يرى فيها معجزة الكون المخلوق كله.

الإحساس الرقيق المليء بالاحترام وبالرفقة للناس وللأفاعي والنمال. لكل شيء يعيش ويتنفس. كل منهما يرى الحياة مقدسة ويرتعش فرحاً حين ينحني على عيني أي شيء حي ويرى الخالق منعكساً فيهما بكل كماله. بالتحديق إلى النملة والأفعى والإنسان كانا يكتشفان الاكتشاف المفرح بأن الأشياء كلها أخوة.

العطف ذاته واللطف ذاته (المعبر عنه بالفعل) نحو كل شيء يتعذب. اختار كل منهما المجذومين، أعمق هاوية للبؤس والألم وأكثرها رهبة. اختار الأول المجذومين البيض،

(11) طبيب وموسيقي ورجل دين فرنسي. أسس مستشفى في غابون، ونال جائزة نوبل عام 1952. ولد عام 1875 وتوفي عام 1965.

Twitter: @ketab_n

والآخر المجذومين السود في أفريقيا. لقد قلت (العطف واللطف) وكان علي أن أقول (ميتا metta). هذه الكلمة البوذية وحدها تستطيع أن تعبر بأمانة عن الإحساس الذي يولده العذاب الإنساني في هذين الأخوين. في اللطف والعطف هناك اثنان: المعذب ومن يتعاطف معه. أما في (ميتا) فهناك تطابق مطلق. حين أرى مجذوماً أحس أني أنا نفسي المجذوم. لقد عبر عن ذلك بأتم وجه السري السقطي، ذلك الصوفي المسلم في القرن التاسع، بقوله: لا يوجد الحب الكامل بين اثنين إلاّ حين يخاطب كل منهما الآخر بقوله: يا أنا.

الحمق المقدس ذاته: هجر ملذات الحياة، والتضحية بالجواهر الصغيرة من أجل الحصول على (الجوهرة الكبيرة)، والابتعاد عن الطريق المستوي الذي يؤدي إلى السعادة السهلة وسلوك الطريق الجبلي البدائي الذي يصعد بين هاويتين نحو الحمق المقدس. حمق الاختيار الحر للمستحيل.

المرح ذاته الخالي من المكر يُرى في كل منهما: تندفع الضحكة من أعماق القلب الخيّر، والفرح الابنة الغالية لروح تفيض بالنعم، والقدرة على رؤية ملامح الحقيقة اليومية وقبولها بعطف وتفهم. لقد أقام الإسبارطيون المتجهمون مذبحاً لإله الضحك. فلقد كانت الصرامة المطلقة تثير الضحك دائماً. هذا وحده ما يمكّن روحاً عميقة من تحمل الحياة. لقد وهب اللّه هذين الأخوين قلبين مرحين. ولأنه فعل ذلك فإنهما يرحلان مرحين نحو ذروة مسعاهما، نحو الله. الحب الانفعالي ذاته للموسيقى. وما قاله تومامس من سيلانو عن أحدهما ينطبق تماماً على الآخر: «هناك حاجز رقيق جداً يفصل الأخ فرانسيس عن الأبدية، ولهذا كان دائماً يسمع النغم الإلهي ـ عبر هذا الحاجز الدقيق». وبالاستماع إلى هذا النغم كان كل منهما يحس ببهجة قريبة من النشوة: «لو أن الملائكة التي تعزف على الفيول[12] في أحلامي قد جرّت أقواسها على الأوتار مرة أخرى فقط لانتزعت روحي نفسها من جسدي. إلى هذه الدرجة كانت الغبطة لا تحتمل». هكذا قال الأول. ولابد أن الثاني، وأنا واثق من ذلك، يحس بالحد الأقصى ذاته من الغبطة عندما يعزف باخ. كان كل منهما يمسك في قبضته حجر الفيلسوف الذي يحول أحقر المعادن إلى ذهب، والذهب إلى جوهر روحي. كانا يأخذان المرض والجوع والبرد والظلم والبشاعة ـ الحقيقة بأرهب وجوهها ـ ويحولانها إلى حقيقة، ولكن أكثر واقعية حين تهب ريح النفس. لا. ليست ريح النفس. بل ريح الحب. وفي قلبيهما، مثل الشمس فوق الإمبراطوريات الكبيرة، لا يغرب الحب أبداً.

* * *

لكنني تعلمت ذلك كله بعد فوات الأوان، لم أكن أعرفه في تلك الأيام العصيبة في برلين. حين رأيت المعجزة الإنسانية في هذه القرية الإلزاسية الصغيرة كانت أصابعي قد

---

(12) نوع من الكمان.

Twitter: @ketab_n

تلطخت بالحبر. لقد نقلني الحس العميق إلى حيث أحوّل الحياة إلى كلمات وتشابيه وأوزان وانحدرت (لا أزال أجهل كيف) إلى دافع قلم. ما حدث لي هو بالذات ما كنت أحتقره جداً: أن أسد جوعي بالورق مثل معزاة.

كان رجلا الله المسكينان هذان قادرين على مساعدتي في مجال واحد فقط، المجال الذي لا يقدر بثمن والمتمثل في التبيان لي أن الإنسان قادر على الوصول إلى أبعد نقطة في الطريق الذي اختاره، وأن من واجبه أن يحقق ذلك (ومن يدري لعل المجاهدين كلهم على اختلافهم يلتقون في نهاية الطريق). وهكذا صارا نموذجين لي، مثالين محببين عن الإصرار والصبر والأمل. باركهما الله. لأن هذين البطلين للمأثرة قد علماني أنه بالأمل وحده فقط نستطيع تحقيق ما يتجاوز الأمل.

بتشجيع منهما حاولت أن أقهر طبيعتي. فتابعت في الطريق الذي أملاه علي حنو أيتكا ونقمتها وكلماتها اللاذعة. لقد قمت بذلك بعضاً من الوقت. ولست آسفا. وحين عدت إلى طريقي الطبيعي أحسست أن قلبي قد أصبح مترعاً بالعذاب الإنساني، وأن الطريق الوحيد لإنقاذ النفس هو إنقاذ الآخرين. أو الكفاح لإنقاذ الآخرين ـ حتى هذا يكفي. وتعلمت أيضاً أن العالم حقيقي وليس طيفاً. وأن روح الإنسان مكسوة باللحم ـ وليس بالريح كما شرح لي بوذا.

ولكن فيما كنت أجهد لاتخاذ قراري أتذكر أن عقلي قد قاوم مقاومة شديدة. كان لا يزال متلفعاً برداء بوذا الأصفر. كان يظل يقول لقلبي: لا طائل مما تنوي القيام به. العالم كما تطلبه، حيث لا يعاني فيه أحد من الجوع أو البرد أو الظلم، غير موجود ولن يوجد. لكنني كنت أسمع قلبي يجيب من أعماقي: على الرغم من أنه غير موجود فإنه سيوجد. لأنني أريده أن يوجد. لأنني أرغب فيه وأريده بكل خفقة من خفقات قلبي. إنني أؤمن بعالم غير موجود ولكن بإيماني فيه أخلقه. إننا نسمي كل ما لم نرغب فيه بالقوة الكافية «غير موجود».

لقد بلبلني جواب قلبي. إن كان كل ما قاله صحيحاً فإنها مسؤولية مخيفة يحملها الإنسان تجاه ظلم العالم كله وعاره كله!

* * *

تسارع إيقاع الأحداث قبل أن تمر أيام كثيرة. وربما لأن روحي كانت قد استعدت أخيراً. تتالت الأحداث، واحداً بعد الآخر، تدفعني. في أي وقت آخر كان من الممكن أن أعتبرها مجرد مشاهد، أما الآن فقد أصبحت لحماً من لحمي.

ذات صباح، وقبل أن ننهض، سمعنا جلبة غامضة غير محددة، خواراً بعيداً، كأنما كان في البعيد قطيع من المواشي يساق إلى المسلخ. وقد أحست الماشية بالأربطة الحمراء على رقابها فبدأت تخور.

Twitter: @ketab_n

قفزت أيتكا من السرير، ولفت نفسها بمعطفها البالي. ودون أن تلتفت لتتطلع إلي اندفعت تنزل السلالم. كان الخوار يقترب شيئاً فشيئاً. أسرعت إلى النافذة وفتحتها. كانت نتف خفيفة من الثلج تتساقط. لو كانت اليونان لتلامعت الجبال والشواطئ تحت شمس الصباح. أما هنا فقد كان الضوء الذي يزحف فوق الإسفلت المغطى بالثلج مريضاً وموحلاً.

لا شخص ولا كلب. كان الشارع خالياً تماماً. ولكن في البعيد، ومن كل مكان في الجو، كان هذا الخوار العميق الذي يقترب أكثر فأكثر. انتظرت. بالتدريج صار الشارع مضاء أكثر. جاء غرابان وحطا على شجرة مغطاة بالجليد دون أن يصدر عنهما أي صوت. كانا ينتظران أيضاً.

وبغتة رأيت امرأة طويلة نحيلة بجديلة شعر محلولة في الطرف الأقصى من الشارع. لم تكن تمشي بل كانت تقفز، وكأنها في رقصة، وفوق رأسها تخفق راية سوداء. ووراءها مباشرة ظهر جيش من الرجال والنساء والأطفال يخوّض في الثلج بتشكيل منظم، يتقدمه أربعة يشقون الطريق. فاجأهم الضوء الموحل. فلم تعد ترى سوى الوجوه الشاحبة الساخطة التي فيها ثقوب سوداء بدل العيون، وكأن جيشاً لجباً من العميان بجماجم أكلتها الديدان قد نهض من القبور.

صار الضوء أقوى قليلاً الآن. وصرت قادراً على أن أرى بوضوح أكثر. عبر الشارع كان عدد من أصحاب الحوانيت يخرجون مفاتيحهم لفتح حوانيتهم. ولكن ما إن رأوا الجيش المتوحش حتى أعادوا المفاتيح إلى جيوبهم والتصقوا بالجدران. رأتهم المرأة، فعبرت رصيف المشاة واتجهت إليهم. ولوحت بالراية السوداء بقوة فوق رؤوسهم. وشقّ الأجواء صوت أجش: «نحن جائعون».

في تلك اللحظة رفعت نظرها باتجاه نافذتي وفتحت فمها.

ولتكهني بالكلمات التي كانت على وشك التفوه بها ارتعبت، ومن دون أن أعي تماماً ما كنت أقوله بدأت أصرخ: «هدوءاً! هدوءاً!».

صفقت النافذة وألصقت نفسي بجدار الغرفة ـ كنت مثل أصحاب الحوانيت تماماً. وتمتمت وأنا مشتت تماماً: إنهم جائعون. إنهم جائعون! جيش الجوع.

طوال النهار لم أستطع ـ ولم أجرؤ ـ أن أخرج، خوفاً من أن التقي في طريقي بالمرأة التي تحمل راية الجوع السوداء. ففي حالة كهذه ستكون من السرعة بحيث أنها ستلقي إلي بالكلمات الموجعة التي لا تطاق. كنت أعرف ما ستكون عليه هذه الكلمات. ولهذا كنت أحس بالخوف وبالخجل.

عادت أيتكا قبيل الظهر شاحبة ومتقطعة الأنفاس. ألقت بمعطفها البالي على الأرض وبدأت تمشي جيئة وذهاباً في الغرفة الضيقة. كنت قابعاً في الزاوية أنتظر. وكنت قادراً على سماع أنفاسها الثقيلة. التفتت فجأة وأشارت نحوي وزعقت: أنت الملوم! أنت! أنت وكل

Twitter: @ketab_n

من هو مثلك: كل من هو حسن النية وحسن التغذية ولا مبال. إنك تحتاج إلى أن تعرف الجوع والبرد، وأن ترزق بأبناء جائعين وبردانين، وأن تطلب العمل دون أن يُمنح لك! هذا ما أتوقعه منك. وليس هذا التسكع من مدينة إلى مدينة لتقف مشدوهاً أمام المتاحف والكنائس القديمة. ولتبكي حين تتطلع إلى النجوم، لأنها تبدو جميلة ومخيفة جداً. أيها الأحمق المسكين. أخفض نظرك فقط وتطلع إلى الطفل الذي يموت عند قدميك!

صمتت لوهلة ثم أضافت: إنك تكتب قصائد. وتتكلم بدورك. لديك من الوقاحة ما يسمح لك بأن تتكلم عن الفقر والاضطهاد والجريمة. بتحويل آلامنا إلى جمال تخرجه من جسدك. اللعنة على الجمال حين يجعل إنساناً ينسى الألم البشري!

سقطت من عينيها دمعتان. اقتربتُ منها. كنت أريد أن ألمسها وأن أهدئها بوضع يدي على شعرها. لكنها أجفلت. ودفعتني بعيداً عنها ثم صرخت: «أبعد يديك عني!» ولم تكن النظرة التي وجهتها إلي مليئة بالازدراء والاحتقار فقط بل وبالكراهية.

وصعد الدم إلى رأسي فصرخت غاضباً: ماذا تتوقعين مني أن أفعل؟ ماذا أستطيع أن أفعل. دعيني وشأني!

ـ لا. لن أدعك وشأنك! إنك تفضل أن أدعك وشأنك. تود أن تهرب. لكنني لن أفعل. إنك لا تستطيع أن تكره؟ أهذه هي المسألة؟ طيب. أنا سأعلمك. لا تستطيع أن تقاتل؟ أنا سأعلمك.

وطاف بوجهها مشروع ابتسامة. لم تكن ضاحكة بل كانت تشنجات في اللحم غير محتملة. اقتربت مني: هل تعر ف المثل الشرقي الذي يقول: «من يمتطي ظهر النمر لا يستطيع أن يترجل عنه؟» لقد امتطيتَ نمراً ـ أنا ـ ولن أدعك تترجل أبدا!

فتحتْ خزانة صغيرة وأخرجت بعض الخبز وقليلاً من الزبدة وعدداً من التفاحات. أشعلت طباخ الكاز وأعدت الشاي. ودونْ أن ننبس بكلمة جلسنا على كرسيين (كل ما في الغرفة) وقربنا إلينا طاولة صغيرة وبدأنا نأكل. ونظرت إلى حاجبيها المرتعشين. كانت ترفع كأسها لتشرب ثم تنسى نفسها ويظل ذراعها معلقاً في الهواء. كان عقلها في مكان آخر. وكانت فكرة ما تعذبها. رحت أمضغ طعامي ورأسي محني وأنا خجل جداً. وذلك لأنني أحسست بتواضع أن هذه المرأة كانت أقوى مني.

أنهينا وجبتنا. فرفعت رأسها ونظرت إلي. كانت عيناها الآن تلتمعان وقد احمرت شفتاها: اعذرني لتحدثي بهذا الأسلوب القذر. ولكنني قد عدت لتوي من جيش الجوع.

نهضت واتجهت إلى النافذة ثم أغلقت الستائر الممزقة.

انسكب ضوء هادئ حنون في الغرفة. دفعَتْ بالطاولة الصغيرة جانباً لتفسح مجالاً، ثم اتجهت إلى الأريكة وردت الأغطية.

Twitter: @ketab_n

تبعتُها بطرف عيني. وحين كانت تفك أزرار بلوزتها التفتت لتتطلع إلي.

سألتها ضاحكاً: هل أنت نعسانة؟

«لا!»، أجابت. وكان صوتها قد صار غائماً: «تعال!».

في اليوم التالي نهضت قبل الفجر وأعدت بسرعة حقيبتها الصغيرة. جاءت إلى الأريكة وأيقظتني. قالت: أنا ذاهبة.

ارتعشت: ذاهبة؟ إلى أين؟

ـ بعيداً. لا تسأل. وداعاً. إلى اللقاء.

ـ متى؟

هزت كتفيها. وبمنديل ملفوف بشدة على شعرها انحنت ورفعت حقيبتها الصغيرة ثم تطلعت إلي. كانت عيناها الزرقاوان قاسيتين وجافتين وشفتاها المليئتان تبتسمان. قالت: شكراً على الليالي كلها. لقد أدينا واجبنا تجاه اللحم بكمال. لقد تحقق بوذا وانتهى. نحن طردناه. لم تنظر إلي هكذا؟ هل أنت آسف؟

لم أقل شيئاً. لقد استقرت حلاوة مريرة جداً في أحشائي. تلك الليالي والأيام كلها امتزجت في داخلي وملأت أحشائي بالمتعة والألم. وسألتني من جديد: هل أنت آسف؟

كانت قد وصلت إلى الباب ومدت يدها لتفتحه.

أجبت باستفزاز: نعم. أنا أسف. لقد دمرت لي بوذا، إن قلبي خاو.

ضحكت ساخرة: أنت تحتاج إلى سيد. أليس كذلك؟

ـ نعم. أحتاج. أريد سيداً أفضل من الفوضى. بوذا وضع إيقاعاً لحياتي. هدفاً. لقد لجم الشياطين التي في داخلي. أما الآن...

قطبت حاجبيها. لم تعد تضحك. قالت: «يارفيق» ـ كانت تلك المرة الأولى التي تدعوني فيها رفيقاً: «لقد أفرغ قلبك ونظف. إنه الآن جاهز. هذا ما كنت أريده. إنني أؤمن بك، لا تهتم لما أقول حين أكون غاضبة. أنت رجل شريف وإنسان ليس سهلاً. إنني أؤمن بك».

فكرت قليلاً ثم أضافت: لا. ليس بك. بل بشعار عصرنا. إهدأ وستسمعه. وداعاً.

فتحت الباب وسمعت خطواتها المسرعة وهي تنزل السلالم.

* * *

«إهدأ وستسمعه». رافقتني كلمات أيتكا هذه عدة أيام وعدة ليال. هدأت نفسي. ورحت أصغي بانتباه محاولاً أن أسمع. حضرت محاضرات يلقيها أصدقاء لروسيا وقرأت كتبهم ومنشوراتهم. وصرت أتجول آخر الليل في أحياء العمال في برلين. رأيت الفقر

Twitter: @ketab_n

والعري، واستمعت إلى محادثات بذيئة، واستنشقت هواء مشبعاً بالنقمة. سيطر علي الحزن والعطف في البداية ثم استولى علي الغضب وأخيراً اليقين المرير بأنني أنا نفسي المسؤول، وأن اليهودية المضطرمة كانت على حق. الخطأ خطئي. لماذا؟ لأنني لم أنهض لأصرخ، لأنني كنت أرى وأشفق ثم أنسى فوراً. لأنني كنت أستلقي ليلاً وأنام في فراش دافئ دون أن أفكر بأولئك الذين ليس فوق رؤوسهم سقف.

ذات ليلة رأى واحد من تلامذة فرانسيس من أسيزي سيده المرتعش يسير عارياً في عز الشتاء. قال له مستغرباً: «لم تسير عارياً في هذا البرد يا أب فرانسيس؟»، فأجاب: «لأن آلافاً فوق آلاف من الأخوة والأخوات بردانون في هذه اللحظة يا أخي. ليست لدي بطانيات لأعيرهم وأدفئهم ولهذا فأنا أشاركهم بردهم».

تذكرت كلمات (رجل الله المسكين). ولكن الآن فقط أدركت أن مشاركة الآخرين بردهم لا تكفي. على المرء أن يهتف: إلى الأمام جميعاً. كل من هو جائع وكل من هو بردان. هناك كميات لا تحصى من البطانيات. خذوها واستروا عريكم!

شيئاً فشيئاً بدأت أخمن الأهمية الشاملة والإنسانية للتجربة الدموية التي تتم في أرض روسيا الشاسعة وروحها الشاسعة. بدأ عقلي يتسامح ويقبل الشعارات الثورية التي كانت، فيما مضى، تبدو لي غاية في السذاجة والطوباوية. وفيما كنت أتطلع إلى الوجوه الجائعة والخدود الغائرة والقبضات المشدودة بدأت أحدس ميزة الإنسان القدسية: بإيمانه باسطورة ورغبته فيها وتضميخها بالدم والعرق والدموع (الدموع وحدها لا تكفي ولا الدم وحده ولا العرق) يحول الإنسان تلك الأسطورة إلى واقع.

خفت. للمرة الأولى أرى كم هو مبدع تدخل الإنسان وكم هي عظيمة مسؤوليته. نحن الملامون إن لم يأخذ الواقع الشكل الذي نرغب فيه. كل ما لم نرغب فيه بالقوة الكافية هو الذي نسميه غير موجود. إرغب فيه، وضمِّخه بدمك وعرقك ودموعك وسيتجسد. الواقع ليس أكثر من وهم خاضع لرغبتنا ومعاناتنا.

بدأ قلبي يخفق للجائعين والمضطهدين. لقد نفذ صبرهم، بدأوا هجومهم. بدا أن دمي الكريتي كله يستشعر الثورة وبدأ يغلي. من جديد رأيت أمامي الحرية والعبودية ـ الخصمين الأزليين ـ ونهضت في داخلي كريت وأطلقت صرختها.

أيمكن أن تكون تلك هي (الصرخة) التي أنتظر سماعها؟

ربما.

في اللحظات الحاسمة من حياتي لم يحدث أبداً أن كريت لم تنهض في داخلي وتطلق صرختها.

وذات مساء كنت متعباً من مشاهد النهار المرهقة. انكببت على مكتبي وبدأت أقلب كتاباً

Twitter: @ketab_n

عن فن عصر النهضة محاولاً أن أنسى كل ما رأيته وسمعته وعانيته وأنا أتجول منذ الصباح الباكر. أكثر من الخمرة والحب، أكثر خداعاً من الأفكار، هي قدرة الفن على إغراء الإنسان وجعله ينسى. يحل الفن محل الواجب، بكفاحه لتحويل الزائل إلى أزلي ولتحويل معاناة الإنسان إلى جمال. ماذا يهم إذا كانت طروادة قد انتهت إلى رماد، وإذا كان بريام وأبناؤه قد قتلوا؟ بأية طريقة كان العالم سيستفيد، وكم كانت روح الإنسان ستزداد فقراً، لو أن طروادة استمرت في الحياة السعيدة؛ ولو أن هوميروس لم يأت لتحويل المذبحة إلى أبيات خالدة؟ تمثال، بيت شعر، مأساة، لوحة ـ تلك هي النصب التذكارية السامية التي أقامها الإنسان على الأرض.

سامية ولكنها أيضاً الأكثر خطراً على المعاناة الإنسانية اليومية. الفن يجعلنا نحتقر الاهتمام اليومي الصغير بالطعام وحتى بالعدل. إننا ننسى أن هذا هو الجذر الذي غذى الزهرة الخالدة. لقد كان المسيحيون الأوائل على حق في أن يريدوا من فنانيهم أن لا يجعلوا العذراء جميلة في لوحاتهم الدينية. جمالها يغوينا فننسى أنها أم الله.

بغتة سمعت نقرة على الباب. فتحته. برقية من موسكو! قرأتها مرة بعد أخرى وأنا أفرك عيني غير مصدق. قربتها من المصباح وتفحصتها وكأنها تخفي سراً خطيراً، كنت أرغب في استجلائه في الضوء قبل أن أتخذ قراري. هذه الورقة الصغيرة يمكن أن تكون رسالة من القدر جاءت لتغير حياتي. هكذا فكرت.

لمصلحتي؟ أم ضدها؟ من ذا الذي يستطيع أن يثق بالقدر! إنه ليس أعمى لكنه يعمي.

هل أذهب أم لا؟ كانت البرقية تدعوني لزيارة موسكو لأمثل المثقفين اليونانيين في الذكرى العاشرة للثورة العظيمة. سيتدفق الحجاج إلى مكة الحمراء من أنحاء العالم كافة. من ذا الذي جعل هذه الدعوة ممكنة بذكر اسمي؟ لم تم اختياري؟ بعد ثلاثة أيام فهمت. تلقيت رسالة قصيرة من موسكو. كانت دعوة استفزازية من أيتكا: سلاماً أيها البوذي المزيف! يا ذا المعدة الممتلئة! أيها الأرستقراطي! أيها المعذب الهاوي! حتى الآن كنت تبحث عن ملامح اللّه وأنت تتخلى عن إله مزيف لتنتقل إلى إله مزيف آخر. تعال هنا، يا صديقي المسكين، لكي تعثر على ملامح اللّه الحقيقي، ملامح الإنسان. تعال إذا كنت راغباً في الخلاص. لا يزال العالم الذي نبنيه مجرد هيكل. فانحن بدورك وأضف حجراً. ابنِ. إن بوذا جميل، جميل حقاً ـ للّحى البيضاء!

كان الليل قد حل. نهضت وفتحت النافذة. كان كل شيء في الخارج هادئاً. توقف الثلج. ومن جرس برج ما دقت ساعة بحلاوة في الهواء البارد. كانت الأشجار تحتي في الشارع تتلامع وهي مغطاة بالمتدليات الجليدية. وفيما كانت نظرتي تتوه في السديم الليلي تجلت روسيا أمامي شاسعة مكفنة بالبياض وبيوتها الدافئة المضاءة، وزحافاتها الجليدية تنزلق على الثلج.

Twitter: @ketab_n

كان البخار يتصاعد من خياشيم الخيول، حتى أنني سمعت الأجراس الصغيرة المرحة ترن على أعناقها. وبعيداً على طرف الثلج، كانت قباب لامعة تتلألأ. وهي ليست متوجة بصلبان بل بأعلام حمراء كالحريق. تذكرت راهباً أثينياً نصف مجنون اعتاد أن يقول لي: «كل إنسان وكل شيء متوج بعنقود من اللهب. فإذا انطفأ هذا اللهب يفنى الإنسان والشيء». لقد كان محقاً. وفكرت أن روسيا أيضاً متوجة بعنقود من اللهب. فإذا انطفأ هذا اللهب تفنى روسيا.

أغلقت نافذتي بسرعة كبيرة. قررت أن أرحل إلى موسكو.

Twitter: @ketab_n

26

روسيا

تناطح المعجزة الواقع. تفتح فيه ثغرة وتدخل. حين آن الأوان جمع لينين خرقه وأسماله، وجمع مخطوطاته في رزمة كبيرة، وربط كل ممتلكاته الدنيوية في صرة، وودع صاحب منزله، الإسكافي السويسري الذي كان قد أجره غرفة في بيته في سويسرا.

قال المالك وهو يمسك بيد لينين، ويتطلع إليه بإشفاق: «إلى أين تذهب يا فلاديمير إليتش؟ أي جنون يجعلك ترغب في العودة إلى روسيا؟ ما الذي ستفعله هناك؟ هل تعتقد أنك ستجد غرفة في روسيا، أو عملاً؟ خذ بنصيحتي يا فلاديمير إليتش وعش بسلام هنا».

أجاب لينين: يجب أن أذهب. أنا مضطر.

ـ مضطر؟ لماذا؟

ـ مضطر. كرر لينين بهدوء.

ـ لكنك دفعت إيجارك كله والشهر لم ينته بعد. أنت تعرف طبعاً أنني لن أعيد لك الفرق.

أجابه لينين: لا يهم. أبق الفرق لك. أنا مضطر إلى الرحيل.

ورحل. وضع قدمه على الأرض الروسية وهو يرتدي قبعته الصغيرة وقميصه النظيف المهترئ وسترته البالية. جيش مؤلف من شخص قصير شاحب وأعزل. وكان يقف ضد الأرض الروسية الشاسعة والموجيك الأشرار والارستقراطيين المعربدين والكهنوت ذوي القوة الطاغية، والحصون والقصور والسجون والبراكات والقوانين القديمة والأخلاقية القديمة والسوط، الإمبراطورية الرهيبة المدججة بالسلاح. هناك وقف بقبعته الصغيرة، وبعينيه المنغوليتين الدقيقتين اللتين تحدقان بثبات في الجو بينما كان في داخله شيطان يرقص ويصفر وهو يصر بأسنانه ويتكلم: هذا كله لك يا فلاديمير اليتش. إنني أهبك إياه مجاناً. يكفي أن تقول عبارة واحدة. قل العبارة السحرية التي كنت أمليها عليك طوال تلك السنين الطويلة: يا عمال العالم اتحدوا! قلها. وعندها فإن القياصرة والقساوسة ذوي اللحى العنزية والجدائل

Twitter: @ketab_n

الذهبية والكروش المتخمة والأنيقة، سيتساقطون كلهم على أقفيتهم بنفخة واحدة. إمش على جثثهم يا فلاديمير إليتش. إلى الأمام يا فتى. دس على جثثهم واصعد. ركز العلم الأحمر على الكرملين. حطم جماجمهم بالمطرقة. واقطع أعناقهم بالمنجل!

وراح لينين يسأل وهو يصغي إلى شيطانه الداخلي بقبضتين مشدودتين: من أنت؟ قل لي اسمك. أريد أن أعرف من أنت.

«أنا المعجزة». أجاب الشيطان ونطح روسيا بقرنيه.

قلة هم الذين استطاعوا حتى الآن أن ينظروا إلى روسيا بعيون نزيهة صافية وكانوا عاجزين عن رؤية ملامحها المتعددة الوجوه، ذات الظلال والأضواء الوفيرة، كوناً موحداً. إن هناك هوة كبيرة تفصل الروح السلافية عن الروح الغربية. الروسي قادر على التوليف بين المتناقضات الداخلية التي هي بالنسبة للعقلية الأوروبية غير متجانسة. يضع الأوروبي الاستدلال المنطقي فوق كل اعتبار. الاستدلال الواضح والخاضع لمقياس عقلي من القيم. الروسي يضع الروح فوق كل شيء آخر. القوة القاتمة الغنية المتناقضة المعقدة التي تدفع بالإنسان خارج حدود العقل إلى العاطفة العنيفة اللامسؤولة. لم تتجسد فيه بعد القوى العمياء الخلاقة في تسلسل عقلي. لا يزال الروسي ملتصقاً بالأرض بقوة. إنه مليء بالأرض وبالعتمة المولدة للعالم.

تأملت وجه لينين. كان هذا الوجه مليئاً بالضوء واللهب. رأيت أمامي العجينة المعتمة ـ الموجيك ـ التي تعهد هذا العقل العنيد أن يجبلها. كنت تواقاً بعنف متعاظم لأن أرى العدوين والحليفين الأصيلين الحقودين، الروح والمادة، يتصارعان داخل حلبة الكرملين الدموية المغلقة.

كان الثلج يهطل بكثافة. ويغطي السهل المحروث كله. تحت الثلج كان القمح المبذور يتغذى. وكان الفلاحون الروس ـ الموجيك ـ يتحركون بهدوء، دون وجل وكأنهم خالدون. بين حين وآخر كان غراب حالك السواد يرفرف عابراً متجهاً إلى مسكن البشر لكي يأكل.

انتظرت القطار عدة ساعات وأنا محاط بوجوه مغولية في المحطة، وبعيون مائلة ولحى معبأة بقشور بذور البطيخ، وببصارتين تفرشان ورقهما، وموجيك عجوز يصب الشاي في صحن صغير ويشرقه بصوت راعد وباستمتاع حيواني، وأمهات صينيات متلفعات بلحف قذرة، وأبناؤهن مربوطون على ظهورهن أو متدلون عند أعناقهن كالكنغر ـ حشد إنساني دافئ كان يتعرق ويعبق. كان للهواء في كل مكان رائحة اصطبل، ربما مثل اصطبل بيت لحم.

انتصف النهار. وبدأ المساء يهبط، ونحن ننتظر. كانت الوجوه من حولي وقورة ومسالمة. لم يخرج أحد ليرى إن كان القطار قد أتى أم لا. كان كل إنسان ينتظر واثقاً من أن القطار سيظهر دون شك اليوم أو غداً. لم يكونوا يحسبون الساعات بساعات اليد. كانوا يعرفون أن الزمن رجل نبيل، دوق عظيم، وكانوا يخافون من معارضته.

Twitter: @ketab_n

قبيل الفجر سمعنا صفير القطار من بعد. نهض الناس كلهم وجمعوا صررهم. ومرة أخرى دون تعجل. عجوز كان متمددًا إلى جانبي، وهو يشخر طوال الليل، تطلع إلي الآن وغمز بإحساس بالانتصار وكأنه يقول: حسن يا عجوزي الصغير. كم كان سخيفاً منك أن تُستثار لأن القطار لم يأت. وأن تتذمر ولا يغمض لك جفن طوال الليل. انظر. ها هو ذا. لقد جاء.

الثلج من جديد. قرى صغيرة، كنائس صغيرة بقباب خضراء محدبة، ودخان عديم الحركة فوق الأسطحة. المزيد من الغربان، سماء تنخفض، ثلج. تطلعت وتطلعت. عيناي تعودتا على العمق الأزرق البديد مثل عيون كل الذين يعيشون في سهول فسيحة. تطلعت. وبغتة ظهرت قباب لامعة مدورة في الأفق البعيد باهتة أمام السماء الشهباء.

كان الوقت قبيل الظهر. أخيراً نحن نقترب، ونصل إلى القدس الجديدة للإله الجديد، العامل، في قلب روسيا ـ وربما قلب عالم اليوم. موسكو!

كانت أيتكا تنتظرني في المحطة. وحين رأتني ضحكت: لقد وقعت في الفخ. ولكن لا تخف. إنها مصيدة كبيرة، مهما مشيت فيها لن تصل إلى قضبانها. وهذا هو معنى أن تكون حراً. أهلاً!

* * *

كنت أتجول من الفجر إلى المغيب وأنا أحدق بعينين نهمتين إلى هذه الهيولى المتعددة الألوان والمتعددة الأصول، موسكو. كان الشرق كله منسكباً على الثلج. الباعة الأناضوليون يرتدون العمائم الثقيلة. صينيون ببشرات جلدية، أشبه ببشرات القرود، يبيعون أحزمة من جلود الثيران ولعباً صغيرة من الخشب والورق. كل إنش من رصيف المشاة يحتله رجال ونساء يبيعون بصخب شديد فاكهة وسمكاً مدخناً وصدريات أطفال وطيوراً مرسومة وتماثيل للينين.

الصبايا يعلقن صحفاً، والسجائر في أفواههن. العاملات يعبرن وعلى رؤوسهن مناديل حمراء. نساء بدينات خشنات بوجنات وعيون مغولية. أطفال نصف عراة يعتمرون قبعات مقببة من الاستراخان[1]. مشلولون يجرون أنفسهم على الأرصفة بأيد ممدودة وهم يزحفون أمام كل عابر. فلاحون يمرون حاملين جلود بقر برتقالية اللون ولحاهم كثيفة متلبدة كالذرة. والهواء من حولهم عابق كأنما يمر قطيع من البقر.

كنائس بقباب خضراء لامعة. ناطحات سحاب. «يا عمال العالم اتحدوا»، مكتوبة على الشوارع والكنائس والحافلات. وبخط أحمر على جدران كنيسة كبيرة: «الدين أفيون

(1) فرو الحملان الصغيرة.

Twitter: @ketab_n

الشعوب». وقبيل المساء وفوق كل هذه الضجة الفوضوية، تقرع الأجراس الروسية بعذوبة فائقة. أجراس صلاة السماء التي تصر على البقاء حية. فوضى ـ هذا أول انطباع يخرج به المرء عن موسكو.

الانطباع الثاني هو الرهبة. لا تستطيع أن ترى في أية مدينة أخرى من العالم هذه الوجوه القاسية المصممة النكدة، والعيون المتألقة، والشفاه المشدودة والنشاط المتوتر العنيف. تحس وكأنك قد انتقلت إلى مدينة قروسطية[2] كئيبة مليئة بالأبراج والشرفات المفرجة حيث الفرسان يرتدون دروعهم وراء أبواب ممترسة، بينما العدو يقترب. الجو مشحون باستعداد وحشي للحرب. خطر كبير وأمل كبير معلق فوق كل رأس. شيء ما يكمن في الجو هنا ويولد الخوف. ملائكة نارية في كل العيون، وسيف معلق على أبراج الكرملين مثل كمير[3] من العصور الوسطى فوق برج قوطي يراقب بعين يقظة من فوق موسكو بآلاف العيون وآلاف السيوف.

اندفعت ثلة من الجنود الحمر في الشارع قادمة من زاوية منعطف بوجوههم القاسية الجذلة. اهتز الرصيف وتسابق المشاة ليخلوا الطريق. امرأة صغيرة بدينة تحمل سلة من التفاح زعقت من الخوف وتساقطت التفاحات وتدحرجت على الأرض حمراء براقة.

كان الجنود يسيرون بخطى ثقيلة. وكانوا يعتمرون القبعات المنغولية المحدبة. ويلبسون معاطف شهباء تصل إلى أقدامهم. كان الضابط الذي يسير في المقدمة أول من بدأ الغناء. رأيته حين مرّ من أمامي.

كان فمه في تشنج المصروع، وقد انتفخت أوداجه حتى الانفجار. والعرق يتصبب على خديه. ظل يغني وحده بعضاً من الوقت. وكان يبدو وهو يسير كأنه يرقص. إلى هذه الدرجة من النشوة المنفلتة كان إيقاع جسده. كان يغني وحده. وبغتة تلقف الجنود الأغنية. وتفجر الشارع المتجلد في كل مكان باللهب. وترددت الأصداء كأنما في ميدان معركة. ومرت رعشة خفيفة في ظهري. حقيقة المستقبل ـ من يدري؟ اخترقتني مثل ومضة البرق. لقد ظهر الروس في مدينة كبيرة، لندن أو باريس، وبدأوا ينهبونها. أي الوحوش أكثرها تعطشاً للدم وشرهاً للحم؟ الإيمان الجديد؟ الإيمان الذي صار قديماً. لقد دخلنا الآن بين شدقي الإيمان الجديد.

في ذلك المساء التقيت بأكثر شعراء الموجيك غموضاً وشهوانية، نيكولاي كيلويف. لحية شقراء خفيفة، وخط شعر متراجع، لابد أنه في الأربعين. لكنه يبدو في السبعين من عمره. كان صوته هادئا مريحاً.

قال لي بكبرياء خفيفة: «أنا لست واحداً من أولئك الروس الذين يشغلون أنفسهم

---

(2) من القرون الوسطى.

(3) كائن خرافي له رأس أسد وجسم شاة وذنب أفعى.

Twitter: @ketab_n

بالسياسة والمدافع. أنا جزء من العرق الذهبي الذي يصنع الأيقونات والخرافات. إن روسيا الحقيقية تعتمد علينا نحن».

توقف. وبدا عليه أنه أسف لتحدثه بهذه الصراحة. لكن كبرياءه الداخلية كانت قد نقلته بعيداً. ولعجزه عن ضبط نفسه تابع: «إن الثيران والدببة لا تستطيع أن تحطم باب القدر. ولكن قلب حمامة يستطيع ذلك».

ملأ كأسه بالفودكا وبدأ يشرب. رشفه وهو يفرقع لسانه مستطيباً. ومرة أخرى أسف لكلماته. أغمض عينيه نصف إغماضة ونظر إلي ثم قال: لا تستمع لما أقول. أنا لا أعرف عم أتحدث. إنني شاعر.

* * *

مساء اليوم العظيم، كانت الثورة الروسية تحتفل بميلادها المثير. لقد جاء حجاج بيض وسود وصفر من أنحاء العالم كافة. في العصور القديمة كانت شعوب الشرق السمراء تنزل بطريقة مشابهة إلى مكة. وكانت الشعوب الصفراء، تجتمع بطريقة مشابهة في بيناريس في حشود صامتة كالنمال. لقد انتقلت مراكز الأرض. العيون كلها، عيون الأعداء والأصدقاء، راضية أم مكرهة، وبحب أو ببغضاء، مثبتة، اليوم، على موسكو.

في وسط الساحة الحمراء كان (الضريح المقدس) في القدس الجديدة مغطى بالثلج. كان آلاف الحجاج في أرتال رباعية مزدحمة ينتظرون أن يفتح الباب الصغير. رجال ونساء وأطفال، جاؤوا من أطراف الأرض ليروا القيصر الأحمر الذي يستلقي حياً تماماً تحت الأرض وليقدموا له فروض الاحترام. ولقد جئت معهم. لم يكن أحد يتكلم. انتظرنا ساعات في الثلج والبرد، وعيوننا معلقة على (الضريح المقدس). وبغتة تحرك هيكل ضخم لرجل أمام الباب الصغير. لقد فتح الحرس الأحمر باب القبر.

ببطء، ودون كلام، كان الحشد، كل أربعة معاً، يدخل من المدخل الأسود ويغيب. غبت معهم. ورحنا ننزل تدريجياً في الأرض. الجو مثقل بأنفاس الناس وروائحهم. وبغتة تألق الوجهان الأسمران البليدان للفلاحَين اللذين كانا يسبقانني وكأنما فاجأتهما شمس خفية. مددت عنقي. بعيدًا، في الأسفل، صار من الممكن رؤية الزجاج الكبير الذي يغطي الجثة المقدسة. وتحته كان يلتمع رأس لينين الأصلع الشاحب.

كان يتمدد حياً تماماً في سترته العمالية الرمادية، مغطى من خصره وما تحت بعلم أحمر، قبضته اليمنى مطبقة واليسرى مفتوحة فوق صدره. كان وجهه وردياً وباسماً ولحيته القصيرة شقراء متوهجة. وكانت مسحة من الصفاء تملأ القفص الزجاجي المحمي. كانت الجماهير الروسية تحملق منتشية، بالنظرة المتفحصة التي كانوا يتطلعون بها قبل سنوات قليلة إلى الوجه الوردي الأشقر ليسوع على شاشات الصلب المذهبة. لقد كان هذا الرجل أيضاً

Twitter: @ketab_n

مسيحاً، مسيحاً أحمر. الجوهر واحد: جوهر البشر الخالد، المصنوع من الأمل والخوف. لم يتغير إلا الأسماء.

خرجت إلى الساحة المغطاة بالثلج مستغرقاً في التفكير. كنت أفكر وأنا مليء بالإعجاب: كم كافح هذا الرجل!! وكم تحمل في منفاه ـ الفقر والخيانات والافتراء ـ وكم من المرات تخلى عنه أقرب أصدقائه وقد أخافهم إيمانه وعناده. داخل ذلك الرأس الأصلع الذي رأيته، تحت، في القفص الزجاجي، وخلف تينك العينين الصغيرتين، المطفأتين الآن، كانت روسيا، بقراها ومدنها وسهولها الفسيحة التي لا تحد، وبأنهارها العريضة البطيئة وسهوبها القطبية القفراء، تصرخ وتطالب بالحرية.

ولأنه كان روح روسيا الأقوى، وبالتالي، الأكثر مسؤولية فإن لها أن تناديه وتلقي عليه مسؤولية تخليصها. لماذا إذن صنعت هذه الروح القوية من كفاحاتها ودمائها ودموعها، إن لم يكن لكي تلزمها بهذه المهمة المصيرية الرهيبة؟

بينما كنت أتمشى جيئة وذهاباً في الساحة الحمراء، وأنا أفكر، كانت أيتكا، التي عينت دليلاً لي، مستمرة في التحدث إلي وأنا أعجب لشبابها وإيمانها. وفيما كانت تتكلم كان جسدها كله يلتهب تماماً مثل قديسي إل غريكو.

قالت محتجة: «لا تسألني عن لينين. ماذا أستطيع أن أقول؟ ومن أين أبدأ؟ لم يعد رجلاً. إنه شعار. لقد فقد صفاته البشرية وصار أسطورة. الأطفال الذين ولدوا في السنوات الثورية يسمون أبناء لينين. والعجوز الغامض الذي يأتي في عيد رأس السنة محملاً بالهدايا التي يوزعها على الأطفال لم يعد القديس نيكولاس ولا القديس باسيل. إنه لينين. الفلاحون، الموجيك، والنساء العجائز الصغيرات بين الجماهير، كلهم، يحتاجون إلى روح قدس مواسية وحامية، فوق طبيعية. النساء يعلقن هيكل لينين المقدس على الفاصل الأيقوني الجديد ويشعلن له الشموع. وفي القرى، في أقاصي روسيا، في كل مكان من المحيط القطبي إلى المستوطنات المدارية في آسيا الوسطى، يقضي الشعب البسيط ـ الصيادون والفلاحون والرعاة ـ لياليهم ينحتون صورة لينين وهم يتحدثون ويضحكون ويتنهدون. تكسوه النساء بكافة أنواع الحرير بينما ينجره الرجال من الخشب، ويرسم الأطفال صورته على الجدران بقطع من أقلام الفحم. ذات مرة جاءته صورة له من قرية صغيرة في أوكرانيا، موزاييك من حبوب القمح مع شفتين من الفلفل الأحمر. لقد صار لينين شعاراً لنا جميعاً، مثقفين وجهلة. بالنسبة لنا لا يقف الرجل العظيم ليطل من فوق على الجماهير التي ولدته. إنه يخرج من أحشاء الجماهير. مع فارق وحيد هو أن ما تهتف به هذه الجماهير بشكل غير واضح يصوغه هو في رسالة متكاملة. وفي اللحظة التي تصاغ فيها هذه الرسالة لا تعود هناك أية إمكانية لتبديدها وتضييعها. تصبح شعاراً. والشعار يعني العمل.

ـ «وماذا عن ستالين؟»، سألتها وأنا تواق لأن أسمع عن الشخص الوحشي المشروب

Twitter: @ketab_n

ذي الجسد الصلب البليد. والعينين الداهيتين والملامح المدروسة الزريّة. من أي جنس من الغيلان المقدسة كان ستالين؟

ظلت أيتكا صامتة للحظة، وكأنها تحسب كلماتها لئلا تهرب منها كلمة فائضة. تستطيع أن تحس أنها قد دخلت منطقة محرمة. وأخيراً وجدت ما تقوله فتكلمت: لينين هو الضوء. وتروتسكي هو اللهب. لكن ستالين هو التراب، الأرض الروسية الثقيلة. لقد تلقى البذرة، حبة من القمح الآن. ومهما حدث، ومهما كانت كمية المطر أو الثلج، ومهما قل المطر أو الثلج، فانه سوف يظل ممسكاً بالبذرة، لن يتخلى عنها إلى أن يتمكن في النهاية من تحويلها إلى سنبلة من القمح. إنه صبور وعنيد. ولديه قدرة لا تصدق على الاحتمال. سأحكي لك حادثة واحدة جرت أيام شبابه حين كان عاملاً في تيفليس. وستفهم ما أعنيه:

في تلك الأيام ـ إنها تبدو لنا مثل خرافة ـ كان كبار الدوقات[4]، حين يسكرون، يصفون الموجيك في حدائقهم ويستخدمونهم دريئات. لكن العمال كانوا قد بدأوا ينظمون أنفسهم. وكان البوليس القيصري يقوم باعتقال قادة الطبقة العاملة في فترات متقطعة. ويسجنهم أو ينفيهم إلى سيبيريا أو يقتلهم. ذات يوم قام العمال الذين يفرغون الشاحنات بإعلان الإضراب في تيفليس وقالوا: إما أن تحسنوا شروط عيشتنا بحيث نستطيع أن نعيش بشراً، وإما أن نتوقف عن العمل. ونزل إليهم رجال البوليس واعتقل منهم قرابة خمسين شخصاً وصفّوهم في حقل تيفليس. واصطف جنود القيصر، وكل منهم يمسك بسوط مزود بمسامير.

كان العمال، واحداً بعد الآخر، يعرون ظهورهم ويمرون أمام صف الجنود بينما يضرب كل جندي بالسوط بأقصى ما يستطيع من قوة. كان الدم يتفجر. وكان الألم أقسى من أن يحتمل. كثيرون عجزوا عن المرور أمام صف الجنود كله. فتهالكوا. وبعضهم مات.

وجاء دور زعيم العمال. خلع قميصه وعرى ظهره. ولكن قبل أن يبدأ نوبته انحنى إلى الأرض وقطف ورقة من العشب الطري وضعها بين أسنانه. ثم تقدم ليمر أمام صف الجنود بطيئاً ولكن منتصباً. وراحت السياط تنزل عليه بجنون. وتدفق الدم من جروحه. لكنه لم يفتح فمه. ولم يصدر عنه أي صوت. وصمم الجنود الساخطون على القضاء عليه. كان كل منهم يضربه ضربتين أو ثلاث ضربات. ولكن لم يصدر عنه أي صوت. مر أمام الصف كله دون أن ينحني أو يئن. وحين وصل إلى آخر الجنود أخرج ورقة العشب من بين أسنانه وأعطاها للجندي. وقال له: خذ هذه لتتذكرني بها. انظر. إنني حتى لم أعض عليها. اسمي ستالين.

تطلعت أيتكا إلي وابتسمت: إن كل روسي يمسك بورقة العشب الخضراء بين أسنانه منذ سنوات ويجهد أن لا يعضها. هل تفهم الآن؟

---

(4) جمع دوق، وهو النبيل.

Twitter: @ketab_n

ـ «نعم»، أجبتها مرتعشاً: الحياة عنيفة، عنيفة جداً.

وقالت أيتكا: «ولكن الروح الإنسانية أكثر عنفاً». وضغطت على ذراعي، وكأنها تريد أن تشجعني.

رفعت رأسي عالياً وأنا أستمع إلى كلمات أيتكا الحارة. وأحسست كأن الأنفاس البعيدة العنيفة للسهوب تهبّ من فوقي. ريح شرقية مليئة بالدمار والخلق جعلت عقلي في دوامة.

كان ما أثّر فيّ أكثر من غيره وبدرجة متزايدة كل يوم هو: أنني في حياتي كلها لم يسبق لي أن رأيت اللامرئي مرئياً كما هو هنا في روسيا الصاخبة وعلى سهولها المغطاة بالثلوج. وحين أقول (اللامرئي) لا أعني أية نسخة كهنوتية عن الله، أو الوعي الميتافيزيقي، أو الكائن المكتمل تماماً. بل أعني القوة السرية التي تستخدم الناس ـ وقد استخدمت الحيوانات والنباتات والمعادن قبلنا ـ كحاملين لها وبهائم للأعباء، والتي تسرع الخطى وكأن لها هدفاً وكأنها تسلك طريقاً محدداً. تحس هنا بأنك محاط بالقوى العمياء التي تخلق البصر والضوء.

في ما وراء كل عقلنة، وفي ما وراء المشاحنة المتعلمة، والحاجات الاقتصادية والبرامج السياسية، وفوق السوفييتات والمفوضين، إنها روح عصرنا التي تعمل وتوجه هنا، الروح الكئيبة السكرى القاسية لعصرنا. والجميع، من الموجيك البهيمي إلى شخصية لينين القدسية، هم المتعاونون معها بوعي وبلا وعي. هذه الروح أسمى من البرامج وأسمى من القادة وأسمى من روسيا. إنها تهب فوقهم وتخليهم وراءها وتحرك العالم.

حين أتيت إلى هذا المختبر الرهيب، طرحت أسئلة فلسفية على المؤمنين الذين كانوا يبنون روسيا الجديدة. كنت لا أزال محكوماً بالاهتمامات المتكلفة والعبثية لابن المدينة الذي أكل حتى الشبع. ولديه الفراغ للمناقشة واللعب. لم أكن أرى العالم الملموس: كنت أريد رؤية العالم اللامرئي. ومن الواضح أنني كنت قادماً من مروج بوذا المغطاة بالنرجس الأصفر.

يحكى أن العجوز سقراط كان يتمشى ذات صباح في الأغورا[5] منتظراً أول شاب يأتي لكي يوقفه ويشغله في محادثة ويحرك روحه. ولكن في ذلك الصباح رأى، بدلاً من الشاب، حكيماً هندياً عجوزاً يظهر له من الشرق. كان هذا الحكيم قد سار على قدميه منذ سنوات لكي يرى سقراط. وفي اللحظة التي رآه فيها ألقى بنفسه على قدميه وأمسك بركبتيه وقال: «بوذا! أيها الحكيم المرسل من الدنيا، يا قاهر الحياة والمسوخية، المسيطر على الآلهة، أيها الفيل الأبيض الذي يخطو ويمزق الغرور المغوي الصلف إرباً، أيها الجسد خارج حدود العين والأذن، وخارج حدود الشم والتذوق واللمس أملْ طاس الصدقات الذي تمسك به واسفحني مثل قطرة في بحر اللاوجود. مد يدك يا سيدي ودلني على طريق المصيبة الأزلية».

وأخفى سقراط، بأدب، الابتسامة الساخرة التي بعثتها هذه الكلمات الهمجية وأجابه:

---

(5) اسم الساحة العامة في المدن الإغريقية.

Twitter: @ketab_n

«أيها الغريب، إذا كنت قد فهمتك بشكل صحيح فإنك تتحدث عن الآلهة والخلود. سآخذك إلى صديق لي، الهيرفنت[6] اليوزيس. إنه يعرف كيف انوجد العالم ومن أين جئنا وإلى أين نذهب. ويعرف أن النجوم أكبر من بيلوبونيزوس. ويعرف إضافة إلى ذلك أن الله بيضة تلتمع في إيريبوس. وسوف يعلمك تعويذة السرو الأبيض. أما أنا فيؤسفني أنني أشغل نفسي بهذا الألم وبالإنسان فقط».

وخطر لي كم كان ستالين سيضحك لو أنني دخلت إلى الكرملين في اليوم التالي وطرحت عليه أسئلة الهندي العجوز.

* * *

الفجر. أنحني على نافذتي. كواكب غريبة ـ مطارق ومناجل ونجوم حمراء ـ تومض كالفسفور في الفجر المعتم بصيلاتها الضوئية المتعددة الألوان. أجاهد لتمييز حروف الكتابات الحمراء التي تطوق الشوارع. يتزايد الضوء تدريجياً فأتهجى: «عمال. سبع ساعات. لينين. الثورة العالمية». أرتدي ملابسي بسرعة. وألتقي بشعوب الأرض كلها في أروقة الفندق. وأنا أنزل من طابق إلى طابق. حشد من العمال المدعوين، بدويين وفكريين. أنحني كثيراً عند لقائي بالكتاب اليابانيين، والوفود من فارس وأفغانستان، حاجين من الجزيرة العربية، ثلاثة طلاب جامعة هنود وهنديتين فاتنتين بشالين كشميريين برتقاليي اللون.

في الطابق الأول تبادلت التحيات مع مغوليين عملاقين وثلاثة جنرالات صينيين صغار في غاية التهذيب. أحس في كلماتهم وعيونهم هياج آسيا ـ الخطر المضطرم.

نسرع للوصول في الوقت المناسب لبدء الاحتفال. برد شديد وسماء رمادية وبخار يتصاعد من الأفواه والأنوف. كانت الساحة الحمراء قد امتلأت. مسؤولو الحكومة يقفون في صف فوق ضريح لينين المقدس. وبمواجهتهم يجلس المدعوون من كافة أنحاء العالم على مقاعد مرتبة بشكل مدرج في صفوف متصاعدة. الوحدات العسكرية في صفوف منظمة ثابتة، والجماهير وراءها تثير ضجة كثيفة مكتومة مثل هزة بعيدة تحت الأرض. الأرض تهتز تحت أقدامنا. وفي الخلفية كاتدرائية إيفان الرهيب الرائعة بقبابها العديدة وألوانها الكثيرة بارزة مثل شبح في ضباب الصباح.

الجنرالات الصينيون الصغار متراصون حولي، والأوسمة على صدورهم، وكذلك بعض الرجال والنساء الهنود والمثقفون اليابانيون وزنجي ذو حجم جبار وحلقة ذهبية في أذنه. يتطلع كل منا إلى الآخر بلطف، نبتسم ونعبر عن انفعالنا بصمت وسرية. يشد شاعر ياباني على يدي. لا أعرف إلا كلمة يابانية واحدة هي «كوكورو»، وتعني «القلب». ولذا أضع يدي على قلبي وأميل على أذنه وأقول: «كوكورو» يطلق على أثرها صرخة فرح ويرتمي بين ذراعي.

(6) كاهن إغريقي قديم.

Twitter: @ketab_n

بغتة ـ أبواق عسكرية. نقفز على أقدامنا بوجوه مشرقة. وحدات فرسان شركس وقوقاز ومغول وقلموق[7] تمر أمامنا. القائد في المقدمة بسيف مسلول ومشرع، والفرسان يتبعونه بأزيائهم الوطنية وهم يحملون الرماح والرايات. يحيون ضريح لينين ويختفون. وتتالى في موجات متلاحقة وحدات المشاة والمدفعية وبحارة البلطيق والبحر الأسود والقوى الجوية وحرس موسكو والمنظمات الحزبية والعمال بستراتهم الجلدية وبنادقهم القصيرة والعاملات بمناديلهن الحمراء والبنادق على أكتافهن. ثم العرض الشعبي المذهل اللامتناهي. ثلاثة أنهار حمراء بطيئة الحركة تتدفق من الاتجاهات الثلاثة للساحة الجبارة. مر الطلاب ثم الطلائع، فالشبيبة الشيوعية، فالفلاحون، الآسيويون على الجمال، والصينيون على تنين قماشي هائل يفتح شدقيه ويغلقهما. وعلى عربة ذات منصة كرة ضخمة مربوطة بسلاسل وطفل يضرب السلاسل بمطرقة ويحطمها، وبعدها سلسلة من العربات ذات المنصات وعليها محاربون قدماء عجزة يلوحون بعكازاتهم في الهواء ويهتفون. وتمر الأمهات حاملات أطفالهن، وتمر الساعات. وبغتة تخترق الشمس الضباب فتشرق الوجوه الغفيرة وتلتمع العيون وتهتز الساحة كلها بالهتافات وبخطى المشاة الثقيلة. وتنتزع الهنديتان أمامي شاليهما البرتقاليين وتلقيان بهما في الهواء.

أتطلع حولي. كل إنسان يبكي. أتطلع مرة أخرى ولا أرى شيئاً. عيناي غائمتان بالدموع مثل البقية. أسقط على الجنرال الصيني النحيل الذي بجانبي وأشده بأقوى ما أستطيع ونبكي معاً. يندفع الزنجي إلى الأمام ويحتضننا معاً بين ذراعيه. إنه يبكي أيضاً ويضحك. كم من الساعات دامت هذه النشوة الإلهية؟ كم من القرون؟ كان هذا هو ثاني يوم عظيم في حياتي وأعلاها شأناً. الأول هو اليوم الذي وضع فيه الأمير جورج اليوناني قدمه على الأرض الكريتية. وفيما كنت أشد على الجنرال الصيني بين ذراعي، والزنجي يشد علينا معاً، أحسست أن الحدود تتهاوى، وأن الأسماء والبلدان والأعراق تزول. كان الإنسان ببكائه وضحكه وعناقه يتوحد بالإنسان الآخر. لقد نورت عقولهم ومضة برق فرأوا: أن البشر كلهم أخوة!

أنا الآخر أحسست أن قلبي ينادي، مثل أرض روسيا الشاسعة. وأقسمت على أن حياتي ستأخذ أخيراً بوحدة الهدف. وأنني سوف أحرر نفسي من الأشكال العديدة للعبودية، وأن أنتصر على الخوف والكذب. وأساعد الآخرين على أن يحرروا أنفسهم من الخوف والكذب. لقد مارس البشر الظلم بما فيه الكفاية. ولن أتسامح معه بعد الآن. يجب أن نقدم الهواء النظيف والألعاب والتعليم لأطفال الأرض جميعاً، والحرية والحب للنساء، والود واللطف للرجال، وحبة من القمح لهذه الفرس المنهكة التي تهز ذيلها: قلب الإنسان.

(7) قبائل القلموق المغولية القاطنة في المنطقة الممتدة بين غربي الصين ووادي نهر الفولغا الأدنى.

Twitter: @ketab_n

قلت لنفسي إن هذا هو صوت روسيا. وأقسمت على أن أتبعه حتى الموت.

أيها العاشق. لقد كنت أعني ما أقول: كنت مصمماً على التخلي عن حياتي. فهمت لأول مرة أي فرح لابد أن يشعر به أولئك الذين يرجمون أو يحرقون أو يصلبون لأجل فكرة. كانت تلك أول مرة أمارس فيها معنى الأخوة بهذا العمق، ومعنى أن «البشر كلهم واحد». وأدركت أن هناك هبة أسمى من الحياة وقوة تقهر الموت.

* * *

كنت أعرف بمحن حياة بانيت أستراتي البطولية. وكنت قد قرأت قصصه المليئة بالسحر الشرقي. لكنني لم أكن قد رأيته من قبل. ذات يوم تلقيت ورقة مجعدة ملطخة عليها حروف كبيرة مكتوبة بسرعة: «تعال لتراني. كان أبي يونانياً وأمي رومانية. أنا بانيت أستراتي».

دققت باب غرفته في فندق «الانتقال» في موسكو. وكنت مسروراً فعلاً لإمكانية رؤية الرجل الذي كان قد عرف معنى النضال. لقد تغلبت على الشك الذي يعتريني في كل مرة أواجه فيها مسألة التعرف بشخص جديد. وذهبت إلى هذا الرجل، إلى استراتي، مليئاً بالثقة. كان مستلقياً في فراش المرض. وفي اللحظة التي رآني فيها جلس وصاح باليونانية مرحباً: «جميل أن أراك، قسماً بالله جميل أن أراك!».

الصلة الداخلية، الصلة الوثيقة، صلة حارة. تطلع كل منا إلى الآخر، وكأنه يحاول أن يتلهى بشيء ما ـ مثل نملتين تتلامسان بلوامسهما. كان وجه أستراتي المجهد نحيلاً مغضناً وشعره الأشيب اللامع يتدلى مشعثاً على جبينه مثل شعر طفل. وكانت عيناه تلتمعان مليئتين بالخبث والعذوبة، وشفته مدلاة بشهوانية.

قال لي: لقد قرأت الخطاب الذي ألقيته في المؤتمر ذلك اليوم وأحببته. لقد وضعتها عندهم، عند أولئك الغربيين الحمقى. يظنون أنهم سيمنعون الحرب بالقلة من حملة أقلامهم المسالمين! أو إذا ما نشبت الحرب فإنهم يظنون أن العمال سيثورون ويلقون بأسلحتهم. يا للحمق. أنا أعرف العمال معرفة جيدة. سيجرون أنفسهم إلى المجزرة من جديد ويبدأون القتل. نعم. لقد وضعتها عندهم بشكل ممتاز كما أقول لك. إن حرباً عالمية أخرى ستنشب أردنا ذلك أم لم نرد. ولذا فإن علينا أن نستعد!

تطلع إلى عيني مباشرة ومد يده النحيلة وشد على ركبتي. وقال لي ضاحكاً: قالوا لي إنك من المفترض أن تكون متصوفاً. لكنني أستطيع أن أرى أنك تمتلك عيناً ثاقبة مفتوحة. وأن صدرك ليس مليئاً بالهواء النقي وحده. هذا ما يعنيه كون المرء صوفياً أليس كذلك؟ المهم. ماذا أعرف عن الأمر؟ كلمات. كلمات. أعطني يدك.

تماسكنا بالأيدي ونحن نضحك. ونهض من فراشه قافزاً. كان في حركات هذا الرجل المفاجئة الرشيقة شيء من القط البري.

Twitter: @ketab_n

أشعل طباخ الكيروسين ووضع عليه «الركوة»، ثم صاح بلهجة النادل الغنائية: «واحد سكر وسط».

استيقظت فيه ذكريات اليونان وبدأ دمه السيغالوني يغلي.

راح يغني بعض الأغنيات القديمة التي كان قد سمعها في الحي اليوناني في برايلا:

لو أكون فراشة،

وأطير قربك.

كانت اليونان تبرز من بين حناياه. وقد حنَّ الابن الضال الآن للعودة إلى أرض آبائه. وبغتة اتخذ قراره وقد امتلأ بالانفعال: سأعود إلى اليونان.

تعب فسعل وعاد إلى فراشه وراح يرتشف قهوته.

جلس في سريره وهو يشعل لفافة بعد الأخرى. وبدأ يتحدث بتشتت عاطفي عن روسيا، ثم عن كتابه وعن بطله الرئيسي، أدريان زوغرافي، الذي يتألم لأنه يبحث طوال حياته عن صديق ولا يجده. إن رغباته غير ممنهجة. وقلبه متمرد. وعقله عاجز عن تنظيم الفوضى.

تطلعت إلى أستراتي بكثير من الحب والعاطفة. وأحسست أن حياته تواجه تغييراً جذرياً، وأنه لم يقرر لنفسه الطريق الذي سيسلكه. ظل يتطلع إلي بعينيه الصغيرتين اللامعتين وكأنه يطلب مني العون.

قلت له ضاحكاً: إن أدريان، بطل أعمالك، هو أنت. أنتما متشابهان. إنك لست الثور الذي تظن نفسك. أنت الإنسان الثائر. للثوري منهج ونظام وانسجام في نشاطه ولجام على قلبه. أنت متمرد. وتجد صعوبة في البقاء متمسكاً بفكرة واحدة. الآن وقد حللت في روسيا يجب أن تنظم الأمور في داخلك وتصل إلى قرار. إن عليك مسؤولية تحقيق ذلك.

صرخ، وكأنني أمسكت برقبته: «دعني وشأني». ولكنه بعد لحظة سألني بصوت متألم: «هل أنت واثق؟».

«أدريان زوغرافي الروماني مات». هتف وأنا أمسك بذراع استراتي النحيل وكأنني راغب في تعزيته: «عاش أدريان زوغرافي الروسي! لقد مر وقت طويل منذ خرجت من أحياء برايلا الضيقة. قلق العالم وأمله قد توسعا. وأدريان أيضاً قد تضخم. دع الإيقاع الشخصي غير المنظم في حياته يتحد بإيقاع روسيا العالمي لكي يحصل في النهاية على الانسجام والإيمان. لقد آن الأوان لجعل توازن أدريان اللطيف فعالاً. وكذلك توازن بانيت الذي كنت تبحث عنه منذ سنوات عديدة لأن هذا التوازن الآن يستطيع أن يركز نفسه على المصير المتقلب لفرد واحد بل على الجماهير المكافحة في شعب جبار».

Twitter: @ketab_n

ونهاراً بما تقوله وأنا مستلق على سرير. لكن لا تسأل عما إذا كنت أستطيع. إنك تصرخ بي: اقفز! لكنك لا تسأل عما إذا كنت أستطيع».

أجبته: «سنرى يا بانتيتاكي! لا تثر. اقفز وسنرى إلى أي مدى ستصل»!

ـ يا الله. هذه ليست لعبة. كيف تستطيع أن تتحدث هكذا؟ إنها مسألة حياة أو موت.

قلت وأنا أنهض: الحياة لعبة. وكذلك هو الموت، لعبة. وربحنا وخسارتنا يعتمدان على لحظة كهذه تماماً.

ـ لماذا نهضت؟

ـ من الأفضل أن أذهب. أخشى أن أكون قد أتعبتك.

ـ لن تذهب إلى أي مكان. ستبقى. سنأكل. وبعد الظهر نخرج معاً إلى مكان ما.

ـ إلى أين؟

ـ لرؤية غوركي. لقد أرسل لي رسالة وهو ينتظرني. سأرى اليوم هذا الاستراتي الأوروبي الشهير لأول مرة.

وكشف صوته الثائر عن حسد طفولي للنموذج العظيم.

قفز عن سريره وارتدى ملابسه ثم خرجنا وهو يمسك ذراعي بشدة. وراح يقول لي: سنصبح أصدقاء. نعم. سنصبح أصدقاء؛ لأنني الآن بدأت أحس بالحاجة إلى ضربك على أنفك. من الأفضل لك أن تعرف أنني لا أستطيع أن أحس بالصداقة دون لكمات. لابد لنا أن نتشاجر بين حين وآخر، وأن يحطم كل منا جمجمة الآخر. هل تسمع؟ هذا هو معنى الحب.

دخلنا مطعماً وجلسنا. وتناول قارورة صغيرة مليئة بزيت الزيتون، كانت مربوطة إلى رقبته مثل تعويذة، وسكب الزيت على حساء اللحم الكثيف. ثم رش الكثير من الفلفل على الحساء من علبة صغيرة أخرجها من جيب صداره.

«زيت وفلفل»، قال ذلك وهو يلعق شفتيه: «تماماً كما في برايلا».

أكلنا بشهية. وراح أستراتي يتذكر لغته اليونانية شيئاً فشيئاً. وفي كل مرة تبرز في ذاكرته كلمة يصفق مثل طفل. وعند كل كلمة كان يهتف: كيف أنت؟ كيف أنت؟ وكيف حالك اليوم؟

لكنه ظل حاضر الذهن وكل فترة كان ينظر إلى ساعته. وبغتة نهض وقال: آن الأوان. فلنذهب.

نادى النادل واشترى أربع زجاجات من الخمر الأرمني الممتاز وعبأ جيوب سترته برزم صغيرة من المازة، وعبأ علبة سجائره ثم انطلقنا.

كان أستراتي مستثاراً. لقد كان على وشك أن يرى غوركي العظيم للمرة الأولى. لاشك

Twitter: @ketab_n

أنه كان يتوقع عناقاً، ومائدة عامرة بالطعام، ودموعاً وضحكاً وأحاديث تتلو أحاديث، ثم عناقاً، ثم المزيد من العناق إلى ما لا نهاية.

قلت له: أنت متوتر يابانيت.

لم يجب. أسرع الخطى غاضباً.

وصلنا بناء ضخماً وصعدنا الدرج. وظللت أتطلع إلى مرافقي بطرف عيني. كنت أستمتع بمراقبة جسده النحيل الدقيق، ويدي العامل اللتين لديه واللتين عرفتا الكثير من العمل، وعينيه النهمتين.

سألته: هل تستطيع أن تضبط نفسك الآن وقد أوشكت على رؤية غوركي؟ هل تستطيع أن تمنع نفسك عن العناق والصراخ؟

أجابني غاضباً: لا. ماذا تظنني؟ إنكليزي؟ كم مرة علي أن أقول لك إنني يوناني. سيغالوني. أنا أصرخ وأعانق وأعطي نفسي. تستطيع، فضيلتك، أن تمثل دور الإنكليزي إذا شئت.

وأضاف بعد ثانية: وإذا كان لابد أن تعرف فأنا أفضل أن أكون وحدي. إنني أرى وجودك مزعجاً.

ما كادت الكلمات تخرج من فمه جيداً حتى ظهر غوركي على عتبة السلم وعقب لفافة يلمع بين شفتيه. كان ضخماً ذا عظام كبيرة وفكين غائرين وعظام بارزة في الوجنتين وعينين زرقاوين صغيرتين تتطلعان بقلق وحزن وفم مشدود بشكل لا يوصف.

راح أستراتي يقفز الدرج كل ثلاث درجات بقفزة منذ أن رآه حتى أمسك بيده.

«بانيت أستراتي»، صرخ وهو يتهيأ للوقوع على كتفي غوركي العريضتين.

مد غوركي يده بهدوء ودون كلام. و تطلع إلى أستراتي بنظرة لم تفصح عن أية إشارة لفرح أو فضول. بعد لحظة قال: ادخلا. ومشى أمامنا بخطى هادئة. وأستراتي يسير وراءه بعصبية والمازة وزجاجات الخمر الأربع بارزة من جيوب معطفه.

جلسنا في غرفة مكتب صغيرة مليئة بالناس. لم يكن غوركي يتحدث إلا بالروسية. وصار من الصعب بدء الحديث. وراح أستراتي يهذر بإثارة كبيرة. لا أتذكر كل ما قاله. لكنني لن أنسى حرارة حديثه ونبرة صوته وتشبيراته الكبيرة وعينيه المتقدتين.

وكان غوركي يجيب بهدوء وإيجاز وبصوت لطيف عذب، دون أن يتوقف عن إشعال سجائره. وكانت بسمته المريرة تعطي حديثه الهادئ جواً تراجيدياً عميقاً ومركزاً. إنك تحس فيه رجلاً تحمل الكثير، وهو مستمر في تحمل الكثير، رجلاً رأى مشاهد مرعبة إلى درجة أنه ما من شيء، ولا حتى الاحتفالات والهتافات السوفياتية، ولا المجد والتكريم اللذان نالهما،

Twitter: @ketab_n

يمكن أن يؤثّر فيه بعد ذلك. كان هناك حزن هادئ لا يعرف الشفاء يتدفق من وراء عينيه الزرقاوين.

قال: كان بلزاك أعظم أساتذتي. أذكر أنني حين قرأته كنت أرفع الصفحات إلى الضوء وأتطلع إليها ثم أهتف منزعجاً: أين يستطيع المرء أن يجد قوة كهذه؟ أين يستطيع أن يجد السر العظيم؟

سألته: وماذا عن دوستويفسكي وغوغول؟

ـ لا. لا. من الروس هناك واحد فقط. ليسكوف.

وصمت لوهلة. ثم أضاف: ولكن فوق الجميع: الحياة. لقد قاسيت الكثير. وأنا أكن حباً عظيماً لكل من يقاسي ويتألم. لاشيء غير هذا.

وصمت وهو يتابع بعينين نصف مغمضتين دخان لفافته الأزرق.

أخرج بانيت الزجاجات ووضعها على المائدة. ثم أخرج صرر المازة ولفاتها. لكنه لم يجد الشجاعة لفتحها. لقد أدرك أنه ليس الوقت الملائم. لم يتحقق الجو الذي توقعه. كان ينتظر شيئاً مختلفاً تماماً. كان يظن أن بطلي التجربة المعذبين سيشربان ويصرخان ويلقيان خطابات مجيدة ويغنيان ويرقصان إلى أن ترعد الأرض ذاتها. لكن غوركي كان غارقاً في تجربته. وكان لا يزال، تقريباً، بلا أمل. نهض. كان عدد من الشبان الموجودين قد دعوه فانعزل معهم في المكتب المجاور.

«حسن يا بانيت»، سألته حين ذهب: «ما رأيك بالأستاذ؟».

فتح أستراتي زجاجة بحركة متشنجة. وقال: ليس لدينا كؤوس. هل تستطيع أن تشرب من الزجاجة؟

ـ نعم. وأخذت الخمر. وقلت: نخبك. الإنسان حيوان في صحراء يا بانيت. كل إنسان محاط بهاوية. وليست هناك جسور في أي مكان. لا تنزعج يا بانتياكي. ألم تكن تعرف ذلك؟

«أسرع واشرب لكي آخذ دوري». قال ذلك بقرف. «أنا عطشان».

مسح شفتيه: كنت أعرف. لكنني أظل أنسى.

ـ تلك فضيلتك العظيمة يا بانيت. المؤسف هو أن تكون لا تعرف، عندها ستكون معتوهاً. والمؤسف، عند معرفتك، أن لا تظل تنسى، ستكون عندها بارداً عديم الحساسية. بينما أنت الآن إنسان حقيقي، حار مليء بالسخافات، شلة من الآمال والإحباطات، حتى الموت.

ـ حسن. لقد رأينا غوركي الآن. وهذا هو الأمر. أعاد الزجاجات إلى جيوبه وجمع الصرر والرزم. وخرجنا.

Twitter: @ketab_n

في طريق عودتنا قال لي: إنني أرى أن غوركي بارد جداً. وأنت؟

ـ أنا أرى أنه مليء جداً بالمرارة. شخص لا عزاء له.

ودمدم بانيت مغتاظاً: كان عليه أن يصرخ ويسكر ويبكي ليخفف العبء عن نفسه.

ـ ذات مرة حين قُتل أحد أعزاء أمير مسلم في إحدى الحروب وجه الأمير أمراً إلى رجال قبيلته يقول: «لا تبكوا ولا تصرخوا. لئلا تخف أحزانكم». هذا يا بانيت أكثر المبادئ التي يفرضها المرء على نفسه إثارة للاعتزاز. وهذا ما يجعلني أحب غوركي كثيراً.

* * *

في اليوم التالي مررت بكاتدرائية موسكو الكبيرة ودخلتها. كان هذا المعبد اللامحدود في اتساعه والذي كان مثار افتخار روسيا القيصرية خاوياً ومعتماً وغير مدفأ. وكانت الأشياء الوفيرة المرافقة للقديسين المحاطين بالهالات تتجمد في عتمة الشتاء المهجورة. وكانت السيدة العجوز الصغيرة، التي تناوب على مائدة جمع الصدقات، والمنكبة على صحن فارغ لا يحتوي على كوبيك واحد، غير قادرة على تدفئة هذه الرعية المقدسة المرتعشة برداً بأنفاسها التي كانت تخرج كالدخان من فمها وأنفها.

وبغتة سمعت أصواتاً ملائكية لرجال ونساء ينشدون الترانيم في جناح النساء في الطابق العلوي. بحثت فوجدت الدرج الرخامي الحلزوني وبدأت أصعد. واستطعت أن أميز فوقي ـ اثنين أو ثلاثة من الرجال والنساء العجائز الصغار في العتمة. كانوا يصعدون بدورهم وقد لفوا شالاتهم عليهم وراحوا يلهثون.

حين وصلت أعلى الدرج وجدت نفسي في مختلى دافئ، معبد كله من الذهب. فيه شموع مضاءة وأناس راكعون. والحرم مليء بالشماسين والقساوسة والمطارنة اللابسين الذهب والحرير.

لن أنسى دفء هذا المختلى وحلاوته. كان الرجال في معظمهم عجائز بسبلات[8] جانبية. كان يبدو عليهم أنهم نبلاء سابقون أو بوابون في بيوت نبلاء. وكانت شعورهم مقلنسة بخمارات ناصعة البياض. وكان المسيح يلتمع على حاملة الأيقونات حسن التغذية متورد الوجه وصداره مغطى بالأوسمة ـ يدان بشريتان، وعينان وقلب من الفضة والذهب.

ظللت واقفاً وسط الجمع الراكع. وجدت من المستحيل علي أن أضبط مشاعري. بدا لي هذا الحشد وداعاً يقطع نياط القلب. كأنما كان هناك شخص عزيز جداً يرحل إلى مكان بعيد، في رحلة خطرة، وأصدقاؤه هنا يودعونه. كان آخرُ المؤمنين يودعون بمرارة صورةَ إلههم الحبيبة. بينما كان المؤمنون الأوائل في الصورة الجديدة لـ «السر» الجديد يندفعون دون

---

(8) السبلة: ذلك الجزء من اللحية الذي ينمو على جانبي الوجه.

Twitter: @ketab_n

رحمة ويحطمون الأصنام القديمة الهشة. إننا نعيش لحظة حاسمة قاسية يموت فيها دين قديم ويولد فيها دين جديد مضرج بالدم.

إن الأزمنة التي نمر بها، والأزمنة التي هي أكثر رهبة والتي سيمر بها أبناؤنا وأحفادنا، هي أزمنة صعبة. غير أن الصعوبة كانت دائما منشطاً للحياة. توقظ دوافعنا وتثيرها كلها، الخيرة منها والشريرة لتجعلنا نتجاوز العراقيل التي تبرز أمامنا بشكل مفاجئ.

وبهذا نصل أحياناً إلى نقطة أبعد بكثير مما كنا نأمل: بحشد قوانا كلها، التي كانت لولا ذلك ستظل تعمل على مضض ومن دون تركيز. وذلك لأن هذه القوى المحتشدة ليست قوانا وحدنا وليست أيضاً قوى بشرية فقط. القوى التي تتحرر عند الدافع الأول الذي يعمل فينا من أجل أن نقفز هي وحدة من قوى ثلاثية: قوى شخصية وقوى إنسانية وقوى قبل إنسانية.

وفي اللحظة التي يتحفز فيها الإنسان المتحفز من أجل القيام بالقفزة، تتحفز في أعماقنا الحياة في الدنيا كلها وتنمي دوافعها. وهذا ما يحدث حين نحس بوضوح بأبسط الحقائق التي غالباً ما ننساها في لحظات الاسترخاء المريحة والعقيمة: وهي أن الإنسان ليس خالداً. لكنه يخدم شيئاً ما أو شخصاً ما خالداً.

حين انتهت طقوس الصلاة وبدأ أواخر المؤمنين ينزلون الدرج الرخامي ببطء، اقترب مني شاب هزيل شاحب. كانت له لحية قصيرة شقراء وعينان زرقاوان متعبتان وكان دائم السعال. وبادرني بالحديث.

سألني مستثاراً: هل أنت واحد منا؟ ألم تخن المسيح؟

أجبته: أنا لا أخونه، إن لم يخني.

قال الشاب مستغرباً كلماتي: المسيح لا يخون أبداً. إنه لا يخون. هو يُخان فقط. ولكن تعال. الطقس بارد في الخارج. دعنا نذهب إلى بيتي ونتناول بعض الشاي الساخن.

كان والده نبيلاً سابقاً يمتلك منزلاً كبيراً، حشر الآن في غرفتين. وملئت الغرف الأخرى بعائلات الطبقة العاملة. وقد أعطي أقل الغرف شمساً لأنه، على خلاف العمال، ليس لديه أطفال. بينما أبناء العمال يريدون أن يستمتعوا بالشمس. وكان الشاب يعمل في معمل لكي يكسب عيشه. لكنه كان شاعراً. وهو يكتب الأشعار كلما أتيحت له فرصة صغيرة.

قال: أنا الآن بصدد كتابة قصيدة طويلة. حوار: المسيح يتحدث مع عامل. الوقت صباح. وصفارات المعمل تنطلق، والثلج منهمر في الخارج والطقس بارد جداً. الرجال والنساء يهرعون إلى معاملهم، مرتجفين برداً، وأجسادهم مشوهة من التعب. العامل الذي لدي يمسك بيد المسيح ويقوم معه بجولة على المصانع ومناجم الفحم والموانئ. والمسيح يتنهد ويسأل: لم هؤلاء الملعونون كلهم؟ ما الذي فعلوه؟

ويجيبه العامل: لا أعرف. قل لي أنت.

Twitter: @ketab_n

ويأخذه بعد ذلك إلى كوخه الرطب بموقده المطفأ وأطفاله الجائعين الباكين. يغلق العامل الباب. ويمسك بذراع المسيح ويصرخ: يا ربان! كيف نتصرف إزاء القيصر؟ ما الذي لقيصر لنعطيه إياه؟ وما الذي لنا لنأخذه؟

وتوقف الشاب وهو يلهث وراح يحرك يديه إلى الوراء وإلى الأمام بقوة وقلق.

سألته: وبعد؟ بماذا أجاب المسيح؟

ـ «لا أعرف»، أجاب آخر المؤمنين وهو يتطلع حوله خائفاً: «لم أعرف بعد. أو بالأحرى، وبدقة أكبر، لم أعد أعرف».

وتهاوى الشاب على كنبة ممزقة ووجهه بين يديه وهو يئن: لماذا؟ لماذا؟

وخطر لي أنه هو الآخر يسأل. يسأل ولا يجد جواباً. وإنني أتساءل ما إذا كان المسيح قادراً على الجواب. لم لا يسأل لينين؟

سألته: لم لا تسأل لينين؟ وكنت أتكلم رغماً عني بغضب.

ـ لقد فعلت.

ـ وماذا كان جوابه؟

ـ «يا عمال العالم اتحدوا». فقفزت مهتاجاً وصرخت: ولكنني أسأل عن الروح، يا فلاديمير إليتش، عن الله، عن الأبدية!

ـ ثم؟

ـ رفع لينين كتفيه وضحك متمتماً: «بورجوازي..» ثم سحق عقب لفافته تحت كعبه:

الغابة كبيرة والريح مواتية
هيا يا بي كو احمل قوسك!
من هنا، من هنا، من هنا، ومن هناك!
خنزير! من يقتل الخنزير
يابي كو المسكين؟ بي كو!
ولكن من أكله يا بي كو المسكين؟
هيا! قطّعه. ستأكل الأحشاء
(بام)! تدحرج فيل على الأرض!
من قتله؟ بي كو
من سيأخذ النابين الثمينين يا بي كو المسكين؟
صبراً يابي كو. سيعطونك الذنب

(أغنية قزمية)

* * *

Twitter: @ketab_n

كلما مرت الأيام أحسست بسحر روسيا السري يتغلغل أعمق فأعمق إلى داخلي. لم تكن المسألة ببساطة مسألة المنظر الغريب للشتاء القطبي الذي أذهلني، ولا رؤيتي الأولى للحياة السلافية، أو الشعب أو القصور أو الكنائس أو التريوكات[9] أو البالالايكا[10] أو الرقصات من حولي في كل مكان. كان شيئاً آخر، شيئاً أكثر غموضاً وعمقاً. هنا في الجو الروسي أحسست بالقوتين الأصليتين المولدتين للعالم، بوضوح أكبر وبشكل محسوس تقريباً، وهما تتصادمان. إلى هذا الحد يتغلغل جو الحرب المحيط بك إلى أعماقك، وبحيث أنك أردت أم لم ترد تلقي بنفسك في غمار الكفاح إلى جانب إحدى هاتين القوتين المولدتين للعالم أو مع الأخرى وتحارب. وما تذوقته في وجودي القصير هذا فقد رأيته هنا قاسياً ورهيباً في جسد روسيا الكبير. لقد كان الكفاح ذاته، وتحديداً المعركة المشابهة، بين الخصمين الأزليين نفسيهما، الضوء والظلمة. وهكذا توحد تدريجياً كفاحي مع كفاح روسيا، سيكون خلاص روسيا هو خلاصي أيضاً. فالضوء واحد لا يتجزأ. وحيثما انتصر أو هزم فإنه ينتصر أو ينهزم في داخلك. من اللحظة التي وصلت فيها أخيراً، في أعماقي، إلى هذا التطابق صار مصير روسيا هو مصيري. لقد كنت أكافح وأناضل إلى جانبها. ولإحساسي بضيق موسكو انطلقت لرؤية الحلبة الواسعة بأكملها أولاً ـ من مورمانسك على القطب الشمالي إلى بخارى وسمرقند، ومن لينينغراد إلى فلاديفوستوك ـ وفي كل مكان كان الأعداء والحلفاء الجذريون يتصارعون.

كل إنسان يحمل صليبه وكذلك كل شعب. الأغلبية تحمله على أكتافها حتى الموت، ليس هناك من يصلبها. سعيد هو الإنسان الذي يصلب لأنه وحده الذي سيستمتع بالقيامة وروسيا قد صلبت. فيما كنت أتجول بين جمهورياتها وقراها كنت أرتجف من الرهبة المقدسة. لم يسبق لي أن رأيت كفاحاً كهذا ولا ألماً كهذا على الصليب وآمالاً كثيرة كهذه. أدرك لأول مرة كم يصعب على الإنسان أن يقرر القيام بخطوة إلى الأمام لكي يقهر حبه السابق، وإلهه السابق، وعاداته القديمة. وعلى الرغم من أن هذه الأشياء كلها كانت ذات مرة روحاً تحثه على الصعود فإنها تتحول إلى مادة رصاصية مرهقة مع مرور الزمن وتتساقط في منتصف طريق الرحلة ـ و هي الآن تمنع النفس الخلاق الجديد من المرور.

كان ملايين الموجيك يقاومون. لم يفهموا ولم يشاؤوا أن يخلصوا. أمسكوا بالمسامير ودقوها في «الأم». بعملهم في التراب جيلاً بعد جيلٍ تحولوا إلى تراب وصاروا يكرهون اللهب. العمال الجائعون الجرحى ـ وكلهم لهب ـ كانوا يدفعون الجماهير البسيطة لكي تلتحق بطريق الخلاص باللطف حيناً وبالعنف حيناً آخر.

---

(9) التريوكة: عربة روسية تجرها ثلاثة جياد.

(10) آلة موسيقية روسية شبيهة بالغيتار.

Twitter: @ketab_n

وكانت شعوب العالم تقف، هادئة شبعانة، حول الحلبة الروسية التي كان يتصارع فيها الضوء مع الظلام. وكانت تقهقه: «انتهت! روسيا انتهت!»، لأن المتعلقين الشبعانين لا يستطيعون أبداً أن يفهموا القوى الانبعاثية اللامرئية للصلب. ولكن كما قال المسيح، إنه لكي تصبح حبة القمح سنبلة، يجب أن تنزل إلى الأرض وتموت. كانت روسيا تعاني أمراً مشابهاً: مثل حبة من القمح، مثل فكرة عظيمة.

يروي أحد الأسفار الأبوكريفاوية[11] كيف أن الحواري المحبوب يوحنا قد رأى رؤيا مذهلة، وهو يقف باكياً أمام المصلوب. لم يكن الصليب من خشب بل من نور. ولم يكن مصلوباً عليه رجل واحد بل آلاف الرجال والنساء والأطفال. والكل يتوجعون ويموتون. ارتعد الحواري المحبوب وهو عاجز عن تحديد أو تثبيت أي من الأشخاص العديدين. كان الجميع يتغيرون باستمرار ويركضون ويختفون.

كان بعضهم يعود مرة أخرى. وبغتة تلاشى الجميع ولم يبق على الصليب أي شيء، إلا (صرخة) مصلوبة.

هذه الرؤيا تتماوج أمامنا اليوم. لكن مخلص اليوم ليس رجلاً واحداً بل هو شعب بأسره. روسيا كلها، ملايين الرجال والنساء والأطفال مصلوبون ويتألمون. إنهم يختفون ويفيضون. ولا تستطيع أن تميز شخصاً محدداً واحداً. ولكن من هذه الميتات الوفيرة كلها من المؤكد أن «الصرخة» وحدها سوف تبقى.

لا حاجة لأي شيء آخر. هذه هي الطريقة التي سيتم بها خلاص العالم مجدداً. وماذا يعني «الخلاص»؟ يعني إيجاد مبرر جديد للحياة. لأن المبرر القديم قد استنزف قواه. ولم يعد قادراً على دعم الصرح الإنساني. سعيد هو الإنسان الذي يسمع (صرخة) عصره، (لكل حقبة صرختها الخاصة بها)، ويعمل بالتعاون معها. هو وحده الذي يجد الخلاص.

إننا نعيش حقبتنا. وبالتالي فنحن لا نراها. ولكن إن حدث مع الأيام أن أضرمت الفكرةُ الجديدةُ التي تصلب اليوم، العالمَ وجددته، فإننا نكون قد دخلنا الحلقة الأولى من النار. بعد قرون ربما سميت هذه الحقبة عصراً وسيطاً وليس نهضة. العصر الوسيط ـ وبتعبير آخر فترة توقف. تخمد حضارة ما وتفقد قوتها الخلاقة وتنهار. ويجهد (نَفَسٌ) جديد تحمله طبقة جديدة من البشر، بحب وصرامة وإيمان، لخلق حضارة جديدة.

وليس خلق هذه الحضارة الجديدة أمراً مؤكداً. لا شيء مؤكدٌ مسبقاً في أي عمل إبداعي. قد يكون المستقبل كارثة شاملة. وقد يكون حلاً وسطاً جباناً. لكنه قد يكون أيضاً

(11) الأبوكريفا: أربعة عشر سفراً تلحق بالعهد القديم من الكتاب المقدس، لا يعترف البروتستانت بصحتها.

Twitter: @ketab_n

انتصاراً لـ «النفس» الخلاقة. وفي هذه الحالة تكون مرحلتنا الانتقالية هي المرحلة التي نعاني فيها آلام العمل الشديدة لحضارة في طور الولادة.

لا شيء مؤكدٌ. ولهذا السبب ذاته على كل شعب، وكل فرد، مسؤولية جسيمة في عصرنا هذا غير المبتوت أمره وغير المتبلور. وهي مسؤولية أكبر بكثير من أية مسؤولية سابقة. وفي عصر غير مبتوت فيه ومليء بالاحتمالات يكون لإسهام شعب أو فرد قيمة لا تقدر. ما هو واجبنا إذن؟ أن نميز بدقة اللحظة التاريخية التي نعيشها وأن نزج بقدراتنا الصغيرة في معركة محددة. وكلما كنا على هيئة التيار الذي يدل على الطريق استطعنا أن نُعِينَ الإنسان في ارتقائه الصعب غير المؤكد والمحفوف بالأخطار نحو الخلاص.

* * *

حين أنهيت حجي مكثت في بخارى عدة أيام. أحسست بالشمس اللطيفة تقع علي أخيراً وتدفئ جسدي وروحي بعد برودة سيبيريا اللاإنسانية. وصلت إليها قبل الظهر بقليل. حرارة لاهبة، لكن الشوارع كانت قد رشت بالماء. وكان الهواء عابقاً برائحة الياسمين.

وكان المسلمون بعماماتهم الملونة جالسين تحت مظلات من القش، وهم يضفرون الحصر ويشربون المرطبات[12] المنعشة، وكان شبان بدينون بقمصان مفتوحة يغنون الأغاني[13] الشرقية العاطفية وهم يجلسون على كراسي مرتفعة في المقاهي. كنت جائعاً وظمآناً جداً. فاشتريت بطيخة وجلست في الظل الذي يلقيه جامع كوك كوبا - KOK KOUBA الشهير. وضعت البطيخة على ركبتي وقطعتها. وبدأت آكل. وتغلغل شذاها وحلاوتها إلى عظامي. لقد كنت مثل زهرة الريحان الذابلة. غطست في برودة هذه البطيخة وحييت من جديد.

مرت بي فتاة صغيرة، يقارب عمرها السابعة، وظهرها مغطى بعدد كبير من الأشرطة الصغيرة جداً. وفي كل منها صدفة أو خرزة زرقاء أو هلال لدفع أذى العين الشريرة. حين مرت من أمامي كان ردفاها يهتزان مثل ردفي امرأة ناضجة وعبق الجو برائحة المسك.

عند الظهر صعد المؤذن ذو اللحية البيضاء والعمامة الخضراء إلى المئذنة المواجهة لي. ووضع راحتيه على أذنيه ثم تطلع إلى السماء وبدأ يدعو المؤمنين إلى الصلاة بصوت عذب جهوري. وفيما كان يؤذن عبر الجو اللاهب طار طائر لقلق حتى وصل إلى رأس المئذنة فحط عليها برجل واحدة.

جلست أستمع ملء أذني وأتطلع ملء عيني. ورحت أستمتع بالفاكهة العبقة الأحلى من الحلاوة. كنت سعيداً. أغمضت عيني ولكنني لخشيتي من أن أنام وأفقد هذه السعادة كلها فتحتهما من جديد. كانت ساحة بخارى الشهيرة، الريجستان، خالية أمامي.

---

(12) جاءت كتابتها بالأحرف اللاتينية sherbat، وبالتالي فهي «شربات»، عصير فواكه أو مرطبات.

(13) أغان عاطفية تتكرر فيها كلمة «أمان» و «أمانيه».

Twitter: @ketab_n

ثم نمت فحلمت حلماً. شفتان عاصفتان، شفتا امرأة، معلقتان في الهواء دون وجه. تحركتا وسمعت صوتاً: «من هو ربك؟»، قلت دون تردد: «بوذا!». ولكن الشفتين تحركتا من جديد: لا. لا. إيبافوس[14]!

قفزت على قدمي. لقد انكشف العمل الخبيء كله الذي كان يتم خلال الأشهر الثلاثة الماضية في حنايا عقلي. انفتح باب المصيدة المؤدي إلى أعماقي. ورأيت. خلال هذا الوقت كله كنت أتألم وأكافح مثل أفعى بين الأشواك. أجاهد لخلع جلد، وارتداء جلد جديد. كنت أتألم دون أن أعرف السبب. والآن جاء هذا الحلم: بوذا هو الجلد القديم. وإيبافوس هو الجديد. إيبافوس، إله اللمس، الذي يفضل اللحم على الظلام. وكالذئب في الأمثال لا ينتظر تحقق وعود الآخرين حين يتعلق الأمر بإملاء بطنه. إنه لا يثق بعين ولا بأذن. يريد أن يلامس. أن يقبض على الإنسان والتراب. وأن يحس بحرارتهما تمتزج بحرارته. ويحس بهما يتحدان به. حتى أنه يريد أن يحول التراب إلى جسد لكي يستطيع ملامسته. الإله الذي يُعتمد عليه أكثر من الآلهة كلها، والعملي أكثر منهم كلهم. هو الذي يمشي على الأرض ويحب الأرض ويتمنى أن يعيد خلقها «على صورته ومشابهة له» ـ هذا هو إلهي.

لقد أنجزت روسيا معجزتها دون ضجيج ودون كلمات. ومثل الأفعى التي لم ينمُ جلدها الجديد بعد، والتي تحس بالبرد فتزحف تحت الشمس لتتفيأ، كذلك كانت روحي تزحف تحت الشمس الجديدة. حين استيقظت لم أعد الشخص ذاته. لأنني في السابق لم أكن أعرف. وقد عرفت الآن. إنني أظل أسأل نفسي كيف يمكن لحلم أن يغير حياة إنسان؟ إنه لا يغيرها. هكذا أجيب. إنه فقط يعلن أن تغييراً قد حدث.

بأي اتجاه يوجه الناس جهودهم المسعورة التي يحسون أن عليهم أن يقوموا بها؟ ما الهدف؟ في الماضي كنت أبتسم بسعادة وأجيب: «سلسلة أوهام. العالم غير موجود. الظلم والجوع والفرح والحزن والجهد كلها غير موجودة. كل شيء طيف. نفخة ويتلاشى كل شيء». إلا أنني قفزت الآن واقفاً ولدي شعور بالارتياح. كان الظلام قد بدأ يهبط على ساحة ريجستان. رفعت رأسي: «ما الهدف؟ لا تسأل. لا أحد يعرف حتى الله. لأنه يتقدم معنا. فهو أيضاً يبحث ويتعرض للخطر. هو أيضا قد تكرس للنضال. الجوع والظلم موجودان في القلب مثلما توجد تلك الوفرة من الظلام. وهذه الأشياء التي تراها ليست أطيافاً. ومهما نفخت فلن تختفي. إنها لحم وعظم. المسها، إنها موجودة. ألا تسمع صرخة في الهواء؟ إنها تصرخ. ما الذي تقوله في صراخها؟ النجدة! ولمن تصرخ؟ لك أنت. لكل إنسان. انهض. ليس واجبنا أن نطرح أسئلة بل أن يشد كل منا يد الآخر، كلنا معاً، أن نصعد المرتقى».

* * *

(14) أعاد زيوس بلمسة منه «أيو» إلى بشر وولّدها إيبافوس. فهو ابن اللمسة.

Twitter: @ketab_n

كان العالم قد تغير حين توقفت في برلين مرة ثانية، ثم في فيينا في طريق عودتي إلى اليونان عند نهاية هذه الأشهر الثلاثة. لا، ليس العالم ـ بل عيناي، الرقصات الصفيقة، الموسيقى الهمجية الحديثة، النساء المتبرجات والرجال المتبرجون، الابتسامة الساخرة الجارحة، الشره للذهب والقبلات ـ كل ما كان يبدو سابقاً غريباً ومغولياً صار الآن يثير فيَّ القرف والرعب. صرت أرى أنها نذر النهاية. رائحة كريهة معلقة في الجو وكأن الألم يتعفن. لابد أن سدوم وعمورة كان لهما الرائحة ذاتها.

ولابد أن بومباي كانت كذلك قبل أن تتحول إلى رماد. ذات ليلة أحسست أن مدينة اللذة الملعونة تنهض من جديد في أفكاري وأنا أجوب شوارع فيينا المضاءة التي تعج بالنساء والضحك. كنت لا أزال فتياً جداً حين رأيت بومباي أول مرة، وغير قادر في حينها على اكتشاف الرسالة الرهيبة التي تحملها لنا. ولم أبحث عن هذه الرسالة. لم يدخل عقلي أبداً في ذلك الحين أن مصير بومباي يمكن ذات يوم أن يكون مصيرنا أيضاً. كان العالم حينها لا يزال بالنسبة لي متيناً متشبثاً بحذر بكتفي المسيح. والآن؟ قررت أن أجري تعديلاً طفيفاً على رحلة عودتي من أجل رؤية بومباي مرة أخرى.

كانت السماء غائمة قليلاً، وعشب الربيع قد غطى العتبات، والدور والشوارع مهجورة خالية كما أحبها. تجولت وحدي في المدينة الفارغة وأنا أصفر.

كانت البيوت مفتوحة، دون أبواب، ودون مالكين. الحانات والمعابد والمسارح والحمامات كلها مهجورة. وكانت لا تزال على الجدران، بألوان باهتة، صور راقصات عاريات وملائكة حب تبدو عليهم البلاهة، وديوك وكلام، وصور بذيئة لعلاقات جنسية بين البشر والحيوانات.

ورن، في أذني صوت: «فليمكنني اللّه من أن أمشي في باريس ولندن وأنا أتحدث بالروسية إلى الرفاق». ارتعشت، وعبر جسدي نذير رهيب.

لقد كانت خزائن بومباي مليئة. نساؤها صفيقات، حديثات الاستحمام وعقيمات. ورجالها عديمو الإيمان ساخرون ومنهكون. والآلهة المتنكرة للإله كلها ـ إغريقية وأفريقية وآسيوية ـ كانت هناك في حشد وضيع متجمعة في مجموعة شر متواضعة. كانت تبتسم بدهاء وهي تتقاسم الهبات والبشر. والمدينة كلها ممددة على ظهرها عند سفح فيزوفيوس وهي تقهقه باستهتار.

صعدت مرتفعاً وتطلعت. الآن بعد هذه السنوات الكثيرة وهذا الكفاح الكبير فهمت. بوركت هذه المدينة الخاطئة لأنها نقلت إلينا رسالة أن العالم كله هو بومباي قبل الهلاك بقليل. ما فائدة عالم كهذا بنسائه الصفيقات ورجاله الكفرة؟ بسفالته وظلمه ومرضه؟ هؤلاء التجار الدهاة، والقناصة أكلة لحوم البشر، والقساوسة الذين يتاجرون باللّه بالمفرق، وهؤلاء

Twitter: @ketab_n

القوادون والخصيان لِمَ يعيشون؟ ولِمَ يجب أن يكبر هؤلاء الأطفال كلهم ليشغلوا الأماكن التي شغلها آباؤهم في الحانات والمعامل والمباغي؟ هذه المادة كلها تعيق الروح عن المرور. ومهما كانت الروح التي كان العالم يمتلكها ذات مرة فقد أنفقها في خلق حضارة باهرة من الأفكار والأديان والفنون والحرف والعلوم والإنجازات. والآن يستنزف هذا العالم قواه. فليأت الهمج لفتح هذا الطريق المسدود ولشق مجرى جديد للروح.

أرى أعداداً غفيرة من المضطهدين والجائعين يخدمون الموائد العامرة التي يجلس عليها سادة متبلدون من التخمة والإفراط في الشراب. الحلم يثير أولئك الذين يقومون بالهجوم. بينما الآخرون، أولئك الجالسون، يسمعون الضجة. يلتفتون. في البداية يضحكون. ثم تشحب وجوههم ويتطلعون بقلق فيدركون. يدركون أن عبيدهم وخادماتهم ومزارعيهم والعمال والحفاة قد ثاروا. لحظة قدسية! إن أعظم إنجازات الفكر والفن والعمل قد تحققت خلال أزمة صعود الإنسان الخطر.

يتجمع السادة معاً ليقاوموا، ويقاومون. لكن زخم أزماتنا كله ضدهم. لقد أكلوا وشربوا وخلقوا حضارة وفقدوا طاقتهم، وجاءت اللحظة لتحقق الصيغة الأخيرة لواجبهم. يجب أن يفنوا.

حالما تصبح الموائد عامرة سيبدأ العبيد بأن يسمنوا ويتبلدوا بدورهم. جماهير مظلومة أخرى ستنهض من التراب ومعها الجوع والحلم. وتشق الطريق مرة أخرى. وسيستمر هذا الإيقاع إلى الأبد دون توقف.

هذا هو القانون. بهذه الطريقة وحدها تستطيع الحياة أن تجدد نفسها وتتقدم. العضويات الحية كلها (والأفكار والحضارات عضوية حية) تحس بهذه الحاجة الداخلية التي لا تقاوم. ومن ورائها الالتزام بأخذ ما تستطيعه مما يحيط بها وتمثله بحيث تجعله لها ومنها، لكي تحكم العالم إذا استطاعت، والفكرة الجديدة هي أشد الوحوش جوعاً وتشبثاً.

ولكن في الوقت ذاته يبدأ قانون جديد بالعمل. القانون القاسي والقائل إنه بمقدار ما تؤدي العضوية الحية واجبها من أجل التوسع والتحكم فإنها بالمقدار ذاته، وأكثر، تقترب من سقوطها.

وربما كان الصلف الخطيئةَ الوحيدةَ التي يعتبرها التوافقُ الشاملُ خطيئة مميتة فلا يغفرها. إن تكامل سلطة العضوية مقدر لها أن يولد دمارها.

وهناك أيضا هذه الحقيقة غير المفهومة: لأن العضوية الحية قد أتمت واجبها، تحديداً، فهذا هو سبب إفنائها. ولو أنها لم تتم هذا الواجب لعاشت ـ متبلدة ـ لوقت أطول بكثير. دون إزعاج للآخرين ودون أن تنزعج هي نفسها.

ويبدو أن هذا الواجب المدمر محتوى في قلب العضوية لكي يساعدها على الاختفاء

Twitter: @ketab_n

حالما تكمل مهمتها في التفوق والسيطرة. يساعدها على الاختفاء لئلا تقف في طريق عضوية أخرى تكون قد بدأت ترفع يدها ثائرة، وترغب في أن تحكم العالم بدورها. ويبدو أن هناك فعالية مدمرة عظيمة موجودة في كل ذرة من ذرات الحياة. وكأنما كل ذرة منها قد كشفت فيها زخم الحياة بشموليتها. وهي جاهزة للتفجر عند أية صدمة. إن الحياة تحرر توقها الداخلي بهذه الطريقة وتتقدم.

ولا يعرف قادة البلشفيك ذلك. ويجب أن لا يعرفوه. إن القدر يعصب عيونهم ليمنعهم من رؤية إلى أين هم ذاهبون. فلو رأوا لتناقص زخمهم.

إنني أجاهد للإحاطة بالدائرة الكاملة للنشاط الإنساني بأقصى طاقتي، وللتكهن بالريح التي تثير هذه الأمواج البشرية لها. أنكب على العصر الذي أعيش فيه، ذلك القوس الصغير، الذي لا يدرك بالحواس، من الدائرة الكبيرة. وأجهد للحصول على رؤية واضحة للواجب الحالي. ربما كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع فيها إنسان فانٍ أن يحمل شيئاً خالداً في اللحظة الزائلة من حياته، خالد لأنه منسجم مع إيقاع خالد.

وأحس بعمق أكبر أن إنساناً مكرساً للكفاح يسمو من المعادن إلى النباتات، ثم من النباتات إلى الحيوانات، ومن الحيوانات إلى الإنسان. ثم يكافح من أجل الحرية. ويأخذ المكافح مظهراً جديداً في كل عصر حاسم. إنه اليوم قائد البروليتاريا الناهضة الذي يطلب العدالة، والسعادة والحرية. ويقدم للرفاق شعارات ويشجعهم. بينما ليس لدى أحد ذلك السر الرهيب في أن العدالة والسعادة والحرية تظل تبتعد أكثر فأكثر.

وإنه لمن المفيد والصحيح، على أية حال، أن يؤمن الذين يكافحون من أجل مَثَلٍ أعلى بأنهم سوف يحققونه. وأنهم حالما يصلون إلى ذلك فإن السعادة ستطغى على العالَم كله. بهذه الطريقة تتزود الروح بقلب قوي وتستجمع الشجاعة للارتقاء اللامتناهي المشابه تماماً لسائق العربة الذي يضع كمشة من العلف أمام فم حصانه. ويمد الحصان، الذي يجر العربة المحملة الثقيلة، عنقه ليأكل عشبة لكن العلف يبتعد أكثر. ويتبعه الحصان ويجاهد للوصول إليه. وهكذا يتقدم ويصعد المرتقى.

إنني خاضع للاحترام. وسط هذه الحشود الغامضة أميز بوضوح (صرخة اللامرئي) الذي يصعد ويحث البشرية على الصعود معه. ولو أنني عشت في زمن آخر لميزت هذه الصرخة بين النبلاء والمواطنين والحرفيين والتجار الذين كانوا ثائرين في ذلك الحين. ولكنت تحالفت معهم. البشر منجرفون في هجمة أزلية أقوى منهم. اندفاعة تجرفهم إلى الأعلى وتركهم حين ينهكون في النهاية. ثم تتوجه إلى مادة خام أخرى لم تفقد قوتها.

إن من واجبنا أن نتبع هذه الهجمة ونعيها في عصرنا وأن نعمل بالتنسيق معها. ولقد تملكت اليوم الحشود التي جاعت واستعبدت. هذه الحشود الآن هي مادتها الخام. ولا

Twitter: @ketab_n

تستطيع الجماهير أن تفهم هذه الاندفاعة التي لا ترحم. ويطلقون عليها أسماء صغيرة لتمكنهم من جعلها مفهومة بعقولهم الضيقة وملائمة لحاجاتهم اليومية.

يسمونها السعادة والمساواة والسلام. ولكن (المكافح) اللامرئي يترك هذه الأوهام الخادعة لتشجع الجماهير، ويقاتل بشدة وبلا رحمة لتجاوز العقول والأجساد. وليبدع رسالة الحرية من صرخات النقمة والجوع المعاصرة كلها.

إنه لفي غاية الخطورة أن تنحني لترى. قد يتملكك الرعب عندها لأنك ستكتشف سراً مروعاً: فـ (المكافح) ليس مهتماً بالبشر. إنه مهتم باللهب الذي يشعل الناس. ومضماره خط أحمر يثقب البشر وكأنهم سبحة من الجماجم. إنني أتبع هذا الخط الأحمر فهو وحده بين الأشياء في العالم كلها ما يثير اهتمامي على الرغم من أنني أحس به يمر في جمجمتي ذاتها. يخترقها ويحطمها. بإرادتي الحرة أقبل الضرورة.

ولكن فلنتوقف عند الحدود الإنسانية. ففي داخلها فقط نستطيع أن نعمل وأن نؤدي واجبنا. دعنا لا نتجاوزها إلى الحافة. لأن الهاوية تفغر فاها عند الحافة وقد نمتلئ رعباً. إن بوذا يقف على الحافة بابتسامته الهادئة الحاقدة، ذلك المشعوذ العظيم الذي ينفخ فيخفي العالم. لكننا لا نريد للعالم أن يختفي. ولا نريد من المسيح أن يحمله على كتفيه وينقله إلى السماء. نريد أن يبقى العالم لكي يعيش ويكافح معنا هنا. ونحن نحبه تماماً كما يحب الخزاف فخاره ويرغب فيه. فليست لدينا مادة خام أخرى لنعمل بها. ولا حقل متماسك فوق الهيولى لنبذر ونتحصن فيه.

Twitter: @ketab_n

27

القوقاز

كنت لا أزال في إيطاليا حين تلقيت برقية من وزارة الشؤون الاجتماعية في أثينا تسألني ما إذا كنت موافقاً على تسلم المديرية العامة في الوزارة، مع مهمة محددة هي الذهاب إلى القوقاز حيث يعيش مئات الآلاف من اليونانيين في خطر. وكان علي أن أحاول إيجاد طريقة ينتقلون بها إلى اليونان وينجون.

كانت المرة الأولى في حياتي التي تتاح لي فرصة الانخراط في عمل مع أناس أحياء، من لحم ودم بدلاً من الصراع، أكثر من ذلك، مع النظريات والأفكار والمسيحات والبوذات. سررت. لقد تعبت من الملاكمة الوهمية، ومن التجول من مكان إلى مكان حاملاً معي أسئلة وباحثاً عن أجوبة. ظلت الأسئلة تجدد نفسها. وظل الجواب ينتقل دائماً. وصار سؤال يتراكم فوق سؤال، ثعبان فوق ثعبان، وهي تخنقني. ولقد آن الأوان لاختبار ما إذا كان الفعل، حين يضرب سيفه في عُقَد التأمل التي لا تحل، هو وحده القادر على تقديم جواب.

ووافقت لسبب آخر أيضاً. كنت أشفق على شعبي المصلوب أبداً، والذي يتعرض مرة أخرى للخطر في جبال بروميثيوس، بالقوقاز. مرة أخرى لا تقوم (الدولة) و(العنف) بدق المسامير في بروميثيوس وحده، بل في اليونان كلها وتصْلبها على جبال القوقاز. كان هذا صليبها وهي تنادي. لا تنادي الآلهة بل البشر، أبناءها، لينقذوها. وهكذا، وبتحديد بلايا الحاضر في معاناة اليونان الأبدية، وبرفع التقلبات المأساوية المعاصرة إلى مستوى الرموز، وافقت.

غادرت إيطاليا وتوقفت في أثينا. أخذت عشرة مرافقين مختارين معي (معظمهم كريتيون) وانطلقت إلى القوقاز لأرى أولاً كيف يمكن إنقاذ هؤلاء الآلاف من البشر. في الجنوب كان الأكراد يدقون حدوات الجياد بالمسامير على قدمي كل يوناني يمسكون به. وفي الشمال كان البلشفيك نازلين بالنار والفأس. وفي الوسط كان يونانيو باتوم وسوخومي وتيفليس وكارس يقفون عراة جائعين مرضى ينتظرون الموت، والأنشوطة تضيق حول أعناقهم. مرة أخرى الدولة من جهة، والعنف من جهة أخرى: الحليفان الأزليان.

Twitter: @ketab_n

ما أمتع أن تنطلق من أجل مهمة صعبة وأنت محاط برفاق متحمسين ومخلصين. خلّفنا وراءنا الشاطئ اليوناني. وذات صباح ظهرت القسطنطينية شاحبة في الأفق المظلل. كان مطر لطيف يهطل. والمآذن البيضاء والسرو الأسود يخترقان الضباب مثل صواري مدينة غارقة. القديسة صوفيا والقصور والجدران الملكية نصف المهدمة كانت كلها غارقة في المطر الصامت القانط. تجمّعنا عند مقدم السفينة ورحنا نجهد أن تخترق نظراتنا الضباب الكثيف لكي نرى.

شتم واحد من رفاقي، وعيناه مليئتان بالدموع: عليها اللعنة! العاهرة! تنام مع الأتراك.

وتمتم آخر: عبر السنين سيأتي وقت تعود فيه إلينا مرة أخرى.

لكن قلبي لم يتأثر. لو أنني مخرت هذه المياه الأسطورية في مناسبة أخرى لالتهب عقلي بالخرافات والأغاني الشعبية مع الرغبات القوية. ولأحسست بدموع حارة كبيرة تذرف من أيقونة العذراء المباركة على راحتي. لكن المدينة الأسطورية كلها في هذا اليوم بدت مثل صورة للرغبة بعيدة جداً ومستحيلة جداً، مثل مخلوق مصنوع من الضباب والخيال.

ظللنا يومين نحدق إلى القسطنطينية عن بعد، منتظرين أن يهدأ البحر لكي ننطلق. وكنت مسروراً لأن المطر منعني من رؤيتها، ومسروراً لأن الحراس الأتراك الضخام منعونا من مغادرة السفينة ووضع أقدامنا على الأرض المقدسة المتركة[1]. لقد توافق هذا كله مع مزاجي العنيد الممتعض ومع قلبي الأبله المدعي الذي لم يكن يرغب في الكشف عن آلامه.

المزيد من المطر. وظلت القسطنطينية تغرق. ولكن بعد ذلك صار البحر أخضر لامعاً. وخفت الأمواج تدريجياً. وأخيراً في صباح اليوم الثالث انطلقنا. مررنا عبر البوسفور. صارت الحدائق الكثيفة تتقطع باستمرار، والبيوت تتناقص. شواطئ أوروبا على يسارنا وآسيا على يميننا وقد صار لها مظهر أكثر وحشية. دخلنا البحر الأسود الرهيب: وهبت ريح عنيفة من جديد، وجاءتنا رائحة البحر المالحة. وصارت الأمواج تندفع إلى الأمام مقوسة ظهورها مزبدة معربدة مثل جياد هوميروس البيضاء المطهمة. اجتمعنا في حجرتي وتحدثنا عن اليونان ـ اليونان الخالدة المعذبة ذات الألف جرح ـ وعن واجبنا في أن لا نخزيها في المناطق البعيدة التي كنا ذاهبين إليها.

لن أسجل هنا تقلبات بعثتنا ومراحلها. قضينا، أنا، ومرافقيّ، شهراً ونحن نزور المدن والقرى التي انتشر فيها اليونانيون. عبرنا جورجيا ودخلنا أرمينيا. في تلك الأيام ذاتها كان الأكراد قد قبضوا على بعض اليونانيين، وهم ثلاثة هذه المرة، وركبوا لهم حدوات مثل البغال. كانوا قد وصلوا إلى جوار كارس وصرنا نسمع مدافعهم ليلاً ونهاراً.

قلت: يجب أن يبقى واحد منا في كارس ليجمع اليونانيين كلهم ـ رجالاً ونساء وأطفالاً

---

(1) أي التي أصبحت تركية.

Twitter: @ketab_n

إضافة إلى مواشيهم ومعدّاتهم ـ وأن يتصرف كقائد لكي ينقلهم إلى مرفأ باتوم. كنت قد أرسلت في تقريري أطلب مجيء الزوارق مع شحنات من المواد الغذائية والملابس والأدوية. وهذه القوارب ستأخذ الناس في رحلة عودتها. من يريد البقاء في كارس؟ يجب أن لا تحدث خطيئة. ستكون مهمته خطرة.

كان وجهاء كارس اليونانيون مجتمعين حولنا يستمعون وعيونهم معلقة على شفاهنا.

تقدم المرافقون العشرة كلهم إلى الأمام. كلهم يريدون البقاء. انتقيت أكثرهم تأثيراً في مظهره، زميل صف سابق عزيز علي وأثير لدي، سبق له أن جرح في حروب الماضي. كان مقداماً لا مبالياً وحيوياً. وكان يستمتع بممازحة الخطر.

قلت: أنت تبقى يا هيراكليس. وليكن إله اليونان معك.

أجاب ضاحكاً: يجب أن تسامحوني كلكم إذا قلبت الدلو ـ أي إذا مت. وليسامحكم الله.

شددنا على يده وتركناه. بعد عدة أسابيع ظهر في باتوم مغبراً أسود كالفحم وثيابه ممزقة. كان يمشي في المقدمة ووراءه جيش كبير من يونانيي كارس مع ثيرانهم وخيولهم وأدواتهم وفي وسطهم القس مع الأناجيل المغلفة بالفضة، والتي جلبها من الكنيسة، والعجائز يحملون الأيقونات المقدسة على أذرعهم. لقد اقتلعوا جذورهم وتوجهوا أخيراً إلى اليونان ليمدوا جذوراً جديدة.

ونحن، خلال هذا الوقت، كنا قد جمعنا يونانيي جورجيا. كلهم. وذات صباح سمعت صرخات وهتافات الفرح وطلقات بنادق.

ركضت إلى المرفأ. كانت أولى السفن اليونانية قد وصلت لنقل الناس.

كان كفاحاً صعباً. وقد أضعفنا التعب والقلق وقضاء الليالي دون نوم. كنت أحياناً أختلس نظرة سريعة إلى الجبال الأسطورية القفراء وإلى السهول الساكنة، وجمع البشر البهي بعيونهم الشرقية الواسعة وعذوبتهم التي لا تقاوم والأرواح المرحة المبتهجة. كانوا يشربون ويرقصون، يتعانقون ويقتل كل منهم الآخر بنبل مجيد مثل حشرات ملونة.

لم يكن لدي الوقت، ولم أرغب في تحويل تفكيري عن الواجب الجسيم الذي جئت إلى هنا بسببه. رأيت رجالاً ونساء وأطفالاً صغاراً جائعين ويائسين يتجمعون حولي ويحدقون إلى عيني. كانوا ينتظرون مني أن أجلب لهم الخلاص. فكيف يمكنني أن أخونهم؟

كنت أقول لهم دائماً: «لا تخافوا يا أخوتي. نحن جميعاً في هذه المشكلة معاً. إما أن أنجو معكم أو أن أضيع معكم». وكنت أحدثهم أحياناً عن شعبنا المعذب الذي حاصره الهمج والجوع والفقر والهزات الأرضية والنزاعات قروناً عديدة. ولقد كانت هذه القوى تريد

Twitter: @ketab_n

أن تضع نهاية لليونان. ولكنها كانت خالدة. انظروا كيف عاشت وازدهرت آلاف السنين. وهكذا استطاعت هذه الأرواح البائسة أن تستمر بحملها اليونان في أذهانها.

كان هناك مساء وحيد فقط كنت فيه قيد شعرة من خيانتهم.

وأتذكر الأمر بخجل: ذات مساء على البحر في باتوم في حديقة لطيفة مغطاة بحصى بيضاء خشنة ومحاطة بالروطان[2] الذي تفتحت عليه أزهار متماوجة قرمزية اللون. كان يعذبني قلق لا يمكن احتماله.

في تلك الأيام لم تكن هناك دلائل على قدوم زوارق إضافية. هل ستأتي أم لا؟ وهل ستنجو هذه الأرواح المعلقة برقبتي كلها؟ قبل عدة أيام كنت قد تعرفت إلى جورجينا باربرا نيكولا يفنا. وقد دعتني هذا المساء إلى تلك الحديقة اللطيفة، لأنها رأت كم كنت متوتراً بعمق. وقد أحست بالأسف نحوي. كانت أجمل امرأة قابلتها في حياتي. لا. ليست جميلة. بل هي شيء لا يمكن أن تحتويه الكلمات: عينان خضراوان ساحرتان بشكل خطر مثل عيني أفعى. وصوت أجش متكتم، كله وعد ورفض وعذوبة. حين تطلعت إليها طاش صوابي. وانطلق من صلبي قباع[3] ما قبل إنساني. وانفتحت في داخلي كهوف عميقة سوداء. وبدأ أسلاف مهجورون بدائيون يخورون وهم يحدقون إلى باربرا نيكولايفنا.

وحدقت إليها مثلهم، وأنا أقول لنفسي لن تتكرر هذه اللحظة. ولن يُعثر على هذه المرأة مرة أخرى. لقد عملت أعدادٌ لا تحصى من المغامرات والمصادفات والأحداث العارضة والأقدار، ملايين السنين، لكي يولد هذا الرجل وهذه المرأة ويتضاجعا على شاطئ قوقازي داخل هذه الحديقة ذات الروطان المزدهر. فهل سنترك هذه اللحظة القدسية تفلت منا؟

التفتت المرأة، وهي تغمض عينيها نصف إغماضة: نكيولاي ميخايلوفتش، هل جئت لتأخذني من هنا؟

تملكني الرعب. لقد تجرأت المرأة على قول ما كنت أتوق إليه ولا أجرؤ.

ـ أخذك من هنا؟ إلى أين؟

ـ بعيداً عن هنا. لقد مللت زوجي. إنني أختنق هنا وأذبل. وأنا أشفق على جسدي، يانيكولاي ميخايلوفتش. أشفق على جسدي. تعال. خذني بعيداً.

تشبثت بالكرسي الذي كنت أجلس عليه. كان كيك[4] قد ألقى مرساته أمامنا. وخفت أن أقفز وأمسك بها من خصرها، وأصعد بها إلى القارب لكي نتمكن من الفرار. وصارعت لكي أقاوم.

---

(2) نبات تصنع منه السلال.
(3) صوت الخنزير.
(4) زورق طويل.

Twitter: @ketab_n

ـ وماذا عن واجبي يا باربرا نيكولاييفنا؟ وماذا عن آلاف الأرواح التي تنتظر مني أن أنقذها؟

بحركة سريعة فكت المرأة الشريط الحريري الذي تلف به رأسها، وانسدل شعرها المزرق على كتفيها. زمت شفتيها مغتاظة وهتفت ساخرة: واجب! اسمح لي أن أقول لك إن هناك واجباً واحداً فقط! واجب وحيد: هو أن لا تترك السعادة تهرب منك ـ أن تمسك بها من شعرها. أمسك بي من شعري يا نيكولاي ميخايلوفتش. لا أحد يرانا.

تطلعت إلى البحر. كانت الشياطين كلها تتصارع في داخلي. وليس بينها ملاك واحد. وكان القدر يقف أمامي منتظراً. ومرت لحظة طويلة. وبغتة قفزت المرأة شاحبة.

قالت: فات الأوان. لم تستطع أن تقبل فوراً. فشلت في الإمساك بشعري. إنك تحسب الربح والخسارة. فات الأوان. حتى لو قبلت الآن فلن أقبل. في صحتك يانيكولاي ميخايلوفتش! برافو! إنك تافه صغير شريف، يعرف بأنه دعامة حقيقية للمجتمع. بصحتك وبسعادتك.

وهي تقول ذلك كانت قد أفرغت كأسها المليئة بالخمرة الأرمنية اللاذعة.

الآن، بعد آلاف السنوات، في شيخوختي، أغمض عيني فيزدهر الروطان من جديد ويدق البحر الأسود صدغي وتأتي باربرا نيكولاييفنا وتجلس أمامي. ولكن ليس على كرسي هذه المرة بل متربعة على الحصى الأبيض. أتطلع إليها وأسأل نفسي: هل أخطأت في عدم الإمساك باللحظة القدسية من شعرها؟

أتنهد وأجيب: لا. ولم آسف على شيء.

* * *

غادرت القوقاز بعد أسبوعين. كانت الأيام الأخيرة قاسية جداً. بدأت السفن فعلاً في التحرك ناقلة الناس. ورأيت انخراطي في مملكة الفعل يثمر. واستطعت منذ ذلك الحين أن أتخيل اليونانيين الكادحين يمدون جذورهم في مقدونيا وتريس، أراضينا القديمة التي تمزقت تحت العقب الهمجية. سوف يغطونها بالقمح والتبغ واليونانيين الصغار. لابد أنني كنت راضياً. لكن دودة خبيثة كانت تنغل في قلبي وتثقبه شيئاً فشيئاً. وبما أنني لم أكن قد تمكنت بعد من التعرف على ملامح قلقي الجديد بوضوح فقد اكتفيت بالإحساس بالمرارة.

وفيما كنت على وشك الصعود إلى السفينة جاءني عجوز من يونتوس. «قيل لي إنك مثقف يا ريّس. وأحب أن أسألك سؤالاً إن لم يكن لديك مانع. هل كان الليديون الذين شاركوا في حرب طروادة يونانيين؟»

صعقت. لم أحلم أبداً أن يكون هذا الأمر بين الأمور كلها مشكلة تعذب الرجل.

أجبته: يونانيين؟ لا. أبداً. كانوا ليديين من آسيا الوسطى.

Twitter: @ketab_n

هزّ العجوز رأسه: كان الآخرون على حق إذن حين أخبروني أنك تتنكر لتراثنا القومي. وداعاً!

* * *

كان هذا آخر صوت سمعته في القوقاز.

كثيراً ما فكرت، في ما بعد، في هذا العجوز من بونتوس. وبدأت بالتدريج أفهم أنه ليس مهماً ما هي المشكلة. وسيان كانت صغيرة أم كبيرة، تلك التي تعذبنا. الشيء المهم الوحيد هو أننا نتعذب. وأننا نجد أساساً لعذابنا. بتعبير آخر إننا نُعمل أذهاننا لكي لا نسمح لليقين بتحويلنا إلى حمقى. وإننا نجاهد لفتح كل باب مغلق نجده أمامنا. يقول الشخص المتعجل للاستقرار: «لا أستطيع العيش دون يقين»، لكي يجد أرضاً ثابتة يقف عليها. ولكي يأكل دون أن يرى مالا يحصى من الجائعين وهم يفغرون أفواههم ويتابعون الطعام الذي يلتهمه. «لا أريد العيش دون شك ولا أستطيع». يصرخ آخرون ممن لا يأكلون بضمير مرتاح ولا ينامون دون كوابيس، ولا يقولون إن هذا العالم خال من العيوب. فليبق كما هو إلى الأبد.

هؤلاء الآخرون، باركهم الله، هم ملح المولى. هم الذين يحمون الروح من التعفن. لقد ضحكت وسخرت حين سمعت العجوز من بونتوس بقلقه المضحك. أما الآن يا أخي، ويارفيقي في الكفاح، لو أنني أستطيع أن أراك ثانية لألقيت بنفسي بين ذراعيك!

كانت السفينة مليئة ببشر مقتلعين من أرضهم. وكنت في طريقي لغرسهم في اليونان، بشر وخيول وثيران وقصعات عجين وأسرة أطفال وفرشات وأيقونات مقدسة وأناجيل ومعاول ومجارف، كل شيء كان يهرب من البلشفيك والأكراد. ويرحل باتجاه اليونان الحرة. وليس من المخجل أبداً أن أقول إنني كنت متأثراً من أعماقي. كنت أحس كما لو أنني قنطور وأن هذه السفينة بحشدها الهائل هي جسدي من الرقبة وما دون.

كان هناك انتفاخ بسيط في البحر الأسود. وكان للموجة النيلية القاتمة رائحة البطيخ الأحمر. عن يسارنا شواطئ بونتوس وجبالها التي كانت ذات يوم لنا. وعن يميننا البحر الشاسع المتلألئ. غابت القوقاز في الضوء. لكن العجائز جلسوا عند مؤخرة السفينة وأداروا ظهورهم وقد عجزوا عن تحويل عيونهم عن الأفق الحبيب. اختفت القوقاز وصارت طيفاً ذهب بدداً. ولكن في أعماق حدقات العجائز بقيت راسخة لا تعرف الغياب. إنه لمن الصعب، والصعب إلى أبعد الحدود، على الروح أن تقتلع نفسها من موطنها، من الجبال والبحار، من الناس الذين أحبتهم ومن البيت الحبيب الصغير الفقير. الروح أخطبوط وهذه الأشياء كلها أطرافها.

جلست في المقدمة على حبل ملفوف. وكان يحتشد حولي رجال ونساء، بعضهم من كارس وبعضهم الآخر من سوخومي ويونانيون مضطهدون آخرون من تايغان. لم يكن

Twitter: @ketab_n

لعذاباتهم من نهاية وكان كل منهم مندفعاً في سرد حكايته للتخفيف عن نفسه. وكنت أستمع وأنا معجب سراً بقدرة الشعب اليوناني على التحمل. ذلك أنهم وسط حدادهم وندبهم للأحياء الذين ماتوا، والبيوت التي احترقت، والجوع والخوف اللذين عانوهما، يطلق أحدهم فجأة نكتة بذيئة ينتهي معها بؤسهم كله وترتفع رؤوسهم عالياً من جديد. فبينما كانت صبية مشعثة تبكي زوجها الذي قتل مد عملاق ضخم ذو شاربين فاحمين متدليين مخلبه الضخم ولمسها على كتفها.

قال: «يكفي بكاء يا ماريوريتسا. حتى لو بقي شخصان فقط في العالم كله ـ ولنقل أنا وأنت ـ فإن الأرض اليونانية ستمتلئ بالأطفال من جديد». ونقل عينيه على الباخرة: «هل تعلمون يا أخوتي أين يكمن أمل العالم؟ هل ستقولون في الرأس؟ لا. تحت ذلك». ثم ألقى نظرة سريعة على المرأة: «أي قسماً باللّه لولا أنني أخجل أمام السيدات لأريتك أين يكمن أمل العالم!... فلتتوقفي عن البكاء. هيا!».

احمرت المرأة خجلة. وضحك الرجال وهتفوا: «تودوريس، لا أحد يقترب منك أنت. بوركت لأنك تجعلنا نضحك».

وكان هناك رجل وحيد يجلس جانباً ولا يتكلم. هذا الرجل لم يضحك ولم يحك معاناته. كان يبدو غير راغب في التخفيف عن نفسه. وكان له جسد ضخم ورقبة عجل ويدان طويلتان ضخمتان لا بد أنهما تصلان إلى ركبتيه. وقميصه المفتوح يكشف عن صدر مغطى بالشعر. لم يسبق لي أن رأيت قبل ذلك إنساناً يشبه الدب إلى هذا الحد.

حين تفرق الآخرون واضطجعوا على أسمالهم ليناموا بقي هذا الرجل يحدق إلى البحر ورقبته الغليظة ممدودة إلى الأمام. توجهت إليه مدركاً أن هناك قوة مقلقة تنبت من هذا الثور البشري الذي لا يتحرك.

«أنت لم تتكلم»، بدأت لكي أفتح معه محادثة. التفت وتطلع إلي ثم مد يده فطقطقت عظامه: أتحدث؟ لأقول ماذا؟ لأصف ألمي وأجد الراحة؟ أنا لا أريد أن أجد الراحة.

صمت ونهض وكأنه راغب في الابتعاد. ولكنه عاد وجلس من جديد. أحسست به يصارع شيئاً في داخله. ولم يكن يريد أن يتكلم. لكن قلبه قد فاض. إضافة إلى أن الليل كان قد هبط وكنا وحيدين، فلان قليلاً.

«لقد رأيت الجبال والغابات في القوقاز. ألم ترها؟ أنا تجولت وحدي فيها سنين. كانوا يسمونني الخنزير البري لأنني لم أكن أرافق أحداً. لم أكن أذهب إلى المقهى أبداً ولا إلى الكنيسة. كما قلت لك. كنت أجوب الجبال والغابات وحيداً. لقد التهمت الجبال حجراً حجراً. كنت حجاراً وحطاباً وفحاماً. وكنت عارياً وفقيرًا. لكنني كنت شاباً وقوياً مثل ثور. ولم أكن في حاجة لأحد. وذات يوم أحسست بقوتي تخنقني وأنا أتسلق جبلاً. ولكي أمنع

Twitter: @ketab_n

نفسي من الانفجار بدأت أعزق الجبل وأقطع عوارض خشبية من أكبر الصنوبرات وأبني بيتاً. بنيته قريباً من نبع ماء، وأكملت الباب والنوافذ وكل شيء. صار كاملاً. وجاء رجال ونساء من قرية مجاورة لرؤيته. جلبوا معهم خمراً وطعاماً. لكنني اكتفيت بالجلوس على حجر والتطلع إليه. وجاءت فتاة وجلست إلى جانبي. وراحت تتطلع إليه أيضاً. وفيما كنا نتطلع إليه معاً دخت. وفي صباح اليوم التالي وجدت نفسي متزوجاً».

تنهد: «وجدت نفسي متزوجاً. وانتهى الدوار. وعاد إلي عقلي من الجبال العالية».

قلت لها: ما الذي سنأكله يا زوجتي؟ أنا لا أستطيع أن أطعم واحداً فكيف سأطعم اثنين؟ ثم ماذا عن الأطفال؟

قالت: لا تقلق. دعنا نذهب إلى الكنيسة.

ـ وماذا تتوقعين مني أن أفعل في الكنيسة؟ لن أذهب.

ـ قلت لك دعنا نذهب.

ذهبنا وصلّبنا وتشجعنا.

قالت زوجتي: والآن هيا بنا نذهب ونعمل في حقلنا.

ـ حقل؟ أي حقل أيتها الحمقاء؟ إنك تقصدين الحجارة.

ـ سنكسر الحجارة ونسحقها ونصنع تراباً.

ذهبنا وسحقنا الحجارة وصنعنا تراباً وزرعنا محصولنا.

وقالت لي زوجتي هذه المرة: فلنذهب الآن لتقليم زيتوناتنا.

ـ أية زيتونات؟ هذه العصي اليابسة؟

ـ أقول لك دعنا نذهب.

ذهبنا وقلمنا العصي اليابسة. زرعنا وقلمنا وملأنا أنفسنا بالخير وحشونا أمعاءنا بزيت الزيتون. فليقدس اللّه عظام جدي. لقد اعتاد أن يقول لي: «لا حاجة لأن تخاف الفقر والعري إذا كانت لديك زوجة صالحة».

وصمت مرة أخرى. أمسك بطرف الحبل وبدأ ينسل خيوطه مثل قط بري. وكنت أستطيع أن أسمع أسنانه تصر في الظلام.

ـ وبعد ذلك؟ سألته وأنا مضطرب.

ـ يكفي. هل تتوقع مني أن أصف معاناتي مثل الآخرين؟

ـ ماذا عن زوجتك؟

ـ قلت لك يكفي!

طمر رأسه بين ركبتيه ولم يتكلم بعدها.

* * *

Twitter: @ketab_n

«تستطيع دموع البشر أن تدير طواحين العالم كلها. ولكنها لا تدير طاحونة الله» قال لي ذلك رجل في المئة من عمره، في قرية مقدونية. كان يقرفص أمام عتبة كوخه لكي يدفئ نفسه في الشمس. إن الحب والعطف من نباتات الإنسان، وليسا من نباتات الله. أية آلام لا تحتمل كانت هذه السفينة تحمل وتجلب إلى اليونان! لكن الزمن، عليه رحمة الله، يشفق علينا. الزمن إسفنجة تمحو. إن المحصول الجديد من عشب الربيع يغطي حجارة القبور بسرعة. وتستأنف الحياة صعودها لاهثة.

كانت السماء مليئة بالنجوم. وخرج برجي، العقرب، من البحر غاضباً بعين حمراء وذنب معقوف. كان يحيط بي ألم الإنسان ومن فوقي السماء المليئة بالنجوم، خرساء ولا إنسانية، ومليئة بالوعيد. لابد أن لهذه النقاط النيرة معنى خبيثاً. ولابد أن هذا الآرغوس[5] ذا الألف عين يقوم على حراسة سر رهيب. ولكن أي سر؟ لم أكن أعرف. الشيء الوحيد الذي كنت أحس به في أعماقي هو أنه ليس لهذا السر أية علاقة بقلب الإنسان. كان يبدو أن في الكون المنظم مملكتين منفصلتين: هما مملكة الإنسان ومملكة الله.

بأحاديث كهذه وتأملات كهذه عبرنا البحر الأسود. ومن جديد رأينا القسطنطينية عن بعد. وكانت هذه المرة تستحم بضوء الشمس، وهي مليئة بالحدائق والمآذن والخرائب. رسم الركاب الذين معي الصلبان على أنفسهم بشكل عاطفي وانحنوا احتراماً لها. وانحنى رجل على مقدم السفينة وصاح: «تشجعي يا أماه! تشجعي!». وحين صرنا في مواجهة الشاطئ اليوناني نهض القس القادم من سوخومي، وكان بين من يسافرون معنا، ولف عليه بطرشيله ورفع يديه العجوزين إلى السماء. وصرخ بصوت عال لكي يسمعه الله: «مولاي! مولاي! أنقذ شعبك! ساعده على مد جذوره في أرض جديدة، لكي يحول الحجارة والأخشاب إلى كنائس ومدارس. ولكي يمجد اسمك باللغة التي تحبها!».

طفنا حول شواطئ تريس ومقدونيا وساقتنا الريح إلى الجبل المقدس. ثم دخلنا ميناء سالونيكا. لقد استغرقت مهمتي أحد عشر شهراً. وراحت حمولات السفن من البشر والماشية تصل تباعاً من القوقاز. وكان دم جديد يدخل في عروق الإنسان. طفت تريس ومقدونيا لأختار الحقول والقرى من بين ما خلفه الأتراك حين رحلوا. تملك المالكون الجدد وبدأوا الحراثة والزرع والبناء. أعتقد أن من أكثر متع الإنسان شرعية أن يتعب وأن يرى تعبه يثمر. ذات مرة أخذني إستراتي، المهندس الزراعي إلى امتداد صحراوي قرب أستراخان. مد ذراعيه، وبحس انتصار، عانق الرمال اللامتناهية. قال: «لدي آلاف العمال. إنهم يزرعون نوعاً من الأعشاب ذات الجذور الطويلة التي تمسك المطر والتراب. خلال سنوات قليلة ستكون هذه الصحراء كلها بستاناً». كانت عيناه تلتمعان: «انظر! هل ترى القرى والبساتين

---

(5) عملاق ذو مئة عين مكلف بحراسة العجلة إيبو. وقد حولت عيونه بعد موته إلى ذيل للطاووس.

Twitter: @ketab_n

والمياه في كل مكان حولك؟»، وصرخ استراتي مندهشاً: «أين؟ أين؟ إننا لا نرى شيئاً». ابتسم المهندس الزراعي، وقال: «خلال سنوات قلية سترى ذلك كله». وغرز عصاه في الرمل وكأنه يقسم.

الآن رأيت انه كان على حق. تطلعت حولي بطريقة مشابهة إلى الأرض الخراب التي كان زملائي الركاب يتقاسمونها فيما بينهم. ورأيتها مليئة بالبشر والبساتين والمياه. وسمعت الأجراس من كنائس المستقبل، والأطفال يلعبون ويضحكون في باحات المدارس.

وهناك نبتت شجرة لوز مزهرة أمامي: يجب أن أصل إليها وأقطف منها غصناً مزهراً. ذلك لأننا بإيماننا العاطفي بشيء لم يوجد بعد إنما نخلقه. وما لا يوجد هو ما لم نرغب فيه بالقدر الكافي. وهو ما لم نُروّه بدمائنا بحيث يصبح قوياً إلى درجة تجعله يخطو متجاوزاً عتبة اللاوجود المعتمة.

أخيراً، وحين انتهى كل شيء، أحسست فجأة كم كنت متعباً. لم أكن أستطيع الوقوف على قدمي. ولم أكن أستطيع أن آكل أو أنام أو أقرأ. كنت منهكاً. لقد حشدت قواي كلها من أجل هذا الوقت، وطالما أن الحاجة قائمة. ولقد ساندت الروحُ الجسدَ ومنعته من أن يسقط. ولكن المعركة انتهت فوراً، وانحل الحشد الداخلي. ولكن ليس قبل الانتهاء من المهمة الموكولة إلي. أنا الآن حر. قدمت استقالتي. ووجهت وجهي فوراً إلى كريت. كنت أريد أن أسير على ترابها، وألامس جبالها ثانية، لكي أستمد منها القوة.

Twitter: @ketab_n

28

عودة الابن الضال

حين يعود الإنسان إلى بلده بعد سنوات عديدة من التجوال والكفاح في الخارج، وينحني على حجارة الأسلاف، ويطوف بنظره على المناطق الأليفة المحتشدة بالأرواح البلدية وبذكريات الطفولة وأشواق الشباب، يتصبب منه عرق بارد.

إن العودة إلى تراب الأسلاف تجعل قلوبنا تضطرب. وكأنما كنا عائدين من مغامرات لا يمكن ذكرها، وداخلين في مناطق جديدة محرمة. هناك في إقامتنا المؤقتة في الخارج، أحسسنا بثقل يسقط على قلوبنا. أي شغل لنا هنا مع الخنازير التي تأكل البلوط؟ نتطلع وراءنا إلى الأرض التي غادرناها ونتنهد. وعند تَذَكُّرِ الدفء والسلام والحياة الرغيدة نعود مثل الابن الضال إلى صدر الأمومة. في داخلي تتسبب هذه العودة دائماً في رعشة سرية، ودلالة منذرة كأنما بالموت. بدا لي وكأنني أعود إلى طين الأسلاف الذي طال شوقي إليه بعد مثاقفات الحياة وتبذيراتها. وكأنما قوى خفية قاتمة متحكمة قد أوكلت لإنسان تنفيذ مهمة. والآن عند عودته يبرز صوت قاس من حنايا أرضه يسأله: هل نفذت مهمتك؟ قدم تقريراً عن نفسك!

هذه الرحم الأرضية تعرف بدقة قيمة كل من أبنائها. وكلما سمت الروح التي صنعتها صعبت الوصايا التي تفرضها عليها ـ إنقاذ نفسها أو شعبها أو العالم. إن مرتبة روح الإنسان تتحدد بـأي من هذه الوصايا تلتزم، الأولى أم الثانية أم الثالثة.

ومن الطبيعي أن يرى كل إنسان هذا الارتقاء، الارتقاء الذي تكون روحه ملزمة بالقيام به، محفوراً بعمق أكبر على الأرض التي ولد فيها. إن هناك تعاقداً وتفاهماً غامضين بين هذه الأرض التي صنعتنا وبين أرواحنا. وتماماً كما ترسل الجذور أمراً سرياً إلى الشجرة لكي تزهر وتحمل الثمار بحيث تجد هذه الجذور مبرر وجودها وتصل إلى الهدف من رحلتها؛ كذلك فإن أرض الأسلاف، بالطريقة ذاتها، تفرض وصايا صعبة على الأرواح التي ولدتها. ويبدو أن الأرض والروح مصنوعتان من المادة ذاتها، وتقومان بالهجوم ذاته. والروح هي التي تحقق الانتصار الأكمل.

Twitter: @ketab_n

أن ترفض أبداً التنكر لشبابك، حتى أقصى مراحل شيخوختك، وأن تصارع طوال حياتك لتحويل أزهار نضجك إلى شجرة محملة بالثمار ـ هذا، كما أعتقد، هو الطريق الوحيد للإنسان المتحقق.

فالروح تعرف معرفة تامة (وعلى الرغم من أنها تتظاهر بالنسيان في كثير من المرات) أن عليها أن تقدم الحساب للأرض الوالدية. ولا أقول «أرض الآباء»، بل أقول الأرض الوالدية. فالأرض الوالدية شيء أكثر عمقاً وأكثر تواضعاً وأكثر تحفظاً. وهي مؤلفة من عظام عتيقة مطحونة.

هذا هو يوم القيامة الأرضي ـ والوحيد ـ الذي توزن فيه حياتك داخل أحشائك التي لا تزال حية. وتستمع إلى الصمت الحاسم، الحاكم بالعدل، يطلع من أرض أسلافك، فترتجف. أي جواب تستطيع أن تقدمه له؟ تعض على شفتك وتفكر: آه لو أنني أستطيع أن أعيش حياتي من جديد! ولكن فات الأوان. تُعطى الفرصة مرة واحدة فقط. مرة واحدة إلى الأبد. ولا تعاد ثانية.

وذكريات الطفولة التي تتفجر من كل اتجاه تساعد على زيادة الألم أكثر. لقد أحاطت بأرواحنا المندفعة إلى الأعالي قشرة سميكة فجمدتها في شكل حدبات وتجاعيد وعادات مخزية. وتلك الروح، التي كانت في لهيب الشباب المتأجج تتوق للسيطرة على العالم، والتي كانت تحس أنها محدودة جداً في قلعة بلوغها الرائع، تقعي الآن راجفة في زاوية واحدة من جسد كله ذابل وكله جلد. وعبثاً تحثها الحكمة القديمة والجديدة للخضوع بتفهم وصبر لقانون الضرورة.

وتقول لها هذه الحكمة من خلال المواساة الجبانة إن النباتات والحيوانات والآلهة كلها تندفع إلى الأمام. تنتصر وتنهزم وتنهار بالطريقة ذاتها تماماً. ولكن روحاً مطلبية لن تتنازل بقبول عزاءات كهذه. وكيف تستطيع ذلك؟ لقد ولدت تحديداً من أجل أن تشن الحرب على قانون الضرورة.

إن العودة إلى الموطن حادث حاسم. تتفجر القشرة المريحة والخائنة وينفتح باب المصيدة، فتنبعث الكيانات التي كانت ممكنة ذات مرة والتي قتلناها ـ النفوس الأفضل كلها التي كان من الممكن أن نصيرها ثم فشلنا بسبب الكسل وسوء الطالع والجبن ـ مثل أشباح كريهة وتقفز إلى وعينا.

وهذا الامتحان يصبح غير ممكن احتماله حين تكون أرض الشخص الوالدية حروفاً ومن غير الممكن تدبيرها، وحين لا تسمح له جبالها وبحارها ـ والأرواح المصنوعة من هذه الصخور والمياه المالحة ـ أن يستقر في راحة مدبرة حتى لو للحظة، أو أن يحس بالرضى العذب وأن يقول «يكفي!». إن في كريت هذه شيئاً قاسياً بشكل لا إنساني. وأنا لا أعرف ما

Twitter: @ketab_n

إذا كانت تحب أولادها ولذلك فهي تعذبهم. فكل ما أعرفه هو أنها تظل تجلدهم حتى يتدفق الدم منهم.

ذات يوم سئل الشيخ جليلان (ابن هاراسا)(1): «ما الذي يجب أن يفعله العرب لكي يتجنبوا الانهيار؟» فأجاب: «كل شيء سيكون على ما يرام طالما أنهم يُغيرون على خيولهم والسيوف في أيديهم والعمامة على رؤوسهم». وحينما استنشقت الهواء الكريتي وحدقت إلى الكريتيين لم أستطع أن أفكر في أي شعب على الأرض استطاع أن ينفذ هذه الوصية العربية الشامخة بإخلاص أكبر. في أكثر لحظات الحياة حسماً ـ حين يدفع الشاب جانباً بحشد من الاحتمالات المتاحة له ثم يختار واحداً، واحداً فقط، ويربط مصيره به ثم يدخل النضوج ـ في تلك المرحلة قامت ثلاثة أحداث كريتية بإنقاذ (لا لم تنقذ بل حاولت أن تنقذ) روحي. وربما أنها سوف تنقذ أرواحاً أخرى. وهذا ما يغفر لي ذكرها. إنها بسيطة جداً بقشرة فلاحية سميكة. ولكن كل من يستطيع كسر هذه القشرة فإنه سيتذوق ثلاث لقمات من الأدمغة الأسدية الصلبة.

* * *

1) راع من أنوغيا، وهي قرية صخرية قفراء على منحدرات بسيلورتيي. اعتاد هذا الراعي أن يسمع أبناء قريته يحكون غرائب وعجائب عن ميغالو كاسترو. ففي هذه المدينة، كما تقول الروايات، تستطيع أن تجد بضائع العالم كلها. الفول أكوام، وأكياس من سمك القديد المملح، وبراميل عديدة من السردين والرنكة المدخنة. وأكثر من ذلك حوانيت طافحة بالأحذية، وحوانيت أخرى مليئة ببنادق المسكيت للبيع قدر ما تشاء. وبارود وسكاكين جيب وخناجر وحوانيت أخرى أيضا أفرانها تنتج مخبازاً بعد مخباز من الخبز كل صباح، خبز أبيض على شكل أرغفة طويلة رقيقة. وإضافة إلى ذلك، تقول الروايات، هناك في الليل نساء لايقتلنك، كما تفعل الفتيات الكريتيات، إذا لمستهن. ولحمهن أبيض ولذيذ مثل تلك الأرغفة الطويلة الرقيقة.

سال لعاب الراعي، وهو يستمع إلى هذه المعجزات كلها. وصارت ميغالو كاسترو تضيء في خياله على أنها الفردوس الكريتي المليء بسمك القديد والمسكيت والنساء. راح يستمع ويستمع. وفي عصر أحد الأيام كان عاجزاً عن المقاومة أطول من ذلك، فشد كمره بقوة حول خصره. وقذف بكيس الزوادة المطرز على كتفه وأمسك بعصاه. ثم انحدر عن بسيلوريتي.

---

(1) لعل الاسم هو جليلان بن حارثة. ولكنني لم أستطع أن أجد لهذا الاسم ذكراً في المصادر العربية المتوفرة لدي. وقد جاء في لسان العرب: جل وجلان حيان من العرب. ولعل الجملة الأولى من جوابه «كل شيء سيكون على ما يرام»، أن تكون: «لن يصيبهم ضيم..» أو ما شابه ذلك. ولكن الفكرة تظل واضحة، وإن عجزنا عن التثبت من الأصل العربي لها.

Twitter: @ketab_n

وخلال عدة ساعات كان يقف وجهاً لوجه أمام كاسترو. كان الوقت لا يزال نهاراً. وكانت بوابة السور لا تزال مفتوحة. وتوقف الراعي عند القبة. خطوة واحدة ويكون في الفردوس. ولكن بغتة قفزت روحه واقفة. بدا وكأنها تحس بنفسها مخنوقة بالرغبة. إنها لم تعد تفعل ما تشاء. ولم تعد حرة. خجل الكريتي وقطب حاجبيه. يجب أن يدافع عن احترامه لنفسه.

قال: «إذا شئت دخلت. وإذا لم أشأ لم أدخل. لن أدخل». أدار ظهره لميغالو كاسترو وتوجه مرة أخرى إلى الجبل.

2) مات شاب قوي ووسيم في قرية كريتية، في الجبال البيضاء. قام أربعة من خيرة أصدقائه وقالوا: «أفلا نذهب ونسهر على فراش موته لكي نريح النساء من ندبهن؟».

«نعم»، وافق الجميع بأصوات مخنوقة.

لقد كان الشاب الميت أفضل «قبضاي»[2] في القرية، في العشرين من عمره. وقد طعنهم موته في الصميم.

قال أحد الأصدقاء: «لقد جلب لي أحدهم بعض الراكي اليوم. إنه راكي التوت الأسود. وهذا يستطيع حتى أن يُعيد الميت للحياة. ما قولكم يا شباب؟ هل أعبئ زجاجة وآخذها معي؟»

ـ وأمي خبزت اليوم. فهل أجلب رغيفين من خبز الشعير؟

ـ ولقد تبقى لدي بعض سجق الخنزير. فهل أجلب حبلاً منه؟

ـ أما أنا فسأجلب الكؤوس. قال الرابع. وخيارتين طازجتين. أخذ كل منهم زوادته ووضعها تحت سترته الرعوية المصنوعة من صوف الفريز. وحين هبط الليل جاء الأربعة فدخلوا بيت الميت.

كان الميت محاطاً بالحبق والعترة، وممدداً في تابوته على حوامل في وسط المنزل. وكانت قدماه تواجهان الباب[3]. وحوله كانت النسوة يندبنه مغنيات.

قال الأصدقاء، بعد أن حيوهن تحية المساء: «اذهبن أيتها السيدات ونمن قليلاً. نحن سنسهر معه».

انسحبت النسوة إلى غرفة داخلية وأوصدن الأبواب. توجه الأصدقاء إلى المقاعد

---

(2) باليكاري. الكلمة يونانية. وقد شرحها مترجم الكتاب إلى الإنكليزية (ب. أ. بيين) كما يلي: الرجل الحقيقي. شجاع وقوي وقادر على مقاومة الألم. كانت تستخدم أصلاً للجنود المشاة الذين يرافقون الفرسان. وفي ما بعد لأي جندي. أما الآن فتستخدم لوصف أي شاب له مواصفات الجندي. وفي اليونان الآن هي تعبير لا نظير له في المديح. وقدخطر لي أن كلمة «قبضاي» عندنا تفي بهذا الغرض.

(3) عادة يونانية قديمة (موجودة في الإلياذة). فوضع قدمي الميت باتجاه الباب يمنع عودة الروح.

Twitter: @ketab_n

فوضعوا الراكي والمازات عند قدميه وراحوا يحدقون إلى الفقيد بعيون مليئة بالدموع. مرت نصف ساعة ثم ساعة. وأخيراً رفع أحدهم عينيه عن الجثة:

ـ ما قولكم يا شباب؟ هل نشرب؟

أجابوا: طبعاً. نحن لسنا سكرانين. هل سكرنا؟ فلنشرب.

انحنوا وتناولوا الطعام. وأشعل أحدهم ورقة وشوى السجق. وملأت غرفة الميت رائحة لذيذة. عبأوا الكؤوس ولفوها بأكفهم لكي لا تصدر صوتاً وقرعوها بقوة.

«فليسامحه الله. نخب دورنا».

«نخب دورنا. فليسامحه الله».

أفرغوا كأس راكي واثنين وثلاثة. وأكلوا المازة. وأفرغوا الزجاجة. وبدأوا يحسون بالغبطة. نظروا إلى الجثة من جديد. وبغتة قفز أحدهم واقفاً: «ما قولكم يا شباب؟»، ونظر إلى الجثة نظرة جانبية: ألن ندفنه؟

ـ هيا بنا.

رفعوا شراويلهم العريضة الواسعة، ووضعوا نهايتها في أكمارهم لكي لا تعيقهم في الركض. ثم نقلوا التابوت إلى العتبة وفتحوا الباب المؤدي إلى أرض الدار.

ـ بفت!! بفت!! بصقوا في راحاتهم. انطلقوا راكضين وراحوا يدفنون الجثة.

3) وهذا الحدث الأخير:

أحد الفصح، قبل الفجر بقليل. ينطلق الأب كافاتوس بأقصى سرعته من قرية إلى أخرى في جبال كريت ليقيم المسيح بسرعة فائقة. فهناك قرى عديدة وليس لها إلا هذا القس الوحيد. ويجب أن يَتِمَّ القيامة فيها كلها قبل الفجر. كمّاه مرفوعان، وهو مثقل بثوبه الكهنوتي وإنجيله المفضض الثقيل، وهو يتسلق الجبال الصخرية المغطاة بالجولق[4]. ويركض طوال تلك الليلة المقدسة متقطع الأنفاس. يصل إلى قرية ويصرخ: «كريستو أينسني»[5] ـ ثم ينطلق إلى القرية التالية ولسانه متدل من فمه.

في القرية الأخيرة، وهي قرية صغيرة بين جرفين، كان الناس محتشدين في الكنسية الصغيرة. كانوا قد أشعلوا المشاعل وزينوا الأيقونات والحامل بالغار والريحان الذي جلبوه من الوادي. بينما ظلت شموعهم في أيديهم دون إشعال. كانوا بانتظار مجيء (الكلمة العظيمة) لكي يستطيعوا إشعالها.

---

(4) نبات شوكي.

(5) المسيح قام.

Twitter: @ketab_n

في تلك اللحظة سمعوا طقطقة الحصى في الصمت وكأن حصاناً كان يتسلق سفح الجبل والحجارة تتساقط من تحته.

ـ «لقد جاء! لقد جاء!».

انطلق الجميع خارجاً. كان الأفق الشرقي قد صار وردياً. والسموات تضحك. سُمعت أنفاس ثقيلة. وراحت كلاب الرعاة تنبح فرحة. ثم بغتة، ومن وراء سنديانة مائلة ـ بقميص مفتوح الأزرار، وبجسد مبلل بالعرق، وبوجه محمر من الركض، وباستغراق منهك في المسيحات التي أقامها ـ برز الأب كافاتوس العجوز الأسود القزم وشعره المشعث متدل.

كانت الشمس في تلك اللحظة تشرق من طرف الجبل. قفز القس فصار أمام أبناء القرية ومد ذراعيه وصرخ: «كريستوس أينستاكاس يا شباب!». كانت كلمة أنيستي المألوفة المبتذلة قد صارت تبدو له صغيرة ورخيصة وبائسة. إنها عاجزة عن احتواء (النبأ العظيم). فتوسعت الكلمة وتوالدت على شفتي القس.

تراجعت القواعد اللغوية وتحطمت أمام زخم الروح العظيم. وخلقت قواعد جديدة. وهكذا كان! ففي خلق الكلمة الجديدة، هذا الصباح، أحس الكريتي العجوز للمرة الأولى أنه فعلاً يحقق قيامة المسيح ـ المسيح كله وبكل إنش في قامته العظيمة.

* * *

حبك للحرية، ورفضك قبول استعباد الروح حتى مقابل الجنة، وممارستك الألعاب الشجاعة فوق الحب والألم وعليهما، وفوق الموت وعليه، وتحطيمك أقدس الأصنام القديمة حين تعجز عن احتوائك بعد ذلك.. تلك هي صرخات كريت الثلاث العظيمة.

إن ما يملأ الروح بغبطة نقية خالصة، في هذه الحوادث، هو حقيقة أن من يتكلم هنا ليس الفلاسفة والأخلاقيين، أولئك الذين يصنعون نظريات رفيعة صعبة، ويعلنونها من خلال أوقات فراغهم، وبعيداً عن أي خطر. لدينا هنا بدلاً من ذلك أرواح بسيطة، فلاحون كريتيون، يطيعون الدوافع الداخلية فيهم. ومن دون أن تتقطع أنفاسهم يَرْتقون أعلى القمم التي يستطيع أن يصل إليها الإنسان: الحرية واحتقار الموت وخلق القواعد الجديدة. يتكشف أمام عيوننا الأصل الثلاثي النبيل للإنسان، إذ أننا نرى كيف أن هذا الوحش ذا الساقين، في اتباعه طرقاً غير الطرق الذهنية، استطاع أن يصبح إنساناً. وبهذا تصبح رحلتنا إلى الجلجلة الذهنية المصيرية مثقلة أكثر بالمسؤولية؛ لأننا الآن، وبرؤيتنا للكريتيين، نعرف أننا إنْ فشلنا في أن نصبح بشراً فهذا خطؤنا نحن. ونحن فقط. ومن أجل ذلك وجد هذا النوع اللطيف ـ الإنسان ـ وظهر على الأرض. ولم يعد هناك أي مبرر لانحطاطنا وجبننا.

والشخص الذي لا يحاول خداع نفسه أو الآخرين، في كريت، يجد نفسه وجهاً لوجه،

Twitter: @ketab_n

وبدرجة ليست موجودة في أي مكان آخر، أمام الربة ذات الثدي الواحد، الأمازونية(6) التي لا تفضل أحداً ولا تجلس على ركبة أحد من الآلهة أو البشر، الربة: المسؤولية.

* * *

قضيت عدة أيام وأنا أتجول في المخابئ الحبيبة التي قضيت فيها شبابي. مشاوير على شاطئ البحر. في الأمسيات كان النسيم البارد ذاته يهب. ذلك النسيم الذي اعتاد أن يداعب شعري حين كان شعري أسود. والرائحة ذاتها من الياسمين والحبق والعترة كانت تفوح حين أمر في الأزقة الضيقة عند الغسق، والأبواب مفتوحة والفتيات في المنازل يبدأن بسقاية الأصص في الدور.

لقد ظل للنسيم والرائحة العطرية والبحر شباب دائم. البيوت وحدها قد شاخت وكذلك أصدقائي القدامى. كثيرون منهم لم أستطع التعرف إليهم. وكثيرون لم يعرفوني. كانوا يحدقون إلي للحظة. كنت أذكّرهم بشخص ما. ولكن من هو؟ وحين كانوا يتعبون من محاولة التذكر كانوا يعبرون بي. واحد منهم فقط رفع ذراعه مندهشاً حين رآني وتوقف ثم صاح: أهذا أنت يا صديقي القديم؟ انظر إلى نفسك.

ـ ما الذي حدث؟

كان صديقي الحميم السابق، ثالث الجماعة التي أسست جمعية الصداقة. كان يبدو منعماً وغليون فارغ في فمه لكي يستنشق النكهة ويخدع نفسه، فيتوقف عن التدخين. تطلع إلي وتفحصني ثم شدني بقوة بين ذراعيه: كم أصبحت هزيلاً وأسود! إن خديك غائران وجبينك مغطى بالتجاعيد والأخاديد. وقد تكاثف حاجباك مثل الأشواك. بينما عيناك تنفثان النار. ما الذي حدث لك؟ إلى متى ستظل تحترق؟ وإلى متى ستظل تجوب العالم؟

ـ طالما أنا حي.. وحتى أصبح عاجزاً عن التغير فأقف ميتاً منعماً ومعي غليون مطفأ في فمي مستظرفاً العيش.

«أنا عجوز. هل أنا كذلك؟ هل أنا ميت؟»، تساءل صديقي وهو ينفجر في ضحكة مهسهسة ساخرة.

لم أقل شيئاً. لقد ملأني التفكير في صديقي القديم بغتة بالحزن والسخط. كيف أحببته في تلك الأيام من غطرسة الشباب القدسية والمضحكة حين كنا نجوب شوارع كاسترو حتى الفجر. بأية قناعة وبأية قوة كنا ندمر العالم ونعيد بناءه! كانت أسوار مدينتنا الصغيرة تضيق علينا. والأفكار التي نتعلمها من أساتذتنا كانت تضيق علينا. وكنا نجد أنه من المستحيل أن

---

(6) اسم الشعب الأسطوري في مملكة كلها نساء محاربات. وقيل إن النساء فيها يستأصلن الثدي الأيمن لكي يسهل عليهن شد القوس.

Twitter: @ketab_n

نخضع بارتياح داخل متع الإنسان وطموحاته الاعتيادية. وكنا نقول دائماً: «فلنحطم الحدود». ولم نكن نعرف أية حدود هي. كنا نظل نفتح أذرعنا ببساطة وكأننا كنا نختنق. الآن يرخي صديقي ذراعيه إلى جانبه. ولم يعد يواجه مشكلة في التنفس. وإن ظلت لديه أية رغبة مؤلمة، فإنه يجاهد لإغراقها بتدخين غليون دون تبغ.

* * *

«لماذا ذهبت إلى روسيا؟ ما الذي فعلته؟»، هكذا سألني والدي ليلة وصولي. نظر إلي حانقاً وهو لا يستطيع كبح غضبه إلا بالقوة. إنه يتوقع مني، منذ سنوات، أن أفتح مكتباً وأن أبدأ التطواف في القرى لأعمل عراباً للمعمودية والأعراس. سيتزايد أصدقائي وبعدها أعلن ترشيحي وأنتخب للمجلس النيابي. ولكن، بدلاً من ذلك، ها هو ذا يراني الآن أطوف العالم. وأكثر من ذلك فقد نقلت الإشاعات أني قد كتبت كتباً. وآخر مرة رأيته فيها كان قد سألني: أي نوع من الكتب؟ حكايات؟ رسائل عشق؟ أغنيات؟ يا للخجل! الخصيان والرهبان هم وحدهم الذين يكتبون. لتستقر أخيراً في بلدك. أنت رجل. فلتعمل عمل الرجل!

أما الآن فهو ينظر إلي من طرف عينيه ويقول: ربما أنك انقلبت عليّ إلى بلشفيك. هل الأمر هكذا؟ لا رب ولا وطن ولا شرف. تابعوا أيها الكلاب دون سيطرة من أحد عليكم.

قلت لنفسي إن هذا هو الوقت الملائم لشرح ما يحدث في روسيا ونوع العالم الجديد الذي يُبنى. وهكذا بدأت أحكي بكلمات بسيطة كيف أنه لم يعد يوجد في روسيا أغنياء أو فقراء. كل إنسان يعمل وكل إنسان يأكل. ليس هناك أسياد وعبيد الآن. كل إنسان سيد. لقد وُجدت إنسانية جديدة هناك، وأخلاقية أسمى، وشرف أكثر مدعاة للاحترام، وأسرة جديدة. إن روسيا في موقع القيادة. وهي تدل على الطريق. والعالم كله سيتبعها إلى أن تسيطر السعادة والعدالة على العالم.

توترت وبدأت أخطب. وكان والدي يستمع بصمت. وظل يلف لفافته ويفلتها ثم يلفها ويفلتها من جديد دون أن يقرر إشعالها. قلت لنفسي إنه يفهمني والحمد لله. وبغتة رفع ذراعه غاضباً فسكتّ.

قال وهو يهز رأسه: «كل ما تقوله حسن وممتاز. ولكن ماذا يعني إذا كان قد حدث فعلاً؟».

بتعبير آخر: استمر. تحدث وتحدث إذا كنت ترى أن الأمر يستحق. ليس هناك إلا الكلمات ـ الثرثرة ـ إنها لا تؤذي. ولكن انتبه أيها التعيس. إنك لا تحولها إلى فعل.

كم كنت أتمنى لو أنني حولت هذه الكلمات إلى أفعال! ولكنني كنت أخشى أن لا أستطيع. لقد تبخرت من أعماقي قوة شعبي الكبيرة وغرقت سفينة قراصنة جدي. وانحط العمل إلى كلمات. وتحول الدم إلى حبر. وبدلاً من إشهار الرمح وشن الحرب فإنني أمسك

Twitter: @ketab_n

بريشة صغيرة وأكتب. كان الاحتكاك بالناس يزعجني، ويحط من قواي وحبي. وحين أكون وحدي فقط وأتأمل في مصير الإنسان يفيض قلبي بالعطف والأمل.

وبعودتي من المشغل السوفياتي المولد للعالم استجمعت شجاعتي. وقلت لنفسي إن الإنسان يستطيع الآن أن يتغلب على عجزه ونواقصه. ألا يستطيع؟ يستطيع بالتأكيد. فكم هو مخجل لي أن أجلس بهذه السلبية وأتقبل ما منحتني إياه الطبيعة. سوف أتمرد!

وفي اللحظة التي كنت فيها أحتاج إليه تماماً جاء عم غني لي، ومنحني مبلغاً من المال لكي أتوقف عن التطواف دون جدوى حول العالم، كما قال، ولكي أكرس نفسي لعملي بحمية وأفتح مكتب محاماة ثم أُنتخب إلى المجلس النيابي. وربما طُلب إلي ذات يوم أن أترأس وزارة. وبهذا أمجد اسم عائلتي. فأنا، في النهاية، أول واحد من هذه السلالة يصبح متعلماً. وأول من يفتح كتاباً ويقرأ. ولذا فإن علي أن أقوم بهذا الواجب.

قلبت الأمر في عقلي مراراً وتكراراً. لا. لا أزال عاجزاً عن الانغلاق في مكتب. كنت أختنق. سأجد طريقة أخرى لدخول الحياة العملية. أية طريقة؟ لم تكن لدي فكرة. حشدت العمال في خيالي. سنرتبط معاً بعمل. ونأكل الطعام ذاته، ونرتدي الملابس ذاتها التي لي.

بعودتي من روسيا كنت راغباً أيضاً أن أجري هذه المحاولة المصغرة للخروج من برجي العاجي والعمل مع البشر.

وعندها تماماً ـ وكأنما كان القدر راغباً في اللعب ـ تعرفت على عامل مناجم عجوز اسمه ألكسيس زوربا.

Twitter: @ketab_n

29

زوربا

لقد كانت أحلامي وأسفاري هي أهم الأمور المفيدة في حياتي. لم يساعدني في كفاحي إلا القلة من الناس (الأحياء والأموات). ولو أنني حاولت أن أحدد الناس الذين تركوا آثاراً عميقة في نفسي، لحددت هوميروس وبوذا ونيتشه وبيرغسون وزوربا. فالأول، بالنسبة لي، هو العين الأخاذة، مثل قرص الشمس الذي ينير الكون ببهائه الشافي. وبوذا هو العين القاتمة العميقة الغور التي غرق العالم فيها ثم نجا. وساعدني بيرغسون على الخلاص من العديد من الإشكالات الفلسفية التي حيرتني، والتي كانت تقض مضجعي في أيام الشباب. أما نيتشه فقد أغناني بعذابات جديدة، وعلمني كيف أحول الفشل والمرارة والشك إلى كبرياء. أما زوربا فهو الذي علمني أن أحب الحياة، وأن لا أخاف من الموت.

ولو أن سؤال العمر كان مطروحاً أمامي حول اختيار دليل روحي، أو غورو كما يسميه الهندوس، أو أب، كما يسميه كهنة جبل آثوس، فلا شك أنني كنت سأختار زوربا. لأنه كان يتمتع بكل ما يحتاج إليه الموجه للخلاص: النظرة الأولية التي تصل إلى هدفها كالسهم من عل، والانعدام المبدع للفنية، والتجدد كل صباح. الأمر الذي كان يساعده على أن يرى كل شيء باستمرار وكأنه يراه للمرة الأولى، وأن يمنح العذرية إلى العناصر اليومية والأبدية: الهواء والبحر والنار والمرأة والخبز، كما كان يتمتع بيد واثقة وبقلب طازج وعذب. ويتميز أيضاً بالتصدي الجريء الذي يمكنه من إثارة نفسه وكأنما هو في أعماقه يملك قوة أكبر من نفسه. وأخيراً تلك الضحكة الهمجية المفرقعة التي تنبع من الأعماق الغائرة إلى ما هو أعمق من أعماق الإنسان: ضحكة كانت تنفجر منعشة من صدر زوربا العجوز في اللحظات الحرجة. تنفجر وهي تملك القدرة (وتحققها) على تحطيم الحواجز كلها: الأخلاق والدين والوطن، تلك الحواجز التي نصبها الإنسان الجبان التعيس حول نفسه لكي تحيطه بالأمان الكامل عبر حياته البائسة.

وحين أتذكر أي غذاء قدمه المعلمون والكتب، عبر سنوات طويلة، لنفسي الجائعة، ثم

Twitter: @ketab_n

أذكر أي عقل أسديّ صلب منحني زوربا خلال عدة أشهر فقط، عندها أجد صعوبة فائقة في تحمل المرارة والغضب اللذين أحس بهما.

كيف أستطيع تجنب الإثارة التي تفعم القلب كلما تذكرت الكلمات التي قالها لي؟ أو الرقصات التي رقصها أمامي؟ أو(السانتير) الذي كان يعزف لي عليه، ونحن على شواطىء (كريت) حيث قضينا ستة أشهر ونحن نحفر، مع مجموعة من العمال مدّعين أننا سوف نجد الغرانيت؟ كنا وحدنا، ندرك أن هذا الهدف الشكلي ليس إلا غباراً وظيفته أن يضلل أعين الناس. كنا ننتظر بفارغ الصبر أن تغرب الشمس وأن يتوقف العمال عن العمل لكي نستطيع، أنا وزوربا، أن نذهب معاً فنضع طعامنا على الشاطئ ونلتهم وجبتنا الريفية اللذيذة ونحتسي خمرتنا الكريتية. ثم نبدأ الحديث.

نادراً ما كنت أفتح فمي للحديث. إذ ما الذي يستطيع أن يقوله «مثقف» لغول؟ كنت أصغي إليه وهو يحدثني عن قريته الواقعة إلى جانب جبل الأولمب، عن الثلج والذئاب والقديسة صوفيا والفحم والنساء والله والوطنية والموت. وحين تضيق الكلمات عليه ويقترب من الاختناق، كان يقفز على قدميه ويبدأ الرقص على حصى الشاطئ، ممشوقاً بجسد طويل، قوياً منتصباً بعينين مدورتين كعيني الطائر. كان يرقص برأس محني ثم يرتعش ويضرب قدمه الغليظة على الماء فيبلل وجهي بمياه البحر.

ولو أنني استمعت إلى صوته (لم يكن صوتاً بل نداء) لاكتسبت حياتي قيمة فعلية. لكنت تعرفت بدمي ولحمي وعظمي على ما أتخيله الآن كالحشاش ثم أسكبه حبراً على ورق. لكنني لم أجرؤ. كنت أرقب زوربا يرقص ويصهل في أعماق الليل. أسمعه يدعوني أن أقفز بدوري خارجاً من ملاجئ التعقل والتعود، وأن أرحل معه عبر سفر عظيم لا عودة منه. لكنني كنت أبقى في مكاني جالساً مرتجفاً.

كم أحس بالخجل في ما بعد لأنني منعت نفسي فلم أجرؤ على القيام بما كان يدعوني إليه: لضعف السامي (جوهر الحياة).

إلا أنني لم يسبق لي أن شعرت بالخزي الذي كنت أشعر به وأنا أمام زوربا. لقد ذهب مشروع الغرانيت إلى الجحيم. بالضحك واللعب والحكي قمت، وزوربا، بأقصى ما نستطيع لكي نصل إلى الفجيعة. لم نكن نحفر لكي نجد الغرانيت. وكان هذا قناعاً لخداع السذج والمتعقلين. «لكي نمنعهم من إعاقتنا بجذوع الليمون»، كما كان يقول زوربا دائماً وهو ينفجر ضاحكاً. «أما بالنسبة لنا يا ريّس ـ اعتاد أن يدعوني هكذا وهو يضحك ـ فإن لدينا أهدافاً أخرى: أهدافاً عظيمة».

وما هي هذه الأهداف يا زوربا؟

ـ يبدو أننا نحفر لكي نكتشف أية شياطين تختبئ في أعماقنا.

Twitter: @ketab_n

في أقل ما يمكن من الوقت استطعنا تبديد ما زودني به عمي لكي أفتح به مكتباً (كما كان مفترضاً). طردْنا العمال. وشوينا خروفاً. ثم عبأنا برميلاً صغيراً من النبيذ. وبعد ذلك مددنا مائدتنا قرب الماء. وأمام موقع المقلع بدأنا نأكل ونشرب. وتناول زوربا (السانتير)، وبحنجرته العجوز التي أعطاها مداها، بدأ بـ «أمانيه». أكلنا وشربنا. لم يسبق أن كانت معنوياتي عالية مثلما كانت في ذلك الحين.

وهتفنا معاً: «غفر اللّه للأعزاء الراحلين. غفر اللّه لمشروعنا المرحوم. ولتعش أنفسنا. وليذهب الغرانيت إلى الشيطان».

وافترقنا عند الفجر.

عدت إلى الورق والحبر مرة أخرى وفي أعماقي ندبة لا تشفى، في مكان لا أعرف أين هو فأسميه الروح.

اتجه زوربا شمالاً واستقر في الصرب قرب (سكوبجي) حيث يبدو أنه استطاع اكتشاف عرق من المنغنيز. جمع حول إصبعه الصغيرة عدداً من الأثرياء، فاشترى أدوات عمل واستأجر عمالاً ثم بدأ يفتح أنفاقاً جديدة في الأرض. نسف الصخور بالديناميت وشق طرقاً ونقل الماء وبنى بيتاً. وبما أنه كان عجوزاً مليئاً بالحيوية فقد تزوج أرملة جميلة تحب المرح اسمها «ليوبا»، ورزق منها بطفل.

وذات يوم تلقيت برقية: «وجدت حجراً أخضر على غاية من الجمال. تعال فوراً. زوربا».

كان هذا في الفترة التي بدأت ضوضاء الحرب العالمية الثانية تصل إلى الأسماع، منذرة بعاصفة هوجاء ستجتاح الأرض كلها. وكان ملايين من الناس يرتعدون وهم يرقبون نذر المجاعات والمذابح والجنون. لقد استفاقت في الناس شياطينهم كلها. وكلها كانت متعطشة للدماء.

في تلك الأيام العصيبة تلقيت برقية زوربا. وقد أغضبتني في البدء. العالم على أبواب الفناء. الشرف وروح الإنسان والحياة ذاتها في خطر. ومن هذا كله أمامي برقية تطلب مني أن أنطلق في رحلة ألف ميل للتفرج على حجر أخضر جميل. اللعنة على الجمال (قلت لنفسي). هذا أمر لا يدل على وجود قلب متعاطف مع الآخرين، ولا يدل إلا على استهتار بآلام البشر.

لكنني، بغتة، أحسست بالخوف. لقد تلاشى غضبي. وتبقى لدي ذلك الإحساس الرهيب بأن نداء زوربا اللاإنساني هذا يتواصل مع نداء لا إنساني آخر في أعماقي. وبدأ صقر متوحش يضرب بجانحيه في داخلي ويدفع بي إلى الرحيل.

لكنني لم أفعل. مرة أخرى لم أجرؤ. لم أقم بالرحلة. ولم ألبِّ النداء الداخلي

Twitter: @ketab_n

المتوحش القدسي: لم أنجز ذلك العمل العفوي المجيد. بل استمعت للصوت الإنساني البارد النابع من العقل. فتناولت قلمي وكتبت أشرح لزوربا.

وأجابني كما يلي: «سامحني لاقتراحي يا ريس. أنت لست أكثر من حامل قلم. كانت أمامك فرصة العمر لكي ترى حجراً أخضر جميلاً. .لكن لم تره. أقسم باللّه أنني أحيانا، حين لا يكون لدي ما أفعله، أجلس وأسأل نفسي: أهناك جهنم أم لا؟ لكنني البارحة، حين استلمت رسالتك، قلت لنفسي لا بد من وجود جهنم لاستقبال حملة الأقلام».

ومرت السنوات طويلة. سنوات رهيبة جمع فيها الزمن طاقاته وجن جنونه. تلك السنوات التي تتراقص فيها الحدود الجغرافية وتتمدد فيها الدول وتتصادم مثل الأوكورديون.

انقطع الاتصال بيني وبين زوربا في هذه العاصفة. لكنني بين حين وآخر كنت أتلقى بطاقة موجزة منه: «لم أزل حياً. البرد قارس هنا بشكل جنوني ولذا تزوجت. اقلب البطاقة لترى وجهها الصغير. قطعة ممتازة أليس كذلك؟ إن بطنها منتفخ قليلاً لأنها تعد لي فيه زوربا داكي صغيراً. اسمها ليوبا. والمعطف المصنوع من جلد الثعالب الذي أرتديه هو من مهر زوجتي. سلالة غريبة هؤلاء النساء. لقد أعطتني، أيضاً، سلسلة فيها سبعة خنازير. حبي وقبلاتي. ألكسي زوربا: الأرمل سابقاً».

ومرة أخرى أرسل لي قبعة مزركشة كانت تحتوي على جرس في رأسها. «البسها يا ريس حين تكتب الهراء الذي تكتبه. إنني ألبس قبعة مشابهة حين أعمل. والناس يضحكون مني ويسألونني: هل أنت مجنون يا زوربا؟ لماذا تحمل هذا الجرس؟ لكنني أرفض أن أجيبهم. نحن، كلانا فقط، نعرف لماذا نلبس الجرس يا ريس».

في ذلك الحين كنت قد قيدت نفسي، مرة أخرى، إلى الورق والحبر. لقد جاء لقائي بزوربا متأخراً. ففي مسألة كهذه لم يكن لي أي خلاص. لقد انحدرت إلى حامل قلم لا شفاء له.

بدأت أكتب. ومهما كان الشيء الذي أكتبه ـ قصائد أم مسرحيات أم روايات ـ فقد كان العمل يتطلب دائماً، دون جهد واع من قبلي، حمية واندفاعاً ممتلئَين بالقوى المتنازعة وبالكفاح والغضب والثورة والبحث عن التوازن المفقود، ممتلئَين بالنذر وبالشرارات التي تأتي من العاصفة المُقبلة. ومهما كان كفاحي للوصول إلى شكل لما أكتبه فقد كان يأخذ إيقاعاً متوازناً وقوياً. ورغم نواياي فإن الصوت المسالم الذي كنت أرغب في إطلاقه كان يتحول إلى نداء صارخ. ولهذا كنت أستمر في إنجاز عمل ما وأنا أكتشف أنه لا يخفف عني العبء، ثم أنتقل إلى عمل آخر آملاً باستمرار في أنني سوف أكون قادراً على تحقيق التوافق بين القوى القاتمة والقوى المضيئة التي كانت في ذلك الحين في حالة صراع. وكانت تتخذ الشكل الذي يلائمها لتحقيق التوازن في ما بينها.

Twitter: @ketab_n

فالشكل الدرامي يجعل من الممكن للأدب المبدع أن يؤطّر القوى الجامحة في عصرنا وفي أنفسنا، وذلك بتجسيدها من خلال أبطال العمل الأدبي. ولقد حاولت بقدر ما استطعت من إخلاص ودقة أن أقدم خبرتي بهذا العصر الهام الذي صدف أنني ولدت فيه.

لدى الصينيين شتيمة غريبة: «ألعنك، وأدعو أن تولد في عصر هام». ولقد ولدنا في عصر هام مليء بالتجارب المتكررة والمخاطرات والاصطدامات: ليس فقط بين الفضائل والرذائل كما كان الأمر في الماضي، بل ـ وهذا هو الجانب المأساوي ـ بين الفضائل ذاتها. فالفضائل القديمة المعترف بها أخذت تفقد سلطتها، منذ أن عجزت عن تلبية المتطلبات الدينية والخلقية والثقافية والاجتماعية التي تطمح إليها النفس المعاصرة. يبدو أن نفس الإنسان قد كبرت. ولم تعد قادرة على التواؤم مع الأنماط القديمة.

إن حرباً أهلية ضارية قد نشبت بين مقومات عصرنا. وقد نشبت، بوعي أو بلا وعي، بين مقومات كل إنسان في مواجهة عصره: حر ب أهلية بين الأسطورة القديمة ـ التي كان لها السلطة المطلقة بعد أن تلاشت قواها. إلا أنها تقاتل بضراوة للاحتفاظ بسيطرتها على حياتنا وبدورها في تنظيم هذه الحياة ـ وبين الأسطورة الجديدة التي تكافح، ولا تزال تكافح بعفوية ودون تنظيم، للتحكم بنا. وهذا ما يجعل كل إنسان حي إنساناً معذباً بفعل هذا المصير الدرامي لزمانه. والفنان المبدع قبل ذلك كله.

هناك بعض الشفاه أو رؤوس الأصابع التي تحس بوخز خاص عند اقتراب العاصفة، كما لو أنها تتعرض لوخز آلاف الإبر. وشفتا المبدع ورؤوس أصابعه من هذا النوع. وحين يتحدث المبدع بهذه الثقة عن العاصفة التي تندفع نحونا فإن الذي يتحدث ليس خياله، بل شفتاه وأصابعه التي بدأت تتلقى الشرارات الأولى من العاصفة.

علينا أن نتواءم، ببطولة، مع فكرة أن السلام والفرح وما يسمى بالسعادة، أمور تعود إلى عصور أخرى: في الماضي أو في المستقبل ولكنها ليست في عصرنا. لقد دخل عصرنا، منذ أمد طويل، مدار العذاب.

وبوضع صيغة لهذا العذاب كنت أكافح بجهد واضح لتجاوزه ولإيجاد (أو خلق) شكل للخلاص. وفي كل ما كتبت كنت أفرش الأرضية من الأساطير أو العصور القديمة إلا أن المادة كانت حديثة وحية وتعاني من مشاكل معاصرة ومن عذابات أيامنا.

لكن هذه العذابات لم تقلقني أو تشغلني بالقدر الذي كانت تؤرقني فيه تلك الآمال المتذبذبة وغير المحددة بعد، والتي كنت أحاول أن أثبت ملامحها. إنها الآمال العظيمة التي تمكننا من الوقوف بثبات ومن التحديق بثقة إلى الأمام عبر العاصفة، إلى مصير الإنسان.

وليس إنسان العصر الحالي، بحالته المنفلشة، ما كان يثير اهتمامي وقلقي، بل ـ وهذا قبل أي شيء آخر ـ إنسان المستقبل في حالة التكون المنظم والواعد.

Twitter: @ketab_n

وكنت أرى، دائماً، أن فنان اليوم المبدع إذا قام بالتعبير عن أعمق توجساته الداخلية تعبيراً صادقاً ومتكاملاً فإنه، بعمله هذا، يساعد إنسان المستقبل على أن يولد قبل ساعة من موعده وأن يكون هذا الإنسان أكثر قرباً من الكمال.

لهذا ظللت، بوضوح متزايد، أقدس مسؤولية الفنان المبدع. وكنت أقول لنفسي إن الحقيقة لا توجد مستقلة عن الإنسان كاملة وجاهزة. بل تأتي بالتعاون مع الإنسان وبفضل مشاركته. وهذه الحقيقة نسبية حسب قيمة الإنسان.

وحين تفتح، بالكتابة أو بالعمل، مجرى نهر، فإن الحقيقة تجري فيه وتتخذ مساراً لم تكن لتتخذه لولا تدخلنا ومساهمتنا. ونحن بالطبع لا نتحمل المسؤولية كاملة. إلا أننا، بالتأكيد، نتحمل قسطاً كبيراً من هذه المسؤولية.

ربما كانت الكتابة لعباً في عصور أخرى: أيام التوازن والانسجام. لكنها اليوم مهمة جسيمة. لم يعد الغرض منها تسلية العقول بالقصص الخرافية أو مساعدة هذه العقول على النسيان. بل الغرض منها تحقيق حالة من التوحد بين كافة القوى الوضاءة التي لا تزال قادرة على الحياة حتى أيامنا الانتقالية هذه.. والغرض، أيضا، تحريض الإنسان على بذل قصارى جهوده، لتجاوز الوحش الكامن في أعماقه.

إن أبطال المآسي اليونانية القديمة لم يكونوا أكثر من أعضاء أدونيس المبعثرة، وهي تصطدم فيما بينها. وكان اصطدامها يحدث لأنها أجزاء. لا يعبر كل منها إلا عن جزء من الألوهية. بمعنى أن أياً منها لم يكن إلهاً متكاملاً. وكان أدونيس، الإله المتكامل، يقف غير مرئي في جوهر المأساة متحكماً في ميلاد القصة وتطورها ولحظة الذروة والتطهير (الكاثارسيس) فيها. وكانت أعضاء الإله المبعثرة، بالنسبة للمتفرج البدائي، على الرغم من أنها تتصارع فيما بينها، إلا أنها كانت، في السر، متوحدة ومتصالحة في أعماق هذا المتفرج. فهو يعرف أن هذه الأعضاء تشكل جسد الإله المتكامل، وأنها، فيما بينها، منسجمة انسجاماً حقيقياً.

وهكذا كنت أرى دائماً الطريقة الوحيدة التي يظهر من خلالها توافق المستقبل وانسجامه من خلال مأساة الحاضر، هذا التوافق الذي يرتفع على عداء اليوم وصدامه، متكاملاً وسط الأبطال المجزئين المتعادين.

إنها مهمة صعبة جداً. بل ربما كانت غير ممكنة التحقق بعد. إننا نرى أنفسنا في لحظة من الانهيار الكوني والخلق الكوني. وفي لحظة من هذا النوع لا يقدر لأعظم الجهود الفردية إلا الإجهاض والإحباط. لكن هذه الإجهاضات ذاتها تحمل خصبها. إن لم يكن لنا، فللآتين بالتأكيد. إنها تفتح الطريق وتعين المستقبل على أن يسلك هذا الطريق.

هذه المسؤولية الرهيبة لم تكن تبرح ذهني، وأنا أكتب محاطاً بسلام العائلة وغارقاً في

Twitter: @ketab_n

حميتي للكتابة. وفي البدء كانت الكلمة فعلاً. قبل العمل. الابن. الابن فقط، ابن الله. الكلمة المنوية الجوهرية التي تخلق العالم المرئي والعالم اللامرئي معاً.

بالتدريج، وبمزيد من الحماس، وجدت نفسي غارقاً في الحبر. وراحت ظلال كبيرة تحوم حول قلبي باحثة عن فرصة لشرب الدم الحار الذي كان سيعيدها إلى الحياة ـ جوليان الخائن، تيسيفروس فوكاس، كونستانتين باليلوغوس وبروميثيوس. نفوس عظيمة معذبة واجهت العناء والحب في حياتها ووقفت ضد الله والقدر بصلابة. ولقد كافحت طويلاً لكي أقتلع هذه الأرواح من العالم الآخر من أجل تمجيد معاناتها ونضالها ـ معاناة الإنسان ونضاله ـ وتبريرها أمام الأحياء. من أجل أن أستمد، لنفسي، الشجاعة.

كنت أعرف أن ما أكتبه لن يكون كاملاً من الوجهة الفنية؛ ذلك لأنني كنت أتعمد تخطي حدود الفن. وبهذا فإن الهارموني ـ جوهر الجمال ـ قد تحطم.

وكلما كتبت أكثر، تعمق إحساسي أنني بالكتابة كنت أكافح ليس من أجل الجمال، بل من أجل الخلاص. وعلى عكس الكاتب الحقيقي لم أستطع أن أتمتع من خلال ابتكار عبارة جميلة أو قافية ذات إيقاع. كنت إنساناً يكافح متألماً، إنساناً يبحث عن الخلاص. كنت أريد الخلاص من عتمتي الداخلية العميقة وتحويلها إلى نور. كنت أريد الخلاص من الأسلاف الذين يزأرون في أعماقي وتحويلهم إلى كائنات حية. وهذا هو السبب الذي كان يدعوني إلى إثارة العظماء الذي نجحوا في عبور أقسى الامتحانات وأصعبها. وكنت أطمح إلى استقاء الشجاعة من خلال رؤية قدرة النفس الإنسانية على الانتصار على أي شيء. كان هذا ما رأيته وما عرفته: المعركة الأبدية ذاتها، التي نشبت أمام عيني منذ أن كنت طفلاً، لا تزال مضطرمة دون انقطاع في أعماقي ومضطرمة أيضاً في العالم الخارجي. كانت المعركة تشكل الدافع الذي لا يهدأ لحياتي كلها. وهذا ما يجعل هذين المتصارعين، وهما وحدهما، طرفي الصراع في كافة أعمالي. وإذا كنت أكتب، فلأن كتابتي، للأسف، كانت سندي الوحيد في كفاحي. كريت وتركيا، الخير والشر، النور والعتمة، كان بين كل منهما والآخر صراع لا ينقطع في أعماقي. وكان غرضي من الكتابة، الغرض الذي لم أكن أعيه في البدء ثم صرت أعيه، هو أن أقدم العون إلى كريت والخير والنور لكسب المعركة. لم يكن هدفي من الكتابة الوصول إلى الجمال بل إلى الخلاص.

لقد صدف أني ولدت في عصر كان فيه هذا الصراع حاداً، وكانت الحاجة لتقديم العون ملحة إلى درجة أنني سرعان ما استطعت أن أرى العلاقة الوثيقة بين كفاحي الشخصي، والكفاح في العالم المعاصر. كنا متشابهين في معركتينا نحو الخلاص، خلاصي من أسلافي المعتمين، وخلاص العالم من العالم القديم الغاشم، خلاصنا من العتم.

أعلنت الحرب العالمية الثانية، وجن جنون الأرض بأسرها. إنني أرى الآن أن لكل عصر شيطانه. وهذا الشيطان هو الذي يحكم وليس نحن. وشيطان عصرنا من ذلك النوع

Twitter: @ketab_n

المتعطش للدماء، كما هو الحال دائماً حين يتعفن العالم ويصبح من الواجب أن يزول. يبدو أن هناك عقلاً لا إنسانياً، عقلاً علوياً، يساعد الروح على تخليص نفسها من الإنسان المتفسخ ثم الانطلاق صُعُداً. وحين ترى الروح أن العالم يمشي أمامها ويسد عليها الطريق فإنها تطلق ذلك الشيطان المتعطش للدم لكي يفني هذا العالم ويفتح لها الطريق، الطريق الدموي، بحيث تستطيع أن تمر بسلام.

ولقد كنت أرى العالم من حولي وأسمعه وهو يفنى. وكان كل إنسان يراه وهو يفنى. ولقد حاولت النفوس النقية أن تقاوم. لكن الشيطان نفخ عليها وأفقدها أجنحتها.

مضيت، مرة أخرى، إلى جبال كريت حين أعلنت الحرب. مضيت، وأنا أعرف أنني هناك فقط أستطيع أن ألتقي، ليس بالسلام أو بالعزاء، بل بالكبرياء التي يحتاج إليها المرء في اللحظات العصيبة لكي تبقيه ذا قيمة وشأن. ورأيت ذات مرة داعية عجوزاً يجلس أمام الكنيسة في يوم أحد بعد الصلاة وهو يعظ الشباب ليبث فيهم الشجاعة: «حدقوا في الخوف. في عينيه تماماً إذا استطعتم. وعندها فإن الخوف سوف يخاف. ويولي هارباً». هيأت أمتعتي، وحملت حقيبتي على كتفي، وتوجهت نحو الجبال. كان ذلك في الوقت الذي كان الألمان يقتحمون فيه النرويج ويحاولون إخضاعها.

وذات يوم عند الظهيرة سمعت صوتاً فظاً يناديني بينما كنت أجتاز سفوح بسيلوريتي: هيه. يا جار. انتظر لحظة. أريد أن أسألك عن أمر.

رفعت رأسي، فرأيت رجلاً يخرج من تحت صخرة ويتجه إلي هابطاً. كان ينزل بخطوات عملاقة من صخرة إلى صخرة. وكانت الحجارة تتدحرج تحت قدميه. وصدر عن ذلك هدير عظيم. فبدا كأن الجبل كله يتحرك وينزل معه. واستطعت أن أرى أنه كان راعياً عجوزاً عملاقاً. وقفت أنتظره. ما الذي يمكن أن يريده مني؟ سألت نفسي: وفيم هذه اللهفة كلها؟

اقترب مني ووقف على صخرة. كان صدره العاري يلهث ويتعرق: ياجار. كيف تسير الأمور في النرويج؟ سألني بنفسٍ يقطعه اللهاث.

لقد سمع أن بلاداً ما تعيش في خطر الاستعباد. ولاشك أنه لا يعرف ما هي النرويج أو أين تقع أو أي نوع من البشر يعيش فيها. الشي الوحيد الذي كان يفهمه بوضوح هو أن الحرية في خطر.

أجبته: يا جدي. الأمور تتحسن. لا داعي لأن تقلق.

ـ الحمد لله. زأر الراعي العجوز وهو يرسم علامة الصليب.

سألته: أتريد سيجارة؟

ـ لا. ماذا أريد من السيجارة؟ أنا لا أريد شيئاً. طالما أن النرويج على ما يرام فهذا يكفيني.

Twitter: @ketab_n

وما إن أنهى كلامه حتى لوح بعصاه وقفل صاعداً للبحث عن قطيعه.

لا شك أن الهواء اليوناني مقدس. ولا شك أن الحرية قد ولدت هنا. هكذا رحت أقول لنفسي. ولا أعرف إن كان هناك امتحان لأية أرض مجهولة وبعيدة تكافح من أجل حريتها يمكن أن يؤثر بهذا الحجم من العذاب والقلق على أي فلاح أو راع آخر في العالم. لقد أصبح نضال النرويج هو نضال هذا الراعي اليوناني ذاته، ذلك أن الحرية بالنسبة إليه مثل ابنته.

ولهذا رحت أجري هذا التحول الجريء في واجبي، فيما كنت أكتب في هدوء البيت، محاولاً أن أساهم بدوري في هذه المعركة الخالدة. لكنني بين حين وآخر كنت أهجر القلم والورق لأتجول في الطريق المحاط بالزيتون والكرمة الذي يؤدي إلى كنوسوس. وحين تبدت هذه المعجزة الكريتية المفاجئة كما يتفجر الربيع من الأرض، وحين طالعتني الطرق الصخرية المتدرجة والأعمدة والباحات واللوحات، سيطر علي سرور وأسى، يعجز التعبير عنهما. لهذا العالم الاستثنائي المتلاشي، ولمصير كل مأثرة إنسانية: أن تشق لنفسها مكاناً في النور لثانية واحدة، ثم تنغمر بالفناء إلى الأبد. وإلى درجة أنني أعدت في خيالي بناء القصر الملكي وهو يستحم مرة أخرى بنور الشمس، وصراع الثيران والنساء ذوات النهود البارزة العارية والشفاه المزينة والجدائل المجعدة.. كلها عادت إلى الحياة مرة أخرى على بقايا الجدران المتهدمة، وإلى درجة أن يوم القيامة ذاته تبدى لي. ونهض من التراب أسلاف مجهولون من أعماق العصور. رجال صامتون ومرحون ودهاة، ونساء يرتدين تنورات تزينها نجوم السماء ونجوم البحر، وزهور من الأرض، وأفاعي اللّه السامة تتلوى على أذرعهن.

إلا أنني، ذات يوم، وبينما كنت أسير على ذلك الطريق المظلل بالخضرة، وصلت إلى هضبة القيامة ورحت أتمشى ساعات بين المعجزات المتناثرة. يومها لوحة محددة بينها كلها هزتني أكثر من البقية. وكأنني كنت أراها للمرة الأولى. لا شك أن هذه اللوحة قد تواصلت مع الاهتمامات والآمال الحالية التي كانت تشغلني. وكان ذلك هو السبب الذي مكنني من فهم معناها المخبوء في ذلك اليوم للمرة الأولى. أسماك متعددة تبرعط في الماء بذيولها المشرعة؛ بينما سمكة طائرة من بينها نشرت زعانفها وقفزت خارجة من ماء البحر لكي تتنفس الهواء. كانت بطبيعتها السمكية أكبر بكثير من أن تعيش عمرها كله في الماء. تاقت لأن تتخطى قدرها، وأن تتنفس الهواء النقي، وأن تصبح عصفوراً ولو لوهلة، وبقدر ما تستطيع الاحتمال. لكن هذا كان كافياً. هذه الوهلة هي الأبدية: وذلك هو معنى الأبدية.

لقد شعرت بعناء عظيم ومشاعر أخرى وأنا أحدق إلى هذه السمكة الطائرة، كما لو أنني كنت أرى روحي على هذه اللوحة الجدارية التي ترجع إلى آلاف السنين. وتمتمت هامساً لنفسي: «هذه سمكة كريت المقدسة. السمكة التي تقفز لكي تتجاوز الضرورة وتتنفس الحرية». ألم يبحث المسيح عن الشيء ذاته؟ ألم يحاول أن يتخطى قدر الإنسان ويوحد نفسه

Twitter: @ketab_n

باللّه أو بالحرية المطلقة؟ ألا تبحث نفسي مكافحة عن الشيء ذاته: تحطيم الحواجز والحدود؟ يا للحظ السعيد أن تكون كريت، ربما، أول مكان على الأرض يرى ميلاد هذا الرمز المتعلق بالنفس التي تكافح وتموت من أجل الحرية. السمكة الطائرة ـ تطلع إلى الروح المكافحة أيها الإنسان المستعصي!

راقبت السمكة الطائرة وهي تغامر بقفزتها المصيرية خارج الماء. وراقبت المرأة والرجل النحيلين، ضيقي الخصرين، وهما يلعبان سعيدين مع الثور على الحلبات المرصوفة بالحجارة. راقبت اللبوة التي تنام بسلام بين أزهار الليلك وجاهدت لكشف معانيها الغامضة. ما مصدر هذه الغبطة وهذه الفروسية؟ أية صلاة كانت تؤديها المرأة بذراعيها؟ ولمن؟ بذراعيها المزدوجتين مع الأفاعي؟

هذا الظمأ اللامتناهي للحياة، وهذه البسمة الجسور في البطولة ومواجهة الخطر والموت. هذا كله أيقظ فيّ التحدي المتلائم مع أرواح الأجداد لمواجهةٍ طالما تقت إليها مع الموت. الثور والرجل، الموت والروح. كل منهما صار صديق الآخر. كل منهما عارٍ. كل منهما كالرياضي، مدهون بزيت فواح. يلعبان ساعة وساعتين حتى تغيب الشمس. ولأنني كنت مستثاراً ومضطرباً خطر لي أنه هنا، في لحظة المواجهة هذه بين كريت والهاوية، يكمن سر كريت. علي أن أكشف عن هذا السر.

وشحب المسيح وبوذا ولينين في أعماقي. لقد جرفتني تربة كريت. ودون أن ألتفت، رفعت عيني للتحديق بتروٍّ ورهبة إلى قمة لا مرئية، لا تزال تحف بها اليوم، قمة سيناء التي تجلى فوقها الله. وحيث حقق اللّه مشيئته وهو مسلح بالصواعق والوصايا (كما يقول لي قلبي).

أحسست بقوة جديدة وبمسؤولية جديدة تملأ عروقي. وبدا أن روحي تغتني بالتراب الكريتي، وأنها عجينة مؤلفة من دموع وضحكات عمرها عصور. ومرة أخرى أدركت الحدة والثقة الداخلية التي تتواصل بها التربة الكريتية مع النفس. ولاشك أن لدى الزهرة، بالطريقة ذاتها، ذلك الوعي الداخلي بالطين الذي يبدأ من جذورها ثم يتحول إلى عبير وألوان.

رأيت روحي تتمدد في دمي كتميمة كريتية. وكان لها شكل شراع مثلث الحوافي. كانت تعيش العصور ذاتها، المخاوف والأفراح ذاتها، وهي تمر بين القارات الثلاث ـ والرياح العنيفة الخصبة الثلاث ـ لآسيا القدسية وأفريقيا اللاهبة وأوروبا العاقلة. وتيقظ التوق الواعي ـ أو اللاواعي ـ الذي كنت أكنه منذ سنين. وأصبح أكثر تحكماً في أعماقي. التوق للتوفيق بين هذه الرغبات الثلاث للوصول إلى المأثرة العظمى: التركيب، المونادا المقدسة المثلثة العناصر.

وفي أعماقي تحول الثالوث المقدس، الرمز الديني المعروف عالمياً، إلى مستوى آخر

Twitter: @ketab_n

أقل رمزية. لقد أصبح واقعاً محرقاً مهيباً، وواجباً علوياً حتمياً. وفي لحظة من النشوة أقسمت بيني وبين نفسي: «هذا أو لا شيء». وهذا الثالوث لم يأتني جاهزاً بأمر علوي. لقد خلقته بنفسي. هذا واجبي. هذا ولا شيء غيره.

وقلت لنفسي إن كريت لم تكن واقعة عبثاً في وسط هذه الأنفاس الثلاثة. وليس عبثاً أن روحي أخذت شكل كريت ومصيرها. كان واجبي أن أتلقى نداء كريت عبر العصور بشعبها وبجبالها وبالبحار المحيطة بها، بجسدها وروحها وبساعات نومها ويقظتها.

أن أتلقى ذلك كله وأحوّله إلى رسالة واحدة. ألم أكن ابنها؟ ألست من ترابها؟ أليست هي التي وجهتني لاكتشاف المعاني الكامنة في كفاحها، والسبب الذي كان وراء ندائها المتواصل عبر العصور، والأمر الذي كانت تريد أن توصله إلى النسل البشري؟

عدت إلى بيتي. متى أجتاز غابات الزيتون وكروم العنب؟ متى أدخل ميغالو كاسترو وأصل إلى البيت؟ لم أر شيئاً. ظلت السمكة الطائرة تقفز أمام عيني. وخطر لي: كم بودي لو أصور نفساً قادرة على أن تقفز وتحطم الحدود البشرية ولو لثانية، قادرة على التخلص من الضرورة ولو لثانية، أن تهجر المتع والأحزان والأفكار والآلهة، وأن تتنفس الهواء النقي الذي لم يمس أرضاً ولم يمسسه بشر.

كانت هناك رسالة وعليها إشارة عزاء تنتظرني. وكانت تحمل ختم الصرب. فهمت. أمسكت بها بين يدي المرتعشتين. لم أفتحها؟ أدركت النبأ الأليم فوراً. لقد مات. لقد مات. تمتمت لنفسي بهذه الكلمات، وأظلم العالم.

رحت أحدق فترة طويلة عبر النافذة، وأنا أراقب هبوط الليل. كان يجب أن أسقي أصص الحديقة هذا المساء. فالتربة مشققة. وأظهر نجم المساء نفسه من بين الأغصان الشائكة لشجرة الأكاسيا كقطرة من الندى. كان المساء لطيفاً. والحياة تبدو حلوة. ونسيت، لوهلة، الرسالة المؤلمة التي أمسك بها بين يدي.

وأدركت، بغتة، أنني في محاولتي لتأمل جمال العالم كنت أحاول أن أنسى الموت. أحسست بالخجل. فتحت المظروف بحركة عنيفة. وتراقصت الحروف أمام عيني. ثم تركزت تدريجياً حتى أصبحت قادراً على القراءة:

«أنا أستاذ القرية. وإنني أكتب لأخبرك بالنبأ المؤسف. وهو أن ألكسي زوربا، الذي كان يدير منجم منغنيز هنا، قد توفي يوم الأحد الماضي في الساعة السادسة مساء. دعاني في نزعه الأخير وقال لي: تعال قربي يا أستاذ. لدي صديق في اليونان. حين أموت اكتب له وأخبره بموتي. وبأنني ظللت مالكاً لقواي العقلية حتى النهاية. وأنني كنت أفكر فيه. وأنني مهما كان ما فعلته فإنني لست آسفاً على شيء. قل له إنني أرجو له الخير وإنه قد حان الوقت له أن يضع عقله في رأسه. وإذا جاء أي قس ليستمع إلى اعترافي ويمنحني الغفران قل لذاك القس

Twitter: @ketab_n

إنه يستطيع أن يكون فريد زمانه، ويستطيع أن يمنحني لعنته! لقد فعلت هذا الشيء أو ذاك وأشياء أخرى في حياتي. لكنني لم أفعل إلا القليل. الناس الذين يشبهونني يجب أن يعيشوا ألف سنة. عمت مساء».

أغمضت عيني، وأحسست بالدموع تتدحرج بطيئة ودافئة على خدي. «مات. مات». ورحت أتمتم لنفسي: راح زوربا. راح إلى الأبد. ماتت الضحكة. وانقطعت الأغنية. وتحطم السانتير. وتوقفت الرقصة على حصى الشاطئ. والفم الذي كان لا يهدأ عن طرح الأسئلة أصبح الآن مليئاً بالتراب. ولن توجد أبداً بعد اليوم يد تلاطف الحجارة والبحر والخبز والنساء.

واستطردت بعيداً. لا بفعل الحزن، بل بتأثير الغضب: «ظلم. ظلم». ورحت أصرخ: أرواح كهذه يجب أن لا تموت. هل في وسع الأرض والماء والنار والحظ أن تعيد تشكيل زوربا آخر؟

وعلى الرغم من أنني لم أكن قد تلقيت منه أخباراً منذ أشهر عديدة. فإنني لم أكن أقلق. كما لو أني كنت أعتقد أنه خالد.

وسألت نفسي: كيف يمكن لنبع كهذا أن ينضب؟ وكيف يستطيع كيرون أن يجبر روحاً مشاكسة كهذه على أن تعض التراب؟ ألم يجد في آخر لحظة ضحكة ما أو رقصة ما أو أية مناورة يخدع بها كيرون ويهرب منه؟

لم أستطع أن أغمض عيني طوال الليل. وراحت الذكريات تتلاحق. كل منها تزحم الأخرى. فيتصاعد القلق والإعياء إلى رأسي، كأنما في محاولة لتجميع زوربا من جديد من الهواء والتراب والحفاظ عليه من الضياع. حتى أصغر الحوادث المتعلقة به بدأت تتوهج وتتسارع وتزداد مكانتها في الذاكرة مثل سمكة ملونة في محيط شفاف تخترقه أضواء الصيف. لم يمت منه شيء في أعماقي. وبدا كما لو أن كل شيء لمسه زوربا قد أصبح خالداً.

طوال الليل ظللت أفكر. ماذا أستطيع أن أفعل لكي أطرد الموت ـ موته ـ مني؟

وانفتح الباب في أعماقي. وتقافزت منه الذكريات تدعو إحداها الأخرى مسرعة كي تغفو على قلبي. وبدأت تحرك شفاهها لتدعوني أن أجمع زوربا من التراب والبحر والهواء وأن أعيده للحياة. ألم يكن هذا واجب القلب؟ ألم يخلق الله القلب لهذا الغرض بالذات: أن يبعث الأعزاء ويعيد إليهم الحياة؟

ابعثه!

لاشك أن قلب الإنسان عميق ومغلق ومليء بالدم. لكنه حين ينفتح تهجم عليه الظلال التي لم تجد عزاءها، ويهجم كل ظمأ في النفس لكي يشرب وينتعش ويبعث من جديد. وتزداد كثافتها حولنا حتى يسودّ الهواء. لماذا تتراكض للشرب من دماء القلوب؟ لأنها تدرك

Twitter: @ketab_n

أن هذا هو بعثها الوحيد ولا قيامة إلا فيه. في ذلك اليوم كان زوربا يركض أمام الجميع بخطواته المديدة، وهو يدفع الظلال الأخرى ويبعدها؛ لأنه كان يعرف تماماً أنني أحبه أكثر من أولئك الذين أحببتهم كلهم.

عند الصباح كنت قد صممت على رأي. وهكذا استعدت هدوئي. كأنما القيامة قد بدأت في أعماقي. وكأن المجدلية كانت تسرع الخطى إلى القبر لكي ترى القيامة.

ظللت في الفراش حتى ساعة متأخرة. ودخلت شمس الربيع الحارة المرحة إلى غرفتي ونورت المنحوتة النافرة المعلقة فوق رأسي. تلك المنحوتة كان والدي قد وجدها وعلقها فوق سريري منذ أن كنت صغيراً. إنني لا أؤمن بالحظ. لكنني أؤمن بالقدر والمصير.

وهذه المنحوتة قد كشفت لي سر حياتي ببساطة مدهشة. وربما أنها كشفت لي سر زوربا أيضاً. كانت نسخة من حجر منحوت على قبر، تحتوي على محارب عارٍ لم يتخل عن خوذته حتى وهو يموت. وكان المحارب راكعاً على ركبته اليمنى، وهو يعتصر صدره بكفيه، بينما ترفرف بسمة هادئة على شفتيه المطبقتين. كانت الحركة البهية لهذا الجسد المتين من نوع يجعلك تحار فيما إذا كانت الحركة حركة استسلام للموت أم حركة في رقصة. أم لعلها رقصة وموت معاً؟

حتى لو كان الموت يجب أن نحوله إلى رقصة. وقد شجعتني الشمس المشعة على المحارب أن أتمسك بهذا الرأي، وأنا أراه يتحول تحتها إلى إنسان حي. أنا وأنت، أيها القلب. دعنا نعطه دماً لعله يعود إلى الحياة. دعنا نبذل قصارى جهودنا لكي نجعل هذا الآكل، الشارب، الشغّيل، مطارد النساء، المتشرد يعيش لحظة أخرى زيادة. يا لهذا الراقص المحارب ذي النفس العظيمة والجسد المتمكن والنداء المنطلق الذي لم أر، ولم أعرف، له شبيهاً في حياتي كلها.

Twitter: @ketab_n

30

حين أثمرت في داخلي بذرة الأوديسة

بدأت أسطورة زوربا تتبلور في داخلي. كانت في البداية إثارة موسيقية، إيقاعاً جديداً. وكأنما الدم قد صار يدور بسرعة أكبر في وتيني. أحسست بالحمى والدوار، بمزيج من الغبطة والغيظ يصعب فصلهما. وكأن جسماً غريباً غير مرغوب فيه قد دخل دورتي الدموية. واستثيرت عضويتي كلها من أجل أن تهجم عليه وتطرده. لكن الجسم الغريب كان يقاوم ويستعطف ويمد الجذور. وهو يتمسك بعضو ثم بآخر غير راغب في الرحيل. لقد صار بذرة، حبة قاسية من القمح. بدت وكأنها تحس بأن السنابل والأرغفة المسجونة فيها في خطر. ولذا فهي تكافح كفاحاً يائساً لكي تحافظ على نفسها ـ وعليها ـ من الفناء.

خرجت وتمشيت ساعات في الحقول. سبحت في البحر. وعدت الى كنوسوس مرة بعد أخرى. ومثل الحصان الذي يهز نفسه ويجاهد للتخلص من نعرة[1] نهمة حطت عليه، كذلك رحت أهز نفسي وأرفس. ولكن عبثاً. كانت البذرة مستمرة في مد جذورها الجديدة والتحكم.

في هذه الآونة بدأت عملية سرية ثانية في داخلي بتغذية هذه البذرة وسقايتها من دمي. سأجعلها جزءاً من أحشائي. وبذلك أخضعها من خلال تمثلها. كان هذا أملي الوحيد في التخلص من البذرة التي اقتحمتني كالفاتح. يجب أن تتوحد بي بحيث يصبح كل منا منتصراً ومغلوباً.

وبدأت الكلمات والإيقاعات والتشبيهات فوراً بالدوران حول البذرة الدخيلة للإحاطة بها وتغذيتها مثل جنين. انبعثت ذكريات خافتة وتصاعدت أفراح وأحزان وضحكات ومحادثات متفجرة دفينة.

عبرت أمامي أيامنا المشتركة الطويلة مثل حمَامات بيضاء جميلة مليئة بالهديل.

---

(1) ذبابة تعض الخيل.

Twitter: @ketab_n

وتصاعدت الذكريات. قصة أسمى من الحقيقة، قصتين أسمى من الكذب. لقد مسخ زوربا بالتدريج وتحول إلى خرافة.

في الليل لم أكن أجد الشجاعة للتوجه إلى السرير. كنت أحس أن البذرة تواصل عملها في نومي. وفي هدأة الليل المهيبة كنت أصغي إليها باهتمام وهي تقرض وتقرض أوراق سويداء قلبي، مثل دودة الحرير، آملة أن تحولها إلى حرير.

كنت أتجول في شوارع كاسترو الضيقة ليلاً. وراحت الذكريات القديمة تقفز من كل ركن. قابلت نفسي طفلاً يسير وحده ولا يرغب في اللعب مع بقية الأطفال. ثم يافعاً يتنزه مع أصدقائه على الأسوار الفينيسية المطلة على البحر ـ كانت ساعة الغسق وكان هناك نسيم لطيف مثقل بملح البحر، والياسمين من حدائق الجوار الصغيرة، والعطر من الفتيات اللواتي يتنزهن، وهن يضحكن ويلمننا لأنهن كن يرغبن في أن نلتفت ونتطلع إليهن، فيما كنا نناقش موضوع اللّه وما إذا كانت الروح خالدة أم لا. وكلما اكتمل القمر وصفا كانت تهيمن علي حالة ثمل ساحرة عميقة. وكانت الأبواب وقرميدات أسطحة البيوت تتمثل هي الأخرى. وكانت الحجارة والغابات والينابيع وأبراج الأجراس تخلع عنها أجسادها الكثيفة لتريح نفسها من العبء الذي كان يرهقها أثناء النهار. وها هي ذي أرواحها الآن تتلألأ عارية في ضوء القمر.

جاءت أول أمطار الخريف. نزلت السماء إلى الأرض. ورفعت البذور رؤوسها من الأخاديد، وراحت تتطلع فرحة إلى الأعالي. ولما وجدت بيت أسرتي ضيقاً جداً علي الآن، هربت وحيداً إلى بيت صغير مهجور يخص واحداً من أصدقائي. كان يقوم على حافة الماء خارج المدينة: دار مغلقة مربعة بجدران عالية فيها شجرتا ليمون وسروة وعدة أصص من الحبق والعترة، وباب دار ثقيل مصنوع من ثلاثة ألواح خشبية عليثلاث طبقات وكأنه باب حصن، وتاج هائل ثقيل تحتاج من أجل سحبه لاستخدام يديك معاً وقوتك كلها. كم كانت سعادتي عميقة حين سحبته وأرتجت الباب وبقيت وحيداً لا يستطيع أحد أن يدخل إلى معتزلي. قلت للرتاج: «سأمسك بك جيداً تحت ذراعي حين أدخل السماء وستدخلها معي». وكنت أتطلع إليه بامتنان. سيمسك بعض الناس بالأدوات التي كانوا يعملون بها ليكسبوا عيشهم. وآخرون سيمسكون بالرماح التي قاتلوا بها. وآخرون بالأقلام التي كتبوا بها. وآخرون سيمسكون بحبيباتهم. أما أنا فسأمسك بهذا الرتاج.

ما أجمل أن تكون وحيداً. وأن تسمع البحر يتنهد وراء عتبتك. وأن تنزل القطرات الأولى من المطر على شجرات الليمون والسرو في دارك، وأنت تحس ببذرة تنهشك في أعمق أعماق أحشائك.

استوطن زوربا في داخلي مثل خادرة[2] ملفوفة في صدفة قاسية شفافة. لم يكن يتحرك.

---

(2) الحشرة في الطور الذي يعقب اليرقة.

Twitter: @ketab_n

لكنني كنت أحس بعملية مبهمة غامضة رهيبة مستمرة ليلاً ونهاراً بسرّ وبصمت داخل تلك الخادرة الخرساء.

كانت عروقها الواهنة تمتلئ بالتدريج. ولحمها الجاف ينعم. كانت الصدفة على وشك أن تنشق في أية لحظة عند الكتفين. وكان الجناحان الطريان الأجعدان العاجزان على وشك أن يظهرا. كانت دويدة ممددة داخل الخادرة. وكانت قد انجرفت بفعل جنون قدسي مباغت. ورغبت في أن تتحول إلى فراشة. وحين سمعت أول الأمطار سمعت الأرض تتشقق وتتلقى الهطول. وسمعت بذار القمح يشرب وينتفخ في الأرض. وسمعته يمد كلابات خضراء قوية لكي يتمسك بالتراب. ثم ليرفع الأرض بعدها ويظهر إلى الضوء من أجل أن يصبح قمحاً وخبزاً يأكله الناس فيظلون أحياء ويمنعون الرب من الموت.

وأنا أصغي باهتمام كنت أسمع الروح التي تقف على كل وريقة عشب لتساعدها على النمو وأداء واجبها على الأرض. وهنا، في عزلتي المحصنة، أحسست أنه حتى أحط مخلوقات اللّه ـ حبة قمح أو دودة أو نملة ـ تتذكر بغتة أصلها. ويتملكها مَسٌّ منزل من الله. فترغب في الارتقاء درجة بعد درجة من أجل أن تلمس المولى. ترغب الحبة أوالنملة أو الدودة في أن تلمسه، وأن تقف إلى جانبه مع الملائكة، والملائكة المقربين، وأن تكون هي أيضا ملاكاً، أو ملاكاً مقرباً.

حين التقيت بزوربا، وكان لا يزال يلقي بظله على الأرض، وحين عرفت أنه لا جسده ولا أغنيته ولا حتى رقصته كانت قادرة على استيعابه، تساءلت بتوقع كبير عن أي نوع من الوحوش البرية سيتفجر حين تأتي ساعته ويقطع القيود الشفافة المحيطة به، والتي تكبله ساكناً في أحشائي. أي وحش وأي خراب نهم وأي لهب متأجج لا يعرف الخمود؟ وقلت لنفسي إن كانت الدودة، الدودة التافهة، ترغب في أن تصبح فراشة فما الذي كان زوربا يرغب في أن يكونه؟

كانت تلك أياماً لا تنسى من التأمل القدسي. الأمطار تهطل. والغيوم تذوب. وتظهر الشمس مستحمة. كانت زهور الليمون قد تشكلت ثمراً. وراحت الليمونات الخضراء المقدسة تتلامع على الأشجار. النجوم تظهر ليلاً، وتدور فوق رأسي ثم تسقط غرباً. وكان الزمن يمر مثل مياه خالدة. وأحسست برأسي يبحر فوق الزمن والفيضان بثقة وشجاعة، مثل الفلك[3] محملاً بكل نوع من البذار، الحيوانات والبشر والآلهة. حشدت ذكرياتي كلها، وسافرت من جديد في رحلاتي كلها، معيداً إلى الذهن الأرواح العظيمة كلها التي سبق أن أشعلت لها الشموع في حياتي، وأنا أقدم موجة بعد موجة من دمي لتغذية البذرة التي في داخلي. ورحت أنتظر.

(3) المقصود فلك نوح.

Twitter: @ketab_n

أطعمت هذه البذرة عسلاً غالياً جنيته في عمر من التنقيب بين أطيب الزهور شذاً وأقتلها سماً. للمرة الأولى أحسست بطعم الحب الأبوي. وعرفت أي منبع للخلود هو الابن. تماماً كما أن اللؤلؤ مرض، وهو في الوقت ذاته الإنجاز الأسمى للمحار، كذلك فقد بدأت أحس بالاضطراب والحمى في دمي. وفي الوقت ذاته كنت أحس برسالة نابعة من المصادر العميقة التي وصلت إليها ـ أو كنت على وشك أن أصل ـ في أهم لحظة من حياتي. على أساس هذه البذرة، هذا الابن، سيتقرر مصيري.

* * *

مضى الخريف وجاء الشتاء. كنت أتمشى في الحقول المحروثة حول مخبئي، وأنا مندهش كيف تستعيد الأرض الخالية من العشب بذورها، وتنتظر بصبر مجيء الربيع. أنا الآخر رحت أنتظر بصبر مع التراب. وأحسست أنني بدّلت جنسي. كأنني تحولت إلى امرأة، مثل الأرض، وأنني أغذي بذرتي، الكلمة، وأنتظر. قلت لنفسي: آه لو أنني أستطيع أن أجسد آلامي وآمالي كلها في هذه الكلمة لأخلي هذا الابن من بعدي حين أفتح باب الأرض لأغادرها.

تذكرت ناسكاً التقيت به ذات يوم على جبل آثوس. كان يمسك بورقة حور يعرضها للنور ويتطلع إليها، والدموع تنهمر من عينيه. توقفت عنده مندهشاً وسألته: ما الذي تراه في هذه الورقة يا أبانا المحترم بحيث يجعلك تبكي؟

أجابني: «أرى المسيح مصلوباً». ثم قلب الورقة وقد أشرق وجهه غبطة. وسألته هذه المرة: وما الذي تراه الآن فيجعلك سعيداً؟

ـ أرى المسيح مبعوثاً يا بني.

لو أن المبدع يستطيع بالطريقة ذاتها أن يرى آلامه وآماله كلها حتى في أحط التفصيلات من العالم، في حشرة أو صدَفة أو قطرة ماء، وليس فقط أن يرى آلامه وآماله هو؛ بل أن يرى آمال الكون كله وآلامه. لو أنه فقط يستطيع أن يرى الإنسان مصلوباً والإنسان مبعوثاً في كل خفقة قلب. وأن يحس بأن النمال والنجوم والأشباح والأفكار تخرج كلها من الأم ذاتها، مثلما نخرج نحن. وبأننا نقاسي كلنا ونأمل أن يأتي اليوم الذي ستتفتح فيه عيوننا فنرى أننا كلنا واحد، ونصل إلى الخلاص.

لن أنسى ما حييت شهور الانتظار الباطنية هذه. حفيف أوراق الليمون، طيران نحلة، البحر الذي لا يهدأ، بل يظل يتنهد ويدق بابي، غراب يمر فوق سطح البيت. كل شيء كان يؤذيني ويجعلني أبكي. كأنما قام إله بسلخ جلدي فلم أعد أستطيع تحمل حتى هبوب النسيم عليه.

إلى أن كان، أخيراً، ذات يوم لم أعد أستطيع المقاومة. لقد عرفت جيداً، ومنذ سنوات، أن الطريقة الوحيدة لتخليصي من الألم الشديد أو الغبطة الشديدة ولاستعادتي حريتي

Twitter: @ketab_n

هي أن أسحر هذا الألم أو هذا الفرح بفتنة الكلمات السحرية. في البلدان المدارية تخترق حشرة دقيقة كالخيط جلد الإنسان وتأكله. ثم يأتي طارد الأرواح فيعزف بمزماره السحري الطويل. وتظهر الدودة المسحورة. تسترخي شيئاً فشيئاً وتخرج. وهكذا هو مزمار الفن.

جاءت أيام كانون الثاني الهادئة المغتسلة بأشعة الشمس، الأيام التي ربما كان اللّه بفضله العميم قد حشرها في قلب الشتاء لكي تستطيع طيور البحر البائسة المسكينة أن تضع بيوضها واثقة فوق الصخور. وفي يوم من تلك الأيام الهادئة ذهبت إلى البحر وسبحت. ثم حمّيت نفسي وخرجت. وجففت نفسي في الشمس. لم يسبق لي أن أحسست في حياتي بهذه الراحة الجسدية وبهذه السعادة الروحية. عدت إلى البيت وأمسكت بريشتي (هذا هو مزماري) وبارتعاشة خفيفة انكببت على الورق.

صرت أكتب وأشطب. لم أكن أستطيع أن أجد الكلمات الملائمة. أحياناً كانت تأتي سخيفة بلا روح، وأحياناً مبهرجة بشكل غير لائق، وأحيانا أخرى مجردة ومليئة بالهواء ينقصها الجسد الحار. كنت أعرف ما كنت قد خططت لقوله حين ابتدأت. غير أن الكلمات الكسول الطليقة نقلتني إلى مكان آخر. وأزهر مخططي بوفرة كبيرة فوسع الهيكل الذي كنت قد وضعته فيه. وصار بوقاحة يغزو المزيد من الأماكن والأزمنة. كان يتغير ثم يتغير من جديد. لم أكن أستطيع أن أحدد ملامحه. وكانت روحي تتغير معه ثم تتغير من جديد. ولم أكن أستطيع أن أحدد ملامحها هي الأخرى.

عبثاً كنت أجهد لأعثر على مصطلح بسيط دون رقعة تزيينية، المصطلح الذي لا يثقل على عواطفي بغناه فيحطمها. من كان ذلك المتصوف المسلم العطشان الذي أنزل الوعاء في بئر لكي يسحب الماء ويشرب؟ رفع الوعاء فرآه مليئاً بالذهب. أفرغه وأنزله من جديد ثم سحبه فكان مليئاً بالفضة. أفرغه وقال: «أعرف أنك مليء بالكنوز يا مولاي. ولكن أعطني فقط بعض الماء لأشرب. أنا عطشان». أنزل الوعاء ثانية وسحب الماء ثم شرب. هكذا يجب أن تكون الكلمة: دون زينات.

ولإدراكي بأن الوقت لم يحن بعد، وأن التحول السري داخل البذرة لم يكتمل بعد، توقفت.

أتذكر ذات مرة أنني أخذت خادرة من جذع شجرة زيتون ووضعتها في راحتي. وداخل الغلاف الشفاف ميزت شيئاً حياً. كان يتحرك. لابد أن العملية السرية قد وصلت إلى نهايتها. وكانت فراشة المستقبل، التي لا تزال سجينة، تنتظر بارتعاشات صامتة مجيء الساعة المقدسة التي تخرج فيها إلى ضوء الشمس. لم تكن على عجلة. كانت تنتظر وهي واثقة بالضوء وبالهواء الدافئ وبقانونه الأزلي.

لكنني كنت على عجلة. كنت أريد أن أرى المعجزة تحدث أمامي بأسرع ما يمكن. كنت أريد أن أرى كيف ينبعث الجسد من قبره وكفنه ليصبح روحاً. انحنيت وبدأت أنفخ

Twitter: @ketab_n

أنفاسي الحارة على الخادرة. وإذا بشق يرتسم على ظهرها. وانشق الغلاف كله تدريجياً من أعلاه إلى أسفله. وظهرت الفراشة الخضراء الزاهية غير المكتملة وهي لا تزال مطبقة على نفسها قليلاً وأجنحتها ملتوية وأرجلها ملتصقة إلى بطنها. تلوّت بهدوء وراحت تتقدم نحو الحياة شيئاً فشيئاً تحت نفسي الحار المستمر. أحد أجنحتها، أصفر مثل ورقة حور متبرعمة، أبعد نفسه عن الجسد وبدأ يتخبط محاولاً أن يتمدد بطوله الكامل. ولكن عبثاً. ظل واهناً نصف مفتوح. وسرعان ما تحرك الجناح الآخر مثله وصار يجهد بدوره لكي يتمدد. وعجز عن ذلك. ظل مرتعشاً ونصف مفتوح. وأنا ثابرت، بوقاحتي البشرية، على الانحناء والنفخ بنفسي الحار على الأجنحة المشوهة. لكنها كانت قد توقفت عن الحركة الآن. وسقطت جامدة لا حياة فيها مثل حجر.

امتلأ قلبي غماً. فبسبب تسرعي، ولأنني تجرأت على تخطي قانون أزلي، قتلت الفراشة. كنت أمسك في يدي جثة. لقد مرت سنوات وسنوات وظلت جثة هذه الفراشة تثقل على ضميري.

يتسرع الإنسان. أما اللّه فلا يتسرع. ولهذا تكون أعمال الإنسان مشوهة وملتبسة، بينما أعمال اللّه راسخة ومتماسكة. امتلأت عيناي بالدموع، وأنا أقسم على أن لا أتخطى بعدها هذا القانون الأزلي. كالشجرة. ستهب علي الريح، ويسقط علي المطر والشمس، وسأظل أنتظر بثقة. فساعة الازدهار والإثمار التي يطول انتظارها لابد أن تأتي.

ولكن ها أنا ذا في اللحظة ذاتها أحنث بقسمي. فعلى الرغم من أن خادرة زوربا لم تنضج بعد فلقد كنت على عجلة من أمري لفتح كفنها. ولخجلي من نفسي مزقت كل ما خربشته على الورق وخرجت لكي أتمدد قرب البحر. تذكرت شيئاً قاله لي زوربا ذات مرة: «إنني أتصرف دائماً وكأنني خالد». ذاك هو أسلوب الله. إلا أن علينا، نحن الفانين، أن نحذو حذوه. وليس من خلال جنون العظمة والصفاقة. بل من خلال توق الروح الخفي إلى ما هو أسمى. إن محاولة تقليد اللّه هي وسيلتنا الوحيدة لتجاوز الحدود الإنسانية حتى ولو تم التجاوز بشعرة. وحتى لو تم للحظة (تذكر السمكة الطائرة). فطالما أننا مسجونون في أجسادنا، وطالما أننا خادرات، فإن أهم الأوامر التي تلقى علينا من قبل اللّه هي: اصبر، تأمل، ثق.

راقبت الشمس وهي تغرب. والتمعت الجزيرة المهجورة المقابلة لي وردية وسعيدة مثل خدٍّ بعد قبلة. وسمعت الطيور الغريدة الصغيرة تعود نعسانة إلى النوم، متعبة بعد يوم كامل من الصيد والغناء. سرعان ما ستظهر النجوم لتحتل أمكنتها واحدة بعد الأخرى. وستبدأ عجلة الليل بالدوران. سيأتي منتصف الليل. وسيأتي الفجر. ولابد أن تشرق الشمس. وستبدأ عجلة النهار دورتها.

Twitter: @ketab_n

إيقاع قدسي، بذور في الأرض، وطيور ونجوم. كلها تطيع. الإنسان وحده يرفع يده احتجاجاً ويرغب في تخطي القانون ويحول الخضوع إلى حرية. ولهذا فهو وحده بين مخلوقات الله كلها قادر على اقتراف الخطيئة. الخطيئة! ما معنى هذا؟ معناه تدمير التوافق والانسجام (هارموني).

* * *

ولإحساسي بأن رحلة ما ستمنحني القدرة على الصبر ركبت متن قارب كان متجهاً إلى الجزر الإيجية البهية، سانتورين، وناكسوس وباروس وميكونوس. لقد قلت ذلك، وإنني أقوله من جديد: من أعظم المتع التي يمكن أن تُمنح للإنسان في هذا العالم هي الإبحار في بحر إيجة ربيعاً حين يكون النسيم عليلاً. لم أستطع، أبداً، أن أتصور كيف يمكن أن تختلف الجنة عن ذلك بأي شكل. فأية غبطة سماوية أو أرضية يمكن أن تكون أكثر اكتمالاً في تواؤمها مع جسد الإنسان وروحه؟ هذه الغبطة تصل حد الثمالة. لكنها لا تتجاوزه ـ و الحمد لله ـ ولهذا لا يتلاشى العالم المرئي. بل على العكس من ذلك يصبح اللامرئي مرئياً. وما نسميه الله والخلود والنعمى يستقل قاربنا ويبحر معنا.

أغمض عينيك في ساعة الموت الرهيبة، فان رأيت سانتورين وناكسوس وباروس وميكونوس فإنك ستدخل الجنة فوراً ودون تدخل التراب. وما هو حضن إبراهيم والأشباح اللامادية في الجنة المسيحية بالمقارنة مع هذا الأزل اليوناني المؤلف من الماء والصخور والريح الشمالية المنعشة؟

فرحت لأنني إنسان. إنسان ويوناني. بهذا أستطيع أن أحس بأن بحر إيجة لي. وهو إرثي الشخصي من أسلافي، غريزياً ودون أي تدخل مشوه من قبل الفكر المجرد، وأنني أستطيع الإبحار بين الجزر متنقلاً من سعادة إلى أخرى دون تجاوز حدود روحي.

كانت تلك الجزر المقدسة تتلامع مثل الصدر الأملس لحجل. تتماوج وتغير ألوانها كل لحظة في الظل وتحت الشمس أحياناً، ورمادية قاتمة وملتمعة بغبار ذهبي أحياناً أخرى، محتشدة بالزهور صباحاً وبالليالك النقية ظهراً، وبالبنفسج الدافئ في الساعة التي تقرر فيها الشمس أن تغرب.

دامت هذه الرحلة الشبيهة بشهر العسل أسبوعين. و حين رجعت إلى المنزل الصغير على الشاطئ كان عقلي قد عاد إلى مكانه. وقلبي صار يخفق بهدوء. ولم يختف المسيح وبوذا ولينين، القراصنة العظام المحببون، بل تفسفروا[4]، على غسق الذاكرة مثل رموز هيروغليفية تزيينية، ببهاء صاف تم تجاوزه.

(4) تلامعوا كالفسفور.

Twitter: @ketab_n

لم يلهني أي اهتمام ذهني خلال مجريات رحلتي كلها. ولم يجئ حلم واحدٌ إلى نومي ليذكرني بأن لديّ إشكالات إبداعية عليّ أن أحلها. ولم أستطع. كنت أرى العالم وأسمعه وأشمه ببساطة بهيجة، وكأن روحي قد تحولت هي الأخرى إلى جسد. وكأنما هي أيضاً كانت ترى العالم وتسمعه وتشمه في حالة من الراحة والدعة.

من كان الرسامان، في العصور القديمة، اللذان تباريا ليريا من منهما يستطيع أن يرسم العالم المرئي بدقة أكثر؟ قال الأول: «سأثبت لك الآن أنني الأفضل»، وهو يريه ستارة كان قد رسمها.

وقال الخصم: «طيب. افتح الستارة. ودعنا نر اللوحة». وأجاب الأول ضاحكا: «الستارة هي اللوحة».

خلال رحلتي هذه كلها في بحر إيجة أحسست بعمق أن الستارة هي اللوحة فعلاً. ومسكين ذلك الذي يفتح الستارة لكي يرى اللوحة. لن يرى إلا العدم.

ظللت غارقاً في صمت عزلتي الصارم عدة أيام أخرى. كان الوقت ربيعاً. وكنت أجلس تحت شجرة الليمون المزهرة في الدار، وأنا أقلب في ذاكرتي، مستمتعاً، قصيدة كنت قد سمعتها في جبل آثوس: «حدثيني عن الله يا أختي يا شجرة اللوز. فأزهرت شجرة اللوز».

إن الستارة مطرزة فعلاً بالأزهار والعصافير والبشر ـ ولا بد أنها الله. وهذا العالم ليس رداءه، كما كنت أعتقد ذات مرة. إنه هو ذاته. الشكل والجوهر متطابقان. لقد عدت من حجي الإيجي أمسك بهذا اليقين، هذه الغنيمة الثمينة. كان زوربا يعرف ذلك. لكنه لم يستطع أن يقوله. كان يرقصه. وفكرت بيني وبين نفسي: آه لو أنني أستطيع تحويل هذه الرقصة إلى كلمات.

وبينما أنا أفكر في ذلك توضح ذهني. وأدركت أنني كنت أبحث عن الله طوال هذه السنوات دون أن أنتبه إلى أنه يقف أمامي مباشرة، تماما مثل الخطيب الذي يظن أنه قد ضيع خاتم الخطبة، ثم يبحث عنه قلقاً في كل مكان ولا يجده لأنه يلبسه في إصبعه.

كانت العزلة والصمت وإيجة تتعاون معي سرياً وبعطف. وكان الزمن يمر من فوقي، هو الآخر أحد أعواني، وينضج البذرة في أحشائي. وجنباً إلى جنب مع النجوم والطيور ربطت نفسي إلى العجلة الأبدية. وللمرة الأولى في حياتي، كما أعتقد، أحسست ما هي الحرية: أن يضع المرء نفسه تحت نير الله، أي تحت نير الهارموني.

الإبداع، مثل الحب، متابعة إغوائية مليئة بعدم الثقة وبالخفقات المرتبكة. وكل صباح حين كنت أخرج إلى هذه المتابعة الباطنية كان قلبي يخفق كَرَباً وفضولاً مع غطرسة شيطانية غريبة (لا أعرف كيف ولا لماذا) تشبه مذلة عميقة لا توصف. ذلك لأنني دون أن تكون لدي أية فكرة مسبقة، ومنذ الأيام الأولى، كنت أدرك خائفاً ما هو الطير اللامرئي ـ وربما

Twitter: @ketab_n

اللاموجود ـ الذي كنت أطارده لاصطياده. كانت الجبال مليئة بالحجال، والشعاب مليئة بالقمري، والبحيرات بالبط البري. ولكنني، وأنا أعبر متجاوزاً باحتقار هذا اللحم اللذيذ كله، كنت أطارد الطائر الذي لا يمسك، والذي كنت أسمعه بين حين وآخر يصفق بجناحيه في سويداء قلبي. الطائر المصنوع، حتى الآن، من جانحين وحسب. كنت أجاهد لمنح هذا الطائر جسماً صلباً لكي أتمكن من الإمساك به.

في البدء لم أكن أستطيع أن أطلق على هذا الطائر اسماً. وربما لم أكن أريد ذلك. لأنني كنت أعرف تماماً أن الاسم يسجن الروح ويقيدها لكي تتلاءم مع كلمة، ويجبرها على التخلي عن أي شيء لديها مما لا يعبر عنه، التخلي عن كل المواصفات الغالية التي لا يمكن إيجاد بديل لها، وإلقاؤها خارج حدود الاسم.

ولكنني سرعان ما فهمت أن غفلية[5] كهذه تجعل الصيد أكثر صعوبة. لم أكن قادراً على تحديد وجود فريستي في أي مكان لأنصب لها فخاً. كان الحضور اللامرئي يحوم في الجو في كل مكان. في كل مكان وفي لا مكان. لا يستطيع الإنسان أن يعتمد الحرية المطلقة. حرية كهذه تؤدي به إلى الفوضى. فإذا كان من الممكن لإنسان أن يولد مع حرية كاملة فإن واجبه الأول، إن كان يرغب في أن يكون ذا نفع على هذه الأرض، هو أن يعيّن حدوداً لهذه الحرية. الإنسان لا يستطيع أن يتحمل العمل إلا في حلبة ثابتة محددة. وعلي أن أخضع لهذا العجز الإنساني إن كنت أرغب في تجاوزه. وهكذا، بإدراك كامل ومرير بأنني أضيّق حدود رغبتي، صرت أحتاج إلى أن أطلق اسماً على الطائر الغامض الذي انطلقت لاصطياده، اسماً ذا حدود مرنة قدر الإمكان، ذا أطر شفافة قدر الإمكان، بحيث أستطيع أن أرى، حتى بشكل غير واضح، ما الذي يجري وراءه وحوله.

كانت هذه الحاجة تعتمل فيَّ سراً، ليلاً ونهاراً. ولحسن الحظ لم يكن عقلي مدركاً لذلك. كان هذا كله يجري من وراء ظهره. وذات صباح نهضت واسم الطائر يلمع مفاجئاً ورهيباً في الهواء. لم يكن طائراً، بل صرخة من أفواه لا تحصى. أدركت ذلك مباغتة.

هذه الصرخة هي ما كنت أطارد لأصطاد: صرخة المستقبل. لقد كنت أعذب نفسي وأشن حربي من أجلها. بل لقد ولدت من أجلها. وما تبقى كله ـ أفراحي وأحزاني ورحلاتي وفضائلي ورذائلي ـ لم يكن إلا تقدمي نحو هذه الصرخة. وكان المسيح وبوذا ولينين محطات في الطريق. كان علي أن أمرَّ بهم. فهم الذين كانوا دلائل على مرور الطائر السري. هم الذين كانت مهمتهم أن يثيروا الطريدة لكي أتمكن من تجفيلها.

ألم يضع أي شيء هباء إذن؟ بالنظر إلى توهناتي الفكرية، وإلى تعرجاتي الجانبية، كل واحدة منها على حدة، فستبدو وقتاً مبدداً، ونتيجة عقل غير متبلور وغير منظم. ولكنني كنت

---

(5) ترك الشيء غفلاً بلا اسم.

Twitter: @ketab_n

أرى الآن أنها، بالنظر إليها كلها مجتمعة، تشكل خطاً مستقيماً سديداً؛ كان يعرف معرفة تامة أنه بالتعرجات الجانبية فقط يستطيع أن يتقدم فوق هذه الأرض الفانية. وإذا أخذت خياناتي للأفكار العظيمة ـ لقد تخليت عنها بعد أن كانت تذهلني ثم تفقد إيهامها بالتتالي ـ فإنها معاً تشكل إيماناً راسخاً بالجوهر. كان يبدو أن الحظ (كيف نسميه؟ ليس الحظ. بل القدر) له عينان وعطف. لقد أخذني من يدي وأرشدني. والآن فقط أدركت إلى أين يرشدني وماذا يتوقع مني أن أفعل. كان ينتظر مني أن أسمع صرخة المستقبل، وأن أبذل كل جهد ممكن للتنبؤ بما كانت الصرخة تريده، ولماذا تنادي، وإلى أين تدعونا أن نذهب.

تصاعد دمي إلى رأسي وهو يخرخر فرحاً. أخذت قلمي وكتبت في أعلى الصفحة الموضوع البهيج للعمل النهائي المحدد الذي كنت أبدأه:

«تحياتي أيها الإنسان. أيها الديك الصغير المنتوف ذو الساقين! إنه صحيح فعلاً ـ ولا تستمع لما يقوله الآخرون ـ إنك إن لم تَصِحْ في الصباح فإن الشمس لا تشرق!».

حط لهب بارد لعوب في رأسي، وأحسست به يتماوج مثل ريشة حمراء في الريح. كان طائراً غامضاً مسقسقاً، خوذة نارية ذات قدرة سحرية على زيادة بسالة المحارب وأمله. كان قلبي وهو يخفق بنفاذ صبر على وشك أن يستجمع قواه. ولكنه حين رأى الهاوية أمامه (الهاوية؟ أم الله؟) جبن. اللحم التعيس ليست لديه أية قابلية للمغامرة. بإقامته المريحة في ذلك المنزل الصغير الهادئ مع شجرتي الليمون والبحر والرتاج القوي ظل يتراجع إلى الوراء ويتقلص خائفاً. ولكن سمواً غير مرئي، أعلى وأكثر حقيقية من جسدي الحقيقي، راح يحوم فوق رأسي ويتحكم بي. لقد أصبحت سفينة وكنت أستعد للإبحار. وعلى قيدومي تسمرت حورية بحر وإحدى يديها مرخية على صدرها. بينما الأخرى ممدودة بصيغة آمرة: الى الأمام. لم تكن نايكي[6]. بل كانت صرخة عظيمة. وكانت تشير إلى طريقي بين السماء والبحر.

الكلمات والحكايات والطرف التي كنت أعرفها كلها دخلت إلى السفينة. لقد أدخلت إليها أعز أصدقائي، وأكثر الأنصار الشجعان تناقضاً ممن كان خيالي يتملكهم، واحتياطات وافرة، وأكياساً من جلد الماعز مليئة بالخمر، وعدداً لا بأس به من الآلهة القدامى المنحوتة في الخشب دون عناية لمساعدتي على تمضية الوقت. انتفخت الأشرعة وانطلقنا إلى البحر.

إلى أين نتوجه؟ لم يكن هناك شيء في ذهني، كان صدغاي مفتوحين. والرياح من الجهات الأربع كلها كانت تهب علي بقوة متشابهة. بين أصابعي كنت أمسك بقطعة قاسية من الطين: المستقبل. رحت أعجنها وأعطيها شكلاً ـ إنساناً، إلهاً، شيطاناً ـ ثم أخربها وأصوغ منها آخر. كانت الأشكال تفر من رؤوس أصابعي وتتجمد في الهواء لوهلة ثم تقوم عائدة إلى

(6) إلهة النصر عند الإغريق.

Twitter: @ketab_n

العدم. لا تقل إنني كنت ألعب. لم أكن ألعب. كنت أناضل، أجاهد أن أنقل ملامح روحي إلى الطين.

وبما أنني لم أكن أعرف ما هي ملامح روحي، ولا كيف تبدو، فقد كان الكفاح صعباً ومستميتاً. وكنت أصارع للعثور على هذه الملامح بتشكل الطين. لم تكن لدي ثقة في العقل لأنه لا يستطيع أن يميز إلا الجسد، والخطوط الأولية للجسد. إنه لا يرى اللهب الذي يومض حول الجسد، ويقفز من فروة الرأس، والذي يرفرف في الريح مثل الراية. هذه هي الروح بالتحديد. ولذلك لم أكن أسمح إلا لقوى غامضة بأن ترشد أصابعي.

بالتركيز ثلاثة أيام، صامتاً ودون حركة، مثل الفقير الهندي، عشت حياتي مرة أخرى. لم يضع منها شيء حتى أقل التفاصيل أهمية: شجرة رمان مزهرة قرب كالاماتا، بطيخة سانترودية ذات رائحة قوية، وهي كبيرة إلى درجة أنني لم أستطع أن أحيطها بذراعي إلا بصعوبة، فتاة صغيرة شعثاء تبيع الياسمين في نابلس، جلبة مرحة بهيجة تصدر عن قبقاب خشبي لأرملة ترقص في عرس في دارها، قوسان عظيمان يشكلهما حاجبا امرأة شركسية في موسكو. كلها، كلها خرجت من باب الذاكرة المسحور وملأتني بالسعادة. وحين كنت أنزل في فراشي ليلاً كنت أتابع رحلاتي في نومي، مع فارق وحيد هو أن هذه الرحلات ذاتها كانت تحوم في الهواء ليلاً متحررة من ثقل الحقيقة ومؤلفة من مادة أكثر بهجة وأثمن فقط.

أهناك ما هو حقيقي أكثر من الحقيقة؟ نعم. الأسطورة. هي التي تعطي معنى أزلياً للحقيقة العابرة. تجوالاتي كلها كانت تتجمع في توافق وانسجام الآن مضغوطة في رحلة واحدة قيّمة. كانت تعرف بدقة متى بدأت ولماذا وإلى أين هي ذاهبة. ولم تكن كل نقطة توقف نزوة تافهة من الحظ. بل كانت تنفيذاً لمخطط القدر. صارت رحلاتي كلها خطاً أحمر يبدأ من الإنسان، ويصعد لكي يصل إلى الله، أي أعلى ذرى الأمل.

في اليوم الرابع كنت أجاهد لرؤية المدى الذي وصل إليه الخط الأحمر لصعودي حتى الآن. وهيمن عليّ غم قدسي مفاجئ. لم يكن هذا الخط الأحمر مرسوماً بدمي، كان هناك شخص آخر يصعد، ودم شخص آخر ينزف من جروحه، راسماً مضماراً أحمر على الأرض والبحر، شخص أسمى مني بما لا يقاس، سلف عملاق، مقاتل بحري ومتسلق جبال. ولم أكن أكثر من ظل له، الظل الأمين الذي يتبعه. لم أستطع تبينه، بل كنت أسمع نهدته فقط. أو أسمع ضحكته المدوية بين حين وآخر. وكنت أتلفت حولي ولا أرى أحداً. غير أنني كنت أحس بالنفَس القوي معلقاً فوقي.

وعيناي مليئتان بحضوره (ليستا عينيّ الطينيتين، بل عيناي الأخريتان) انكببت على أوراقي. غير أن الورقة البيضاء لم تكن مرآة تعكس وجهي كما كانت سابقاً. رأيت وجهاً آخر لأول مرة، وجه الرحالة العظيم وتعرفت إليه فوراً. كان يعتمر قبعة بحار مدببة، وله نظرة الصقر النافذة ولحية قصيرة مجعدة، وعينان صغيرتان سريعتا التحرك ومغويتان كعيني أفعى،

Twitter: @ketab_n

وحاجبان مغضنان قليلاً وكأنه يزن بعينيه خروفاً ينوي أن يسرقه، أو يتأمل غيمة محمولة على الريح ظهرت من البحر بغتة، أو أنه يوازن بين قوته وقوى الآلهة الخالدين قبل أن يقرر ما إذا كانت فرصته المثلى أن يظهر شجاعته أم أن يظهر مكره.

كانت القوة تكمن منتظرة على وجهه، صامتة وساكنة، ومتهيئة للانقضاض. إنه مصارع يحترم الموت ويتصارع معه بمهارة وحذر، دون صراخ أو شتائم، بل وهو ينظر إليه في عينيه. كان كل منهما مدهوناً بالزيت. وكل منهما عارياً تماماً. وكانا يتصارعان في الضوء مراعيين قواعد النزال الدقيقة.

وعلى الرغم من أن الرحالة العظيم يعرف من هو خصمه إلا أنه لا يسقط فريسة للألم. يرفع عينيه ويتطلع إلى وجه الموت وهو يتموج ويتخذ أشكال وجوه عديدة ـ مرة امرأة على الشاطئ الرملي تمسك بثديها وتغني، ومرة وجه إله يثير العواصف ويرغب في إغراقه، ومرة شكل عمود رفيع من الدخان فوق سقف بيته. يلعق شفتيه ويستمتع بوجوه الموت كلها، ويتصارع معها كلها، ويعانقها كلها باشتهاء.

لقد كان أنت ـ أنت! كيف يمكن أن أفعل شيئاً قبل أن أتعرف إليك فوراً، يا قبطان سفينة اليونان ـ أيها الجد والسلف الحبيب! أنت بقبعتك المدببة وعقلك النهم الماكر أبداً، والذي يخلق الأساطير ويطلق الأكاذيب مثل أعمال فنية، المغتصب العنيد، المزيج المتميز من الحصافة البشرية والحماقة الإلهية؛ أنت الواقف منتصباً بكبرياء على سفينة اليونان ودون أن تخلع الخوذة آلافاً متعددة من السنوات، وكم من الآلاف التي ستأتي!

أراك في كل اتجاه. ويدور عقلي. تبدو، أحيانا، مثل أب بلغ عمره مئة عام، وأحياناً قوياً وطويلاً بشعر أزرق مجعد مرشوش بملح البحر، وأحياناً طفلاً متمسكاً بثديي الأرض والبحر وأنت ترضع.

أراك في كل اتجاه وأجاهد لكي أضغطك في كلمة، ولكي أجمد ملامحك وأعلن: «لقد أمسكت بك! ولن تفلت!». لكنك تسحق الكلمة (كيف يمكن لك أن تنسجم داخلها!) وتنزلق من قبضتي. وأسمعك تضحك في الهواء من فوقي.

أية أسماء لم أطلقها كالأفخاخ للإمساك بك! ناديتك: خادع الإله، ومقاتل الإله، وماحق الإله، ومراوغ الإله، الحيواتِ السبع، العقل المركب، عقل الثعلب، العقل المتشعب، العقل ذا القمم العديدة، العقل اليميني اليساري، خداع القلب، مقاتل القلب، عارف القلب، مغلق البيت، خاطف الروح، دليل الروح، الأكرايت[7] جواب العالم، وجاني العالم، وعقل القوس، وباني الحصون، ومدمر الحصون، مقاتل البحر، وصدر المحيط،

(7) في العصر البيزنطي كان الأكرايت يحرسون الحدود من غارات البرابرة. ثم أصبحوا رموز البطولة والتفاني في سبيل الوطن. وقد خلدت مآثرهم في الملاحم والأغاني.

Twitter: @ketab_n

الدلفين، والإنسان ذا العقول الخمسة، والإرادة السداسية، القائد، الوحيد، صياد الطيور، سكونة[8] الأمل ذات الصواري الثلاثة.

وذات مرة في البدايات الأولى حين لم أكن أعرفك، ولكي أمنعك من الابتعاد، ألقيت في طريقك ما كنت أظن أنه أكثر المصائد حذقاً ـ إيثاكا[9]. لكنك انفجرت ضاحكاً ثم أخذت نفساً عميقاً فاستحالت إيثاكا إلى ألف قطعة. وعندها فهمت ـ بفضلك يا مدمر الوطن ـ أن إيثاكا غير موجودة. الشيء الموجود الوحيد هو البحر، ومركب صغير بحجم جسم الإنسان، والعقل قبطانه. يقف هذا القبطان في حجرته العظيمة. يبذر الذكر والأنثى ويولدهما. يولد أحزان العالم وأفراحه، محاسنه وفضائله ومغامراته، وكل سلاسل أشباحه الدموية الحبيبة. يقف دون حراك وعيناه مثبتتان باتجاه شلال الموت الذي يجتذب قاربه الصغير إليه وهو يلقي بنهم بمجساته الخمسة الجائعة على البر والبحر. ويصرخ: «كل ما ظل لدينا وقت من أجله، سواء كان كأساً من الماء البارد، أو نسمة على أصداغنا، أو نفَس امرأة دافئ، أو فكرة، كل ما يقع في طريقنا، دعونا نعمل بسرعة أيها الفتيان، فنحن لا نستطيع أن نفقده!».

لقد جاهدت طوال عمري لكي أوسع عقلي، إلى أن تشقق عند حد التمزق، من أجل أن أستحضر فكرة عظيمة قادرة على إعطاء معنى جديد للموت وراحة للبشر.

وها أنا ذا الآن، بمعونة الوقت والعزلة وشجرة الليمون المزهرة، تحولت لدي الفكرة إلى حكاية. يا للفرحة! لقد حلت الساعة المباركة وتحولت الدويدة إلى فراشة.

علمني حاخام من الأيام القديمة، الحاخام نعمان، قبل سنوات، كيف أعرف بحلول الساعة التي أستطيع فيها أن أفتح فمي وأتكلم، وأن آخذ قلمي وأكتب. كان رجلاً ورعاً بسيطاً ومرحاً اعتاد أن يعظ تلامذته ويعلمهم كيف يستطيعون هم أيضا أن يصبحوا بسيطين ومرحين وورعين. ولكنهم وقعوا ذات يوم على قدميه وهم يشكون: يا حاخامنا العزيز. لم لا تتحدث مثل الحاخام صادق؟ لم لا تجمع أفكاراً عظيمة وتؤلف نظريات عظيمة، بحيث يستمع إليك الناس بنشوة وأفواههم فاغرة؟ ألا تستطيع أن تفعل شيئاً آخر غير التحدث بكلمات بسيطة وسرد الحكايات مثل الجدة العجوز؟

وابتسم الحاخام الطيب. مر وقت لا بأس به قبل أن يجيب. وأخيراً فتح فمه: ذات يوم سألت نبتات القراص[10] شجيرة الورد: ألا تعلمينا سرك يا مدام شجرة الورد؟ كيف تصنعين الوردة؟ وأجابت شجيرة الورد: سري بسيط يا أخواتي القراصات. إنني أعمل طوال الشتاء في

---

(8) نوع من القوارب ذات الأشرعة المتعددة.

(9) يتضح الآن أنه في مناجاته هذه، كلها، إنما كان يخاطب أوليس. وفي إشارته إلى أن أوليس سخر من إيثاكا التي يقدمها له الكاتب، إنما لأنه يتهيأ لرحلة جديدة (أوديسة جديدة)، هي الأوديسة التي كتبها عنه كازانتزاكيس.

(10) نبات شوكي.

Twitter: @ketab_n

التراب بصبر وثقة وحب، وشيء واحد يستولي على ذهني: الوردة. يلسعني المطر وتعريني الريح من أوراقي ويسحقني الثلج ولكن شيئاً واحداً يظل مستولياً على ذهني: الوردة. هذا هو سري يا أخواتي!

وقال التلاميذ: إننا لا نفهم يا سيدنا!

وضحك الحاخام: أنا نفسي لا أفهم جيداً.

ـ إذن يا سيدنا؟

ـ أظن أنني كنت أريد أن أقول شيئاً ما مثل: حين تستولي علي فكرة فإنني أعمل فيها وقتاً طويلاً بصمت وصبر وثقة وحب. وحين أفتح فمي (ما هذا السر يا أبنائي؟) حين أفتح تخرج الفكرة كحكاية.

وضحك مرة أخرى وقال: نحن البشر نسميها حكاية، وشجيرة الورد تسميها وردة.

* * *

لم يسبق لي أن واجهت أبي بمودة. فالخوف الذي كان يبعثه فيّ كبير إلى درجة أن البقية كلها ـ الحب والاحترام والألفة ـ تتلاشى. كانت كلماته قاسية وصمته أكثر قسوة. نادراً ما كان يتحدث. وحين يفعل كان يفتح فمه وكلماته محسوبة وموزونة بدقة فلا تستطيع أن تجد أساساً لمعارضته. كان محقاً دائماً. مما كان يبدو أنه يجعله حصيناً. ولقد تعودت أن أقول لنفسي: آه كم أتمنى أن يخطئ مرة واحدة. فلربما غافلت قلبي عندها وعارضته. إلا أنه لم يمنحني فرصة كهذه أبداً. وهذا شيء لا يسامحه عليه المرء أبداً. كان شجرة سنديان، بجذع صلب، وأوراق خشنة وثمر مر وبلا أزهار. وكان دائماً يلتهم القوة المحيطة به. وكانت كل شجرة تذبل في ظله. وأنا الآخر كنت أذبل في ظله. لم أكن أحب أن أعيش تحت أنفاسه. حين كنت شاباً كانت تتفجر في أعماقي ثورات مسعورة. وكنت مستعداً لإلقاء نفسي في مغامرات خطرة. لكنني، في كل مرة، أفكر في والدي يجبن قلبي. ولهذا كنت مجبراً على كتابة كل ما كنت أرغب في فعله، وذلك بدلاً من أن أصبح مكافحاً عظيماً في مملكة الفعل، بسبب خوفي من والدي. لقد كان هو الذي حول دمي إلى حبر.

* * *

حين رجعت إلى البيت الصغير على شاطئ البحر بعد ثلاثة أيام، كنت أحس إحساساً عميقاً لا يوصف بالراحة. لقد أزيح عن كاهلي ثقل أو ظل. وانقطع الخيط الغامض اللامرئي الذي كان يربطني إلى الخضوع والخوف. أستطيع الآن أن أقول وأكتب وأفعل ما أشاء. لم أعد ملزماً بتقديم الحساب لأحد. لقد ذهب الحارس. وأُغمضت العين التي كانت ترى ولا تغفر. وانشطر صك العبودية إلى نصفين. لقد أصبحت الآن حراً طليقاً.

فات الأوان على أية حال. فلقد سلكت طريقاً. لم أختره بل هو الذي اختارني. وسدّت

Twitter: @ketab_n

الطرق كلها التي ورائي والتي أمامي. لقد قر قراري في عادات ثابتة وتعاطفات وكراهيات ثابتة. فات الأوان الآن على القيام بتغيير مفاجئ وبتبديل في الجبهات. علي أن أكمل شوطي في الطريق الذي سلكته وأن أصل إلى النهاية. هذا ولا شيء غيره. إلا أن لدي الآن فرصة عظيمة. لقد تخففت. وها أنا ذا قادر أخيراً على السير بارتياح وبالطريقة التي اخترتها بنفسي: مغنياً، ضاحكاً، متوقفاً، ولاعباً. لم أعد أشعر بالخجل أو بالخوف من أي إنسان. كنت أخاف من شخص واحد فقط طوال حياتي: هو أبي. فممن أخاف الآن؟. حين كنت أرفع نظري إليه وأنا طفل كنت أراه عملاقاً. وعندما كبرت تقلص كل شيء من حولي: البشر والبيوت والأشجار. وظل هو وحده كما كنت أراه في طفولتي: عملاقاً. كان ينتصب أمامي ويحجب عني نصيبي من الشمس. وعبثاً كنت أحاول أن لا أمكث في بيت أبي، في عرين الأسد. وعلى الرغم من أنني صرت كسولاً، وسافرت وألقيت بنفسي في مغامرات ذهنية صعبة، فقد بقي ظله دائماً بيني وبين الشمس. وكنت أسافر في كسوف شمسي لا ينتهي.

إن فيّ عتماً كثيراً، الكثير من أبي. وطوال حياتي كنت أجاهد لاستبدال هذه العتمة وتحويلها إلى ضوء، قطرة واحدة صغيرة من الضوء. وكان صراعاً قاسياً لا رحمة فيه ولا راحة. ولو أنني حاولت لوهلة وسمحت لانقطاع صغير في العداء لفنيت. وإذا كنت أبدو منتصراً أحيانا فكم من الجراح كان يورثني ذلك، وكم من الآلام! لم أولد نقياً لكنني كنت أجاهد لكي أصبح كذلك. وليست الفضيلة بالنسبة لي من ثمار طبيعتي، بل هي من ثمار كفاحي. لم يمنحني إياها الله، بل كان علي أن أسعى لقهرها بالسيف. زهرة الفضيلة بالنسبة لي كومة من الروث المصنع.

ولم تنته هذه الحرب أبداً. ولم أهزم حتى الآن. كما أنني لم أنتصر تماماً. في أية لحظة قد أتلاشى كلية. وفي أية لحظة قد أنجو كلية. لا أزال أسير على الصراط[11] الذي يهتز فوق الهاوية.

تعريت وألقيت نفسي في البحر. وسبحت. وأحسست بالسر المقدس للعماد ببساطته الخالدة في ذلك اليوم. وفهمت لماذا تعتبر الكثير من الأديان الماء والاستحمام، بمعنى آخر العماد، الشرط المسبق والحتمي للطقوس التي يبدأ بها المهتدي حياته الجديدة.

إن برودة الماء تتغلغل إلى نقي عظامه، إلى أعمق أعماقه، لتلتقي بالروح. وحين ترى الروح الماء تخفق بأجنحتها سعيدة مثل نورس بحري صغير. فتغتسل وتغتبط وتنتعش. وهكذا يتحول الماء اليومي البسيط. يصبح ماء الحياة الخالدة ويجدد الإنسان. وحين يخرج المهتدي من الماء يبدو له العالم وقد تغير. إن العالم لم يتغير. فهو دائماً مدهش ورهيب، ظالم ومليء بالجمال. أما الآن، وبعد التعميد، فلقد تغيرت العيون التي ترى العالم.

(11) هو في الإنكليزية: الجسر ـ الشعرة.

Twitter: @ketab_n

حين خرجت من البحر كانت الشمس تغرب. وتوردت الجزيرتان المهجورتان في مواجهتي، كما لو أن النهار يطلع. كانت المويجات اللطيفة تتمتم بمودة فوق الحصى البيضاء. وكان الشيطان القديم كله يبتسم راضياً. ومر مركب صيد صغير بمجاذيف لامعة كانت تثير موجات من الذهب السائل حيثما كانت تضرب الماء وتجرحه.

في داخل المركب كان الصياد يتنهد بقوة. وكانت نهدته تتجاوب في صمت المساء، مليئة بالشكوى وبالعاطفة الشهوانية. فلأنه شاب، وبلا رفقة كما يجب أن يكون، وجد جمال البحر غير محتمل، بحيث أن «الآه» فقط يمكن أن تحتويه.

صارت الجزيرتان الصغيرتان بنفسجيتين، الآن. وزادت عتمة البحر. وفتحت طيور الليل عيونها وهي تحس بالعذوبة الليلية على أجفانها. فقد كانت جائعة. ورفرف خفاشان فوقي بصمت، بمنقارين مفتوحين يطاردان فريسة. لقد كانا ذات يوم فأرتين (الخبراء لم يعرفوا بذلك. لكن الفلاحين يعرفون). ولكنهما دخلتا كنيسة وقضمتا جسد المسيح في خبز الوقف فصارت لهما أجنحة.

وفيما أنا أرقب جسديهما الفأريين في الغسق هيمن علي، مرة أخرى، الإعجاب بتوازن العالم. فالناس والحيوانات محكومون بالقوانين البسيطة ذاتها. ومغامرات الروح البشرية والأخت الخفاش متشابهة. الروح البشرية أيضاً كانت فأرة ذات يوم. ولقد قضمت جسد المسيح وشاركت اللّه على العشاء الرباني وصارت لها أجنحة.

لا أعرف حيواناً أكثر إثارة للقرف من الفأرة، أو طائراً أكثر إثارة للقرف من الخفاش. ولا أعرف هيكلاً من اللحم والشعر والعظام أكثر إثارة للقرف من الجسم البشري. ولكن فكر في كيفية تحوّل هذا السماد كله وتألهه حين احتوى اللّه في داخله ـ البذرة التي تحولت إلى أجنحة.

عدت إلى البيت. لقد أراحتني هذه الفكرة طوال الليل. وعند الفجر جاءني والدي في نومي ووجهه الساكن متلامع ومليء باللطف.

وقف أمامي وسط مرج أخضر، عالياً جداً وشفافاً جداً وكأنه مصنوع من الغيم. وفيما كنت أحدق إليه، وقد بدأت أفتح فمي فرحاً للفظ الكلمة اللطيفة التي لم أنطق بها حين كان حياً، هبت نسمة لطيفة (أكانت نسمة؟ أم أنها كانت أنفاسي أنا؟) فتحركت الغيمة ورقت وفقدت شكلها الإنساني السابق، وتبددت في كل اتجاه فوق العشب مثل صقيع الصباح.

حينما استيقظت وجدت الشمس في غرفتي تملأ سريري. استندت إلى ذراعيّ لأتطلع من النافذة. فرأيته يضحك وتبرز أثداؤه الصغيرة لكي تتمكن الأشعة الدافئة من مداعبتها. هذا يوم جميل إلهي آخر. كل صباح يكتشف العالم عذريته، ويبدو كأنه قد خرج طازجاً من بين يدي اللّه في تلك اللحظة. لا ذاكرة له. ولهذا فإن التجاعيد لا تظهر على وجهه. إنه لا يتذكر

Twitter: @ketab_n

ما فعله في اليوم السابق. ولا يقلق لما سيقوم به في اليوم اللاحق. يتعامل مع اللحظة الحاضرة وكأنها الأبد. لا لحظة أخرى موجودة قبل هذه اللحظة، وبعدها لا شيء.

جلست أمام النافذة لأستقبل الشمس على صدري مباشرة، وانكببت على الصفحة البيضاء. لم تكن صفحة بيضاء، بل كانت مرآة رأيت فيها وجهي. وعرفت أن كل ما سأكتبه، مهما يكن، سيكون اعترافاً. الآن هي اللحظة الحاسمة في القيامة. تقف أمام الحاكم غير المرئي، ويبدأ قلبك في الإعلان عن خطاياه دون خجل. لقد سرقت وقتلت وكذبت واشتهيت زوجة جاري وصنعت مجموعة كاملة من الآلهة. وعبدتها ثم حطمتها وصنعت غيرها. كانت لدي وقاحة الرغبة في تجاوز الكائن البشري للقيام بما لم تستطع أنت أن تفعله، أو لم تكن ترغب في أن تفعله. لقد تآمرت مع القوى النيرة والمعتمة كلها التي تحت تصرفي لإزاحتك عن عرشك والجلوس عليه بنفسي لإقامة نظام جديد في العالم ـ نظام أقل جوراً وجوعاً، فيه فضيلة ألطف نبرة، وحب أكثر كفاحية.

أحسست بقلبي يصرخ في داخلي. كانت لديه شكاوى كثيرة. إذ أنه لم يكن على وفاق مع الله. ولقد حان الوقت لكي يهيئ تقريراً، دون أن يلفظ كلمة الآن، ليخبره بألمه وسخطه. كانت السنون تترى وأنا معها. وعلى الطين أن لا يغلق فمي قبل أن أدلي بكلامي. إن لكل إنسان صرخة، صرخته الخاصة، ترتفع في الجو قبل أن يموت. لذا علينا أن لا نضيع وقتاً لئلا يفوتنا الأوان. صحيح أن هذه الصرخة لابد أن تتعثر دون جدوى في الهواء، وأنه لا أذن تسمعها هنا، تحت، على الأرض أو هناك، فوق، في السماء. ولكن لا يهم. أنت لست غنمة0 أنت إنسان. وهذا يعني أنك شيء قلق وصارخ. فلتصرخ إذن.

لا تجبن! هكذا قلت لنفسي. ولا يخطر ببالك أنه بما أنك حيوان فانٍ، فإنك لا تستطيع أن تتدخل في إدارة الكون. يا للأسف! آه لو أنك فقط عرفت قوتك لكنت الآن قد تخطيت الحدود البشرية!!

* * *

جاء الربيع ووجدني لا أزال أصارع وأكدح لترويض هذه الجياد الجامحة: الكلمات. وعلى الرغم من مرور آلاف، بل ملايين السنوات منذ الظهور الأول للإنسان، فإن سبيل إغراء اللامرئي قد.ظل على حاله منذ الأزل. ولم تتغير قوانين المطاردة. لا نزال نستخدم الحيلة ذاتها، الصلوات المهتمة بالنفس ذاتها ـ فالروح المثقلة بالجسد لا تستطيع أن تفرد أجنحتها. لكنها تجبر على سلوك طرق اللحم، على قدميها.

كان البدائيون في الكهوف يكافحون لرسم الوحوش البرية التي يتمنون الإمساك بها. كانوا يفعلون ذلك لأنهم كانوا جائعين. ولم يكن لديهم أي قصد في إنتاج الفن أو الجمال الفريد. وكانت الخطوط العريضة للوحش، التي يرسمونها بالألوان أو بالخطوط على

Twitter: @ketab_n

الصخرة، فتنة آسرة بالنسبة لهم، وقصيدة غامضة ستجذب إليها الوحش الذي سيدخل إليها ويُمسك. لهذا كان من الضروري جداً أن يكون الشكل دقيقاً قدر الإمكان، وذلك لكي يتم خداع الوحش المطلوب بسهولة أكبر.

بالطريقة ذاتها كنت أضع الكلمات مثل المصائد، أرتبها بكل الدهاء الذي لدي، لكي أقبض على الصرخة المعجزة التي تظل تتقدم أمامي.

وبغتة تهدم بصمت جدار الاستطلاع والجهد المشروخ. وكما يتمكن المتوحشون عند اكتشاف اسم الإله، أو الشيطان الذي يعذبهم، من وضع شكيمة بين فكيه وإعتلائه وتهيئة المهاميز لجعله يحملهم إلى حيث يرغبون، كذلك فإنني بإطلاقي على بطلي اسماً أحسست بقوته تخترقني مثلما تخترق قوة الجواد فارسه. وبدأت أقتحم بتهور إلى الأمام.

تكشف كل شيء أمام عيني: ظلال خاوية تتعلق بي لإعطائها دمي، لكي تستطيع أن تتشكل أجساداً، رحلات البطل ومغامراته، الحروب والمذابح والحرائق، شؤون الحب والمواجهات الغامضة مع الأرواح العظيمة؛ وأخيراً عند نهاية الرحلة مركب صغير كالتابوت وفي داخله بحاران مسنان، محاربان عجوزان، بطلي وكارون. و أمواج أواسط البحر الكريتي العالية تتلامع وتصطخب تحت الشمس، وهي تتدحرج واحدة بعد الأخرى، وتندفع كالقطعان لتتكسر مهمهمة فوق حصى الشاطئ. هذه الأمواج صارت أبياتاً ثمانية التفعيلات. وكانت حوافي عقلي المغتسلة بالشمس تتلقاها وتضحك مثل شاطئ كريتي.

مع مرور الأيام والأسابيع تزايد توقي لقدوم الفجر من أجل أن أتمكن من الانكباب على الورقة البيضاء من جديد لأرى ما سيفعله بطلي اليوم، وأين سيذهب، وكيف سيتصارع مع القوى النيرة والحالكة التي تهب من قوس الأفق الشامل وتملأ أشرعته. حتى أنا لم أكن أعرف المخبوء. كنت أنتظر، وأنا أنشر الأسطورة من داخلي لكي أتعلم. كنت أكتب دون مخطط عقلاني. قوى أخرى تتحكم بي، قوى ليست متمركزة في الرأس، بل حول العانة. هذه هي التي كانت تهدي يدي وتجبر العقل على المتابعة والتنظيم.

لم يسبق لي أن جربت ألم دودة الحرير وارتياحها الصامتين بهذا الإحساس بالتشابه. عندما تتحول أوراق التوت التي أكلتها كلها في داخلها إلى حرير تبدأ عندها عملية الخلق. تهز رأسها من جانب إلى جانب، فتنتزع أحشاءها برعشة تشنجية، وتستخرج الحرير، خيطاً رفيعاً، بعد خيط رفيع، وتغزل بصبر وبحكمة غامضة كفنها أبيض ذهبياً، وكله من المادة الثمينة.

ليس هناك أحلى من هذا الألم على ما أعتقد، ولا من واجب ملح أكثر من واجب أن تتحول الدودة كلها إلى حرير، واللحم كله إلى روح. ولا التزام أكبر من العمل طبقاً للقوانين السائدة في مشغل الله.

Twitter: @ketab_n

31

النظرة الكريتية

طوال الوقت الذي يبدع فيه الإنسان يستولي عليه المرض الصباحي الذي يستولي على امرأة تغذي ابنها من أحشائها. وجدت من المستحيل علي أن ألتقي بأحد. كانت أقل ضجة تجعل جسدي كله يرتعد. وكنت كما لو أن أبولو قد سلخ جلدي وصارت أعصابي العارية تنجرح بمجرد ملامسة الهواء لها.

كانت الأبيات ثمانية التفعيلات تتدفق صاخبة بيتاً بعد الآخر، وتنتشر على الورق انتشار البحر وأنا على كرسي. كنت أعيش تجربة مآثر أوليس ومحنه. لقد رفع المرساة استعداداً للرحلة العظمى التي لا عودة منها. وكانت جزيرته الصغيرة، وزوجته الصغيرة التافهة، وابنه الساذج الطيب القلب، خانقين له الآن. انتزع نفسه قرفاً ورحل. توقف في أسبارطة، واختطف هيلين، التي كانت تختنق من حقها في الحياة الوادعة. نزل إلى كريت وانضم إلى البرابرة وأحرق القصر المتهاوي. إلا أنه كان يختنق. حتى هذه الجزيرة الهامة كانت ضيقة عليه فاتخذ طريقه جنوباً من جديد. أنا نفسي صعدت إلى سفينته. وكنت أتجول معه تمثالَ حورية بحرية على مقدم السفينة. صار عقلي كوناً متكاملاً، كرة أرضية كنت أرسم عليها، بالحبر الأحمر، الموانئ المتبقية ـ حتى نهاية الأرض. كنت أعرف كل شيء، كل شيء تماماً. وكنت أرى كل شيء وأدل على الطريق. وكان الطريق الرهيب يلتمع واضحاً وضوحاً تاماً في داخلي. ولكن ما أصعب الكفاح للإقفال على هذه الرؤيا الشاملة داخل كلمات، دون السماح بهدر نقطة واحدة منها.

إن المبدع يتصارع مع مادة قاسية غير مرئية، مادة أسمى منه بكثير. وحتى أعظم المنتصرين يظهر مهزوماً، ذلك لأن أعمق أسرارنا، السر الوحيد الذي يستحق أن يعبر عنه، يظل دون إفصاح. ولا يخضع هذا السر للإطار المادي للفن. إننا نختنق داخل كلمة. وعند رؤية شجرة مزهرة أو بطل أو امرأة أو نجمة الصبح، نطلق: «آه!». لا شيء غيرها يمكن أن يتلاءم مع غبطتنا. وعند تحليل هذه الآه نتمنى لو نعيدها إلى فكر وفن، لكي نمنحها للبشر

Twitter: @ketab_n

وننقذها من فنائنا الشخصي. فكم ترخص عندها وتصبح كلمات صفيقة متبرجة مليئة بالهواء والخيال.

ولكن، للأسف، ليست هناك طريقة أخرى لنقل هذه الآه ـ الجزء الوحيد من الخلود فينا ـ إلى البشر. الكلمات! الكلمات! لم يكن لدي، وا أسفاه، خلاص آخر. إذ لا سلطة لي على شيء إلا على ستة وعشرين جندياً مقداماً، على الحروف الستة والعشرين في الأبجدية. قلت لنفسي سأعلن نفيراً عاماً وأعد جيشاً وأقاتل ضد الموت.

أعرف تمام المعرفة أن الموت لا مرئي. إلا أن قيمة الإنسان لا تكمن في النصر، بل في الكفاح من أجل النصر. وأعرف كذلك ـ وهذا هو الأمر الأكثر صعوبة ـ إنها لا تكمن حتى في الكفاح من أجل النصر. إن قيمة الإنسان كامنة في شيء واحد فقط وهو: أن يعيش ويموت بشجاعة دون التنازل بقبول أي جزاء. وأعرف كذلك هذا الشرط الثالث، والذي هو أكثرها صعوبة: أن التيقن من عدم وجود جزاء يجب أن لا يفزعنا. بل يجب أن يملأنا بالغبطة والكبرياء والشجاعة الرجولية.

وفيما كنت أكتب رأيت كلمتين تلحان على الظهور وترفضان الابتعاد، على الرغم من أنني لم أكن أريد ذلك بل الحقيقة أنني حاولت تجنبه. والكلمتان هما (الله) و (الارتقاء). ما هو الله؟ أهو الوهم الأعظم؟ أم الأمل الأعظم؟ أم اليقين الأعظم؟ أم لعله الشك الأعظم؟ على الرغم من أنني كنت أكافح منذ سنين، فإنني مازلت لا أستطيع أن أجيب على هذا السؤال الفاجع بشكل محدد. ظل الجواب يتغير في أعماقي طبقاً للشجاعة أو الثقة أو الجبن الذي كانت روحي تحس به خلال تأملاتها حول الله. ولم أكن متيقناً تماماً عند أي من هذه السيرانات[1] ـ أهو الوهم[2] أم الأمل أم اليقين ـ يجب أن أتوقف وأسلم روحي. كانت الأغنيات الثلاث الصادرة عنها تفتنني بالمقدار ذاته. وكلما ازداد سماعي لأي من هذه الأغنيات قلّت رغبتي في التقدم للغناء أكثر من ذلك.

إلا أنني طوال حياتي كنت واثقاً من أمر واحد، هو أن هناك طريقاً واحداً، وطريقاً واحداً فقط، يؤدي إلى الله، وهو الارتقاء. لا النزول ولا الطريق الأفقي بل الارتقاء فقط. ولقد جعلني عجزي عن تمييز مضامين كلمة (الله) تلك بوضوح، تلك الكلمة التي مُرغت وبولغ في استعمالها من قبل البشر، أتردد كثيراً. إلا أنني لم أتردد أبداً في ما يتعلق بالطريق المؤدي إلى الله، بمعنى آخر إلى الذروة السامية لرغبة الإنسان.

وهناك أيضاً هذا الأمر: كنت مفتوناً بثلاث من مخلوقات الله ـ الدودة التي تصير

(1) السيرانة: كائن أسطوري له رأس امرأة وجسم طائر. كانت تغوي البحارة بغنائها فتقودهم إلى الهلاك.

(2) الكلمة المستخدمة تفيد الوهم، وتفيد «الكميرا»، وهو كائن أسطوري له رأس أسد وجسم شاة وذنب أفعى.

Twitter: @ketab_n

فراشة، والسمكة الطائرة التي تقفز من الماء محاولة تجاوز طبيعتها، ودودة الحرير التي تحول أحشاءها إلى حرير. وكنت أحس دائماً بتوحد غامض معها، لأنني كنت أتخيلها دائماً رموزاً ترمز إلى طريق روحي. ومن المستحيل علي أن أعبّر عن الغبطة التي اعترتني حين رأيت لأول مرة يرقة محفورة في كفّة الميزان الذهبي الدقيق المكتشف في قبور مسينا وفراشة في الكفة الأخرى ـ إنهما رمزان مأخوذان حتماً من كريت. إن توق اليرقة، بالنسبة لي، للتحول إلى فراشة، هو رمز لواجبها ـ وواجب الإنسان ـ الأكثر إلزاماً والأكثر شرعية في الوقت نفسه. فاللّه يصنعنا يرقات. ونحن، بجهودنا ذاتها، يجب أن نصير فراشات.

وقد اعترتني غبطة وإثارة مشابهتان عند رؤية السمكة الطائرة على اللوحات الجصية في كنوسوس، وهي تحلق فوق البحر بأجنحتها التي صنعتها. أحسست بتماثلي مع أسلافي القصيين. الآن، بعد آلاف السنوات، أسير بأمانة على خطاهم: أنا أيضاً كنت أحول الأرض الكريتية إلى أجنحة.

وذات يوم في قرية صغيرة على جزيرة يونانية رأيت (أرأيت؟ أم أنني حلمت بأنني رأيت؟) أيقونة للعذراء أحاطها المؤمنون بإطار من الشوك. ونثروا بيوض دود الحرير على الإطار. كانت البيوض قد فقست. وصارت الدودات الصغيرة، صانعة المعجزات، التي ظهرت منها، تتغذى يومياً بورق التوت. كانت الدودات قد أنجزت مهمتها يوم رأيت الأيقونة. لقد حولت ورق التوت إلى حرير. وصارت العذراء مؤطرة بالشرانق البيضاء. وقلت لنفسي: آه لو أنني أستطيع البقاء أمامها حتى الربيع لأرى الشرانق تتفتح والفراشات البيضاء المتجعدة ـ الأرواح كما يسميها الفلاحون ـ تطوّق أمّ اللّه بعيونها اللامعة الصغيرة.

وكان مسيحيٌّ مؤمن سيقول لي: «لم يكن ما رأيته حلماً. إنك لم تر الدودات(3) بل رأيتنا ـ نحن البشر. فحالما ننجز مهمتنا على الأرض سندخل القبر ثم نخرج منه أرواحاً لنخفق بأجنحتنا حول أم اللّه إلى الأبد. لقد منحنا اللّه عيوناً. وبهذه العيون نرى أنه قد أرسل لنا دودة الحرير لتدلنا على طريقنا. إن الرموز المقدسة النبوية تربك قلوبنا لوهلة، إلا أننا لا نجرؤ على اتخاذ الخطوة التالية: أن نؤمن ونحول الأمل إلى يقين».

* * *

عند الصباح كان العالم متألقاً والبخار يتصاعد منه. كانت قد هبت عاصفة هوجاء أثناء الليل وتلقت الأرض الظمأى المياه السماوية فانتعشت. حين توجهت إلى نافذتي وجدت البحر والأرض يلمعان بحلاوة، والسماء حديثة الاستحمام ولامعة، وبيضاء ناصعة من أشعة الشمس. وكان صدري منتعشاً كقطعة أرض أيضاً. وكتراب ظامئ تلقى عاصفة الليل كلها.

---

(3) في هذا المقطع كله فضلت أن أجمع الدودة على دودات، بسبب الإيجابية التي يتعامل بها المؤلف مع هذه المخلوقات، ولتمييزها عن الديدان التي لا تعطي الإيحاء ذاته.

Twitter: @ketab_n

كانت الغبطة التي شعرت بها عظيمة إلى درجة أنني رأيت من المستحيل علي أن أنكب على أوراقي في ذلك اليوم لأحول العالم إلى أبيات ثمانية التفعيلات. فتحت الباب وخرجت.

كان شهر آب، أسخى الشهور وأحبها، مثل رب أسرة نشيط يتجول في حقول البطيخ والكروم وقبضتاه مليئتان بالثمار الريانة، وهو ملوث بالتفالة من التعريق (صنع العرق) ـ ساتير مقدس ذو ذقنين وثلاثة كروش وذنب منتصب. جلت قدرته! ذلك الذي يتمتع بكرمة، اليونان، وبخمرها.

تلك هي آلهتنا المحلية، الآلهة الحقيقية، الخالدة. وتحت شمس كهذه وأمام بحر كهذا وبين جبال كهذه كيف لآلهة أخرى ـ دون كروش ودون متعة ودون أوراق دوالي على أصداغها ـ أن تولد؟ وكيف لها أن تنمو قوية؟ وكيف كان لأبناء اليونان وبناتها أن يؤمنوا بجنة تختلف عن هذه الجنة الأرضية؟

دخلت الكروم. كانت الصبايا يقطفن العنب، ووجوههن ملفوفة بإحكام بمناديل بيضاء لترد عنهن أشعة الشمس المحرقة. يرفعن رؤوسهن حين يمر بهن شخص فلا ترى منهن إلا العيون الفاحمة المتلامعة في ضوء الشمس والمليئة بأطياف الرجال.

سمحت لجسدي أن يختار الطريق الذي يشاء. ولقد سرتني فكرة أنه هو الذي يقودني، وليس أنا الذي أقوده. لا يكون الجسد مادة عمياء صماء حين يستحم بالنور اليوناني. إنه يمتلئ بروح هائلة تجعله فوسفورياً. فإذا تُرك لحريته يستطيع أن يتوصل إلى قراراته، وأن يجد الطريق الصحيح دون تدخل من قبل العقل. وعلى العكس من ذلك ليست الروح شبحاً هوائياً غير مرئي. إنها تستخدم بعضاً من يقين الجسد ودفئه بطريقتها الخاصة. وتتذوق العالم باستمتاع شهواني. وكأنما لها فم ومنخران ويدان تداعب بهما العالم. كثيراً ما ينقص الإنسان الصبر اللازم للحفاظ على إنسانيته كلها. فيشوه نفسه. يرغب، أحياناً، في التحرر من روحه وأحيانا من جسده. ويبدو أن استمتاعهما معاً حكم قاس. ولكن هذين العنصرين المجيدين الخالدين، هنا في اليونان، يستطيعان أن يتمازجا تمازج الماء الحار بالماء البارد. فتأخذ الروح شيئاً من الجسد، ويأخذ الجسد شيئاً من الروح. يصبحان صديقين وبهذا يتمكن الإنسان، على الأرضية اليونانية المدروسة المقدسة، من العيش والتطواف وهو سليم ودون تشوه.

توقفت حين عثرت على مشرب عام. كان هناك وعاء من النحاس مربوطاً إلى سلسلة دقيقة. وكنت ظمآن. وقد أنعشني الماء كلية حتى أسفل قدمي، فطقطقت عظامي. وقفت قليلاً تحت شجرة زيتون. كانت الجنادب قد ألصقت بطونها إلى جذعها وراحت تغني. صمتت بغتة وقد أخافتها رؤية هذا الجندب الجبار[4]. ومر بي فلاحان وقد حمّلا حماريهما الصغيرين بالعنب. وحيياني قائلين: «لك طول العمر»، وهما يضعان كفيهما على صدريهما.

(4) يقصد نفسه.

Twitter: @ketab_n

وكانت سويقات العناقيد تتدلى من لحيتيهما. كان الطريق كله عابقاً برائحة الخمر. وبمواجهتي رأيت أشجار سرو وصلباناً سوداء بارزة من فوق سياج ناصع البياض. كان هذا هو المعتزل الهادئ الذي يرتاح فيه الموتى، وبينهم والدي. و قطفت ورقة زيتون ووضعتها بين أسناني وعضضت عليها فامتلأ فمي بالمرارة. غادرت ظل الزيتونة وانطلقت من جديد، وأنا أغذ الخطى. عندها عرفت إلى أين يأخذني جسدي، إلى الأسلاف القدامى بعيونهم اللوزية وشفاههم الشهوانية وخصورهم الدقيقة كالخواتم، الأسلاف الذين كانوا، قبل آلاف السنوات، يلعبون مع الإله القوي القادر، الثور.

لا يمكن للإنسان، على ما أعتقد، أن يحس برهبة أعمق وأكثر جذرية من الرهبة التي يحس بها وهو يمشي على الأرض التي يتمدد فيها أسلافه ـ جذوره. إن قدميك تمدان جذوراً تنزل في أعماق الأرض ثم تفتش من أجل أن تختلط بجذور الموتى الخالدة العظيمة. ويملأ عبير التراب والبابونج الواخز أحشاءك بالاسترخاء وبالرغبة في الخضوع الحر للقوانين الأزلية. أما إذا كانت ثمرة الموت الحلوة لم تنضج في أعماقك بعد، فإنك تستثار وتتمرد رافضاً حرمانك من النور والكفاح ومشكلات الحياة العظيمة في هذا الوقت المبكر. في حالة كهذه تسير بسرعة فائقة على هذا التراب المؤلف من عظام الأسلاف وأدمغتهم ولا تترك لقدميك فرصة مد جذورهما، وتطير من جديد إلى الملعب ذي الهالة، إلى النور.

كانت العاطفة التي شعرت بها، وأنا أسير على الأرض القديمة في كنوسوس، غنية إلى درجة الترف، ومعبأة بالموت والحياة، إلى درجة أنني أحسست بالعجز عن فهمها بوضوح. بدلاً من الحزن والموت، وبدلاً من الاسترخاء، انطلقت من الأفواه البالية وصايا صارمة. أحسست بالموتى يتعلقون بقدمي بشكل سلاسل طويلة، ليس لإنزالي إلى عتمتهم الباردة، بل من أجل التمسك بشيء ما والخروج معي إلى النور لتجديد المعركة.

غبطة لا تُكبح وظمأ لا يُروى، إضافة إلى الثيران التي تخور في مروج العالم العلوي، مع ملح البحر ورائحة العشب، كلها، تغلغلت عبر قشرة الأرض منذ آلاف السنين ومنعت الموتى من الموت.

تطلعت إلى صراع الثيران المرسوم على الجدران: رشاقة المرأة وبهاؤها، وقوة الرجل التي لا تخطئ، كيف كانت تلعب مع الثور الهائج وتواجهه بنظرات جريئة. لم يقتلاه حباً به، ولكن لكي يتوحدا به، كما في الأديان الشرقية، أو لأنهما قد استولى عليهما الخوف منه فلم يجرؤا على التطلع إليه. بدلاً من ذلك كانا يلعبان معه، بإصرار وباحترام ودون كراهية وربما حتى بامتنان. وذلك لأن هذه المعركة المقدسة مع الثور كانت تشحذ قوة الكريتي وتنمي لياقته البدنية وجماله الجسدي، والدقة النارية والباردة ـ معاً ـ في الحركة وقوة الإرادة والشجاعة ـ التي يصعب الحصول عليها ـ طرح قوته أمام قوة الوحش المخيفة دون أن يسيطر عليه الذعر.

Twitter: @ketab_n

وهكذا حوَّل الكريتيون الخوف، وصنعوا منه لعبة مثيرة تتعرض فيها فضيلة الإنسان، عند احتكاكها المباشر بالقوة التي لا عقل لها، إلى التحريض فتنتصر ـ تنتصر على الثور دون أن تقضي عليه؛ لأنها لا تعتبره عدواً بل زميل عمل. فمن دونه ما كان للجسد أن يكون بهذه المرونة والقوة، وما كانت الروح ستكون بهذه البسالة.

لاشك أن الإنسان يحتاج إلى تدريب كبير لكلٍ من جسده وروحه إن كان عليه أن يتحمل رؤية الوحش واللعب معه في هذه اللعبة الخطرة. ولكنه ما إن ينهي تدريبه ويتملك الإحساس باللعبة حتى تصبح كل حركة من حركاته بسيطة وواثقة وتلقائية فيتطلع إلى الخوف بجسارة.

وبينما كنت أتفرج على المعركة المحفورة على الجدران، المعركة المغرقة في القدم بين الإنسان والثور (الذي نسميه اليوم الإله) قلت لنفسي: هكذا كانت النظرة الكريتية.

وبغتة استولى الجواب على عقلي. ليس على عقلي فقط، بل على قلبي وأحشائي أيضاً. هذا ما كنت أبحث عنه وما كنت أريده. علي أن أملأ عينيْ «أوليسي» الخاص بي بهذه النظرة الكريتية. لقد كان عصرنا ضارياً. والثور ـ القوى المظلمة الخفية ـ قد أفلت من عقاله. وكانت قشرة الأرض تتفتت وتطقطق. الكياسة والانسجام والتوازن والسعادة وحلاوة الحياة، هذه كلها فضائل ومتع علينا أن نتحلى بالشجاعة الكافية لتوديعها. إنها من عصور أخرى في الماضي أو في المستقبل. لكل عصر ملامحه الخاصة به. وملامح عصرنا شرسة. ولذا فإن الأرواح الدقيقة لم تجرؤ على النظر إلى عينيه مباشرة.

ولابد لأوليس، الذي كان يبحر على الأبيات الشعرية التي أكتبها، من أن تتاح له فرصة النظر إلى الهاوية بنظرة يونانية كهذه ـ دون أمل أو خوف. ولكن دون صفاقة أيضاً ـ وهو يقف شامخاً على شفاه الجرف.

لقد تغيرت حياتي ابتداءً من ذلك اليوم، يوم النظرة الكريتية، كما كنت أسميه. واكتشفت روحي المكان الذي تقف فيه وأين تلقي بنظرها. هدأت المشكلات الرهيبة التي كانت تعذبني، وابتسمت وكأن الربيع قد جاء، وتغطت الإرباكات الهمجية، مثل الأشواك النضرة، بالزهور. كانت عودة متأخرة للشباب وغير متوقعة.

ومثل الحكيم الصيني القديم، بدوت وكأنني ولد أشيب، عجوز مقعد بلحية بيضاء كالثلج. ومع مرور السنين صارت اللحية شهباء. ثم راحت تسوَدّ تدريجياً ثم تساقطت، وفي سنوات شيخوختي انتشر زغب ناعم دقيق على خدي.

لم يكن شبابي إلا مجموعة من المقلقات والكوابيس والتساؤلات، وسنوات نضجي لم تكن إلا إجابات متعثرة. كنت أتطلع إلى النجوم وإلى البشر وإلى الأفكار ـ أية فوضى! وأي كرب أن تلاحق الله، ذلك الطائر الأزرق ذا المخالب الحمراء، في وسطها. سلكت طريقاً

Twitter: @ketab_n

ووصلت إلى نهايته. هاوية. عدت مذعوراً وسلكت طريقا آخر. ولكن الهاوية كانت مرة أخرى في نهايته.

انسحاب جديد، ورحلة جديدة، وفجأةً، الهاوية ذاتها تفغر فاها أمامي من جديد. طرق العقل كلها كانت تؤدي إلى الهاوية. كان شبابي ورجولتي يدوران حول قطبي الألم والأمل، ولكنني الآن في شيخوختي أقف أمام الهاوية هادئاً ودون خوف. لم أعد أهرب ولم أعد أذل نفسي. لا. ليس أنا. بل أوليس الذي كنت أكوّنه.

خلقته لكي يواجه الهاوية بهدوء. وخلال خلقه كنت أجاهد لكي أتشبه به. أنا نفسي كنت أخلق. لقد وهبت أشواقي كلها لهذا الأوليس. كان هو القالب الذي أحفره لكي يتمكن إنسان المستقبل من الانسكاب فيه. كل ما كنت أتوق إليه وأعجز عن تحقيقه، سيحققه هو. إنه الفتنة التي ستسحر القوى النيرة والمظلمة التي تخلق المستقبل. الإيمان يحرك الجبال. آمن به وسيأتي. من الذي سيأتي؟ الأوليس الذي خلقته إنه الآركيتيب (النموذج الأصلي).

مسؤولية الخالق جسيمة. إنه يفتح طريقاً يمكن أن يحث المستقبل ويجبره على اتخاذ قراره.

تطلعت إلى البحر الكريتي، إلى الأمواج التي كانت ترتفع شامخة، فتلتمع للحظة تحت الشمس ثم تسرع لإلقاء الشبح على حصى الشاطئ بهسهسة. أحسست بدمي يجري على منوالها، وهو يغادر قلبي وينتشر حتى أطراف أصابعي وجذور شعري. كنت أتحول إلى بحر، إلى رحلة لا نهاية لها مليئة بالمغامرات القصية، إلى قصيدة فخورة مُيئسة مبحرة بأشرعة حمراء وسوداء فوق الهاوية وفي ذروة القصيدة قبعة بحار. وتحت القبعة جبين قاس لوحته الشمس، وعينان سوداوان وفم مبقع برذاذ الملح، وتحته كفان ضخمتان متصلبتان كالبراثن تمسكان بالخوذة.

لم يعد يستطيع ـ أي لم نعد نستطيع ـ التلاؤم أكثر من ذلك داخل أرض الوطن الضيقة. اخترنا أكثر الأرواح رفضاً للخضوع في الجزيرة. وحملنا ما استطعنا من بيوتنا واعتلينا سفينة وارتحلنا.

إلى أين؟ ستهب الريح وترينا طريقنا. جنوباً! إلى هيلين التي كانت مسمرة على ضفتي يوروتاس، وضيقة مثلنا بالحياة الآمنة الفاضلة المريحة، وإلى جزيرة كريت الأصلية العظيمة التي كانت تذوي، لأن القدرة قد فارقت أصلاب حكامها. كانت ترفع ذراعيها وسط البحر وتنادي البرابرة لعلها تنجب منهم أطفالاً. إلى أفريقيا، إلى نهايات الأرض، إلى الثلوج الأزلية، وإلى الموت!

في البدء كان الطائر الأزرق ذو المخالب الحمراء يسير في المقدمة. لكنه سرعان ما تعب فخلفناه وراءنا. وظللنا متحررين في الهواء الخاوي دون دليلِ طائر. بين حين وآخر

Twitter: @ketab_n

كانت أرواح عظيمة خالدة تنشب مخالبها في حبال أشرعة سفينتنا وتغني بغية إغوائنا ولكننا كنا ننفجر ضاحكين فتخاف وتهرب. وكنا أحياناً نسمع صرخة رهيبة تنطلق من أعماق البحر: «توقفوا! أين تذهبون؟ يكفي!». وكنا نتكئ على شفير السفينة ونرد صارخين: «لا. لا يكفي. لا يكفي. اهدأوا أنتم!». وذات مساء جاء الموت والتف على القيدوم. كان يلبس مثلنا، جلد ثعلب، وقبعة زرقاء مدببة تتوجها بمبونة[5] حمراء. كانت له لحية بيضاء كالثلج وكان وجهه وصدره وذراعاه وفخذاه محددة بندوب جراح. ابتسم لنا بلطف. وفهمنا. لقد وصلنا أخيراً إلى نهاية رحلتنا.

استلقينا باسترخاء على أرض السفينة وأغمضنا أعيننا فرأينا: فوق القارات والبحار التي عبرناها، وفوق الرجال الذين اصطدمنا بهم، والنساء اللواتي قلبناهن، فوق الأرض والماء والنار واللحم، كانت هناك رحلة أخرى. قاربها مصنوع من الغيوم والقارات والبحور. والناس فيها مصنوعون من خيوط حريرية مسحوبة من أحشائنا. وفوقها، في أعلى مستوى بينها كلها، تحطم قاربنا الغيمي وتقطعت خيوطنا الحريرية. تلاشت مظاهر العالم كلها ولم يتبق على ذلك السطح السامق إلا شمس خرساء عمياء ساكنة أكثر سواداً من السواد. قلنا لأنفسنا لعلها الله. من يدري؟ لعلها الله. حاولنا أن نرفع أيدينا لتحيته لكننا لم نستطع.

بينما كنت أكتب هذه (الأوديسة) على شاطئي الكريتي كانت القوى الشيطانية تستعد للحرب العظمى الثانية. هبت ريح من الجنوب على الجنس البشري وتشققت أسس الأرض، وأنا منكب على أوراقي أصغي إلى الضجيج الصادر عن الأمواج والبشر والقوى الشيطانية، مبقياً لروحي حياة غالية لئلا يهيمن علي الذعر. جاهدت للتكهن بالإنسان، ولإغرائه بكلمات منظمة ومنغمة، ذلك الإنسان الواقع وراء المذابح والدموع، وراء إنسان اليوم القرد.

وعلى الرغم من أنه ظل شبحاً معلقاً وسط الهواء فإنني كنت أحس أني، حين أنكب وأكتب، أنقل إليه دمي. لقد أُفرغت، وهو امتلأ. وبدأ جسده يصلب شيئاً فشيئاً ويتحرك ويأتي.

دخلت حلماً عميقاً. لقد فني أعمق مستويات الحقيقة، المستوى الصلب الذي ترتكز مساحته كلها على الأرض، وتصاعد عالياً في الجو، مثل نار تهب عليها ريح قوية، أسمى مستويات الحقيقة، روح الإنسان.

كنت أشتغل طوال النهار. وأنام الليل كله. في حياتي كلها لم يسبق لي أن اشتغلت ليلاً. أنا مثل الساعة الشمسية، من دون شمس أصمت SINE SOLE SILEO. فالليل، بأحلامه وصمته وبالأبواب المعتمة التي يفتحها فيّ، يهيئ لي عملي لليوم التالي.

الفائدة الأسمى في هذا الموضوع هي الوقت. حين أرى الناس خارجين للنزهة، أو

---

(5) كتلة أو كرة من الريش للزينة.

Twitter: @ketab_n

يتمشون دون هدف، أو يبددون الوقت في مناقشات لا طائل منها، أحس بالرغبة في الذهاب إلى ناصية الشارع لمد يدي مثل شحاذ وأطلب منهم: «صدقة!، أيها المسيحيون الطيبون. امنحوني القليل من الوقت، الذي تضيعونه، ساعة، ساعتين، أي شيء تحبون».

* * *

بدأ النهار يأفل. عقدت ذراعي وأسندت رأسي إلى الوراء على الجدار، ورحت أراقب الشمس الغاربة. لم أكن أحس بفرح أو بحزن أو بتعب. إحساس بالراحة فقط. وكأن أحشائي قد أفرغت. وكأنني قد نزفت دمي كله. وكأنني قشرة شفافة قاسية تركها الجندب على جذع شجرة الزيتون حين فقس. كان مركب شراعي صغير بشراع أحمر عائداً من الصيد. وكنت أستطيع تمييز السمك المتلامع في قاعه. جزيرة صغيرة في مواجهتي مليئة بالبنفسج. وكنيسة المصلوب المهجور الصغيرة تلمع بيضاء على قمة الجبل مثل بيضة. والضوء يتشبث بجدرانها البيضاء الناصعة، ولا يرغب في مغادرتها.

كنت أستمع إلى خشخشة الحصى عن يميني. وكان شخص يسير مسرعاً على الحصى ويقترب. التفتُّ. فلمعت قبعة مدببة في الغسق الأرجواني، وعبقت في الهواء الرائحة الواخزة للعرق البشري. انتقلت إلى طرف المقعد الحجري الذي كنت أجلس عليه فأفسحت له مجالاً ليجلس قريباً مني. قلت: «أهلاً. كنت أنتظرك».

انحنى والتقط بعضاً من أعشاب البحر التي قذفت بها الأمواج. وضعها بين شفتيه، وقال: «ها أنا ذا. إنني مسرور لرؤيتك».

كان الليل الأزرق الرقيق يهبط من السماء ويصعد من البحر. وعلى اليابسة وراءنا كانت طيور الليل تطير بين أشجار الزيتون. كانت صرختا الحب والجوع الخالدتان العظيمتان تتجاوبان في الصمت الأسود. الحيوانات الصغيرة المختبئة بين الشجيرات القصيرة جائعة هي الأخرى. وهي في حاجة إلى الحب أيضاً. وتصاعدت نغمة حزينة من الأرض.

ظللنا صامتين. وكان في وسع كل منا أن يسمع قلبه يخفق بهدوء. كان يبدو أن هذه الأشواق الليلية كلها، وأن هذه الأصوات المتصادمة كلها، كانت تتناغم بمرورها في أحشائنا.

كانت العذوبة والغبطة عظيمتين إلى درجة أن الدموع بدأت تنسكب من عينيّ. وانبعثت من أعماقي كلمات قديمة غامضة. وتوقفت على شفتي:

يتساوى الموت والميلاد أيها الفتيان
ويتساوى وجع القلب والغبطة
ويتساوى أن تبحر وأن ترسو
كما يتساوى الترحيب والتوديع.

التفتُّ إلى الرفيق الصامت إلى يميني وسألته: «هل نتحرك يا كابتن أوليس؟ هل وصلنا؟

Twitter: @ketab_n

يبدو أن الزمن قد توقف، وكأنه قد تحول إلى أزل. والخواء في كفي مثل مخطوطة رسمت عليها البحار والأراضي. والفرج ـ ما نسميه فرجا ونمد أيدينا بلهفة نحو السماء لكي نصل إليه ـ قد صار قطفة حبق وراء أذني. ألا تشم رائحة عبيره في الهواء؟».

تنشق رفيقي بعمق وابتسم.

قال: «لقد أفرج عنك من الفرج». كانت رياح البحر قد جعلت صوته قاسياً وأجش: «لقد أفرج عنك من الفرج، وهذه أسمى مآثر الإنسان. انتهيشرطك في خدمة الأمل والخوف. لقد انحنيت فوق الهاوية ورأيت ظهورات العالم تنقلب رأسا على عقب ولم تخف. انحنينا معاً فوق الهاوية، يا رفيقي الغالي، ولم نخف. هل تتذكر؟».

وقفزت إلى ذهني الرحلة الرهيبة. وراح البحر يرعد من صدغ إلى صدغ. واتسعت ذاكرتي فرأيت. وعاودت الرؤية. واستعدت الاستمتاع بالطريقة التي اقتلعنا أنفسنا بها من الابن والزوجة وأرض الآباء والحياة الوادعة، وكيف خلفنا وراءنا الفضيلة والحقيقة، وكيف مررنا بين سيلا وكاربديس[6] الله، دون أن نخسر سفينتنا، وكيف انطلقنا إلى اتساع البحر بأشرعة مملوءة وشققنا طريقنا ببسالة نحو الهاوية.

ـ «كانت رحلة جميلة». قلت ذلك، وأنا ألمس ركبة رفيقي بمحبة حقيقية «ولقد وصلنا الآن».

ـ وصلنا؟ سألني مندهشاً. ما الذي يعنيه هذا؟

ـ أعرف. يعني أننا نرحل الآن.

ـ نعم. نرحل الآن. دون قارب ودون بحر ودون جسد.

ـ ونحن أحرار.

ـ لا. أحرار من الحرية. ما بعد.

ـ ما بعد؟ أين؟ عقلي عاجز عن استيعاب ذلك.

ـ ما بعد الحرية يا رفيقي. تشجع.

ـ أخاف اللحاق بك. إن قوتي لا تصل إلا إلى هنا. لا أستطيع الذهاب أبعد من ذلك.

ـ لا يهم يا أبي. لقد أديت واجبك. ولقد أنجبت ولداً أسمى منك. أنت تبقى هنا كالطافية[7]. أما أنا فسأذهب إلى ما هو أبعد.

---

(6) سيلا: صخرة جنوبي الشاطئ الإيطالي. وكاربديس تيار خطر في مضيق مسينا. ومن الاسمين جاء الاسمان الأسطوريان عن غولتين تشكلان خطراً على البحارة. والمرور بين سيلا وكاربديس يعني الخيار بين خطرين.

(7) عوامة لإرشاد السفن.

Twitter: @ketab_n

نهض وشد حزامه ونظر بعيداً عبر الظلمة. وسقط نجم مثل دمعة على خد الليل. وهبت ريح من الأرض فصهلت الأمواج في الصمت مثل جياد تستيقظ. مد لي يده. فصرخت، وكأن روحي تفارقني: أأنت راحل؟

انحنى علي وقبل كتفي اليمنى ثم كتفي اليسرى ثم عيني الاثنتين. و غطتني شفتاه بمياه مالحة. ابتسم وخرج صوته لعوباً وعطوفاً: من كان ذلك الزاهد الذي بحث عن اللّه أربعين عاماً ولم يستطع أن يجده؟ كان شيء معتم يلوح في الوسط ويعيقه. إلا أنه ذات صباح رأى: كان ثوبا من الفرو يحبه كثيراً ولم يكن قلبه يطاوعه للتخلي عنه[8]. ألقاه بعيداً. وبغتة رأى اللّه أمامه. أنت فروتي القديمة يا رفيقي العزيز. وداعاً.

ارتعبت. كانت كلماته الأخيرة تبدو وكأنها قادمة من البعيد البعيد، من الضفة الأخرى. قفزت واقفاً. وفتشت في الظلمة.

لا أحد.

---

(8) قدم هذه القصة من قبل عن جرة ماء.

Twitter: @ketab_n

32

خاتمة

أقبل يدك يا جدي الحبيب. أقبل كتفك اليمنى. وأقبل كتفك اليسرى. لقد انتهى اعترافي وعليك أن تحكم الآن. إنني لم أسرد تفاصيل الحياة اليومية. فلقد كانت قشوراً. أنت كنت تلقيها في لجة الهاوية. ولقد فعلت مثلك. كانت الحياة، بأحزانها الكبيرة والصغيرة، وبأفراحها الكبيرة والصغيرة، تجرحني أحياناً وتلاطفني أحياناً. لقد هجرتنا تلك الشؤون اليومية الاعتيادية وهجرناها. لم تكن جديرة بعناء الالتفات إلى الوراء وانتشالها من الهاوية. لن يخسر العالم شيئاً إذا ما ظل الناس الذين عرفتهم غارقين في النسيان. فالاتصال مع معاصريّ لم يؤثر على حياتي كثيراً. لم أحب أناساً كثيرين، إما لأنني فشلت في أن أفهمهم، وإما لأنني كنت أنظر إليهم باحتقار. وربما أيضاً لأني لم يصدف لي أن التقيت بالكثيرين ممن يستحقون أن يُحَبّوا. إلا أنني لم أكن أكره أحداً، وذلك على الرغم من أنني قد آذيت العديد من الناس دون أن أكون راغباً في ذلك. لقد كانوا عصافير دورية. وأنا كنت أرغب في تحويلهم إلى نسور. انطلقت بغية تخليصهم من الاعتدال ومن التكرار، فدفعت بهم دون أن آخذ بعين الاعتبار قدرتهم على الاحتمال. فتحطموا على الأرض. لم يكن يثيرني إلا الموتى الخالدون، السيرينات العظيمة: المسيح وبوذا ولينين. منذ سنوات عمري الأولى كنت أجلس عند أقدامهم وأصغي باهتمام إلى أغنيتهم المغوية المليئة بالحب.

ولقد كافحت طوال حياتي لكي أنقذ نفسي من كل من هذه السيرينات، دون التنكر لأي منها. كافحت لتوحيد هذه الأصوات المتصارعة الثلاثة وتحويلها إلى نغم منسجم.

ولقد أحببت نساء. كنت محظوظاً في الالتقاء بنساء فذات في طريقي. لم يسبق لأي رجل أن قدم لي معروفاً أو عوناً في كفاحي بالقدر العظيم الذي فعلته أولئك النساء. وواحدة منهن أكثر من الجميع: الأخيرة. ولكنني ألقي على هذا الجسد المبتلى بالحب الوشاحَ الذي ألقاه أبناء نوح على أبيهم السكران. إنني أحب أسطورة أسلافنا عن

Twitter: @ketab_n

إيروس وبسيشه[1]. ولا بد أنك قد أحببتها أيضاً يا جدي. إنه لمن المخجل والخطر معاً أن تشعل قنديلاً فتبدد الظلمة وترى جسدين مشتبكين في عناق. كنت تعرف ذلك، أنت الذي خبأت زوجتك الحبيبة جيرونيما دولا سكويفاس في غموض الحب القدسي. إنني أفعل الشيء ذاته مع جيرونيماي. رياضية رفيقة وجسور، نبع بارد في وحشتنا اللا إنسانية، وراحة عظيمة! الفقر والعري. نعم، لقد كان الكريتيون على حق حين قالوا إن الفقر والعري لا أهمية لهما إذا قيضت لك زوجة صالحة. إن لدينا زوجتين صالحتين: زوجتك جيرونيما وزوجتي هيلين. أي حظ عظيم هذا يا جدي! كم من المرات لم نقل فيها لأنفسنا ونحن ننظر إليهما: بورك اليوم الذي ولدنا فيه!

إلا أننا لم نكن نسمح للنساء، وحتى لأعزهن، بأن يضللننا. لم نسلك طريقهن المفروش بالزهور بل أخذناهن معنا. لا. لم نأخذهن بل إن هاتين الرفيقتين الباسلتين تبعتانا في ارتقائنا بملء إرادتهما.

شيء واحد كنا نلاحقه طوال حياتنا. رؤيا قاسية لاحمة صامدة: الجوهر. ومن أجله كم من السموم قدمها لنا الآلهة والبشر لكي نشربها وكم من الدموع ذرفنا. وكم من الدماء! وكم من العرق الغزير! طوال حياتنا كان هناك شيطان (أشيطان أم ملاك؟) يرفض أن يدعنا في سلام. كان ينحني فوقنا ويلتصق بنا ويهمس في آذاننا: «عبثاً. عبثاً. عبثاً». كان يظن أنه سيجعلنا نتجمد في دروبنا. إلا أننا صددناه بهزة من رؤوسنا، وصررنا على أسناننا وأجبنا: هذا ما نريده بالضبط. إننا لا نعمل لقاء أجر ولا رغبة بأجرة يومية. إننا نقاتل في الجو الخالي، ما وراء الأمل، ووراء الفردوس!

كان للجوهر أسماء عدة. وكان يظل يغيّر أقنعته طالما نحن نتابعه. أحياناً كنا نسميه الأمل الأسمى. وأحياناً اليأس الأسمى. أحياناً ذروة الروح البشرية وأحياناً سراب صحراء. أحياناً الطائر الأزرق وأحياناً الحرية. أخيراً كان يبدو لنا مثل دائرة مغلقة، القلب البشري مركزها والخلود محيطها، دائرة أطلقنا عليها اعتباطاً اسماً ثقيلاً محملاً بآمال العالم ودموعه كلها: «الله».

في داخل كل رجل متكامل، في سويداء قلبه، مركز غامض يدور حوله كل شيء آخر. وهذا الدوران الغامض يوحد بين أفكاره وأفعاله. ويساعده على العثور على الانسجام الكوني أو اختراعه. هذا المركز بالنسبة لبعضهم هو الحب، ولآخرين هو اللطف أو الجمال. ولغيرهم التعطش للمعرفة أو التوق للذهب وللسلطة. إنهم يتفحصون القيمة النسبية لكل شيء

---

(1) تزوج إيروس من بسيشة. وصار يزورها كل ليلة ويرحل عند الفجر. وقد أوصاها أن لا تحاول رؤية وجهه. ولكنها ذات يوم أشعلت شمعة وقربتها من وجهه لتراه، فسقطت عليه قطرة أيقظته. واختفى من حياتها إلى الأبد.

Twitter: @ketab_n

آخر، ويلحقونها بهذه العواطف المركزية. ويا لتعاسة الإنسان الذي لا يحس بنفسه محكوماً في داخله من قبل سلطان مطلق. فحياته غير المحكومة والمشوشة تبعثرها الرياح الأربع.

ومركزنا، يا جدي، المركز الذي اجتاح العالم المرئي في عصفه، والذي كافح للسمو به إلى أعلى درجات البسالة والمسؤولية كأنّ المعركة مع الله. أي إله؟ الذروة القاسية لروح الإنسان، الذروة التي نحن دائماً على وشك الوصول إليها، والتي تقفز دائماً على قدميها، وتصعد أعلى فأعلى. «وهل يتقاتل الإنسان مع الله؟»، سألني بعض المعارف ساخرين ذات يوم. وأجبتهم: «ومع من غيره تتوقعون من الإنسان أن يتقاتل؟». فعلاً. مع من غيره؟

لهذا، ياجدي، كانت حياتنا كلها ارتقاء، ارتقاء وجرفا وعزلة. لقد انطلقنا مع العديد من رفاق الكفاح والعديد من الأفكار في موكب عظيم. ولكن فيما كنا نصعد وفيما كانت الذروة تنتقل وتصبح أبعد فأبعد كان رفاق الكفاح والأفكار والآمال مواظبين على توديعنا. تتقطع أنفاسهم، فلا يعودون راغبين أو قادرين على الصعود أعلى من ذلك. وظللنا وحيدين وعيوننا مثبتة على الصعود أعلى من ذلك. وظللنا وحيدين وعيوننا مثبتة على (الجوهر: الموناد، المتحرك)، الذروة المتنقلة. ولم يتسلط علينا الصلف ولا اليقين الساذج بأن تقف الذروة ذات يوم وتثبت، وبأننا سنصلها، ولا حتى الاعتقاد بأننا إذا ما وصلناها سنجد هناك في الأعالي السعادة والخلاص والفردوس. كنا نرتقي لأن فعل الارتقاء ذاته بالنسبة لنا هو السعادة والخلاص والفردوس.

إنني أعجب للروح البشرية: ما من قوة في السماء أو الأرض لها عظمتها. دون وعي بالأمر تحول في داخلنا هذه الطاقة الجبارة. إلا أننا نرهق أرواحنا بأثقال من اللحم والشحم. ونموت دون أن نعلم ما نحن وما نستطيع إنجازه. أهناك قوة أخرى على الأرض تستطيع أن تنظر إلى بدء العالم ونهايته مباشرة دون أن يصيبها العمى؟

في البدء لم تكن الكلمة (كما تعظنا الأرواح الرازحة تحت الشحم واللحم). ولم يكن الفعل. ولا يد الخالق المليئة بالطين المتلقي للحياة. في البدء كانت النار. وفي الختام ليس هناك خلود ولا جزاء. لا نعيم ولا جحيم. في الختام النار. وبين هاتين النارين، يا جدي العزيز، نحن نرحل. ولقد كافحنا، بإمرة النار، وبالعمل معها، من أجل أن نحول اللحم إلى لهب، والفكر إلى لهب، والأمل واليأس والشرف والعار والمجد إلى لهب. كنت تسير في المقدمة، وأنا أتبعك. ولقد علمتني أن لهبنا الداخلي، المتناقض مع طبيعة اللحم، قادر على التأجج بحدة تتزايد أبداً مع مر السنين. لهذا كنت تزداد قسوة باستمرار وأنت تشيخ (كنت أرى ذلك فيك وأعجب بك لأجله). وتزداد شجاعة كلما اقتربت من الهاوية. ألقيت بأجساد القديسين والحاكمين والرهبان في بوتقة نظرتك وذوبتها كما تذوب المعادن. فأزلت عنها صدأها وصفيت منها الذهب الخالص: روحها. أية روح؟ اللهب. ووحدت ذلك بالحريق الذي ولدنا وبالحريق الذي سيلتهمنا.

Twitter: @ketab_n

كان المتعقلون يتهموننا بأننا نكبر الأجنحة الملائكية كثيراً، وبأن لدينا صفاقة الرغبة في إطلاق السهم إلى ما وراء الحدود البشرية. إن شيطاناً في داخلنا ـ ولنسمه لوسيفر لأنه يجلب النور ـ هو الذي يظل يحثنا على ذلك. فهو الذي كان يرغب في تخطي الحدود لكي يذهب إلى حيث لا ندري. كل ما نعرفه أنه يذهب أعلى. ومثل القديس جورج، الذي كان يحمل على كفل جواده الأميرة الشابة التي كانت تختفي وتتعرض للخطر داخل كل شيء حي، والتي كانت ترغب في الهرب لإنقاذ نفسها، لا بد أن القرود قد أحسّت بزخم الكون فيها، بالطريقة ذاتها، يحرضها على أن تقف على أرجلها الخلفية، وعلى الرغم من أن الألم كان يجعلها تعول، وعلى أن تحك عودين معاً لتوليد شرارة، على الرغم من أن القرود الأخرى كان تسخر منها. وهكذا ولد الإنسان القرد، وولد الإنسان. وهكذا يا جدي، كانت القوة التي لا تفنى ولا ترحم ترفس صدورنا أيضاً، لكي تنقذ نفسها من الإنسان وتتابع طريقها بعده. لم تظن أننا كنا نذوي ونقاسي بين البشر؟ كانوا يصرخون: «نرفض الذهاب أبعد من ذلك. أطبقا أجنحتكما ولا تطلقا السهم إلى هذا القدر من العلو. إنكما لا تخافان الله. ولا تستمعان لصوت العقل. اجلسا!». إلا أننا لم نكن نتكلم. بل كنا نعمل. كنا نعمل بأجنحتنا ونشد قوسينا وفتحنا أحشاءنا لنسمح للشيطان بالخروج.

لقد وبخك المفتش العام في توليدو[2] ذات يوم قائلاً: «لا أحب الملائكة التي ترسمها ولا القديسين. فبدلاً من أن تجعل الناس يصلّون، إنها تجعلهم يندهشون. الجمال يزج نفسه عائقاً بين أرواحنا وبين الله».

وضحكت وأنت تفكر بصمت: إنني لا أريد أن أجعل الناس يصلّون. من قال لك إنني كنت أريد أن أجعل الناس يصلّون؟ إلا أنك لم تتكلم.

وشخص آخر، هذه المرة رسام وصديق شخصي، هز رأسه حين رأى «توليدو في العاصفة»[3] وأعلن: «إنك تدوس القواعد. هذا ليس فناً. لقد تخطيت حدود العقل ودخلت مملكة الجنون».

وابتسمت (كيف حدث أنك لم تنفجر غضباً؟) وأجبته: «من قال لك إنني أنتج فناً؟ أنا لا أنتج فناً ولا أهتم للجمال. العقل مقيد خانق لي. وكذلك القواعد. أنا، مثل السمك الطائر، أقفز خارجاً من المياه الآمنة المطمئنة. وأدخل جواً أكثر أثيرية مليئاً بالجنون». صمتُّ لحظة، وتطلعْت إلى توليدو التي رسمتها: ملفعة بغيوم سوداء ومهدمة بالصواعق، وأبراجها وكنائسها وقصورها التي تحررت من أجسادها الحجرية لتظهر من وسط السواد مثل أشباح

---

(2) طليطلة.

(3) لوحة لأل غريكو الذي يخاطبه في هذه الخاتمة بشكل مباشر، والذي أشرنا سابقاً أن الكتاب كله هو تقرير يقدمه كازانتزاكيس إلى جده أل غريكو.

Twitter: @ketab_n

ملفعة ببهاء مقلق. تطلعت إليها وبدأ منخراك يرتعشان وأنت تتنشق رائحة الكبريت. وبعد التأمل لحظة في صمت هتفت متألماً وأنت تنشب أظافرك في صدرك: «أي شيطان في داخلي؟ من أضرم النار في توليدو؟ إنني، فعلا، أستنشق ريحاً مليئة بالجنون والموت، أعني أنها مليئة بالحرية».

الوحيد الذي كان قادراً على فهم السعار القدسي كان شاعراً (ولا أهمية لكونه راهباً أيضاً)، الأب هورتنسيو فيلكس بارافيسينو. رأى الظلمة المخيفة، والصواعق الوحشية والأجنحة الكبيرة والقديسين الذين ذابت أجسادهم عنهم وتحولوا إلى شموع ملتهبة، وأمسك يدك الملطخة بالألوان ذات يوم وقبلها. قال: «لقد جعلت الثلج ذاته يتفجر باللهب. أنت تخطيت الطبيعة. وإن الروح لتبقى متشكلة في دهشتها: أي من الاثنين ـ مخلوق اللّه أم مخلوقك ـ يستحق أن يحيا». وعند نهاية هذه الكلمات بدأ صوته يرتجف.

كنت تستمع باسماً هادئاً للإهانات وللمدائح. وإذا حدث بين حين وآخر أن تظاهرت بالغضب، فإن الغضب يكون عندها عاصفة سطحية على وجهك بينما تبقى الأعماق التحتية ساكنة. ولأنك كنت تعي السر العظيم فإنك لم تكن تحمل أملاً أو خوفاً أو خداعاً عبثياً للنفس. إن البشر يتصارعون مع هذين الشبحين العظيمين، الخير والشر (من يدري ربما كانا وجهين للّه). ويقول الأكثر جهلاً إن الخير والشر عدوان. ويصعد آخرون خطوة أخرى أعلى من ذلك ويقولون إن الخير والشر حليفان. بينما آخرون غيرهم وهم يشملون لعبة الحياة والموت على هذه القشرة الأرضية بنظرة شاملة، فيفرحون للانسجام ويقولون: الخير والشر (واحد).

إلا أننا، يا جدي، واعيان للسر العظيم. إننا نكشفه ومن يهتم إن لم يصدقنا أحد. الأفضل أن لا يصدقونا. الإنسان عاجز. وهو في حاجة إلى العزاءات. وإذا صدق فإن دمه سيتجمد رعباً. أي سر؟ إن هذا الـ (واحد) غير موجود.

ذهبت ذات يوم إلى بيتك في توليدو، يا جدي، لكي أستطيع أنا أيضا أن أرى القديسين والحواريين والنبلاء الذين رسمتهم.

كم خففت عنهم من عبء اللحم وجعلتهم على وشك أن يتحولوا إلى لهب. لم يسبق لي في حياتي كلها أن رأيت لهباً أكثر اضطراماً.

قلت لنفسي: هكذا يُهزم اللحم. وهكذا يتم الحفاظ على الجوهر الثمين من أن يتفسخ. وهو ليس أقدامنا أو أيدينا المصنوعة من الطين، ولا شعرنا الأشقر أو الأسود، بل الجوهر الثمين الذي يكافح داخل هذا الكيس الجلدي، والذي يسميه بعضهم روحاً، ويسميه آخرون لهباً.

لو كنت، يا جدي، لا تزال مكتسياً لحمك لجلبت لك بعض العسل والميزاثيرا[4]

---

(4) نوع من الجبنة شبيه بالجبنة الحلوم.

Twitter: @ketab_n

والبرتقال هدية من كريت. ولجلبت لك أيضاً هاريديموس، عازف الربابة الظريف الذي يضع قطفة الحبق وراء أذنه، لكي يغني لك المانتيندادات التي كنت مولعاً بها:

أدر الدفة وعانق عهدك. وليأت ما يمكن أن يأتي.

من يهتم إذا نجح المشروع أم مات.

* * *

أمامك، عمل، أبحر ولا تخف.

وادفع شبابك من أجله دون أن تذرف دمعة.

* * *

أنا ابن البرق وحفيد هزيم الرعد.

على راحتي أبرق وأرعد. وعلى راحتي أسقط البرد.

إلا أنك قد تحولت إلى لهب. أين أستطيع أن أجدك؟ وكيف أستطيع أن أراك؟ وأية هدية أستطيع أن أجلبها لك، لأجعلك تتذكر كريت وتنهض من القبر؟ للّهب وحده قيمة في نظرك. آه لو أنني أستطيع أن أتحول إلى لهب وأنضم إليك!

منذ سبعة وثلاثين عاماً كنت تجثم على هذا المطل الذي اسمه توليدو. ومنذ سبعة وثلاثين عاماً لابد أنك قد خطوت على هذه الشرفة التي أقف عليها الآن، ورحت ترقب نهر تاغوس الموحل، وهو يجري تحت جسر القنطرة Alcantara ذي القوسين. ترقبه يجري ويتقدم ليصب في المحيط ويتلاشى. وكان عقلك يجري معه، وحياتك كانت تجري أيضاً، وتتقدم لتصب في الموت وتتلاشى.

وخرجت من أعماقك صرخات مريرة متمردة. لم أفعل شيئاً حتى الآن. لاشيء. هكذا رحت تفكر بينك وبين نفسك وأنت تشد قبضتيك (لم تتنهد بل غضبت). لم أفعل شيئاً. ما الذي تستطيع الروح أن تحققه بالألوان والقماش؟ أنا لا يلائمني أن أمكث هنا في نهاية الدنيا لأمزج الألوان وأتلهى بفرشاة وأرسم القديسين والمسيحيين المصلوبين. هذا النقل للصور لا يخفف عن روحي. العالم ضيق. والحياة ضيقة. وضيق هو الله. كان علي أن ألتقط النار ـ النار والبحر والرياح والحجارة ـ كي أبني العالم كما كنت أريده: نداً لمكانتي.

بدأت الشمس تغرب. وصارت الأسطح ذهبية. وأعتم النهر وأطل نجم المساء من الجبل. أشعلت المصابيح في بيتك. وراحت خادمتك المخلصة العجوز ماريا غوميز تعد المائدة. وخطت جيرونيما، الرفيقة العزيزة لساعات نومك وصحوك، إلى الشرفة. ولمست يدك برفق لئلا تخيفك. قالت: حل الظلام الآن. لقد اشتغلت طوال النهار ولم تأكل شيئاً. ألا تشفق على جسدك؟ هيا..

Twitter: @ketab_n

لكنك كنت قد أوقفت خلقك للعالم والتفتَّ إلى كريت. كنت تخطو فوق الجبال الكريتية، فلم تسمع الصوت اللطيف، ولم تحس باليد البيضاء. لم تكن قد بلغت العشرين من عمرك. وكان الجو عابقاً بالزعتر. كنت تغني المانتينادات الثلاث التي أنت مغرم بها، ومنديل ذو أطراف طويلة يطوق شعرك الفاحم وقطيفة وراء أذنك. وكنت ذاهباً إلى دير فرونديسي الشهير لترسم العرس في قانا[5] الذي طلبه منك رئيس الدير.

كان عقلك فائضاً بالألوان الزرقاء والقرمزية والخضراء. وكان العروسان متربعين على مقعدين مرتفعين مزينين بنقوشٍ نسرين مزدوجي الرؤوس. موائد العرس معدة. والضيوف يأكلون ويشربون. وكان عازف الربابة يجلس في وسطهم يعزف على آلته ويغني أغاني الزفاف المرحة. كان المسيح يقوم ـ لقد سكر وتوردت وجنتاه ـ ويضع فلورينا فضياً على جبين العازف..

وبغتة جاءك الصوت الحبيب وكأنه قادم من بعيد. سمعته وأجبت: «إني قادم». وتبعت المرأة باسماً، تلك المرأة التي أعادتك بلطف إلى الأرض. لكن عرس قانا يتوالد في ذهنك. وكانت الربابة الكريتية المرنان ترن وتعول في داخلك. وبغتة بدت الوجبة اليومية مثل وليمة عرس. كنت تحتفظ بعازفين في خدمتك.

واستدعيتهما، أيها العريس، ليعزفا على المزمار والغيتار، وأنت تأكل. لكي يستطيع طعامك المتواضع أن يصبح مأدبة عرس قانا. وحين انتهيت من الأكل نهضت أنت الآخر (تذكرت الصورة التي رسمتها في خيالك) وبكرم نبيل وضعت دوقيتين ذهبيتين على جبيني العازفين.

لقد كنت تعيش مثل لورد. وبما أنك لم تكن تملك إلا الاحتقار للمال فلقد بددت كل ما كنت تكسبه من فنك. كان الأصدقاء والأعداء يعيبون عليك ذلك ويعنفونك. وكانوا يسألونك: ما الذي تفعله ببيت مؤلف من أربع وعشرين غرفة؟ وماذا تفعل بالعازفين؟ لم لا تتنازل بحمل أيقوناتك على ظهرك مثل الآخرين والتجول على الكنائس والأديرة لبيعها؟

كانوا يسمونك صاحب النزوات شامخ الأنف المتعجرف. وكنت تشتعل غضباً إذا ما قيلت في حقك كلمة واحدة. وكنت تتفجر غيظاً إذا ما سئلت كم دوقية تتوقع ثمناً للوحاتك؟ كنت تجيب: لوحاتي ليست للبيع. إنها لا يمكن أن تشترى. إن أعمالاً فنية مثل أعمالي هي خارج منال أية محفظة نقود. إنني، ببساطة، أتركها لديك رهينة. وحينما أشاء سأعيد دوقياتك وأستعيد لوحاتي.

---

(5) قانا قرية في الجليل. قيل إن السيد المسيح قد حضر عرساً فيها. وهناك قام بمعجزة تحويل الماء إلى خمر.

Twitter: @ketab_n

سألك القضاة: «من أين أنت؟ ولماذا جئت إلى توليدو؟ ومن أنت؟»، لكنك قاطعتهم، وقلت: «لست ملزماً بالإجابة. ولن أجيب». إلا أنك حين لم يجبروك نقشت اسمك كبيراً وعريضاً على لوحاتك وفي أسفلها بكبرياء جليل «كريتي».

وحين ذعر الملك فيليب ذو الأنف الثعباني لرؤية القديس موريس الذي رسمته له، عضضت على شفتيك، ولم تتنازل بالتوسل، أو بتخفيف حدة ألوانك. وبدلاً من ذلك حملت وأنت ملفع باللهب غضبك وكبرياءك وفنك العصي معك وانطلقت هارباً إلى توليدو.

كانت لحظة عظيمة. ضمير نقي شريف يقف على كفة ميزان. وأمبراطورية على الكفة الأخرى. وكنت أنت، ضمير الإنسان، الذي أرجح الكفة. سيكون هذا الضمير قادراً على أن يقف أمام اللّه يوم القيامة دون أن يُحكم عليه. بل هو الذي سيحكم لأن كرامة الإنسانية والنقاء والبسالة تملأ حتى اللّه بالرعب.

اعذرني يا جدي لعجزي عن ضبط نفسي. لقد أحسست بإعجاب كبير باللحظة المفعمة بالنبل التي اجتزت فيها العتبة الملكية ورحلت رافع الرأس متخليا عن مكاسب العالم الكبيرة والصغيرة، ومخلفاً إياها وراءك باحتقار، إلى درجة أنني تجرأت على تثبيت تلك اللحظة في الشعر والوزن لكي أمنعها من الفرار. لقد كتبت ثنائياً بحبر أسود وبحبر أحمر وعلقته في الهواء:

ملتفاً على رف صخري تحت اللهب المتأجج
كان الملك ـ الدودة ـ يرقب،
بنظراته المديدة، البنائين
يُعلون ضريحه المعزول المربع
حولهم من كل الجهات.
حجرة وقصر وقبر،
كان الغرانيت القاسي ذو الألوان الفجة
يجأر فظا وعارياً
على الصخر الأجرد.
كان فمه المزبد يتشقق
وكان الوجه الشمعي الأبيض للقاضي الآثم
والجسد الذاوي يتفسخان ببطء ـ
حينما، بغتة، من قمة الجبل
انقض بزعقة مغتبطة

Twitter: @ketab_n

عقابٌ جائع على الهيكل المخدر:
قبل ثلاثين عاماً، كان يفوح نتناً:
ويحس الشاب الوسيم، الكريتي،
بالطائر الصياد ينطلق
من ذهنه لينقض على السلطان.
لا تزال تتردد في صيوان أذنه
لسعة الجلدة المهسهسة المليئة بالنقمة
والتي أخرجته من هيكل أحلامه:
«الملك يرفض القديس موريس!»
اهتز الهواء ورن،
تعالى اللهب من كل صوب،
أسلحة وملائكة،
وتمتد النار إلى الصور
مستغرقة في الله،
الرماح ليالك مشرعة مغتسلة بالشمس،
والزهور تنبثق من الحجارة المحماة،
والتروس مصقولة زمردية ياقوتية،
والضوء يجوس، كالأسد، ويلتهم.
في السماء كان المحاربون الشجعان،
بهياكلهم الضبابية، يزحفون أرتالاً
مثل أعمدة العصف الباكر.
ويعجن الشاب، بأصابع قوية متشنجة،
كتلة من البطم الكريتي الحار
فتتعطر كفه إلى الأبد.
الوقت ظهر. والشمس تسطع على الحجارة.
ويرى حامي الثغور النحيل خلقاً جديداً
يومض في الضوء غير واضح ـ
يظهر شكله سامياً وعارياً.
وكجناح مستقيم ينتشر بقوة محطمة

Twitter: @ketab_n

فيهز، وهو سجين، الديرَ
ومعقلَ البشر الثقيل، الجسدَ الواهي.
وتنفتح على السماء نافذة لازوردية.
الطيور الملائكة، هابطة إلى كير العقل،
وكالتفاحات الذهبية
تتدلى أنباء الملك السوداء،
ومن أعالي السماء الطاهرة
يندفع عقاب العقل،
هابطاً بصمت إلى دماغ الكريتي،
ملاكاً عظيماً، فمه مليء بالنار.
يعبر الأطفال، مثل الجمر بعد مطر المساء،
ويعبر الرهبان والعذراوات
والوردات بخدود غائرة،
والأمهات مكرسات لأبنائهن، آلهتهن.
تتحرق كفاه للبدء
رغبات مبهمة تخنقه،
وبعضات نهمة كبيرة
يعاين قماش اللوحة الأثيري في الهواء.
تسيل الألوان كثيفة وتجيش مرحة
في دماغه قبل أن تتمكن اليد من الإمساك بها.
تندفع الملائكة الباسلة
وأعشاش من النيازك تتفجر على الرؤوس.
وكرايات حربية تعود مزقاً،
تشتعل الرايات في عقله،
تمسك مفاتيح ونيراناً، تلك المحبوبة،
الكأس الكبيرة المزخرفة بأفعى.
ويحس الشاب بالله منحنياً فوقه
وينزل مثل كتل من النار، يزعق وجسده مضحى به على الصليب.
أرض مهتاجة. ومثل لسان أسد

Twitter: @ketab_n

تلعق الرحمة الإلهية الحجارة بنهم.
ويلتف الجمهور الذي لم يولد حول خاصرتيه
في رقصة مرحة رجراجة.
تشتعل أصابعه.
وواحدة بعد أخرى يُشعل الذرى،
رؤوس لهب خافت
على شموع، حجمها ضعف حجم الإنسان.
وببهاء غير دنيوي،
مثل هالة القمر اللؤلؤية،
تومئ إليه قشرة الأرض العليا:
«سأسحب الجسد: دعه يتكسر!
فالله، المغناطيس العالي بين الغيوم،
يجذبني إلى قاعة الرقص الأثيرية الثلاثية.
إلا أن الملك، ذلك العشب الخنزيري السام،
يطردني من خمّ دجاجه الموحش،
إنه يرى الضوء والمخاوف.
عليك اللعنة! وداعاً، ولكن اعلم
أيها المنخل اللحمي، أن الفن
ليس خضوعاً وقواعد
بل هو شيطان يحطم القوالب».
هكذا تكلمز
وبمواجهة الشمس، نحو مخرطة الغرانيت
ثبت عينيه، تينك الجوهرتين الثمينتين القاسيتين،
على المنحدرات العمودية.
تشمم البطم،
فتسللت النمرة المدللة، كريت،
وراحت تجوب ظلمة أعماقه الحالكة.
هموم ثقيلة، ورغبات طموح ورجولية،
تتجاوب في صدره كالطبول

Twitter: @ketab_n

كطنين النحل في الزعتر المزهر
وتدخل فروديسي الحبيبة إلى عقله.
ويتصاعد البخار من بسيلوريتي ملتهباً.
وتسحق المياه الجليدية النبع المرمري.
ينتصب الجسر عالياً.
وتعول الربابة المرنان برقصتها الرشيقة.
تنتقع شفتاه بالبحر، إنه لا يزال قادراً على أن يسمع
ـ أيها الكنز المخبوء ـ
الشماس الزاهد في ميناء كاسترو
قبل أن يبحر
والتحذير المبالغ من مولاه العجوز:
«يا كيرياكوس
لقد كنت ملفعاً بلهب النبوة.
فلا تسقط في شرك الدعة،
لاعِقَ قدورٍ في بلاط ملكي.
اضطرم في دروب لم تسلك وتقدم!»
أيها القلب النزوي،
حين كان الأمل الخداع
يقدم أحلاماً عذبة وخانعة،
لماذا اختبأت
ولم تهمزني بكعبك الغاضب
لتجعلنا نرحل؟
فلنعد يا قلب! لنعد إلى البيت.
هكذا قال.
وكانت روحه تثب كالفهد.
نهضت الوحشة ـ حصناً.
واضطرم اللّه كالنجم على حاجبيه،
وهو يتبعه. التفت يريد الهرب.
وجاءت مانتينادا منغمة

Twitter: @ketab_n

لتقلب موازين إرادته:
أمامك عمل، أبحر ولا تخف.
وادفع شبابك من أجله دون أن تذرف دمعة.
أنا ذرفت دموعاً من أجل شبابي؟ لا. ليس أنا.
إن الصبر يعيقني. كفاني.
لقد خلقنا، أيها القلب،
لننشر جناحي الحرية الأصيلين بعنف
ونهلك في درب سامية.
إننا نحمل في يدنا سيفاً! هو النور.
واجه الشمس متجهاً نحو كريت،
لكي تجد الحرية
والعزلة المقدسة!
وبسرعة ينحرف إلى اليمين
نحو منزل والده في المرفأ البعيد،
ولوحت قمة بسيلوريتي الشامخة
مثل منديل فوق عقله،
وتمدد سهل ميسارا واسعاً ومخضوضراً
بحدائقه الغناء.
إلا أنه يقف على قدميه بغتة.
فقد أمسكت به يدان مخيفتان،
جناحان،
سمع خفق الجناحين و ـ
آه يا للألق الساطع ـ
أُترعت عيناه بالنجوم
وراح لهب روحيٌّ، أخضر وذهبي،
يلفح بسرعة جلدة رأسه
ومعه لفحات كبريتية مبرقة لاذعة.
ويقفز عليه ملاك العرش، الريح الجنوبية الدافئة،
وجناحاه مضمخان بالبطم، يضم الشاب إلى صدره الضخم

Twitter: @ketab_n

ثم يرفس الأرض، وينطلق عالياً
وهو مندفع عبر الأعماق اللازوردية،
يشحب الشاب في الضوء الهتون القاسي.
يشد منديله الكريتي بقوة
وعيناه السوداوان مفتوحتان
وشفتاه مزمومتان بقوة
ثم ينظر الى الشمس المتقدة
التي ذوبت أعمق طبقات الأرض.
جثة تنوّر الضريح
والنمال، البناة، تصقله.
تصفر الهضاب، وتتلوى الدروب.
ينحني على القيدوم الملائكي
ويحصد الضوء، ذروة الرغبة.
نهضت قامة الأرض اللامرئية
لقد ألقاه صدر ملاكه الداخلي
على القمم العذراء،
على الأمل الوحيد للحرية الوحشية،
أسمى ما في هذا العالم،
كريت العليا، الوطن السري.

ظللت طوال النهار أتجول في أزقة توليدو الضيقة. كنت أتنشق رائحة الكبريت في الهواء، وكأن صاعقة قد نزلت. كانت الريح لا تزال لها رائحة الوحش البري بعد أكثر من ثلاثة قرون مرت على عبورك، وكأن أسداً قد سار على هذا الطريق. كم هو مخيف ومغرٍ أن تسير وأنت تحس بروح عظيمة تخفق بجناحيها فوقك مهتاجة!

حينما ذهبت إلى فراشي ليلاً وأحشائي مليئة بأنفاسك يا جدي جاء النوم وحملني بعيداً. أكان نوماً؟ أم كان قارباً ذا ثلاثة صوار بأشرعة مرتفعة؟ اعتليته، وفي اللحظة التي التفتُّ فيها لأسأل القبطان أين نحن ذاهبون؟ كنا قد ألقينا المرساة في ميغالو كاسترو، في كريت. كانت حجارة الأسود الفينيسية المجنحة قد توردت تحت شمس الأصيل. وكانت راية القديس مارك تلوح فوق البرج العظيم. وكان الرصيف عابقاً بروائح الخمر وزيت الزيتون والليمون والبرتقال. والى جانب بوابة المرفأ كانت خمارة جيرونيمو تعج مليئة بالفينيسيين السكارى

Twitter: @ketab_n

وبالبحارة الجنوبيين وبنساء صفيقات يترددن على الواجهة المائية. جلسنا، نحن الاثنين، خلف برميل مائل على جنبه. وجلبت لنا محارات وسرطعانات مشوية كمازة، ورحنا نفرغ كؤوسنا ونملأها مرة بعد أخرى دون أن نتكلم. وكل منا يحدق في عيني الآخر.

كنا شابين. أنت في العشرين، وأنا في السابعة عشرة. وعلى الرغم من أننا كنا نحب الفتاة ذاتها فإننا لم نتشاجر لأننا كنا صديقين لا مثيل لهما. في الليل كان كل منا يغني تحت نافذتها الموصدة مهدئين قلبينا بالمواويل. أنت تحمل مزماراً وأنا أحمل غيتاراً. كان صوتانا يمتزجان. صوتك عميق ورجولي، وصوتي لا يزال غير ناضج. ثم تركنا للفتاة حرية أن تختار من وراء نافذتها الموصدة. افترقنا عند الفجر. أنت لكي تأخذ فرشاتك دون أن تنام، ولكي ترسم ملائكة كباراً مجنحين يميلون خارجين من أطرهم، كما هي عادتك. بينما أنا، المرهق، اتجهت إلى البيت لكي أنام وأحلم بأن النافذة قد فتحت وأن تفاحة حمراء قد سقطت في راحتي.

والآن كان كل منا يحدق في الآخر وسط الحانة دون أن نتكلم؛ لأنك سترحل فجر اليوم التالي. ورحنا نشرب لننسى ألم الفراق.

كان الوقت قبيل منتصف الليل حين نهضنا لنغادر الحانة. كنا نشرب خمرة ماليغيزية لاذعة، وقد تفتّح عقلانا وتفرعا فشملا العالم كله. قلت لك: «العالم لنا يا أخي مينيغي. دعنا نذهب».

تخاصرنا لكي نتساند فلا نتعثر. وأحسست بأنفاسك على خدي. سألت نفسي: حتى متى؟ حتى متى؟ سيأتي الفجر في غضون ساعات قليلة. وسيغادرني النَفَس الحبيب. ولن يقع علي بعدها أبداً! إلا أنني كنت شاباً. فتحملت الألم، ولم تمتلئ عيناي بالدموع.

عبرنا بوابة المرفأ وانعطفنا يميناً. ثم تسلقنا الجدران الفينيسية التي تحيط بالمدينة. بحزن كان البدر معلقاً فوقنا ومكتملاً، وأكبر النجوم وحدها التي كانت قادرة على مقاومة إضاءته. وكانت تلك تشع في السماء الحليبية الساكنة، بينما كان البحر الكريتي يجأر على يميننا.

توقفت أيها الرفيق الحبيب ومددت ذراعك. ثم قلت لي: «انظر. انظر إلى الماء. إنه يهجم لكي يلتهم الجدران ويطرد الفينيسيين. ألا تستطيع أن ترى؟ انظر جيداً ـ هذه ليست أمواجاً يا مينغاكي ـ كان هذا هو اللقب المغيظ الذي لقبتني به ـ إنها خيول، فرقة فرسان رهيبة».

وضحكت: «إنها أمواج يا مينيغي. وليست خيولاً».

هززت كتفيّ: «إنك ترى بعينين طينيتين. أما أنا فأرى بغيرهما. أنت ترى الجسد. أما أنا فأرى الروح».

Twitter: @ketab_n

ـ ربما فسر لنا ذلك لماذا نحن صديقان عزيزان وغير راغبين في الافتراق. هل تود الروح أن تغادر الجسد؟

ذكّرنا هذا بالفراق. فأحسسنا بالإرهاق.

قلت لي وأنت تشد على ذراعي: تعال. لا تتحدث عن الفراق.

ومشينا بعضاً من الوقت تحت القمر. إلا أن ذهنينا تركزا على الفراق. كنا معاً نجهد من أجل أن نحول تفكيرنا لئلا نقع فريسة للدموع. كنا نخجل من البكاء. لقد قرأ كل منا الأساطير المقدسة، وحسد صمود القديسين أمام الألم ـ وعيونهم التي كانت تظل جافة على الرغم من أنهم كانوا يفارقون، والى الأبد، أعز أحبائهم ـ ولقد نذرنا أنفسنا لتقليدهم.

ـ «ما الذي تفكر به؟»، سألتني وأنت تحاول أن تبدد الصمت.

ـ «لاشيء»، أجبتك وأنا أحاول إخفاء مشاعري «صحيح. كم هو هائج هذا البحر الكريتي. هذا ما كنت أفكر به. أما وقد ذكرته الآن فإنني أحس بالرغبة في النزول إلى الشاطىء لقتال الأمواج حتى لو غرقت».

وأجبتني: «يظن الشباب نفسه خالداً. ولهذا فهو يتحدى الموت». وأمسكت بكفي وكأنك كنت تريد أن تمنعني من النزول إلى الشاطئ.

سررت. بدا لي ضغطك على يدي ودوداً جداً. وعلى الرغم من أن ألمي لفقدانك قد تزايد فقد تظاهرت بعدم الاكتراث. واقترحت أن نحول حديثنا إلى المسائل اليومية لكي ننسى للحظة أننا مفترقان.

وسألتك: كيف ستعيش بعيداً في أراض غريبة يامينيغي؟ إنك لا تعرف أحداً. لا أحد تعرفه. ونجمك لم يتألق بعد. والدوقات التي أعطاك إياها أخوك مانوزوس ليست كثيرة. وأنا أعرف مبلغ يتمك وحرمانك. ستنفقها في لمح البصر. وماذا بعد ذلك؟ ألست خائفا؟

وأجبتني: لا تزعج نفسك من أجلي. لا يهم. مهما يكن ما لدي قليلاً فهو كاف. ولا أهمية إن كان كثيراً، فهو ليس كافياً. أتفهم ما أقول؟

ـ لا.

وضحكت مثل طفل: ولا أنا. المهم. تلك هي المسألة.

إلا أنك لاحظت قلقي. وضعت يدك على كتفي وقلت لي لتريحني: لا تهتم يا مينغاكي. لن أغرق. إن في ذهني أهدافاً عظيمة. وفي يدي قوة عظيمة. ولسوف أتنافس مع أرهب القوى هناك في أوروبا حيث أنا ذاهب. لكي أجبر روحي إما أن تفوز أو أن تفنى. سترى. سترى، سترى. وقبل كل شيء سأحسم المسألة ـ لا تنصعق ـ مع ميكيل أنجلو. منذ أيام رأيت نسخة من (يوم القيامة) التي رسمها في روما. وأنا لا أحبها.

Twitter: @ketab_n

كانت عيناك في ضوء القمر تطلقان شرراً. وصار صوتك أجش. انحنيت والتقطت حجراً، وقذفت به إلى البحر، وكأنك كنت تريد أن تدلل على قوتك بمحاجرة الأمواج.

ـ لم تنظر إلي هكذا؟ هل يخيل إليك أنني قد شربت الكثير من الخمرة فسكرت؟ أنا لست سكراناً. لا. أنا لا أحب أن أسكر. هو (الله) يبعث اللحم ويمتلئ العالم بالأجساد من جديد. أنا لا أهتم بأي منها. سأرسم قيامة أخرى. سأفعل ذلك. وعلى مستويين. المستوى الأدنى: القبور. إنها مفتوحة. والديدان بحجم جسم الإنسان تخرج منها قلقة برؤوس مشرعة وكأنها تتنشق الهواء. والمستوى الأسمى: المسيح. المسيح وحيداً تماماً. إنه يطل وينفخ على الديدان فيمتلئ الجو بالفراشات. هذا هو معنى البعث. يجب أن تتحول الديدان إلى فراشات وليس فقط أن تعود إلينا وتتحول إلى ديدان فانية.

رفعت نظري وتطلعت إليك في ضوء القمر السحري. كان الهواء حول رأسك الملتهب معبأ بالفراشات.

كنت أفتح فمي لأتكلم (لقد بدت لي القيامة على غاية من الهرطقة). لكنك كنت قد استفززت وكنت تواقاً لأن تبوح لي بأسرارك في الوقت الملائم. كان الفجر يدهمنا. وكنا مجبرين على الافتراق بعد قليل. لم أصدق أنك كنت تخاطبني بعد ذلك. كنت تتداعى كما تشاء: إنهم يرسمون الروح القدس هابطاً على رؤوس الحواريين بشكل حمامة. يا للعار! ألم يحسوا، أبدا، بالروح القدس؟؟؟ أين وجدوا ذلك الطير البريء الصالح للأكل؟ كيف يقدمون لنا الطائر روحاً؟ لا. الروح القدس ليس حمامة. بل هو نار. نار تلتهم البشر. وتنشب مخالبها في أقحاف القديسين والشهداء والمناضلين العظماء وتحيلهم رماداً. الأرواح الخانعة هي التي تعتبر الروح القدس حمامة. يتخيلون أنهم يستطيعون أن يقتلوها ويأكلوها.

ثم ضحكت: ذات يوم ـ إذا شاء الله ـ سأرسم الروح القدس فوق رؤوس الحواريين. وعندها سترى.

غرقت في الصمت، ثم تحركت بسرعة إلى الأعلى وإلى الأسفل، وكأنك ترسم العنصرة (عيد الخمسين) في الهواء.

وسألتك: «ألا تستطيع تحويل النار الى نور؟»، ثم أسفت على كلماتي فوراً لأن وجهك تجهم. «عليك وعلى هوسك بالنور»، أجبتني وأنت تقطب حاجبيك. الطريقة التي تطلعت بها إلي جعلتني أظن أنك غاضب. «فيم عجلتك؟ هذا ليس من شأنك. هذه أرض وليست غيمة. والأرض مصنوعة من أجساد ذات لحم وشحم وعظام. دعنا نحولها إلى لهب. هذا ما نستطيع أن نفعله. ولا نستطيع أن نفعل أكثر من ذلك. هذا يكفي! إن النار تنام حتى في الجذل[6] وفي ورقة الشجرة وفي أبهى وأنعم الحلل الملكية. تنام وتنتظر من يوقظها. أيقظ

(6) أصل الشجرة الباقي في الأرض بعد قطعها.

النار! هذا واجب الإنسان. إن اللهب يخترق الحجارة والبشر والملائكة، هذا اللهب هو ما أريد أن أرسمه. أنا لا أريد أن أرسم الرماد. آه لو أنني أصل في الوقت المناسب. أنا لا أطلب أكثر من أن أصل في الوقت المناسب. لهذا تراني ألهث وأنا مسرع. أريد أن أصل قبل أن تترمد».

وهتفت: «اهدأ!». أحسست بجسدك متلفعاً باللهيب.

ـ اهدأ يا رفيقي. إنني خائف.

ـ لا تخف يا مينغاكي. النار هي الأم العذراء. إنها تحمل الابن الخالد. أي ابن؟ النور. الحياة مطهر. ونحن نحترق. إن مهمة الجنة أن تتلقى اللهب الذي هيأناه، وأن تحوله إلى نور. فلندع الجنة تفعل ذلك.

وصمتت ثانية ولكن للحظة. ثم قلت: أريدك أن تعرف أن البشر، بهذه الطريقة، يتعاونون مع الله. بعض الناس يقولون عني إنني مهرطق. دعهم. إن لدي كتابي المقدس الخاص بي. وهو يقول ما نسيته الكتب الأخرى، أو ما لم تجرؤ على قوله. إنني أفتحه وأقرأ في سفر التكوين: خلق اللّه العالم. وارتاح في اليوم السابع. وفي هذه المرحلة دعا مخلوقه الأخير، الإنسان، وقال له: استمع إلي يا بني، إن كنت تريد بركتي. لقد خلقت العالم، لكنني أهملت إنهاءه. تركته في نصف اكتماله. أنت تتابع الخلق.

أحرقِ العالم. حوله إلى نار. وأعده إلي. وأنا سأحوله إلى نور.

مع الهواء النقي والحديث الخطير بدأنا نحس بالصحو. جلسنا على صخرة ورحنا نحدق إلى البحر. من جهة الشمس كانت السماء قد بدأت تَبْيَضّ عند حد الأفق. أما تحتنا فكان البحر لا يزال معتماً وصاخباً. وبدا لي حين التفت للحظة، يامينيغي، أنك ملفع باللهيب.

قلت: إنك محقق لا يرحم. تعذب وتقتل الجسد من أجل أن تخلص الروح.

وأجبتني: أنت تسميها روحاً وأنا أسميها لهباً.

ـ إنني أحب الجسد. يبدو لي أن اللحم مقدس. فهو أيضا من الله. ولا تغضب إذا ما قلت لك شيئاً آخر: إن في اللحم بريقاً من الروح. وفي الروح زغب لحمي. وهما يعيشان معاً في توازن منسجم مثل صبيتين صديقتين وجارتين. وأنت تحطم التوازن المقدس.

ـ التوازن يعني الركود. والركود يعني الموت.

ـ ولكن الحياة، في هذه الحالة، رفض دائم. إنك ترفض ما نجح في مقاومة التحلل وفي إقامة التوازن. أنت تحطم ذلك الشيء وتبحث عما هو مشكوك فيه.

ـ بل أنا أبحث عما هو مؤكد. إنني أمزق الأقنعة وأكشط طبقات اللحم. أقول لنفسي إن شيئاً ما خالداً موجود تحت اللحم. ولا يستطيع أن يكون من نوع آخر. هذا ما أبحث عنه.

Twitter: @ketab_n

وهذا ما سأرسمه. وما تبقى كله ـ اللحم والأقنعة والجمال ـ أقدمه بسرور إلى تيتيان وتنتوريتو[7] وأرجو أن يستمتعا به.

ـ تريد أن تتجاوز تيتيان وتنتوريتو؟ لا تنس المانتينادا الكريتية: إذا بنيت عشك عالياً جداً سينكسر الغصن.

وهززت رأسك: لا. أنا لا أريد أن أتجاوز أحداً. أنا وحيد ومهجور.

ـ إنك معتز جدا بنفسك يامينيغي. مثل لوسيفر.

ـ بل أنا وحيد جداً.

ـ انتبه يا صديقي العزيز. فاللّه يعاقب الصلف والاعتزال.

ودون أن تجيب ألقيت نظرة على البحر الصاخب. ثم نقلت نظرك إلى المدينة التي كانت بعد نائمة. كانت أول الديوك تصيح، فنهضت. قلت: تعال. إنه الفجر.

خاصرتني من جديد وتابعنا سيرنا. كنت تغمغم ببعض الكلمات وتفتح فمك ثم تغلقه. من الواضح أنك كنت ترغب في الكشف عن شيء ما. إلا أنك كنت متردداً. وأخيراً لم تعد قادراً على السيطرة على نفسك: مينيغاكي. ما سأقوله لك محزن. اعذرني. تستطيع أن تقول إنني سكران.

ضحكت: بما أنك سكران فإنها فرصتك الكاملة لأن تقول ما تمتنع عن قوله حين تكون صاحياً. إنها الخمرة الماليغيزية وليس أنت. حسن؟

وتَجَاوَب صوتك غاية في العمق والمرارة في ذلك الفجر الشاحب: ذات يوم سألت الله: متى ستغفر للوسيفر يا مولاي؟ وأجابني الله: حين يغفر لي. هل تفهم يا صديقي الشاب؟ إذا سئلت يوماً من هو أعظم معاوني الله؟ عليك تقول إنه لوسيفر. وإذا سئلت من هو أكثر مخلوقات اللّه حزناً؟ فقل إنه لوسيفر. وأخيراً إذا سئلت من هو الابن الضال الذي ينتظره أبوه بذراعين مفتوحتين والذي قتل العجل المسمّن؟ فقل إنه لوسيفر. إنني أكشف لك عن أسراري الخبيئة لأنني أريدك أن تعرف أنني إذا تأخرت أو عجزت عن إنجاز كل ما أنوي إنجازه فعليك أنت أن تتابع النضال. تابعه دون خوف ولا تنس الوصية الوحشية التي يوصي بها الكريتي للكريتي: اسفح شبابك من أجله ولا تذرف دمعة. هذا هو ما يعنيه أن تكون رجلاً: أن تكون شجاعاً بحق: باليكاري (قبضاي). و تلك هي الرغبة القصوى للّهب المقدس. هل تعدني؟ أتستطيع القيام بذلك؟ ألن تهن شجاعتك؟ ألن تتطلع وراءك لتقول: إن الرفاه أمر جميل. وكذلك عناق امرأة. وكذلك المجد. لم لا تتكلم؟

(7) رساما إيطاليان.

Twitter: @ketab_n

ـ المهمة التي تعهد بها إلي ثقيلة يا مينيغي. ألم يكن من الممكن جعل واجب الإنسان أقل مرارة بقليل؟

ـ نعم. ولكن ليس لك، أو لي. هناك ثلاثة أنواع من الأرواح، ثلاثة أنواع من الصلوات. الأولى: أنا قوس في يديك يا مولاي، شدني لئلا أتفسخ. والثانية لا تشدني كثيراً يا مولاي لئلا أتحطم. والثالثة: شدني كثيراً فمن سيهتم إن تحطمت.

فاختر بينها!

* * *

استيقظت. كانت أجراس الكنيسة المجاورة، سانتو تومي، تقرع لصلاة الصبح. لقد بدأ النهار. وتجاوبت أصداء الصرخات في الشارع، وفرقعت كعوب النساء على حجارة الشارع، وصاح ديك فتي بصوت أجش في صحن الدار. كانت توليدو تستيقظ. وكان حلمي لا يزال معلقاً على أجفاني. كنت لا أزال قادراً على سماع الكلمة الأخيرة التي لا ترحم. تلك التي ملأتني رعباً وهزتني فأيقظتني من نومي: اختر!

كم من الوقت يا جدي الحبيب ـ ومضة أم ثلاثة قرون ـ قد مر منذ تلك الليلة التي نمت فيها في توليدو. وأنت، حين أحسست بوصول كريتي إلى جوارك، نهضت من قبرك وتحولت إلى حلم وجئت تبحث عني؟ ومن الذي يستطيع أن يميز في جو الحب بين اللحظة والأزل؟ لقد انسلت حياة كاملة منذئذ. ابيضَّ الشعر الأسود وغارت الأصداغ ووهنت العيون. ولم أستطع، أبداً، أن أقرر بين يدَيْ مَنْ، اللّه أم الشيطان، كان القوس يطقطق. لكنني فرحت لإحساسي بقوة، أعظم وأنقى من قوتي بكثير، تثابر على تزويدي بالسهام ومساعدتي على الإطلاق. إن الخشب كله من الصليب الحقيقي لأن الخشب كله يمكن أن يصنع صليباً. وكذلك فان الأجساد كلها مقدسة لأن الأجساد كلها يمكن أن تصنع قوساً.

لقد كنت طوال حياتي قوساً بين يدين قاسيتين نهمتين. وكم من المرات شدتني بها هاتان اليدان الخفيتان وبالغتا في شدي حتى سمعت الطقطقة التي تنذر بالانكسار. وفي كل مرة كنت أصرخ: «فليتكسر!». ففي النهاية أنت الذي أمرتني أن أختار يا جدي. ولقد اخترت.

اخترت. الشفق يلقي بسديمه على رؤوس التلال. والظلال قد استطالت وامتلأ الهواء بالموتى. إن المعركة توشك على الانتهاء.

هل انتصرت؟ أم هزمت؟ الشيء الوحيد الذي أعرفه هو: إنني مثخن بالجراح. وأنا لا أزال واقفاً على قدمي.

مثخن بالجراح. وكلها في صدري. لقد فعلت ما استطعت يا جدي. وأكثر مما كنت

Twitter: @ketab_n

أستطيع. تماماً كما أمرتني. لم أكن أريد لك أن تخجل بي. أما وقد انتهت المعركة فإنني آتٍ لأضطجع إلى جانبك. ولأصبح تراباً إلى جانبك. لكي ننتظر معاً يوم الدينونة.

أقبل يدك يا جدي.

أقبل كتفك اليمنى. وأقبل كتفك اليسرى.

جدي!

مرحبا!

Twitter: @ketab_n

الفهرس

كتابة «تقرير الى غريكو» 5
تقديم 9
تمهيد 11
1 ـ الاسلاف 17
2 ـ الأب 23
3 ـ الأم 26
4 ـ الابن 33
5 ـ المدرسة الابتدائية 42
6 ـ موت جدي 51
7 ـ كريت تواجه تركيا 55
8 ـ أساطير القديسين 59
9 ـ التوق إلى الطيران 63
10 ـ مجزرة 72
11 ـ ناكسوس 78
12 ـ الحرية 88
13 ـ متاعب النضوج 92
14 ـ الصبية الإيرلندية 107
15 ـ أثينا 111
16 ـ العودة إلى كريت ـ كنوسوس 118

Twitter: @ketab_n

17 ـ الحج عبر اليونان 130
18 ـ إيطاليا 149
19 ـ صديقي الشاعر ـ جبل آثوس 159
20 ـ القدس 199
21 ـ الصحراء ـ سيناء 218
22 ـ كريت 259
23 ـ باريس ـ نيتشه ـ الشهيد العظيم 270
24 ـ فيينا ـ مرضي 290
25 ـ برلين 305
26 ـ روسيا 337
27 ـ القوقاز 363
28 ـ عودة الابن الضال 373
29 ـ زوربا 382
30 ـ حين أثمرت في داخلي بذرة الأوديسة 395
31 ـ النظرة الكريتية 413
32 ـ خاتمة 424

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نيكوس كازنتزاكس

تقرير إلى غريكو

(سيرة ذاتية فكرية)

«تقريري إلى غريكو» ليس سيرة ذاتية. فحياتي الشخصية لها بعض القيمة، وبشكل نسبي تماماً، بالنسبة لي وليس بالنسبة لأي شخص آخر. والقيمة الوحيدة التي أعرفها فيها كانت في الجهود من أجل الصعود من درجة إلى أخرى للوصول إلى أعلى نقطة يمكن أن توصلها إليها قوتها وعنادها؛ القمة التي سميتها تسمية اعتباطية بـ «الإطلالة الكريتية».

كانت هناك أربع درجات حاسمة في صعودي. وتحمل كل منها اسما مقدساً: المسيح، بوذا، لينين، أوليس. ورحلتي الدامية بين كل من هذه الأرواح العظيمة والأرواح الأخرى هي ما سوف أحاول جاهداً أن أبين معالمه في هذه «اليوميات»، بعد أن أوشكت الشمس على المغيب ـ إنها رحلة إنسان يحمل قلبه في فمه وهو يصعد جبل مصيره الوعر والقاسي. فروحي كلها صرخة. وأعمالي كلها تعقيب على هذه الصرخة.

طوال حياتي كانت هناك كلمة تعذبني وتجددني، وهي كلمة «الصعود». وسأقدم هذا الصعود. وأنا أمزج هنا الواقع بالخيال، مع آثار الخطى الحمراء التي خلفتها ورائي وأنا أصعد. وإنني حريص على الانتهاء بسرعة قبل أن أعتمر «خوذتي السوداء»، وأعود إلى التراب. لأن هذا الأثر الدامي هو العلامة الوحيدة التي ستبقى من عبوري إلى الأرض.

فكل ما كتبته أو فعلته كان مكتوباً أو محققاً على الماء، وقد تلاشى.

@ketab_n

لوحة الغلاف: كاندنسكي

المركز الثقافي العربي
ص.ب.: ٥١٥٨ / ١١٣ بيروت ـ لبنان
ص.ب.: ٤٠٠٦ ـ الدار البيضاء ـ المغرب